

I.B. TAURIS

تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

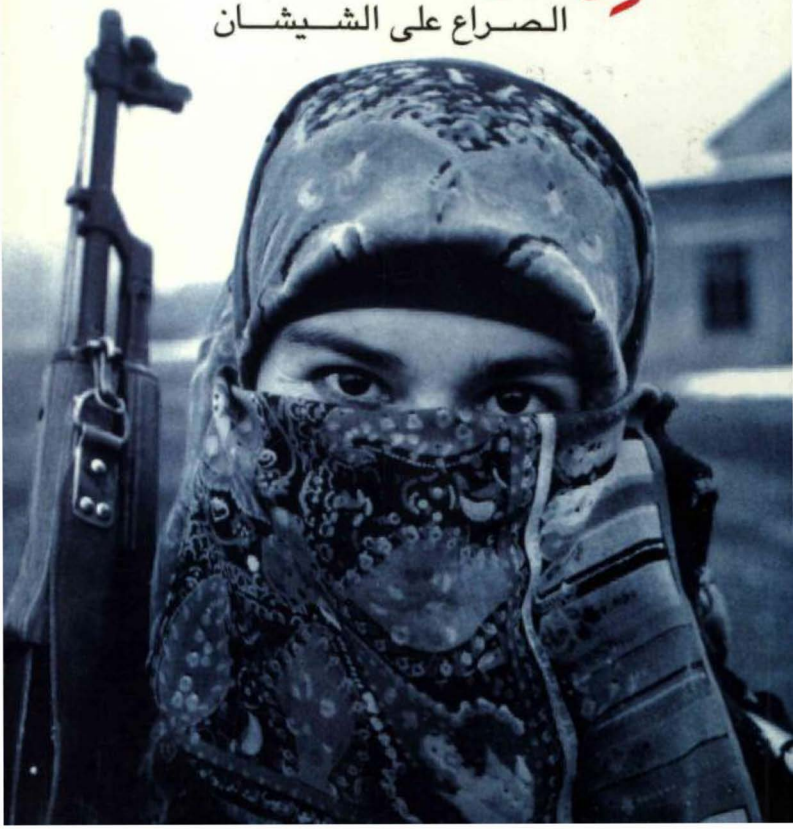
الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



سيباستيان سميث

جَبَالُ اللَّهِ

الصراع على الشيشان



منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

جبال الله

الشيشان



يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

ALLLAH'S MOUNTAINS

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Tauris Parke Paperbacks

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم

Copyright © 1998, 2001, 2006 Sebastian Smith

All rights reserved

Arabic Copyright © 2007 by Arab Scientific Publishers

جبال الله

الشيشان

تأليف

سيباستيان سميث

ترجمة

مروان سعد الدين



الدار العربية للعلوم - العشرون نهج
Arab Scientific Publishers, Inc. ٢٠١

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي
والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى
بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

رقمك 9953-29-138-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم - ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc. LLC

عن التينة، شارع المغني توفيق خالد، بناية لريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 5574-13 شولن - بيروت 1102-2050 - لبنان

فكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم - ناشرون م. ل.

التصميم وفرز الألوان: ليجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

سياستيان مميث مؤلف وصحفي حاز على جوائز عديدة. وعمل مراسلاً في واشنطن، وموسكو ولندن للقسم الناطق بالإنكليزية في وكالة الصحافة الفرنسية، وهو يعيش ويعمل حالياً في جورجيا.

المحتويات

9	عرفان وشكر
11	خرائط
17	مقدمة
47	تمهيد
53	الفصل الأول: المنطقة المتشابكة
89	الفصل الثاني: نيران الحرية
141	الفصل الثالث: المتشابكة المخرأة
211	الفصل الرابع: الذئب الشيشاني
245	الفصل الخامس: الغضب
417	الفصل السادس: البحث عن الفردوس

الخرائط

خارطة 1: جنوب روسيا والقوقاز

خارطة 2: مدى الاحتلال الروسي في العام 1800

خارطة 3: خطوط نقل النفط والغاز الحالية والمقترحة

خارطة 4: المجموعات الاثنية في شمال القوقاز

خارطة 5: الشيشان خلال حرب 1994 - 1996

خارطة 6: غروزي

عرفان وشكر

أول الناس الذين أدين لهم بالشكر هم الشيشانيون الذين خاطروا بحياتهم لحماية حياتي، أو لمساعدتي في الحصول على القصة لو كالة الأبناء التي أعمل لها، وهو عمل كان دون مقابل في أغلب الأحيان. في تقليد قوقازي حقيقي، تجاهل كثير من هؤلاء الناس صعباً كبيرة لتقلم المسكن والطعام لي.

أسماء بعض هؤلاء الناس موجودة في هذا الكتاب، لكن ليس جميعهم. وأخص بالشكر موسى داميف من شالي، سلامو تورلايف من نوفي تسيتروي، خازداد باتيف وموفالدي يرمولايف من هامونت، علي عطيف من ستاري أكخوي، إسلام غونايف من حاجي يورت، يوسف من سيرزين يورت.

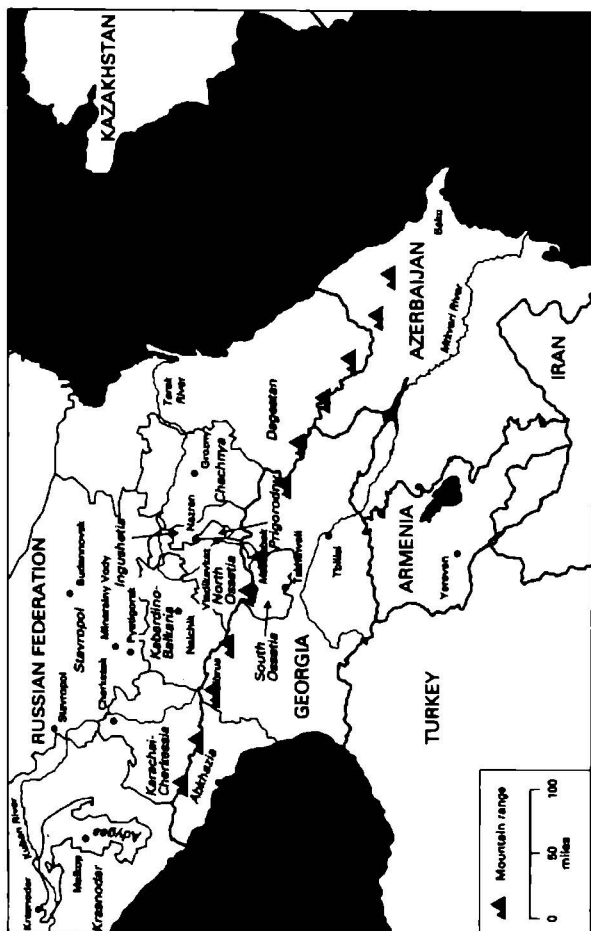
وأعبر عن عميق امتناني لكل أولئك الذين ساعدوني في أجزاء أخرى من شمال القوقاز، والذين أحاطوني بحفاوة بالغة، بالإضافة إلى العديد من الأكاديميين والمسؤولين الرسميين الذين خصصوا لي بعضاً من وقتهم. وأخص بالذكر: في داغستان، سيد خايتوف من نوفوسيلسكوي، ناتاشا ستويانوف من ماكاشكالا وغيسين غازمما كوميدوف في غريمي، في أنغوشيا، بوريس خانييف؛ في أوسيتا الشمالية، أناتولي إيزايكو في جامعة فلاديفقاز وفلاديمير شاكبازيدي في الجامعة الإغريقية؛ وفي كاباردينو - بالكاريا، قدير جمال وعائلته في الجبال؛ في كاراشاي - شركسيا، القائد كازيبك شومايف والملا كازيبك شاماتيف، رسول وأصدقائه في أدغيا، حمزة كازانوف، أصلان، ألمير إبيرغوف مدير المتحف، أميري كولوف مدير فرقة الرقص القومي، وأيضاً كادر صحيفة سيفرني قفقاز، خصوصاً تاتيانا ماغنياكوف في شركسك.

وأعرب عن عميق امتناني لكل من ساهم في هذه المخطوطة: أندرو هاردينغ، جيمس ميك، غاري سكوت وأنطوني سميت. وأشكر أيضاً آنا - ماريا بورا،

لورنس بيتر، أندري بيونتكوفسكي ودمتري ترينون لإبداء ملاحظاتهم على هذا النص، ووكالة الصحافة الفرنسية وصحيفة "موسكو تايمز" لسماحهما لي باستخدام أرشيفيهما، ومركز دراسات الطاقة العالمي وفيليب أرمسترونغ لتزويدي بالخرائط.

وأشكر أيضاً مديرتي في وكالة الصحافة الفرنسية باولا ميسانو التي منحتني الوقت الكافي للكتابة، وفرصة غير محدودة للعمل في الشيشان؛ وإلى ناتاشا فيرويدر لمساعدتي على إيجاد ناشر لكتابي؛ وإلى مارينا لاينكوفافالانتينا بليوفا لتعليمي الاستمتاع بالشتاء الروسي؛ وإلى المرحوم بيتر براتسروب وإلى جاك نيس أسني سرستاد لتشجيعهما المبكر لي؛ وإلى زملائي الصحفيين في الشيشان الذين ذكرت أسماء بعضهم في هذا الكتاب، ولكن ليس كلهم، لصحبتهم ودعمهم؛ وأخيراً إلى أنا عناية التي تعمل لدى دار النشر آي. بي. توريس لعنايتها بالكتاب وصبرها اللا محدود على إعادة الكتابة والتأخير في إصداره.

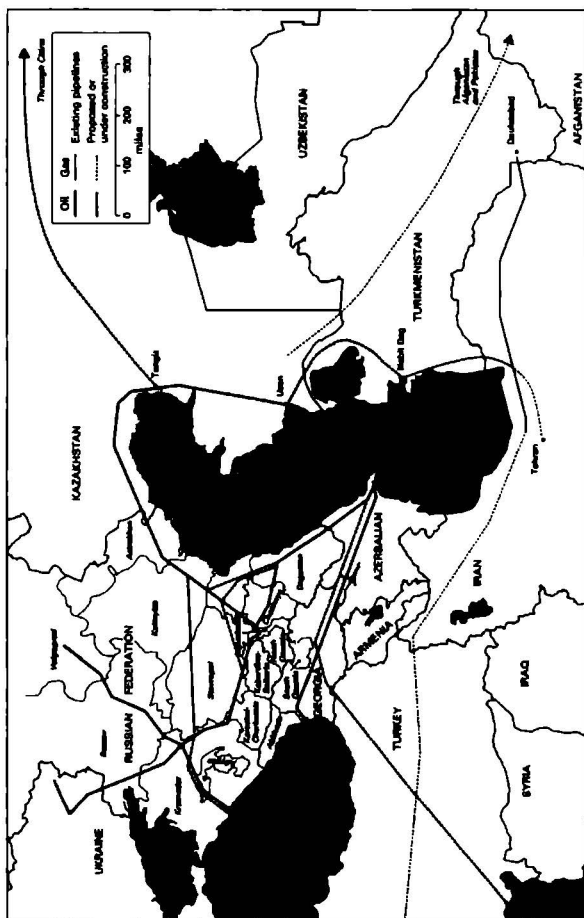
لم يكن بالإمكان تأليف هذا الكتاب دون الاستعانة بالأعمال المنشورة سابقاً، والمذكورة في قائمة المؤلفات، لكنني أدين بشكل خاص إلى مجمل أعمال ألكسندر بينسن وإس. إيندرز وبمبوش حول الإسلام في ظل الاتحاد السوفياتي؛ وإلى روبرت كونكويست لتسجيله الدقيق لعمليات الترحيل في قتل الأمة؛ وإلى ماري بينسن بروكسب لكتاهاا حاجز شمال القوقاز، والذي يمثل رؤية كلاسيكية للمنطقة؛ وإلى موش غامير لبحثه التاريخي المفصل عن عهد الإمام شامل في كتابه المقاومة الإسلامية للقيصر. ولفهم تاريخ حروب القرن التاسع عشر، لا يوجد أفضل من كتاب جون إف. باديلسي بعنوان الغزو الروسي للقوقاز. ولفهم طبيعة الآراء المتعارضة، لا يوجد أفضل من عملي تولستوي بعنوان حاج مراد والقفقازي، وعمل ليرمنتوف بطل من زماننا. ولفهم أفضل لعالم ليرمنتوف، أدين بالشكر للورنس كيللي لعمله ليرمنتوف. مأساة في القوقاز.



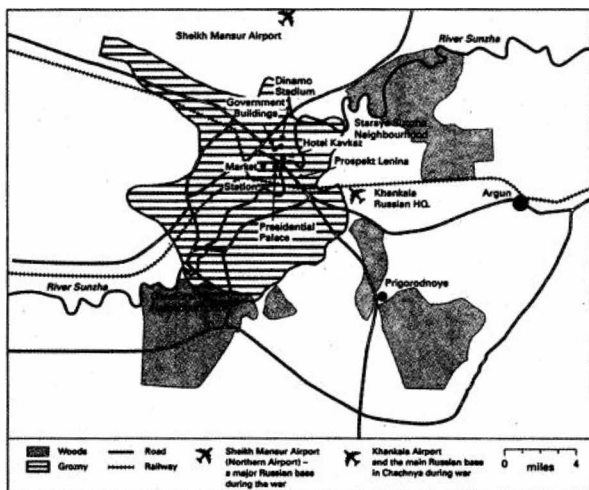
خارطة 1: جنوب روسيا والقوقاز



خارطة 2: مدى الاحتلال الروسي في العام 1800



خارطة 3: خطوط نقل النفط والغاز الحالية والمقترحة



خارطة 6: غروزي

مقدمة

وصف ليون تولستوي منذ ما يزيد عن 100 سنة في حكاية قصيرة بعنوان حاج مراد اشتباكاً بين الجنود الروس والمهاجرين الشيشان. بدأت الأحداث عندما رصدت القوات الروسية المتمركزة على حدود إحدى الغابات حفنة من المقاتلين الشيشان على صهوة خيولهم، وتبادلت إطلاق النار معهم حتى تراجع الشيشانيون إلى داخل الغابة. في هذا الاشتباك القصير، الذي اعتبره ضباط الجيش رياضة لهم، أصابت رصاصة قاتلة جندياً روسياً؛ فيما لم يتعرض الشيشانيون لأي إصابات عققة. لقد كان هذا الاشتباك غير ذي أهمية من الناحية العسكرية. إلا أن تولستوي يقول إنه عند تقلب التقرير إلى القيادة العسكرية، تمّ تضخيم الحدث إلى معركة بطولية: هجوم من قوات شيشانية كبيرة، وهجوم روسي معاكس بحراب البنادق مخمّض عنه هزيمة العدو. "وفي سياق هذه الأحداث، أصيب جنديان بجراح بسيطة، وقُتل جندي آخر"، كما يقول التقرير. كانت خسائر الجبلين حوالى مئة قتيل وجريح.

كان تولستوي، الذي خدم في الشيشان، يعرف الموضوع الذي يكتب حوله. وفي حاج مراد، التي تجري أحداثها في القرن التاسع عشر، قدّم تولستوي وصفاً للأكاذيب التي نخدم جيشاً إمبراطورياً بطريقة مؤثرة. لهذا نتساءل ما الذي يمكن فعله لجسر الفجوة بين الحقيقة ووجهة النظر الرسمية في حرب الشيشان المعاصرة؟

انقضى أكثر من عقد منذ أمر الرئيس بوريس يلتسن الجيش الروسي بإحكام السيطرة على الشيشان و"استعادة النظام الدستوري". ومرّت أكثر من خمس سنوات منذ أن أرسل فلاديمير بوتين الجيش مرة أخرى إلى الشيشان بهدف حماية روسيا من الإرهاب.

ويبدو أن هناك أهدافاً رسمية متفطرة وراء ما يسمّى بالحرب الأولى (1994 - 96) والحرب الثانية (1999 - لغاية اليوم). وبكل الأحوال، أتت النتائج معاكسة تماماً. وعوضاً عن أن تكون مكاناً للنظام الدستوري، أو أي نظام آخر، تحولت الشيشان لتصبح غيتو (حي مغلق) غير خاضع لسيطرة القانون. يستطيع الجنود وأفراد الشرطة هناك الحصول على مكاسب غير مشروعة، والقيام بجرائم الاغتصاب والقتل وهم واثقون تماماً من الإفلات من العقاب. كانت فصائل الثوار الشيشانيين تنسف المدنيين الذين يصدّف وجودهم بالقرب من الأهداف العسكرية. لقد استغنت تلك الفصائل تدريجياً عن مهاجمة القواعد العسكرية، وأصبحت تستهدف المدنيين بكل بساطة. بالمقابل، يشكّل الشيشانيون وحدات غير نظامية مناهضة للكرملين، تقوم بتعذيب وخطف شيشانيين آخرين، وغالباً ما يكونون رفاق سلاح سابقين في فصائل الثوار.

فيما يخص حماية روسيا من الإرهاب، أثارت حرب الرئيس بوتين موجات اعتداء لا سابق لها: إسقاط طائرة ركاب مدنية، عملية احتجاز رهائن كبيرة في مسرح موسكو، انفجارات في قطارات أنفاق موسكو، وحمام دم في مدرسة بيسلان. إذا استطعنا تعريف الإرهاب بأنه عنف ضد المدنيين لتحقيق أهداف سياسية وعسكرية، عندها سيكون معظم ما اقترفه الجيش الروسي في الشيشان في خانة هذه القائمة الشريرة. لقد أظهرت دراسة حديثة قامت بها منظمة أطباء بلا حدود أن الشيشانيين يعانون من بعض أعلى معدلات الأذيات النفسية في العالم. تقول الدراسة إن 9 من كل 10 أشخاص فقدوا عزيزاً لهم في الحرب، وأن 1 من كل 6 شاهد موت قريب له. إن 80% شاهدوا أشخاصاً يتعرضون للإصابة. كما أن ثلثي السكّان قالوا إنهم لا يشعرون بالأمان أبداً، وتعرض كل من جرى استطلاع رأيه تقريباً إما لقصف جوي بالقنابل أو لإطلاق النار. إرهاب: إنها الكلمة المناسبة.

وفقاً لتقديرات مختلفة موثوقة، لقي ما يزيد عن 100.000 شيشاني مصرعهم في العقد الأخير، وفقد مئات آلاف آخرون منازلهم في أوقات مختلفة، أو تمّ إجبارهم على النزوح، علماً أن عدد السكان لا يتجاوز المليون نسمة. لقد

تحوّلت غروزني، التي وصل عدد سكانها إلى 450.000 نسمة - وكانت واحدة من المراكز الرئيسية لمصافي البترول في الاتحاد السوفياتي السابق - إلى أنقاض مخيفة. ويترك البترول المنسكب على الأرض، والإشعاع، والألغام الأرضية، والقذائف التي لم تنفجر والغابات المدمّرة آثارها وتسبب بتسميم الطبيعة في الشيشان. في تقديرات واقعية غير رسمية، قُتل أكثر من 20.000 جندي روسي.

رغم كل ذلك تظهر الشيشان الآن على شاشات التلفزة الروسية، التي يسيطر عليها الكرملين بزعامة الرئيس بوتين، مكاناً هادئاً ومسالماً. ومن النادر الإشارة إلى المقاومة للقوات الروسية، وكل ما يظهر الآن هو قصص تولستوي الناجحة حول قِطّاع الطرق "الذين يتمّ التخلص منهم" ومكائد الإرهابيين التي يتمّ إحباطها. أعتقد أن وسائل الإعلام الروسية والشيشانية تحتضن بحماسة كل من الفيدرالية الروسية والرئيس بوتين نفسه. وفي حال قبول هذا المبدأ، سيصدق المرء التقارير الرسمية بأن الشيشانيين صوّتوا بشكل صريح وكامل لصالح دستور يدمج بلادهم ضمن روسيا. ويعتقد المرء أن الشيشانيين سارعوا إلى مراكز الاقتراع مثل الرئيس أحمد قاديروف، المفتي السابق للثوار، والذي تحوّل إلى جانب الروس حالما بدأت حرب الرئيس فلاديمير بوتين. (قاديروف - الذي كان في الحقيقة مكروهاً، وتخافه ولا تثق فيه كل الأطراف في الشيشان - اغتيل في صيف العام 2004). من المنطقي أن يعتبر المرء انتقال معظم مراكز قوة قاديروف إلى ابنه رامزان أمراً طبيعياً، وهو يحب رياضة الملاكمة، ويتمه ناشطو حقوق الإنسان بأنه أحد أبرز ممارسي التعذيب في الجمهورية.

في أواخر سنة 2004، كانت وسائل الإعلام تقدّم صورة للشيشانيين فيها الكثير من الولاء والمحبة للفيدرالية الروسية. وعلى الرغم من عزل الحكومة التي نصبتها روسيا في الشيشان، إلا أن البلد نعم بالسلام، وبصناعة فيلم فيه وبناء استاد لكرة القدم، وما سّمّاه رئيس الوزراء سيرجي أبراموف "عالم ديزني"، والذي كان من الواضح أنه ليس سوى حديقة مائية في غودرميز. وللاحتفال برأس السنة الميلادية الجديدة، قام الرئيس فلاديمير بوتين شخصياً بتقليد رامزان قاديروف ميدالية بطل روسيا، والتي تعتبر أسمى الميداليات في الجمهورية الروسية.

في ذلك الوقت، وبعد 10 سنوات من زحف الدبابات باتجاه غروزني، قمت بزيارة إلى الشيشان، وكنت زرت هذا البلد ثلاث مرات من قبل. وكنت أعرف عاصمته جيداً، وشهدت خلال العقد الماضي مراحل مختلفة من مأساتها البطيئة الحركة. ورغم ذلك، وجدت نفسي في مكان لم أستطع التعرف عليه إلا بصعوبة. لم تكن غروزني بالتأكيد تلك المدينة المنهكة المدمرة، وكانت لا تزال تؤدي دور المركز الإقليمي لما يعرف بالاتحاد السوفياتي السابق والتي سبق وشاهدتها سنة 1994. ولكنها لا تشبه أبداً ساحة المعركة الشرسة التي عرفتتها فيما بعد. لقد أصبحت غروزني منطقة غسق - المكان الذي تصبح فيه تعاريف الحرب والسلام مبهمة، وكل الولاعات مشكوكاً بها، كما أن المتقاتلين أنفسهم لا يملكون أهدافاً واضحة. حقيقة قيامي بزيارات سابقة لم تقلل صدمة مشاهدة حالة المدينة المرعبة. في الساحة المركزية، وهي المنطقة التي كانت مكتظة سابقاً بالمباني الرسمية، والجامعة، والمباني السكنية الكبيرة، والشوارع والحدائق الرئيسية، لم يبقَ حجر على حجر. لقد دُمِّرَها القنابل والقذائف، ثم سَوَّها الجرافات بالأرض. تحوّل ما كان يعرف بقلب المدينة إلى صحراء. من هذه المنطقة اتسع الدمار أميالاً ليشمل المصانع المهدامة، ومساحات شاسعة من المنازل المحطّمة، والمباني السكنية الخاوية على عروشها، وصولاً إلى المواقع الطبيعية الريفية التي لم يعد أحد يمرّ على دخولها خوفاً من القنابل والألغام.

الحشود الوحيدة التي قد تشاهدونها هي تلك الموجودة في ساحات شبيهة بساحات ستالينغراد. لم تمنع الحرب الشيشانيون أبداً من العمل في التجارة، وفي مكان لا توجد فيه محال، إذ يُمَثَّل السوق في الهواء الطلق بأسلوب حياة لهم. لكن حالما يحل الغسق، تغادر هذه الحشود إلى القرى، وتصبح غروزني مظلمة، ساكنة وخطيرة. وفي تقديري، الذي وصلت إليه أثناء القيادة في الليل واحتساب النوافذ المضاعة، يعيش الآن عدد لا يزيد على ثلث السكان أو 15.000 بشكل دائم فيها، فيما كانت سابقاً أكثر المدن أهمية في القوقاز.

يتحدّث الرسميون في موسكو، وتابعوهم في الشيشان عن برامج إعادة البناء، لكن في الحقيقة لم تنجز هذه المشاريع على مدى عشر سنوات أي شيء تقريباً عدا

إثراء أولئك القائمين عليها. في غروزني، يبدو عدد المباني التي أُعيد بناؤها قليلاً جداً مقارنةً بأنقاض المباني التي تبلى واضحة للعيان. لقد استطعت مشاهدة اثني عشر مبنى جديداً فقط، وفيما عدا بعض الاستثناءات، جميعها ثكنات ومكاتب للقوى الأمنية، ومؤسسات تخدم الصناعة النفطية أو شركات الكهرباء والغاز، والتي عمد الشيثنانيون التعماء بأسباب الحياة. تعتبر غروزني أثراً حياً ليس فقط عن القوة التدميرية للجيش الروسي، لكن عن عجز الدولة الروسية على إعادة بناء السلام.

أثناء السير عبر هذه الأرض البور، اكتشفت الموقع السابق للقصر الرئاسي وحديقة الأزهار الملحقة به. وعلى الطريق، كان هناك فيما مضى فندق القفاز، وهو مبنى غريب، طرازه نصف - سوفياتي، نصف - شرقي، كنت أقمت فيه قبل الحرب. كان هناك المصرف الوطني، والبرلمان ووزارة الأمن الداخلي. واليوم لم يتبق سوى الوحل على جانبي الأسفلت الذي يحدد مكان الطريق، والأرصفة، والساحات والمباني التي كانت تشرف عليه. مرّت بقرية شابة، سألتها هل تذكرين القصر الرئاسي؟ لقد كان هذا مركز قيادة جوهر دوداييف والحكومة الانفصالية الأصلية، إضافة إلى أنه كان مسرحاً لمعركة ملحمة كانت باكورة الحرب الأولى. أجابني الفتاة "لا فكرة لدي" كانت في السادسة عشر من عمرها، أي أن عمرها لم يكن يتجاوز السادسة عندما بدأت الحرب.

وجدت بالقرب من ذلك المكان امرأة، وهي نموذج معبر عن ربوات البيوت الشيثنانيات المشاكسات. كانت تجمع الماء. وهذا يعني جرّ حمولة عربية من القوارير والجرار إلى صنوبر مكسور، ثم جرّ العربية إلى المنزل، حيث يتوجب عليها غلي الماء. لم يعد يتوفر الماء بشكل دائم سوى في أجزاء قليلة من الشيثنان. وليست الصنابير، والمغاسل والحمامات، كما الهواتف وصناديق القمامة، سوى تذكارات عن حضارة منسية. (لكن نقص الماء لم يُعق بناء الحديقة المائية في غودرميز).

تمتلك هذه المرأة، بكل الأحوال، شيئاً قيماً: الذاكرة. قالت: "هناك، كان يوجد الصاغة. وكانت هناك مدرسة موسيقى. وكانت هناك جامعة، وكانت هناك مبان سكنية...". وفي كل مرة كانت تُشير إلى مساحات فارغة. قالت إن الماء الذي يتدفق من الصنوبر المكسور يحدد موقع مطعم المحيط ومحال السمك. وقد

تذكّرت هذا الموقع جيداً، لأن أول قبلة سقطت عليه سنة 1994، وقتلت عابري سبيل وأثارت الغضب والحقن لدى سكان غروزني. لم يتخيل أي منهم أن القادم أعظم. وقالت المرأة: "إنه مثل الحلم".

فكّروا في المدن التي تدمّرت في "اليوم التالي ليلاد السيد المسيح" سنة 2004 عندما ضرب تسونامي المحيط الهندي، وستخيلون غروزني، مع فارق أن الطبيعة تسببت بتلك الكارثة في دقائق، فيما الكارثة الأخرى كانت بفعل وتخطيط وإصرار الإنسان على مدى 10 سنوات.

انتهت المعارك الواسعة النطاق في الحرب الثانية سنة 2000 بعد الاستيلاء على غروزني وتمجيد الآلاف من الثوار - الذين لم يكن لديهم سوى تجهيزات قليلة - إلى قرى الجبال. لكن كما حدث في العراق بعد إعلان الرئيس جورج بوش الشهر بانتهاء العمليات الرئيسية، كانت الحرب تدخل أولى مراحلها الجديدة المتعددة. كل من هذه المراحل كانت أكثر صعوبة من سابقتها، بحيث وصلنا إلى نقطة اليوم لم يعد فيها أحد قادراً سواءً في روسيا أو حتى في الشيشان على تحديد ماهية الصراع بشكل دقيق.

ما تزال المعارك مستمرة في الجبال، والمدفعية البعيدة المدى تقصف الغابات، والتي يمكن سماع دويهاً بوضوح في غروزني في ساعات الصباح الباكر. لكنّ المعركة تجري بعيداً عن أعين الشهود، في مناطق نوزاي يورت، فيدينو، وشاتوي. ويستمر حيل جديد من القادة، غير معروف تقريباً للعالم الخارجي، بالقتال. وحتى مقتله في آذار سنة 2005، كان قائد المحاربين، والرئيس الشيشاني الوحيد الذي تمّ انتخابه بحرية أصلاً مسخادوف ما زال يقاتل. وقد خلفه شامل باسايف، وهو من القادة المحليين وأكثرهم تطرفاً. يشهد استمرار هؤلاء في القتال - كما في حالة مسخادوف الذي استمر في الاختباء خمس سنوات ونصف منذ سنة 1999 - على عدم كفاءة وفساد القوات الروسية من ناحية، وعلى إصرار الثوار وقوة تنظيمهم في جمع المعلومات وشبكة المؤيدين المدنيين الواسعة الانتشار من ناحية أخرى. ببساطة ليست هناك طريقة أخرى قد تتصرف بها مجموعة محاربة في مثل هذا المكان الصغير.

في السهول، شنّ المتمردون حملة من الاغتيالات والمناوشات الضيقة النطاق. وردّت القوات الروسية وحلفاؤها من القوات الشيشانية غير النظامية بعمليات قاسية مضادة، تراوحت من الغارات على المخايئ المشكوك بها إلى خطف أقرباء الثوار. ورغم ذلك يمكن اعتبار هذا النوع من النزاعات منخفض المستوى. وحتى في غروزني، أصبحت تلك العمليات الحربية الواسعة النطاق استثناءً. كل أسبوع، أو كل بضعة أسابيع، يقتل الثوار مسؤولاً سابقاً في السلطة الموالية لروسيا، أو ربما ينسفون سيارة جيب مليئة بأفراد الشرطة. كما يحدث غالباً، إن لم يكن دائماً، تحصّن القوات الروسية والشيشانية الموالية لها وتقتل من تشبه بأنه من الثوار، أو مجموعة منهم. وبكل الأحوال، أصبحت المعارك الواسعة النطاق - كما حدث عندما استولى الثوار على معظم المدينة لعدة ساعات في صيف سنة 2004 - نادرة. وأثناء زيارة خاطقة لغروزني، ربما لن يسمع المرء سوى رشقات معزولة من نيران البنادق. لم يعد هناك هجمات جوية على المدينة، أو قصف بالقنابل، أو ضربات صاروخية، كما لم تعد أي معركة تتعدى بضعة منازل أو مجرد شارع بمفرده. وأصبح الليل، الذي كان يعتبر لسنوات مسرحاً لمعارك متواصلة وهجمات صاروخية يقوم بها الثوار، ساكناً بشكل مخيف الآن. لقد التحا الثوار إلى أماكن بعيدة للاختباء ليس فقط من القوات النظامية، ولكن من العديد من مواطنيهم الذين انقلبوا ضدهم. ويتألف ممويه أحد المقاتلين الذين التقيت بهم من معطف طويل وحذاء لامع. أخبرني أنه حتى تكتيك وضع القنابل على جانبي الطريق، والذي كان المفضل لديهم لوقت طويل، أصبح غير فعال. تتحرك القوات الأمنية بسرعة كبيرة، ومن الصعب تفادي موجات الاعتقال. إضافة إلى ذلك، وكما قال ذلك الرجل، تمتلك روسيا حاملات جنود وسيارات جيب مدرّعة أكثر عدداً من الثوار الشيشان. "إنهم لا يهتمون حقيقة بتدمير عربة جنود أو اثنتين، فيما لا نستطيع نحن تحمّل خسارة رجل واحد في عملية مثل هذه".

في مواقعهم على شبكة الإنترنت، لم يخسر الثوار أيّاً من كبرياتهم أو جبههم للقتال. ولكنّ الدلائل على الأرض تشير إلى أنه بعد كل تلك السنوات تراجعت قوات الثوار بمختلف فصائلها بشكل كبير. لقد أضعفت مصادر الجيش الروسي

الهائلة قدرة المتمردين على المقاومة، وعرفت قدرتهم على التجمع، وقُلصت مساحة الأراضي التي يمكنهم التحرك فيها بحرية. وقللت حالة الطوارئ غير المعلنة، والتعذيب، واستخدام المخبرين (الذين غالباً ما يكونون ضحايا سابقين للتعذيب) من روابط الثوار مع المجتمع الذي يستنزفه الفقر والإرهاق من المعارك. لقد دمرت مصادر تمويل الثوار، وعلى المستوى التكتيكي البحت، حسنت سنوات من التدريب أداء الوحدات الروسية. وبخلاف من سبقوهم في المراحل المبكرة من الحرب الأولى، الذين كانوا بلا حول ولا قوة، غالباً ما يكون الجنود مدربين جيداً، ويمتلكون الخبرة ويعرفون إلى أين يذهبون، وماذا يتوقعون عندما يصلون إلى هناك.

على كل حال، سيكون تصديق أن الثوار منهكون بسيطاً للأمر، والقول بأن الحرب قد انتهت، أو أنها في طريقها للانتهاء خطأ فادح. ويقوم المتمردون بقتل الجنود الروس بشكل يومي، وهم يقاتلون حتى الموت عندما تتم محاصرتهم. والحقيقة أن المقاومة قد انشطرت إلى نقطة أصبح من المستحيل معها إلحاق الهزيمة بها بالمعنى الطبيعي للكلمة. ولا يوجد رايخ (مجلس البرلمان) لهاجته، كما أن موت مسخادوف، وهو قائد سياسي أكثر منه عسكري، دفع بالكثير من مؤيديه ليصبحوا أكثر تشدداً.

تبنت المقاومة، التي امتدت من الثورة القومية إلى الحرب الأولى، استراتيجية طويلة المدى. ومثل مقاومة القوات الروسية بالنسبة لهؤلاء المقاتلين واجباً مقدساً لا مجال للاستسلام فيه. وتشكل مجموعة من المقاتلين الموقنين الذين تعرضوا للظلم والاضطهاد جناحاً آخر، وهم يسعون للثأر من السلطات المحلية والجنود الروس. ومن الممكن أن يلتحق بهذا الجناح معظم رجال الشيشان، رغم أن نسبة صغيرة تحمل السلاح عملياً. ويتألف الجناح الرئيسي الآخر من المتشددين الإسلاميين، الذين تدفعهم حماسهم الثورية لارتكاب أعمال إرهابية مروعة. هناك أيضاً قسم كبير من الرجال الذين يكونون قطاع طرق، وثواراً ومتهزي فرص في الوقت ذاته. وتبقى مسألة اتحاد كل هذه الأجنحة المنفصلة موضع تساؤل، لكن الحقيقة أنها ما تزال تعمل كلها؛ والنتيجة "مازق لا يمكن الخروج منه: لا يستطيع الثوار طرد الجيش الروسي، ولا يستطيع الجيش الروسي سحق الثوار".

يبدو أن الوضع غريب، كما أن المأزق يبدو ملائماً لعناصر قوية في كلا الطرفين. سيعتقد أي مراقب لا يملك خبرة كافية بالمنطقة أن المعدات الروسية، وهؤلاء الجنود الذين يعتمدون الخوذات، وعملاء الاستخبارات السرية وعناصر الميليشيا الشيشانية الموالية لروسيا سيصلون إلى يوم يستطيعون فيه تطهير آخر قبر وغابة من المقاومة. سيعتقد المرء أن الهدف تحقيق النصر الكامل، إلا أن فحصاً دقيقاً للواقع يكشف عن شيء مختلف تماماً: جيش مهمته بالحصول على منازل مريحة أكثر من اهتمامه بتحقيق النصر، وحرب تخليد للذات ومستمرة على المدى الطويل؛ إنما مهنة. بالنسبة لجناح الثوار المتطرف، أصبحت الحرب طريقة معيشة، وهي تعني القوة، وتعني أعضاء جدداً معظمهم من الشباب الذين بالكاد يستطيعون تخيل أي شيء آخر. إنهم أولئك الموجودون في الشيشان، وفي روسيا بشكل عام، الذين يعتبرون النظام والأمن كارثة.

لن يكون مفاجئاً، عندها، أن يتشبه الجيش الاتحادي بالعدو الذي أرسل لقتاله. وكما هو الحال بالنسبة لقطاع الطرق، تتحرك القوات النظامية في مركبات تخلو من أي علامة، حيث يرتدي الجنود نفس الأقنعة التي يضعها الإرهابيون، ويقومون بالإغارة على المنازل الخاصة وينهبونها في الليل، كما يقومون بإعدام الناس دون محاكمة. ويحتجزون الرهائن، وحتى الجثث للحصول على الفدية. إنهم ينظمون عمليات التهريب، ويقدمون الغطاء لها ولصفقات السوق السوداء بين الشيشان التي لا تخضع لسيطرة القانون والمناطق المجاورة. لا يمكن اعتبار هذا النزاع حرباً وحسب، وإنما نسخة شرسة من صراع المافيات، والتي تبحث فيها العصابات المسلحة عن المال والنفوذ في محاولة للبقاء على قيد الحياة.

في الواقع، يمكن بيع أي شيء وأي شخص في الشيشان. فنانس يفتشون في الأنقاض بحثاً عن الآجر وقايا المعادن، وتتم سرقة النفط وضخه إلى جنوب روسيا، كما أنه يتم اختلاس أموال التعويضات. وللقتل ثمن، إذ يبيع المواطنون الروس الأسلحة والذخيرة للشيشانيين. (للمشككين أقول: لاحظوا أن كل رصاصة وقبلة يدوية يستخدمها الثوار هي روسية الصنع؛ ففي الشيشان لا توجد مصانع أسلحة؛ والأراضي الروسية تحيط بالشيشان من ثلاث جهات، أما جورجيا فتحيط بها من

الجهة الرابعة، والطرق إليها غير سالكة إطلاقاً عدا مشياً على الأقدام). السلام، أيضاً، له ثمن: فقد أخرجني ضابط رفيع المستوى في القوات الشيشانية الموالية لروسيا أن الروس أبرموا اتفاقات مع الثوار لتطبيق هدنة في مناطق جبلية معينة. وهكذا تشتعل المعارك في أحد الوديان، فيما يكون الآخر هادئاً، بالرغم من وجود المتمردين فيه.

هذه الاتفاقيات - والحدود المبهمة - تأثيراتها على العلاقة المعقدة بين القوات الروسية الاتحادية وحلفائها من القوات الشيشانية غير النظامية. كان العديد من أفراد الميليشيا المحلية الذين ينضمون إلى الروس، إن لم يكن معظمهم، ثواراً من قبل. فبعضهم يتطوع مع الميليشيا المحلية لأنهم تعبوا من تطرف الثوار، ويتطوع البعض الآخر لأنهم لا يستطيعون إيجاد عمل آخر. لكن بالنسبة للعديد من الشيشانيين، الانضمام إلى الروس طريقة لجعل ما يقومون به قانونياً: حمل سلاح ونهب ما تبقى من موارد الشيشان. تمثل الوحدات غير النظامية بلباسها الأسود، وسياراتها التي تخلو من أي علامة فارقة، وسمعتها في الاختطاف والتعذيب مصدر هلع لمعظم الشيشانيين تماماً مثل الجنود الروس. ينظر السكان إلى العديد من رجال الميليشيا الشيشانية بأنهم عملاء مزدوجون، ويتج عن مساهمتهم في القتال ضد الثوار نتائج متناقضة. في الواقع، عوضاً عن مساعدة روسيا في إنهاء الحرب، تسبب قتال الشيشانيين ضد بعضهم البعض في نشر الفوضى في المجتمع الذي ينحزب فيه كلٌ لعشيرته. لقد فحّر هذا الأمر صراعات دموية لا تُعد ولا تُحصى مما سيضمن استمرار العنف لسنوات أخرى كثيرة، وهو ما سرحب به المستغلون للوضع من كلا الجانبين.

ولم يتم التخلص من مشكلة قطع الطرق في الشيشان، كما قد يتوهم القوميون الروس. ولقد اتسعت هذه الظاهرة، وتنوعت أشكالها واتخذت نطاقاً وطنياً.

بالعودة إلى سنة 1994، بدت فكرة الحرب الجدية سخيفة. وبدا من المستحيل للمراقبين الخارجيين أن تقوم روسيا - التي تتحرك باتجاه الديمقراطية - بتحريك جيشها الضخم ضد ما وصفه مسؤولوها بأنفسهم بأنهم بضع مئات من المجرمين.

في جمهورية منند عبر إحدى عشرة منطقة توقيت مختلف، لا تشكل الشيشان سوى رأس دبوس، ويفوق تعداد القوات المسلحة الروسية لوحدها عدد سكان الشيشان مجتمعين. لقد رفض بعض الجنرالات الاشتراك في ما يسمى "نزع سلاح تشكيلات قطاع الطرق". وقد أوقف أحد الجنرالات قواته عندما اعترضت طريقه مجموعة من النساء الشيشانيات المسلمات. لقد ساد التوتر الأجواء لبضعة أيام، وبدأ أن هناك ما يكفي من المنطق في روسيا والشيشان للابتعاد عن حافة الهاوية. وكان ما يزال هناك شعور بمحرّمات معينة لا يمكن انتهاكها. فعلى سبيل المثال، قام طيارو القوة الجوية بقصف الطاعنين في السن والأطفال وأي عابري سبيل آخرين، والذين يُفترض أنهم مواطنون من نفس بلدهم.

على كل حال، من الصعب تبديد هذه الشكوك دفعة واحدة، وسيصبح أي شيء ممكناً حالما تقصف الغارات الجوية الأولى شوارع غروزني المزدهمة. في الواقع، بدت تلك الغارات الجوية الأولى بريئة تقريباً لدى استعادة أحداث الماضي، كما لو أنها جريمة بسيطة مقارنةً بالتحلي الكامل عن المبادئ الأخلاقية الذي ظهر لاحقاً. لا يزال هناك وقت بين الانفجارات للشعور بالصدمة. ثم تسقط القنابل بسرعة كبيرة، ويختفي هذا الترف أيضاً. فيصبح المستحيل ممكناً، وتنزلق الشيشان نحو الهاوية التي لم تخرج منها أصلاً.

إذاً، ما الأسباب الحقيقية وراء استحواذ الشيشان على تفكير الكرملين سنة 1994 ومجدداً سنة 1999؟ ما الذي تحتويه بقعة الأرض البعيدة هذه والتي دفعت بالقادة الروس للفرق ليس مرة وحسب وإنما مرتين في ذلك المستنقع العسكري والسياسي؟ هناك جوابان في كلتا الحالتين، يرتبط أحدهما بالأمن القومي والاعتبارات الجيو - استراتيجية، فيما يرتبط الآخر بالمصالح الأناية للحلقة الضيقة من سياسيي الكرملين.

لطالما تمتعت الشيشان ومنطقة القوقاز حولها بأهمية استراتيجية طوال قرون. إنما موطن العشرات من المجموعات العرقية غير المعروفة، ويقع القوقاز على تقاطع طرق بين آسيا وأوروبا، وقد كان دائماً محط أطماع الدول المحيطة به كإيران، وتركيا وروسيا على وجه الخصوص. ورغم أنه من المألوف الحديث عن الحرب

الأولى في الشيشان بين سنتي 1994 - 96، والحرب الثانية التي بدأت سنة 1999، إلا أن الحقيقة أن هاتين الحربين هما الأخيرتان في مجموعة من الصراعات التي امتدت لقرون طويلة وشملت المنطقة بأسرها، بما في ذلك قرنان من إراقة الدم الروسي - الشيشاني.

عند انهيار الاتحاد السوفياتي، ظهرت هذه القضايا الجيو - استراتيجية، التي كانت راکدة تحت السطح، إلى العلن من جديد. مع استقلال جمهوريات جنوب القوقاز، تحولت السفوح الشمالية للجبال إلى جبهات قتال مرعجة للروس. في تلك المناطق الشمالية، تحول الروس القاطنون هناك إلى عامل توتر عرقي داخلي، فيما أعلنت الشيشان استقلالها. لقد واجهت روسيا في مناطق الجنوب - جورجيا وأرمينيا وأذربيجان - منافسة دبلوماسية واقتصادية متزايدة من البلاد الغربية، خصوصاً فيما يتعلق بنفط بحر قزوين. وبالنسبة للبعض، كان النزاع الدبلوماسي الشديد حول تحديد مسار خطوط نقل النفط من بحر قزوين عاملاً رئيسياً في اندلاع النزاع في الشيشان. في الأصل، تمتد أنابيب تصدير النفط الرئيسية من حقول شواطئ أذربيجان الواسعة عبر شمال القوقاز.

بتمحور الخلاف حول النفط بشكل أساسي برغبة روسيا في القضاء على الانفصاليين في الشيشان لحماية مسارات تصدير النفط. لكن لطالما كانت تلك مجرد طريقة لتحويل الانتباه عن الهدف الحقيقي. كان خط نقل النفط الروسي (الذي تم استبداله الآن بمخط أنابيب تدعمه الولايات المتحدة ويمتد من جورجيا إلى تركيا) عزم الفائدة، ومن السهولة بمكان إعادة رسم مساره ليلتف حول الشيشان المضطربة. فيما يخص النفط في الشيشان نفسها، ليس هناك سوى القليل. لقد تمّ تدمير البنية التحتية، بما فيها المصفاة الضخمة في غروزني، بشكل كبير ومتعمّد.

يعتقد البعض أن العامل الاستراتيجي الآخر المؤثر في قرار شنّ الحرب كان خوف موسكو من انتشار ثورة الانفصال الشيشانية لتشمل باقي المنطقة، وصولاً حتى إلى ترستان في قلب روسيا. على كل حال، رغم أن درجات مختلفة من الاضطراب أصابت الجمهوريات العرقية السبع الصغيرة في شمال القوقاز، لم تسع سوى الشيشان لنيل الاستقلال، فيما تبدو ترستان قاعة مماماً بالحكم الذاتي.

رغم ظهور الكثير من العوامل المثيرة للقلق في بداية تسعينيات القرن العشرين، إلا أن أيًا منها لم يتحول إلى خطر داهم في أواخر سنة 1994 عندما قرر مجلس أمن الكرملين في عهد الرئيس بوريس يلتسن إرسال قوات إلى المنطقة.

لكن الوضع كان مختلفاً تماماً سنة 1999. من وجهة النظر الروسية، كانت منطقة جنوب القوقاز مستقرة، لكن إلى الشمال كانت الشيشان خارج نطاق السيطرة. لقد أصبحت تلك الجمهورية المهتمة، المليئة بالعاطلين عن العمل، والرجال المسلحين، والتي تخلى عنها العالم الخارجي؛ مثلاً لفشل الدولة. لم يكن الرئيس المنتخب أصلاً مسخادوف، الذيفاوض على انسحاب القوات الروسية، قادراً على فرض سلطته. وتلاشى الدور التقليدي لوجهاء العشائر الذين يتقاسمون السلطة في زمن الحرب. وفي خضم كل تلك الفوضى، تبدو الجماعات الإسلامية المتطرفة، الوافدة حديثاً إلى الساحة، والتي تملك المال ونوعاً من الانضباط بين صفوفها، الوحيدة التي تملك زمام القوة. لقد ظهرت الشيشان في عناوين الأخبار على أنها عاصمة الاختطاف في العالم. وكان الصحفيون، ورجال الأعمال، وعمال الإغاثة وكل من يدخل الجمهورية معرضين لخطر كبير. لقد قتل المعتطفون بضع رهائن، وكانت أفظع العمليات تلك التي طالت أربعة مهندسين (ثلاثة بريطانيين، ومواطن من نيوزيلاندا) والذين تم قطع رؤوسهم بعد شهرين من اختطافهم سنة 1998.

ساعات الأمور فجأة في صيف 1999 عندما قاد الزعيم العسكري شامل باسايف المئات من الشيشانيين إلى منطقة داغستان القرية، ليدعم في الظاهر جماعات إسلامية ناشئة متطرفة. تعرض الشعب الروسي لصدمة كبيرة، لأنه للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات يتم إرسال جنودهم إلى معارك خطيرة مع الشيشانيين المخيفين، لقد بدت البلاد في حالة ضعف شديد في الأشهر الأخيرة من رئاسة بوريس يلتسن. ثم ودون سابق إنذار في أيلول، مزقت سلسلة من المحجمات بالقنابل مباني سكنية في موسكو وغيرها من المناطق، والتي أسفرت عن مقتل 294 شخصاً. ولم تعلن أي جهة مسؤوليتها عن الحادث، ولم يتم إلقاء القبض على أحد، ولم يتم التوصل إلى أي دليل ملموس، لكن أصابع الاتهام أشارت على الفور إلى: الإرهاب الشيشاني.

بالطبع، كان هناك حتى في هذه المرحلة مناقشات هامة ضد إرسال الجيش للقيام بغزو شامل آخر. ولم تكن تجربة الحرب الأولى، التي انتهت قبل ثلاث سنوات فقط، تسمح باللجوء إلى الحل العسكري. لقد فشلت الحرب الأولى عسكرياً، وأضعفت صورة روسيا في الخارج، وأعادت إصلاح الخدمة العسكرية، وساهمت في تشريد الشيشانيين، وأذكت نيران الثورة الإسلامية. وبالرغم من هذه الدروس غير البعيدة، لم يتردد الكرملين. وكان الخيار الوحيد أمامه شنّ حرب أخرى، تسبب الدمار وتبوء بالفشل مثل الحرب الأولى.

لماذا؟ الجواب بسيط بالطبع، وهو أن الكرملين أخفق سنة 1994، وفشل في التعلّم من أخطائه سنة 1999. لكن، هناك سببٌ أكثر تعقيداً وأهمية، وللكشف عنه يجب الغوص عميقاً في سياسات الكرملين نفسها.

فيما يتعلق بالحرب الأولى، وفي سنة 1994، كان يلتسن في أدنى انخسار لحياته المهنية المليئة بالاضطرابات. ولم يعد الروس، الذين تحرروا من الوم، يؤمنون بتلك الإصلاحات الاقتصادية والسياسية؛ وكان لديهم سبب وجيه لذلك. وقد استخدم يلتسن قبل سنة من ذلك التاريخ الدبابات لإهاء العلاقات مع المعارضة في البرلمان. لقد أصبح الملايين في فقر مدقع، ونادراً ما أصبح يلتسن، المثقل بالأمراض والشراب، يظهر في موقع المسيطر على الأمور. في نفس الوقت، كان هناك تحوّل يجري داخل أروقة الكرملين، حيث أفسح آخر حلفاء يلتسن السياسيين الليبراليين المجال لحاشيته المتشددة بما فيها حرسه الشخصي، والذين لا يتمتعون بخبرة كافية للإمساك بزمام الأمور.

لقد أصرّ هذا الفريق الجديد على استخدام القوة لإهاء الثورة الشيشانية القومية، والتي تجاهلتها روسيا إلى حدّ بعيد خلال السنوات الثلاث السابقة. ولم يتمّ تحليل الموقف بشكل جيد، فيما كان وزير الدفاع بافل غراتشيف، الذي يجب أن تكون خبرته ومعرفته أفضل لهذه الأمور، متورطاً في اتهامات بالفساد، ومستعداً للموافقة على أي شيء. كانت كل الدلائل تشير إلى أن هؤلاء الرجال، الذين يتزعمهم يلتسن، يعتقدون أنّها فكرة جيدة، وأن غزو الشيشان سيوضّح للبلاد بأسرها أن الكرملين ما زال ممسكاً بزمام الأمور، وأن يلتسن، الذي يلومه القوميون

المتشددون على خسارة الاتحاد السوفياتي، لن "يخسر" ستيمتراً آخر من هذه الأراضي. وإلى جانب إيمانهم بهذا المفهوم، كانت الحرب في الشيشان تبدو في عيون فريق يلتسن واقعة لا محالة.

بالطبع لم تبحر الرياح بما تشتهي السفن، وتحولت الحملة الاستطلاعية الصغيرة المظفّرة إلى نزاع مع الثوار استمر واحداً وعشرين شهراً، وقضت على آلاف الأشخاص، وانتهت سنة 1999 بانسحاب روسي مُخزٍ واستقلال الشيشان في واقع الأمر. ورغم ذلك لم تتسبب الحرب بأذى حقيقي لصانعيها السياسيين والعسكريين في موسكو، وهي حقيقة مذهلة تساعد على شرح القبول بالغزو الثاني الذي جرى بعد ذلك بثلاث سنوات.

وجد الكرملين بقيادة يلتسن نفسه هذه المرة متورطاً في المزيد من المتاعب مقارنة بما حصل سنة 1994. وكان يلتسن مريضاً (مجدداً) سنة 1999، وغير قادر على الإمساك بالسلطة. لم تكن حاشيته الأخيرة تتمتع بأي شعبية على الإطلاق. ولم يعانِ البلد من انهيار قيمة الروبل وخسارة مذكرات ملايين الناس في المصارف سوى حينها، إنما واحدة من أحلك الفترات التي عاشتها روسيا خلال عشر سنوات من محاولتها بناء اقتصاد السوق. وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً، فقد أحس الروس بالهوان لرؤيتهم الناتو يقصف حليفهم القديمة يوغوسلافيا لإخراج القوات الصربية من كوسوفو. في موسكو، كان البرلمان بصدد القيام بإجراءات قانونية لمساغة الحكومة حول حرب الشيشان الأولى من ضمن أشياء أخرى، فيما كان المحققون في نيويورك وجنيف يبحثون في مزاعم عن اختلاسات، وحسابات مصرفية سرية، وتبييض مليارات الدولارات. هددت الانتخابات التشريعية، على نحو خطير، الكرملين وحلفاءه في كانون الأول 1999. وجرّت في تموز 2000، انتخابات رئاسية بالغة الأهمية لاستبدال يلتسن.

مع تصاعد الغضب ضد يلتسن في طول البلاد وعرضها، واجهت مؤسسة الكرملين التي هيمنت على روسيا وأثرت خلال العقد الماضي الدمار. كان أكثر المعارضين فاعلية عمدة موسكو يوري لوزكوف، والذي كان قادراً على ما يبدو على الفوز بأي انتخابات، وكان هناك اعتقاد حقيقي للمرة الأولى بأنه قد ينتهي

الأمر برجال يلتسن في السجن. لقد شكل تعيين فلاديمير بوتين كرئيس للوزراء في آب، وهو رجل لا يملك قاعدة سياسية، أو خبرة اقتصادية، أو حتى شخصية جذابة، محاولة للتأكيد بأن يلتسن ما زال يُحكم قبضته على السلطة. لكن حصلت بعد ذلك أحداث داغستان التي تمّ قصف المباني السكنية فيها.

عندها فقط برز نجم فلاديمير بوتين فجأة، وهو رئيس سابق لجهاز الاستخبارات الروسية. وبتحمله مسؤولية عن العمل العسكري في داغستان، أصبح ذلك الخبير في الفنون القتالية، والحاسم والقوي الشكيمة رجل الساعة. وبإظهاره بسالة الجندي الروسي، واستخدامه لغة عنيفة وفظة، أصبح بوتين يمثل ضمير الأمة. لقد صرّح في خطبته الاحتفالية: "اقضوا على الإرهابيين في المنزل".

لم يحتاج الروس الخائفون، والساخطون والمحبطون سوى للقليل من الإقناع بضرورة شنّ حملة عسكرية أخرى بلا رحمة في الشيشان. كان هناك تعطّش ضمن الجيش للثأر أيضاً. عانت روسيا من مشاكل عديدة في أواخر عهد يلتسن، منها الفقر، والفساد المستشري، وتلوث البيئة، وترهل القوات المسلحة وتراجع معدلات الخصوبة، لكن الروس كانوا ينظرون إلى الشيشان على أنها الجرح المتقرّح في الجسد المريض بأكمله. انطلقت الفكرة بضرورة "معالجة مشكلة الشيشان"، التي تعتبر المدخل لمعالجة باقي المشاكل بما فيها شعور البلد المزمن بالأهمية على الساحة الدولية. وبالمحصلة، ما الذي يمكن لدول الناتو، التي نحت جانباً الاعتراضات الروسية عند قصف جمهورية يوغوسلافيا، أن تقوله عندما تشنّ طائرات موسكو حربها ضد الشيشان؟

كان الخطر الذي يمثّله الشيشان سنة 1999 يتطلب القيام بعمل عنيف ضدها. وبغضّ النظر عن أي أهداف سياسية، كانت الحاجة الأمنية لخوض الحرب قوية، وبالتأكيد أكثر مما كانت عليه سنة 1994. ورغم ذلك لطالما تحوّل الاحتلال الكامل إلى كارثة. اقترح بعض القادة الأكثر رشداً إغلاق الشيشان بالكامل. وتقدم البعض الآخر بفكرة تقسيم الجمهورية، مع قيام روسيا باحتلال السهول الشمالية التي يسهل السيطرة عليها. ودعا أصلاً مسخادوف المحاصر إلى إجراء مفاوضات، لكن اقتراحه ذهب أدراج الرياح، ونظراً لعدم ممكّنه من السيطرة على

شامل باسايف، أعلن مسخادوف أن قواته أنهكتها الإغناء. وبكل الأحوال، واظب الكثيرون في الشيشان على دعمه، على الأقل كانوا يدعمون أي شخص عدا باسايف أو القادة العسكريين المتطرفين الآخرين. كانت فكرة خوض مزيد من الحروب تورق الغالبية العظمى التي لم يتسن لها الوقت الكافي للتعافي أخلاقياً ومادياً من الحرب الأولى. لم يشأ أحد في موسكو مساعدة مسخادوف أو أي قائد معتدل آخر، وبدأت الحرب بدعم حماسي من عامة الشعب الروسي.

تصبح التساؤلات حول الطموحات السياسية التي قادت إلى اندلاع حرب الشيشان الثانية أكثر إثارة للمتعاب عند البحث في أسباب غارة داغستان، والتي تبعها تفجير المباني السكنية.

ترسخت الفكرة في موسكو بأن غارة داغستان والتفجيرات مرتبطتان مع بعضهما البعض مباشرة، ولم يكن قرار غزو الشيشان سوى رد فعل على ذلك. على كل حال، بدأت موسكو تخطط للهجوم على الشيشان قبل وقت طويل من تلك الأحداث. هذا ما أكدّه سرجي ستياشين، الذي كان رئيساً للوزراء قبل تعيين بوتن في هذا المنصب في أواخر صيف 1999. طبقاً لتفسيراته، تم وضع الخطة الأصلية لغزو الشيشان في آذار، قبل وقت طويل من أحداث داغستان أو تفجيرات المباني السكنية، وكان يُفترض تطبيقها في ذلك الصيف. وبكلمات أخرى، أجبر الهجوم الشيشاني على داغستان على تأجيل الغزو الروسي لبضعة أشهر.

ربما يكون المقاتلون الشيشان، كما يقول باسايف، راغبين في إقامة الدولة الإسلامية المتطرفة، والتي تمتد إلى بحر قزوين، وقد أثاروا الروس ضدهم في سعيهم لتحقيق ذلك. ومن جهة أخرى، كان باسايف، الرجل العسكري، يعرف تماماً بأنه من الصعب تحويل جبال داغستان الجرداء (مقارنة بغابات الشيشان) إلى خطوط قتال ضد المروحيات والطائرات النفاثة الروسية. لهذا من المحتمل أيضاً أن تكون مشكلة داغستان مجرد هجوم قام به الشيشانيون لصرف الانتباه عنهم وكسب المزيد من الوقت قبل مواجهة الهجوم الروسي على أراضيهم؛ والذي جرى التخطيط له طويلاً.

يمكن أن تخفي الحقيقة بسهولة بين النظريات. وربما خططت باسايف لإبعاد القوات الروسية عن الشيشان، والقيام في نفس الوقت بمحاولة لزعة استقرار داغستان. وربما، طبقاً لبعض الشائعات في روسيا، تمّ خداع باسايف نفسه من قبل بعض القوى في موسكو التي تتظاهر بالصدقة له، والتي شجعت وموكت تلك المغامرة على اعتبار أن إثارة المشاكل في داغستان ستجهز أرضية أفضل للحرب الجديدة في الشيشان. بشكل عام، يفض الروس الطرف لغاية الآن، بل ويسمحون بوجود مجموعات إسلامية متطرفة في جبال داغستان. ورغم أن غارة باسايف كانت واسعة النطاق، إلا أنها كانت بعيدة عن الأولى، حيث وقعت اشتباكات على طول الحدود الشيشانية - الداغستانية عند نهاية الحرب الأولى.

وفقاً لرئيس المجلس الأعلى للبرلمان الروسي، فإن أغرب ما شاب هذه المشكلة هو انسحاب حرس الحدود فعلاً قبل تنفيذ غارة باسايف. وبفلس درجة الغرابة، ما قاله شهود عيان كثيرون، ومن بينهم صحفيون، أن المروحيات الروسية حلقت فوق الثوار الشيشان خلال انسحابهم من داغستان، ليس لمهاجمتهم بل لمواكبتهم.

تبدو التفاصيل الرسمية لعملية تفجير المباني السكنية أقل إقناعاً. وما جعل تلك الهجمات صاعقة هو تخطيطها وطريقة تنفيذها. كان مداها لوحده، إضافة إلى الطريقة الخبيثة التي تمّ تحضير المتفجرات بها لتدمير المباني مثل منازل من الورق، مربعاً. فوق كل ذلك، وقعت هذه الهجمات في قلب روسيا مباشرة ضد مواطنين نائمين عُزل، مما أدى إلى اندلاع موجة من الهلع، وحالما أعلنت السلطات على لسان العملة يوري لوزكوف على التلفزة القومية أن الشيشانيين مسؤولون عن الهجمات، كان ردّ الفعل متوقعاً. وفي موسكو، انفجر الحقد الدفين وعدم الثقة بالناس ضد القوقاز وأي شخص من المنطقة، وخصوصاً الشيشان، واتخذ أشكالاً متعددة منها الإهانة والضرب والترحيل من المدينة. وخلال الليل، كانت العنصرية وحمى الحرب تجتاحان المجتمع الروسي.

رغم ذلك، لم تستطع الشرطة إلقاء القبض على مشتبه به شيشاني واحد، ولم تعلن أي جهة مسؤوليتها عن الحادث. وفي الحقيقة لم يكن أحد قادراً على التحدث عن الفائدة من وراء مثل هذه العملية؛ ليس علناً على الأقل. لم تكن هناك

مطالب، ولم يكن هناك تهديد بتفجيرات جديدة. وأنكر باسايف - الذي لم ينجح أبداً من إعلان مسؤوليته عن هجمات إرهابية، بما فيها اختطاف الرهائن في مدرسة يسلان سنة 2004 - تورطه في هذه المسألة. بالإضافة لما سبق، كانت التحقيقات الرسمية روتينية، ولم يتم البحث بشكل جدّي بين الانقراض بحثاً عن الأدلة، أو القيام بأعمال التحري الأساسية الأخرى، ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن قائمة الجرائم التي لم تُكتشف في روسيا، بما فيها اغتيالات صحفيين وسياسيين ورجال أعمال بارزين، كانت طويلة وتزايد باستمرار. لم يكن لدى الكثيرين ثقة بالشرطة. إذًا، كيف يمكن لرجال الشرطة عندها أن يقرروا أن الشيشانيين وراء ذلك العمل بتلك السرعة؟

ثم حدث شيء في مدينة رايزن، والذي دعم ما كان لغاية تلك اللحظة عبارة عن نظرية مؤامرة، إذ ظهر دليل يربط بين الاستخبارات السرية وتلك الحادثة، أو حتى الحملة على الإرهاب. كان دافعهم حشد الدعم للحرب التي يريدون شنها. تبلى العناصر الأساسية لحادثة رايزن كالآتي: رجل يعود إلى شقته متأخراً ذات مساء، ليجد غرباء يقومون بوضع أكياس كبيرة في قبو المبنى السكني الذي يقطنه. استدعى الرجل الشرطة حالاً التي اكتشفت أن تلك الأكياس تحوي متفجرات وموقتاً زمنياً للانفجار عند الساعة 5.30 صباحاً من اليوم التالي. واكتُشف فيما بعد أن من قام بوضع هذه الأكياس هم رجال الاستخبارات السرية. من الطبيعي أن يكون هناك لغط في مثل هذه الحالات، لكن الاستخبارات السرية قدّمت توضيحاً قالت فيه إن الأمر برمته سوء فهم، وأن الأكياس غير مؤذية، وتمّ وضعها في المبنى لتدريب الدفاع المدني. إلا أن الشرطة المحلية كرّرت بأن ما وجدته لم يكن لعبة، وإنما متفجرات حقيقية. لم تتقدم التحقيقات أبعد من ذلك، ولم يتم إثبات أي من وجهتي النظر علناً. هل كان ذلك الساكن عبارة عن مواطن يقط؟ أم أنه منع، في الواقع، الاستخبارات السرية من تنفيذ مجزرة أخرى؟ لم تتم الإجابة عن هذين السؤالين أبداً.

كما يحدث غالباً في روسيا، قد تختفي الحقيقة في ثنايا الزوايا. وربما كان الداغستانيون وحتى باسايف وراء تلك التفجيرات. لم تستهدف التفجيرات الأولى

المساكن المدنية ضمن أراضي روسيا، وإنما مبنى عسكرياً في داغستان. ويبدو هذا العمل في الظاهر من تنفيذ الثوار الداغستانيين أو الشيشانيين. وبالحصلة، كان هؤلاء الثوار يقاتلون القوات الروسية في تلك المنطقة، وربما توغّلوا أكثر، وبشكل غامض، للقيام بتفجير المباني السكنية. لكن لا يمكن القول إن الاستخبارات السرية، أو الكرملين، بحثا في هذه الإمكانية وقاما بتلك التفجيرات. وربما لن نعرف الحقيقة أبداً، وربما لن يعرفها المواطنون الروس الذين اجتاحت دباباتهم الشيشان.

إلا أن ما كان شديد الوضوح هو المنافع السياسية التي حصل عليها كل من يلتسن وصنيعة بوتين من وراء هذا الاضطراب.

سواء كان الأمر بمحض الصدفة أو مخططاً له، منحت التفجيرات يلتسن وما يسمّى عائلته من رجال الأعمال وأقربائه الأزمة القومية التي يحتاجون لها. ولم يكن الأمر بمثابة إعلان حالة الطوارئ، وإنما كان مبرراً للحرب ضد أقلية مكروهة، وهو ما حول أنظار البلاد عن مشاكلها الأخرى. في تشرين الثاني 1999، ومع إراقة الكثير من الدماء، تحوّل بوتين العدم الشأن إلى بطل، وارتفعت شعبيته من 1 إلى 50%، وكانت ترتفع نقطة أخرى مع كل ضربة تقوم بها القوات الجوية والبرية الروسية ضد الشيشان. وبدا إعلان استقالة يلتسن المفاجئ غداة رأس السنة الميلادية 1999 غير متوقع، لكن توقيته كان ممتازاً. وتولّى بوتين الرئاسة بشكل آلي، مع تحديد موعد للانتخابات المبكرة في آذار 2000. ووفقاً للدستور، يجب أن لا يزيد الفترة الفاصلة بين الاستقالة والانتخابات عن ثلاثة شهور، مقارنة بفترة أطول بكثير في حال استمر يلتسن في منصبه لنهاية ولايته الدستورية. لقد مكّنت هذه الاستقالة بوتين من تفادي ما هو غير متوقع في الحملات الانتخابية الطويلة، وما قد يحدث في الشيشان خلال أشهر الصيف، التي تعتبر الأفضل للمقاومة. وفيما بدأ بوتين بتصريف أمور الرئاسة بالطيران إلى قاعدة روسية في الشيشان والإشراف على العمليات الحربية، كان يلتسن وعائلته قادرين على النوم بهدوء.

يبدو تنظيم أي حكومة لتفجيرات تطلال المباني السكنية لأسباب سياسية منافياً للمنطق، لكن مع وجود مثل تلك الثغرات في الرواية الرسمية، لا يمكن تجاهل ذلك الاحتمال. بالتأكيد يجب عدم التغاضي عن تورط الاستخبارات

السرية في تلك التفجيرات، وعن قسوة الكرملين بقيادة يلتسن. ومع الأخذ بعين الاعتبار قصص ميخايل غورباتشوف سنة 1993، أو الحرب الأولى في الشيشان، هل يمكن تصديق أن الحكومة الروسية لم تكن قادرة على تفجير منازل الأبرياء؟ لقد قامت بمثل هذه التفجيرات من قبل، وهدمت آلاف المنازل في الشيشان خلال الحرب الأولى بما فيها العديد من الشقق في غروزني المليئة بالروس الذين لا حول لهم ولا قوة.

إذا عملت التفجيرات على إخراج يلتسن من السلطة، فإن الحرب اللاحقة تسببت بسقوط خليفته سياسياً.

في المراحل الأولى، صوّرت وسائل الإعلام الموالية للحكومة الروسية الغزو على أنه حرب خاطفة، وأن النصر بها سيعكس نجاح روسيا ورئيسها الشاب. بالطبع لم تستطع تلك الحملة الدعائية الاستمرار. واستمر القتال كما كان الحال خلال النزاع الأول، وكان لا بد من حصار غروزني وقصفها لأسابيع قبل أن ينسحب ما تبقى من الثلاثة آلاف مقاتل المدافعين عنها. وحتى عندها، كان من الواضح أن الحرب لن تنتهي بسرعة، لأن المقاومة انتشرت عبر الشيشان، وتصاعدت في الربيع، واستمرت بكل الأشكال الممكنة ليومنا هذا.

ورغم ذلك، لم يكن التأخر في حسم الحرب ليضرّ بأسهم بوتين المرتفعة، مع أن مثل هذه الحماقة السياسية والعسكرية ستعمل على إسقاط أي حكومة في العديد من البلاد الأخرى، أو على الأقل ستقسم المجتمع بشكل عميق، ويتحول الحزب الحاكم إلى الدفاع، كما حدث في الولايات المتحدة بعد الحرب على العراق. لكن بالنسبة للرئيس بوتين الواصل دائماً من نفسه، فإن الضرر الذي حدث والتمثل بالإصابات الكبيرة في صفوف المدنيين والعسكريين، والإرهاب، والتطرف الإسلامي والاستنكار الدولي، لم يكن بنفس أهمية استمراره في الحكم. لقد وضعت أحداث سنة 1999 الاستخبارات السرية ورئيسها بوتين في السلطة. كما أنها أنقذت يلتسن وزمرته من الملاحقة. وسمحت الحرب للرئيس بوتين بتطبيق نظام فاشي شامل. وسوّغت الحرب تفكيك وسائل الإعلام المستقلة، والتراجع عن الحريات الانتخابية، وزيادة

الرقابة على المطبوعات، وأي أهداف حكومية أخرى يمكن وضعها في خانة "الحفاظ على الأمن". وصنعت حرب الشيشان بوتين، واستخدم بوتين الحرب لإعادة صنع روسيا.

تقع المسؤولية في مأساة الشيشان الحالية على عاتق العديد من الرجال المفرورين والذين يفتقدون للكفاءة، بمن فيهم القائد الاستقلالي جوهر دودايف، رغم أن اللوم الكبير يجب أن يقع على بوريس يلتسن. وحقيقة أن الرئيس بوتين أصبح مهندس الحرب الثانية كانت نتيجة لسياسات يلتسن الخاطئة. وحتى إذا برهن الرئيس بوتين أنه أكثر قسوة من سلفه، إلا أن أفعاله وسياساته تتطابق معه بشكل أساسي. إنه ببساطة يحاول بمجهد أكبر.

من الواضح أن الرئيس بوتين ليس الرجل القادر على إنهاء الحرب. ويبدو أن مقياس الفشل لديه غير قادر على الدخول في عقلية جندي كي جي بي (الاستخبارات السوفياتية). وفي إحدى زيارته السرية السريعة إلى الشيشان، قال الرئيس بوتين من على متن مروحية أن أنقاض غروزني تبدو مروعة. ولا يحب الرئيس بوتين مناقشة هذه المسائل عادةً، كما أنه لا يتلقى في مؤتمراته الصحفية النادرة أسئلة عن الشيشان، وعندما يفعل ذلك يفعل بشدة على غير العادة. كان هذا البيان الوجداني حول غروزني صريحاً بشكل استثنائي، لكنه غير مناسب وساذج من رجل مسؤول بشكل كبير عن هذا الدمار.

كان من المفروض بالرئيس بوتين أن يوسع من نظرة الحقيقة الخاطفة تلك فوق غروزني، وأن ينظر إلى جيشه، وإلى ما تبقى من المجتمع الشيشاني، وقرى الجبال، ومساكن المصابين، وصفوف الثوار. وإذا استطاع بوتين رؤية كل الشيشان، وليس فقط جزءاً منها، سرعان ما سيفهم ما حدث، حتى إذا كان أفضل وصف يستطيع إطلاقه على الوضع أنه مروّع. وحتى في مثل هذه الحالة، فقد رأى بوتين الكثير، ويستطيع المرء القول إن أنقاض غروزني مرآة لعقد من سياسات الكرملين المدمرة. ولكن لا يبدو أن الرئيس قد اكتشف هذا المنطق، فالحرب بالنسبة له انتهت، وعملية إعادة الإعمار تأخذ مجراها، وأي شيء آخر غير هذا غير مسموح به.

يبقى السلام غير ممكن في غياب تقديرات موثوقة. وعلى كل حال، ورغم مقتل مسخادوف اللاعب الوحيد في هذه الأحداث الذي دعا باستمرار إلى المفاوضات، يجب عدم اعتبار مأساة الشيشان عصية على الحل. ويجب الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يتم تخصيص سوى القليل جداً من الموارد لإحلال السلام هناك، مقارنة على سبيل المثال بما تم تخصيصه للنزاع المحدود في إيرلندا الشمالية، هذا إذا نحينا جانباً تلك الموارد التي تم تخصيصها ليوغوسلافيا السابقة. ولم يكن هناك أي وقف مشترك لإطلاق النار في الحرب الثانية. وبصرف النظر عن الاتصالات السرية المبكرة، لم تحرر أي محاولة للتفاوض مع المقاومة المسلحة. وكان الكرملين يقول لسنوات أنه لم يبقَ من يتكلم معه، في حين أنه بالتزامن مع ذلك لم يتجاوب مع أصلا مسخادوف، وقام بعدها بقتله.

ما الذي يمكن مناقشته؟ توقف معظم الشيشانيين عن التفكير في الاستقلال كهدف لهم، فهم لم يعودوا بحاجة لرموز الآن، كما أنهم توقفوا منذ وقت طويل عن الاعتقاد بإمكانية الانفصال. وهم يحتاجون لضمانات في مجالي الحياة وحقوق الإنسان، ويرغبون بأن تتم معاملتهم باحترام، كما أنهم يشهدون العدالة، ويحتاجون لمساعدة كبيرة: طبية، ونفسية، ومالية وعملية. ويحتاجون للعون لتحقيق الاستقرار أثناء إعادة البناء. ومن غير المنطقي أن لا يتمكن الناجون الشيشانيون في هذا العقد، أو سلالاتهم، من القول بفخر إنهم مواطنون في الفيدرالية الروسية. ولطالما كان الشيشانيون واقعيين فيما يخص موقعهم الجغرافي، ويمكن لحل وسط للقضية الرئيسية أن يحفظ كرامتهم ويعكس الحقائق الطبيعية.

تبدو حاجات روسيا الأساسية مماثلة. وتُظهر صناديق الاقتراع باستمرار أن الروس لا يهتمون بقتال الشيشانيين، وأن نطاق التعصب القومي يقع خارج هذه الحرب البشعة. في الواقع، إن كل ما يحتاج إليه الروس هو الأمان؛ أي نهاية التفجيرات الإرهابية واختطاف الرهائن. ولا تعني أرض الشيشان نفسها الشيء الكثير لمعظم من يعيش خارجها. يشترك الروس، رغم كل شيء، إلى العيش في دولة قوية مستقرة. وكان يبدو أن الحرب الثانية تعد بذلك، لكن الوعد كان

خاوياً، وإذا أمتعتم النظر في الغطاء الذي صنعه نظام بوتين الشمولي، ستجدون أن روسيا ضعيفة تماماً كما كانت أيام يلتسن.

يجب على الروس أن يدركوا أنه ليس لديهم خيار سوى محاولة بناء سلام قوي، أو الخضوع للمرض العضال المتمثل في الحرب المستعرة إلى ما لا نهاية. ربما تكون هذه الأهداف صعبة، لكن الأصعب عدم تحقيقها.

يمثل التطرف لدى كلا الطرفين المتحاربين عقبة كبيرة بالطبع أمام المفاوضات، وهو الأمر الذي تفاقم نتيجة لموت مسخادوف. يوجد على الجانب الروسي الكثير من المهتمين بالحرب لتحقيق مصالحهم الخاصة. هناك أعداد متزايدة من المتطرفين على الجانب الشيشاني، الذين لا تقبل أي حكومة روسية التفاوض معهم.

يدّعي الكرملين، في الواقع، أنه يقاتل الإرهاب العالمي في الشيشان، وليس الانفصاليين أو أي ثوار قوميين آخرين. ورغم تضخيم وجهة النظر هذه، إلا أنها فشلت لفترة طويلة في إثبات مصداقيتها في الغرب، الذي يرى فيها حرباً داخلية، وليس جهاداً مستوراً. على كل حال، إن التعتيم الإعلامي الشامل تقريباً المفروض من قبل موسكو جعل تمرير هذه الرسالة أسهل بكثير، بعد أحداث 9/11، منح الرئيس الأميركي جورج بوش موافقة غير المشروطة على مثل هذه الأعمال. لقد كان ذلك بالطبع مقابل تفاضي الكرملين عن نشر قوات الولايات المتحدة في آسيا الوسطى السوفياتية سابقاً وأفغانستان. لكن منذ تلك اللحظة، بدأ قادة العالم، وصحفيون ومحللون، والذين لم يزر الكثيرون منهم الشيشان، في تغذية النظرية الخاطئة بأن الشيشان جزء من ظاهرة القاعدة.

ما هي الحقيقة؟ من ناحية، يشكل المتطرفون الإسلاميون في الشيشان مجموعات مسلحة، ويتمتعون بدعم كبير من الجيل الشاب. إنهم يتلقون مساعدات خارجية ضخمة مما يعني امتلاك القوة والقابلية لتنفيذ هجمات إرهابية. ومن ناحية أخرى، لا يتمتع الإسلاميون المتزمتون بأي دعم من المجتمع الشيشاني الذي يهيم عليه تقاليد صوفية عملية، وهو ما يعني عدم إفساح المجال لأي وافد خارجي، ومن النادر الذكر أن الشيشان من الناحية العملية مكان ليس من السهل على المرتزقة أو

المتطوعين بلوغه. ولا وجود في الحقيقة لشيء يشبه الحدود الباكستانية مع أفغانستان. ولا يمكن عبور الحدود الجنوبية مع جورجيا سوى في أوقات محدودة من السنة، وحتى عندها لا تستطيع سوى مجموعة صغيرة من المتمردين التسلل. كما أن أرض الشيشان صغيرة للغاية، وستحتاج مجموعة صغيرة من الثوار إلى أن تكون على دراية كبيرة بالمناطق المحلية حتى تستطيع دمج العديد من الأجانب بين صفوفها. يضاف إلى ذلك أنه لا يوجد دليل مؤكد على تورط ملحوظ للشيشانيين في قتال قوات الولايات المتحدة في أفغانستان أو العراق من أي مصدر مستقل. وللتاريخ: ليس بين المواطنين الروس الثمانية المحتجزين في معتقل غوانتانامو أي شيشاني.

ولا تبدو الخطوط الفاصلة بين الفصائل الشيشانية العديدة واضحة من الناحية العملية. وقد يكون أحد المتطرفين الإسلاميين ببساطة شخصاً لم يرَ خلال حياته كلها سوى الحرب. وربما يستطيع المرء الاستماع إلى أحد الثوار الأكثر اعتدالاً وهو يطلب المساعدة الغريبة دون جدوى، والذي يربط بين روسيا وبين الاحتلال. عادة، يكون هذا المتطرف فقيراً، مُحاطاً بالعنف واليأس، ومن السهل عليه ردّ الأمور إلى أسباب دينية. لكن على الأرجح أن أفعاله تستمد جذورها من الانتقام، أو القومية وليس من التوجهات الدينية، بغض النظر عن الولاء لبرنامج القاعدة غير الواضح.

يقى الاحتمال المرعب أن يهيمن المتطرفون على المقاومة المسلحة بعد موت مسخادوف، الذي يمثل كل الإسلاميين المعتدلين والقوميين العلمانيين. إذا حصل هذا الأمر فيكون كارثياً بالنسبة لروسيا، وبالنسبة للشيشان على وجه الخصوص. قبل سنة 1994، اشترك القادة الانفصاليون، مثل كل الشيشانيين، مع الروس بالعيش في الاتحاد السوفياتي السابق. كانوا يتحدثون الروسية جيداً، ويعرفون الثقافة الروسية، ويخدمون مع الروس في الجيش السوفياتي، كما أنهم قاتلوا مع الروس ضد إخوانهم المسلمين في أفغانستان. إلا أنه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، أضحت طموحات الشيشانيين الكامنة واضحة للعيان. واليوم، لقي القادة الأوائل حتفهم أو تمّ نفيهم وملاحقتهم قضائياً، وانخرط خلفاؤهم في الحرب، وهم لا

يعتبرون أي شيء متطرفاً. ويدعو الإرهاب الإسلامي واحداً من توقعات الكرملين التي تحققت.

لا يبدو مثل هذا الخطر مرتبطاً بالشيشان وحدها. فالسياسات القاسية، والفساد، وفقدان النظام القضائي المستقل، وتراجع الديمقراطية تنتشر في شمال القوقاز بأكمله، وهي التي كانت تعتبر مشاكل خاصة بالشيشان وحدها. في أنغوشيا، تم إقصاء الرئيس المحلي المحبوب رسلان أوشيف من منصبه لإفساح المجال أمام أحد زملاء الرئيس بوتين في الاستخبارات. حيث تقع الاشتباكات النارية بين الجنود الروس والمتمردين كل أسبوع تقريباً. لقد أشعلت مجزرة اختطاف رهائن مدرسة بيسلان التوتر مجدداً بين سكان أوسيتا الشمالية والأنغوش، وزعزت ولاء الأوسيتيين التقليدي للدولة ذات الهبة، وتعاضم قلق السلطات في كاباردينو - بالاكارييا من نشاط الإسلاميين المتطرفين بحيث تم إغلاق جميع المساجد عدا واحد فقط. أما في داغستان، فأصبحت السياسات والأعمال أكثر عنفاً وفساداً، مما قلل أحياناً من دور قوانين روسيا الاتحادية. ولا يمكن مقارنة نشاطات الجماعات الإسلامية المتطرفة هناك بتلك الموجودة في الشيشان، والتي تعتبر منطقة تحتوي على كل الشروط الواجبة لانتشار التطرف الديني والسياسي.

في الغرب، يمكن مشاهدة وجهات نظر أكثر واقعية حول التكلفة الباهظة التي تدفعها الشيشان بعد حادثة بيسلان. لقد أظهرت التغطية المباشرة المربعة لاستيلاء الإرهابيين على المدرسة، والإخفاق التام لعملية الإنقاذ بوضوح مدى عمق المشكلة في هذا الجزء من العالم. ولم يُعر أحد كبير اهتمام لادعاءات الرئيس بوتين حول المؤامرات العالمية. وسرعان ما تم كشف زيف التقارير عن وجود أعداد كبيرة من العرب وحتى الأفارقة بين محتجزي الرهائن. لقد أثار فشل الرئيس بوتين الواضح في الرصد بين تلك الكارثة والفوضى التي سادت الشيشان خلال السنوات العشر الأخيرة الشكوك، ولم تتضمن مطالب محتجزي الرهائن، والتي تم حجبتها عن عامة الشعب الروسي، أي عناصر جهادية، وإنما مححورت حول انسحاب القوات الروسية من الشيشان. كان رد فعل الرئيس

بوتين على تلك الأزمة عندها بأن أعلن وضع حدٍّ لانتخابات المحافظين المحليين وتقييد عمل البرلمان الذي لا يتمتع أصلاً سوى باستقلالية محدودة، مما أثار استغراب المجتمع الدولي.

ترى أعداد متزايدة من المراقبين الآن أن تصرف الرئيس بوتين في الشيشان يشبه إلى حدٍّ بعيد تصرفاته في المناطق الأخرى كافة، ومنها القضاء على منافسه المحتمل، ميخائيل خودركوفسكي الفاحش الثراء، وإغلاق وسائل الإعلام الحرة، ودعم التصويت للحكومة في أوكرانيا وللدكتاتور البيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو. لكن الأمر الذي يبعث على الدهشة أنه لطالما اعتبر الشيشان نموذجاً شاذاً في بحث روسيا عن الاستقرار والديمقراطية، رغم أنه أحد أهم الأسباب في تدهور روسيا العسكري، والسياسي وحتى الأخلاقي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وليس على الهامش أبداً. كانت الشيشان السبب في قطع بوريس يلتسن العلاقات مع المطالبين بالإصلاح والديمقراطية، وهي السبب في انتخاب الضابط السابق في الاستخبارات السوفياتية "كي جي بي" فلاديمير بوتين رئيساً للبلاد، وهي السبب في تخلي القوميين المتطرفين عن أحلامهم في لعب دور مركزي، وهي السبب في فشل إصلاح القوات المسلحة.

يعتقد الروس بشكل كبير أن الشيشان مسألة ثانوية. ويصبح هذا الأمر أسهل عندما تُخفي وسائل الإعلام حقيقة ما يجري، بغض النظر عن الخراب الذي حل بغروزني والعديد من القرى الشيشانية الأخرى، وقبور عشرات الآلاف من المواطنين والجنود الروس. لكن يجب مواجهة هذه الحقائق في نهاية المطاف. ولطالما وصف الروس المهزقون طموحهم الوحيد بالعيش فيما يدعونه بلداً طبيعياً. لكن حتى يجاهروا الأفعال التي حدثت باسمهم، ستبقى هذه الرغبة المتواضعة بعيدة النال.

الوضع الحقيقي في الشيشان عصي على فهم الروس العاديين والكثير من الأجانب اليوم. لم يعد يزور ذاك البلد سوى قلة فقط من الصحفيين الأجانب. وينهب المراسلون الروس، باستثناء مراسل أو اثنين يمتلكان الشجاعة الكافية، إلى هناك ليكونوا بوقاً للحكومة. تنقل مواقع الإنترنت كل وجهات النظر، لكنها لا

تقدّم سوى القليل من الحقائق. تكمن الطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة في السفر إلى داخل الشيشان والحديث مع الشيشانيين العاديين، لكنّ هذا الأمر بالغ التعقيد ويتطلب وقتاً طويلاً، وقد يكون خطيراً أحياناً.

في مثل هذا الجو، قد لا يجد المرء أفضل من إعادة قراءة أدب تولستوي، الذي قدّم منذ قرن مضى عدداً من الدروس البالغة التأثير حول روسيا والشيشان، والتي تستحقّ قراءتها من جديد. وربما يجذب القارئ إلى مشهد شهير في رواية حاج مراد حيث تدمر فيه القوات الروسية قرية شيشانية.

لم يكن الجنود الذين وصفهم تولستوي في تلك الرواية أشراراً، وإنما كانوا يؤمنون بيساطة أن هؤلاء السكان يستحقون العقاب، إنه واجبهم، والذي ربما كان تلخيصاً للموقف الاستعماري القائل إن الناس الذين يدخلون الإمبراطورية "يفهمون بالقوة فقط". إنها نظرية قديمة جداً، وهي اليوم مفعمة بالنشاط في أذهان الروس فيما يخصّ الشيشان كما كان الحال بالنسبة لأسلافهم في القرن التاسع عشر.

يدعى البطل في تلك الرواية الخاصة بطلر، وهو شاب محبوب تقدّم له حرب الشيشان المغامرة والجهل للهروب من ديونه في سانت بطرسبرغ. ولا تحرك مشاركته في عملية لتدمير إحدى القرى أي نوازع أخلاقية. ينفذ جنوده مهامهم كما لو أنهم يجمعون الحطب أو يقطعون المحصول. إنهم ينحسبون البشر والمسجد، ويطعنون فتى صغيراً بالحرايب، ويطلقون النار على الماشية، ويدمرون أشجار الفاكهة وأكداس التبن، ويحرقون المنازل. لا تعتبر هذه الأفعال جرائم في نظر الروس. وتكون مهمتهم في ذلك اليوم إقناع الشيشانيين في القرية للتحويل ضد قائد المقاومة الإمام شامل، والطلب إليهم الانضمام إلى دولة روسيا العظمى.

إنه مشهد تكرر (وما زال يتكرر) عدداً لا يحصى من المرات في قرى وبلدات الشيشان خلال العقده الماضية، مع التحول المعاصر نحو استخدام بنادق الكلاشينكوف والطائرات الحربية. إلا أن المهمة تبقى نفسها: إقناع الشيشانيين بأنهم مواطنون روس.

لهذا لا بد أن يكون الروس المعاصرون مهتمين بوصف ردة فعل القرويين الشيشانيين بعد مغادرة القوات العسكرية. وفي ضوء هذا، قد يفهمون سبب عدم انتهاء تلك المهمة بعد عشر سنوات على إرسال يلتسن للجيش للمرة الأولى إلى هناك، والتي قد تدوم إلى الأبد. ويستحق المشهد أن نقتطعه كاملاً:

"اجتمع كبار السن في مسجد القرية وجلسوا القرفصاء على أعقابهم ليناقدشوا الوضع. ولم ينطق أحد بكلمة كراهية تجاه الروس. كانت مشاعر الشيشانيين، كباراً وصغاراً، أقوى من الكراهية، إنها لم تكن كراهية بقدر ما كانت رفضاً لاعتبار أولئك الكلاب الروس بشراً. ساد الشعور بالاشمئزاز، والتفزز، والذهول من القسوة البالغة لتلك المخلوقات لدرجة أن الدافع لقتلهم - مثل الدافع لقتل الفئران والعقارب السامة والذئاب - كان غريزة طبيعية مثل الحفاظ على النفس".

لم يكن لدى القرويين سوى خيارين: إما البقاء على نفس الحال وإعادة إعمار ما بنوه سابقاً بمشقة بالغة، والذي تمّ تدميره بسهولة ويسر، وتوقع مواجهة نفس الأمر في كل دقيقة؛ أو العمل خلافاً لقواعد دينهم والاستسلام للروس بالرغم من التفزز والاحتقار الذي يشعرون به تجاههم.

بعد أن صلبى كبار السن، قرروا بالإجماع إرسال مبعوثين لطلب المساعدة من شامل، وبدأوا مباشرة بإعادة إعمار ما تمّ تدميره.

تمهيد

دارغو، الشيشان

جلس شامل باسايف، البطل الشيشاني، والرجل الأول على لائحة المطلوبين في روسيا، أمامي وأشعل لفافة تبغ من نوع مارلبورو. وكنا في ساحة مليئة بالغبار على طرف دارغو، وهي قرية ضائعة عند سفح جبل كثيف الأشجار في القوقاز، بعيداً عن خطوط القتال. ورغم ذلك كانت نحوم فوقنا طائرة حربية على ارتفاع شاهق لتتكرنا بالروس.

كان باسايف يرتدي بذلة مموهة باهتة الألوان، ويضع رقبة إسلامية في خيط أسود تخين حول عنقه. وكان يحتضن بنديقية تستعملها القوات الخاصة الروسية مزودة بكتام للصوت، ويشرب شيئاً أسود محلى بكمية كبيرة من السكر في كوب مصنوع من التلك. وجلس بالقرب منه حراسه الشخصيون: رجال طوال القامة، بوجوه قاسية ملتحية؛ وجوه من عصر آخر يرتبط بالكتائب المقتس. كانت صدورهم تمتلئ بالفتائل اليدوية، ومخازن ذخيرة الكلاشينكوف، والخناجر القوقازية الطويلة المسماة كنزلى.

خيم الصمت التام عندما بدأ باسايف بالكلام، وهو يمتلك لحية كثيفة، وعينين دكنتين، كما أنه صغير الحجم بشكل مثير للدهشة. إنه الرجل نفسه الذي شق طريقه قبل أسبوعين إلى قلب مستشفى في بلدة بندفوسك الروسية، واحتجز 1500 شخص كرهائن لتطبيق وقف إطلاق نار بالقوة في الشيشان، ونجا بفعلته. إنه المجرم (بحسب التعريف الروسي) الذي استخدم البشر الأبرياء دروعاً له، والذي حول مستشفى إلى ساحة قتال. ولكنه أيضاً الرجل الذي خدع الجيش الروسي، وأجبره على إيقاف حربه. إنه الملك في دارغو.

وبضحك باسايف قللاً: لقد أظهرنا لهم قوتنا، وضحك الجميع معه. ويلعب باسايف دور الإرهابي الشهير. إنه رجل ثرثار، ومضطرب، وقد ألقى خطاباً سياسياً فيه الكثير من الغرور في لحظة، وتبأى بما حققه في الحرب في اللحظة التالية. لكن، سرعان ما هدأت مظاهر الشجاعة، وتوقف عن الحديث عما حققه في بندفوسك، أو حتى عن هذه الحرب القاسية. وعاد إلى مثله الأعلى شامل الأسطورة، المحارب الإسلامي الذي قاد صراعاً لمدة 25 سنة ضد جيوش القيصر في القرن التاسع عشر. تحدث عن القمع الذي قام به الشيوعيون. واستعد، فوق كل هذا، الحدث الذي غلف الشعب الشيشاني

بأكمله مثل الكفن: الترحيل الجماعي الذي قام به ستالين سنة 1944، والذي طال كل رجل وامرأة وطفل إلى آسيا الوسطى. ذلك للترحيل الذي لم ينبج منه واحد من بين كل ثلاثة مبعضين.

بدأ بلساييف بالقول: "عندما هجرنا ستالين، استولى الروس على منازلنا الفارغة، ولقنوا حجارة قبورنا واستخدموها في رصف الطرق، والجسور، وحظائر الحيوانات". كان صوته هائلاً، لكنه مليء بالكراهية. وبالطبع ما الذي قد يكون أكثر فظاعة بالنسبة لشعب يعتبر الأسلاف يمثل أهمية الأحياء، والذين يرفعون أنفسهم عن مقاعد سيراتهم احتراماً عند المرور قرب المقابر؟ لقد قام السوفييت بتفكيك المنبت وربما الآلاف من شواهد القبور، فقط لإهانة وإذلال للشعب الشيشاني. مات ستالين، وعاد الشيشانيون إلى أرضهم في النهاية، وحالما منحت لهم الفرصة، جمعوا كل الحجارة مجدداً وبنوا نصباً تذكرياً، وحنينة للموتى في قلب غروزني. لقد استعملوا كرامتهم.

ثم اندلعت هذه الحرب. نساء جديدة، وعنف جديد. ويقول بلساييف: "عندما اجتاح الروس غروزني، فتحوا نيران دبابتهم على اللصبة للتذكاري، ولأخذ الجلود الحجارة من المقابر الموجودة على لثل المطل على "الخان - قلعة"، وبنوا مرابض لمسكرهم".

حقق بلساييف بالأرض مطولاً من قبل، خلال المزاح، لكنه كان ينظر آنذاك مباشرة إلى عيني: "لماذا إخضاع الشعب بأكمله، وتحولنا إلى عبيد لهم، لكننا لن نتحمل مثل هذه الإهانات بعد الآن. لقد قاتل أبائنا ولجأنا حتى للموت في سبيل ذلك أيضاً. نحن أيضاً يشرفنا الاستمرار بالقتال".

من السهل نسيان لعنة التاريخ تحت تأثير سحر جبال القوقاز. فالحققت تخفي عادة في أشهر الشتاء، ويصبح وجودها غير مرئي، مثل الضريبة، ويأمل المرء دائماً في إلقاء نظرة خاطفة. في أحد أيام شباط، وبعد فترة تقنين استمرت أسبوعين أثناء عملي لصالح وكالة الأنباء في الشيشان، استطعت تجاوز الجرعة الزائدة من الطين، والدماء، وبرودة الحرب. وقرب الحدود، انفرجت السماء الرمادية القائمة بشكل غير متوقع، وظهر القوقاز إلى الجنوب منا. أشار سائقي الشيشاني إلى كازيبك، وهي ثاني أعلى قمة في السلسلة، وضحكت بابتهاج. وبدأت قمة الثلج الدائم ضخمة، ناصعة البياض، وشعرت بالارتياح لثانية واحدة فقط، وأصابتني الدوار، وبدأ كأن الحرب لم تقع أبداً. لكن هذه لم تكن سوى زيارتي الثالثة فقط إلى الشيشان، وقد تعلمت درساً قاسياً وهو أن القوقاز الروسي قد يبدو مثل حديقة، لكنها حديقة سامة.

وتمتد الجبال إلى مسافة بطول كوبا، أي 1100 كيلومتر، وهي تفصل المنطقة بين بحر قزوين والبحر الأسود بشكل مستقيم، مثل ضربة السيف. إلى الجنوب يقع ممر القوقاز، وتشكله جمهوريات أرمينيا، وأذربيجان، وجورجيا التي استقلت عن الاتحاد السوفياتي السابق، وإلى الشمال، تقع جمهوريات شمال القوقاز الروسية السبع التي تتمتع بالحكم الذاتي، وربما تكون المنطقة الأكثر تنوعاً عرقياً على كوكب الأرض.

تبدو قرية ما في إحدى الجمهوريات التي تتمتع بالحكم الذاتي مثل داغستان أو أنغوشيا بعيدة هذه الأيام، لكن لظالما كان شمال القوقاز، وسيبقى، عين العاصفة الجغرافية - السياسية. ومنذ القدم حتى عهد المغول، وهي فترة تمتد أكثر من 2000 سنة، استخدمت القبائل الآسيوية القوقاز كحجر بين آسيا وأوروبا. وأصبحت الجبال عندها عنصراً استراتيجياً هاماً بين الإمبراطوريات الروسية، والفارسية، والعثمانية. واليوم، تقع المنطقة على مشارف احتياطيات النفط الضخمة في بحر قزوين، وهي إحدى آخر المصادر العالمية الكبيرة غير المستثمرة، والتي من المحتمل أن تتحول إلى خليج عربي آخر في القرن الحادي والعشرين ومسرح لصراع دولي شرس.

كانت أولى زياراتي إلى شمال القوقاز في صيف سنة 1994 إلى الشيشان، التي أعلنت الاستقلال من جانب واحد. لم يأخذ الكثيرون هذه الخطوة الانفصالية للجمهورية على محمل الجد عندها. لم تكن الجمهورية مشهورة عندها سوى بالفوضى، والجريمة، والأوبرا الهزلية. لقد شعرت مباشرة بأني وصلت إلى دولة غريبة، وهي بالتأكيد ليست جزءاً من نفس بلد صالت بطرسبورغ وسماره.

عندما اندلعت الحرب في ذلك الشتاء، كان من المتوقع أن يضع الجيش الروسي حداً سريعاً لثورة هؤلاء الناس البسطاء. إلا أنه وبدلاً من ذلك، لقن المقاتلون الشيشان الروس درساً مرعباً منذ اليوم الأول للحرب، والتي يقول عنها الكثيرون إنها أسوأ من تجربة السوفييات في أفغانستان. ردّ الروس بتسوية غرورزي، المدينة التي يقطنها 40.000 شخص، بالأرض. وفعلوا الشيء نفسه

لكل القرى الواحدة تلو الأخرى. لقد كان الأمر خارج القدرة على الاستيعاب.

وقال الرئيس بوريس يلتسن إنه: "يفرض النظام الدستوري"، لكن يوماً واحداً في غروزني كان كافياً لإدراك أن شيئاً عميقاً الجذور يأخذ مجراه. لطالما كانت الشيشان المكان الذي تنطلق منه لعنات التاريخ والانتقام من عقابها. كانت المعارك تجري في نفس المواقع تماماً، وباستخدام نفس التكتيكات، ونفس الشعارات التي كان يتم استخدامها قبل 100 أو 200 سنة. لدى الشيشانيين قول مأثور: "يحاولون اجتياحنا كل 50 سنة، لكننا سنقاتل حتى النهاية"، وقد تم ترديده حتى أصبح شعاراً. لكنه حقيقي بشكل مخيف. كل 50 سنة.

ماذا عن بقية شمال القوقاز؟ رغم عدم وجود ثورات انفصالية مسلحة أخرى، إلا أن القوميات المسلمة الأخرى مثل أديجي وأفراس لديها قواسم مشتركة كثيرة مع الشيشانيين، تاريخياً وسياسياً. لقد نفذ ستالين نفس الترحيل الجماعي ضد الأنغوش، والكاراشاي، والبالاكار. لم تكن قصص تلك الشعوب معروفة فعلياً سواء في روسيا أو خارجها. لكن هل تعتبر تلك الشعوب أما عاقلة في برائن التاريخ، أم أن جمهورياتها قد أصبحت أقاليم روسية بحتة؟ وهل الشيشان تشكل الاستثناء الوحيد، وتمثل الهوية التي تحدث لمرة واحدة فقط؟

انتقلت من عاصمة داغستان ماكشكالا التي يوجد فيها مزيج عرقي لا يُصدق، إلى جبال كاراشاي - شركسيا، وإلى قرى الدراويش المسلمين في أنغوشيا وشجرة الآلهة في أوسيتا الشمالية. في البداية، لم ألاحظ سوى التنوع القبلي والغوي، والحدود الداخلية. لكن عندما تجمعت الأجزاء، انبثق عنها طراز خاص بتلك المنطقة. لم يعد شمال القوقاز مجرد منطقة روسية أخرى، وإنما البقايا المضطربة من إمبراطورية. من الواضح أنه حصل تغيير كبير منذ عهد القيصرية، لكن التشكيلة الأساسية - المتمثلة في المجموعات العرقية الصغيرة المنتشرة في كل مكان، والتي تقاتل للاحتفاظ بخصوصيتها الثقافية وحتى الفيزيائية - لم تتغير قط. غادرت المنطقة مع سؤال آخر، هل سينتهي النزاع، وهل سيلتقي شمال القوقاز وروسيا على أرضية مشتركة؟

اليوم، تشمخ مآذن المساجد المبنية حديثاً فوق أسطح المباني، رغم أن السوفييات اعتقدوا سابقاً أنهم استأصلوا الدين. في أمسيات الصيف الهادئة، يدعو صوت المؤذن الهادئ باللغة العربية إلى الصلاة، ويظهر رجال كبار السن ذوو لحى بيضاء مع عصي منقوشة لتساعدهم على المشي في آخر الطريق، ويمشي خلفهم أطفال يافعون يرتدون قبعات بيضاء، هؤلاء الأطفال يكونون قد تلقوا لتوهم دروساً في الدين والإيمان. داخل المسجد، تحتجب النساء خلف ستارة تفصلهن عن الرجال، ويرتدين ملابس أنيقة وأغطية للرأس، ويركعن على سجاجيد صلاة. لا ينطق أحد بكلمة روسية واحدة، ومهما كانت الجمهورية التي تتمتع بالحكم الذاتي - من داغستان، إلى كاباردينو - بالاكاريا أو أديجي - فإن المشهد ذاته. تقول الخريطة إنها الحدود الجنوبية للاتحاد الروسي، ولكن هذا الكلام نظري. في الحقيقة، عندما يدخل المرء إلى تلك المنطقة يكون قد غادر روسيا منذ وقت طويل إلى العالم القديم، والمساوي لجبال الله.

الفصل الأول

المنطقة المتشابهة

لماذا هي متشوقة للعودة إلى الوطن؟ إنها ترى الجبال نفسها من الحصن كما كانت تراها من قريتها - وهذا كل ما يريده هؤلاء المتوحشون.
من بطل من زماننا، للكاتب ميخائيل ليرمنتوف.

1. أرض الشر

مطار فنوكوفو، موسكو.

يعتبر مطار فنوكوفو، الواقع خارج موسكو، لبوابة إلى شمال القوقاز. من هنا تنافر كل الطائرات المتجهة إلى غروزني، ستيفاربول، ماكشكالا، وفلاديفوقاز. يمثل المطار بالباعاء، والمسافرين الذين يصطحبون كميات ضخمة من الأمتعة، والمتسولين، والكلاب للشاردة وحملات المرضى. الشيء الوحيد تقريباً الذي يزين المطار هو لوحة جدارية كبيرة في حتمات الرجال. تغطي اللوحة معظم الجدار، وتظهر فيها عدة ديناصورات غاضبة مع خلفية من الجبال والبراكين. تطير في الأجواء طائرة تجارية صغيرة بنولف صفراء ينظر منها المسافرون، إنها تمثل شرققة هشة من الحضارة فوق عالم جبلي بدائي. بالنسبة لأولئك الذين يقضون لحظاتهم الهادئة الأخيرة قبل التوجه إلى القوقاز، قد يكون هذا بمثابة الإنذار لهم!

تعرفني النساء عند البوابة من رحلاتي السابقة إلى الشيشان، لطالما كنا نتجاذب أطراف الحديث. هن ثربية سوفياتية حقيقية، إذ لا يكثرن للقائمين الجدد عند بوابة المغادرة الرثة (المخصصة للجانب فقط)، ويهزرن لكتفاهن استخفاً ويلتفتن بعيداً عند أي طلب. لكنني أحببت أولئك النسوة حقاً. إنهن حنونات، ويتضايقن من اضطرابي للذهاب إلى غروزني، ويدعونني الفتى المسكين. ويكررن دائماً نوعاً من الأكاشيد المملة، ويسمعن لي باستخدام هواتفهن، وتغمرهن المساعدة فعلاً إذا أعطيتهم هدية صغيرة مثل قطعة شوكولاته.

تمتلي الأحاديث بالمزاج، إلا أننا نتفادى الحديث عن الشيشان. في أحد الأيام، وخلال رحلتي السادسة، تم توجيه سؤال لي عن رأيي في الشيشانيين. ولم أنس ببنت شفة، كما أنسي لم أرغب بذلك حقاً؛ لأن لا فائدة ترجى. في كل مرة أفتح فيها فمي، كان صديقي يسارع إلى قول جملة أخرى. كان لدي تطبايع بأن الأمر مكبوت منذ زمن طويل جداً. إن الشيشانيين كسالى، وهذا ما أستطيع قوله بثقة - إنهم كسالى. كل ما يريدونه هو الهبة، والأسنان الذهبية، والملابس الأنيقة، والسيارات الفارهة والكثير الكثير من الأطفال. إنهم لا يعرفون شيئاً سوى السرقة والخداع. للشعب الوحيد الذي عمل بجد في الشيشان هم الروس. أولئك الذين بنوا كل المنازل كانوا من الروس. أما كل ما يقوم به الشيشانيون فهو السرقة. إنهم لراهابيون، ومجرمون. تسيطر عصابات المافيا على الأمور هنا. والأشخاص المصدقون البسيطون أقلية بين الشيشانيين.

كنت أرى مجرمي القوقاز يتلون ويذهبون عبر هذا المطار طوال الوقت. ورغم أنهم لا يعملون، إلا أنهم يعيشون بشكل أفضل منا نحن الروس. كيف يحدث هذا؟ نحن

الروس عمال مجتهدون، ونكدٌ طوال حياتنا مقابل كويوكات (جزء من الروبل) قليلة، ومع ذلك يعيش الشيشانيون لأفضل منا. الشيشانيون، والأرمن والجورجيون كلهم سواء. إنهم يأخذون منا، ولا ينتجون شيئاً بأنفسهم. حبذا لو شاهدتم كيف كنا نعيش في روسيا في الأيام الغابرة، في ظل حكم الشيوعيين. لم يكن هناك شيء على رفوف المتاجر. هل تعرفون لماذا؟ لأن كل شيء كان يذهب إليهم، إلى القوقازيين.

في الظاهر، يبدو شمال القوقاز مثل العديد من المناطق الأخرى التي تقطنها أعراق غير روسية، والتي عانت لعقود من الروسة (فرض الروسية). تبتعد البلدات الرئيسية عن النمط السوفياتي حيث نجد الشوارع العريضة التي تحيطها الأشجار، والمباني السكنية القائمة اللون حول الباحات، والساحات الرئيسية المقفرة المسماة لينين والمباني الحكومية الموحشة المبنية من الخرسانة. الروسية هي اللغة الرسمية، فيما تبدو المدارس وكل ميادين الحياة الأخرى المختلفة سوفياتية الطراز. ولكن الروسية تتوقف هناك، ويقتى شمال القوقاز فخوراً جداً بتمايزه.

إن خرائط المنطقة متداخلة للغاية، وتمتد لتشمل تضاريس شمال القوقاز كله بجمهوريةاته السبع الصغيرة التي تتمتع بالحكم الذاتي: داغستان، الشيشان، أنغوشيا، أوسيتا الشمالية، كاباردينو - بالكاريا، كاراشاي - شركسيا، وأديجي. ورغم أنها تقع على السفح الجنوبي من الجبال، وضمن أراضي جورجيا، إلا أن منطقتين أخرتين هما أوسيتا الجنوبية وأبخازيا تعتبران جزءاً من عالم شمال القوقاز. لا يستطيع أحد أن يحدد بدقة عدد المجموعات الموجودة في تلك المنطقة، والتي يبلغ عدد سكانها مجتمعين 5.3 مليون نسمة. ويقول البعض إن عددها 40، فيما يقول آخرون أنها تصل إلى 100. في داغستان وحدها، والتي تبلغ مساحتها مساحة مقاطعتين إنكليزيتين، ويبلغ عدد سكانها حوالي 1.8 مليون نسمة، يبلغ عدد المجموعات العرقية الصغيرة المعترف بها رسمياً 34، ويتكلم معظمها لغات لا تنتميها الجماعات الأخرى. لكن حتى ذلك الرقم يخفي خلفه جزءاً كبيراً من هذه المسألة المعقدة لأن مجموعات عديدة تنفصل بدورها إلى مجموعات فرعية أصغر، ونجد هذا أحياناً في قرية صغيرة واحدة، وتتكلم كل من تلك المجموعات لهجتها الخاصة. تشكل قومية آثار العدد الأكبر بين سكان داغستان، مع 500.000 - 600.000 نسمة، لكنهم يتوزعون على 14 فرعاً منفصلاً لكل منها أسماء ولهجات خاصة به.

بالانتقال شرقاً من البحر الأسود إلى بحر قزوين، نشق طريقنا عبر التضاريس المستدحلة، حيث تبدو الملامح الروسية أكثر ظهوراً في الطرف الغربي لكل من أديجي، وكاراشاي - شركسيا، وكاباردينو - بالكاريا وأوسيتا الشمالية. يهيمن العرق الروسي هناك مع نسبة تصل إلى 68% في أديجي، والتي تمّ تحجر غالبية سكانها بعد الغزو الروسي قبل 130 سنة مضت. في الجمهوريات الغربية الأخرى، يمثل الروس حوالى ثلث السكّان. إلى الشرق في أنغوشيا، والشيشان وداغستان، يمثل شعب شمال القوقاز الغالبية العظمى. قد يقضي المرء أياماً بطولها دون أن يرى روسياً واحداً، وربما يكون الإسلام هنا أكثر حضوراً من أي جزء آخر من الاتحاد السوفياتي السابق.

تقول الأسطورة أنه عندما خلق الله العالم، وزّع الأمم على كوكب الأرض، ولكن تلك الشعوب اختلطت فوق ما يدعو الرحالة القدماء جبال اللغات. وقد كتب بلني أن الإغريق القدماء كانوا يحتاجون إلى 300 مترجم لإدارة أعمالهم في شمال القوقاز، ولاحقاً "قمنا نحن الرومان بإدارة شؤوننا بمساعدة 130 مترجماً". وتبقى الجبال لغاية اليوم مخبراً لغوياً حياً. في داغستان، قد تتكلم قرية ما لغة آفار، والقرية التالية دارغن، والتالية ليزغن. توجد ثلاث مجموعات لغوية رئيسية: التركية، كما هو الحال في كاراشاي وبالكاريا؛ والأوروبية - الهندية، كما في أوسيتا، والمأخوذة أصلاً عن الفارسية؛ ولغات القوقازيين الأهلية الحقيقية. تنقسم لغات القوقاز، والتي لا يمكن إيجادها في أي مكان آخر من العالم، إلى فرعين: الشرقية مثل الشيشانية، والأنغوشية، والعديد من اللغات الداغستانية، ولهجات أديجي الغربية التي يتكلمها سكان أديجي، وكابارد والأبخاز.

في الحقيقة، استطاعت هذه اللغات الازدهار بعد قرن من الروسة، رغم أن إحداها قد تصبح عديمة الجدوى بعد مغادرة القرية التي تتكلم بها، وتمثل مجتمعة إرادة أهل شمال القوقاز في البقاء على قيد الحياة. لقد أظهر إحصاء سنة 1989 أن كل مجموعة تعرف لغتها الأم، ويتكلم معظمهم الروسية كلغة ثانية. المجموعة الأكثر ولأً للغتها هي الشيشانية، حيث يتكلم 98% من الشيشانيين لغتهم الخاصة. يتكلم الأنغوش، والكاباردين، والآفار، والأديجي، والكاراشاي وما يزيد عن 90%

من سكان الجبال المحليين رسمياً لغتهم بطلاقة. يعتنق سكان أوسيتا في غالبيتهم الدين المسيحي من ضمن شعوب الجبال، وقد ساعدهم ذلك على تبني القوانين الروسية بشكل أفضل من باقي الشعوب الأخرى. بالرغم من ذلك ما يزال 87% منهم يتكلم الأوسيتية بطلاقة. قد تبدو هذه الأرقام وريدية، إلا أن العديد من أهل شمال القوقاز يتكلمون أشكالاً مشوهة من لغتهم الأم واللغة الروسية. مع ذلك تبقى هذه النسبة جديرة بالملاحظة مقارنة بمن يتكلم اللغة الغالية في بريطانيا على سبيل المثال. ما تزال القوميات القديمة مثل الروتشول - وهم شعب داغستاني لا يتجاوز عددهم 20.000 نسمة - تتكلم لغاتها الخاصة وتعيش في أراضيها الجبلية فيما يشبه المعجزة.

كانت القبائل تنقسم في الماضي وفقاً للغة والوديان التي تعيش فيها، ولكنها تشترك في الثقافة القتالية نفسها، وفي الموقف ضد الاستعمار الروسي في أحيان كثيرة. يمكن رؤية الأحذية الجلدية الطويلة، والثوب الطويل الضيق عند الخصر الذي يدعى شوكسكا، والقبعات المصنوعة إما من جلد الغنم الخشن أو جلد الحمل الناعم في كل أنحاء المنطقة. يحمل كل الرجال كنزاً، وهو سلاح حاد وثقيل، يختلف من سيف قصير إلى خنجر طويل. لقد أصبح معظم سكان المنطقة مسلمين يعتنقون المذهب السني بمرور الوقت، مع وجود أعداد صغيرة من قوميات تاتس والأذربيجان الشيعة. لا يوجد من يعتنق المسيحية سوى أهل أوسيتا الذين يسكنون الجبال على طول ممر داربال. بكلمات أخرى، تحولت المنطقة التي شهدت نشوء العديد من الانقسامات إلى بوتقة انصهار. تشكل الجبال حالة ذهنية مفتوحة، ويُطلق على الناس الذين يعيشون هناك اسم كورتسي - وهي كلمة روسية تعني سكان الجبال.

تعتمد الجبال جزءاً مهماً من الروابط التي توحد سكان الجبال في كل الجمهوريات السبع التي تتمتع بالحكم الذاتي. تعيش أكثرية السكان اليوم في السهول، إما في المزارع أو المدن. ورغم ذلك، ما تزال الرابطة الجبلية تشكل جزءاً هاماً في أنساب هؤلاء السكان. يمكن للمرء أن يلتقي، عبر كل تلك المنطقة، برجال يعيشون في المدينة، ولم يسبق لهم أن حلموا يوماً بامتطاء صهوة حصان أو

العيش في قرية معزولة، لكنهم مع ذلك يتكلمون عن أقرانهم في الجبال. حتى شعب الأديجي الذي لم يعش في الجبال منذ القرن التاسع عشر عندما أجبره الروس على الانتقال إلى السهول، يعتبر نفسه جبلياً.

يصل متوسط ارتفاع تلك الجبال إلى 3600 متر فوق سطح البحر. ويرتفع جبل البروس 5642 متراً، وهو ليس الأعلى في القوقاز وحسب، وإنما يفوق ارتفاعه ارتفاع أعلى قمة في سلسلة جبال الألب مون بلان التي يبلغ ارتفاعها 4810 أمتار. في الصيف، تبدو الغابات المسروقة عند سفوح الجبال، والتي تمتلئ بالطيور والحشرات، مثل الغابات الاستوائية. يمكن رؤية الذئاب، والذئبة، والخنائير البرية، والنسور، والثيوان والققط البرية في بعض أجزاء تلك الجبال. لقد تلقت مرة جبلاً شاهقاً في أديجي، وفاجأت زوجاً من الماعز البري، وهي حيوانات كبيرة وسوداء، ولها قرون ملتفة، والتي اختفت خلف الصخور في ملح البصر. في داغستان، تختفي سفوح الجبال في الظلمة، ولا يمكن مشاهدة سوى المنحدرات الشاهقة والصخور الشاخقة في ضوء القمر، حيث لا توجد سوى الرياح. وتبقى الجبال مدهشة وساحرة حتى هناك. يساهم المناخ المعتدل في هبوب نسائم دافئة عبر الوديان التي تحدها المنحدرات الشاهقة، ويكفي غمر واحد لري أشجار الحور وبساتين الفاكهة الجميلة.

تبدو ثقافة كورتسي متناقضة. ويسود الشعور بالفخر والاعتزاز منذ العصور الوسطى، رغم أن قطع الطريق يعجب الناس. كرم الضيافة أمر مقبوس، بالرغم من حتمية النزاعات الدموية. إلا أن الأكثر أهمية هو تقديس الحرية من قبل الأفراد، والعشائر، والقوميات وكل شعوب شمال القوقاز. تُعتبر الحرية حقاً مكسباً بالولادة، ولا بد من الدفاع عنها بكل الوسائل الممكنة بما في ذلك القتال وشن الحروب. لقد ساد شكل بدائي من الديمقراطية لقرون. يعتبر الشيشانيون أنفسهم أحراراً مثل الذئاب، ولا يخضعون لأي سيد سوى العائلة والعشيرة. لم يكن هذا معروفاً في روسيا قبل الثورة، وكان يوجد في مناطق غربية أخرى مجتمعات كهنتوتية، لكن النبلاء ورجال الدين هم الذين كانوا يتخبون القادة. في القبائل الأديجية - الشركسية الغربية كان هناك قواعد صارمة للطبقات الاجتماعية التي يحتل النبلاء المرتبة الأعلى بينها، ولكن

كان باستطاعة العبيد تغيير أسيادهم بشكل طوعي، وكانوا يعيشون غالباً في راحة نسبية ويتمتعون بحرية الحركة، ووفقاً لجيمس بل، البريطاني الذي أمضى وقتاً طويلاً في أدبيسي خلال حروب القرن التاسع عشر، كان باستطاعة الرقيق شراء حريتهم مقابل 30 ثوراً، وكانوا يصبحون أحراراً في حال موت سيدهم.

بالنسبة للروس، يشكّل القوقاز مشكلة كبيرة للإمبراطورية. وقد تكون المنطقة جميلة، إلا أن الشعب مشكوك بأمره. يتمتع معظم القوقازيين بشعر أسود وعيون داكنة اللون وهذا ما يجعلهم معروفين للروس الذين يكرهون الغرباء، ولشرطة موسكو سيئة السمعة. ما علينا سوى نسيان كل التنوع، لأن بشرة كل القوقازيين سوداء بالنسبة للكثير من الروس. الوصف الأكثر عنصرية هو ما يدعى "الصفات القومية للقوقازيين".

يعمل معظم القوقازيين في موسكو كباعة للفاكهة، ويجلسون خلف أكوام ضخمة من الفاكهة الخضراء، والصفراء، والحمراء والتي يعتبرونها هبة وطنهم الخصب. ويستمر تفوق هؤلاء السود على منافسيهم نظراً لحصولهم على دكاكين أكثر، وتقدمهم لخيارات أوسع وأسعار أرخص، وهو ما يسبب امتعاض الروس. يساهم التجار في إذكاء الشكوك العميقة حول جمع الثروة والتي غذّتها الخطب الشيوعية حول المضاربة في الأسواق العالمية وتخريب الاقتصاد. يدعم باعة الفاكهة رجال أعمال غامضون يمتدقون شوارع موسكو بسياراتهم بي أم دبليو ومرسيدس. تؤكد الوجوه المقطّبة الجبين والثروة الخيالية مخاوف الموسكوفيين. بالطبع هناك أيضاً مجموعات من رجال الأعمال الروس، يضعون سلاسل ذهبية، ويرتلون قمصاناً سوداء، وترافقهم فتيات جميلات، ويركبن سيارات ألمانية. لكنّ القوقازيين يملكون عنصر تهديد كبير، وبغض النظر عما تقوله جنسياتهم، يقعون أجناب وغرباء. تظهر العنصرية لدى كلا الجانبين، وربما يكون القوقازيون مخادعين، وسارقين، وهمجيين إلا أن الروس جناء، وشرسون، وملحدون. يمكنكم سؤال أي شخص عن ذلك. وقال لي أحد الشيشانيين بمجدية: "الروس، من هم؟ إنهم غجر، ليس إلا. وليس لديهم أي شيء خاص بهم، ولهذا يأخذون من الآخرين. ولقد كان بوشكين من أفريقيا، وليرميتوف اسكتلندياً، وكانت كل طبقتهم الحاكمة تتكلم الفرنسية".

ترسم الأخبار المصورة من شمال القوقاز مشهداً متواصلاً لعمليات اختطاف الرهائن، والتفجيرات، والنزاع العرقي الغامض. الجانب الآخر المقبول من القوقاز الذي وصل إلى غرف معيشة الروس هو الفلكلور، مثل العروض التي يؤديها الأطفال وهم يرتدون قبعات من الفرو، وقفطان الشركس، ويضعون الكنزال. يتم عرض فيلم السجين القوقازي السوفييتي الساحر بشكل ثابت سنوياً، وفيه تظهر الأزياء المزركشة والتقاليد القوقازية الغريبة في اختطاف الزوجة، إضافة إلى كرم الضيافة. كان هناك محاولة جادة لصنع فيلم حقيقي عن النزاع مع روسيا في شمال القوقاز تحت عنوان السجين القوقازي أيضاً، وهو مأخوذ من قصة للأديب تولستوي، ويمتلئ بالقوالب الجاهزة حول شعوب الجبال. ورغم تصويره الرائع في جبال داغستان، وترشيحه لنيل الأوسكار سنة 1997، إلا أن السجين القوقازي لم يتعد عن نفس النمط القديم المتمثل في إبراز قطاع الطرق والفلكلور. لقد استخدم ممثلو الفيلم لغات محلية مع ترجمة إلى الروسية لإظهار المصادقية، وظهر أحدهم يتحدث اللغة الجورجية على أنه داغستاني. ولم يستطع الكثير من عشاق السينما الروس معرفة الفرق، فقد كان الممثلون بالنسبة لهم يتحدثون بكلام أجنبي غير مفهوم.

لقد اختلطت مشاعر الكراهية هذه، غير المحددة أحياناً، بعلاقة حب طويلة الأمد. في القرن التاسع عشر، أعجب القيصر ألكسندر الثاني بنضال الشيشانيين ضد جيوشه لدرجة أنه أتاح لقائهم المهزوم شامل العيش براحة وكرامة في الإقامة الجبرية، وقد أصبح أحد أبناء شامل جنرالاً روسياً. وكان القائد الشيشاني الانفصالي المعاصر جوهر دوداييف جنرالاً سابقاً في القوى الجوية السوفييتية، وتولى قيادة قاعدة قاذفات جوية نووية. لقد أصبح شيشاني آخر، رسلان خاسيبلايوف رئيساً للبرلمان الروسي. وحتى الطاغية ستالين كان جورجياً من منطقة القوقاز.

لقد أعجب شعراء وأدباء روسيا الكبار في القرن التاسع عشر ليرمنتوف، وتولستوي وبوشكين بالجبال والوفاة، والقبائل القوية. وقد كتب ليرمنتوف، في سن العاشرة، أن القوقازيين يشكلون مصدر خوف له. وفي سنة 1841، وعندما أصبح في سن 26، مات في مبارزة في يياتكورزك، وهو متجع للمياه المعدنية بطل

على الجبال التي لطالما أحبها. وبالنسبة لثائر مثل ليرمتوف، مؤلف الرواية الرائعة *بطل من زماننا*، كان شعب شمال القوقاز وعمده على روسيا يمثلان أكبر إلهام عرفه في حياته. اعتبرت بعض كتاباته، مثل القصيدة الآتية، مدمرة؛ فقد كانت الحرية موضوعاً خطيراً في بلد وُلد فيه ملايين الناس كرفيق مستعبدين وتُحيط بقيصره حاشية نخوية.

لوداع يا روسيا للوضيعة،
يا أرض العبيد، وأرض الأسود،
والملابس الزرقاء،
والخضود الخاضعة.
ربما سأجد خلف قمم القوقاز،
رلحتي من الدموع،
ومن عيون القلياصرة التي ترى كل شيء،
ومن أذنانهم التي تسمع كل شيء.

وكان ليو تولستوي سعيداً لرؤية الجبال وسكانها. في قصته *القوقازيين*، استفاق أولنين النبيل الشاب القادم من موسكو في رحلته الطويلة التي قطعها في عربة تجرها الخيول إلى الشيشان ليشاهد القوقازيين للمرة الأولى ويصبح مفتوناً بهم. تنظر إلى السماء وفكر في الجبال. نظر إلى نفسه لو إلى قفوتشيا، واستمر بفكر في الجبال. مرّ قوقازيان بجانبه، وكان كل واحد منهما يضع مسدسه في قرابه الذي يتأرجح خلفه، وتبدو قوائم حصانيهما بيضاء... والجبال.

لم ينظر الروس في تلك الأثناء إلى أهل شمال القوقاز سوى على أنهم إما همجيين نبلاء أو قطاع طرق. يبرز هنا نشيد ليرمتوف بعنوان *هذه القوقازي* الذي يأمل فيه الشيشاني بأن ينال طفله بسلام، رغم أنه يكي ويشحد خنجره القاطع. كان القوقازيون مصدر إلهام لبعض أروع أعمال هؤلاء الأدباء، الذين لم يكونوا في النهاية سوى جنود للإمبراطورية وزوّار لبلدان جديدة. لقد قاموا بمحض إرادتهم بحمل قلم في يد، وسيف في اليد الأخرى، وقاتلوا لإخضاع الشعب الذي أحبه كثيراً. في قصيدته الجدل، يتوقع ليرمتوف بأن الغزو الروسي وفقدان سكان الجبال لحريةهم أمر محتم. لقد كتب يصف الجيوش الروسية: "مرعبة، مثل

غيوم تنذر بعاصفة، إلى الشرق، أقصى الشرق، إنهم يتدفقون". كان تولستوي يؤمن بالاستعمار، وقد تطوّر للمشاركة في العمليات العسكرية سنة 1851. كان بوشكين خلال وجوده في الجيش ينصح معارضي الغزو الذي قاده الجنرال يرموف في بداية القرن التاسع عشر قائلاً: "يجب أن يشعر القوقازيون بالإذلال لأن يرموف قادم".

انعكست العلاقة المتشابكة مع ساكني الجبال على السياسات الروسية في المنطقة وتناحجها المتناقضة بشكل واضح. لقد مثل نظام الجمهوريات التي تتمتع بحكم ذاتي ضمن الاتحاد السوفييتي السابق قمة هذه التناقضات، ونظراً لطبيعة نظام الحكم الاستبدادي الشامل للحكومة السوفياتية، كان من المتوقع أن تعلن موسكو شمال القوقاز جزءاً آخر من الدولة العظمى، ولكن عوضاً عن ذلك سمح الشيوعيون للجماعات العرقية المختلفة بإنشاء حكوماتها، ورموزها، وحدودها، وعواصمها الخاصة بها. من المفيد هنا التفكير - وهذا ما يقوله مخططو الحملات الدعائية دائماً - بأن السياسة السوفياتية، والدور الروسي بشكل عام، كانا خيرين، وأن الدولة قد وجدت طريقة لعيش الأقليات الموجودة فيها. لكن في الحقيقة، أثبت ذلك الحكم الذاتي العكس، وأظهر فشل السوفيات الأساسي في إنهاء الدور الاستعماري في القوقاز، وهو الفشل الذي ما تزال آثاره اللاحقة بادية لغاية اليوم.

لقد أظهرت موسكو كرمها بالاعتراف بوجود أقليات تمثل شعوباً مستقلة ليست من العرق السلافي، ولها هوياتها وتاريخها الخاص. لكن ذلك الكرم لم يتجاوز الحدّ الرمزي الأدنى الذي يهدف إلى إخفاء دولة بوليسية قاسية يحكم فيها الحزب الشيوعي كل شيء، والتي لم تكن القوميات الأخرى غير الروسية فيها ماثوبة 100%. على سبيل المثال، وبالرغم من أن الاتحاد السوفييتي السابق شكّل طبقات نخبوية ضمن الأقليات العرقية، إلا أنه لم يسمح باختراق سيطرة السلافيين سوى في بعض الاستثناءات المحلودة. نعم، كان جوهر دودايف جنرالاً سوفياتياً، لكنه كان أول شيشاني يصل إلى تلك الرتبة.

في الحقيقة، إن أوطان تلك الجماعات العرقية لم تكن تتمتع بأي حكم ذاتي، وفي نفس الوقت كان يتم تصنيفها بمقتضى القانون على أنها بلدان أجنبية. بكلمات

أخرى، بقيت تلك الجمهوريات كما كانت أيام القياصرة: أراضٍ مستولى عليها تحكمها موسكو مباشرة كمستعمرات. تمثلت المكافأة غير المتوقعة لهذا النظام - والتي تُعطي انطباعاً خاطئاً هذه الأيام بأن نظام الحكم الذاتي خيري - في إجبار تلك الأمم الصغيرة على إلغاء الطبقات الاجتماعية وهو الأمر الذي حفظ هوياتها ولغاتها إلى درجة كبيرة. لقد تجلّى الجانب المظلم من هذا الميراث بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في سنة 1991، إذ تجمدت العلاقات بين موسكو والسكان المحليين على ما كانت عليه في بدايات القرن التاسع عشر، وليس كما يجب أن تكون في أواخر القرن العشرين. ليس في هذه العلاقات أي نشر للديمقراطية أو تحرير من الاستعمار. إن فكرة مقاومة الفكر التي تبناها الشيوعيون والقياسرة تبدو ساكنة الآن، لكنها ما تزال كامنة في النفوس تنتظر الانطلاق في دورة دموية أخرى.

2. الثوار

يمثل فندق نارت في نالشك، عاصمة كاباردينو - بالكاريا، أحد الأحلام السوفييتية في الحداثة والذي تحول إلى رمز للتهكم والسخرية. بني نارت، كجزء من برنامج سياحي ضخم، من الزجاج والخرسانة بالكامل، ويشرف على الحديقة المركزية. يمكن تقريباً سماع ما يفكر به مسؤولو الحزب: "سيكون هذا مشابهاً لما هو موجود في الغرب". لكن بعد مضي عقد على تبني الشفافية والبيروترويك (الانفتاح الاقتصادي والسياسي في روسيا)، يواجه نارت أوقاتاً عصيبة، ولا يبدو أنه سيستعيد عافيته. تلبو الغرف الضيقة الرثة بكسوتها الخشبية المزيفة، والسجاجيد المتسخة التي تمتد من الجدار إلى الجدار، وأجهزة التلفاز المزاجية، فارغة، ببساطة لقد أغلقت عدة طوابق من الفندق، كما لو أنها ستكون مسرحاً لموت مأساوي. المطاعم الضخمة في أسفل البناء، المصممة لاستيعاب عدد كبير من الرفاق، مقفلة هي الأخرى، فيما لا تعمل كل المصاييح في قاعة الانتظار، أما موظفو الاستقبال فلا يجلبون ما يشغلون به فراغهم. ورغم ذلك أحبيت النزول في نارت، ليس لأن الخيارات الأخرى لم تكن خالية من الصراصر وحسب، وإنما لأنني كنت ببساطة أبحث عن مخلوقات نارت، وهم عمالقة أسطوريون كانوا يطوفون في شمال القوقاز كثوار، وأبطال وقطّاع طرق.

يفرق القوقاز في الأساطير والحرفات حتى دون مخلوقات نارت. ويقال إن جنة عدن موجودة في أبخازيا، وأن حمامة نوح استراحت على جبل إلروس. وطبقاً لروايات مختلفة، تمّ تقييد البطل الإغريقي القديم بروميثيوس في القوقاز إما إلى جبل إلروس أو كازبك بعدما سرق النار من الآلهة، وهبط جيسون على شاطئ جورجيا أثناء بحثه عن الصوف الذهبي. لكن مخلوقات نارت بالتحديد قوقازية، وهي كذلك منذ فجر التاريخ، وتربطها صلات القرى بكائنات تيتان الجبّارة في الأسطورة الإغريقية. ورغم أن أصل نارت مجهول، إلا أنها تُنسب لكل أمة الآن باعتبارها ميراثاً مشتركاً، وأسلاًفاً للجميع. تعيش تلك المخلوقات في القصائد الملحمية، وأسماء المحلات وفندق نالشك، لكنها تمثل أيضاً رمزاً للثورة البطولة في ذهنية شعوب شمال القوقاز.

هناك نارت بعين واحدة، ويدعى "عين الشمس" في الأساطير الشيشانية والداغستانية، وهناك نارت أوسيتا الذي يعيش في قصر تحت الماء، وهناك نارت الذي تسلق جبل إلروس ليستوضح غموض القميتين التوأمين، وهناك نارت الذي يجلب الرفعة والجد، وفارت الذي يتسبب بالخراب والدمار. في واحدة من أشهر أساطير أدبي، قام الإله بتثبيت ذلك العملاق إلى جبل عقاباً على تمرده وعصيانه. في روايات أخرى، يذكر أن كلباً وزوجاً من الذئاب وضعوا لحراسه، وكلما قضم الكلب تلك السلسلة الثقيلة، كانت تتجدد وتصبح أثقل. وفي رواية أخرى يذكر أن نارت أدبي قيد وسلط طائر لهاجمته. لا يمكن تمييز أسطورة نارت تقريباً عن نظيرتها الإغريقية، التي يتمّ فيها تعذيب بروميثيوس إلى الأبد. وبنافش الباحثون اليوم توقّعت ظهور كل منهما، رغم أن معظمهم يعتقد أن الإغريق الأوائل ربما رحلوا أولاً من شمال القوقاز إلى البلقان.

في رواية أخرى لعقاب نارت، يصرخ البطل بغضب، ويتسبب ذلك بعاصفة من البرد والرعد، ويظهر الرق عندما يضرب العملاق سلسله، وتتساقط حجارة ضخمة على سفوح الجبال، ويصبح السكان المحليون خائفين من أن يصيبهم غضب الإله أيضاً، ويقررون عدم إطلاق سراحه؛ إنهم يرفضونه. هل يمكن أن تكون هذه الأسطورة أصل أبريق، الخارج عن القانون المنعزل في الجبال، الذي يُعجب به الناس ويخافونه في الوقت نفسه؟

لقد كان الأبريغ رجالاً غادروا قراهم إلى التلال لسبب أو لآخر؛ وكانوا عنيفين، وقساة، وربما أشراً، ومُطاردين وقراصنة. ورغم اضطرابهم للعيش كخارجين عن القانون، إلا أن الأبريغ كانوا يحظون بالاحترام، وكانوا يُعتَرون أبطالاً في بعض الأحيان. ورغم كونهم دمويين، وسارقين، إلا أنهم كانوا رجالاً جريئين ويائسين. كان العديد من الأبريغ مجرمين، أو قد يكون أحدهم اضطر للقتل دفاعاً عن شرفه أو شرف عائلته، وفرّ لتجنب الثأر. لكن عندما حصل الغزو الروسي، استمر بعض الثوار في القتال لوحدهم في الجبال والوديان والغابات، وأصبحوا رمزاً للحرية، وكانوا أبريغ أيضاً. قد يكون مثل هؤلاء الرجال قاطعي رؤوس، لكنهم قد يكونون أيضاً مثل روبن هود، مدافعين عن الناس. كانوا يُعرفون باسم قطّاع الطرق الشرفاء.

يدعى أحد أشهر هؤلاء زلمخان، الذي مات في الشيشان في بداية القرن العشرين. تنصب بقايا تمثال له مع حصانه خارج سيرزن يورت، وهي قرية تقع على سفوح جبال القوقاز تعرّضت لقصف المدفعية والطيران الروسيين سنة 1995. وقد أحب داخا كيسلطان، وهو مؤرخ محلي، هذا الموضوع؛ وأخبرني بأن ممرّد زلمخان بدأ عندما تحوّلت مشاجرة مع زعيم القرية الذي وضعته روسيا من أجل فتاة إلى صراع دموي.

أسر الروس زلمخان وولده ولقيدا إلى غروزني. والباقي غير مهم. واستطاع زلمخان الهروب بحفر نفق إلى خارج السجن، وعلش من يومها في الجبال، وتحول إلى أبريغ. كان ذلك في سنة 1901، وكان معروفاً من قبل الجميع، ويستطيع البقاء في أي مكان مع أصدقائه، الذين كانوا يخفونه ويساعدونه. لقد بدأ في القتال ضد الجنود الروس، الذين كان يُنظر إليهم على أنهم غزاة وكافرون مسيحيون. وكلما احتاج زلمخان إلى رجال، كان يستطيع إيجادهم.

تسي أحد الأيلم، بحث برسالة إلى عقيد في حصن كيزلاير الروسي قال فيها: "لا تختبئ مثل امرأة، تعال وقللني في كيزلاير". ضحك الروس وقالوا: "كيف يمكن له الوصول إلى كيزلاير المحصنة؟ وهكذا اصطحب زلمخان 60 رجلاً يرتدون الملابس القوقازية، ودخلوا مباشرة إلى كيزلاير وسرقوا البنك. قبل مغادرتهم، ترك زلمخان رسالة للعقيد يقول فيها: "لقد انتظرتك. أين كنت؟" حدث ذلك سنة 1907، بعدها عاد إلى الجبال ووزّع الأموال على شعبه، وأعطى بعضاً منها إلى ليتلي.

أصيب بالمرض وهو شاب في العقد الرابع من عمره، وكان عليه رؤية أقربائه في شالي، إلا أن أحد أقاربه لأمه وشى به، فمات هناك وهو بقتل.

يمثل زلمخان حالة تقليدية: فهو مناهض للروس، وسارق بنوك، ويجيد استخدام السلاح، ولا يمكن التغلب عليه إلا أنه وقع أخيراً ضحية للخيانة. لكن الدفاع عن الأبريق ليس سهلاً دائماً، ويعتمد ربما على الجانب الذي يناصره المرء، وهم في الغالب الأعم يرتبطون بقطع الطريق والسرقة. تقول إحدى الأساطير إن الله عندما وزع الأغنياء على العالم كله، نسي القوقاز، وعندما أدرك هذا الخطأ، سمح للناس هناك بالذهاب إلى الجيران وأخذ ما يحتاجونه. ويقول ليومتوف في بطل من زماننا: "تجري السرقة في دماء هؤلاء الشركس (أهل شمال القوقاز). وسيسرقون أي شيء إذا سنحت لهم الفرصة. سيأخذون حتى الأشياء التي لا يريدونها لأن الأمر عندهم سيان". في الواقع، كانت السرقة جزءاً من الحياة العامة في شمال القوقاز في القرن التاسع عشر. ولكن عمليات السطو تلك لم تكن عادية أو صغيرة، وإنما تشكل غارة كاملة تدعى نابغ. في مجتمع القرن التاسع عشر، لم تكن مهاجمة الروس أو قرى الجماعات العرقية الأخرى واختطاف الماشية والرهائن تعني الحصول على البضائع التي لا يمكن تأمينها بأي طريقة أخرى وحسب، وإنما وسيلة للارتقاء بالمستوى الشخصي أيضاً. إن شأن العائلة يرتفع عندما يكون رجالها شجعاناً خلال الغارات وينجحون في سرقة الخيول، والأغنام والأشياء الأخرى أثناء التعرض لإطلاق النار. كلما زادت الأعمال البطولية الشجاعة، كلما زادت الغنائم، وهذا بالطبع يعني المزيد من الكرامة. إلا أن العائلة التي لا يوجد فيها رجال مقاتلون تفقد هيبتها، ويمكن مهاجمتها بسهولة.

ومثل نارت والذئاب، يفضل ثوار شمال القوقاز الأسطوريون والحقيقيون الموت بطريقتهم الخاصة. إنه جزء من هالة الأبريق. لقد مات آخر أبريق شيشاني مناهض للسوفييات سنة 1976. تقول الأسطورة أنه نزل من الجبال - حيث عاش لعقود - إلى مقبرة القرية في كومزومولسكوي، واستعد للموت. كان في العقد السابع من عمره آنذاك، وحيداً ومريضاً ولا يزيد وزنه عن 38 كيلوغراماً. تم التعرف عليه وإبلاغ السلطات السوفياتية التي حاصرت في المقبرة وقتلته فيها، ولكن

ليس قبل أن يتمكن من اصطيد ضابط الاستخبارات السوفياتية المكروه وبعض الجنود الآخرين. عندما حاصرت القوات الروسية تسعة من الأبريغ في رواية تولستوي القوقازيين، قرروا أيضاً القتال حتى الموت، وتلفادي أي إغراء بالهروب، ربطوا أنفسهم ببعضهم البعض، وجهازوا أسلحتهم وأنشدوا أغنية الموت.

لم ينقرض الأبريغ بعد، وخصوصاً في الشيشان، وهو المكان الذي اجتاحتها الفوضى في بداية التسعينيات، وأصبح مرتعاً للخارجين عن القانون. أحد هؤلاء الأبريغ هو ألودي حمزتوف، المبتز الوسيم الذي استخدم ماله غير الشرعي في شراء أسلحة لدعم الدفاع الأسطوري عن بلدة أرغون ضد الروس عند بداية الحرب سنة 1994. مثل معظم الأبريغ، عاش ألودي ومات بسبب السلاح، فقد انتهى نتيجة لصراع دموي بدأ بقتله لرجل عحوز.

يعتبر البعض رسلان لابزانوف الشيشاني أبريغاً آخر، وهو سَفَاح مخيف ينتقل مع جيشه الخاص في سيارات بي أم دبليو، وعربات الجيب اليابانية الصنع. لقد انشق عن جوهر دودايف بعدما أصبح الأخير الرئيس الانفصالي للشيشان سنة 1991، وانتهى به المطاف بالعمل مع قوات الغزو الروسية. لكن مهما تكن الحقيقة حول لابزانوف، والتي تؤكد كل الدلائل على أنها بشعة، فقد لعب دور الأبريغ، ومنح المال للفقراء من سكان قريته تولستوي يورت في شمال القوقاز، كما بنى منزلاً له على شكل قصر صغير، مع برج ومتاريس خرسانية، يحرسه حراس أشداء مزودون بمدافع رشاشة. عندما التقيته سنة 1995، كان لابزانوف يضع خواتم وأساور ذهبية ضخمة، بالإضافة إلى مسدسين، وخنجر كنزالي، وبندقية آلية، ورشاش من نوع "عوزي" ومدفعاً رشاشاً على طاولته. كان يمتلك أيضاً غرفة مليئة بمعدات الفيديو. كانت زوجته النحيلة تضع ترحاً أبيض ثقيل على وجهها، ربما كان لابزانوف الوحيد الذي يمتلك جهاز تكييف في كل الشيشان، وعندما سأله عن الفصيل الذي يدعمه في الشيشان، أجابني: "أنا إلى جانب الفقراء". لقد أصاب العنف لابزانوف أيضاً، واعتبره المقاتلون الانفصاليون خائناً، وقتله سنة 1996 أحد رجاله من مسافة قريبة في قلعة تولستوي يورت.

يتنن أهل شمال القوقاز استخدام الخيول في المعارك بفضل خبرتهم التي اكتسبوها عبر التاريخ من الأبريق. ووصف جيمس بيل في ثلاثينيات القرن السابع عشر كيف تحول محارب عجوز أشيب من أديجي إلى مصدر فخر للعائلة.

"لم تكن أعماله البطولية مجرد سلب ونهب، فقد كان يذهب إلى الحروب بصحبة أولاده الخمسة (فقد أحدهم مؤخراً في الحملة العسكرية عبر كوبان)، والذي أجبر أكبرهم سناً على تدريب نفسه بمهاجمة جنديين بمفرده، لقد استطاع الشاب ذبح أحدهما وأسر الآخر".

بفض النظر عن كونهم قطاع طرق، لطالما كان أهل القوقاز يتمتعون بثقافة خاصة ضاربة الجذور. وحتى قيام الثورة البلشفية، كان كل رجل يحتفظ بسلاح ناري في منزله، وكانت تتم تربية الأولاد على معرفة استخدام السلاح، ولم يكن الرجل يذهب إلى أي مكان دون سلاحه. كانوا يعتبرون أن خنجر كنزال "محكمة الاستئناف الأخيرة"، وتم نظم قصائد على شرفه. ويتقد هذا الحب اليوم، رغم أنه لا يظهر سوى بشكل متوار.

دعاني رجل عجوز في أعلى جبال داغستان، وتحديدًا في مدينة غوينب، لتناول الغداء في منزله الواقع في زقاق متفرع من شارع الإمام شامل. كان سيد بوتين يبلغ من العمر 77 عاماً، وبطلاً من أبطال الحرب العالمية الثانية، إضافة لكونه مواطناً سوفياتي التربية بشكل كامل. وكان ما يزال يستخدم كلمة توفارش، أو رفيق، ويعتقد أن الميار الاتحاد السوفياتي كارثة. في الحقيقة، لم يكن لديه الكثير ليقوله ضد الحكم السوفياتي، ولم يتطرق إلى الاضطهاد الديني، وترحيل أهل الجبال من إخوته المسلمين، أو القمع السوفياتي الدموي لمحاولات القوقازيين نيل الاستقلال بعد الثورة البلشفية. كان رجلاً مخلصاً للعهد السوفياتي أكثر من الحكم الداغستاني. سألته قبل مغادرتي إذا كان يملك كنزاً، لأنني اعتقدت أنه بسبب تقدمه في العمر قد يكون لديه قطعة أثرية ثمرة للاهتمام. وأخيراً، وبشكل غير مقصود، ضربت على وتر حساس بقولي: "القوقازيون يحبون أسلحتهم"، فأجابني: "هذا شأن مضى. لقد أخذوا ذلك."

أخذ السوفييات كل شيء ولم يتركوا لنا شيئاً. لا كنزال، ولا بنادق ولا حتى بنادق صيد. هذا محزن يا توفارش".

بالسرغم مما قاله سيد بوتين، لا يوجد نقص في الأسلحة اليوم في داغستان. فالمرء يستطيع شراء أي سلاح مشاة من الترسانة الروسية من السوق السوداء. في الشيشان المجاورة، وحتى قبل الحرب الأخيرة، كان يوجد سلاح على الأقل في كل منزل، وقله هم الرجال الذين لا يعرفون كيفية إطلاق النار أو تنظيف البنادق، وأول ما يفتخر الآباء بإظهاره لضيوفهم هو مهارات الكاراتيه التي يتمتع بها أطفالهم. كان أحد الرجال الذين قابلتهم، وهو محارب في صفوف القوات الانفصالية، يجمع السكاكين لدرجة أنه صنع سكينه الخاص به. كانت تلك السكاكين ثقيلة وحادة، ومنقوش عليها آيات من القرآن الكريم. كان جاره خبيراً في الفنون القتالية، ويمتلك سيفاً حاداً بمقبض مزدوج لدرجة أن المرء يستطيع حلق شعر ذراعيه به.

إذا كان الرجال في الماضي يمتلكون خيولاً سريعة وقوية، ويستطيعون امتطاعها مثل الآلهة (يعتبر الروس خيول كابارد من بين أفضل خيول العالم)، فاليوم يمتلك الرجال عدداً من السيارات السريعة قدر ما يستطيعون، وقد تخلّوا عن اللادا والسيارات السوفياتية الأخرى لصالح سيارات أفضل وأسرع، ويستطيع المرء القول إنه تمّ استبدال الرموز القديمة المتمثلة بمخناجر كنزال والخيول السريعة ببنادق الكلاشينكوف وسيارات بي أم دبليو.

رأيت في الشيشان سيارات رولز رويس، وبورش، وليموزين أميركية سوداء والأكثر غرابة على الإطلاق سيارة شرطة أميركية أصلية، كاملة مع العلامات والأضواء، تلاحق الماشية الشاردة، يمتلك قائد أنفوشيا سيارة جيب هامفي خاصة بالجيش الأميركي، كما أن أحد المناظر المؤثرة فعلاً هو موكب سيارات قادة الجماعات العرقية في داغستان، والذي يبلغ حوالى 20، وتمثل كل سيارة فيه جماعة داغستانية مختلفة، والذي مرّ عبر الشيشان للمشاركة في محادثات أزمة الرهائن سنة 1996. تنتشر سيارات المرسيدس، والبي أم دبليو، والكاديلاك وعربات الجيب اليابانية أمام منازل القرى والمزارع الموحلة، وتتميز

بأبواقها القوية وأضوائها الساطعة. يقفز الحراس الشخصيون الذين يحملون رشاشات من السيارات قبل أن تتوقف تماماً، ويظهر المندوبون في بحر من القبعات المصنوعة من جلد الحمل والمعاطف الأنيقة. يعتبر هؤلاء الرجال أكثر ثراءً من أسلافهم في القرن التاسع عشر، لكنهم يواجهون بعض الصعوبات في التعرف إلى بعضهم البعض.

كان أحد رجال الأعمال، والذي يبلغ من العمر 24 عاماً، والذي التقيته في العاصمة الداغستانية ماكشكالا، يتحدث عن سيارته كل دقيقتين. وقال لي: "أمتلك في موسكو سيارة بي أم دبليو من الفئة السابعة، وهنا في ماكشكالا لديّ تويوتا لاندكروزر"، ووصف سيارة الي أم دبليو بأنها شيء رائع. وهو شاب ضخم البنية، تمتلئ أصابعه ومعصماه ورقبته بالذهب، وهو لمرّة ما وصفه "بالقليل من التجارة هنا وهناك". لكن المؤثر فعلاً أن لديه رمزاً آخر للجبال: "يعيش أهلي في أعلى الجبال، لن تصدق جمال وروعة الطبيعة هناك. في أيام السوفيات، اعتاد الأرمين على الذهاب إلى هناك وإنفاق آلاف الدولارات لصيد الحيوانات. ستصاب بآلام الرأس في أول يوم لك هناك، إلا أنك ستعتاد بعدها على الجو، وتشعر كما لو أنك إله. توقفت مرة إحدى السيارات على بعد كيلومتر مني، وكنت قادراً على شم رائحة العادم في غصون لحظات لأن الجو نظيف جداً هناك. في الحقيقة لا أذهب إلى هناك كثيراً، ولم أعد إلى ذلك المكان منذ أن غادرته سوى مرة واحدة فقط. لا يوجد ما نفعله في الأعلى، لا يوجد سوى المسنين، إنهم يعيشون حتى يبلغوا 120 سنة".

ووفقاً للدراسات الحديثة، تبقى غرازز المقاتل ملتصقة بالأرض. في إحدى الأمسيات التي قضيتها في بلدة كراشايفسك الجبلية في كاراشاي، عبر بعض الجنود الروس من الحامية المحلية الشارع من أمام سيارتنا، وكنت برفقة ثلاثة رجال من كاراشاي، ويدعى أحدهم مراد وعمره 23 عاماً، والذي قال: "أنظروا، لقد غادروا، سيهربون حتى الثمالة الليلة"، فيما كان الجنود، الذين دفعوا قبعاتهم إلى الخلف، يسرون باتجاه السوق. وقال مراد: "نسمع دائماً صوت عيارات نارية عندما يخرج الجنود من الحامية ليلاً، والحمد لله أنهم لم

يُطلقوا النار علينا بعد. لكن إذا فعلوا ذلك، نستطيع التسلسل عبر ذلك الحشد وأخذ أسلحتهم، ليس لدينا الكثير، لكننا نمتلك سكاكين، وسنقطع بها الكثير". واعتقدت أن مراد كان يتفاخر أمامي لأن المرء غالباً ما يفكر بتلك الطريقة في القوقاز، خصوصاً عندما يسمع مثل هذا الكلام الكبير، ويلتقي الكثير من المحاربين الموقنين. لكنني شاهدت مراد لاحقاً يرمي بالسكاكين في بستان فاكهة. لقد استطاع إصابة شجرة تفاح صغيرة من مسافة عشر خطوات، وكانت السكين تترك أثراً على جذع الشجرة في كل مرة.

في قصيدته إسماعيل بيك، كتب ليرمنتوف بأن القوقازيين "يردّون الخير بالخير، والشر بالشر، والكراهية معهم لا حدود لها تماماً مثل الحب". توقع معظم الجنرالات الروس أيام القياصرة، الذين هزموا نابليون، وبنوا إمبراطورية امتدت من بولونيا إلى المحيط الهادئ، أن يركع القوقازيون أمام قوتهم، ولم يأخذوا بالحسبان بعض أشرس حروب العصابات في التاريخ. قبل أن تبدأ الحرب في الشيشان سنة 1994، اعتقد الناس الشيء ذاته: إن كلام الشيشانيين الكبير حول المقاومة ليس سوى وهم، ولكن القتال وإتقان استعمال السلاح يجري في عروق أشخاص مثل مراد. إنه موجود في الدماء. عميقاً في الدماء.

حاج يورت، الشيشاني

أخبرني فيزيت عبر الظلمة الحالكة أن: "الشيء الوحيد الذي قام للروس بتعليمنا إياه هو كيفية القتل". كان المقاتل الشيشاني الشاب يجلس على سفح تل بالقرب من مكان مقنص للمسلمين يدعى حاج يورت، في بقعة جميلة من القوقاز تدعى الجبال السوداء.

كانت الحرب في شهرها السادس في منتصف العام 1995، وتم إجبار الشيشانيين على التراجع. كنا نتواجد في أحد آخر معقل الثوار. كانت الليلة هائلة، لا يعكّر صفوها سوى هدير الطائرات الروسية، التي تقوم بإلقاء الشهب النارية الضخمة التي تهبط بشكل جميل مثل الثريات فوق الجبال.

يقول فيزيت: "عند بداية هذه الحرب، لم تكن نعلم الكثير حول القتال. ولكن مثل أسلافنا بالضبط، تعلمنا بسرعة، وقد دفعوا ثمن ذلك. لن يستولوا أبداً على هذا الوادي، ولا على قريتنا، ولا على الجبل المقنص، على الأقل طالما أنا حي".

سحب فيزيت كنزاً أطولاً، ولا أتذكر أنني شاهدت ذلك الخنجر معه، لكنه يحمله

بيديه الآن عوضاً أن يكون في معطفه. "أنظر إلى هذا الكنزال. أعطاني إياه صديق من لستوري عند بداية الحرب، كان ملكاً لجده، الذي كان أيرينغ. هل تعرف من هو الأيرينغ؟ قاطع طريق. إنه خنجر جميل هذا الكنزال. إنه متين، وقوي، وقلبي، وحادث. إنني لا أعتقد أن فيزيت استخدم كنزاه كثيراً، لكن الكثيرين من هؤلاء الثوار يحبون وضع الكنزال إلى جانب قنابلهم اليدوية، ومخازن ذخيرة الكلاشينكوف والمسدسات. إنها طريقة للقول إن القتال على طريقة الأجداد مستمر.

وفيزيت رجل جبال أصيل، وهو يعتقد أن ساكني السهول رقيقون، إنه يحتفظ بصواريخ مضادة للدروع محلية الصنع في حظيرته، ولديه ستة أطفال. يقول فيزيت إنه يحب الحرية والأسلحة، وهما متلازمان بالنسبة له.

بعضنا أرجع فيزيت كنزاه إلى غمده، سحب مسدساً لأمعاً لم أعرف من أين جاء به. لقد أبرزه أمامي مثل ساحر، وسمعت حين أدار مخزن الذخيرة صوت احتكاك السلاح في اللول. وقال ضاحكاً: "هذا المسدس عبارة عن قطعة أثرية هنا. وقد أعطاني إياه جدي. إنه يعود إلى أيام القيصر نيقولا، وقد صنع بالقرب من موسكو، ويستطيع إحداث سلسلة من الثقوب، إن الأسلحة نقطة ضعفنا".

حاصر الروس حاج يورت بعد ستة من لقائنا، وسمعت أن فيزيت مات نتيجة إصابته بقذيفة مدفعية.

3. للقرى

لَقَمَّا تَطْعَمِي لَلْمَاءِ لِلْوَاتِي قَالِبَتِهِنَّ وَجُوهِهِنَّ، وَهَنَ فِي لَفَالِبِ جَمِيلَاتٍ، وَيَصْبِغْنَ الْجِلْدَ تَحْتَ الْحَيْنِ بِلَوْنٍ قَاتِمٍ؛ وَأَيْدِيَهُنَّ مَخْضِبَةً بِالْحَطَّةِ، إِنَّهُنَّ يَرْتَدِينَ شَالِباً مَلَابِسَ مَزْرَكُشَةَ بِالْأَكْوَانِ الْحُمْرَاءِ وَالزَّرْقَاءَ وَالصَّفْرَاءَ. أَمَّا مَظْهَرُ الرِّجَالِ فَيَبْدُو أَكْثَرَ صَرَامَةً وَجَاهِزِيَةً لِلْحَرْبِ، وَهَم مَسْلُحُونَ دَائِماً، وَتَكُونُ لِحَاهُمُ لِلطَّوِيلَةِ مَصْبُوغَةً عَادَةً بِلَوْنٍ أَحْمَرَ فَاتِحٍ.

هذا ما قاله الجنرال المير آرثر ثورلو كخفهم أثناء ترحله في شرق القوقاز سنة 1871.

كنا نقود السيارة عبر أديجي، عندما أوقفنا الشرطة على أحد الحواجز واستجوبتني لمدة نصف ساعة. لقد اشتبهوا بأن خريطة المنطقة السياحية العادية التي كانت بحوزتي تحمل خططاً مشفرة لهجمات إرهابية، وكان جواز سفري وبطائقي الصحفية سبباً في بعض الإرباك. وقالوا لي إنني أول أجنبي يروونه منذ وقت طويل، وكان آخر من مرّ قبلي رجل صيني.

يبدو أن حواجز الطرق ترمز إلى ما يحدث في شمال القوقاز، حيث توقفت الروسية وبدأت الحياة الطبيعية. لقد وضعت الحواجز الأمنية عبر كل المنطقة وخارج كل مدينة رئيسية. يبدو أحياناً مستقبل أفراد القوات المسلحة متوقفاً على هذا الموقع، المخصص لمقاومة المجرمين العاديين أو حتى الإرهابيين، ولكنه في نفس الوقت يرمز إلى قوة روسيا. تتركز الشرطة المكونة من مزيج من العرقيات الروسية المختلفة والشيشانيين في مبان خرسانية ضخمة، ولا تظهر سوى للتدقيق في أوراق المسافرين. يرتدي أفراد الشرطة غالباً معاطف طويلة، ويحملون بنادق كلاشينكوف آلية، ويشكلون مزيجاً من البيروقراطية، والوحشية وجنون العظمة، دون أن ننسى الرشى الإجبارية التي قد تسبب الحنق.

بعد ذلك، وصلنا إلى القرى أو أول كما يدعونها في شمال القوقاز، وسواء كان الطريق مغلقاً أم لا، يحس المرء بأنه يعبر فاصلاً نفسياً في كل مرة يدخل فيها أول (قرية). إنما بلاد أخرى، إذ إن الروابط العائلية فيها أهم من الدولة، والمسجد أهم من الشرطة، ولا حدود لكرم الضيافة.

الحياة قاسية من بحر قزوين إلى البحر الأسود. قد يسكن في تلك المستوطنات ما يزيد عن 30.000 شخص، لكنهم رغم ذلك يعتبرون أنفسهم قرويين ويتصرفون على هذا الأساس. معظم السكان فقراء، وتحول الشوارع المتسخة إلى أنهار من الوحل في الشتاء، إنهم يعانون من نقص في إمدادات الغاز والكهرباء، وتسبح الحيوانات في الشوارع، ولا وجود لنظام صرف صحي، ولا حتى لمياه عذبة إلا من صنبور واحد يروي كل القرية.

كما كان الحال في الاتحاد السوفييتي السابق، الاقتصاديات الشكيلة لجمهوريات القوقاز التي تتمتع بالحكم الذاتي منهارة، وتعتمد بشكل هائل على المساعدات التي تأتيها من موسكو. ورغم ذلك، تتمتع تلك القرى بحماية لا يمكن تجاهلها والتي غالباً ما تكون مفقودة في نظيراتها الروسية، التي تعاني من إفلاس القرى الجماعية وغرق عمالها في اليأس والإدمان على الشراب. تنمو قرى شمال القوقاز باضطراب، ويتم استبدال مظاهرها البدائية تدريجياً بمنازل جديدة وخطوط غاز حديثة. وتشير الإحصاءات إلى أن عدد السكان من أصل

روسي يتضاءل في كل المنطقة، وذلك عبر تراجع معدلات الولادات، والمجرة إلى مناطق أخرى من روسيا. في المقابل تزايد عدد الجبلين بنسبة بلغت حوالي 16.3% من سنة 1979 لغاية 1989، ومقارنة هذا الرقم مع النسبة العامة لزيادة عدد السكان التي تبلغ 9.3%، سنجد أن تعداد السكان من العرق السلافي قد تراجع فعلاً حوالي 3.1%.

ويعيش الفقراء في أكواخ صغيرة لكنها ملائمة عادةً. والبوس نادر حتى بين الفقراء كثيراً. يحب الأثرياء الجدد الإسراف والتبذير، لكنهم لا يهجرون قراهم عادة، ويفضلون بناء قصر على أنقاض كوخهم القديم. لهم يعيشون في أي بناء من الأكواخ الصغيرة المنتشرة إلى المباني الشاهقة التي تشبه القصور بجدرانها وبواباتها المصنوعة من الآجر، وغالباً ما يتم تزيين الباحة الداخلية بأعمال خشبية متقنة. وفي الداخل، تُفصل غرف الرجال عن النساء. وتُعلق السجاجيد على الجدران، ويكون الديكور خيالياً لدى الأثرياء لأن القوقازيين يحبون التفاخر. ولكنهم يشتركون في الحمامات التي تخرج منها دائماً روائح كريهة سواء كانوا أغنياء أم فقراء، والتي تشبه أكشاك الحراسة فوق حفرة في الأرض.

في أنغوشيا، نزلت في قصر ضخم يبدو مثل مزيج من سانتا برابره وألف ليلية وليلة، وهو مليء بالمرايا، وجدرانه ذهبية اللون، مع أعمال خشبية لامعة، وأقمشة أرجوانية وثرثريات بيضاء. لم يكن المرحاض بعيداً فقط في ساحة البناء، وإنما دون باب، وكان هناك ثور مربوط على بعد خمسة أمتار منه فقط. ونادراً ما شعرت بأني عُرضة للهجوم هكذا من قبل.

لا علاقة لسنمط الحياة المتواضع والمريح هذا بالمافيا الشيشانية التي لطالما تحدثت الناس عنها، إلا من ناحية الهيكلية الاجتماعية. وتقدم العائلات الكبيرة التي تحكمها تقاليد التعاون المشترك العمالة المجانية للآخرين، وهو ما يميزها عن الكثير من نظيراتها الروسية. وقد لا يكون القوقازي غنياً، لكنه رغم ذلك يعيش في بيت جميل لأن الأقرباء يساعدونه في البناء، وبالمقابل يساعدهم في بناء منازلهم. ومع توفر المناخ المناسب والأرض الخصبة يصبح كل ما تحتاجه التعاون لإنتاج محصول جيد وبيعه في الأسواق. وليس نادراً أن يكون لدى العائلات

أربعة أطفال أو أكثر، والذين يعمل جميعهم في الأرض في سن مبكرة. يزرع القوقازيون الخضار ويربّون الماشية حتى في المدن. ويتمّ بناء المنازل ضمن أراضٍ فسيحة، مع ترك المجال لفسحة صغيرة توضع فيها خلايا نحل وتُزرع فيها دوالي العنب التي تشكّل سطحاً حياً. بالنسبة للروس وعائلاتهم الصغيرة، فإن كل ما يتجاوز الإنتاج الضيق الخاص بمطبخهم مستحيل عادةً. وتصنع إحدى العائلات الروسية التي التقيتها في منطقة ستافروبول، التي تحدّ شمال القوقاز من الشمال، شراباً أبيض طيب المذاق، وعندما نصحتهم بعد رشقات قليلة، وكلّي حماسة، بأن يوسّعوا أعمالهم، ضحكوا وهزّوا رؤوسهم. يكبر الصغار ويرفضون القيام بالأعمال الزراعية. ولا يستطيعون استخدام عمال مأجورين، ولهذا لا يصنعون من الشراب سوى ما يكفي لعشائهم. العكس غالباً صحيح بالنسبة للعائلات القوقازية. ويبدو أن لديهم طريقة خاصة لإنجاز الأعمال، وقد تحوّلوا خلال فترة قصيرة من بروتستويكا غورباتشوف في أواخر ثمانينيات القرن العشرين إلى تجار ماهرين. يدرّ تطريز الملابس دخلاً إضافياً على إحدى العائلات الشيشانية التي التقيتها في قرية أفنتوري رغم الحرب. لقد حوّلت هذه العائلة منزلها البسيط إلى مصنع صغير. تجلس عدّة نساء أمام آلات التطريز كل النهار، ويحوّلن قطع القماش إلى ملابس صيفية. ويأخذ قريب لتلك العائلات البضاعة إلى جنوب روسيا ويبيعها إلى تاجر آخر محققاً ربحاً جيداً.

قالت لي ناتاشا، المرأة البلغارية المتزوجة من دارغين في العاصمة الداغستانية ماكشكالا إن ازدهار الأعمال الصغيرة بدأ بعد ذهاب الناس إلى مكّة المكرمة لتأدية مناسك الحج، حيث تعلّموا أصول التجارة في الأسواق السعودية الكبيرة. "تورط الناس في المشاكل لأنهم كانوا يتاجرون، ولم يكونوا يصلّون - لقد كانوا يبيعون القرآن الكريم. ثم انطلقت فكرة السفر وشراء البضائع وإعادة بيعها هنا، وبدأ الناس بالذهاب إلى الصين، ومن المدهش بالنسبة للنساء هنا أنهن أول من بدأ التجارة مع الصين، ثم تركيا وبعدها بولندا. الآن يذهب الجميع إلى الإمارات العربية المتحدة. ويأخذون معهم عندما يسافرون مبلغ 10.000 دولار أميركي، ويستثمرونه لمدة

أسبوع. وتذهب صديقة لي إلى اليونان في الشتاء حيث تتاجر بالفرو وتجي 10.000 في كل مرة. لقد تدرّبت تجديد أثاث شقتها بالكامل. أولئك هنّ نساؤنا ورجالنا ليسوا بنفس المرونة - إنهم يذهبون إلى موسكو وينضمون إلى عصابات المافيا".

إن المافيا، في سياقها الروسي، كلمة شديدة المرونة. وقد يكون أولئك التجار الصغار في القوقاز بعيدين جداً عن العصابات الإجرامية التي تعمل في المدن الروسية، لكن الكثير منهم يعملون بالتأكد من خلف ظهر السلطات. إنهم يستسيغون أحياناً حرق ما يعتبرونها قوانين مناهضة للأعمال. لقد كتب أحد الرّحالة الإنكليز في ثمانينيات القرن التاسع عشر بعد زيارة قبائل أديجي، أو ما تبقى منها بعد احتياح الروس لها: "يتم احترام الاستقلالية الشخصية لدرجة أن الأبناء لا يطيعون أهلهم".

أخبرني أحد سكّان أديجي كيف استخدم عربية الجيب الروسية القوية "نيفا" للتحول على الطرقات الموحلة حيث لا وجود لنقاط تفتيش الشرطة، وعمل في تجارة بضائع صغيرة مثل الفودكا وأشرطة الكاسيت من الأقاليم إلى المراكز الكبيرة مثل ستافروبول وكراسنودار. من الواضح أنه استمد أفضليته على التجار التقليديين لأنه ببساطة لم يعمل بشكل نظامي وتقادي الضرائب، كما أنه دفع الرشى للشرطة، ولم يكن عليه التصريح عن منشأ البضاعة. لم يكن غنياً بأي حال من الأحوال، لكن وضعه كان أفضل من جيرانه الروس، وهو الأمر الذي كان مبعث خلاف كما قال.

ازدهرت التجارة خارج الأسواق الرسمية في الشيشان حتى في خضمّ الحرب. ومثل سوق السبت "وول ستريت" في قرية كرشالوي الشرقية. تنتشر هنا، سيارات الأودي، والسي أم دبليو، وكل السيارات الروسية، وأكياس الحبوب، والطحين، والمكسرات، والفاكهة، والعسل، وقطع التبديل، والأنايب، والمفروشات على مساحة شاسعة. يتجمّع الخيّالة في تلك الساحة، ويختبرون الخيول أمام حشد من الرجال الذين لفحت الشمس وجوههم، ويرتدون قبعات سوداء طويلة. بعيداً تتجمّع مجموعة من الرجال ذوي الملامح القاسية إلى جانب امرأة تبيع مسحوق

الغسيل - إنهم تجار السلاح. وعلى الرغم من انتشار القوات الروسية على بعد كيلومترات قليلة، إلا أن الشيشانيين يستطيعون شراء بندقية كلاشينكوف مقابل 100 دولار، أو قاذفة قنابل مضادة للدروع مقابل 200 دولار. ويتم عرض الأسلحة بشكل مكشوف، وادّعى رجل قاسي الوجه أسود الشعر، ويحمل مسدساً على خصره، بأنه يستطيع بيع دبابه. وقال لي: "ستطيع الحصول على كل ما ترغب به".

وربما يكون المشروع الأكثر إثارة للدهشة في هذه المنطقة موجوداً في أنغوشيا، وهي جمهورية زراعية صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن 300.000 من الأنغوش الأصليين والقليل من الروس، والتي أطلقت منطقة حرة قرب الشاطئ في سبيل تحويلها إلى جزيرة جويوسي القوقاز. في البداية، بدأ المشروع جنوباً إلا أن مؤسسة أوفشورنايا زونا قامت ببنائه وإدارته لسنوات عديدة، وهي ممّول سلسلة من مشاريع التنمية ابتداءً من فندق آسا في العاصمة نارزان. قد يُصاب المسافرون المتعبون بنوع من الهلوسة لرؤيتهم فندقاً حديثاً بأرضيات رخامية، وحمامات مياه ساخنة، وغرف نظيفة، وبارات، وكادر ودود من الموظفين، وأجهزة تلفاز في الغرف. إنه فندق فريد من نوعه في شمال القوقاز، والذي يبدو فيه الموظفون القساء، والمناشف الصغيرة، والأسرة المتسخة والحمامات المظلمة بعيدة.

رغم العقوبات التي فرضتها الحكومة الروسية على أوفشورنايا زونا سنة 1994، إلا أن المشروع استمر بالعمل، رغم أنه عانى مثل الأعمال الأخرى في شمال القوقاز وروسيا الجديدة بشكل عام. في سنة 1997، قامت موسكو بإلغاء المنافذ الضريبية كافة في ذلك المكان. كان متجر الجواهرات (الوحيد) في نارزان إحدى علامات التطور في أنغوشيا. كان ذلك المتجر على زاوية سوق عام فارغ من أيام الحقبة السوفياتية، ويمكن رؤية الشارع المحفور من نوافذه، والذي تتسابق عليه السيارات الرباعية الدفع اليابانية والأميركية الجبّارة مع سيارات السلاسل الروسية المتواضعة. من الناحية الرسمية، لم يكن ذلك المتجر سوى علامة أخرى على ازدهار الأنغوش. إذا كنتم تصدّقون وزارة الداخلية الروسية، فإن

لجمهورية أنغوشيا علاقات مشبوهة طويلة الأمد مع تجارة الذهب السرية. وتُلقب نارزان ببوابة الذهب الروسي، مع افتراض وجود ثلاث عائلات فيها تمزج الذهب الروسي نحو أقصى الشرق. بنفس الطريقة، أصبحت نوستيا الشمالية شهيرة كمركز لتهرب الفودكا، وداغستان كسوق سوداء للكافيار المستخرج من بحر قزوين.

رغم أن الأمر يبدو متناقضاً، إلا أن حب الحرية والفوضى يتماشى مع القوانين الاجتماعية الصارمة جداً. ينتمي أهل شمال القوقاز عادةً إلى عائلات، وعشائر وقبائل هرمية أبوية، يرأسها مجلس من كبار السن إما لكل عائلة على حدة أو للقرية ككل. لقد فككت الثورة الروسية هذا النظام، ولكنه عاش بشكل معدّل وخصوصاً في أقصى شرق المنطقة. في داغستان، تنقسم معظم القوميات إلى تخمو، أو عشائر عائلية ممتدة، والتي لا تتزوج من بعضها تقليدياً وغالباً ما تدخل في صراعات دموية طويلة. وتدير تخمو شؤون القرية وتضع قوانينها. ما تزال التخمو فاعلة لغاية اليوم ضمن الجماعات العرقية المختلفة في الجبال. في الشيشان وأنغوشيا، تُحكم قبائل كبيرة تدعى تيب سيطرهما على عدة قرى في وقت واحد، وهي تتكلم لهجتها الخاصة. وهناك علاقات متشابكة بين أفرادها، الذين يرتبطون بمجالس الكبار. وهم يتبعون أيضاً قوانين انتقام وكرم ضيافة وزواج كعشيرة واحدة.

في الجمهوريات الفدرية، ما يزال لدى قوميات كاراشاي وبالاكار مجالس تخمو، لكن قبائل أديجي - سركسيا، المنتشرة عبر ثلاث جمهوريات مختلفة، ليس لديها قوانين عشائرية صارمة. لقد احتفى النظام الاجتماعي لقبيلة أديجي الموغل في القدم، والذي كان أرستقراطياً فيما مضى، بعد الغزو الروسي، ولم يبق منه، مثل كل شيء آخر، سوى العنصر الأبوي.

هناك احترام للأكر سنّاً بشكل آلي، ويضم اجتماع كبار القرية - عند الأحداث الهامة عادةً - ذوي اللحى البيضاء الذين لا يستطيعون المشي سوى باستخدام العكاكيز، وبعض الرجال في الستين من العمر. إن الاحترام، والشعبية والشفافة بالإضافة إلى العمر المتقدم هي التي تعطي الحق للرجل بأن يدعو نفسه

كبيراً، ولا بد له أن يرتدي قبعة بنية أو رمادية من جلد حملان القوقاز تدعى باباخا.

يضم مجلس كبار القرية غالباً رجالاً مباركين مثل أولئك الذين قاموا برحلة الحج إلى مكة المكرمة، أو الأشخاص الذين يعرفون اللغة العربية. يتخلّى الرجال عن مقاعدهم للأكر سنأ، ويعتبر التدخين والشراب محظوراً أمامهم، حتى لو كانوا أشقاء. وفي أدجي، عندما يوافق كبير العائلة على الشراب، يقوم باقتراح النخب الأول ويفتح الحفلة، ويتبعه الجميع بابتهاج متحررين من التقاليد العادية.

يتمتع الكبار في الشيشان بنفوذ كبير، وغالباً ما يلعبون دور الوسيط بين العائلات المتناحرة أو بين القرى والقوات الروسية خلال الحرب، ويقررون أحياناً فيما إذا كانت قريتهم ستقاتل أم لا. من ناحية أخرى، قد لا يتمتع الكبير بسلطة حقيقية سوى داخل عائلته، حيث يوافق فيها على الزواج، ويشرف على الجنازات والشؤون الداخلية الأخرى. تنتشر هذه الحالة بشكل كبير بين قومية كابارد خصوصاً في وسط جمهورية كاباردينو - بالكاريا، حيث تقلص دور الكبير في الحياة العامة نتيجة للحكم الشيوعي. بالرغم من ذلك، يلعب الكبير دوراً حيوياً في المنطقة في المحافظة على العادات والتقاليد ضمن العائلة، وبشكل أوسع ضمن المجتمع.

يضرب الإسلام واحترام الرجال والنساء كبار السن المزوجان بالشهامة جنوراً عميقة في المجتمع في بعض المناطق. ولا يتوجب على النساء ارتداء الشادور ووضع الحجاب وحسب، وإنما وضع وشاح على سبيل المثال، وحياتهن مخصصة لخدمة الرجال بشكل أساسي. حتى في الأسر الأقل تشدداً في شمال القوقاز، لا تأكل النساء مع الرجال في نفس الوقت أبداً، ويتعجب المرء خلال الزيارات إن كانت النساء يأكلن أصلاً، وذلك دون ذكر النوم أو الذهاب إلى الحمامات. ويدوأنهن موجودات للخدمة. وعندما سألت رجلاً في كاراشاي - شركسيا عن الوقت الذي تتناول فيه النساء الطعام في داره؛ أجابني مازحاً: "ماذا، هل تعتقد أنهن يأكلن حقاً؟".

ينتشر الفصل بين الجنسين إلى الشارع. وعندما قصدت شابتان جميلتان من قرية دارغو الشيشانية الجبلية النبع ورأتا ستة مقاتلين يغسلون أحذيتهم من الطين، نراجعتا بشكل آلي حوالي 50 قدماً بعيداً عن مصدر الماء، وانتظرتا حتى فرغ المقاتلون، وعندما مرّ الثَّوار بجانبهما، أشاحتا بوجهيهما جانباً، وهي إشارة عن اللباقة التي غالباً ما نشاهدها في الجبال. يتوقع من النساء أن يكن محتشمات ورقيقات على حدٍّ سواء، إضافة إلى امتلاكهن لذراع قوية. تتضمن واجبات النساء القيام بحلب الأبقار، وأعمال البستنة، وإصلاح الأعطال المنزلية، وجلب الحطب لإشعال النار. تكون عملية جلب دلاء أو قِراب الماء من النبع أو العين عملية شاقة للغاية، ولا أدري عدد المرات التي شاهدت فيها النساء اللواتي يضعن الوشاح يسحب قِراب الماء إلى المنزل على عربات عمر الشوارع الموحلة، فيما يفترض الرجال الأرض على الطريقة العرية وهم يدخنون ويأكلون بذور دَوَّار الشمس أو يدردشون فقط.

في حفلة الزفاف، التي تأخذ وقتاً كافياً للتجهيز لها، تختلط شهامة الرجال وحشمة النساء، ووفقاً لجيمس بيل، يبدأ الرجال من قبائل أدجي في القرن التاسع عشر ليلة زفافهم بتمزيق مشد خصص زواجهم باستخدام كنزال. تمزيق من العنف والرغبة. في الشيشان، يقوم أصدقاء العريس باصطحاب العروس من منزلها إلى حفلة الزفاف في قافلة من السيارات، ويستخدمون الأبواق ويطلقون العيارات النارية من النوافذ. في المناطق الهادئة من شمال القوقاز، لا يسمح لأهل العروس بدخول حفلة الزفاف، التي تُقام بعد اتفاق الكبار من كلا الطرفين على مهر العروس. في حالات نادرة، يحطف الرجل عروسه ببساطة، إما لأنه لا يبيد الطريقة العادية في التفاوض على المهر، أو لأن العروس لا تبادله الحب. عندما يتم اختطاف فتاة ما، يبدأ الكبار بالتفاوض ويحاولون التوصل إلى اتفاق، أو يحاول أقرباؤها أحبائاً إنقاذها بالقوة. أخبرني أحد الثوار الشيشانيين سنة 1996، بعد وقت قصير من انتهاء الحرب، أن أحد رفاق السلاح الشباب ويدعى علي - خان قد حاول مؤخراً اختطاف فتاة. وقال: "ذهبا إلى حيث نُقيم، وخرج علي - خان للحصول عليها. وقد صرخت عندما رأيته وخرج أهلها من المنزل. أصابه الخوف فابتعدنا.

وهكذا أصبح علي - خان موضع سخريتنا الآن لأنه أثناء الحرب لم يخف من شيء، وإنما خاف من فتاة بعدها".

حاج يورت

سياسيتيان! تعال إلى هنا.

كان المكان حالك الظلمة خارج منزل إسلام في جبال الشيشن، قرب فيدينو. ولم نستطع رؤيته، لكنني كنت أشعر بحجمه لأنه كان رجلاً ضخماً.

تعال إلى هنا.

غادرت المنزل إلى الصلابة ورأيت إسلام وقفاً قرب حديقة الخضار.

هيا بنا، لننحَن.

هيا بنا.

وأعطيته لفافة تبغ في الظلام، ووضعت يدي حول شعلة القذاحة بحرص. وعندما كنا ننحَن، كنا نضع الطرف المشتعل من لفافات التبغ في راحة الكف ونهمس. كان الوضع شبيهاً بما كان يحدث في المدرسة.

قال إسلام، الأب، ورب المنزل، والمقتل في الحرب الشيشلانية: "لا أريد أن يراني عني. لا يصح أن لنحَن لمامه".

يعتبر كرم الضيافة تقليداً راسخاً آخر في شمال القوقاز. وقد دعاني الشيخ كازريك في كرايشيفسك لأكون ضيفه في منزله المجاور للمسجد بعد عشر دقائق من لقائنا. بعد عدة ساعات، ذبح خاروفاً على شرقي، وقام بطهوه في قدر كبير على نار مكشوفة في بستان الفاكهة. كان القمر فوقنا هلالاً ناصع البياض، وإلى يمينه نجمة وحيدة، تماماً مثل الرمز الإسلامي. كان يمكن رؤية تضاريس أخاديد المنحدرات الصخرية القرية. في الداخل، كانت عدة نساء، لم ينمسن بينت شفة خلال كل مدة إقامتي هناك، يحضرن طبقاً وراء طبق من الضأن، والبطاطا المقلية، وسلطة الخيار، والشاي وشراب اللبن الرائب الذي يدعى عيران، والذي شربناه مباشرة من إبريق كبير.

كرم الضيافة يعني السخاء، وهو ينغرس في جذور نفسية الجبلين أيضاً. يعتبر فتح الأبواب للغرباء جزءاً من التأخي بين كل أفراد المجتمع الإسلامي، وهم يكرمون الضيف لأن كل البشر سواسية - سواسية تحت الله والجبال. يعتبر الضيف

ابن العائلة، كما وصفته لي امرأة من أديجي، ويجب تدليل وحماية الابن. وكتب جيمس بيل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر كيف أنه في أديجي:

يمكن للقاتل أن يجد ملاذاً له في منطقة إسلامية أخرى. ويتمتع (القاتل) الآن بالأمان في قرية صانع الأسلحة المحترم سوبيش؛ وهنا يظهر الاعتراف الكامل بهذا المبدأ، لأن صانع الأسلحة ذلك يستطيع التجول بحرية ولأمان في المكان الذي تم فيه ارتكاب الجريمة.

في الحقيقة، إن كرم الضيافة من العادات الشديدة الأهمية، ويمكن أن يصبح مبالغاً فيه بشكل مخرج. وتوجّب عليّ تناول الشاي في الشيخان، والذي كان في الواقع غداءً كبيراً، ثلاث مرات في غضون ساعات قليلة لأنني كنت بحاجة للتكلم مع ثلاثة أشخاص مختلفين. تجاوزت ضيافة كازبيك، الشيخ من كاراشاي، والذي عاملني بلطف شديد، الحدود المعتادة. وأعتقد أنه تجاهلني مرة عندما كان يرش نفسه بماء الكولونيا، مما جعله يتجه نحوي ويبدأ برشي أنا أيضاً، وقد رفض الاستماع لاحتجاجاتي رغم اندفاعي باتجاه الحائط. في أماكن أكثر تحرراً في شمال القوقاز، يتم استقبال الضيوف بالترحاب وتقديم الفودكا لهم بعد اقتراح الأنخاب. وقول لا قد يجعل الأمور تسوء بشكل كبير.

في أوراذا بريم، وبمناسبة انتهاء شهر رمضان المبارك، تمت دعوتي لحضور مهرجان العيد في قرية بلتشيسن. وبدأ النهار باحتفال عند الفجر يدعى غماز في المسجد، ثم اتجه كل الذكور إلى المقبرة للصلاة على أرواح موتى العائلة، وكانت شواهد القبور مزينة بالهلال الإسلامي، وصور من العهد السوفييتي، وكتابات بلغة أديجي ورمز القبيلة. في ذلك الوقت، كانت النساء يحضرن المرحلة الثالثة والأكثر أهمية في ذلك اليوم؛ الوليمة. يتكرر النمط نفسه كل سنة: يقوم كل منزل بتحضير وجبة ما، ويدعو رب العائلة كل أقربائه من الذكور، ثم ينتقلون إلى المنزل التالي. وبذلك الطريقة يمكن لكل رجل أن يفخر بكرمه، ومنزله، والعمل الدؤوب لنسائه اللواتي يتجمعن بفخر خلف المنزل.

عند المنزل الأول، كانت الطاولة مليئة بأطباق اللحم، والدجاج، والسلطة والكثير من الأطعمة الأخرى. كانت المقبرة والمسجد قد استنزفتا قوى الجميع،

ولم نكن قد تناولنا طعام الفطور بعد، ولهذا كان من الجيد أن نأكل شيئاً. وقدم لي أحد الأشخاص زجاجة فودكا، والتي بدت غريبة قليلاً في ذلك الوقت وفي عيد إسلامي، لكنني تناولت منها القليل. واقترح الجميع الانتخاب. وقد شعرت بنشوة في رأسي، ونظرت إلى ساعتي فوجدتها تشارف 9.45 صباحاً. لقد حذرني أحدهم قائلاً: "لا تحاول بمجاعة كبار السن في الشراب. إنهم معتادون على ذلك. تناول فقط ما تقدر عليه". لكن الأوان كان قد فات عندها: ألا يعرف أن ضيف الشرف ممنوع عليه رفض الضيافة؟

ذهبت إلى منزل آخر لتناول وليمة أخرى، ثم إلى التالي وهكذا. كنا نذهب بالسيارات أحياناً ومشياً أحياناً أخرى. ورغم أنني أضعت العدد، إلا أنني أعتقد أنه بحلول الساعة 3.00 بعد الظهر، كنا قد زرنا ستة منازل، والتقيننا نفس الرجال متوسطي العمر في كل واحد منها. عند كل توقف، كان هناك صلوات (وتلاوة قرآن) وبعدها تناول شراب. وفي الخارج، رأي صاحب أحد المنازل أداعب كلبه الضخم المغم بالنشاط، وألمح عليّ أن أحفظ به. كان علي الاعتذار لدقائق عديدة لتفادي اصطحاب الكلب معي إلى موسكو. بدا المضيف مستاءً وهو يقول: "كل شيء للضيف. وإذا أحببت شيئاً وكنت ضيفاً، سيكون علينا منحه لك. رأيت أنك أحببت الكلب. هذه هي طريقة أدبيجي".

كيف تردّ لهم الجميل؟ ما الذي تستطيع تقديمه بالمقابل لشخص منحك، وأنت غريب، وقته، وثقته، وأفضل غرفة لديه، وأشهى طعام يمكنه تحضيره؟ في الحقيقة، إن تقديم المال يسبب الإساءة، وهو مرفوض بكل الأحوال. لقد كتب ف. سي. كروف، مؤلف القوقاز القارص بعد مغادرته لقرية أكرمت وفادته في سنة 1875: "رغبنا بتقديم تعويض لهم حتى لا يحسروا شيئاً مقابل لطفهم وكرمهم، لكنهم كانوا رجالاً أعظم من جميع من سبق والتقيتهم، وقد سببت لنا طريقة الدفع مشاكل كبيرة". عندما حاول كروف منح مضيفه نقوداً، إضافة إلى بعض الهدايا، أخبره الأخير: "نفضّل عدم أخذ النقود. ليست من عاداتنا تلقي مبالغ مالية مقابل صداقتنا".

أمضيت مرة عِدّة ليالٍ على أرضية مدرسة في أنغوشيا مع عائلة من اللاجئين الشيشان، الذين تمّ تدمير قريتهم بامونت بالكامل. وعندما حاولت

منحهم 100 دولار قبل مغادرتي، رفضوا بشدة. وقال موفلادي: "لا نقبل بهذا هنا". كان ذلك رجلاً تدرّس منزله وممتلكاته بالكامل، وقُتل أخوه بصاروخ مروحية، وهرب لا يملك شيئاً سوى عائلته، والقليل من الملابس وجراره. كان يسهر على راحتي كل يوم، ويتأكد من حصولي على مساحة للنوم والعمل. لم ألحظ سوى في اليوم الأخير اللعب المعدنية الزرقاء والبيضاء التي قال عنها: "مساعدات إنسانية - لحم معلّب". إن الشيشانيين شعب فخور بنفسه. ولا بد أن يكون الشيشاني فقيراً معدماً حتى يقدم كضيفه مساعدة إنسانية من علية معدنية. لهذا عندما رفض النقود، ربطت 100 دولار إلى ملاحظة قلت فيها: "آسف إذا كنت أسأت إليك، لكنني أصر على أن تأخذها". خططت لوضع النقود والرسالة على الطاولة قبل مغادرتي، ليجدوها لاحقاً. لكن كان هناك الكثير من الناس في تلك الغرفة بحيث أنني لم أجد اللحظة المناسبة، وغادرت دون أن أمنحهم النقود، ولطالما شعرت بالذنب مع هؤلاء الناس.

من بين كل قوانين الجبال غير المكتوبة، وجدت أحدها يتمتع بمقام عالٍ: الشار. وهو المجال الذي تبدو فيه روسيا بعيدة جداً، لأن قانونها منسي ويتم تطبيق قوانين قديمة عوضاً عنه. هناك حوادث منتظمة من عمليات النار، على الأقل في أجزاء من داغستان وفي كل الشيشان وأنغوشيا. قد تنشأ العلوة من الأخذ بشار قديم، أو قد تقتل العائلة الفتاة التي تحمل قبل الزواج، وبالطبع حبيبتها؛ لكن هذا القانون الظلامي يعمل كرادع قاسٍ. في ذروة الحرب في الشيشان، تزايدت حالات الموت والسرقة من قبل قطاع الطرق. أصبح الكثير من الناس جوعاً، والكثيرون منهم مسلحين. بالطبع كنت خارج دائرة النار، وكان أصدقاؤني الشيشانيون يعتبروني ضيفهم - وأن مرتبتي عالية، وسرعان ما اعتدت أثناء سفري بصحبة غرباء أو أدلاء على التوقف أمام منازل أصدقاؤني وتعريفهم بزملائي، قبل المضي قدماً. أقول لهم أنني أردت إلقاء التحية وحسب، ولكن الجميع كان يعرف معنى ذلك: أصبح أصدقاؤني يعرفون زملائي ويعرفون وجوههم وسياراتهم. إنما وسيلة للتأمين على حياتهم، لأنهم خارج شبكة الأمان الاجتماعي. لطالما كان الروس ضحايا الجرائم في الشيشان، ولأسباب مشابهة، كل المتسولين تقريباً في الشيشان

من أصول روسية، لأن العائلة القوقازية ستفعل المستحيل لمنع تحويل أحد أبنائها إلى الشارع، وأن يسبب العار لاسم العائلة.

من الشائع في تلك البلاد إلغاء حكم الإعدام في اللحظة الأخيرة. لقد شهدت في قرية فيدينو في جبال الشيشان محاكمة شاب قتل رجلاً آخر في حادث سيارة، وأضحى يواجه نتيجة لذلك إضافة لعائلته الثأر. امتلأ الشارع في ذلك الصباح بعدة مئات من الرجال الذين يقودهم الكبار المتحورن، الذين يستخدمون العكاكيز ويرتدون قبعات أستراخان. كان البعض يرتدي ملابس شركسية ورثوها عن أجدادهم. صلى الرجال ولوحوا بالعصي مثل السيوف، ومشوا في الشارع، فيما كانت قمم القوقاز المكسوة بالثلج تلوح في الأفق. حالما وصلوا إلى الساحة الرئيسية، توقفوا وانضموا إلى دائرة من الكبار، ثم أتى قائد الثوار في القرية شرفاني باسايف بالتمهيم، وقد غطى وجهه بقلنسوة، ووضع أمام الكبار. بدأت الابتهالات بعدما رفع كل الرجال أكفهم إلى الأعلى، فيما كانت شفاههم تتمتم كلمات غمر مفهومة تحت سماء الخريف الصافية. ثم انتظر الجميع قرار الكبار. غمر مذهب. تبخر كل التوتر. سيكون هناك مصالحة، وليس ثأر. وابتهل الرجال مجدداً لتمجيد الله.

شلي، الشيشان

كنا نأكل البطيخ في حديقة في جنوب الشيشان، وكان هناك هدنة حرب في الصيف، وكانت الأسلحة صامتة آنذاك، وقد انصهت القوات الروسية من البلدة بعد إحكام سيطرتها عليها، وتركنا المنطقة بسلام للمرة الأولى منذ نصف سنة. كان الناس يبحثون عن عمل، ويبنون منازلهم من جديد، وقيمون حفلات الزفاف. قم لي صديقي المزيدي من الشاي، إنه رجل متحضر، ومتقف. لكن في وقت مبكر من ذلك للصيف، ضربت القوات الروسية وقتلت وسلبت ابن عمه واثنين من أعز أصدقائه. ولديه الآن نزاع دموي، وطلعا أن القتل مستمر فإن للحرب مستمرة هي الأخرى.

لقد اختفوا في ليل. وبحسبنا عنهم في كل مكان: هنا، وفي جنوب روسيا وفي مقر قيادة القوات الروسية. ثم قررنا البحث هنا من جديد. كنا نعرف المنطقة التي اختفوا فيها، وهكذا بدلنا بالحديث إلى جنود الوحدة الموجودة هناك. جندي، ثم آخر، وآخر ورابع. لقد قبضنا عليهم. أعني أننا أخذناهم بالقوة. لقد اختطفناهم. كنا نلعب للشيشانيين الذين يعملون مع الروس في الاستخبارات المرية 1000 دولار لكل من أولئك الرجال ثم أخضعناهم للاستجواب.

هذا عمل غير شريف فعلاً. لقد احتفظنا بأحد أولئك الجنود ثلاثة أيام، فيما احتفظنا بآخر أسبوعاً. وقد أعدناهما لأنهما لم يكونا يعرفان شيئاً. كنا نعيدهم كأمري حرب محررين، ولم يكن الروس يطرحون أسئلة. كان ذلك بمثابة المكافأة بالنسبة لهم، وكانوا يقولون إنه تمت استعادة أولئك الجنود من الثوار، وكانوا يتظاهرون بأن تلك الهدايا التي أعطيناها لهم ليست سوى محصلة لأعمالهم.

ثم أتى الرابع. وكان قد شاهد كل شيء بعينه. وقد كان موجوداً هناك وأخبرنا بكل شيء. لقد شاهد رجالنا الثلاثة في سيارتهم الجديدة عندما لوقفهم الروس بالقرب من مستشفى الأمراض النفسية. لقد وضعوا جميعاً في حفرة. وسبقت السيارة إلى حفرة أخرى حيث تمزقتها إحدى المدرعات، وثقلت. أطلقت القوات الروسية النار على ابن عمي وأصدقائي، بعد أن ضربوهم، ورُفعت الحفرة التي سقطوا فيها، وبناو طريقاً فوقها تمر عليه السيارات كل يوم.

أخذنا هذا الجندي الذي كان أسيراً لدينا إلى الموقع، والذي لن يستطيع أحد للتخمين بوجود حفرة فيه. إنها في منتصف المخيم تماماً. كانت المركبات تمر من فوقها. وقد وجدنا رجالنا إضافة إلى رفات اثنين آخرين مدفونة هناك.

وقال لي: "لا أعرف إذا كان ذلك الجندي قد اشترك، لكني لا أؤمه على أي حال. فهؤلاء المجنون مثل الحيوانات، إنهم جاهلون، وأخيرني الجندي أن ضباطه أجبروه على إطلاق النار على جثة ميتة للتعبد على قتل البشر. لا يمكن إلقاء اللوم على المجندين، فهم بالكاد بشر لا يحملون أي وثائق، وإنما مجرد صفيحة معدنية. لم يخبرهم أحد عن وجهتهم عندما تم إرسالهم إلى الشيشان في المقام الأول.

الرجال الذين خططوا لهذه الجرائم كانوا ملازماً أول واثنين آخرين. طلبت من مصادري أن تأتيني بذلك الملازم الأول، وإلا فإني سأقتل العالم بحثاً عنه. كنا نعرف هوية هؤلاء الرجال، ولدينا أسمائهم. كانوا يخرجون في دوريات بشكل منتظم، وعند خلو المكان من المارة كانوا يعملون إلى إيقاف السيارات، ويضعون الناس في عربة مدرعة، ويسرقون ما بحوزتهم، ويمزقون سيارتهم، ويسحقونها مثل اللطيرة، ويبيعون قطعها ويقتلون الناس بإطلاق النار عليهم ليلاً حيث يكون هناك الكثير من إطلاق النار بكل الأحوال.

نستطيع استلام هؤلاء الرجال ميتين، لكننا نحتاجهم أحياء، وهذا يكلف الكثير من المال. أردتهم أحياء، وأردت أن أنظر في عيونهم. لم يكن مهماً فيما لو غادروا هذا المكان، لأنهم لا يستطيعون الهرب منا.

لن نقتلهم، سوف يعيشون. لكننا سنفل بهم شيئاً يجعلهم لا ينسون الشيشان حتى آخر أيامهم، وسيكونون قادرين على تناول الطعام، لكنهم لن يكونوا قادرين على إطعام أنفسهم أو عائلاتهم مرة أخرى.

لست تُدرك بأن ابن عمي والاثنين الآخرين كانوا بصفاء الكريستال، ولم يكونوا سباسبين لو أي شيء آخر، لقد كانوا مثل الكريستال صفاة، كانوا الأفضل. لقد سرقوا منهم للمال، وقتلوه مثل الكلاب.

لقد ترعرعوا معاً، كانوا يدعونهم بحاملي البنادق للثلاثة. عندما بدأت الحرب، منعهام أهاليهم من الانضمام إلى الثوار. لهذا غادروا، ولم يعودوا إلا بعد أن اعتقدوا أن الحرب انتهت، وهذا ما حصلوا عليه. كانوا جميعهم في العقد الثاني من عمرهم. كان شامخان الأقوى والأكثر غناية بصحته بينهم جميعاً. وقد قطعوا أصابعه وكسروا أضلاعه قبل أن يُطلقوا النار عليه. حصل الآخر على حفرة في رأسه، فيما كسرت قدم للثالث.

يعتقد الروس أن كل شيء انتهى هنا. وأنهم يسيطرون على هذا القتل أو ذلك، لكنهم يكتشفون أن عليهم القيام بالكر والفر. إنهم لن يعيشوا بسلام هنا، أبداً. لقد نموا أن لدينا ثأر الدم وهو شيء مخيف. سنأخذ بالثأر، وسنبقى أحياء.

الفصل الثاني

نيران الحرية

"هذا الكوخ البسيط، الذي كان مصدر الراحة والاطمئنان،

احترق بنيران حرية القوقازي".

ليرمنتوف.

1. شعب التلال

يَقْتَمُ الروس غزروهم للقوقاز بأنه عمل جيد، ومدية للشعب هناك. يقولون لهم
لحضروا لنا الحضارة. لكنهم يتجاهلون أن لدينا عاداتنا الخاصة، وحياتنا الخاصة،
وثقافتنا الخاصة.

أصلان توف، كبير علماء الآثار في متحف التاريخ في العاصمة الأديجية ميكوب.

في مرتفعات أديجي الحرجية، وخلف قرية خامشكاي، هناك ضريح يعود لما
قبل التاريخ، يقع بين موقف للحافلات، ومقلع للحجارة. لقد وضعت ألواح كبيرة
من الحجارة الرمادية التي تغطيها الطحالب فوق بعضها البعض لبناء حجرة وحيدة
لها أربعة جدران. تتكوّن واجهة الضريح من حجر واحد ضخّم بطول حوالي
مترين وعرض متر ونصف، مع ثقب دائري بحجم الرأس محفور بعناية على مستوى
الأرض، مثل كوة السفينة. تقول اللوحة المتهاكّة المخصصة للسياح بأن عمر
الحجارة يبلغ بين 3000 - 3500 سنة، وأن لا أحداً من السكان المحليين أو الروس
يعرف حقيقة هذا الضريح (دولن) الغامض.

لكل شخص في شمال القوقاز نظريته عن المكان الذي أتى منه شعبه، والتي
غالباً ما تكون أغرب من الخيال. لا يستطيع أحد إثبات أيّ من تلك الفرضيات
بشكل قاطع. فالأسطورة تقول إن الشيشانيين "ولّدوا عندما وضعت أنثى الذئب
صفارها". ويقول الإمام شامل، من قومية آفار في داغستان، والذي قاد أكبر
حروب القرن التاسع عشر ضد الروس، أن الإسكندر الأكبر نفى كل مجرمي
إمبراطوريته إلى القوقاز، وهكذا تكوّن هذا الخليط الإثني المنحل. يدّعي أهل أوسيتا
بأنهم يتحدّرون مباشرة من قبائل سيثيا وسارمتيا العظيمة، وآخرون يتحدّرون من
جينكيزخان، أو تيمورلنك. تصبح النظريات سخيفة أحياناً، مثل الادعاء الذي
سمعته من شيشاني مخمور بأن شعبه يتحدّر من جيش روماني مفقود.

من غير المرجح اكتشاف الحقيقة، وتشكّل سهول شمال القوقاز جسراً برياً
بين آسيا وأوروبا، وقد استضافت على الدوام إما غازياً أو تاجراً؛ فارسياً، يونانياً،
وغوطياً، وعربياً، ومنغولياً، ويهودياً، وتركياً، وسلافياً. لقد امتزجت اللغات

والعرقيات في هذا الخليط الثقافي، بشكل واضح أو غير واضح، لتشكل هذا التشابك الذي نراه اليوم. إننا نرى الشيء نفسه عندما يتعلق الأمر بالدين. لقد وصلت المسيحية إلى شمال القوقاز الوثني في القرن الرابع بعد الميلاد وتبعها الإسلام الذي ضرب جذوراً عميقة في الأرض في داغستان بحلول سنة 733 بعد الميلاد.

ترمز تلك الأضرحة دولن إلى الغموض الذي يلف هذه المسألة. وهي تعود إلى سنة 2000 قبل الميلاد، ويبدو أنها نتاج الوافدين الجدد إلى شمال القوقاز، حتى أنها تشبه الأبنية الموجودة في أوروبا. لكن لا أحد يعرف على وجه الدقة، كما هو الحال في سهول سالزبوري في إنكلترا، من أين جاءت هذه الأضرحة، ومن بناها، أو كيفية استخدامها. لدينا فهم أفضل لأرجيل ضخم من مقابر الدفن تحت الأرض يدعى كورغان، والذي يشغل مساحة بحجم البحر الأسود في شمال القوقاز.

تعود ثقافة كورغان، التي يتمّ بموجها دفن الميت على ظهره ورفع ركبتيه للأعلى، وطمره بالمقبرة (تراب مع فلز الحديد يكون عادةً أحمر أو أصفر اللون)، وغالباً ما تصحبه مقتنياته وزوجاته، إلى الألفية الثالثة والثانية قبل الميلاد. يقع أحد أقدم وأشهر قبور كورغان في تل تراي في ميكوب، العاصمة الحالية لأديجي. يعود تاريخه إلى 2200 قبل الميلاد، ولم يتمّ اكتشافه سوى في نهاية القرن التاسع عشر، إنه يحتوي على مجموعة نفيسة من 17 قطعة ذهبية رائعة، وأوان فضية وحجرية، وأسلحة من الواضح أنها جاءت من الجبال من جورجيا، أو من ميسوبوتاميا، وأحجار كريمة وتركواز تشير إلى صلات ببلاد فارس وأفغانستان. لا يمكن مقارنة هذه المقتنيات سوى بما كان يملكه أغنياء اليونان في ذلك الوقت. لقد سُرقَت العديد من مواقع الدفن، ولكن الكثير من محتوياتها الذهبية وجد طريقه أيضاً نحو المتاحف الروسية. تقبع كنوز ميكوب في متحف هيرميتاج في سانت بطرسبرغ.

يشكّل اتساع الإمبراطورية الإغريقية ووصول هجرات القبائل الآسيوية التي كانت تحتل سهول روسيا الجنوبية العلامات الفارقة في تطوّر شمال القوقاز. شكّل شعب سيثيان، الذي كان يتكلم لغة هندو - إيرانية، أحد أبرز الوافدين الجدد، وقد غزا منطقة البحر الأسود على سهوة الجياد حوالي 850 قبل الميلاد. بعد فترة

قصيرة من ذلك، بدأ المستوطنون الإغريق في إقامة مستعمراتهم على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم وعلى طول مضيق بحر آزوف. لقد بدأت كلتا المجموعتين بالامتزاج مع أهل القوقاز المحليين، مثل الميوتيان، وهم أسلاف شعب أديجي الحالي أو الشركس.

يعتقد المؤرخ الإغريقي هيرودوتس، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، أن شعب سيثيان كان قوياً بشكل خاص، وهو الذي تقول الأسطورة إنه يتحدث من سلالة تنحت عن تزواج هرقل وامرأة أفعى. كان المحاربون، كما قال، يشربون دماء أعدائهم، ويقطعون رؤوس الموتى دائماً للحصول على المكافآت من قاداتهم. كانوا يعلقون فروة رأس العدو على الجدران، وكلما ازدادت مناديل المائدة التي يستطيع الرجل الحصول عليها، كلما ازدادت مكانته الاجتماعية بين الناس. صنع العديد منهم عباءات لأنفسهم، تشبه إلى حد بعيد المعاطف الطويلة التي كان الوثيون يرتدونها، بنسج كمية من فراء الرأس تلك معاً.

ووفقاً لما قاله هيرودوتس، نشأت المحاربات الأسطورية ومقاتلو الأمازون من فروع قبيلة سيثيان أيضاً. رغم أن أحداً لم يأخذ مقولته تلك على محمل الجد لوقت طويل، إلا أن علم الآثار أظهر وجود نساء يجدن استعمال السيف في سهول ما يعرف الآن بجنوب روسيا. لقد كانت قبائل سيثيان، ومن بعدهم السارماتيان، الذين طردوا سيثيان من شمال القوقاز رغم ارتباطهم بهم، تحب أيضاً الجمال والغموض. لم يكن لدى قبائل أمازون سيوف فقط، وإنما قوارير عطر وتعاويذ أيضاً. عمل الحرفيون الإغريق على صنع الأطباق الذهبية، والمجوهرات، والحلي لزبائنهم الممحين القادمين عبر البحر الأسود.

كانت مدافن سيثيان - سارماتيان رهيبة، لكن مدهشة. كان يتم دفن أصحاب السمو الملكي في كورغان إلى جانب أكوام من الذهب، والأسلحة، والخيول. وكما كتب هيرودوتس: "مع أفراد مختلفين من منزله: إحدى محظياته، ورئيس الخدم، والطاهي، وسائس الخيل، وخدامه الخاص، وحاجبه - وجميعهم يموتون خنقاً". بعد سنة من ذلك كان يتم خنق 50 جواذاً ممتازاً، و50 شاباً وتغنيطهم، ووضعهم على عواريق حول الكورغان ليشكلوا حراساً مرعيين للملكم الراحل.

كان النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد عصراً ذهبياً لشمال القوقاز، تعايشت خلاله قبائل الميوتان - الأديجي، والتراسيان، والإغريق، والسيثيان ومن بعدهم السارماتيان بسلام فيما كان يعرف بمملكة البوسفور. امتدت تلك المملكة، التي كانت مستعمرة إغريقية في البداية، من شبه جزيرة القرم إلى أرض الأديجي على الساحل الشمالي للبحر الأسود. منذ حوالي سنة 480 قبل الميلاد، بُنيت المملكة دولتها الغنية المستقلة، وازدهرت تحت حكم سلالة جديدة بدأت مع حاكم من تراسيان يدعى سبارتوك في العام 438 قبل الميلاد.

كانت مملكة البوسفور بوتقة لانصهار الحضارات: الإغريق الذين يعملون بالتجارة، والسيثيان الذين يطوفون السهول، والميوتان الذين يعملون بالزراعة والأكثر استقراراً. من الناحية السياسية، وجدت الدولة القوة في المرونة. كان هناك ملك مركزي، لكن زيادة عدد النبلاء المحاربين ضمن السيثيان والميوتان أبقت على استقلال تلك القبائل. وقد وحلّهم التجارة معاً. كانت لديهم جميعاً أهم التجارة الخاصة بهم إضافة إلى عملة نقدية مستقلة. لقد سيطروا تقريباً على كل الأعمال في منطقتي بحر آزوف والبحر الأسود، وكانوا يتعاملون مع الإغريق بالعسل، والخشب، والفراء، والجلود، والأسماك، والشراب، وزيت الزيتون، والآجر. كان يتم تصدير كميات هائلة من الأسماك من الميناءين الرئيسيين باتيكابايوم (كبرش حالياً) وفاناغوريا، المتقابلين عبر المضيق الضيق الذي يلتقي فيه بحر آزوف بالبحر الأسود. ومن السهول، كان رعاة بقر السيثيان والسارماتيان يرسلون اللحوم والغلال، مما جعل مملكة البوسفور سلة خبز أثينا.

في القرن الأول قبل الميلاد، انتقلت مملكة البوسفور إلى فضاء الإمبراطورية الرومانية، وبدأت رحلة الانحدار البطيء، انتشر فيها الاضطراب السياسي، والحروب، وتعرضت للغزو ومن ثم التدمير من قبل قبائل هنس في القرن الرابع الميلادي. تدل آثار البحر الأسود اليوم على موقع مملكة البوسفور، وما يزال ميراث تلك الدولة القديمة وشعبها حين لغاية اليوم. وما يزال المتحدثون من قبائل سارماتيان يعيشون لغاية اليوم في أوسيتا، حيث تعكس اللغة، والموسيقى والدين

الوثني تلك الحقبة التاريخية القديمة. بشكل رمزي، أعاد أهل شمال القوقاز تسمية جمهوريتهم ألانيا على اسم ألان، وهي إحدى قبائل سارماتيان الرئيسية، عندما انفار الاتحاد السوفياتي. لقد تركت قبائل ألان بصماتها عبر أوروبا، نتيجة لقتالها مع وضد الرومان. وتحمل قرى عديدة في فرنسا، مثل أليكون، علامات بارزة عنهم. لقد انتهى المطاف بما يزيد عن 5000 من فرسان سارماتيان، الذين كانوا يحرسون جدار هادريان بين إنكلترا واسكتلندا، بالانتقال إلى قرية ريشيستر في لانكاشير في القرن الثالث بعد الميلاد. ويرجع الفضل في إدخال سلاح الفرسان إلى الجيوش الرومانية إلى قبائل سارماتيان، التي كانت السبّاقة إلى ما أصبح فيما بعد ظاهرة الفارس الأوروبي.

ربما بدأ نظام الفروسية نفسه، الذي يتضمن ثقافة الحرب والشرف، في القوقاز أيضاً، حيث ما تزال الشهامة جزءاً من شخصية أهل الجبال.

هناك أيضاً انعكاسات ملموسة للماضي في مئات التصميمات الغامضة التي تدعى تامكاز، وهي أشكال أنيقة وبسيطة تبدو مثل العلامات التي يتم استخدامها على الثيران الإسبانية. يعود تاريخ تامكاز إلى القرن الأول بعد الميلاد، وهي ما تزال تستخدم لتخليد ألقاب أدبي، ويمكن رؤيتها محفورة على شواهد القبور في مدافن ذلك الشعب. تعيش المملكة المفقودة أيضاً في ظلال اليونان القديمة، وتبدو في نسخة نارت من أسطورة بروميثوس. ما تزال معتقدات الإغريق بواجبات الضيافة ومراسم الخدمة في الهياكل القديمة تعيش لغاية يومنا هذا في أديان أدبي وأوسيتا الوثنية. لكن ربما يكون السيف الإغريقي هو الأكثر صموداً عبر الزمن، وكل ما عليكم فعله هو الذهاب إلى متحف ومشاهدة ذلك السلاح الذي يبلغ عمره 2500 سنة، مع فصله الحاد وقبضته المعقوفة، وسرعان ما ستدركون "أن هذا السلاح ليس سوى سلف بعيد الخنجر كنزال".

اتسعت دائرة الغزوات بعد انهيار مملكة البوسفور. ولاحقاً للغزو الذي قام به القوطيون سنة 240 بعد الميلاد، قامت قبائل هنس الآسيوية بغزو البلاد سنة 370 بعد الميلاد، ثم أتى الآفار، والخزر والأتراك مع إمبراطورية اعتنقت الديانة اليهودية، واستمرت في شمال القوقاز من القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر.

في الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلادي، انتشر الشراكس؛ الذين اعتنقوا الدين المسيحي بشكل مبكر، في المنطقة الواقعة غرب البحر الأسود في ظل حكم إقطاعي للأمرء الذين كانوا يتمتعون باستقلال ذاتي واسع. دفع الشراكس لمنّا باهظاً لمنّا لفشلهم في تحويل وحدتهم الثقافية إلى نظام سياسي مركزي، لأن ثروة التجارة مع العالم الخارجي في ذلك الوقت كانت مسألة بالغة الأهمية. أقام شراكس أديجي علاقات تجارية مع البيزنطيين المسيحيين والإيطاليين في جنوا والبندقية، وأصبحوا مشهورين بصناعة الألبسة الموشحة بالذهب والأسلحة المتقنة، وقاموا بتصدير أبناء شعبهم أيضاً؛ الرجال كمرتزقة والنساء كمحظيات. ساهم الجنود الشراكس في إقامة حكم الماليك في مصر، وهيمنوا على ذلك البلد بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر. إن الجنود من أصول شركسية يتواجدون بشكل واضح في القوى الأمنية للعديد من بلاد الشرق الأوسط لغاية يومنا هذا.

خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر، اجتاحت حشود المغول البالغة القوة، والتي أرسلها جنكيزخان، كلاً من الأناضول، وجنوب روسيا، ومعظم أوروبا، وشمال القوقاز. وفي نهاية القرن الرابع عشر، أتى الدور على تيمورلنك ليغزو آسيا والقوقاز مما أوقف ازدهار الشراكس، ودفع بقبائل سارماتيان - ألان والقبائل الأخرى إلى الجبال المنيع الحصينة، ولكن المعزولة في الوقت نفسه. مثل كل الغزوات التي سبقتهم، سرعان ما تلاشى المغول واضمحلت آثارهم. لكن سرعان ما تعرض القوقاز لغزو جديد. كما هو الحال سابقاً، اجتاحت أولئك الغزاة البلاد على سهوة الجياد مزودين بإمدادات عسكرية هائلة، مع بعض الفروقات؛ فقد أتوا للمرة الأولى من الشمال، وليس من الشرق، وكانوا مسيحيين، وبدا غزوهم كما لو أنه باقٍ للأبد، لقد كان هؤلاء هم الروس أنفسهم.

2. الحرب المقدسة

تعتبر هذه العشيبة المسيحية الصغيرة نفسها متحضرة جداً، ولا بدت في زلوية ضيقة من الأرض، وتحيط بها للقبائل المحمدية شبه المتوحشة والجنود للروس من كل جانب، إنها لا تعترف سوى بالقوقازيين بوصفهم كائنات بشرية، وتستخف بكل ما عداهم.

لقوقازيون كما وصفهم ليون تولستوي.

خيم ظلام العصور الوسطى في القرن السادس عشر بعد هزيمة المغول الساحقة سنة 1480، ووجد أهل شمال القوقاز أنفسهم بين فكيّ قوتين عظيمتين تدينان بدينين مختلفين؛ روسيا المسيحية، والإمبراطورية العثمانية المسلمة.

بحلول سنة 1556، استطاعت الدولة الروسية أن تتوسع وتحكم سيطرتها على ميناء أستراخان ذي الموقع الاستراتيجي على بحر قزوين. بعد ذلك بوقت قصير، اندفعت على اليابسة لتجاوز الفولغا، وصولاً إلى نهر تيرك الذي يحد أوسيتا، والشيشان، وأنغوشيا. كان لدى روسيا حلفاء يقطنون جنوب الجبال في جورجيا وأرمينيا اللتين تدينان بالمسيحية، والذين طلبوا المساعدة ضد الفرس المسلمين - الإمبراطورية الثالثة، والأضعف في المنطقة. في البحر الأسود، وضعت تركيا حلفاء لها بشكل استراتيجي ضمن ما تبقى من الشعب المغولي الذي يعيش في شبه جزيرة القرم، في ظل حكم الخان.

احتلت القبائل الشركسية من أديجي كامل النصف الغربي من شمال القوقاز، وبذلت كل من تركيا وروسيا جهوداً خاصة للفوز بولائها. وتعاملت موسكو باكراً مع الأقلية المسيحية، مثل توقيع اتفاقية مع الأمراء من قبيلة كابارد سنة 1557، وتزوّج القيصر إيفان من ابنة زعيم لقبيلة كابارد يدعى تيمروك سنة 1561. لكن هذه التحالفات، ورغم تصورها من قبل المؤرخين السوفيات على أنها التاريخ الرسمي لدخول شمال القوقاز إلى روسيا، كانت سطحية ولا معنى لها بالنسبة لأمراء وحكام الشراكس. ففي الفترة الواقعة بين أواخر القرن السادس عشر وبدايات القرن الثامن عشر، وعندما أصبح واضحاً أن روسيا ستغزو أراضيها، تحركت قبيلة كابارد مع القبائل الشركسية الأخرى في أديجي بعيداً عن روسيا، وانضمت إلى العالم العثماني، وبحلول سنة 1580، أصبح الإسلام الدين المهيمن في المنطقة.

كان الهدف النهائي السيطرة الاستراتيجية على صلة الوصل بين آسيا وأوروبا. لقد اعتمد الأتراك الشراكس وسيلة لتطويق الفرس، والسيطرة على البحر الأسود، وإبقاء الإمبراطورية الروسية الناشئة في الزاوية. بالنسبة للروس، كان الشراكس جسراً نحو البحر الأسود وبالتالي طريقاً نحو فارس، وتركيا وحتى الهند. تمتلك بلاد فارس جذوراً في القوقاز تمتد إلى العالم القديم، لكنها

كانت خاسرة في ذلك الوقت نتيجة إضعافها من قبل منافستها الإمبراطورية العثمانية، وتم دفعها جنوباً من قبل الروس وإخراجها من بحر القوقاز في بداية القرن التاسع عشر.

اتجهت طلائع الروس جنوباً إلى حيث يتواجد القوقازيون، وشكلوا آلة استعمارية بشرية، وواجهوا النار بالنار. مثل منافسيهم في الصراع على القوقاز، لم تكن أصول سكّان تلك البلاد معروفة. ويدّعي بعض القوقازيين بأن أصولهم السلافية امتزجت مع قبائل سيثيان، وسامارتيان أو الخزر لينشأ عنها عرق فريد. يعتقد الكثيرون أن أصل القوقازيين يعود للمغامرين السلافيين والبيد الروس الفارين في العصور الوسطى، والذين شكلوا عصابات من قطاع الطرق المتحررة من أي دولة أو قوانين، والتي تتحول في جنوب روسيا على سهوة الجياد. استقر القوقازيون تدريجياً على ضفاف نهر الدون، والبولغا، والدنبر وشكلوا شخصية منفصلة تسمى الاستقلالية والتفرد، والطريقة الشائعة للحياة الريفية. خضعت الجماعة القوية التي استقرت بجانب نهر الدنبر لسيطرة الدولة الروسية في أواخر القرن الثامن عشر، ووافق بعدها القسم الأكبر من القوقازيين على الانضمام تحت السيادة الروسية مقابل تمتعهم بحكم ذاتي واسع سنة 1654. كان هناك مجموعتان رئيسيتان في القوقاز، واحدة في الغرب على طول نهر كوبان، والأخرى في الشرق على طول نهر تيرك وتحتل منطقة الأرض السوداء، وهي أغنى الأراضي الزراعية في الإمبراطورية الروسية الناشئة آنذاك.

كان القوقازيون مهيبين وجاهزين تماماً للحرب. كانوا يعيشون في قرى يديرونها بأنفسهم تدعى ستانيسا، وكانوا متحررين من الرق؛ ولكن توجّب على كل رجل منهم أن يخدم في الجيش لمدة 25 سنة. في بعض المجالات، كانوا أشبه بنسخة مبكرة عن رعاة البقر الأميركيين الذين يجيدون امتطاء الخيول، ويمتلكون ذهنية معينة، والأهم من ذلك كله أنهم يحبون الاستيطان في الأراضي الخصبة. وعوضاً عن الاعتماد على الجيوش المتلهفة للعودة إلى الوطن لإقامة حاميات عسكرية في القوقاز، كانت موسكو قادرة دائماً على إخضاع البلاد الجديدة باستخدام القوقازيين أنفسهم، والذين كانوا يحرزون انتصارات مستمرة.

أخلص القوقازيون في خدمة القيصر والصليب المسيحي، ولهذا نشأت علاقة حب - كراهية بينهم وبين العدو المسلم. لقد حافظوا على لباس أهل شمال القوقاز المزركش وأسلحتهم، وقدسوا القروسية، واعتمدوا على تكتيكات رجال القبائل العسكرية، وهاجموا القرى المحلية باستمرار. لقد تزاجوا أحياناً من بعضهم البعض مما نشأ عنه عرق مختلط بارع الجمال.

كتب ألكسندر دوما، مؤلف الكونت مونتي كريستو، والفرسان الثلاثة والكثير من كتب الترحال المثيرة، في مغامرات في القوقاز أن القوقازيين أنفسهم كانوا منقسمين إلى مستوطنين على نهر الدون، وأولئك الذين عاشوا على التخوم، أو "الخط".

ويقول: "يولد قوقازي الخط على مرأى العدو الذي سيقاظه، ويتكلف مع الخطر منذ نعومة أظفاره، ويصبح جندياً عند بلوغه الثانية عشرة من عمره... ومن جانب آخر، يولد قوقازي الدون في بيئة زراعية ويقضي طفولته في السهول الواعدة لذلك للنهر الهادئ للمهيب".

يصف تولستوي في كتابه القوقازيون شعباً شديداً وشجاعاً، ويفهم المنطقة بشكل أفضل من الضباط الروس المتفطرسين الذين لا يهتمهم سوى الرياضة والأوسمة. لم يكن القوقازيون أنفسهم سوى غرباء بشكل أساسي، وغزاة لوطن الآخرين، وما تزال العصبية القبلية والإسلام منتشرين بشكل كبير بينهم لغاية اليوم. شعر رحالة وكتاب القرن التاسع عشر، بمن فيهم تولستوي، بأن أهل الجنوب يبدوون مثل أهل شمال القوقاز ظاهرياً، لكن هناك دائماً درجة بينهم، فهم لا يتقنون امتطاء الجياد ولا إطلاق النار مثلهم. بشكل عام، هناك فرق أساسي واحد: كان أهل شمال القوقاز يقاتلون دفاعاً عما يمكن وصفه بأرضهم منذ بدء التاريخ.

يصف تولستوي في كتابه القوقازيون حادثة قام فيها قوقازي من الجنوب، والذي كان أحد عناصر دورية ليلية، بالهجوم على شيشاني وقتله أثناء محاولته التسلل عبر النهر للقيام بغارة. كان هناك شعور أولي بالسعادة لأن قوقازي الجنوب فاق الشيشاني ذكاءً وقضى عليه، ولكن ساد بعد ذلك شعور بالخجل كما لو أن اللعبة لم تكن عادلة.

تمتم، وهو ينظر بإعجاب إلى الجنة: لقد كان رجلاً ليضاً.
يقول قوقازي آخر من الجنوب: نعم، لو استطاع الإمساك بك، لما كن لديك فرصة
للنجاة.

ما تزال قرى ستانيتسا القديمة موجودة لغاية الآن على الخط عبر المنطقة،
وهي أماكن تحمل أسماء مثل بروفورزنوي أو "الجانب الأيمن من الضفة" على نهر
تيرك في شمال الشيشان. لقد انهارت منزلة أهل جنوب القوقاز كثيراً تحت الحكم
السوفييتي، لكنهم كانوا مدركين تماماً لموقعهم التاريخي الغريب، كحراس للمصالح
الروسية في شمال القوقاز، ولقدرتهم على فهم الشعب المحلي المسلم بشكل أفضل
من الروس.

"ولدتنا لنطاً كبرياء موسكو،

ونجعلها في جبال الأرض،

إنه يقتل، ويلتصر، قريباً وبعيداً.

نلك العرق الشمالي للعين".

أغنية تنربة حول الشيخ منصور.

في سنة 1785، شاهد رجل دين شيشاني يدعى منصور رؤيا يأمره فيها النبي
محمد (صلم) بشن حرب مقدسة غزوة ضد الروس المحتلين. لم يكن أحد متأكداً
من طبيعة تلك الثورة، لكن البعض قال إنه صاحب رؤيا حقيقية، فيما قال البعض
الآخر إنه راهب إيطالي مرتد ومغامر. يطول الشك حتى اسمه الحقيقي. لكن أصول
منصور ليست موضوع البحث الآن. فمثله مثل معظم الأشخاص الروحانيين،
بدأت حياته الحقيقية منذ تاريخ رؤيته للضوء رغم أنه لم يكن قد تجاوز الثلاثين من
عمره بعد، ومات بعد أقل من 10 سنوات، وأصبح كل ما يهم بشأنه هو تلك
الرؤيا التي تكلم عنها.

والرواية التي يمكن الاعتماد عليها هي أنه من أصول شيشانية، ويدعى
أوشرما، من قرية ألدی. كان أوشرما رجلاً ورعاً، ويلتزم التقاليد الصوفية
الإسلامية الغامضة، ويتبع الطريقة، أو ما يدعى النقشبندي. لقد شاعت هذه
التقاليد في مدينة بخارى في آسيا الوسطى لقرون عديدة، لكنها كانت جديدة
بالنسبة لأهل شمال القوقاز، ولم يكن واضحاً كيف أصبح أوشرما ما أصبح عليه.

لقد غيّر اسمه إلى منصور بعد تلك الرؤيا، والتي تعني المنتصر في اللغة العربية، واتخذ لقب الشيخ لنفسه. لقد ساهم في نشوء جيل من محاربي الشيشان الوريين، كما أنه كان جندياً بنفسه. يقول عنه أحد كتّاب السير الذاتية في بداية القرن العشرين: "كان بنام مرتدياً معطفه ومسلحاً بالكامل. كان يفسّر تلك العادة الغريبة بالقول إنَّ من العار على الشيشاني أن ينام دون ثياب، لأن الشيشاني برأيه يجب أن يكون مستعداً دائماً لكل الاحتمالات، ولا يستطيع الاعتماد على الراحة أبداً".

في الوقت الذي ظهر فيه الشيخ منصور، كان الغزو الروسي يزحف إلى الأمام، يبطء لكن بثبات بالنسبة للأجيال المتعاقبة، ووصل إلى ذروته في ستينيات القرن الثامن عشر. كانت هناك معوقات كبيرة مثلما حدث سنة 1605 عندما حاصر رجال الجبال الداغستانيون جيشاً مولفاً من 10.000 جندي، وقتلوا معظمهم بمساعدة الأتراك. لقد ساهم ذلك في إبطاء الغزو، لكنه لم يعنِ التحلي عنه. وحتى بعد تلك الكارثة المبكرة، كيف أمكن للقيصر بوريس غودونوف معرفة أن قتال تلك الجيوش الكبيرة الثقيلة الحركة ضد المحاربين من الثوار في التضاريس المعقّدة سيستمر إلى ما لا نهاية في المستقبل؟ وهل كان يؤمن أن الأمر سيستغرق 250 سنة أخرى قبل أن تسيطر روسيا على شمال القوقاز؟

في سنة 1772، احتل بطرس الأكبر مدينة ديرينت في داغستان على بحر قزوين، وبعدها بأكو، ثم سيطر على ساحل أذربيجان، بعد سنة من ذلك. بعد مضي عقد من الزمن، سجّل الروس أعظم انتصاراتهم على الإطلاق بانتزاع شبه جزيرة القرم من تبقّي من المغول، والتتار، والعثمانيين الذين كانوا يوفرّون الحماية لهم. لقد أصبح الطريق مفتوحاً إلى البحر الأسود، مما فتح شهية أولئك الحاملين في سانت بطرسبرغ الذين أرادوا إكمال الطريق إلى إسطنبول، أو القسطنطينية كما كان المسيحيون لا يزالون يرونها، والوصول إلى الهند. كان حصن فالديقفقاز آخر المعالم البارزة في هذا المجال، والذي شيّده الروس سنة 1784 للسيطرة على القوقاز والتحكم بالطريق الشمالي - الجنوبي الرئيسي عبر الجبال، وهو الآن طريق يسلكه الجيش الجورجي عبر ممر داربال إلى جورجيا المسيحية. لقد نتج عن حالة الحرب والسلم المتواصلة بين الأوسيت والكابارد ضرب إسفين بين القبائل المسلمة في

الشرق والغرب. وأثناء ذلك، تقدّم الخط الروسي المؤلف من جدار هائل من الحصون ومستوطني جنوب القوقاز نحو الأمام.

بدأت حملة منصور العسكرية التي امتدت ست سنوات بنصر شهير سنة 1785 على القوات الروسية في نهر سونزها في الشيشان. اجتاحت قوات الإمبراطورة كاترين الثانية قريته ألدي، لكن القوات حوصرت بعد مغادرتها للقريّة المدسّرة ووقعت في كمين. وكحصيلة عامة، مات حوالي 600 جندي وضابط. كان منصور يهدف إلى لمّ شمل شعوب شمال القوقاز وتوحيدها، وقد استطاع في مرحلة ما جمع حوالي 20.000 رجل تحت قيادته من داغستان إلى نهر كوبان في الغرب. على كل حال، باءت معظم المعارك الكبرى في ذلك الوقت بالفشل العسكري، ولا يمكن مقارنتها بمحامات الدم الأولى التي كانت تجري في غابات الشيشان. لم يكن رجال منصور مدربين، وكان عليهم مواجهة الجنود الروس المنضبطين والمسلحين جيداً، إضافة إلى فصائل أهل جنوب القوقاز. نقل منصور حربه المقدّسة من الشيشان إلى داغستان، وهاجم حصن كيزلاير الروسي دون أن يتمكن من الاستيلاء عليه. فيما بعد انتقل إلى كاباردينو - بالاكاريّا الحالية، لكنه أجبر على الخروج منها، بعدها نقل قتاله إلى قبائل الشراكس في أديجي مستفيداً من نشوب الحرب بين روسيا وتركيا.

في النهاية، كان منصور ضحية الحظ السيئ المحض. فقد تواجد في حصن أنابا التركي على ساحل البحر الأسود عندما هاجم الروس الحصن المهم واستولوا عليه، حيث أسروه. بعد وقت قصير استعاد الأتراك حصنهم بموجب اتفاقية مع الروس، لكن إلقاء القبض على منصور جعلها معركة مهمة بالنسبة للروس. أحضر منصور ليمثل أمام كاترين الثانية، ومن ثم سجن.

رغم موته بعد ذلك بفترة قصيرة، وكان ما يزال في الأربعين من عمره، صمد ميراث تعاليم منصور الصوفية الروحانية وغزواته أكثر من كاترين وكل من عاش في تلك الفترة. كانت الطريقة الصوفية، أو المنهج الديني، الذي نشر تعاليمه مخصّصاً لأهل شمال القوقاز، وهو الشكل المثالي من الدين لمواجهة الضغوط العسكرية الثقافية الخارجية. لا تحتاج الصوفية لمبايّن رسمية مثل

المساجد، ويمكن لأعضائها غير المسجلين رسمياً، والذين يدينون بولاء كبير لهذه الطريقة، الظهور أو الاختفاء بسهولة كما يشاؤون. وإضافة إلى الطريقة النقشبندية التي أنشأها منصور، أدخل كونتا حاج ما يدعى الطريقة القادرية الأكثر حداً في خمسينيات القرن السابع عشر. تدعى الشعائر الدينية للصوفيين الذكر، وهي سلسلة من الابتهاالات التي تسمو بالروح إلى مصاف عالية. تختلف أشكالها بشكل كبير. وضمن جماعة النقشبندية، تُقام حلقات الذكر بكتمان وهدهوء، لكن هذه الحلقات تكون صاخبة بالنسبة لأتباع القادرية، إذ يشكّلون جماعات صغيرة تدور وترقص في حلقات، وتقفز عالياً في الهواء لتستقر على نفس نقطة ارتقاها، أو تضرب الطبول، طبقاً لمقاطع خاصة. وقد يستمر الذكر لساعات.

نظراً لقوة هذه التعاليم الصوفية، حاول الروس منع الذكر في أواخر ستينيات القرن السابع عشر، فيما استخدمت السلطات السوفياتية تكتيكات أكثر عنفاً وقسوة، فقد كانت تجمع وتقتل القادة الروحيين وتقوم بإغلاق المساجد. على كل حال، لم تنجو كلتا الطريقتين من الاندثار وحسب، وإنما ازدهرتا حتى إبان العهد السوفياتي بشكل خفي وسري، في داغستان، والشيشان، وأنغوشيا. وشكّلت شعائر الذكر حجاباً لا يمكن اختراقه حول أحاسيس وثقة هؤلاء الأشخاص بأنفسهم. عزّزت الجماعات المغلقة على نفسها التي تجتمع في كل مكان، وما تزال تجتمع، للقيام بحلقات الذكر من الإحساس بالانضباط والانتماء إلى العصبية العرقية والنقاء الديني. من الناحية النفسية، يتمّ توظيف الانضباط الصوفي الذي يظهر في حلقات الذكر بشكل ممتاز للدخول في المعركة. يظهر العديد من أتباع هذه الطرق غير خائفين من الموت، لأنهم يشعرون بالقرب من الله، وزوّدهم التدريب ضمن إخوانهم بروح الفريق الواحد وبالانضباط اللازم للقتال. هذا ما كان بالفعل عندما أطلق منصور الطريقة النقشبندية، والتي ألهمت جيشه القيام بأعمال بطولية فذة، وظهر هذا جلياً في تسعينيات القرن العشرين في الشيشان حيث كان المقاتلون يأتون مباشرة من الأخوية ويمجدون ما يحتاجون إليه في الذكر.

جيشي، الشيشان

خمسـة عشر رجلاً يشكلون حلقة. يرفع أحد المصلين عند بدلية النكر بصوت عالٍ، بطيء وحزين بائتهال مع لحن متناغم وإيقاع متجانس. تتشد فرقة المنشدين: "لا إله إلا الله، لا إله إلا الله". ثم ما يلبث الابتهاال أن يصبح أقوى وأسرع حتى يتورد وجه قائد الجماعة، وتتسمر عيناه بالسماء فوق المساحة المطلية جدرانها باللون الأزرق.

يقف الرجال متراممين إلى جانب بعضهم البعض، ويصفقون بحرارة وينشدون. يصفق القائد بيديه فوق أذنيه، ويزداد زخم الآخرين، ويصفقون بأيديهم، وينتقلون من قدم إلى أخرى، ثم يضربون الأرض بأقدامهم، ويصيحون بالصوت: "لا إله إلا الله". يصل بعض الرجال إلى النشوة التي يريدونها من النكر. يمكن التعرف عليهم فوراً: أولئك الذين ينقطر العرق من وجوههم، وتبتل قمصانهم في الحرارة الشديدة، أولئك الذين تومض عيونهم، أولئك الذين يصفقون ويضربون الأرض بعنف، لكنهم لا يشعرون بشيء. وبين التقنية والأخرى، يكسر أولئك التناغم الجماعي ويصرخون بائتهالات خاصة بهم بأصوات لا يمكنهم السيطرة عليها، أو يصرخون بهتافات للنشاط، والنشوة، والفرح.

تتحول الحلقة فجأة إلى هرولة بطيئة بعكس عقارب الساعة، ويستمر الإنشاد والابتهاال والخطوات المنتظمة، ثم الدوران اللولبي الذي لا تبدو فيه سوى قمصان وقبعات المشاركين. يسحب الرجال أرجلهم الخلفية ويضربون الأرض بالأرجل الأمامية. وتقف النساء بالجوار ويرشطن الماء لتهدئة الغبار، لكن سرعان ما تجف الأرض، ويتسبب الرجال بسحابة غبار تملو كواحلهم في المساحة. إنها نوبة، ثم يتوقف الخمسة عشر رجلاً فجأة ويتجهون إلى داخل الحلقة، بترامن رافع.

يشير ابتهاال القائد الجديد والطويل إلى الله إلى الهدوء بعد الدوران. لكن التصفيق والضرب بالأرجل يستمران مجدداً، وبقوة كبيرة بحيث أن الأرض تهتز علي بعد عدة أمتار. ثم تصدح صرخة طويلة ومتناغمة بالقول: /الله، ثم تتغير السرعة مجدداً، وتجعل الخمسة عشر مبتهالاً يتحركون بإيقاع أبطأ، ثم تبدأ الحمى مجدداً ويبدلون بالدوران في حلقات. وعندما تقصف مقاتلة روسية القرية، وتطير على ارتفاع منخفض فوق أسطح المنازل، وتختفي داخل الأرياف. ولم ينظر أحدهم للأعلى. وتعلو الصيحات أكثر فأكثر.

3. أمد داغستان

استأروا سيوفكم أيها الناس!

وتعالوا لنجنتنا:

ودعوا للنوم والهدوء،

لندعوكم باسم الله.

الأغنية الحربية للإمام شامل.

كل الحياة في جيمري، الواقعة في قلب الجبال الداغستانية، مأخوذة من الصخور. الأرض قاسية جداً لدرجة أن السكّان من قومية آفار ابتكروا مجرفة فريدة خاصة بقريتهم. وهي مصنوعة يدوياً وتستخدم يدوياً. وهم يمسكون مقبضاً بشكل عظم الترقوة، ويضعون أقدامهم على دعامة تشبه العصا، ويضغطون النصل في الأرض الجافة الحجرية القاسية. قد يصبح الهواء في جيمري معتدلاً بشكل غير متوقع وذلك بسبب مناخ الوادي، ولكن الأرض التي يجب أن تمنح الحياة مخيفة للغاية بحيث تبدو المنازل مكدّسة فوق بعضها البعض مثل قرص العسل. وعندما يجد القرويون مكاناً يستطيعون سقايتهم وزراعته بالدراق أو العنب؛ يستخدمون كل شبر من التربة؛ ثم يقومون بتسوية المنحدرات باستخدام المعاول وينون مصاطب صغيرة للحصول على بعض الأمطار الإضافية. ويمكن مشاهدة المنحدرات الشاهقة المزروعة على جانبي وادي القرية، إضافة إلى الصخور الشاهقة. وتوجد وراء هذه المنحدرات، وعلى امتداد البصر، المزيد من الجبال ذات التربة الجافة، والحجرية القاسية.

إنها مسقط رأس شامل من آفار الذي ولد سنة 1796. ولم يكن شامل رضيعاً موفور الصحة، لكنه لم يتعافَ فقط وإنما أصبح صعب المراس مثل أرضه القاسية. ثم أمضى ثلاثة عقود من حياته في الدفاع عن أرضه، وكان رأس الحربة في القتال ضد ما يصل إلى نصف مليون جندي روسي في واحدة من أكثر الصراعات الجديرة بالاهتمام بين ثوار وقوة عظمى في التاريخ.

في سن مرافقة شامل، اندفع الروس عميقاً في السهول الخصبة لشمال القوقاز، ودفعوا بحظّهم من البحر إلى البحر. وأشاعت الحملات العسكرية الاستعمارية الروسية الفوضى في البيئة الاجتماعية، وأدخلت المشروبات الروحية للمسلمين، ودفعت بالسكان المحليين الخائفين نحو الجبال، وأفسدت توازن القوى الطويل الأمد بين ممالك القرى، والطغاة والعشائر المحلية. وكانت نتائج حملات الجنرال الروسي يرمولوف، من سنة 1816 إلى 1826 أكثر سوءاً. وكان يرمولوف رجلاً شبيهاً بالدب، وله وجه بليد وشعر أشيب، وكان يتسلّى بحياة البشر. وقد اتخذ من الوحشية سياسة رسمية له، وقام بتحريك جيشه مثل قبضة عملاقة. "أريد

بأن يحمي الرعب من اسمي خطوط جبهاتنا... وأن تكون كلمتي قانوناً بالنسبة للسكان المحليين، وأن تكون حتمية أكثر من الموت". في هذا الكابوس، كان القرويون إما خاضعين، وبكلمات أخرى يجبرين على الاستسلام، أو يتعرضون للقتل. وكان يتم إحراق قرى بكاملها وذبح سكانها في غارات تأديبية للنار من هجمات رجال القبائل على الحصون الروسية أو الوحدات المحلية الموالية لموسكو. ودكت المدفعية شمال القوقاز الذي بادر أهله بالهجوم على الحصون على صهوة الجياد.

بنى يرمولوف حصناً كبيراً سنة 1818 في سهول الشيشان وسمّاه غروزني، التي تعني الرعي. وكان يرى بأن السكان المحليين همجيون، ولا يفهمون سوى القوة. وكان يأمل بإحلال التهديد في داغستان والشيشان بحلول سنة 1820، ومن ثم يتولّى أمر القبائل الأخرى التي تثير المتاعب في كازبارديا وشركسيا في الغرب. ويقول الرجل بغطرسة: "انطلاقاً من الإنسانية الصرفة، أنا قاسي لا أرحم. وإعدام رجل واحد ينقذ مئات الروس من الموت". اجتاحت نفس حملات السيف والنار أراضي أدجي - شركسيا، في المناطق الخصبة إلى الجنوب من نهر كوبان. وكتب العميد نورينغ في تقريره سنة 1786: "البارحة واليوم دمّرنا غلال قبائل أبازا وكالميك، ووطنها بمخافر خيولنا، وأمرت الضابط المسؤول وقائد الحملة الرائد يانوف بأن يحرق كل ما تبقى".

في تلك الأيام، كان الشيشانيون وبعض الداغستانيون يعيشون أحراراً، ولا يخضعون لأي سلطة علنا القبيلة والقرية. كان هذا الجزء من شمال القوقاز معزولاً بشكل كبير عن العالم الخارجي، دون حلفاء عسكريين أو رعاية سياسيين. إضافة إلى ذلك، لم تكن شعوب الجبال تقيم تحالفات قبلية داخلية، ولا تفهم غالباً لغة بعضها البعض. باتجاه الغرب، كان المجتمع الجبلي مختلفاً جداً، لكنه لم يكن مستعداً لمقاومة الغزو الروسي، وكانت القبائل الشركسية تتمتع بمقدار معقول من الثروة التي تتمثل في الذهب، والعبيد، والحيوانات وخصوصاً خيول الكابارد الرائعة؛ مع مجتمع مصنّف إلى طبقات النبلاء والإقطاعيين والفلاحين الأحرار والعبيد. وعلى الرغم من اللغة والثقافة المشتركين والدين الإسلامي المنتشر بينهم، لم يكن

الشراكس قادرين على توحيد إقطاعياتهم المختلفة. ولطالما رغبت قبيلة كابارد في الوسط في إبرام الصفقات مع الروس، فيما عارضت القبائل قرب البحر الأسود مثل شابسوغ أي تواصل مع الشماليين بأي شكل كان. ورغم أن الشراكس كان لديهم صلات تجارية، ودينية وسياسية مع الإمبراطورية العثمانية، إلا أنهم اكتشفوا مدى ضالة العامل الذي يشكلونه بالنسبة لهذا التحالف.

كان شامل الرجل الذي حاول فعل شيء في هذه القضية. وبخلاف منصور، كان معروفاً جداً. عندما تم إعلان شامل إماماً، أو قائداً دينياً، لداعستان سنة 1834، كانت قواعد الغزوات طويلة الأمد موضوعة من قبل سابقيه الاثنين، الإمامين الأول والثاني. وكان الإمام الأول يدعى غازي محمد، وهو صديق مقرب لشامل وجاره في جيمري. في سنة 1829، جمع غازي محمد مريدي الطريقة النقشبندية الكثر، وشكل القاعدة لجيش في سبيل خوض الحرب المقدسة. وأطلق سلسلة من الضربات السريعة ضد الروس مكنت رجاله من تعلم فنون القتال بسرعة. بسبب إتقانهم استخدام السيف، والبندقية، وفنون الغارات، ومعرفتهم البلاد عن ظهر قلب؛ لم يتطلب الأمر سوى استقطاب وتطوّر التعاليم النقشبندية لتحويل هؤلاء الأشخاص البسطاء إلى جنود. أصبحت تحركاتهم التي تتسم بالشجاعة والتعصب والبطولة معروفة باسم المريدية.

ضرب المريدون بعيداً عن المنحدرات السوداء لداعستان، وهاجموا القوات الروسية من غرب أنغوشيا إلى شمال كيزلاير وشرق حصن ديرنت الواقع على بحر قزوين. يقول ألكسندر دوما في ما قد يكون مبالغة بأنه شاهد خلال رحلته الأخيرة إلى شمال القوقاز قطع 600 رأس خلال تدمير كيزلاير. بحلول سنة 1831، كان لدى الروس قوة مكونة من 20.000 جندي يطاردون غازي محمد، وبعد سنة من ذلك، حوَصر رجاله في وادي صغير قرب جيمري. ولم ينجُ من بين الخمسين رجلاً ومن ضمنهم الإمام، والذين تحصّنوا في منزل حجري صغير في منحدر شاهق حاصرتهم القوات الروسية، سوى اثنين. وكان أحدهما شامل.

ما يزال هروب شامل عبر الجنود الروس الذي حاصروه عملاً شهيراً لغاية الآن. ويقال إنه خرج من باب المنزل، وقفز فوق رؤوس الخط الأول، ثم شق

طريقه عبر الخطوط الأخرى من الجنود، واختفى في الظلام، وقد غطت الدماء جسده من حراب البنادق وضربات السيوف. ويستطيع المرء مشاهدة الموقع اليوم، وهو وادٍ ضيق لا حياة فيه يصل إلى جيمري. تشير إحدى العلامات إلى المكان الذي نزل فيه شامل بعد قفزه من فوق رؤوس الجنود، ومن السخيف أنه بعيد جداً، ويستطيع المرء أن يتخيل بأن السكان المحليين الفخوريين بما حصل يدفعون تلك النقطة بعيداً كل سنة. ولكن بغض النظر عن المسافة التي قفزها الشاب شامل، شكّل هروبه معجزة. تطلب الأمر سنتين إضافيتين، وهي الفترة الفاصلة التي قاد فيها الإمام الثاني حمزة بك الثورة، قبل أن يتولى شامل زمام الأمور ويصبح الإمام الثالث. لكن تلك القفزة نحو الحرية كانت اللحظة التي أطلقت الأسطورة: قديس بالنسبة لشعبه، وشيطان بالنسبة للروس، وهكذا انطلقت مقولة القرن التاسع عشر باللغة الإنكليزية لوصف أمر عجيب غريب: "شامل، أسد داغستان".

جيمري، داغستان

لا يوجد شيء موغل في القدم في جيمري، فقد جرى تدمير المدينة خلال الحرب ضد شامل من قبل الشيوعيين. لكن أي مكان يلبق من أرض صخرية يبدو قديماً بشكل مباشر، والشوارع مرصوفة بالحجارة وهي شديدة الانحدار وضيقة جداً، والمنازل صغيرة ومتزاحمة، مع أسطح منبسطة، والتي يتم استخدامها كمصاطب. في بعض الأماكن، يمكنك الانحناء خارج النوافذ ومصافحة من قد يعبر الشارع. ونجد الكثير من التفاصيل داخل المنازل - أكثر مما قد يعتد المرء من النظر من الخارج - مع بلحات صغيرة مفتوحة على الأكبية، والغرف لدخل الغرف، والشرفات والأسقف. تغطي دوالي العنب سطح المنازل، كما توجد شرفات مغلقة في بعض المنازل تطل على الشوارع، وهي عالية بما فيه الكفاية ليتمكن الفارس من المرور تحتها على صهوة جواده دون أن يضطر للانحناء.

سجلت في حاسوبى المحمول أربع كلمات لتذكيري بالمشاهد التي لم يتسن لي للوقت لأكتب عنها شيئاً: "نابيج، نداء، دون خمر". وتلخص هذه الكلمات بطريقة ما عالم جيمري.

النابيج: هي المكان الذي تلقي عنده النساء لملء للمياه من الصنابير المجاورة لمنازلهن، وتبادل الأحاديث والأقاويل. تجتمع النساء للمينيات والشابات عند الحوض، وترتدي معهن لبسة سوداء ويضعن وشاحاً أسود، والذي يتباين مع جرار الماء

القمامة، وجريان الماء المتدفق تحت أشعة الشمس الساطعة. وبعض الشابات رتعات الجمال فعلاً، ويلتصقن برؤوسهن بعيداً عندما كنت أمر بجانبهن. وتتوقف المجازع عن الحديث ويرقبني، بوجوه خالية من أي تعبير.

السماء: يقومون بنبح نجعة في الساحة الرئيسية، ويجري نهير من الدماء نزولاً على الشارع المرصوف بالحجارة. ويثير اللون الأحمر القاقع الانتباه في مثل تلك البيئة الموحشة.

دون خمر: حالما يدخل المرء إلى وادي جيمري الذي تحذه للصخور، تظهر لافتة واضحة على الطريق: "عزيزي للمسافر! أنت تدخل أراضي قرية جيمري، أرض الأئمة. وللحفاظ على صفاء ميراث الأئمة، نطلب منك عدم إدخال مشروبات كحولية إلى هذه الأرض المباركة".

لقد انتشر منزل شامل الأصلي منذ لمد بعيد. وتمّ بناء منزل آخر في الموقع ذاته، وهو مطلق تماماً بالجدران التي تحيط بالباحة الرئيسية والبوابة الخشبية الكبيرة التي تطل على الشارع. والمنزل مزدهم من الداخل، إلا أن هناك الكثير من المساحات والأماكن المكشوفة، مثل السطح الذي جلست عليه تحت الشمس والذي تحذه للصخور من كل جانب. قدم لي حسين خريماكوميديف، الذي يتحدر من عائلة شامل، الشاي وتحفنا عن علاقات القوقازيين مع روسيا. وقال لي: "لا يستطيعون شراء صدقاتنا. لا أحد يستطيع شراء الروح. وكل ما يستطيعون فعله هو شراء قادتنا؛ وهذا ما فعلوه".

لا توجد سوى بعض الميبرات في جيمري، لكن الشوارع فيها ضيقة جداً بأي حال. وتمشي الحميم والأبقار في الشوارع، ولتي تقودها نساء ممسكات بركنين الأسود من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، أو أطفال نوحو شعر دكن. يوجد في نهاية الطريق المسجد. ويستطيع من ينظر من المئذنة نحو الأسفل أن يرى ساحات منازل القرية. وينكشف أماننا عالم بأكمله يتمّ استخدام كل مساحة فيه؛ هذه الزاوية للبقرة، وتلك للدجاج، وأخرى للخضار، وأماكن لنشر الغسيل. ويمكن رؤية الأطفال والنساء مشغولين على أسطح المنازل وفي البياحات؛ فيما الرجال - كما هو شائع في شمال القوقاز - ليسوا موجودين لنتمكن من رؤيتهم.

يقع قبر غازي محمد، الإمام الأول، على مشارف القرية. ويوجد داخل مبنى بسيط على شكل كوخ يشبه الضريح، وهو مقصد لمريدي الطريقة الصوفية. كما هو حال مكان موته في وادي الضيق، هناك مئات المناديل الملونة المعلقة فوق الضريح، وترتفرف تلك ألوانات الحمراء والبيضاء والخضراء فوق لعشب الذهبي الذي ينمو بسلاسل بين حجارة القبر.

رغم أن للقرية تاريخاً دليماً، لكن لم تنشب أي حرب هنا منذ 70 سنة مضت، والآن للمسجد مفتوح دائماً بعد أن رحل الشيوعيون. لقد اختفت الكثير من المخاوف القديمة. لقد

لمعنت للنظر في المنحدرات الصخرية السوداء ونحو النهر المتعرج الذي يعبر الوادي، ولخبرت حسين عن مدى دهشتي لمدى تطابق الحقيقة مع لوحات القرن للتاسع عشر الرومانسية التي رسمها بعض الضباط الروس. ولم يكن ذلك المديح في موقعه الصحيح لأن حسين أخبرني: "لا تلت على ذكر الضباط الروس أبداً. لقد دمروا جميعي ثلاث مرات أيام شامل كما تعرف. ولا أستطيع إحصاء عدد العمرات التي دمروا فيها محاصيلنا بحيث لم يعد لدينا ما نأكله". ويبدو من المستحيل نميلان الماضي في مثل هذه الحالة.

وما يزال أهل شمال القوقاز يتذكرون حكم شامل بالكثير من الفخر. وبخلاف القادة السابقين، لم يتحد الروس وحسب، وإنما لم شمل المقاومة لمدة ثلاثة عقود، ونفذ عمليات عسكرية ضد الجيش الذي هزم نابليون. وإلى جانب كونه عبقرياً عسكرياً، كان قالداً دينياً استخدم الإسلام وقسوته الشخصية للوصول إلى قلب فروع القبائل المختلفة وتوحيدها في إطار الجبلين المسلمين. دمر الجيش الروسي القاسمي في النهاية فرسان، ومدفعية، وسيف الاتحاد الذي شكله شامل، ولكن ثقافة المقاومة عاشت لغاية يومنا هذا، هي ما شكلت أسطورة شامل الكبرى.

لقد فرض شامل نمط حياة قس وقوانين الشريعة الإسلامية الصارمة على أتباعه، وشن حرباً ضد الغازي الجبار دون النظر إلى النتائج. لكنه كسب احترام كل سكان الجبال، وأرعب غير المتزمين بأسلوبه وأمن الحماية لأي قرية كان الروس يهددونها. لقد كان الإمام قاسياً لا يرحم، وعرض رؤوساً مقطوعة للخونة على الملأ للعبرة، وقطع في إحدى المرات جسد سفاح إلى أجزاء صغيرة وأحرق أفراد عائلته أحياء. حاول الروس استغلال حالة عدم الرضا، ودبروا سنة 1851 انشقاق أحد كبار قادة شامل ويدعى حاج مراد، وهو الشخص الذي خلّده تولستوي في روايته. لكن حكم شامل الدموي كان معتدلاً مقارنة بالفوضى التي تسببها الروس، الذين دمروا العائلات والقرى ليس انتقاماً، ولكن كسياسة متبعة. كما يحدث غالباً في حروب العصابات، فضل المدنيون قسوة أحد أبناء ملتهم على الغزاة الأجانب.

كان شامل أيضاً إدارياً مبتكراً ومفعماً بالحياة والنشاط. كان يفرض الضرائب، والغرامات، ويجد حلولاً لمشاكل الصراعات الدموية الداخلية، كما أنه عسكر المجتمع بالكامل. من بين المادة الخام لآلاف المقاتلين المدربين جيداً وغير

المنظمين في صفوف جيشه، كان شامل يتقي نحية من الجنود الوريين الذين أسماهم السواب، واختار بعد ذلك قوة نظامية أكبر من المرتزقة الذين أتوا بمعدل رجل واحد من كل عشرة منازل لينضموا إلى الجيش. وكانت المنازل التسعة الأخرى تعني متطلبات المرتزق.

في المعركة، استطاع شامل التغلب على جنرال روسي بعد الآخر، ولم يكن لقواته نظير عند القتال رجل لرجل. كتب أحد أفضل الجنرالات الروس في القرن التاسع عشر فليامينوف الآتي:

رجال الجبال الأصليون متفوقون في أشياء كثيرة على فرساننا العاديين وقوات الجبلين للموالية لنا. يبدو أنهم ولدوا على صهوة الجياد، واعتادوا على ركوبها منذ نعومة أظفارهم، وأصبحت لديهم خبرة كبيرة في هذا المجال... إن النجاح في إتقان الفنون العسكرية ضرورية لا بد منها لأبناء البلد. ولا يستحق أحدهم بدون تلك المهارات بين مواطنيه أي صدقة، أو ثقة أو احترام. ويصبح عرضة للسخرية، وموضعاً للزدرء حتى بالنسبة للنساء."

كانت قوات شامل تتكون أساساً من الفرسان، أو المشاة الذين يذهبون إلى أرض المعركة ويعودون على صهوة الجياد، فلم يكن لديهم سوى القليل من الأسلحة الثقيلة. كان يتم الاستيلاء على المدفعية، وهي نواة الآلة العسكرية الروسية، كما هي الحال في الحرب الشيشانية الحديثة، من العدو لاستعمالها في صنع أدوات يدوية بدالية - تكرر الشيء نفسه في الحرب الأخيرة. وطالما بقي أهل شمال القوقاز في أراضيهم، وبخاصة في الجبال العالية لداغستان وغابات الشيشان، وتمتعوا بالأفضلية نتيجة لذلك. يقول شامل الساخر: "أنا مجرد رجل جبال عادي. ولكن غابائي وجبالتي تجعلني أكثر قوة من عدة سلاطين. يجب أن أشكر وديائي لأنها ساعدتني كثيراً في القتال من أجل تحرير داغستان".

شكلت الاشتباكات والغارات المفاجئة صلب تكتيكات الجبلين، وحتى أفضل الجنود الروس، الذين تم إرغامهم على الخدمة في أراضي العدو، كانوا في خطر عظيم. باستخدامهم للسيف المعقوف وخنجر الكنزال، تسبب أهل شمال القوقاز بخسائر كبيرة للقوات الغازية. يتكوّن المتحف غير الرسمي في جيمري من غرفة بسيطة من المقتنيات في منزل رجل عجوز، والتي تحتوي على سيفين

معقوفين من القرن التاسع عشر. والسيقان مقوسان قليلاً، وطويلان وما زالوا حادّين. رغم أنهما خفيفان بشكل مدهش، إلا أنه يقال إن نصال سيوف شامل كانت قوية جداً بحيث يمكنها رسم دائرة دون أن يصدر عنها أي صوت. ويقول الكسندر دومّا: "قد يرتدي الشيشاني، أو الشركسي ملابس رثة، لكن سيفه، وخنجره وبنديقه تكون دائماً من النوع الممتاز. ما يزال بعض الجبلين يمتلكون سيوفاً تعود إلى عهد الصليبيين، وما يزال بعضهم يرتدي معاطف سعاة البريد ودروعاً يزينها الصليب الأحمر، غير مدرّكين تماماً ألها تذكارات من غزو القدس أو القسطنطينية. وكل ما يعرفونه هو أن هذه النصال ما تزال حادة كالشفرات".

كان باستطاعة الروس الاستيلاء على أي هدف بتخصيص ما يكفي من الرجال والسلاح له. ولكن كما اكتشف الخلف في حرب الشيشان الحديثة، فإن السيطرة على الهدف لا تعني السيطرة على الشعب أو المنطقة المحيطة. والأسوأ من ذلك أنه كلما زاد توغل الجيش في الأرض، كلما أصبح مكشوفاً أكثر أمام كل أنواع الهجمات التي كان ينفذها شامل. وتعتبر أكثر تلك الحملات العسكرية دموية هي تلك التي قادها الكونت فورونتسوف سنة 1845 للاستيلاء على مركز قيادة شامل في دارغو. وترأس فورونتسوف، القائد الجديد والمحترم للشيشان، جيشاً من 21.000 جندي، وتقدّم دون مقاومة تذكر نحو سفوح الجبال. وفي 18 تموز، 1845، قاد جيشاً من 11.500 جندي نحو دارغو، وهي قرية بائسة كان المخططون الاستراتيجيون في سانت بطرسبرغ يتوهمون ألها قاعدة عسكرية رئيسية.

تقدّمت الحملة العسكرية جيداً، وحصل فورونتسوف على رضا القيصر نيكولاس الأول. لكن شامل لم يكن قد هُزم بعد، وإمّا قام بانسحاب تكتيكي، وهو تراجع تقوم به الأنقى قبل الهجوم. عندما وصل الروس إلى نقطة اللاعودة، اتضحت صعوبة موقفهم مع كل عملية ثانوية مثل مطاردة فلول الشيشانيين في الغابات المحيطة، والتي كبدتهم المزيد من الضحايا. لم تكن رؤية العدو الذي يقوم بعمليات القنص وينصب الكمائن في الغابات ممكنة. لقد كانت مصيدة شامل عمكمة الإغلاق.

بدأ حمام الدم عندما بدأت إمدادات محطلي دارغو بالفنادر. تم إرسال جزء من تلك القوة لطلب التعزيزات، ولكنها وقعت في كمين رهيب في الغابة نجم عنه مقتل 556 وجرح 858 شخص، وأصبحت باقي القوة في دارغو دون طعام أو ذخيرة. في 25 تموز، بدأ فورونتسوف انسحاباً كاملاً من السهول. لكن الكابوس كان أبعد ما يكون عن الانتهاء. أثناء تراجع الجيش المتعب والمزق، والمثقل بأعداد كبيرة من الجرحى، تابع شامل شن الغارات عليه، واحدة بعد الأخرى. مات الكثير من الرجال يومياً، وترك الجنود أمتعتهم من الرعب، وضاعت المدافع، وفي مواجهة السيوف وجد الجنرالات أنفسهم يقاتلون إلى جانب رجالهم. بحلول نهاية الشهر، وعندما وصلت القوة أخيراً إلى مكان الالتقاء بالتعزيزات في قرية آمنة، كان عدد القتلى من حملة دارغو يصل إلى 984 جندياً، من بينهم ثلاثة جنرالات، و 2753 جريحاً و179 مفقوداً. ولم يتحقق أي شيء.

لخص القنصل البريطاني في أوديسا، جيمس يميز، في تقريره عن تلك الكارثة الفرق الكبير في المعنويات بين الجانبيين، ووصف القتال بين الجيش الإمبراطوري وثوار شامل - الذين يقاتلون دون مساعدة من العالم الخارجي - المستمر منذ عشر سنوات بقوله: "منيت القوات (الروسية)، المقعدة بالحياة والنشاط في البداية نتيجة وجود قائد جديد ذي شخصية مرموقة، بانتكاسة كبيرة أدت إلى حالة من الإحباط الأخلاقي الكبير، ويُخشى أن يكون شامل، والقبائل القوقازية الحرة، قد وصلوا إلى درجة خطيرة لا تنفع معها كل خطط التهدة المستقبلية".

يا شباب شركسية، انفضوا إلى المعركة،

لأن الشهاب للشجاع يحب للحرب دائماً.

ولذا مَن متصبِحون شهداء، ولذا نجوتُم ستحصلون على نصف للمجد!

أغلبية حربية شركسية من القرن التاسع عشر.

في الغرب، قرب البحر الأسود، لم ينضم الشراكس أو أهل أديجي إلى دولة شامل المتشددة. ورغم أن البشرين العثمانيين نجحوا في تحويل بقايا المسيحية والوثنية إلى الإسلام، إلا أن أهل أديجي لم يكونوا مهتمين بالتحوّل إلى مريدين أو أتباع الصوفية النقشبندية. ورغم هذه الفروق الدينية، إلا أنهم خاضوا حرباً شرسة ضد نفس العدو، وباستخدام نفس التكتيكات.

سجل جيمس بيل واحدة من أفضل وثائق شهود العيان في القتال الشركي، وهو أحد البريطانيين القلائل الذين لعبوا دوراً غير رسمي من خلف الستار في تشجيع الثوار. تشير كل الدلائل أنه ساهم في تزويد الثوار بمساعدات ضخمة من لندن. وفي كتابه *إقامة في شركسيا - 1837، 1838، 1839*، يصف بيل الجوالة الاحتفالي الذي تمخّص فيه مجموعة كبيرة من المقاتلين، والتي يبلغ تعدادها حوالي 1500 شخص، نفسها لتنفيذ غارة داخل الأراضي التي تحتلها روسيا. كما هي العادة، ولمنع تسرب الخبر عبر الجواسيس، لم يتم تحديد هدف الغارة سوى في اللحظة الأخيرة مع التأكيد على الانضباط الصارم. وكتب بيل: "كان المشهد العام غير مألوف، ومثير، ورائع. تجمع من الجبلين المحتشدين، رجالاً وفتياناً، رُكباناً وعلى الأقدام، وقد اختلط الحابل بالنابل، مع رايات زعمائهم المحترمين ترفرف فوقهم؛ غزو تطوعي لإمبراطورية عظمى للثأر من تخريب منازل مواطنيهم".

الفرق الرئيسي في العمليات الحربية عند هذا الطرف من القوقاز أنها جرت على طول ساحل البحر الأسود، وتضمنت قصفاً بالقنابل من سفن البحرية الروسية. كما واجه رجال شامل المدفعية من الغابات، كان الشراكس في أدنى نقاط ضعفهم عندما واجهوا النيران من الأسلحة الكبيرة. لم يكونوا قادرين على فعل شيء سوى في القتال القريب؛ ثم هلكوا جميعاً. وكتب بيل: "لم يستحب سوى محمد للدخول في تحدّي على الأرض، وقاتل".

"أطلقت السفن نيران مدفعتها لبعض الوقت، ونزلت كتبتان مؤلفتان من حوالي 3000 رجل مع قطعتي مدفعية إلى الشاطئ على زاوية الخليج تحت غطاء من النيران الكثيفة. منع الهجوم المباغت أي قوة شركسية معقولة من التجمّع، وانتشر مباشرة حوالي 10.000 مقلّد في الجوار، والذين بقوا في مجموعة خلف ما يمكن للوادي أن يقدمه من تغطية حتى تمكّنت المدفعية الروسية من التقدم عبر البساتين. نتج عن ذلك صراع دموي، وقاتل، كما هو مذكور سلفاً، لصد الروس الذين لم يكونوا قادرين على التقدم أكثر من نصف الطريق نحو القرية الصخرية، والتي كانوا ينوون تدميرها دون أدنى شك".

كان الشراكس وشامل على اتصال مستمر، وكانوا يشجعون بعضهم البعض بأخبار آخر النجاحات، ولكن القبائل لم تتحد مطلقاً. لقد فشلت محاولة شامل

الجريئة والواسعة النطاق لنقل المعركة إلى منطقة كاباردا المركزية الحاسمة، ومعظم أراضي ما يطلق عليه اليوم أوسيتا، سنة 1846 نتيجة للحظ السيئ، والناورات الروسية الذكية والتردد القاتل لقبائل كابارد. لقد أدرك شامل متأخراً أن حملة كاباردا، التي تشير إلى حدود قدراته الهجومية البعيدة المدى، تشكل قمة الذروة بالنسبة له. استمرت المقاومة بشكل مثير للدهشة من جبل إلى آخر بالنسبة للحيل التالي، ولكنها تحولت إلى حرب دفاعية آنذاك ضد مهاجم مزود بموارد غير محدودة تقريباً، وأصبحت بالتالي حرباً لعينة.

ترافق فشل الهجوم الذي قام به شامل أيضاً مع بداية قيادة نائب الملك فورونتسوف للمنطقة. وبالرغم من أن شهرته أتت من كارثة دارغو، إلا أن فورونتسوف في الواقع هو من أمر بوضع خطة مبكرة لخلق المقاومة ببطء وصبر. لقد كتب مؤلف الخطة فليامينوف سنة 1828 الآتي:

يمكن تشبيه القوقاز بالقلعة القوية، للمحصنة بقوة الطبيعة، والمحمية بالحولجز العسكرية الاصطناعية، والتي تدود عنها العديد من الحملات. ولن يحلوا سوى رجل مخبول اخترق هذا المعقل. سيؤدي القائد للحكيم ضرورة الاستعانة بالفنون العسكرية؛ وسيكون عليه تحديد للخطوط الدفاعية التي تتقهما الخنادق وحقول الأغنام ليحكم السيطرة على المكان".

تم نشر 500.000 جندي روسي في المنطقة تدريجياً، وضاق هامش المناورة على المقاتلين، وانقطعت عنهم سبل الإمدادات. تم تجميع المدنيين المتعبين في السهول، حيث يمكن السيطرة عليهم بسهولة أكبر. لقد تم دفع الرشى وتقليد المناصب للقادة المحليين الراغبين في التعاون مع الروس. لم يكن دفع رجال المليشيا للقتال خلافاً لشروطهم الخاصة في الشيشان بالأمر السهل لأن البلاد مليئة بالغابات الكثيفة مما يجعلها كلها تقريباً أمكنة مناسبة لشن الهجمات المباغتة. كان رد فعل الروس يتجلى في قتال الأشجار وليس العدو. تم قطع أو حرق مساحات واسعة من الغابات، والتي لا يمكن تعويضها أبداً، لإخراج رجال شامل من مخابثهم. عندما كانت الشجرة أكبر من أن يعمل فيها الفأس، كان يتم تفجيرها.

كانت فرصة الجبلين الحقيقية الوحيدة تتمثل في التدخل الخارجي. كانوا يستطيعون القتال لسنوات، لكنهم لم يكونوا يستطيعون إجبار الروس على التراجع سوى بمساعدة من الأتراك أو البريطانيين. كان هناك سبب للأمل. بشكل عام، استطاعت شعوب أخرى كان أعداؤها يفوقها عدداً مثل الإغريق الحصول على دعم دولي لصراعها من أجل الاستقلال في القرن التاسع عشر. كان شامل يعتقد على وجه الخصوص بأن المساعدة ستأتي من بريطانيا، ومن ثم من باقي القوى العظمى المنافسة لروسيا.

كان هناك جماعات دعم شهيرة في إنكلترا، وكانت الصحف تمتلئ بإنجازات الجبلين. كتبت صحيفة *التايمز* سنة 1846: "يعتقد أن شامل، إمام داغستان، ما يزال صامداً في الجبال إلى الشمال من خونزرك. لقد اقتربت منه قوة من 4000 جندي روسي وقوقازي موال لها بقيادة الجنرال غوركو، لكن تعزيزات الثوار التي يقودها تينغوز الذئب وأسد شيسوك انطلقت من الجبال لتعزق الخطوط الروسية". كان لدى شامل ممولون آخرون، وكانت روسيا وبريطانيا تلعبان عندها ما يسمى اللعبة الكبرى، وهو صراع تجسسي لإحكام النفوذ على آسيا الوسطى، والسيطرة أخيراً على الهند، جوهرة التاج البريطاني. خاف بعض البريطانيين من أن تقوم روسيا باستخدام القوقاز كعمبر إلى آسيا، وأن تحاول غزو الهند، ولهذا السبب طالبوا بمساعدة شامل ليصد تقدم الروس. لكن أولئك المحاربين لم يكسبوا الجدل أبداً. ورغم أن شامل طلب المساعدة بشكل مهذب في رسالة إلى الملكة فكتوريا، إلا أن الجواب الذي لطمالما رغب به لم يصل أبداً.

كتب شامل: "لست عديداً لئيتها الملكة المبجلة، خضنا حرباً ضد روسيا، التي غزقتنا. يجب علينا الدفاع عن أنفسنا كل سنة ضد الجيوش الغازية الجديدة التي تستفك على واديها. إن مقاومتنا عديدة، ويجب علينا إرسال نساءنا ولطفالنا بعيداً كل شتاء إلى مخبأهم في الغابات، حيث لا شيء هناك، لا طعام، لا ملجأ ضد البرد القارس. ومع ذلك نألفنا مع هذا الوضع الجديد. إنها مشيئة الله... ونتمنى إليك، ونحكك لئيتها الملكة على مساعدتنا".

كان لدى الشراكس فرصة حقيقية للحصول على المساعدة، فقد كانت حرمهم في قلب صراع القوى بين روسيا وتركيا للسيطرة على البحر الأسود، وفي

صلب اهتمامات القوى الأوروبية لمنع روسيا من قتال الإمبراطورية العثمانية السيئة الطالع. في لندن، وباريس، وإسطنبول وموسكو، كان واضعو الخطط الاستراتيجية يراقبون عن كثب مقاومة الشراكس على طول نهر كوبان، وسفوح جبال القوقاز وساحل البحر الأسود.

أتت الفرصة العظيمة في حرب القرم عندما أخرجت بريطانيا، وفرنسا وتركيا روسيا من ميناء سيفاستوبول في القرم سنة 1855، ونتيجة لذلك من البحر الأسود. حاول قائد الجيش التركي عمر باشا الاستفادة من الموقف، وقام بإنزال قوات في القوقاز لدفع الروس نحو الشمال. لكن جيشه الضخم وقادة شمال القوقاز فشلوا في التنسيق، ولم يكن الشتاء فضلاً مناسباً لتلك العملية، ولهذا أضاع الأتراك اللحظة التاريخية، وانسحبوا سنة 1856 من المنطقة. لم يكن أحد يستطيع إنقاذ تلك الحملة العسكرية سوى المساعدة البريطانية، لكن نتيجة للكلفة الباهظة التي تكبدتها للفوز في حرب القرم، لم تكن لندن متحمسة للقتال من جديد إلى جانب الأتراك. كانت معاهدة باريس سنة 1856، التي أنهت حرب القرم، للسمار الأخير في نعش شمال القوقاز. رغم اعتبار البحر السود منطقة منزوعة السلاح، وإلغاء عمليات البحرية الروسية فيه، إلا أن روسيا استعادت شبه جزيرة القرم، وتخلت تركيا عن مطالبتها بساحل البحر الأسود وهو ما كان يعني التخلي عن الشراكس. أصبح بإمكان روسيا آنذاك تحويل كامل اهتمامها بعد انتهائها من القرم إلى شمال القوقاز؛ لقد كانت النهاية قريبة.

في سنة 1859، قاد الأمير بارياتنسكي 40.000 جندي للقضاء على شامل. وحوصر أسد داغستان في قرية كوينب الداغستانية الجبلية. لم يكن معه سوى 40 رجلاً، وفي ذلك الوقت، تخلى عنه شعبه الذي تعب من الحرب وإراقة الدماء. بعد حصاره من قبل جيش هائل، لم يكن لديه سوى خيار واحد: إما الاستسلام أو إرسال آخر رجاله إلى حتفهم. أدرك شامل مصيره، وسلم نفسه بكامل الشرف العسكري. تقول الأسطورة أن بعض الشيشانيين في مجموعته استطاعوا الهروب واستمروا في القتال لسنة أخرى. لكن حرب شامل للمحمية التي امتدت ربع قرن انتهت في كوينب، وانتهت معها إمامته وطريقته الصوفية المريدية المخيفة.

كان بارياتنسكي، الذي حلّ مكان فورونتسوف كنائب للملك في القوقاز، شخصاً أرستقراطياً مثيراً للانتباه، وجرئاً لامعاً. في مقارنة مع يرمولوف، قام بارياتنسكي برشوة القرى المسلمة عوضاً عن إحراقها. كذلك أتقن الاستراتيجية العسكرية في تطويق الجبال وتدمير الغابات. كان إلقاء القبض على شامل في كونييب، وهي قرية يسكنها الآفار، وتجنّم على سفح أحد الجبال، عرضاً رائعاً للقوة الكاسحة التي يمكن استخدامها بطريقة هادئة ومنهجية.

لم يبقَ من كونييب الأصلية الآن سوى الخرائب التي يمكن بالكاد تمييزها، وتمّ بناء قرية جديدة إلى الأسفل قليلاً من الجبال. يمكن الوصول إلى المكان المكشوف الآن والذي حصل فيه الاستسلام عبر طريق موحل. لقد تمّ استخدام برج صغير من الحجارة البيضاء للدلالة على المكان، ولكنّ القوميين الآفار نسفوه قبل عدّة سنوات وفقاً لأقوال للسكان المحليين، ولم يبقَ سوى كومة من الحجارة اللامعة. بالقرب من ذلك المكان، ترك أتباع الطريقة الصوفية أشرطة ملونة لتزيين أشجار الكرز التي تنمو حول أنقاض المسجد الذي كان شامل يصلي فيه. إلى الأسفل من التل، توجد ثكنة عسكرية أقام فيها الجنود الروس عندما أطلق الرئيس بوريس يلتسن الحرب ضد الشيشان. ويقع معسكرهم خلف الحصن الحجري القلم، والذي تنتشر فيه المشاعل، والذي بناه أسلافهم قبل قرن ونصف.

استمر استسلام شامل في إشعال خلاف حاد في شمال القوقاز. بعد تسليمه لسييفه المعقوف، تمّ ترحيله إلى روسيا حيث تغيّرت حياته كلياً. بدأ الرحلة بزيارة إلى سانت بطرسبرغ، ثم عاش في الإقامة الجبرية في كالوغا، ليس بعيداً عن موسكو، وعقد صداقة مع القيصر ألكسندر الثاني، ودفن نفسه في الدراسات الدينية. أصبح أحد أبنائه جنراً روسياً، وآخر جنراً تركياً. عاد أحد أحفاد شامل إلى القوقاز وقاتل الروس في داغستان في عشرينيات القرن العشرين.

مات شامل سنة 1871 بعد سماح القيصر له أخيراً بتنفيذ رغبته الكبرى؛ الحج إلى مكة. لقد كانت نهاية غريبة، فقد تحوّل الأسد إلى حمل وديع؛ المحارب المبارك، والرجل المبارك. لم تكن آخر أيام الإمام مفاجئة لأولئك الذين عرفوه. كان هناك

الكثير من الدلائل على نهجه السلمي، أو على الأقل إنسانيته العادية، حتى في أحلك ساعات صراعه مع الإمبراطورية الروسية.

في سنة 1839، وخلال إحدى أعنف المعارك لإحكام السيطرة على أخولكو في داغستان، خطف الجنود الروس ابن شامل البالغ من العمر سبع سنوات فقط والسذي يدعى جمال الدين. تم إرسال الصبي إلى سانت بطرسبرغ، وتولّى رعايته القيصر نيكولاس الأول شخصياً، وأصبح شخصاً روسياً بالكامل، ونسي جذوره الجبلية. لم ينس شامل كلاً من ابنه وعملية اختطافه. في سنة 1854، أسر رجاله الأميرة الجورجية آيت تشافشادز، وأصبح شامل قادراً أخيراً على استرجاع ابنه. يقال إن شامل الأقسى من الصخر بكى. لكن للمأساة ازدادت عمقاً، لأن جمال الدين لم يستطع التعرف على والده بعد ترعرعه في بلاط القيصر. لم يستطع ذلك المخلوق الذي نشأ في أرض غريبة التأقلم مع حياة الجبال القاسية، وازداد شوقه إلى العالم الوحيد الذي عرفه - عالم العدو - فمات في غضون أشهر قليلة.

قدّمت الأميرة تشافشادز بعد إطلاق سراحها شهادة غريبة فريدة عن شخصية شامل. رفعت تلك المرأة الفاتنة، والتي كانت محظوظة للنحاة من محتها، من شأن ذلك المقاتل الزاهد، وقالت عنه إنه صادق، ومتقشف، وحكيم، ويجب القطط حباً جماً. قال حسين خزيماكوميلوف الذي يتحلّر من نسله: "يقول البعض إنه أخطأ بالاستسلام، وتوجّب عليه القتال حتى آخر رجل".

لكني أعتقد أنه فعل شيئاً حكماً. نعم، كان يمكنه القول "لنمت جميعنا"، لكنه لم يفعل ذلك، وعرضاً عن ذلك قدم نفسه فداءً لكل الآخرين. وكان متأكداً أنهم سيقطعون رأسه لو سئقونه عندما يستسلم. وكان يعرف أنهم إذا استمروا بالقتال سيموتون عن آخرهم، وكان يعرف ما قد يحل بالقرية بعد ذلك. قال الناس إنه كان خائفاً، لكن ذلك القبول مسخيف. لقد ولج ذلك الرجل كل المواقف المخيفة، وجرح عشرات القمترات، وعرضاً عن ذلك، أظهر سمو مقله ليس كمحارب فقط وإنما كسياسي أيضاً. لقد أدرك أن الناس متعبون من الحرب.

كانت نهاية شامل محط اهتمام الشراكس الذين تفرقت مقاومتهم، وأدركوا أنهم لا يستطيعون الاستمرار أكثر من ذلك. بالعودة إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أخبر أحد زعماء الشراكس جيمس بيل بالآتي:

"لا يستطيع الروس قهر هذا البلد. قد يستطيعون، بسبب قوة سفنهم ومدافعهم، وضع أنفسهم على بعض النقاط الأخرى من ساحلنا، ومن المؤكد أنهم يستطيعون السيطرة عليه كله، لكن ذلك لن يشكل فرقاً في تصميمنا على المقاومة حتى النهاية، لأنهم إذا احتلوا هذه القلاع سنترجع إلى تلك الجبال التي تكسوها الثلوج ونقتلهم".

للتاريخ، حافظ الشراكس على كلمتهم، واستمروا بالقتال خمس سنوات أخرى بعد هزيمة شامل حتى تم القضاء عليهم أيضاً في معركة أيفغا التي استمرت أربعة أيام في التلال في أيار من سنة 1864.

بخلاف أرض داغستان القاسية، سكن الشراكس أرضاً زراعية خصبة. وكان لديهم أيضاً ساحل البحر الأسود الهادئ والاستراتيجي. كان السكان العقبة الوحيدة التي تقف بين روسيا وتلك الأرض الغنية. لهذا عندما تمكنت المقاومة العسكرية أخيراً، حوّلت القوات الروسية انتباهها نحو التطهير العرقي المنظم. قامت القوات المحبطة من معارضة هؤلاء الناس البسطاء التي استمرت 35 سنة بتنظيم عمليات حرق وسلب واسعة النطاق. وأصبحت الجبال - تلك الحصون الشامخة - خاوية على عروشها.

كتب بارياننسكي سنة 1860: "حطموا مقاومة الجليبين. أخرجوهم من الجبال إلى السهول وضعوا أهل جنوب القوقاز والروس في الأماكن التي تسيطرون عليها". اندفع حوالي 400.000 إلى 500.000 شركسي إلى الساحل، حيث ركبوا السفن المتوفرة، بما فيها تلك التي وفرها الروس، ورحلوا إلى تركيا، هاجرين ما كان وطنهم منذ فجر الزمان. مات الآلاف نتيجة الأوبئة والجوع في ذلك الهروب المرعب المحزني. هناك قصص عن الزعماء الشراكس المهزومين الذين امتطوا صهوة جيادهم الثقيلة بالأسلحة وتوجهوا إلى البحر عوضاً عن مواجهة ذلك العار.

تم فصل قبائل أديجي التي بقيت عن بعضها البعض، ووضعها في مناطق خاصة لتسهيل السيطرة عليها. تحرك أهل جنوب القوقاز أخيراً إلى جانب المستوطنين السوفييت الآخرين نحو تلك الأرض التي تم إعلانها جزءاً مكتملاً من روسيا. اليوم، تنتشر القبائل الشركسية في ثلاث جمهوريات منفصلة تتمتع بالحكم الذاتي، وهي أديجي، وكاراشي - شركسيا، وكاباردينو - بالاكاريا. وعلى ساحل البحر

الأسود الذي كان مسرحاً لنزاعات ساخنة فيما مضى، لا وجود لقبائل أديجي إطلاقاً، وإنما بعض قبائل شابسوغ، وهناك مستوطنة سوتشي الساحلية والتي تعتبر مقصداً صيفياً لأغنياء روسيا. حتى في جمهورية أديجي نفسها، لا يشكل عرق أديجي المتحدّر من ميوتان مملكة البوسفور سوى أقلية، والبقية من القومية السلافية. على الساحل إلى الجنوب من الجبال، ضمن جورجيا، حولت عمليات الترحيل قبيلة أنجاز إلى أقلية أيضاً. قال لي طيب في ميكوب، عاصمة أديجي: "يوجد في أميركا هنود ومحميات؛ وهذا ما فعلوه بنا هنا".

وبالإضافة إلى الشراكس، تمّ إجبار العديد من الشيشانيين، والأنغوش، والداغستانين والأوسيت المسلمين على الرحيل عن منازلهم. ولا يمكن معرفة عدد أهل شمال القوقاز الذين تمّ تهجيرهم على وجه الدقة بسبب عدم وجود سجلات لهم. من كان لديه الاهتمام الكافي لإحصائهم؟ تشير التقديرات الكلية إلى 1.2 مليون شخص، ويمثلون أكثر من ربع سكان المنطقة في ذلك الوقت. واليوم، يبلغ تعداد سلف الشراكس والقوقازيين المنفيين ما بين واحد و3.5 مليون طبقاً لتقديرات مختلفة، ويعيشون في تركيا، والأردن، وسورية وفلسطين المحتلة (إسرائيل) وحتى في الولايات المتحدة. شعب بأكمله تشرّد في مهبّ الريح.

وبالرغم من عدم قدرة أحد خلال أيام الهزيمة على معرفة ذلك، إلا أن مأساة السطهور العرقي لقومية أديجي تكررت على نطاق أوسع بعد 80 سنة فقط؛ ليس بفعل القياصرة هذه المرة، وإنما بفعل رجل سمّي نفسه جوزيف ستالين.

نوفوسفوبونليا، أديجي

يقول حمزة كازاتوف، أستاذ التاريخ الأشيب من أديجي، والذي اصطحبني إلى قرية نوفوسفوبونليا القوقازية، والبعيدة في أعماق الجبال: "لذعوا اليوم أن هذه الأرض كانت دائماً روسية، ولرأوا منذ زمن ليس ببعيد الاحتفال بالذكرى 150 بما يدعونه إنشاء سوتشي، لكن شعبنا كان هناك قبلهم بقرون عديدة".

مشبنا معاً إلى مواقع يوجد فيه أنقاض كنيسة. لقد شهد ذلك المكان سنة 1861 لقاء للكمنتر الثاني بزعماء الشراكس، وعرض عليهم حينها فرصة أخيرة للاستسلام. رفض للزعماء العرض، ولبيدوا في غضون ثلاثة أيام. شعر هؤلاء القوم بأنهم سينتصرون عندما بنوا هذه الكنيسة على شرف زيارة القيصر، ولكنها مهجورة اليوم. ما يزال قوس

البوابة الكبيرة موجوداً، لكن ليس هناك جدران، ولا تقود تلك البوابة سوى إلى المزيد من العشب الذي ينمو بين الأحجار. كان هناك صرح مع تمثال نصفي للقيصر، لكن ذلك كله اختفى الآن، وتمّ تدميره وفقاً لما يقوله السكان المحليون بشأن الثورة الشيوعية. يقول كزانوف: "لعمري أن يعرفوا فقط بأنه كان عليهم قتلنا من أجل هذا كله. وأنهم أخذوا منا عنوة، ولأنها المكان الذي عاش فيه أسلافنا".

4. الخيانة

يا شعوب أوروبا! تعلموا لقتال لنيل الحرية والاستقلال من المثال البطولي لسكان جبال القوقاز.

من البيان للشيوعي.

عندما استطاعت الثورة البلشفية الانقلاب على القيصر نيكولاس الثاني سنة 1917، وانفجرت الحرب الأهلية في كل أنحاء روسيا، اعتقد القوقازيون أن فرصتهم لنيل الحرية قد حانت. كان لا يزال الكثير من الناس الذين يتذكرون الإمام شامل على قيد الحياة. استمرت ثورتهم على فترات متباعدة منذ الانتصار الروسي في نهاية القرن التاسع عشر، مثل العصيان الذي اجتاحت معظم المنطقة والذي تمّ التنسيق له بالتعاون مع القوات العثمانية خلال الحرب العثمانية - الروسية سني 1877 - 1878. ضربت دعوة لينين إلى الحرية، وحقوق الإنسان وإنهاء نظام القيصر المكروه على الوتر الحساس لدى الجبلين، الذين قال عنهم: "جرّدتم المستعمرات الروسية بشكل منهجي من أحصص أراضيهم. ورُحّلوا تدريجياً إلى الصحارى المقفرة، حيث واجه أولئك الناس الموت المحقق".

للاستفادة من اغتيال السلطة المركزية، قامت عدّة محاولات لتوحيد شمال القوقاز في دولة واحدة مستقلة. مثلما فعل منصور وشامل فيما مضى، اعتقد القادة القوميون أن أملهم الوحيد يكمن في الوحدة بين القوميات الصغيرة. وإضافة إلى ذلك، كانت روح كورتسي القومية العامة بنفس قوة النعرات العرقية المختلفة، وتشكّل عاملاً هاماً في سبيل تحقيق الاتحاد. في بداية أيار 1917، وقبل انتصار البلاشفة في تشرين الأول، جمعت منظمة جبليون متحدون ممثلين عن داغستان، والشيخان، وأنغوشيا، وشمال أوسيتا، وكاباردينو - بالكاريا، فيما لم توجه

الدعوة إلى قبائل أديجي الشركسية فقط. اتخذت تلك المنظمة مع جماعات في جنوب القوقاز في تشرين الأول، لكن عقد التحالف انفرط بسبب الثورة. في كانون الأول، تم إعلان تشكيل حكومة تيرك - الداغستانية، لكنها انهارت خلال ستة أسابيع. شكّلت الثورة البلشفية جمهورية تيرك الموالية لها في آذار 1918 على نفس الأراضي التي تشكلت عليها السلطة المنهارة.

جاءت أكثر المحاولات التي قام بها القوميون جذيةً للاتحاد ضد حكم الروس وفوضى الحرب الأهلية الحمراء - البيضاء في نيسان 1918، مع إنشاء جمهورية جبال شمال القوقاز. وأعلنت الحكومة الجديدة، التي خلفت منظمة جيليون متحدون، السيطرة على معظم الأجزاء الشرقية من شمال القوقاز، وفي 11 نيسان، أعلنت الاستقلال، ووقعت اتفاقية صداقة مع تركيا، وتلقّت وعداً بالمساعدة من البريطانيين والقوى الأوروبية الأخرى التي كانت تدعم الجيوش القيصرية في صراعها ضد البلاشفة.

لم يكن شمال القوقاز أقرب للفوز بالحرية مما كان في تلك الفترة في عقول قادة جمهورية الجبال. كتب وزير الخارجية حيدر باميت رسالة من المنفى يصف فيها إعلان الاستقلال بأنه: "كان نتيجة منطقية للعملية التاريخية التي بدأت بقتال استمر قرناً كاملاً لتحقيق الاستقلال، وقام به أهل شمال القوقاز ضد الإمبراطورية الروسية. كانت فترة عبودية قاسية تخللتها الثورات، والعصيان المسلح وترحيل قرى بأكملها إلى سيبيريا". كان هناك خطة لإنشاء فيدرالية تشمل كامل القوقاز، وذلك بتوحيد الشمال مع الدول الجنوبية الثلاث: أرمينيا، وأذربيجان، وجورجيا والتي أعلنت الاستقلال بعد ظهور جمهورية الجبال مباشرة.

لكن ثبت أن نظرة جمهورية الجبال واهمة، فقد نتج عن إعلان الاستقلال اندلاع القتال بين الجبلين والسكان المحليين من القوميات الأخرى، مما أنهى فترة تعاون قصيرة بين الأعداء التاريخيين. من الداخل، كانت حكومة الجمهورية منقسمة حول دعم الجنرال الأبيض، أنطون دينكن، في صراعه الطويل ضد البلاشفة. كان هناك إشارات على أن دينكن سيعترف بجمهورية الجبال مقابل مساعدته ضد الجيش الأحمر، وقد أحكم السيطرة على المنطقة بمساعدة سكان

القوميات الأخرى. شَنّ الأنغوش عمليات حرية استمرت أسبوعاً كاملاً، لكنهم تراجعوا عندما فشلت جمهورية الجبال في تقديم المساعدة لهم. كان هذا التراخي سبباً في فتح الشيشان وداغستان أمام دينكن، وبحلول نيسان 1919، توقفت الجمهورية عن أداء أعمالها، وتفرّق قادتها.

ظهر من بين الرماد اتحاد أشد تطرفاً، كان شغله الشاغل العمل على إخراج الروس من البلاد مهما كلف الأمر، وإعلان إمارة شمال القوقاز. لقد أنشأ ذلك التحالف سنة 1919 أوزون حاجي، وهو شيخ شيشاني من أتباع الطريقة النقشبندية ويبلغ من العمر تسعين عاماً. كان ذلك التحالف يغطي نظرياً نفس الأراضي التي شغلتها جمهورية الجبال الأولى، والذي قرر إنشاء دولة إسلامية متشددة ترتبط بتركيا، وتطبق الشريعة الإسلامية حصراً. كان البلاشفة قد وعدوا الجبلين عندها، انطلاقاً من مصالحهم الانتهازية، بأن يحترموا حكمهم الذاتي وحريةهم الدينية مقابل مساعدتهم في هزيمة دينكن. بحلول شباط 1920، أخرج تحالف الجيش الأحمر مع حركات شمال القوقاز الاستقلالية الجيش الأبيض من المنطقة. تمّ استقبال السوفييات كمحررين. لكن سرعان ما خابت آمال أهل شمال القوقاز مجدداً، لأن الشيوعيين سرعان ما احتلوا القوقاز بأكمله، شمالاً وجنوباً، وفرضوا الحظر على الإمارة وبقياء جمهورية الجبال، وقاموا بإعدام الكثير من الأشخاص الذين ساعدوا الجيش الأحمر على طرد دينكن أو وضعهم في السجن.

ماتت أحلام الاستقلال، ولكن جذوة المقاومة استمرت بالعيش في ظل حكم الروس المناهضين للإسلام في جبال داغستان والشيشان. أعلن القوقازيون الغزوة، أو الحرب المقدسة، وكان التمرد في سنتي 1920 - 21 انتحارياً مثل كل ثورات شمال القوقاز الأخرى. لم يستطع الثوار حشد سوى 10.000 رجل مسلحين ببنادق قديمة، وسيف و40 رشاشاً، وواجهت قوة القرويين هذه جيشاً سوفياتياً متمرساً بالقتال مولفاً من حوالي 40.000 رجل، ومزوداً بأسلحة ثقيلة وحتى بطائرات حرية. لكنّ الشعبين الداغستاني والشيشاني دعما المقاتلين الذين اتصفوا بالشجاعة والتقيّد بتعاليم الصوفية الروحية. في النهاية، ربح السوفييات بالطريقة التي رحبت بها الإمبراطورية الروسية في القرن التاسع عشر بنخث الثورة وادياً بعد

وادي، وترحيل أو ذبح المناصرين المدنيين دون رحمة، ولكن المقاومة كانت ملحمة. اتخذت المعركة الأخيرة في كيدتال جنوب داغستان أسلوباً قوقازياً صرفاً. وواجه ما لا يزيد عن 300 نائر مسلحين بأربعة رشاشات فقط ستة أفواج مشاة وأربع فصائل فرسان. قاتل الثوار حتى النهاية، ولم ينجُ منهم أحد.

حياة مديدة ليها العزيز ستالين!

هذا ألمانا ولبتهالنا لأجلك.

لقد استعاد القوقازيون شيايبهم،

وسيلتوون إليك، وشعبهم يفضي:

اسم ستالين يلمع مثل النجمة!

أنت، وآبلونا ولخوتنا،

منحتمونا المعادة، وفتحتم

بولابت ولسعة إلى فرح للمستقبل.

حياة مديدة ليها العزيز ستالين!

هذا ألمانا ولبتهالنا لأجلك.

من أغنية شيشانية عن ستالين في للفلكلور لشيشاني - الأنغوشي سنة 1940.

أحضرت الشيوعية معها الكهرباء، والتعليم، والمستشفيات، وشقّت الطرقات، واستفادت من ذلك حتى قرى الجبال العالية التي كان سكّانها يعيشون في العصور الوسطى. كانت الرواتب، والبيوت، والعطلات الرسمية والدور الاجتماعي لكل رفيق أشياء ثابتة وغير قابلة للنقاش، مثل حصص الطعام. فاقت أعمال الشيوعيين الحاليين في بعض الأحيان التوقعات، ولم يتمّ إعلان منطقة شمال القوقاز كفردوس وحسب وإنما أصبحت مقصداً رئيسياً للسائحين السوفيات. انتشرت التورهاز، أو المتحطات السياحية، في كل مكان بما فيها عشرات مراكز المياه الساخنة. ارتادت نخبة الحزب الشيوعي مدينة سوتشي، وترددت على أكواخ صيد خاصة بها في جبال كاراشاي، فيما قام الحزب بتنظيم رحلات سياحية لعمال المصانع من كل أنحاء الاتحاد. أصبح القوقاز، الذي كان مسرحاً لصراع مريب في الماضي، مكاناً للاستمتاع بالشمس، والمياه المعدنية، والتزلج، والمشي في الجبال، والفنادق السياحية الفخمة.

بدأ الحكم السوفياتي بسياسة مرنة ملفنة للأنظار، وقد سمحت جمهورية الجبال السوفياتية التي وُحدت معظم شعوب القوقاز باعتماد الشريعة الإسلامية فيها إضافة إلى اكتسابها حكماً ذاتياً واسعاً. لكن ذلك لم يدم طويلاً، وبين 1921 - 1924 عملت موسكو على تقسيم كل قومية إلى جماعات صغيرة يسهل السيطرة عليها، ظهرت في تلك الأثناء "الجمهورية الاشتراكية السوفياتية المتمتعة بالحكم الذاتي"، وما يدعى بمناطق الحكم الذاتي.

لم تكن تلك المناطق منفصلة عرقياً سوى بالاسم. وكانت حكومة "الجمهورية الاشتراكية" مرتبطة بموسكو مباشرة، كما هو الحال بالنسبة للمناطق، لكن معظم قادتها كانوا من العرق الروسي، ولم يكن مسموحاً سوى لبعض الأشخاص البارزين في المجتمع المحلي بالوصول إلى مراكز القيادة. لم تكن منطقة الحكم الذاتي أفضل حالاً. كانت جيوب الأقليات العرقية تلك تابعة إما إلى ستافروبول أو المناطق التي يحكمها الروس مباشرة، دون أن تستطيع تقرير شيء فيما يخص شؤونها. كانت خرائط وتقسيمات تلك المناطق عُرضة للتغيير باستمرار لأن المخططيين الروس كانوا يعيدون رسم حدودها مراراً وتكراراً. مثل التقسيم الأخير سنة 1936 متأهة من الكينونات الاصطناعية التي تجمع بين جنباتها جماعات عرقية منفصلة ومتنافسة في أحيان كثيرة، كان ذلك بمثابة الضمان لاستمرار السلطة السوفياتية كقوة وحيدة. إنه المبدأ الإمبريالي القديم: فرق تسد.

تم فصل قوميّي الآفار والشيشان، واللذين لطالما توحدتا في الحروب ضد الروس. وُضِع الآفار في "الجمهورية الاشتراكية السوفياتية" في داغستان، فيما وضع الشيشانيون في "الجمهورية الاشتراكية السوفياتية" المشتركة بين الشيشان وأفغوشيا. حصلت أوسيتا الشمالية على جمهوريتها الاشتراكية الخاصة، لكن المنفصلة عن أوسيتا الجنوبية عبر الجبال التي تم إنشاء مناطق حكم ذاتي فيها تابعة لجمهورية جورجيا السوفياتية. واجه الشعب الشركسي مصيراً معقداً بشكل خاص، إذ تحولت أراضي أديجي إلى منطقة حكم ذاتي تابعة لمنطقة كرسندار. تم ضم الشراكس إلى قومية كاراشاي الناطقة بالتركية في منطقة تتمتع بالحكم الذاتي تدعى كاراشاي - شركسيا تتبع ستافروبول. تم وضع الكابارد مع البالاكار الناطقين

بالتركية في جمهورية كاباردينو - بالاكاريبا الاشتراكية السوفياتية. نتج عن هذه السياسة، وبمركزة واحدة، تقسيم ليس فقط الجماعات الشركسية وإنما جماعات كاراشاي والبالكار أيضاً.

توقع أهل شمال القوقاز أن يحصلوا على الحرية في نهاية الحقبة الانتقالية. وعوضاً عن ذلك، حصلوا على الإلحاد الشيوعي، واللغة الروسية، والموظفين الروس، والملكية العامة للأراضي. تم إغلاق المساجد أو تدميرها، وتم اعتقال رجال الدين أو قتلهم. حتى بعد حرب سني 1920 - 21، استمرت الثورات مع كل جيل وفي كل منطقة وصولاً إلى دخول الاتحاد السوفياتي الحرب العالمية الثانية. كان هناك تمرد ضد الاضطهاد الديني في داغستان سنة 1927، وضد شيوع ملكية الأراضي من داغستان إلى كاراشاي سني 1929 - 30، وتضمنت معارك كبرى ضد قوات الجيش النظامي في الشيشان. في صيف سنة 1937 لوحده، تم اعتقال 14.000 شخص بارز من الشيشان وأنغوشيا، والآلاف منهم في إحدى ليالي شهر تموز لوحدها، وحتى عندها، بقي المسلمون المحافظون يحضرون الناس على المقاومة، وتشتب الجبلون بأسلوب حياتهم وصعدوا إلى قمم الجبال لتشتعل المقاومة المسلحة بعدها.

5. العقاب

"لا أستطيع إخبارك بكل ما حدث، لأنك لن تجد متسعاً في كتابك. ووحده الله بضمن علم حدوث ذلك مجدداً".

رجل من كاراشاي يتذكر ترحيل ستالين لكل شعبه سنة 1943.

وضعت الحرب العالمية الثانية أهل شمال القوقاز في مهب ريح التاريخ. وغزت ألمانيا، الساعية وراء مصادر نفط باكرو، المنطقة واحتلت معظمها سني 1942 - 43، رغم أنها لم تصل أبداً إلى مر القوقاز. عندما خرج النازيون من المنطقة، بدا كما لو أن الحرب على القوقاز انتهت بالنسبة للعالم. لكن بالنسبة للجبلين، لم تكن تلك سوى بداية الكابوس. اقم ستالين، دون تقديم أي دليل ملموس، أربعاً من شعوب شمال القوقاز بالتعاون مع النازية: وقال كلمته الشهيرة: "لايكفيداتستا"؛ أي التصفية.

في عمليات لم تستغرق سوى يومين، ونفذت بأعصاب باردة، وضعت الشرطة السرية شعوب كاراشاي، والشيشان، والأنغوش وبالاكار بالكامل في قطارات الماشية، ورمت بمن بقي منهم أحياء في أراضي آسيا الوسطى القاحلة. بالطبع كان ستالين قد جهّز معسكرات اعتقال، ومسيرات، وأدوية قاتلة، وعمليات ترحيل واسعة النطاق. حصلت الإبادة الجماعية، إذ اختفت شعوب كاملة، وتمّ قتل الناس على أساس انتمائهم العرقي. ولم يكن أحد يعرف ذلك لا في الاتحاد السوفياتي ولا خارجه.

بلغ عدد المهجّرين من شمال القوقاز حوالي 618.000 شخص، بناءً على إحصاء سنة 1939 السوفياتي. اختفى 76.000 شخص من كاراشاي في تشرين الأول - تشرين الثاني من سنة 1943؛ و408.000 شيشاني و92.000 أنغوشي في شباط 1944؛ و43.000 بالاكاز بعد شهر من ذلك. تمّ احتشاد عدد غير معروف من البالاكاز، والأديجي والأوسيت المسلمين. أشار روبرت كونكويست في كتابه قسلة الأمة إلى أن هذه الأرقام قد تكون منخفضة، مع الأخذ بعين الاعتبار النمو السكاني بين الإحصاء السوفياتي وتاريخ الإبادة الجماعية.

كان المبيدون مشغولين في أمكنة أخرى للقضاء على شعوب كالليك، والإغريق، وألمان الفولغا، والتار في شبه جزيرة القرم، وحتى شعب مسخيتا البعيد والصغير المنتشر في آسيا الوسطى وسيبريا العملاقتين. كل هذا دون أن نذكر الترحيل القاسي، لكن ليس الكامل، لشعوب البلطيق والأوكرانيين والآخرين الذين يسكنون نفس المنطقة. لم يعلم نكيتا خروتشوف هذه الجرائم سوى بعد جيل كامل، وتحديدًا سنة 1956، بعد سنة من ذلك سمح لما يدعى "بالشعوب المعاقبة" بالعودة إلى أوطانها التي كانت تعتقد أنها لن تراه ثانية.

كلارشايفسك، كاراشاي - شركيسيا

كان محي الدين، من قومية كاراشاي البالغ من العمر 60 سنة، يخدم على الجبهة الأوكرانية في الجيش السوفياتي. رغم أنه نجا من القتال إلا أنه لم يُعامل كبطل، واكتشف أن عائلته، وكامل شعبه قد تمّت إبانتهم.

الغضب الذي شعر به محي الدين طوال تلك السنين جعله غير قادر على الحديث

عُما حصل. تبدو قصته غير مترابطة، وتأتي في سياق للمعالجة الإنسانية. وقف أمامي، مرتدياً قبة صلاة إسلامية ومعطفاً قديماً، متردداً.

كل ما فهمته منه: أنهم أخذوه من جبهة المعركة للعمل في مصكر للأختشاب، ثم إلى معمل للأسلحة، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن المكان الذي تمّ ترحيل شعب كاراشاي إليه، وتتبع آثارهم أخيراً إلى كازاخستان ووجد من تبقى من عائلته. قال لي بصوت مقعب كسير: "مات والذي من الجوع، وملت أبناء أربع من شقيقتي أيضاً".

حاصر الجنود سكان الجبال في المنازل التي كانت تأويهم سابقاً للراحة أو للانتشار فيما بعد لتنفيذ عمليات حرية. لم يمنحهم أولئك الجنود سوى 15 دقيقة إلى ساعتين للاستعداد، وأخذ ما يستطيعون حمله من التاع. كانوا ينقلونهم عادةً من القرى إلى محطات القطار في البلدات القريبة بالشاحنات الأميركية ستودباكر الموجهة للاتحاد السوفياتي، هذه معلومة يعرفها الجميع. يقول تاكو ماكاييف بابتسامة مريرة: "أتوا إلينا وأرادوا وضعنا في تلك الشاحنات الأميركية، لكنها لم تكن مناسبة لشوارعنا الضيقة. خططوا جيداً لكل شيء، ولم يتركوا أي شيء للصدفة. ولم يمنحونا سوى 15 دقيقة لجمع بعض المتاع، دون أن نعرف حقيقة ما يجري. لم نعرف وجهتنا حتى وضعونا في عربات القطار".

قلت الرحلة على متن القطار عبر الشتاء السييري القاسي المرضي في غضون أيام. كان الحراس يرمون الخثامين إلى الخارج عندما يجدونها في عربات البضائع الباردة الخائفة. يقول تاكو: "أذكر أن القطار كان يتوقف لمدة 15 دقيقة، وكنا نحاول إشعال النار في الثلج. وماتت إحدى النساء في العربة، وحاول ابنها دفنها إلى جانب السكة الحديدية. وكانت الأرضية متجمدة، لكنه وجد حفرة وضعها فيها. لقد تركها هناك".

لا توجد أرقام حقيقية لعدد الناس الذين ماتوا هناك. لم يكن هناك صحفيون، أو نشطاء حقوق الإنسان، أو محاكم مستقلة. تشير التقديرات الموثوقة إلى موت 20 - 30% من المهجرين، خصوصاً كبار السن والياغبين الذين لم يستطيعوا تحمل البرد، والجوع، والأوبئة. تمّ إطلاق النار على مئات وربما الآلاف منهم: ومجدداً، لن يعرف أحد عددهم بالتحديد. وتروي إحصاءات السكان المنشورة في كتاب قسلة الأمة قصة أولئك الناس. في فترة امتدت 13 سنة بين 1926 - 39، (وهي

فترة مضطربة تخللتها آلاف عمليات الإعدام والاعتقالات التي قام بها السوفييت)، بلغ النمو السكاني في الشيشان 28%، وفي بالاكاريا 28%، وكاراشاي 37%، وأنغوشيا 24%. عند مقارنة ذلك بفترة النفي القسري، نجد أن النمو السكاني بلغ 2.5% للشيشانيين، ولم تزد أعداد البالاكار إطلاقاً، وزادت أعداد كاراشاي بنسبة 8%، والأنغوش 15%. لقد تم إضعاف تلك الشعوب والقضاء على خصوصيتها.

يقيس الجرح عميقاً، ليس فقط بالنسبة للحيل الذي نجح من رحلة القطارات والجيل الذي ولد في المنفى، وإنما للأجيال التي تحدر منهم بعد ذلك. أصبح التهجير جزءاً من الهوية القوية للشيشانيين، والأنغوش، وكاراشاي والبالاكار لأن ذلك العقاب كان بسبب العرق. هيمن ذلك الحدث على كل من الحياة الشخصية وحياة الأمة ككل. أضحي كل شخص ضحية دون استثناء. وحتى بالنسبة لأولئك الذين ولدوا بعد التهجير، كان من المستحيل عليهم نسيان تلك المأساة لأن آباءهم، وأقاربهم، وقرابهم وكامل شعبهم تلقوا العقاب فقط بسبب العرق الإثني.

بكت تمارا، وهي حدة طاعنة في السن، عينها داکتان، وتضع وشاحاً أحمر اللون، حالما بدأت بسرد القصة. رغم أنها لم تكن قد تجاوزت الثامنة من عمرها عندما أرسلتها القوات السوفياتية إلى كازاخستان، إلا أنها عاشت في خوف يومي دائم من تكرار ما حدث، وأن يختفي شعبها دون تفسير.

بدلية، لتي الجنود ليعيشوا في منازلنا وعاملناهم كضيوف. استقبل كل منزل عدداً كبيراً منهم. لقد تناولوا الطعام معنا، ونشروا معذرتهم في كل مكان. استقبلنا حوالي 30 جندياً في منزلنا، وأقاموا معنا لمدة تزيد على الشهر.

يوماً ما، أبلغونا بعدد اجتماع مهم جداً، وأخذوا كل الرجال بعيداً. كان لدي ثلاث شقيقات، ركبنا جميعاً عربة قطار، وولد لي أخ على متن القطار. لقد تجمعت من البرد. كان قطاراً لنقل الماشية، ولم يكن هناك نوافذ، وإنما ظلمة فقط. لم يخبرونا بشيء إطلاقاً كما أنهم لم يخبرونا عن وجهتنا.

كان هناك بعض الناس في قرى أخرى في ذلك الوقت، وعندما تم ترحيلهم، فصلوهم عن عائلاتهم، واستغرق الأمر سنوات وسنوات قبل أن يجدوا أقاربهم مجدداً. فسي للقطار، كنا نصرخ من عربة إلى أخرى محاولين معرفة فيما إذا كان هناك أقارب لنا. يا إلهي، لا أستطيع نسيان ذلك أكثر من ساعة واحدة، لغاية يومنا هذا".

صوفيا مخاديلوفا، امرأة جبلية من قومية كاراشاي تبلغ من العمر 103 سنوات، كانت في الأربعين من عمرها عندما أتى الجنود إليها. وتقول: "كان الوقت في الصباح الباكر، فجأة أخبرني أولئك الجنود الذين استضعفناهم في منزلنا، كما هو حال كل منازل القرية، بأن لدينا ساعتين للاستعداد لرحلة. لم يكن لدينا فكرة عن وجهتنا، أو ما يريدونه".

وُضعونا في عربات البضائع في محطة للقطارات. كانت العربات باردة وموداء، كان الجميع يصرخ لأنهم لم يستطيعوا الرؤية لو وجدوا مكاناً يجلسون فيه. ولم تكن نعرف وجهتنا، ولم يكن لدينا فكرة عنها. كان هناك امرأة روسية متزوجة من كاراشاي، وضعت معنا، وهي من أخبرتنا: "لا تقلقوا، نحن ذاهبون إلى آسيا الوسطى، إنه مكان جيد، وسنكون جميعنا بخير. كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن ذلك المكان".

استمرت الرحلة 20 يوماً. كان هناك امرأة عجوز وفتى إلى جانبي. كلاهما متا من البرد، ولتقيئاهما سراً بيننا حتى لا يرميها الحرس من القطار، لأنهم كانوا يرمون الجنائمين مثل اللغويات. أردنا الاحتفاظ بجشيتيهما ودفنهما لاحقاً.

كان النفي في معظم الأحيان إلى كازاخستان وقيرغيزستان. سكن أهل شمال القوقاز في مناطق استيطان خاصة وقرى عادية تحت ما يشبه الإقامة الجبرية الواسعة. كان محظوراً عليهم مغادرة قراهم دون تصريح خاص، تم التضييق على استخدام لغاتهم الخاصة. بدأ المهجرون ببطء إعادة بناء حياتهم من العدم، وعملوا في المزارع التعاونية، ومعسكرات العمل أو المصانع. تقول امرأة كاراشاي: "عشنا مثل الغنم في كازاخستان؛ عائلات كاملة في غرفة واحدة". لكن عندما رأى الكازاخسيون أننا لسنا قطعاً طرق وإنما عمال نشيطون، بدأوا بمساعدتنا. شاهدوا كيف نعمل بجد في المزارع التعاونية، وكيف بدأنا بتشييد منازلنا شيئاً فشيئاً. بدأ الكازاخسيون بتشغيلنا، وفي النهاية طلبت السلطات الشيوعية منا عدم الذهاب إلى وطننا. بالطبع عندما أتى التصريح، غادرنا جميعنا. ولكنني تزوجت من كازاخجي. وتقول مبتسمة: "إنهم أفضل المسلمين على الإطلاق".

ترك المهجرون خلفهم أراضي فارغة، وقرى قفرة، وقلة من الرجال استطاعت الهرب إلى الجبال رغم مطاردتهما من قبل وحدات الجنود السوفيات. تمت إزالة أسماء

الجمهريات التي تُفي سَكَّانها من الخراط، وتمّ تدمير أي علامات على ثقافتها، بما فيها المقابر والمساجد. سكن آلاف الروس، والأوكرانيين، والجورجيين، وقوميات أخرى من شمال القوقاز مثل الآفار، ولاكس والأوسيت في منازل الشعوب المهجرة، وشكلوا قبلة عرقية موقوتة تمّ التفاضي عنها حتى اقيار الاتحاد السوفياتي سنة 1991.

مرور الوقت، لم يلاحظ العالم ما جرى، وبقيت السلطات الشيوعية صامتة. تمّ الاعتراف بحقيقة تهجير الأنغوش والشيخان سنة 1946، ولكن الشعوب الأخرى اختفت دون أي أثر. يقول جورج أورويل إنه في حال درس أي شخص المراجع بعناية، كما فعل كرنكويسيت في كتابه *قتلة الأمة*، سيجد دلائل غير كاملة لما حدث آنذاك. في النسخة الأولى من الموسوعة السوفياتية الشاملة، التي انتهى العمل عليها سنة 1948، تحولت كاباردينو - بالاكاريا ببساطة لتصبح كاباردان، فيما أخذت الشيخان - أنغوشيا اسم إقليم غروزني. لم يكن هناك تفسير أو تعليق على ذلك. ولم يأت أحد على ذكر كاراشاي.

الفقرة 1:

تؤكد الأطراف المتعاقدة بأن الإبادة الجماعية، سواء أرتكبت في وقت السلم أو في وقت للحرب، جريمة بموجب لقانون الدولي الذي يلتزم بمنعها ومعاقبة مرتكبيها.

الفقرة 2:

"طبقاً لهذا الميثاق، فإن الإبادة الجماعية تعني: أيّاً من الأفعال الآتية التي يتم ممارستها بقصد القضاء على جزء أو كامل، جماعة قومية، أو عرقية، أو دينية، مثل:

(أ) قتل أعضاء في الجماعة.

(ب) التسبب بالأذى الجسدي أو النفسي الشديد لأعضاء في الجماعة.

(ج) للتثدير بشكل متمد على ظروف حياة الجماعة للتسبب بفنائها الطبيعي كلياً أو جزئياً.

(د) فرض إجراءات تهدف إلى منع الإنجاب ضمن الجماعة.

(هـ) تحويل أطفال إحدى الجماعات بالقوة إلى جماعة أخرى.

من ميثاق الأمم المتحدة حول منع ومعاقبة جرائم الإبادة الجماعية، المعتمد سنة 1948، والذي دخل حيز التطبيق سنة 1950، ولقرّره الاتحاد السوفياتي سنة 1945.

لقد بقي منطق تلك العملية لغزاً غامضاً، كما هو الحال دائماً مع عمليات القمع المشابهة. لكن ما هو السبب وراء معاقبة أهل شمال القوقاز بالتحديد؟ لقد احتلّ الألمان، الذين كانوا يسعون أساساً وراء صناعة النفط الأذربيجانية، تلك المنطقة لفترة وجيزة قبل أن يخرجوا منها. لم يتأكد أحد فيما إذا استطاع النازيون، أو خططوا على الأقل، لتشكيل وحدات محلية مناهضة للسوفيات، تماماً كما فعلوا مع الأقليات الأخرى في الاتحاد السوفياتي. إذا أخذنا بعين الاعتبار التاريخ القاسي لشمال القوقاز، سندرك فوراً أن الألمان لم يستطيعوا إيجاد حلفاء لهم. لم يكن الشيشاني أو البالاكاري العادي ليشرع بالولاء لحكومة اعتبرت ثقافته خارجة عن القانون، وأخذت أراضيهم، وأرسلت شرطتها السرية لقمع قاداته. كان العديد من الناس العاديين دون شك سعداء خفية لرؤية الألمان، أو أي أحد آخر، يهاجم السوفيات.

ليس من المؤكد فيما إذا كان البعض في شمال القوقاز، الذين عملوا باستقلالية تامة عن الألمان، قد استفادوا من تلك الفوضى لمهاجمة السلطات السوفياتية بنفس الطريقة التي هاجم بها آباؤهم الروس لأجيال طويلة. على سبيل المثال، اندلع عصيان مسلح واسع النطاق في جبال الشيشان سنة 1940. وتمّ قمعهم، كالعادة، باستخدام القوة المفرطة بما في ذلك القصف الجوي. لكن هذا حدث قبل زمن طويل من وصول الجنود الفاشيين إلى أي مكان قريب من القوقاز، ويجب التأكيد بأن الجنود الألمان لم يضعوا أقدامهم في الشيشان مطلقاً.

أخبرني رجل شيشاني عجز عن حادثة غريبة تشير إلى جوّ عدم الثقة، والخوف والجهل الذي رافق أيام العمليات الحربية، مع انتشار جواسيس الشرطة السرية في كل مكان، وتقدّم القوات الألمانية، وانشغال الناس العاديين بالحاجة بحياتهم. قال لي: "نزل بعض المظليين السوفيات في الجبال. ووحده الله يعلم ما كانوا يفعلون. ربما يتدربون أو شيئاً من هذا القبيل. لم يكن الناس يعرفون في تلك الأيام ما كان يجري في الأعلى هناك، فقد كانوا فقراء جداً، ويعيشون معزولين عن العالم الخارجي. عندما رأوا أولئك الجنود يهبطون من السماء، أحاطوا بهم وقتلوهم، وصنعوا ملابس لهم من المظلات". لا أحد يعرف على وجه الدقة ما

حدث في ذلك اليوم عندما التقى أولئك الفلاحون الشيشان القساة بالجنود. لكن ربما تم استخدام حوادث مثل هذه لتبرير الاتهام القاتل إن كل الشيشان تعمل لصالح الألمان.

تقول صوفيا مخاديلوفا، المرأة من قومية كاراشاي: "لم يكن هناك ألمان حول أماكن تواجدنا سوى لأشهر معدودة. لم نفعل أي شيء خاطئ. لقد أخذوا كل حيواناتنا عندما كانوا هنا، إنني أتذكر ذلك. لم يرَ الألمان سوى بعض الناس. كان يجب فتح تحقيق حول مسؤولية ما حدث، لكن عوضاً عن ذلك أخذوا الجميع؛ حتى الأطفال الذين كان آبائهم يقاتلون على خطوط الجبهة".

بفضّ النظر عن بعض الحوادث المتفرقة، والتي تختلف عن غط العصابات المسلح في الماضي، لم يكس هناك شيء يمكن اتهام الجبلين به. يناقض التوقيت لوحده الادعاء بأن ما حدث كان لمنع السكّان غير المواليين من مساعدة العدو لأن القوات الألمانية كانت قد غادرت المنطقة عندما حصل التهجير.

قاتل أفراد من شمال القوقاز الألمان في الجيش الأحمر ووحدات الثوار، وبشكل بطولي غالباً، وكما هو متوقع من شعوب تتمتع بمثل تلك التقاليد القتالية. إن لائحة أبطال الاتحاد السوفياتي من شمال القوقاز طويلة، ولا تتناسب مع عدد أفراد تلك الجماعات العرقية الصغيرة. لقد حصل الشيشانيون والأنغوش، الذين لم يتجاوز عددهم النصف مليون نسمة عند بداية الحرب العالمية الثانية، على 56 وساماً من فئة بطل الاتحاد السوفياتي في الجيش الأحمر، وتمّ منح أوسمة للمزيد من أفراد تلك الشعوب لكن دون إخبار السلطات الشيوعية عن هوياتهم الحقيقية. حتى اليوم، لا يعرف سوى القليل من الروس أن ما يزيد عن 300 شخص من الذين ماتوا خلال الدفاع الانتحاري عن حصن بريست في بيلاروسيا، وهي المعركة التي ترمز إلى البطولة الأسطورية السوفياتية، كانوا من الشيشانيين والأنغوش. بطريقة مماثلة، حصل 14 كاراشاي على وسام بطل الاتحاد السوفياتي من أصل عدد السكّان البالغ 76.000 نسمة، رغم أنه لم ينجُ أحد منهم ليرى وسامه. خلال الحرب كانت الطائرات الألمانية أو القوات النازية تضرب مدّهم - مثل غروزني ونالشيك - بالقنابل.

لغاية حصول عمليات التطهير العرقي، كانت الدعاية السوفياتية ترفع من شأن مساهمة أهل شمال القوقاز في المجهود الحربي، وتقول إن الشيشانيين، والأنفوش، والكاراشاي والبالاكار مثال المواطنين السوفيات. قبل ستين فقط، كان كالينين، وهو رئيس اللجنة التنفيذية لمجلس السوفيات الأعلى، يقول: "إن القوقاز يمثل برهاناً عملياً ساطعاً على تأثير الإصلاح المفيد للنظام السوفياتي على نفسية وشخصية الشعب. لقد أصبح القوقازيون شعباً اشتراكياً... وأصبحت كل الأرض السوفياتية، من الحدود إلى الحدود، وطنهم المحبوب".

كانت عمليات التطهير العرقي على الأرجح نتيجة لتلاقي مصالح القوى المختلفة؛ بعضها عملي، وبعضها نفسي. تقول إحدى أدق النظريات أن ستالين أراد إنهاء عصيان الشيشان الدائم، وأنه لم يكن يثق غريزياً بالكاراشاي، والبالاكار والمسخيتان لأن أصولهم تعود إلى تركيا، وهي أكبر منافسي روسيا. من المستحيل اليوم إثبات نظرية تقول إن والد ستالين، المعروف بأنه جورجي، كان من أوسيتا وعانى من عقدة النقص للانتماء إلى ما يدعوه الروس الشعوب الصغيرة. لقد غير ستالين، الذي زعم أنه جورجي بالكامل، لقبه الأوسيتي إلى دزوكاشفيلي الجورجي، ومن ثم كما تقول النظرية، تحول بكرهه الذاتي ليصبح طاغية روسي تاريخي. لم يتم التحقق من صحة هذه النظرية، لكن كما يظهر من تجربة هتلر، فإن جنون العظمة وذهان الطغاة يمكن أن يُفضي إلى نتائج كارثية.

غروزي، الشيشان

تقول ناتاشا: كانت الأمور مختلفة تماماً حينها. إنها امرأة تبلغ من العمر 70 سنة، وتستحتر من عائلة من جنوب القوقاز عاشت في الشيشان لثلاثة أجيال. لقد رأت للكثير، وتتذكر اليوم الذي تم فيه تهجير الشيشانيين جيداً. لقد كانت تلك حقبة أخرى قبل الحرب، ولم تتغير الكثير من الأمور منذ القرن التاسع عشر.

كانت للنساء الشيشانيات عندها يرتدين ملابس طويلة مع جوارب سميكة. كن يضمن وشاحاً على الرأس. كان الرجال يرتدون ملابس طويلة شركسية، مع جيوب للرصاص، ولغاية فترة التهجير، كانوا يحملون دافعاً الكنزال، ويضعون للنطق. بالطبع، كانت خناجر للكنزال لامة، وكان يتم للتباهي بها أمام الفتيت ولثناء الرقص. كانوا يضمنون بهلها مدهلة (قبعة طويلة من جلد الحمل). وكان الشيشانيون ينزلون إلى

غروزني، التي لم يكن يمكنها سوى الروس آنذاك، من الجبال ويبيعون الزبدة والبيض. يا لها من زبدة! آه، وأكياس كبيرة من البنّاق. لم يكن رجالهم مثل رجالنا الروس. كانت نساءهم يمشين خلفهم، ويقطن ما يقولونه لهن. وليس مثل رجالنا، الذين يطيعون للزوجة دائماً ولتذكر عجزاً من يرمولفكا. كان يبلغ 92 سنة من العمر، ولديه ثلاث زوجات. ولحده على كل جانب وثلاثة جميلة خلفه.

لم يكن بيدهم فعل أي شيء. أعني ما الذي كان سيقاومون ضده؟ ويعتبر المقاتلون الثوار الشيشان أنفسهم خارقين هذه الأيام، لكن في تلك الأيام لم يكن هناك ثور حقيقيون، وإنما مجرد قطاع طرق. كل ما كانوا يملكونه هو أسلحة صيد، لكن ما الذي يمكنها أن تقطعه ضد القوت العسكرية؟ وما الذي يستطيعون فعله ضد شيء مثل ذلك؟ هل تعرف ما قاله برياً (رئيس الاستخبارات السرية)؟ أنه لم يكن كافياً إرسالهم إلى كازاخستان، وإنما إغراقهم جميعاً في بحر قزوين.

كل ذلك حدث بسبب بعض الأبريخ، أو قطاع الطرق. لم يكن هناك مقاومة منظمة ضد السوفييات، وإنما بعض قطاع الطرق الذين فتحوا نيرانهم على القوات وصرخوا بأنهم سيساعدون الألمان ويقتلون كل الروس. لقد عاش معظم الناس بسلام، يربون الأبقار والدجاج، وبسبب بعض الأشرار، عانت أمة بأكملها.

لأفقت نلتشاً في يوم التهجير لتجد أن جيرانها الشيشانيين قد اختفوا. تهضت والدتي في الصباح وتساءلت: ماذا حدث؟ أين هم؟. وذهبنا إلى محطة القطارات وكانت العربات مقلّة عندها. كان الناس يصرخون ويتحجبون. كان للكثيرين منهم من الجبال، ولا يعرفون السحتت بالروسية، وكانوا يصرخون بالشيشانية من العربات. كانت الشرطة السرية تهدد بأنهم ستخرج الناس من العربات وتقتلهم.

هل كانت نلتشاً خائفة من الموت أثناء ذلك الاضطهاد الجماعي الكبير، حتى عن طريق الخطأ؟

لم يطرق الجنود بابنا. وكانوا يعرفون بأننا روس، وبالطبع كانوا يعرفون كل شيء.

مات ستالين سنة 1953، لكن خروتشوف لم ينتقده إلا في شباط 1956 في خطاب سرّي أمام مؤتمر الحزب الشيوعي العشرين، وفتح أخيراً الطريق لخلاص أولئك المنفيين. قال خروتشوف: "أيها الرفاق، دعونا نتوصل إلى بعض الحقائق".

يُعتبر الاتحاد السوفياتي مثلاً عن الدولة المتحدة للقوميات لأننا ونحن بممارسة المساواة والصداقة بين كل للشعوب التي تعيش في وطن الأجداد العظيم. كل تلك الأعمال الوحشية من صنع ستالين، وهي لتنتهاك فظ لمبادئ لينين الأساسية للمساواة

للقومية للدولة السوفياتية. نشير هنا إلى التهجير الشامل لشعوب باكملها من أراضيها، والذي لم يستثنِ الشيوخ عيّن أنفسهم. لم يكن لأعمال التهجير تلك أي اعتبار عسكري على الإطلاق.

خرق خطاب خروتشوف سنة 1956 الصمت الرسمي، ولكن تطلب الأمر سنة أخرى قبل القيام بما يلزم لتحرير الشعوب المهجرة. صدرت مراسيم لإعادة توطين شعوب شمال القوقاز في كانون الثاني 1957. حُزمت الشعوب المعاقبة كل ما استطاعت جمعه خلال 15 سنة، وبدأت رحلة العودة. كان جيل كامل قد وُلد في المنفى وترعرع في كازاخستان أو أذربيجان، لكن الشباب انتظروا دائماً اليوم الذي يستطيعون فيه العودة إلى الوطن الذي لم يسبق لهم رؤيته أبداً. كان جيل آخر قد تقدّم في السن، لكنه أراد دائماً "الموت في الوطن"، كما أخبرني امرأة أنغوشية. أخرج البعض منهم موتاهم ليرافقوهم في تلك الرحلة.

عندما عاد أهل شمال القوقاز، اكتشفوا أن الكثير من التغيرات طرأت على وطنهم المحبوب. لم يتوقف الأمر على احتلال منازلهم، وإنما وجدوا المساجد مهذّمة، والمقابر مبعثرة في العديد من القرى، والتي تمّ استخدام حجارها كمواد بناء تطبيقاً لسياسة متعمّدة في تدمير ثقافة الجبلين (المعاقين). في مقبرة قرية كامينوموست التي كان يسكنها الكاراشاي، ما تزال المدافن مبعثرة في الحقل. عندما عاد الكاراشاي إلى قريتهم، تمّت إبادة الكثير من العائلات، ومرّ زمن طويل جداً قبل أن يتمّ التعرف على بعض المقابر، ويتمّ وضع حجارة جديدة لها. وما تزال مشكلة الموتى المنسيين تؤرق مضاجع الشيشانيين.

تقول نمارا الشيشانية: "عندما عدنا إلى المنزل، كانت كل المساجد مدمّرة. ذهبنا إلى منازلنا القديمة، كان هناك روس يعيشون فيها. لقد رفضوا أن يغادروها، وقالوا: نحن لسنا خائفين منكم، اذهبوا بعيداً. كان معنا بعض النقود، ولهذا ذهبنا واشترينا منزلاً آخر".

يقول ماجومد البالاكاري: "كان يسكن في منزل عائلة والدي تسعة أشخاص عندما نفوهم منه. ولم ينجُ سوى والدي، ومات والداه، وشقيقته وأشقائهم جميعاً. حالما سمحوا لنا بالعودة، رجعنا إلى قريتنا لنجد حرقاً، ولم يبقَ

منه سوى الجدران. هكذا بدأنا بيناته من جديد". ويقول بفخر: "نعيش الآن في نفس المنزل كما كان الحال دائماً، حتى بعد أن تغيّر شكله"، ويتابع: "احتل الروس والكابارد وبعض الجورجين المنازل الأخرى في القرية. لم يكن لدى الكثير من الناس أي خيار آخر سوى الدفع واستخدام النقود التي اذخروها لشراء منازلهم من جديد. كانت خالتي شديدة القوة وقالت للناس الذين احتلوا منزلها: "إذا لم تخرجوا منه، سأقتلكم غداً، وسأقطع رؤوسكم". لقد غادروا، ووجه الكثيرون منا إنذارات مثل تلك، لأننا شعب عملي كما ترى".

يتننّر أهل شمال القوقاز بأنهم بناء جيّدون جداً، لأن الروس يواصلون تدمير منازلهم. هناك بعض الحقيقة في ذلك. كان كازر جمال، وهو رجل بالاكاري قروي البنية يبلغ من العمر 75 سنة، وشهير بكونه صياداً بارعاً، يبلغ من العمر 19 سنة عندما نفاه السوفييات إلى قرية فيرخني. في كازاخستان، بنى قومه منازلهم الخاصة. ولدى عودتهم وجدوا قرينتهم القديمة، وقد تحوّلت إلى أنقاض، ولهذا بنوا قرية جديدة بالكامل إلى الأسفل قليلاً من المكان القديم.

يقول كازر: "لقد كانت جميلة"، وهو يصطحبني إلى الأساسات المدمّرة للقرية المدمّرة، والتي لا تزال ظاهرة في تضاريس سفوح الجبال. أشار إلى بقايا المنزل الذي ترعرع فيه. "كانت الشوارع ضيقة، ويتمّ بناء المنازل متلاصقة مع بعضها البعض. قام أحد المهندسين الروس المختصين بعمارة المدن بزيارتنا، ولم يصدق ما رأى. استمرّ المزاح عندما رأى المهندس منازلنا متكدّسة بهذا الشكل على سفوح الجبال، واعتقد أنها مجرد منزل واحد كبير: "حتى في موسكو ليس لدينا مبانٍ مع هذا العدد الكبير من الشقق".

لم يتمّ الكشف عمّا قام به ستالين سوى بشكل جزئي في خطاب خروتشوف. لم تتمّ معاقبة المسؤولين عن عمليات التطهير العرقي أبداً، وجرى تغليف الاتهامات نفسها بالأعذار، ووقفاً لخروتشوف: "كان ستالين مقتنعاً بأن ذلك ضروري لحماية مصالح الطبقات العاملة ضدّ مخططات الأعداء وضدّ هجمات المعسكر الإمبريالي". لم تكن عمليات التطهير "بسبب أفعال الطاغية المستبد، والذي كان يعتقد أن ذلك لمصلحة الحزب". يؤكد خروتشوف أن ستالين هجر حتى "الشيوعيين والعمال بمقد أسود".

لم يفعل خروتشوف الشيء الكثير لتغيير السياسات الاستعمارية للحكم الروسي في شمال القوقاز، والتي قوّضت كل مقومات الشعور الوطني. لم يتمّ اعتبار عمليات التهجير أحدًا سيئة. لم تتمّ إقامة النصب التذكارية، كما لم يذكر أحد ما حدث في الكتب السعيدة التي كان يراها كل أولئك القادمين إلى المنطقة لقضاء عطلاتهم السوفياتية في تورباز. تحمل الشعب المعاقب معاناته بصمت، ولم يذكر كتاب سياحي عن كاراشاي - شركسيا منشور في 1992، بعد سنة على انهيار الاتحاد السوفياتي، أي شيء عن إبادة الكاراشاي. "تمّ تحرير منطقتنا في كانون الثاني سنة 1943... واثارت كل الشعوب السوفياتية ضد الفاشية. تمّ تنظيم 13 مجموعة مقاومة في منطقتنا، وماتت نساء كاراشاي - شركسيا دفاعاً عن وطنهن".

تمّ تزيف التاريخ البعيد، والذي لا يمكن نكرانه ببساطة، ليناسب البرنامج السياسي. تأثر المتطرفون بشامل الذي اعتبروه بادئ الأمر بطل الشعب في قتال القيصر، ثم الشخص الأفضل من القيصر، وأصبح بعد التهجير قاطع الطريق والشيخ الرجعي.

عاشت الثقافة مع فرق الرقص الرسمية التي ترتدي الأزياء الوطنية المميزة، فيما تمّ اعتبار الخبز اليومي للمجتمع الشيشاني المتمثل في المساجد، وحفلات الزفاف، ومراسم الدفن، ومجالس الكبار رجعية ومتخلّفة. أخذت الروسة اللغوية منحاً جديداً خلال سنوات حكم خروتشوف وبريجينيف، التي استمرت من خمسينيات إلى ثمانينيات القرن العشرين. كان يقال إن القوميات غير السلافية لديها حاجة داخلية للغة الروسية، وأن العلاقة الطويلة والمنهجية للمنطقة مع اللغة العربية، وخصوصاً في داغستان، قد انتهت. في أربعينيات القرن العشرين، أصبحت الأجدية الروسية إجبارية. في سنتي 1958 - 59، تمّ إلغاء حق التدريس باللغة الأم، وبين 1961 و1982، تمّ إلغاء 31 لغة من المدارس بما فيها الأدبية، والبلاكارية، والكاراشية والشيشانية - الأنغوشية. وفيما يخص الأدب الوطني، يوجد كتاب بحجم لائحة طعام بعنوان أغاني الشيشان والأنغوش البطولية الملحمية، وهو مكتوب باللغة الروسية وملئ بالدعاية لها. في المقطعين الأولين من هذا الكتاب، المطبوع بالروسية سنة 1979، هناك ما يدعى "أغنية إلى ستالين".

كانت العقود الأخيرة من حكم الاتحاد السوفياتي هادئة في شمال القوقاز. ولم يكن هناك ثورات أو حروب، واعتقد السوفييات أن حلمهم بإقامة عائلة من الأمم السوفياتية السعيدة قد تحقق. لكن النار كانت تحت الرماد. تحت سطح هذا العالم الجديد الشجاع، كان هناك انفجالات وإرهاب العالم القديم.

غروزني

بعد مضي نصف سنة على الحرب في الشيشان، نظرت إلى الرزمة الصغيرة من البطاقات البريدية التي أهداني إياها أحد المقاتلين الشيشان عندما كانت الدبابات الروسية تقترب للمرة الأولى من غروزني. وقال لي الثائر: "لحفظ بها حتى تتذكر مدى روعة مدينتنا"، وأخرج 17 صورة من جيب صدر بذلته المموهة.

كانت البطاقات البريدية مطبوعة سنة 1988 عندما كان الاتحاد السوفياتي لا يزال موجوداً. لكن بعد ستة أشهر من القتال في الشيشان، لم يبقَ شيء الكثير: تمثال لينين، الذي حطّمه الشيشانيون؛ والمسيك، الذي قصفته قنابل القوات الجوية الروسية؛ ومبنى البرلمان، الذي دمرته القنابل؛ والجسر الموجود فوق نهر سونزا، الذي تحول آنذاك إلى كومة من الألواح الخرسانية وقضبان الفولاذ؛ ومعهد النفط، الذي دمرته القنابل؛ ودائرة سير مينوتكا، المدينة بالحضر نتيجة للقصف؛ وضاحية شيرنوش، التي كانت للملاذ الأخير للشيشانيين، والتي ضربتها قذائف المدفعية الروسية.

هناك فترة على عتبة البطاقات السوفياتية تقول: "أهلاً بكم إلى غروزني. إنها تنمو وتتطور كل سنة. يتم شق الشوارع العريضة التي تحدها الأشجار عبر المباني المكنية الجديدة، كما تمّ تشييد ليلية جديدة متعددة الطوابق".

الفصل الثالث

المنطقة المتشابكة المجزأة

لن يكون باستطاعة روسيا التعامل مع هذا الوضع.

هناك شعوب كثيرة ذلقت طعم الحرية.

المير أبيير غوف، مدير متحف تاريخ أنيجي في ميكوب.

1. الجبهة الجديدة

في سنة 1936، أعلن القوهنرر بنفسه: "إذا انضم أهل القوقاز والأورال، بشروطهم غير المحدودة من المولد الأولية، وغاباتهم للغة في سيبيريا، وحقوق الفرقة المترامية الأطراف في كوكرنيا، إلى القيادة الألمانية تحت الرزاعة الاجتماعية القومية، فستصبح ألمانيا في السمنة".

من كتب للقوقاز السوفياتي، لمؤلفه ديفيد توتيف.

تشبه القوة الروسية إحدى دمي ماتروشكا التي يجدها السائحون الروس إلى جانب قبعات الفراء وعلب الصدف. كلما انزاحت طبقة من تلك الدمية، تبدو بنفس الشكل ولكن أصغر حجماً. أفسحت الدولة القيصريّة المجال من الناحية الجغرافية لإمبراطورية الاتحاد السوفياتي المشاهدة لها. عندما انهار هذا الأخير سنة 1991، انفارت معه العديد من المستعمرات، مع 14 جمهورية سوفياتية سابقة من أستونيا إلى قرغيزستان والتي استقلت جميعها. في الداخل، كان هناك مثال صارخ على دمية ماتروشكا الأصلية: 89 منطقة وجمهورية تتمتع بالحكم الذاتي ضمن الفيدرالية الروسية.

تحول شمال القوقاز، الهادئ سياسياً أيام السوفيات، إلى جبهة القتال الجديدة لروسيا في مواجهة جمهوريات جورجيا، وأرمينيا وأذربيجان المستقلة، وتركيا المسلمة والعضوة في الناتو، وإيران. كان عمر القوقاز الشغل الشاغل بالنسبة لموسكو حيث برز تراجع نفوذها نتيجة لازدهاد نفوذ الإسلام وتركيا على طول حاصرها الجنوبية الاستراتيجية. كان هناك رؤى متعددة لتركيا، التي عقدت قمة للجماعات الناطقة بالتركية في أنقرة سنة 1992، لإعادة بناء صلاتها بما يقارب 120 مليون مسلم ناطق بالتركية، بمن فيهم الآذاريون الذي ينتشرون من إسطنبول إلى الماتنا.

كان فقدان عمر القوقاز يعني خسائر اقتصادية هائلة بالنسبة لروسيا، خصوصاً أن العديد من وحدات الإنتاج السوفياتية كانت خارج الحدود الروسية، بما فيها محطات إنتاج النفط الحيوية في أذربيجان ومصنع الطائرات الحربية سوخوي - 25 في جورجيا. أكثر ما أثار حفيظة الروس هو فقدانهم لحقول النفط في بحر قزوين، وهو ما كان يعتبر جزءاً من الكنز السوفياتي، والذي يقع الآن في مياه البحر

قبالة الشواطئ الأذربيجانية، والذي تعتبره حكومة باكو ملكاً لها. هناك أيضاً حقول نفط وغاز طبيعي هائلة في كازاخستان وتركمانستان المستقلتين على الجانب الآخر من بحر قزوين.

لم يكن هناك سياسة روسية محددة في البداية. كانت موسكو ترسل قواتها أو دبلوماسيين مثل رجال الإطفاء من أزمة إلى أخرى في محاولة للحفاظ على الاستقرار، وبالتالي نفوذها. في سنة 1993، تحول البحث الفوضوي والدموي أحياناً عن استراتيجية معينة إلى سياسة خارجية عدوانية. تجدد إحساس روسيا بدورها كقوة عظمى، أو فيللكايا ديمزالا، وتحولت عن الإصلاحات الديمقراطية على الطريقة الغربية لتتخذ منهاجاً في إصلاح نظامها القديم على أسس إمبريالية جديدة وواقعية سياسية. في الواقع كان الجيش في حالة يرثى لها، فيما اختفت الدولة الأمنية السابقة، وخسرت موسكو بين ليلة وضحاها أراضي شاسعة بشكل لا يصدق، من أستونيا إلى قرغيزستان. لكن الحلم الإمبريالي القديم نجا من أزمة الثقة في تسعينيات القرن العشرين، بنفس الطريقة التي تستمر فيها النجوم الحمراء بالترتيب على أبراج الكرملين، وهي تنظر إلى الصقر الإمبريالي الذهبي المزدوج الرأس الجاثم على مبنى الحكومة.

في تلك السنة، أعاد الكرملين جزءاً من نفوذه المفقود في منطقة عمر القوقاز، مع توقيع البلاد المستقلة حديثاً اتفاقية كومنولث الدول المستقلة الذي يضمن عليه روسيا. تم إجبار جورجيا على الخضوع بعد حدوث ثورات داخلية فيها، ودعم الروس للحروب الانفصالية التي قامت بها أقلية الأبخاز وسكان أوسيتا الجنوبية، والتي أضعفت القائد الجورجي، ووزير خارجية الاتحاد السوفياتي السابق إدوارد شيفاردنادزه، والذي لم يملك خياراً في النهاية سوى طلب المساعدة من موسكو. كان هناك خطة مشبوهة في أذربيجان تتضمن دوراً سرياً لموسكو في تدبير انقلاب سنة 1993 لاستبدال الرئيس الوطني أبو الفاز الشبي، على الأقل مؤقتاً، بمسؤول يمكن التحكم به هو حيدر عليف، وهو آخر من تبقى من أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي السوفياتي أيام بريجنيف. استعادت روسيا أيضاً دورها الذي انحسر خلال سنوات 1988 - 1994 في الحرب بين أذربيجان والانفصاليين الأرمن

الذين يعيشون في جيب ناغوري - كاراباخ. كما دعمت روسيا الأرمن المسيحيين بشكل عام، ولو بصورة غير رسمية، وأبقت تركيا خارج اللعبة، وحذرت سنة 1992 من حرب عالمية في حال تدخلت أنقرة لدعم الآذريين. عملت روسيا على تحسين علاقاتها مع إيران، القوة الثالثة السابقة في المنطقة، والتي تشاطر موسكو هدف تقليل نفوذ الولايات المتحدة في منطقة قزوین.

يحتل النفط خلفية صراع تلك القوى؛ الكثير من النفط. هناك تقديرات مختلفة للمخزون الذي يمكن استخراجه تتراوح من 25 مليار إلى ما يفوق 100 مليار برميل. تعتبر المنطقة بالتأكيد مصدراً مستقبلياً هاماً لإمداد العالم بالطاقة. لقد اتحدت شركات النفط الغربية العملاقة، بنفوذها المالي والتقني الواسع، في تسعينيات القرن العشرين للحصول على فرصة إصلاح البنية التحتية السوفياتية المتهالكة، وتم إجبار حكومة روسيا الساخطة على المضي قدماً للانضمام إلى طابور الانتظار.

قاومت روسيا الادعاءات الأذربيجانية في ملكية الحقول البحرية، معتبرة أن قزوین بحيرة، وليس بحراً، ولهذا يجب على كل البلاد الخمسة التي تملك شواطئ عليه أن تشارك بمصادر الطاقة. وضعت أذربيجان، التي تعرف أن الامتلاك يساوي تسع أعشار القانون، يدها على المكان، ولم يعد باستطاعة روسيا بعد ذلك فعل شيء على المدى المنظور.

أخيراً في أيلول سنة 1994، وقّع اتحاد من تسعة لاعبين رئيسيين في مجال النفط صفقة القرن بقيمة ثمانية مليارات دولار لاستثمار واستغلال ثلاثة حقول نفط آذرية يقدر مخزونها بـ 3.8 مليارات برميل من النفط الخام. كان الاتحاد المسمى شركة التشغيل الأذربيجانية الدولية، والتي تمتلك الشركات الأمريكية ما يزيد على ثلث الأسهم فيها، يأمل بأن يحصل على كميات صفقة من النفط بشكل مبكّر بحلول سنة 1997، ومن ثم الحصول على 700.000 برميل يومياً من النفط الرئيسي بحلول سنة 2010. ساعدت موسكو في تحقيق أهدافها مغادرة الشيشي المناصر للأتراك، واستبداله بعلييف. رغم أنه لم يكن رجلاً مطوعاً، إلا أن علييف كان يتعرض لضغط كبير نظراً للحرب ناغوري - كاراباخ. فازت شركة لوك - أويل الروسية بحصة تبلغ 10% من الشركة الآذرية، وسرعان ما بلغ عدد شركات

الاتحاد 12، من بينها بريتش بتروليوم وأموكو اللتان حصلتا على نسبة 17.1 و 17% على التوالي، ويستمر هذا الكنز الاستثماري بالنمو طوال الوقت. تم إبرام المزيد من الاتفاقيات بين الشركة الآذرية وشركات جديدة لتطوير حقول نفطية إضافية حول قزوین في سنتي 1996 و 1997.

انتهزت روسيا فرصة عظيمة للاستفادة من الامتيازات النفطية والبقاء لاعباً استراتيجياً رئيسياً في بحر القوقاز وذلك بملكيّتها لخط الأنابيب الوحيد الذي ينقل النفط الخام من أذربيجان إلى الأسواق العالمية، ونظراً لوقوع مسار أفضل خط بري لنقل النفط من حقول تينغز الواسعة شمال كازاخستان في أراضيها. وبكل الأحوال، سرعان ما عانى هذا الخط، الذي يمر عبر شمال القوقاز وجنوب روسيا إلى ميناء نوفوروسيسك على البحر الأسود، من منافسة مريرة. أرادت جورجيا تأهيل خط أنابيب موجود سابقاً لديها والذي يتجه مباشرة من باكو إلى سوبسا على البحر الأسود. كان هناك أفكار أخرى لخطوط أنابيب تمتد مباشرة عبر أذربيجان وأرمينيا إلى تركيا، أو تقطع جنوب إيران وبعد ذلك إلى تركيا. وكانت كل البدائل الأخرى أقصر من الخط الروسي المتعرج، رغم أن جميع مساراتها تعاني من المشاكل كما تقول موسكو: الحرب الأبخازية في جورجيا؛ وحرب ناغورني - كاراباخ في أذربيجان؛ والعقوبات الاقتصادية الأميركية على إيران.

توقف النزاع على مسار خط أنابيب النفط سنة 1995 بتسوية مؤقتة: سيتم استخدام كلا خطي الأنابيب الروسي إلى نوفوروسيسك، والخط عبر جورجيا إلى ميناء سوبسا لنقل النفط الخام. أوضح رجال صناعة النفط بأنهم على المدى الطويل سينقلون الجزء الأكبر من النفط في القرن القادم عبر جورجيا إلى ميناء جيهان على الساحل الجنوبي لتركيا، وهو الخيار الذي سيحرر أذربيجان من الاعتماد على روسيا. هناك أيضاً أفكار طموحة لربط تينغز مباشرة مع باكو عبر بحر قزوین، وهو ما يعني تخلي آسيا الوسطى عن روسيا أيضاً.

بكل الأحوال، لا تزال معظم خطوط الأنابيب التي لا تمر عبر الأراضي الروسية في مراحلها الأولى، وقد أظهرت موسكو تصميمها على اللعب بقوة. جرت محاولات عديدة لإضعاف حيدر عليف، والتي يلقي الآذريون فيها باللحمة

على روسيا. رغم أنه كان في السبعينيات من العمر عندما أصبح رئيساً، إلا أن هناك مخاوف جدية حول ما سيحدث عندما سيفادر منصبه. قد يتسبب موت عفيف بجولة جديدة من القتال في ناغورني - كاراباخ، أو بفوضى سياسية داخل أذربيجان، وهو ما قد يمنح موسكو عذراً للتدخل مجدداً. حام التهديد الروسي فوق صفة القرن مثل ضيف غير مرحّب به، وذلك عندما ادّعت الملكية المشتركة لبحر قزوين. كان من الواضح أنه طالما أن الحرب الدبلوماسية حول مسار تصدير النفط لم تحسم، فإن القوقاز مهدد بالمزيد من الحروب الطاحنة.

بعد ذلك، انتقل التركيز إلى شمال الجبال، التي تقع في قلب الحدث بسبب خط الأنابيب ولأنها أصبحت آنذاك منطقة جبهات قتال. اتجهت الأنظار إلى شمال القوقاز مجدداً. سنة 1991 فاجأت الشيشان موسكو بإعلانها الاستقلال، ودخلت أوسيتا الشمالية وأنغوشيا حرباً للسيطرة على شريط ضيق من الأرض سنة 1992، طالب الكثير من الناس بحكم ذاتي أوسع والتخلص من خريطة ستالين. كان الوضع خطيراً، وفي حال انفاريت الورق العرقي في كاراشاي - شركسيا وكاباردينو - بالاكاريا، أو إذا انضمت أنغوشيا إلى ثورة الشيشان الانفصالية المسلحة، فقد تتمزق المنطقة بأكملها نتيجة الصراعات التي لا يمكن تحيّلها. سيعرض ذلك خط الأنابيب الذي يمر من داغستان، والشيشان، وأنغوشيا، وأوسيتا الشمالية، وكاباردينو - بالاكاريا وكاراشاي - شركسيا للخطر، وقد تعرض سبّتي الخبز كراسنودار وستافروبول، وهما المقاطعتان اللتان تضمّان أخصب الأراضي في جنوب روسيا، للتهديد جراء ذلك، وإذا لم تستطع روسيا السيطرة على الجبال الشمالية، فإن نفوذها واقتصادها المرتبطين. عمر القوقاز سيتلاشيان. ويبدو أن شمال القوقاز ليس سوى طبقة من دمية ماتروشكا التي لا ترغب روسيا بأن تفصلها؛ مهما كلف الأمر.

بيتيكورسك، منطقة ستافروبول

كل ما عليكم قوله في شمال القوقاز هو نيفتوبسروفود، أو خط أنابيب النفط، وسيعرف الجميع قصصكم. رغم أن الكثير من الناس لم يَرَ الخط أو يعرف مساره بالضبط، إلا أنهم جميعاً يعرفون معناه. يتمتع خط أنابيب باكو - نوفوروسيمسك بشهرته الخاصة، مثل الجبال. عندما ينظر الناس إلى الحرب في الشيشان، فإنهم يفكرون في خط الأنابيب.

لقد عثت العزم على زيارة خط الأنابيب. وفكرت في الأمر طويلاً عندما كنت في الشيشان، حيث يمكن مشاهدة أعمدة الدخان المتصاعدة من محطات الوقود التي تضربها القذائل عبر الأفق، والتي تحجب الشمس أحياناً. في الشيشان لا يتكلم الناس للعاديون عن الذهب الأسود، وعن صفقات القرن لو حصى النفط.

لكنني سيارة لجرة من نوع لادا متهاكة خارج بلدة بيلتيكورسك إلى الأرياف، حيث يضطري الضباب والثلج لرض ستغروبول السوداء. لم يكن هناك أثر لخط الأنابيب، وتفتت خريطتي للمرة العاشرة. كنا في ذلك الوقت نمير على طريق وعرة متجمدة جزئياً، وفجأة ظهرت لوحة مع كتابة باللونين الأحمر والأسود عليها تقول: "انتبهوا! خط أنابيب نفط. استعداد كامل. منطقة محمية".

"توقف!" إنه هنا. كان خط الأنابيب تحت لقدامي، ويمتد من الشرق إلى الغرب. إنه مجرى الذهب الذي يمتد عبر التضاريس الوعرة لخالصرة روسيا الجنوبية. إنه نعمة ونعمة في الوقت ذاته.

توجد بالقرب من ذلك المكان مزرعة تعاونية معزولة. كانت تبدو مهجورة، عدا بعض الكلاب الجائعة الواهنة وبعض التجهيزات الصدئة. وجدت رجلاً عجوزاً داخل أحد الأكواخ الذي يتكون من غرفة واحدة. هو رجل يعيش فوق واحدة من أهم المصالح الاستراتيجية لروسيا الجديدة، أحد أهم أسباب الحرب في الشيشان، والسبب وراء موت عشرات الآلاف من الناس. توقعت أن أرى بعض الحكمة في ذلك الرجل المعجوز الذي يعيش وحيداً على مصدر الطاقة ذلك، وأن يكون الشخص البسيط الذي يفهم للحقائق العظيمة. عندما كنا نتحدث في كوخه الدافئ، كانت الحرب تستمر على بعد حوالي 200 كيلومتر إلى الشرق. وسألته عن رأيه.

كان من الواضح أن الرجل المعجوز لا يعرف حتى بأنه يعمل قرب خط الأنابيب، ولا يفهم السبب الذي دفع بأجنبي للظهور لملمة فجأة. وقال لي: "لا أعرف شيئاً عن السياسة، ولا أريد بل أنظر في أي صحيفة". ضغطت عليه ليقول رأيه حول الوضع في الشيشان، فأجابني: "بدية"، هجرهم ستلين حتى آخر رجل فيهم. ثم لى خروستوف، وسمح لهم بالعودة. هكذا جرت الأمور".

2. الصلاة

لنحفظنا الله من الانحراف عن الطريق القويم.

لعضوا أيها للرفاق للمقاتلون في سبيل الله.

من ترقية الإمام شامل.

أصبح شمال القوقاز في بداية تسعينيات القرن العشرين مرادفاً للسياسيين،

والجنسرالات، والثوار الوطنيين. لكن قبل ظهور المنظرين والمقاتلين بوقت طويل، كانت الثورة موج بين الناس العاديين، وهم الناس الذين كانوا سوفياتين، والذين اكتشفوا الآن - كما لو أنهم ينظرون إلى المرأة للمرة الأولى - هويتهم الحقيقية. شكّل ذلك بالنسبة للبعض منهم صدمة مثيرة لاكتشاف الذات، فيما وجد البعض الآخر المرأة متسخة، والضوء متقطع، لا يمكن جمع أجزاء الصورة المتباعدة إلا ببطء. من هؤلاء الأفراد، انبثقت تلك العملية في مجتمعاتهم، ثم إلى كامل المنطقة، واتسمت بإعلان الصراع الديني، والثقافي، والتاريخي إلى حد بعيد مع روسيا.

تمثل الوجه الأكثر بروزاً في الولادة الجديدة لشمال القوقاز في المساجد. لم يكن هناك سوى بعض المساجد القديمة. فقد دمر السوفييات معظمها، إلى جانب العديد من الكنائس المسيحية، ولكن دور العبادة الجديدة انتشرت في ظل حكم الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف سنة 1987. بحلول تسعينيات القرن العشرين، انتشرت المساجد الجديدة، أو ميثقي كما يسمونها بالروسية، في كل مكان. ارتفعت مآذن الآجر الأحمر فوق شوارع القرى، وفتحت المساجد ذات الطراز المعماري الفريد أبوابها للمصلين، وأضحت القبب الزاهية الألوان تتلألأ من بعيد تحت أشعة الشمس. تم بناء مسجد جديد في مطار داغستان الرئيسي خارج ماكشكالا على بحر قزوين، وفي ماكشكالا نفسها كان يتم بناء مسجد ضخم بمساعدة تركيا. يوجد أحد المساجد المفضلة لديّ في جنوب غرب الشيشان. فقد انتهى العمل في البناء الرئيسي، وهو عبارة عن قاعة أنيقة من الآجر، إلا أن كل شيء توقف بسبب الحرب، والقسم الوحيد الذي برز من المذئبة كان الحديد، أو السلم الحلزوني الذي يشمخ عالياً نحو السماء.

إلى جانب المساجد، ظهرت المدارس الإسلامية، أو المدرسة، وتجدّد تدريس اللغة العربية. كان هناك تدفق ثابت من الحجاج إلى مكة، الذين كانوا يسافرون من موسكو، ثم أصبح هناك رحلات مباشرة من مينرلاي فودي في شمال القوقاز. في مقابل الدعاية المضادة للإسلام والأقليات العرقية في الصحف، أصبح هناك الآن إرساليات ثابتة عبر مطارات شمال القوقاز من القرآن الكريم باللغة الروسية الآتي من الشرق الأوسط والكتيبات التعريفية مثل لتعرف على الإسلام، والمكتوب عليها أنها هدية من إحتوكم في الإيمان، والتي تأتي من المجلس العالمي للشباب المسلم.

كان الكثير من الناس في المنطقة يجهلون الإسلام، وكان هذا بمثابة إحياء وليس إعادة اكتشاف للدين. ترعرعت أجيال بأكملها في دولة ملحدة، واعتاد أولادها على فكرة جني المال والتحول إلى مستهلكين للسلع السوفياتية عوضاً عن الذهاب إلى المسجد. كانت تلك هي الحالة السائدة في أدبيجي، حيث قضى حوالي 125.000 شخص من السكان المحليين الحقبة الشيوعية مدفونين في جيب عرقي صغير ضمن مقاطعة ستافروبول، وفقدوا الكثير من هويتهم وثقافتهم. يقول محمد خافسييف، وهو شيخ قرية في أدبيجي، ويقال إنه علّم نفسه بنفسه: "بالطبع، كان الإيمان أكبر قبل الثورة الشيوعية".

تغاية سنة 1991، لم يكن مسموحاً لنا بإظهار إيماننا. كان يوجد مسجد كبير على بعد خمسين متراً من هنا. كان هناك أربعة مساجد أخرى في القرية. وليام للجمعة، كانت تقام صلاة ضخمة في المسجد الكبير، أما في الأيام الأخرى فكان للناس يذهبون إلى المساجد القريبة من بيوتهم. تم تحويل المسجد الرئيسي في بادئ الأمر إلى مدرسة، ثم بعد 10 سنوات تم إغلاقه. لم يكن لدينا دين لمدة 75 سنة. ولم يتبق سوى مسجد واحد، لكن لا أحد يذهب إليه. وما زال كبار السن لا يجدون راحة بالوقوف والصلاة لله تعالى، لكن الأمور تستقيم الآن خصوصاً مع الأطفال".

في ميكوب، عاصمة أدبيجي، ولد المفاتي، ساجد خواجه، وهو عضو من شتات أدبيجي في سوريا. تحدّث إلينا بالأدبيجية، التي تراجعت عبر الأجيال منذ القرن التاسع عشر، ولكنه لا يعرف الروسية. يقول المفاتي ساجد خواجه "أتيت إلى هنا سنة 1990 من سوريا. وأعتبر هذا المكان وطني. ورغم أن العيش في سوريا أسهل، إلا أنّ أرضنا المعلقة قلوبنا بها".

سألته فيما إذا كان متفاجئاً من مستوى معرفة الإسلام في أدبيجي، خصوصاً أنه قادم من الشرق الأوسط. يقول: "يرغب الناس بالعودة إلى الإيمان، وتتمّ مراسم الدفن الآن بشكل لائق. لكن في الوضع الحالي لا يمكن تعويض كل شيء، وليس لدى الناس الوقت أو المال للتركيز وقبول الإسلام. إنهم يفكّرون بأشياء أخرى". هناك صعوبات أيضاً بالحصول على تمويل لبناء المسجد الكبير في ميكوب، ويقع موقع البناء مهجوراً خارج مكتب ساجد الصغير. على كل حال، تمّ بناء سبعة مساجد في القرى النائية خلال ست سنوات، كما قال.

هناك مشاكل مشاهة في كاراشاي، والتي تضررت ثقافتها كثيراً أثناء التهجير، ولا يزال بعض مواطنيها يعتقدون أنهم لا يستطيعون الصلاة بحرية. كان كبار السن يخافون من الاستخبارات السرية، فيما بدت الرهبة على الجميع من الحرب في الشيشان، والتي يرون فيها حرباً ضد الإسلام. يقول كزبك شاماتيف، الشيخ المضيف في قرية كاراشايفسك أن للمساجد أعادت فتح أبوابها بدءاً من سنة 1992 فقط.

"لشباب هم الذين يهتمون، فيما لم يتغلب للكبار على مخاوفهم. في تلك الأيام، كان يتم إلقاء القبض على من يصلي، وكلن الجميع يصلون سرّاً، ولم يستطيعوا التغلب على ذلك. قبل وقت قصير، أتى شيخ من دمشق لزيارتنا، ولكن كبار السن كان لديهم شكوك حوله. هل هو شيخ حقيقي، هل هو شيوعي، هل أرسله أحد ما؟ بالنسبة لعدد كبير من الناس، ما زال الإسلام لا يعني الشيء الكثير. فبعد الثورة السوفييتية، قاموا بجمع كل كتبنا، ونسخ القرن، والمخطوطات وأحرقوها. كانوا يقولون لنا: "ليس لديكم أدب". ثم قتلوا كل المعتقدين. ولهذا لم يكن لدينا أي تعليم. اعتقد أنها كانت خطة روسية لنزع قوانين الشريعة منا، وجني المال من خلال بيعنا الفودكا".

لكن من جديد، يجتذب الإسلام بعض الشباب الذين يعتقدون أنه رسالة عظيمة. في شركسك عاصمة كاراشاي - شركسيا، تم افتتاح معهد إسلامي، وتقوم مجموعات من الشباب بالحج إلى مكة كل سنة. في مسجد مؤقت في مدينة المعرض القديمة في كاراشايفسك، تتراوح أعمار كل الرجال الذين يصلون بين العشرينيات والثلاثينيات من العمر.

كازبك نفسه رجل شاب يتقّف نفسه بنفسه. يقول: "عندما كنت صغيراً، رأيت جدتي تصلي وهي خائفة من أن يراها أحد. وقد أثر بي ذلك المشهد. ترعرعت كملحد، ولكن بطريقة ما بقيت تلك الصورة عالقة في ذهني. في أحد الأيام مرضت، وبقيت في المستشفى بضعة أشهر. كان إلى جانبي هناك أحد كبار السن الذي كان محتضر، وأبينه يكتب شيئاً بالعربية ويصلي. سأله عما يفعله، فأجابني: "أصلي لله. وطلب مني أن أتذكر تلك الصلوات، وأنا ستحميني من الشر. تذكرت تلك الآيتين، وبدأت بدراسة العربية شيئاً فشيئاً. وعند السماح بذلك قبل بضع سنوات، وجدت ترجمة روسية للقرآن الكريم".

تكرر السيناريو في كاباردينو - بالاكاريا، الجمهورية المجاورة. ويقول نصر، وهو رجل في منتصف العمر، والذي شعر بأن صحوة الإسلام لم تصله إلا بشكل متأخر: "يذهب الشباب إلى تركيا وأماكن أخرى لتعلم القرآن الكريم. إنني أبلغ من العمر 44 سنة، ولا أعرف القرآن الكريم. ولم أتعلمه قط. أنا أؤمن بالله، لكنني لا أعرف كيف أصلي. تسعون بالمئة من أصدقائي لا يصلّون أيضاً. لقد كنا نعيش في الانحداد السوفييتي، إذا كنت تعرف ما أعني. وأتذكر جذّي تصلي، لكننا لم ندرس اللغة العربية أو التركية في المدرسة، ولا حتى أي شيء آخر يتعلق بالدين. لم يكن هناك دين في مجتمعنا. ويبدو الآن أن أولئك الصغار الذين يذهبون إلى تركيا وأماكن أخرى ويعودون بالمعرفة منتشرون في كل مكان. في الماضي، كان شيوخ الدين رجالاً في الخمسين من العمر، وهم الآن لا يتجاوزون 25 سنة".

كما كان الحال في الماضي، كان الجزء الشرقي من المنطقة المتمثل في الشيشان، وداغستان، وأنغوشيا هو الذي مهد الطريق للجميع. لقد امتلكت تلك الجمهوريات، التي انتشرت فيها الطريقة الصوفية، القدرات التنظيمية والتقوى لدى تابعيها لتقاوم عقوداً من الشيوعية. فيما لم يكن الإسلام في النصف الغربي المتمثل في كاباردينو - بالاكاريا، وكاراشاي - شركسيا، وأديجي عميق الجنود أو محصناً أمام النفوذ الشيوعي. في الجمهوريات الشرقية، كان الإسلام أكثر وضوحاً في الحياة الوطنية. كانت النساء يضعن الحجاب، رغم عدم تغطيتهن للوجه، وكان العديد من الرجال يرتدي طاقية الصلاة. كان من الشائع رؤية الرجال يصلون على جوانب الطرقات، أو في أي مكان آخر، وذلك في أوقات الصلاة المسماة فامااز. توافد المترسون من المملكة العربية السعودية ومناطق أخرى في الشرق الأوسط إلى المنطقة، وكان لهم تأثير كبير في الجامعات والجوانب الأخرى من الحياة العامة، كان هناك إحياء للشريعة الإسلامية في أجزاء كبيرة من الشيشان.

أثارت قوة وسرعة انتشار الإسلام الدهشة، لكنها لم تكن دون تفسير، لأنه كان مزدهراً دائماً بشكل سري. كان الحفاظ على الدين أساسياً خلال التهجير، لأن الإسلام في شمال القوقاز متمازج تماماً مع الهوية العرقية. كان فقدان الإيمان يعني فقدان كل شيء، والحفاظ عليه يعني إنقاذ أمة. يقول رجل عحوز من

بالاكاريان نجا من التهجير: "كنا جميعاً مسلمين وساعدنا بعضنا البعض، وكنا نقوم بصلواتنا نوماز بشكل سرّي، ونُغلق الأبواب والنوافذ. تمّ اعتقال بعض شيوخنا، ولكن معظم الناس حافظوا على تقاليدهم وإيمانهم بتلك الطريقة".

كان الشيشانيون والأنغوش بشكل خاص قادرين على النجاة بفضل العالم الروحاني للأخوية الصوفية، وبفضل التنظيمات السرية، والمتعصبة في بعض الأحيان، والتي قادت المقاومة ضد الجيوش القيصريّة وبعدها البلاشفة. لدى عودة المهجّرين إلى أوطانهم في أواخر خمسينيات وبداية ستينيات القرن العشرين، انتشر بينهم ما يعرف بالإسلام الموازي، أو قيام جماعات صغيرة بالعبادة على الطريقة الصوفية سرّاً، في المنازل الخاصة عبر الشيشان، وأنغوشيا، وفي جبال داغستان أيضاً.

أصاب الإحباط المخططين السوفيات من هذه الانتهاكات كما كانوا يدعونها. قاوم أهل شمال القوقاز، الذين كان يُفترض بهم أن يكونوا مثلاً يُحتذى للمواطنين السوفيات، الزواج من أديان أخرى، أو حتى من أعراق مختلفة. كانوا يقومون بحراسم الدفن على الطريقة الإسلامية، ويزورون الأماكن الصوفية المقدّسة والتي كانت في معظمها مقابر المريدين، وهم المقاتلون المناهضون للروس أو السوفيات. نقل روبرت كونكويست، في قتلّة الأمم، سنة 1973 تعليقاً في صحيفة سوفياتسكي داغستان يعكس الغضب الشيعي:

"قسي للمنفوت الأخيرة، كانت الإمبريالية تحاول إدخال نظرية حديثة صغيرة إلى الاتحاد السوفييتي تدعى الحاجة إلى رفض للنسق للوحد. يدّعي هذا المفهوم البرجوازي للغوضوي... تفوق الحرية الفردية... ووفقاً لهذه النظرية، فإن المؤمن مسؤول أمام الله وحده، ولأن الحكومة - للحكومة السوفييتية، ليست قوة برجوازية - فإنها لا تستمد شرعيتها من الله، لأنها تعمل ضد إرادة الله، ويجب عصيان أوامرها. يروج بعض عناصر المريدية المتطرفة لهذه النظرية في داغستان ولشيشان".

رغم إعلامهم الجهاد المقدّس، إلا أن شعوب شمال القوقاز تمتعت تقليدياً بالتسامح الديني. كان هناك علامات تحذير في تسعينيات القرن العشرين بأن إحياء الدين القوي، والمتطرف في بعض الأحيان، قد يهدد هذه الميزة. في سنة 1997، وفي

قرية بوبناكسك، دفن جمهور مسلم غاضب شخصين، رجلاً وامرأة، حين في الجامع الرئيسي. اقم العامة الشخصين باختطاف الأطفال لبيع أعضائهم، ولكن الكنيسة ألقت باللوم على التعصب الشيشاني، قائلة إن عائلة المرأة التي ماتت تبرت منها.

سورخوخي، أنغوشيا

عمل الصوفيون سرّاً لأن السلطات القيصريّة منعت نشاطهم. ولاحقهم الصوفيّات دون هولاة لأنهم كانوا يعتبرونهم أعداء للدولة، وأنهم يقفون خلف الكثير من عمليات المفلومة. في الشيشان، يمكن رؤية الكثير من طقوس الدراويش، والذكر هذه الأيام. لكن ما زال الصوفيون يتسلحون استعداداً للحرب؛ للحرب ضد الروس.

الوضع مختلف في أنغوشيا، ورغم الشعور بانتشار الصوفية في ذلك البلد، إلا أن ذلك ليس واضحاً للعيان. وهم موجودون وغير موجودين في كل مكان. حالما يبدأ أي شخص بتوجيه الأسئلة، سينظر إليه الناس هناك نظرات غريبة، ولن يحصل سوى على بعض الأجوبة المتضخمة التي لا تشجع على طرح المزيد من الأسئلة. هل هم جهلة، أم أنهم لا يرغبون بالحديث بكل بساطة؟ ولا تحصل على جواب على ذلك أيضاً. إنه جزء من الجدار الصوفي الذي أبعد جهاز الاستخبارات السوفييتي كي جي بي، والجدار الذي حمى المؤمنين خلال التهجير إلى آسيا الوسطى. إنه الجدار الموجود في روح أمة شمال القوقاز. تلك الروح التي علّنت بالرغم من تدمير روحهم الظاهرية.

تعتبر الحاج بطل واحدة من أشهر الجماعات الصوفية في أنغوشيا. فقد حصلت على نسخة مكتوبة من التعاليم والمعتقدات الروحية السرية بعنوان للصوفية في الاتحاد السوفييتي، لمؤلفيه ألكسندر بينيمين وإندرس ويمبوش. الحاج بطل هي: الجماعة الجهادية الأنقى في كل الطريقة الصوفية. وتقودها عائلة بيلخوريف في قرية سورخوخي الأنغوشية، والتي فاقت سمعتها الأفاق. أنشأ بطل، الذي ذهب إلى مكة وأصبح حاجاً، الجماعة سنة 1867، وكرّس نفسه لقتال الروس الملحدين. حذا جميع أفراد الأسرة حذوه، ومات العشرات منهم على أيدي الروس أو الصوفيّات.

تحولت سورخوخي لتصبح متاهة من المنازل الأنيقة المبنية من الحجر والمزارع على سفح جبل خصيب. ولا وجود لإشارات عن المحاربين المتعصبين، أو الجماعات المناهضة للروس. في الحقيقة، يبدو المكان هادئاً ومزدهراً. سألت مع سائقي الأنغوشي لول قروي صاندا: هل تستطيع إرشادنا إلى المكان الذي يعيش فيه بيلخوريف؟ وقال: قسّي الأعلى هناك، وهو يشير إلى طريق موحد يتعرج ضمن متاهة المنازل. حالما وصلنا إلى هناك، كان علينا أن نسل مجدداً. من هناك. ودخلنا في شارع أصغر من

سابقه، لكن لا شيء يدل على أننا وصلنا. بدأت أفقد أعصابي مرة أخرى. إنه السؤال القديم ذاته: هل يجهلون الاتجاهات الصحيحة، أم أنهم لا يتكلمون؟ وسألنا مجدداً، ولخبرونا: "انتظروا هنا".

قبل أن يمر وقت طويل، ظهر فتى حليق للرأس وقال: "من هنا". جرى نزولاً في الزقاق الموحل، وتبعناه ببطء بالسيارة إلى ساحة كبيرة، تشكل نموذجاً للمساحات في شمال القوقاز. خلعت حذائي ودخلت، ولجستني امرأة في غرفة عالية السقف على أحد جدرانها سجادة وعلى الجدار الآخر صورة كبيرة لمكة المكرمة.

عندما دخل أحمد بيلخوريف، وهو قائد جماعة الحاج بطل بالورثة، كان أول شيء قام به هو واجب الضيافة، وسألني فيما إذا كنت أرغب بتناول الطعام أو شرب الشاي. أراد لاحقاً أن يعرف كيف وجنته. كان من الواضح أنه لم يصدق أنني ببساطة أخذت الاسم من كتاب غربي عن الصوفية. وبالطبع لم يكن للكتاب معي، ولم أستطع إثبات صحة ما أقول.

رغم أن بيلخوريف رجل عجوز، إلا أن يديه متينتان وقويتان. تحدثت معي في مواضيع شتى، ونادراً ما أجاب على أسئلتني، ولكنه قال الكثير ولم أقاطعه. لقد سخر من الأميركيين، واليهود، والروس ومن الأوميين خصوصاً، الذين وصفهم بخونة القوقاز لاحتضانهم المسيحية وروسيا. كان فخوراً بالأنفوش بشكل مبالغ فيه. كنا أول الشعوب على الأرض. وعندما انتهت إلى أنني أسجل الملاحظات، ارتفعت حرارة حديثه، وسألني فيما إذا كان باستطاعتي العودة في اليوم التالي. عندها فقط لاحظت وجود عصابة ملتصقة تحت قبعة الصلاة من الخلف، وهي علاج تقليدي للكلم. وقال لي: "لدي صداع".

في اليوم التالي، كان بيلخوريف ينتظر، وحالما جلسنا معاً، أخذ يخبرني عن ربه، والضئيفة التي حملها وسلفه التقى الحاج بطل، وأظهر لي صورة قديمة له يرتدي لباساً شركسياً لسود، ويبدو وجهه جميلاً لكنه قلس قليلاً.

"عندما بدأوا بسحقنا، جعلنا ديننا أقوى، ووجدنا كشعب واحد. كنا نقسم الخبز بيننا. في كازاخستان، إذا عرفنا بأن قرية ما جائعة، كنا نتسلل في الليل من خلف الحراس ونمنحهم الطعام. لقد جعلنا الله أقوى".

يقول القرآن الكريم أنه إذا جاء الكفار إلى أراضيكم وتمرّ شعبكم، يجب عليكم إعلان الجهاد، أو الحرب المقدسة. وهذا ما حدث في الشيشان وهنا. وخلال التهجير، جاء الروس بالجرافات ودمروا كل مقابرنا وأثارتنا القديمة. لقد أرادوا تدمير ثقافتنا. لكننا عننا وبنينا كل شيء من جديد. هم يدمرون الشيشان مجدداً الآن. لكنهم لا يستطيعون هزيمة الشيشانيين والأنفوش، لأنهم دائماً ينتفضون ويأخذون بالثأر".

تلبس قاتلاً: "لنتبه، قاتل الحاج بطل خارج هذا المنزل الجنود القيصريين لثلاثة أيام، وقُتل 40 من أبنائه وأقاربه منذ ذلك الحين. قتل الشيوعيون والدي، ووضعوني في السجن لمدة ست سنوات ونصف في نورلوك".

تقع نورلوك في أقصى منطقة القطب الشمالي، وهي منطقة متجمدة دائماً. يرتبط اسمها بالنسبة للروس بالحجم. تتركز في 29 يوماً على أرضية خرسانية في منتصف الشتاء لأموت. لكني بقيت على قيد الحياة. في إحدى المرات، كان هناك الكثير منا نحن الأتفوش معاً، وأقمنا الذكر في السجن. طلبت من الحراس بكل بساطة أن يبتعدوا عنا. لقد كانت تلك شؤنا الخاصة كما تعلم".

في سنة 1974، قمت بالحج إلى مكة المكرمة. كنت أول الشيشانيين أو الأتفوش الذي يقوم بذلك للرحلة. ثم ألتفتهم بأن يسمحوا لي باصطحاب الآخرين. في سنة 1975، أُنعت السلطات بفتح المساجد، بمعدل مسجد واحد لكل منطقة. بدأنا تدريجياً بفتح المساجد في كل قرية، والمعاهد الإسلامية والمدارس. كان الإسلام يولد من جديد. لكنني لم أَسعد الإسلام، لأنه كان موجوداً هنا على الدوام. كان هنا، سراً، طوال الوقت".

تزوج بيلخوريف ثلاث مرات. ولم تتجب أول زوجتين له الأطفال، فيما أُنجت الثالثة سنة. يقول إن الحاج بطل لا يستسلم بسهولة. فقد رأيت مسجده في القرية، والذي يعود تاريخ إحدى المآذن فيه إلى زمن الحاج بطل نفسه، فيما تمّ بناء المآذن الأخرى تحت رعايته. تغطي المساجيد، من كل الألوان، الأرضية في الداخل، وهناك طابق في الأعلى، حيث يصلي الأطفال، وهو شبيه بالشرفة المرتفعة، ويمتد على مسافة 50 متراً ومبني من أخشاب لامعة منقوشة وجديدة. في المساحة، هناك مدرسة، أو معهد ديني، وهي مليئة بالأطفال الصغار الذين يرتدون قمصاناً بيضاء، ويتعلمون العربية من شاب يافع يرتدي ملابس بيضاء أيضاً. وقفوا جميعاً على أقدامهم عندما دخلنا.

ذهبنا إلى المقبرة الواقعة على هضبة خارج سورخوخي، والتي يوجد عند مدخلها مسجد صغير تمّ بناؤه حديثاً للحجاج، الباب مقفل دائماً بصخرة صغيرة. الحاج بطل مدفون في آخر المقبرة، وتغطي الكتابات العربية شاهدة قبره، المطلية باللون الأخضر، ويوجد فوق القبر قبعة معدنية بلون ذهبي مصقول، ويرقد إلى جواره زوجته وثلاثة من أبنائه.

عندما كنا نغادر البلدة، توقفنا عند كومة كبيرة من الحجارة المنقوشة إلى جانب الطريق تماماً. إنها شواهد قبور الأتفوش التي تحطمت خلال التهجير. سألت بيلخوريف فيما إذا كان قبر الحاج بطل قد بُعثر أيضاً. وأجابني: لا شيء يستطيع إلحاق الأذى بتلك الصخور. سيفضل كل من يحول، وسيشعر كما لو أنه تلقى ضربة على الرأس. وستصاب عائلته بالأمراض".

انتشر هذا الانبعاث الديني، الذي اجتاحت المنطقة في نهاية ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن العشرين، في أوسيتا الشمالية أيضاً رغم أنها الجمهورية الأكثر تأثراً بالروسنة، لكن مع اختلاف واحد؛ أن للوثنية بقايا داخل النفس الأوسيتية. رغم أنهم يوصفون عادة بالمسيحيين، إلا أن الأوسيتيين في الحقيقة مزيج من المسيحيين والمسلمين وأتباع ديانات أخرى، إنهم يعبدون آلهة ما قبل المسيحية والأشجار.

أشهر عناصر التقاليد الوثنية هي ديانة واسترزي، الذي يقع روضه المقدس على بعد 30 كيلومتراً من العاصمة فلاديفقاز، ويعتبر واسترزي حامياً للمحاربين والمسافرين، ورمزاً للذكورة، وهو شخصية غامضة ترتبط بجنورها الهندو - إيرانية بعبادة الشمس، والقمر وآلهة الحرب وأبطال فاروت القدماء في القوقاز. إنه يظهر في أغلب اللوحات التي تصوّره فارساً من العصور الوسطى، طويل اللحية، مكشوف الأعضاء التناسلية، ويمتطي حصاناً أيضاً.

على أمل تحويل الأوسيتيين إلى المسيحية بشكل كامل، شجعت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية استبدال القديسين المسيحيين بالإله واسترزي وبقية الآلهة الوثنية، وعلى رأسهم خوسو، القدير. لكنهم عوضاً عن التحلي عن آلهتهم، قاموا بمزج القديسين، ونشأ عن ذلك هجين بين خوسو وإله المسيحية. تمثلت ذات الإله واسترزي في القديس جورج، فيما تبادل وسيلة إله الفلال والرعد الأدوار مع القديس إيليا.

لا حاجة لرجال الدين في المعتقد الأوسيتي الشائع. بعد فترة من الصيام الشديد والعديد من أنخاب الفودكا الدينية، تقوم العائلات والقرى الأوسيتية بتضحية الأغنام والثيران لهؤلاء الآلهة وتتضرع طلباً لمساعدتهم. يكون النخب الأول دائماً إكراماً للإله الرئيسي خوسو - وهو يقابل إله المسيحيين، أو الله لدى الأقلية المسلمة - والنخب الثاني للآلهة المحليين، الذين يتمتعون باختصاصات متعددة، تتراوح من جلب الحظ السعيد إلى المساعدة في الاستمطار، وإنقاذ المسافرين وحمايتهم من الأعداء. وهناك عدّة شوباراك، أو قوى الظلام؛ والتي "لا تظهر سوى للصوف"، كما قال لي أحد علماء الأعراق البدائية في فلاديفقاز.

لا يحظى أي إله بالاهتمام الذي يحظى به واسترزي. وتقول أسطورة الروضة المقدسة خارج فلاديفقاز أن هيتاك كان يهرب من أعدائه في القرنين الرابع والسادس عشر عندما صرخ واسترزي من الجبال وأخبره بأن يجنّباً هناك. انهار هيتاك مرهقاً على السهول قائلاً إنه لا يستطيع الاستمرار أكثر، وانحنت مجموعة من الأشجار (الغابات اليوم) بشكل إعجازي وخيائنه. وتقول إحدى نسخ الأسطورة التي سمعتها إن هيتاك كان كإبارد اعتنق المسيحية، وكان يهرب من أقربائه المسلمين، وتقول رواية أخرى إنه كان أبريقاً (قاطع طريق) فاراً. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الروضة كاتدرائية واسترزي نابضة بالحياة، وتذكراً لهيتاك، ومعبداً في الهواء الطلق للقديس جورج.

نُحت تلك العقيدة من الحظر الديني أثناء الحكم السوفييتي، ومن معتقد التقمص الذي يؤمن به الأوسيتيون. منذ العام 1991، يوجد عدة ادعاءات بقيام واسترزي بزيارة القرى، وتحولت الغابات، التي تسمى روضة هيتاك، إلى مكان مقدس. تتكوّن تلك الروضة من أشجار الدردار والزان، والتي تغطي أقل من 13 هكتاراً، وتأخذ شكل المثلث. تمّ بناء معبد مع عمود خشبي كبير مزين بالزخارف، إلى جانب قاعة كبيرة تأخذ شكل الذئب لإقامة الاحتفالات السنوية. وتزرع كل قرية شجرتها الخاصة في تلك الروضة.

قامت بزيارة خاطفة لتلك المنطقة بعد انتهاء الصيام، ووجدت المئات من زجاجات الفودكا، ولوازم الحفلات ملقاة على الأرض. بالرغم من فقدان سلال المهملات، يعامل الأوسيتيون روضتهم باحترام وتبجيل ديني كبيرين. وجدت داخل المعبد القريب من الغابات رجلين في منتصف العمر واقفين أمام العمود المزخرف، وأيديهما مرفوعة في الهواء. بعد فترة قصيرة وضعنا بعض النقود في صندوق تبرعات تحت لوحة ضخمة لواسترزي. ينهض المؤمنون الذين يجرّون على الطريق الرئيسي، على بعد كيلومتر تقريباً من الروضة، من مقاعد سياراتهم ويتمتمون ببعض الصلوات لواسترزي. ممنوع عليهم كسر أي غصن من أشجار الغابات المقدسة، والتي يتمّ تزيينها بالشرائط ولوحات القديس جورج والتين. بسبب قوة خصوبته، لا تستطيع النساء التلفظ بكلمتي هيتاك أو واسترزي، وكان

هناك موجة من الضحكات الخجولة في كنيسة أرثوذكسية أوسيتية في فلاديفقاز عندما سألت راهبة - وكان سؤالاً بريئاً بالطبع - إذا كانت تستطيع شرح مسألة واسترزي لي. قالت الراهبة وهي تعدّل وضعية وشاح رأسها بعصبية: "ممنوع علينا قول اسمه، ليفغر لي الرب".

يقول مورخ محلي شاب في فلاديفقاز: "عندما كان الإلحاد في أوج قوته، كان هناك عائق حقيقي أمام التقاليد المحلية. كان أول أمين عام للحزب الشيوعي في أوسيتا روسياً. لكن الأمور تعود إلى نصابها الصحيح الآن. يقول رئيسنا (أوسيتا الشمالية) إنه مسيحي، لكنه يشارك أيضاً في احتفال واسترزي، ويحتل الإله واسترزي موقعاً مهماً جداً بالنسبة لنا، وتقول جدتي، مثلاً، إنها رأت باب السماء مفتوحاً، وأنه كان يقف هناك. ما تزال القرى تراه بين الغينة والأخرى. إنه يعود دائماً، وفي الحقيقة إنه لم يغادر أبداً. وخلال زمن السوفييات، كان ربّ (صاحب) المنزل يجمع عائلته ويصلي له ويشرب نخباً".

لم تكن تلك المعتقدات مثار إعجاب الروس أو السوفييات قبلهم. لكن الجميع يعرفون بأن سكان أوسيتا الشمالية - بمعتقداتهم تلك - يشكلون متراًساً ضد ثورات المسلمين، وهم دائمو الانشغال بالصلوات للأشجار ورفع كؤوسهم المليئة بالقدح كما لرجل يظهر من الغيوم على حصان أبيض.

فلاديفقاز، أوسيتا الشمالية

توقفت عند كنيسة أرثوذكسية روسية في فلاديفقاز، وطلبت رؤية الكاهن. ظهر لي رجل نحيل أشقر الشعر، أزرق العينين، يرتدي رداءً لمود. سألته عن رايه بواسترزي إلى جانب المقارنة الاستثنائية مع القديس جورج. أجابني الكاهن، مدافعاً مباشرة، وبأسلوب بيروقراطي لم أتوقعه: "هناك أساطير، لكن لا يوجد ما يؤكدّها. نحن لا نراها من الزاوية نفسها، إننا نعتقد بتحريم الصلاة له لأنه لا يوجد دليل حقيقي عليه".

سألت عن سبب تشبيه الأوسيتيين للإله واسترزي بالقديس جورج. فقال الكاهن: "هناك الكثير من المعتقدات المشابهة بين الناس البسطاء، حتى إذا لم تكن منطقية. هناك دائماً أشياء غريبة وتعتب مثل هذا. نحن نصلي للقديس جورج، ولكن ليس لذلك الرجل على الحصان الأبيض لأن لا علاقة لنا به".

3. الاكتشاف والإصلاح

تتألف اللقطة الشوكية للتارية من ثلاثة براعم وتبدو إحداها مكسوراً فيما تبدو بقية المساق مثل نراع مبتورة. هناك زهرة على كلا البرعمين اللبيين. تكون الأزهار حمراء في البدية، ولكنها سوداء الآن. كان أحد الأغصان مكسوراً ويتنلى نصفه الأعلى مع الزهرة للتارية إلى الأسفل، وما يزال الغصن الآخر، والذي يكسوه الفحل الأسود، قائماً... ويبدو كما لو أن جزءاً من الجذع قد تمزق، وبرزت أجزاؤه الداخلية للخارج، وكما لو أن هناك نراعاً مبتورة وعيناً جاحظة. لكنه رغم ذلك لا يزال قائماً، ولن يستسلم للإنسان الذي يهر كل لبناء جلسه من حوله.

من كتاب الحاج مراد لتولستوي.

انبثقت الجماعات العرقية في شمال القوقاز بنفس الطريقة التي انتشرت بها المساجد في الأماكن التي كان الدين محظوراً بها، واحدة تلو الأخرى، مؤكدة على هوياتها المتميزة. انكشفت ضحالة الوحدة السوفياتية بين ليلة وضحاها. كانت رحلة إعادة اكتشاف الذات بالنسبة للأقليات اليهودية الجبلية والعرقية الإغريقية مذهلة. يعتز اليهود الجليون، المعروفون على نطاق واسع باسم التات، إحدى أصغر الأقليات مع عدد لا يتجاوز 18.000 نسمة، ولكنهم حافظوا بشكل مذهل على اليهودية واللغة الفارسية التي أتقنها منذ ما يزيد عن 1000 سنة مضت في بلاد فارس. كانت نهاية القيود السوفياتية على الثقافة والدين تعني أن التات، المنتشرين حول ديربنت في داغستان وناشليك في كبادرينو - بالاكاريا، يستطيعون مجدداً افتتاح المراكز الثقافية وإصدار صحيفة خاصة بهم. لكن استعادة الهوية الحقيقية كانت تتطلب خطوة أكبر بكثير تمثل في مغادرة شمال القوقاز والهجرة إلى إسرائيل ليكتشفوا هويتهم كمواطنين إسرائيليين يتكلمون العبرية، وهو ما كانوا يفعلونه في الماضي. من بين 14.000 يهودي جبلي كانوا موجودين في ناشليك في سبعينيات القرن العشرين، لم يعد هناك سوى 4.000 منهم عندما زرت المدينة سنة 1996. بدا أن اليهود الجليين انتظروا العودة إلى وطنهم طوال تلك السنين.

تنتشر الجماعة العرقية الإغريقية في نفس المواقع التي كان يرثاها أسلافها، لقد قطن اليونانك التحذرون من الإغريق في الأناضول فيما يعرف الآن باسم

تركيا، وفي شبه جزيرة القرم، وساحل القوقاز منذ 3000 سنة مضت. كان هؤلاء تجاراً، وجنوداً، ومستوطنين ما تزال مساحهم، ومعابدهم، وحصونهم المدمرة تنتشر حول البحر الأسود. استطاع الإغريق النجاة عصراً بعد آخر حتى حصول كارثة القرن العشرين المتمثلة في الطرد الجماعي لكل البونتك سنة 1923 من تركيا (وتم طرد كل الأتراك بطريقة مماثلة من اليونان)، والذي تبعه عمليات قمع وتطهير لهم في عهد ستالين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين. حتى أثناء ذلك، حافظ بونتك الاتحاد السوفياتي على هويتهم الإغريقية، رغم عدم ذهابهم إلى اليونان واختلاف لغتهم المحورة عن اليونانية الحديثة.

فتحت سياسة المكاشفة الفصل التالي من حياة البونتك، ومنحهم حق العودة إلى اليونان، والعودة إلى بحر إيجه لإغلاق الدائرة التاريخية. خلال السنوات السبع الأولى من الهجرة، التي بدأت سنة 1989، قام حوالي 90.000 بونتك بالرحلة، والتي كان لها اسم خاص في اليونان - بالينوستسي. وعلى غرار اليهود الجليلين، دخل البونتك بلداً أجنبياً بالكامل، وشعروا بأنهم غرباء عملياً وتمت معاملتهم على هذا الأساس أيضاً. ما يثير السخرية، والحزن في الوقت نفسه، أن لهجتهم التي صمدت طوال تلك العصور قد شارفت على الموت الآن لأن الوافدين الجدد قرروا التخلي عنها.

لا تتطلب عملية التجديد الثقافي والروحي من الشيشانيين، والبالاكار، والأديجي وبقيّة سكّان الجبال السفلى، ولكنها إلى حدٍّ ما كانت مخوفة بمخاطر أكبر. حصلت الأوطان أخيراً، والتي تدعى الآن جمهوريات، على حكم ذاتي حقيقي وليس صوري. ولكنّ القادة الوطنيين ارتأوا الذهاب إلى أبعد من ذلك بكثير مزودين بدعم شعبي كبير. لقد سعوا إلى تحقيق استقلال الجمهوريات التي مزقتها السوفيات على قاعدة فرق تسد، والتي حصلت فيها مجموعات لا تمت لها بصلة على أراضي كانت ملكاً لجماعات أخرى تمّ انتزاع أراضيها منها خلال التهجير. أرادوا الحصول على استقلال سياسي أوسع، أو في بعض الأحيان، قطع العلاقات مع روسيا. كانت الكلمة الشائعة بعد جرائم القياصرة، وستالين وعمليات النفي والتهجير هي ريميليتاتسيا أو الإصلاح.

يبدو مصطلح تقرير المصير العرقي جديراً بالاهتمام، ولكن باستطاعة أي شخص أن يلحظ مباشرة أن مطالب إحدى الجماعات تمثل انتهاكاً لحقوق جماعة أخرى في مكان معقد مثل شمال القوقاز. هذه هي القنبلة الزمنية الخفية في خريطة ستالين. يتطلب تقليل المخاطر وبناء فيدرالية روسية ديمقراطية التعاون الكامل بين السلطات المركزية والجهليين، ولكن موسكو التي تعاني نفسها من الاضطرابات السياسية، وقفت على الحياد. ربما يعود السبب إلى أنه من الأسهل تجاهل شمال القوقاز عوضاً عن إصلاحه، وربما لأن روسيا ما تزال تتأرجح بين الماضي الاستبدادي والمستقبل الديمقراطي، وسيكون لفشل المركز نتائج مأساوية.

تنقسم داغستان، التي يبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، إلى 34 قومية مختلفة. هناك تقديرات غير رسمية تقول إن عدد القوميات يفوق 100. وتقع أرض الجبال فوق نفط أذربي، وعلى مسارات سكك الحديد والطرق، فيما تعتبر العاصمة مكشاكالا الميناء الروسي الأخير الذي يعمل على مدار السنة على بحر قزوين. يبدو الوضع الداخلي متفجراً، وهناك حقد سياسي ومناطقى دفين بين الجماعات العرقية الرئيسية، والتي قامت بإنشاء أحزاب قومية عرقية تبعاً لمصالحها السياسية والاقتصادية، وأحياناً العسكرية. هناك 34 قومية، وكلها في مساحة أصغر من أسكتلندا. تمتلك الجماعة الأكبر - الآفار - تنظيمًا يدعى الجبهة الوطنية تيمناً بالإمام شامل، والتي تقول التقارير الروسية إن عدد متسبيه يصل إلى 10.000 مقاتل.

كما هو الحال في كل مكان، اختلطت الأمور في داغستان نتيجة التأثيرات اللاحقة لهندسة ستالين المجتمعية. عندما تم اقتلاع الشيشانيين القاطنين في داغستان وتحجيرهم إلى جانب بقية شعبهم سنة 1944، نزلت الجماعات الأخرى، وخصوصاً اللالك، من المناطق الجبلية لتحتل قرى الشيشانيين الفارغة في السهول. لم يكن لدى تلك الجماعات أي خيار آخر. كان الكرملين قادراً على تحريك القوميات بنفس الطريقة التي يحرك بها الموظف الأقراص على طاولة لعب القمار.

عندما تم السماح للشيشانيين بالعودة، حاولوا استجداء أو شراء منازلهم القديمة. في الغالب، كان عليهم بناء قرى جديدة بالكامل، لكنهم لم ينسوا أبداً

منازلهم وممتلكاتهم الأصلية. يقول مراد، البالغ من العمر 44 سنة، والذي يعيش في قرية نوفوسلسكوي المبنية في السهول شمال خاسافيورت، أن والده عاش في كالينين أول قبل التهجير. "تم إجبارهما على الرحيل مشياً على الأقدام، والسير إلى محطة القطار ليتم ترحيلهما، وحالما أصبحا في عربة القطار، احتل الآفار منزلهما فوراً". لكن ذلك المنزل، الذي لم يعيش فيه إطلاقاً، ما زال يمثل هاجساً لمراد. "جميعنا نعرف المنزل، ولقد ذهبنا إلى هناك وألقيت نظرة، ولم ننسَ ما حدث إطلاقاً؛ قام جدّي بدفن أسلحته الشخصية هناك".

سبب قرار الحكومة الداغستانية سنة 1992 بإرجاع ممتلكات 57.000 شيشاني محلي قرب الحدود الشيشانية الداغستانية، وإعادة توطين اللاك في السهول قرب مكشاكالا غضب مجموعة ثالثة هي الكوميك. ويعتبر الكوميك، وهم شعب ناطق باللغة التركية، هذه السهول التي سيقطنها اللاك أراضي تابعة لهم. كان نفوذ الكوميك يتناقص هناك على مدار السنين، أولاً بوصول الآفار، الذين أجبرهم الشيوعيون على النزول من الجبال بالقوة، والآن من قبل اللاك. يعتبر الكوميك أنفسهم الآن أقلية في أرضهم الخاصة.

تم تأسيس حزب كوميك وطني يدعى تينغليك سنة 1989، ويطالب بدولة منفصلة لهم على بحر قزوين تتمتع بالحكم الذاتي، ويهدد باستخدام القوة لمقاومة نفوذ اللاك. يعمّق هذا من العلاقات المتوترة أصلاً بين الكوميك والآفار، الذين يهددون بالاستعانة بمجبهة الإمام شامل. يعتبر ذلك مثلاً عن الحقوق المتوازية لكن المتناقضة لعدة جماعات: الحق المفهوم للقومية للسيطرة على أراضيها الخاصة؛ وحق الجماعات العرقية الأخرى بالاستيطان بحرية؛ وحق الحكومة الداغستانية بتقديم مصالح الجمهورية العامة على مصالح الجماعات العرقية الخاصة.

قد تنشأ مشكلة أكثر تفجراً أيضاً في أقصى الجزء الجنوبي من داغستان بسبب الخلاف على حقوق قومية الليزيغ التي تعيش في داغستان وأذربيجان أيضاً. يعيش الليزيغيون، الذين يبلغ عددهم رسمياً 466.000 نسمة، والذي قد يصل إلى مليون في تقديرات غير رسمية، في أقصى جنوب داغستان والشمال الشرقي لأذربيجان. عندما انفار اتحاد الجمهوريات الموفياتية، انقسمت تلك القومية بالحدود بين

روسيا وأذربيجان المستقلة، وأصبح من الصعب عليها فجأة زيارة بعضها البعض، أو التجارة فيما بينها أو إقامة أي علاقات أخرى. انتشرت الرشوة والتهريب عبر الحدود لدرجة أنه أطلق على المعبر الروسي الرئيسي لقب الجسر الذهبي. كان هناك مشكلة إضافية بالنسبة لـ 175.000 ليزغي في أذربيجان لأنهم مسلمون سنة، وجدوا أنفسهم فجأة بين الأغلبية الأذرية الشيعية.

رداً على ذلك، نشأت الجبهة الوطنية الليزغية سادفال لإعادة توحيد الليزغيين على كلا جانبي الحدود في منطقة تتمتع بالحكم الذاتي ضمن داغستان، والتي يجب إعادة تشكيلها نفسها لتصبح فيدرالية من جمهوريات مصغرة تتمتع بالحكم الذاتي ضمن روسيا. لهذا يهدد الطموح الليزغي ليس وحدة الأراضي الداغستانية وحسب، وإنما الأذرية أيضاً، والتي تقف بحزم ضد أي طموح من هذا النوع. تفضل موسكو، التي يعترها القلق من فقدان السيطرة على تدفق الأسلحة عبر الحدود وتهريب المواد الممنوعة، الوضع الراهن. وهكذا تبقى المشكلة دون حل مثل النار بلا دخان.

يتوقع البعض أن تحول داغستان إلى عشرات الدول اليوغسلافية المصغرة. وبكسل الأحوال، ساعد تعقيد الخريطة العرقية على منع حدوث أزمة لزم من طويل. ولا توجد مجموعة واحدة كبيرة بما فيه الكفاية لتهيمن على الجماعات الأخرى، وسيكون لادعاءات أي جماعة عرقية سواء كانت سياسية أو مناطقية انعكاسات سلبية لدى العديد من الجماعات الأخرى. يحكم الجمهورية مجلس وطني من 14 عضواً يمثل كل منهم واحدة من الجماعات العرقية الرئيسية، ولمنع جماعة واحدة من الاستئثار بكل شيء، صوّتت شعوب داغستان سنة 1992 بشكل ساحق ضد الملكية الخاصة للأراضي وضد وجود رئيس واحد، ولكن ربما يكون انتشار ثقافة غورتسي والدين الإسلامي العاملين الأهم اللذين يحافظان على الهدوء في داغستان. استطاعت العديد من الجماعات الوصول إلى قمة الحياة الاجتماعية بالقوة أو بالخداع. تسيطر الجماعات الأكثر عدداً على القوة السياسية الرئيسية والمصادر الاقتصادية الأوسع في الجمهورية. في بداية تسعينيات القرن العشرين، كان ماجومد علي ماجوميديف رئيس المجلس الحاكم، وهو قائد حكيم منذ أيام الحقبة

السوفياتية ومن العرق الدارغي (280.000 نسمة)، وكان رئيس الوزراء عبد الرزاق مبرزايكوف من قومية كوميك (232.000)، وكان الدارغيون مسؤولين أيضاً عن عمليات الجمارك المربحة. أما الآفار (496.000) كانوا مسؤولين عن شركة النفط الداغستانية، وكل قوات الشرطة والاستخبارات السرية الهامة. وكان ماجومد خاشيلايف يرأس لجنة صيد السمك المسؤولة عن جمع الكافيار في بحر قزوين، وهو بطل أوروبا السابق في لعبة الكاراتيه ومن قومية اللاك (92.000)؛ وكان نادر شقيق خاشيلايف الأصغر رئيساً لاتحاد مسلمي روسيا.

ثبتت موسكو أقدامها في داغستان، وكانت سياستها تعتمد على دعم الاقتصاد وعدم التدخل في الأعمال المشبوهة والنشاطات السياسية في الجمهورية التي تتمتع بالحكم الذاتي. بالمقابل، كانت السلطات المحلية موالية لسياسات الكرملين، وحافظت على استقرارها وتوازنها الداخلية. أثبتت الحكومة الداغستانية موالاتها في الانتخابات الرئاسية الروسية سنة 1996، وقد صوت الداغستانيون القرويون بشكل ساحق في الجولة الأولى لصالح منافس الرئيس بوريس يلتسن الشيوعي، وفي الجولة الثانية الحاسمة، كان يلتسن يحتاج لكل صوت، وعندما جاءت النتائج من داغستان، أظهرت انعكاساً كاملاً عن أرقام الجولة الأولى؛ وهي مفاجأة فقط لأولئك الذين يجهلون كيفية إدارة المنطقة.

لم يكن معروفاً إلى متى قد يستمر ذلك الوضع. ابتكر المتنافسون الذين يتمون إلى جماعات عرقية مختلفة نظاماً من التوازنات الدقيقة. لكن في نفس الوقت، تعرضت تلك الصراعات المعتدلة إلى خطر الخروج عن السيطرة. وفي غضون بضع سنوات من انهيار الاتحاد السوفياتي، أصبحت داغستان مكاناً ينتشر فيه العنف، والمنطقة الأولى في روسيا، باستثناء الشيشان، في معدلات القتل والاختطاف السياسي. لقد أصبح الإرهاب عملاً شائعاً.

إذا أخذنا مثلاً حالة غامد غاميدوف، رجل الأعمال الدارغي المشبوه والشهير، والذي ينتمي إلى قبيلة معروفة جداً، والذي بنى علاقات سياسية واسعة بحيث أصبح يهدد السلطة التي يمثلها ماجومد علي ماجوميدوف، وبقية النخبة الشيوعية سابقاً التي تشكل المجلس الوطني، ففي سنة 1994، احتل شعبه المرتبة

الثالثة في انتخابات البرلمان المحلي. ثم في آب 1996، كان غاميدوف، الذي استمرت شعبيته ونفوذه بالارتفاع طوال السنتين الماضيتين، يقف في قلب مكشاكالا عندما أودى تفجير سيارة مفخخة بحياته وحياة ثلاثة أشخاص آخرين وجرح 20 شخصاً. بالطبع، كما هو حال معظم الاغتيالات السياسية في داغستان، لم تتم إدانة أحد. ولكن مناصري غاميدوف توعدوا بالتأثر كما هو الحال دائماً في القوقاز الذي يبدو أنه لن يستقر قريباً.

ظهرت سطوة العصابات الإجرامية واضحة مجدداً في سنة 1996، عندما دمرت قبيلة موضوعة بعناية مبنى سكنياً في كازيزك على ساحل بحر قزوين. كان يسكن في ذلك المبنى ضباط حرس الحدود وعائلاتهم، وقُتل 67 شخصاً، من بينهم 21 طفلاً. كان الانفجار مروّعاً جداً لدرجة أن الناس اعتقدوا في البداية أنه مرتبط بالحرب في الشيشان، أو ربما بمحادث غريب، وتبين لاحقاً - وبشكل غير رسمي - أنه جزء من صراع المافيا، ودرس لحراس الحدود الاتحاديين الروس لمنعهم عمليات التهريب تلك السنة. مع الأخذ بعين الاعتبار موقع المحرم وحقيقة أن حرس الحدود يقومون بدوريات على ساحل بحر قزوين، قد يكون الجناة مرتبطين بمافيا الكافيار. بالطبع، بالرغم من الهدير العاصف في موسكو ومكشاكالا، لم يتم إلقاء القبض على أحد.

تعتبر الحدود المتوترة للجمهورية سرطاناً آخر ياكل استقرار داغستان منذ زمن طويل. قد تؤثر الفوضى في الشيشان المجاورة والطامحة لتحقيق الاستقلال على الاستقرار في داغستان بشكل خطير، والتي تعاني من استخدام العصابات الإجرامية أراضيها كسمر إلى روسيا، ومن انتشار الأفكار الانفصالية. تهدد العلاقات العابرة للحدود بين الشيشانيين الأصليين وأولئك القاطنين في داغستان بإضعاف وحدة أراضي الجمهورية. إلى الجنوب، تبدو مشكلة قومية الليزيغ المقسمة مثل النار تحت الرماد، وكلما طال انقسام هؤلاء الناس بين داغستان وأذربيجان، وفصلهم من قبل حراس الحدود الفاسدين، كلما أصبحوا أكثر دعماً لفكرة إنشاء ليزغستان الموحدة المستقلة. قد يؤدي ذلك إلى انفراط عقد داغستان كجمهورية. ولا تبدو موسكو في موقف المسك بزمام الأمور لمواجهة مثل هذا الموقف.

يقول الجنرال الروسي ليف روخلين عن السياسة في داغستان: "يبدو أن كل شيء معدّ للانفجار. من سيسمح لثيران الحرب بالاشتعال مجدداً في القوقاز؟... وفي الظروف الحالية في داغستان، فإن عدم انفجار الوضع في الجمهورية يمثل مفاجأة كبيرة". وتستمر ساعة القنبلة الموقوتة الداغستانية بالعمل.

"... قلما تمر ليلة دون أن يتم اختطاف أحد ما طلباً للعدوة"

للكمندر دوما في بلدة خاسافيورت الداغستانية سنة 1858.

سرى أي شخص واقفي في داغستان أن التقسيم سيقود إلى كارثة. بكل الأحوال، تم إجبار جماعتين عرقيتين مختلفتين على العيش معاً في جمهوريتي كاراشاي - شركسيا، وكاباردينو - بالاكاز، ويبدو أن تفكيك خريطة ستالين غير ممكن عملياً. كان شعب كاراشاي، الذين يبلغ عددهم 150.000، ويعيشون في الجزء الجنوبي الجبلي من كاراشاي - شركسيا، من أوائل الشعوب التي طالبت بإعادة رسم الحدود لاستعادة ما فقدته سابقاً. وفي تسعينيات القرن العشرين، تم السماح لهم أخيراً بإقامة نصب تذكاري للتهجير في مدينتهم الرئيسية كاراشافسك، وذلك بعد 50 سنة من وقوع الإبادة الجماعية. يوجد خارج البلدة تمثال لامرأة وطفل، للتذكير دائماً بالرحلة القاتلة إلى آسيا الوسطى. يوجد إلى الخلف من ذلك التمثال جدار تذكاري لرجال كاراشاي الذين ماتوا في الجيش الأحمر وهم يقاتلون النازيين، وعندما كان ستالين يقول إنهم يتعاونون. يعتبر النصب التذكاري بنفسه نصراً على الماضي، ولكن الأعشاب الضارة نمت عبر شقوق حجارة الأرصفة القريبة منه، ويبدو أن لا أحد يزوره. استغربت أن يكون الشعب الكاراشاي قد اعتاد تحمّل الألم داخل نفسه بحيث أتى النصب التذكاري متأخراً وأصبح لا يعني الكثير.

في سنة 1991، سمحت موسكو لكاراشاي - شركسيا بالانفصال عن سلطة منطقة ستافروبول والتحوّل إلى جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي الكامل - وهي بذلك قادرة على إدارة ميزانيتها الخاصة، وسن قوانينها المحلية، ووضع دستورها الخاص، وتشكيل حكومتها. قاد ذلك إلى تحسين حياة شعب الجمهورية، ولكن الكاراشاي الذين تقودهم حركة متطرفة تدعى جاماغات، كانوا يضغطون منذ سنة 1988

للحصول على المزيد، والانفصال لتشكيل منطقتهم الخاصة التي تتمتع بالحكم الذاتي في أعالي الجبال. لقد كانوا يتمتعون بهذه الاستقلالية قبل التهجير سنة 1943. وتم إجبار الكاراشاي بعد 14 سنة على العيش في جمهورية كاراشاي - شركسيا المشكّلة حديثاً آنذاك إلى جانب الشراكس والروس. يدافع قادة كاراشاي عن الفكرة قائلين بأن استعادة المنطقة القديمة ستكون بمثابة إغلاق الباب على الماضي الأليم. إنها عملية الإصلاح.

رغم عدم وجود سوى 415.000 نسمة في كاراشاي - شركسيا، إلا أن مزيجها العرقي معقد للغاية، ووفقاً لإحصاء سنة 1989، كان الروس يشكلون الأغلبية بنسبة 42%، يتبعهم الكاراشاي بنسبة 31%، والشراكس بنسبة 9% والآباز، وهم مجموعة أخرى تنتمي إلى عائلة أديجي، بنسبة 7%. وهناك أيضاً أقلية النوغيس، وهي جماعة آسيوية تتحلّر من المغول. ووفقاً للنمط الشائع، يمثل الكاراشاي والشراكس الأغلبية في المناطق الريفية، فيما يعيش الروس حول العاصمة شركسك ويسيطرون على المفاصل الحكومية الرئيسية. وفي هذا السياق، تبدو مطالب الكاراشاي بالانفصال مثل اللعب بالنار. وفي وقت قريب ستصبح مطالب جمااعات وحلفائها الإسلاميين جذية للغاية، وستهدد سلسلة من ردود فعل الجماعات الأخرى بتفكيك جمهورية كاراشاي - شركسيا الصغيرة أصلاً إلى ما قد يصل إلى خمس مناطق عرقية بالغة الصغر. يريد الشراكس الحصول على الحكم الذاتي، ويفضّل الروس أيضاً الانفصال، وضمّ مناطقهم إلى إقليم كراسنودار في جنوب روسيا.

في آذار سنة 1992، قرر 79% من المصوّتين في استفتاء شعبي إبقاء كاراشاي - شركسيا جمهورية موحّدة، وساهم مزيج من الإرهاق الناجم عما حدث في تلك الأيام والقيادة الناجحة لرئيس الجمهورية الموالي لموسكو، والذي كان بنفسه من قومية كاراشاي، في نزع فتيل الأزمة مؤقتاً على الأقل، وكجزء من محاولة لإبعاد خطر التقسيم بعيداً، حاولت السلطات منح لغات الجماعات العرقية الخمس دوراً متساوياً، مما جعل اللاتفات خارج المباني الحكومية مزدهمة بالكلمات.

تسبب ذلك بالإحباط المرير للقوميين الكاراشاي. وعندما التقيت واحداً من قادة حركة جاغامات المنحلة الآن، ويدعى كازبك شومايف، في شركسيا سنة 1996، توقعت بياناً نارياً منه؛ لأنها بالمحصلة حركة تلقت الدعم الفعلي من القائد الاستقلالي الشيشاني المتعصب جوهر دودايف. وعوضاً عن ذلك، وجدته هادئاً وعميق التفكير، وقد استقال عند أول إخفاق، ولكنه واثق بأن الجدل لم ينته بعد. ورغم أن القوميين يعترفون دائماً بأن تقسيم الجمهورية إلى أربع أو خمس كيانات عرقية متنافسة سيحول الاتصالات والعلاقات الاقتصادية إلى كابوس، إلا أن شومايف ما يزال يعتقد أن الفكرة جديرة بالتطبيق.

نحتاج حقاً للانفصال، ونستطيع فعل ذلك. وكما تعرف، تم تهجيرنا سنة 1943 وتعرضنا للإبادة المنظمة طوال 14 سنة، ومات نصف شعبنا، ثم عذنا، وأخذوا منا المناطق التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي قبل التهجير، ووضعوا في إقليم ستافروبول ليكون قاعدتنا من الروس. كنا تحت رحمة مسؤولي الحزب لمدة 33 سنة، ولرأبوا مناطقنا الجبلية للسليحة وبناء الأكواخ الحكومية فيها، ولكنهم لم يكونوا راغبين بنا، حتى أنهم درسوا القيام بعملية تهجير ثانية في أواخر سبعينيات القرن العشرين. عندما قهر الاتحاد السوفياتي، أدركنا أننا بحاجة لمناطقنا لإعادة إصلاح الوضع بكامله وبشكل قانوني، وكجزء من العملية الديمقراطية. لم تكن نرغب بحمل السلاح، أو التحول إلى انفصاليين أو أي شيء من هذا القبيل. وكل ما أردناه هو إعادة الإصلاح. الآن، بعد الانتخابات، يقولون إن كل شيء هادئ، ولن كل شيء بخير، ولكننا سنرى لاحقاً. لا تزال القضايا البالغة التعقيد التي كانت وراء ما حدث موجودة. وما يزال الكاراشاي راغبين بالانفصال، وهي رغبة الآخرين أيضاً. في آذار 1994، صوّت السكان من أصل روسي على تفصال أراضيهم مجدداً بحيث يستطيعون الاندماج مع روسيا.

إنهم يقولون إن الشعب متعب، وهو كذلك، ولكن للشعب لن يتخلى أبداً عن تلك القضايا حتى يكون هناك حل ما. خلال 50 سنة، كان هناك صمت رسمي، ولم يكن أحد يتكلم عن المشكل. والآن، كل القضايا مفتوحة للملا مرة أخرى.

إلى الشرق في كاباردينو - بالاكاريا، يبقى البالاكار البالغ عددهم 80.000 نسمة فقراء ومتمعضين نتيجة فشل مماثل للفوز بحكم ذاتي منفصل، وكما هو الكاراشاي، ارتكزت حركة البالاكار على إعادة الإصلاح انطلاقاً من التهجير.

أشار قادة البالاكار إلى أن 391.000 من الكابارد يسيطرون على السلطة فيما يفترض أنها جمهورية مشتركة، وأنه تتم سرقة الراسمبل الروسية الرسمية المخصصة للمساعدة في تطوير مجتمعهم. وكان رد فعل الكابارد عنيفاً، وطالبوا باستعادة أراضيهم التي تم تسليمها للكالابار أثناء التهجير.

عندما أشار القوميون البالاكار إلى خرائط سنة 1944 والتي تظهر فيها أراضيهم المفقودة، أحضر القوميون الكابارد خرائط تعود لسنة 1863 التي تظهر فيها أماكن البالاكار عالياً في الجبال دون أي أراض لهم في السهول. هذه قضية أخرى من قضايا شمال القوقاز التي تستخدم فيها كل قومية الماضي بما يتناسب وحاجاتها الراهنة. رغم ذلك في سنة 1991، وأثناء النزاع الكبير على ملكية الأراضي، صوت ممثلو كلتا القوميتين على فصل كاباردينو - بالاكاري إلى دولتين منفصلتين تتمتعان بالحكم الذاتي. حظي استفتاء البالاكار على إنشاء دولة منفصلة بموافقة 95% من الشعب، وبسيناريو مشابه لما حدث في كاراشاي - شركسيا، تأرجحت الجمهورية على حافة الفوضى، ولم يكن الأمر يحتاج سوى إلى عواطف جيّاشة لتحويل حادث عرضي - مثل ضرب رجل لمل من البالاكار لشريكه في الشراب الذي من الكابارد - إلى سبب لمواجهات عرقية جدية.

أدى النزاع المستمر على الأراضي إلى جعل الانفصال المقترح مستحيلاً. ثم تلاشى الزخم القومي بعد ذلك. وفي استفتاء عام على مستوى الجمهورية سنة 1994، وفيما كانت تُنذر الحرب تتجمع فوق الشيشان القرية، صوتت الأغلبية لإبقاء كاباردينو - بالاكاري موحدة، ولكن النزاعات تستمر في الغليان تحت السطح الهادئ. بعد سنتين، وفي تشرين الثاني 1996، قام مجلس البالاكار بمحاولة أخرى، لكنها فاشلة، للانفصال. وبوجود عوامل ديموغرافية معاكسة لرغبتهم، ظهر موقف البالاكار ضعيفاً للغاية. لم يكونوا يشكلون وقتها سوى 11% من سكان الجمهورية، فيما كان الكابارد يشكلون 49% والروس 32%.

قال لي زوجان قابلتهما في قرية بابوجينت في سفوح الجبال العالية في القوقاز إنهما كانا يصارعان لإبقاء رأسيهما فوق مستوى المياه بعد عودة عائلتيهما من التهجير في نهاية خمسينيات القرن العشرين، وأن السلطات أجبرت العائلتين على

بناء قرية جديدة أسفل أنقاض القديمة في الجبال العالية. "كان علينا البدء من الصفر دون أي مساعدة تقريباً من الحكومة، وكنا نعمل مثل العبيد، ورغم أننا عشنا في الجبال، إلا أن الكابارد حصلوا على السهول التي توجد فيها أراضي الرعي، ولم يتبق لدينا شيء الكثير؛ هذه الغابات والصخور فقط. يقول رجل عجوز يبلغ 65 سنة: "لقد حصل الكابارد على الأراضي الخصبة، والسهول". وسألته فيما إذا كان يصدق نتائج الاستفتاء التي تقول بإبقاء كاباردينو - بالاكاريا جمهورية موحدة. وأجابني: "لقد أردنا الانفصال، لكن "هم" لم يسمحوا لنا". في شمال القوقاز، "هم" تعني الروس دائماً.

رغم أن الإحباط الذي أصاب الشعوب المهجرة، والتي لم تستقر بشكل مناسب بعد العودة، أدى إلى ظهور الحركات القومية المتطرفة في شمال القوقاز، إلا أن أحداً لا يعرف على وجه الدقة كيف تغيرت الحدود والجماعات العرقية قبل نصف قرن مضى. كانت عمليات التطهير العرقي تتم خلال الحروب أو أثناء العهود الاستبدادية، وتنعكس الأمور وقت السلم أو في ظل الديمقراطية.

قامت موسكو، التي غمرها الفوضى السياسية في بداية تسعينيات القرن العشرين، بمحاولة فاشلة لإصدار قانون آذار 1991، والذي أقره ما كان يعرف ببرلمان روسيا السوفياتية، لإعادة إصلاح وضع الشعوب المضطهدة بما في ذلك العودة إلى الحدود الأصلية. ينص القانون، الذي جرى إيقاف العمل به بعد ذلك، على حق القوميات المضطهدة "بالعودة" إلى "أوطانها التقليدية"، ولكنه ينص كذلك على "عدم انتهاك حرمة حقوق الناس الذي يعيشون في أراضي القوميات المضطهدة". كان القانون متناقضاً في أحسن حالاته، وعبارة عن صندوق "باننورا" (صندوق الشرور) في أسوأ الحالات، والذي قد يعمل على تفجير النزاعات الحدودية الملتهبة أصلاً.

يلوم شومايف، قائد الكاراشاي السابق، عقلية روسيا الإمبريالية الجديدة، ويستهتم موسكو برفض أخذ مطالب القوميات الصغيرة على محمل الجد، وأنها ما تزال تعتصمهم ملطخين بالعقاب الذي نالوه أيام ستالين. وبالنسبة لشومايف، والمتطرفين القوميين الآخرين في شمال القوقاز، لم يكن قانون إعادة الإصلاح سنة 1991 كافياً.

كان عاماً جداً، ولم يدخل في التفاصيل لو يقدم مقترحات محددة. ولم يكن الأمر يشبه ما حدث في الولايات المتحدة عندما تم وضع الأميركيين من أصل ياباني في معسكرات خلال الحرب العالمية الثانية، ثم الاعتذار منهم وتقديم التعويضات المالية لهم. أو مثل ألمانيا التي اعتذرت من اليهود ومنعت كل شيء معادٍ لهم.

عوضاً عن ذلك، علقت شعوبنا المهجرة في أواخر خمسينيات القرن العشرين لتجد أن نفعها يتم استغلاله كما هي الحال في الشيشان، وأن أراضيها تم توزيعها كما هي الحال مع الأنغوش، وأن تماثيلها التذكارية تمّت إزالتها كما هي الحال مع الكارلشاي، وفقدت أراضيها كما هي الحال مع اللبالكار. إننا ندرك الآن أن تلك للمشاكل لا يمكن حلها اليوم لأن المواقف الإمبريالية القديمة ما تزال موجودة. وما يزال الناس في السلطة، مثل يلتسن وسواه، يفكرون بطريقة الأيام القديمة. إنه الرمال المتبقية من إمبراطورية انهارت.

إذا طبقنا عملية إعادة الإصلاح فيما يخص الشعوب المضطهدة، فلا أعتقد أن شيئاً ما سيحدث في شمال القوقاز. ولتحقيق ذلك، نحتاج إلى الديمقراطية، ولكن تسيطر على قلوبنا العقيدة السوفياتية، وإن يعرفوا الديمقراطية ما لم يروها. إن روسيا حبيسة ماضيها الإمبريالي. وهم يقولون أنهم يريدون الديمقراطية، مثل الولايات المتحدة نوعاً ما، ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك عندما توجد ثقافة عمرها 5000 سنة هنا، وثقافة مختلفة هناك، وثقافة روسية أيضاً؟ كيف يمكن أخذ كل تلك الثقافات وصهرها في بوتقة واحدة فقط؟

رسلان خاتاخا، مؤرخ أديجي.

جلست في إحدى الأمسيات، في ميكوب عاصمة أديجي، مع رجل عجوز يدعى أشقر، وقام الرجل بفتح زجاجة فودكا بالتزامن مع تقليبه لقائمة من الشكاوى الوطنية. كان الغزو الروسي والاحتلال السوفييتي في أعلى القائمة. وقال أشقر: "كتب ماركس أن العالم سيتعلم الحرية من مثالنا. ولكن انظر إلى ما جلبه الروس لنا - الفودكا، لم تكن نشرب تلك الأشياء من قبل، لأننا مسلمون".

كان الأديجي يناضلون أيضاً لإعادة الإصلاح، رغم أنهم تخلّصوا الآن من جرائم الشيوعيين والاستعمار الذي حل بهم قبل قرن مضى. وكان وضعهم خطيراً لأنهم تعرّضوا منذ الغزو القيصري إلى تهجير شامل نتج عنه تشتهم في أصقاع أجنبية كثيرة. وعزز النظام السوفييتي من هذا التشتت، ووضع كلاً من الأديجي، والشراكس، والآباز، والأبخاز، والشابسوغ، والكابارد المقربين لهم في مناطق

وجمهوريات مختلفة. كان هناك خوف من اختفاء الشعوب الأديجية نتيجة تطبيق تلك السياسات.

كان الفخر العرقي لدى أشقر واضحاً للعيان، ربما لأنه كان مكبوتاً لوقت طويل. ذهبنا بالسيارة عبر مركز البلدة لزيارة صديق، وتوقفنا عند أحد الأسواق لشراء بعض الدجاج. كان الظلام مخمّماً، وانتشرت الكلاب الشاردة والفوضى العارمة بين أكشاك البيع البالية، وهو مشهد مألوف في الشوارع بعد الحقة السوفياتية. حالما توقفت السيارة، اتجهت نحونا ثلاث نساء روسيات بضعن وشاحاً على رؤوسهن ويتدافعن بالمرافق، وعرضن علينا بعض الدجاج والنقانق. كان مشهداً كئيباً، ووصل كبرياء أشقر إلى مستويات عالية جديدة، وسألني بفخر فيما كنا نبتعد بالسيارة: "هل رأيت ذلك؟ أولئك نسوة روسيات. ورغم أنه يتعين علينا البيع في الأسواق أيضاً، إلا أننا لا نفرق أبداً في مثل تلك التصرفات. لقد كان الأديجيون أرسقراطيين".

اعتبر أشقر أن لغته الأديجية ضعيفة، فيما قال لي العديد من الأديجي الآخرين إنهم يواجهون صعوبة في جعل أطفالهم يستخدمون هذه اللغة. في جمهوريتهم التي تتمتع بحكمها الذاتي الخاص، لا يشكّل الأديجيون الذين يبلغ تعدادهم 125.000 نسمة سوى 22% من السكان، أما الباقي فهم من القومية السلافية. وهناك 7 من كل 10 يستخدمون اللغة الروسية باعتبارها اللغة الأم. ويقول أحد علماء الآثار في أديجي: "إن الحفاظ على ذاكرتنا الوطنية أمر بالغ الصعوبة، حيث امتزج السكان الأصليون بالإغريق القدماء. وقد فقدنا الكثير، وأصبح لزاماً علينا أن نبرهن على ما كنا عليه. هم يقولون لنا دائماً بأنه ليس لدينا حضارة. ولكن لدينا حياتنا، وأزيائنا، وعائلتنا الخاص"، وأظهر لي مجموعة من الصور الأرشيفية لأوان خزفية تقليدية، وسيوف قديمة وأواني شرب ذهبية من العصور الوسطى.

لا تشكّل الحركة الوطنية الأديجية تهديداً استراتيجياً، ربما بسبب تمثيلها لعدد قليل فقط من الناس، أو لأن أديجي محاطة بأراضٍ تسكنها غالبية من العرق الروسي، وهي قدّمت واحدة من أنجح القصص في إيقاف مدّ الحركات الانفصالية. رغم معارضة الغالبية الروسية المحلية، التي لم تكن راغبة في اكتساب هوية جديدة

حيث لا يكون للأقلية سوى مناصب شرفية، إلا أن أديجي استطاعت الارتقاء من منطقة تتمتع بالحكم الذاتي إلى جمهورية كاملة سنة 1991. بعد جدال طويل، والكثير من المعارضة من جانب الروس، تمّ إقرار دستور الجمهورية سنة 1995، والذي يمنح للأديجين القول الفصل في إدارة شؤونهم الخاصة.

لقد انتهت الأيام التي كانت فيها حقوق تلك الشعوب الموعلة في القدم تتمثل في إقامة فرقة أو فرقتين للرقص، وتمّ تقسيم المقاطعات الانتخابية تبعاً للحدود العرقية للتأكد من حصول الأديجين على عدد معقول من بين 45 نائباً يشكلون البرلمان. في سنة 1996، كان هناك 18 نائباً من أصل أديجي، وهو عدد يفوق نسبتهم إلى عدد السكّان الإجمالي، ورغم أن الروس احتفظوا بالأغلبية الكافية من الأصوات البرلمانية، إلا أنهم لم يحصلوا على نسبة الثلثين اللازمة للتغلب على الفيتو (حق النقض) الرئاسي، أو لإقالة الرئيس. كان على المرشحين لمنصب الرئاسة أن يكونوا قادرين على التحدّث بكلتا اللغتين الأديجية والروسية، وهو قانون يضمن بشكل فعال أن يكون الرئيس من القومية الأديجية لأن معظمهم يتكلم اللغتين، فيما لا يتقن الروس الأديجية، وهي لغة معقّدة جداً. أفضت تلك الترتيبات بنتائج معاكسة تقريباً لما كان سائداً في الحقبة السوفياتية حيث كان القادة الكبار في الجمهوريات العرقية دائماً من الروس، بغض النظر عن النسب السكانية، وكان ذلك نصراً للأديجين، ولكن من يعلم، ربما تنفجر قبلة موقوتة أخرى إذا قررت الأغلبية الروسية المحلية تغيير القوانين الحالية.

كان أديجيو الداخل أوفر حظاً من بقية القبائل المنتشرة على البحر الأسود في أديجي - شركسيا، والتي كانت قوية فيما مضى وتدعى شابسوغ. لقد تعرّضت تلك القبائل نظرياً للإبادة الكاملة في القرن التاسع عشر، وعاش من تبقى منها في بلدات صغيرة حول سوتشي وتوايز على ساحل البحر الأسود كجزء من إقليم كراسنودار، ورفضت سلطات كراسنودار كل محاولات شابسوغ للفوز بشكل من أشكال الحكم الذاتي، أو الانضمام إلى جمهورية أديجي، والتي استشعرت خطر قيام الأقليات الأخرى بنفس الخطوة. على كل حال، حصل الشابسوغ على حق تعليم اللغة الأديجية في المدارس الموجودة في قراهم.

كان أصلاً تيك كيراشيف، وهو مسؤول سابق في الحزب الشيوعي الأديجي، أول من طالب بإنشاء جمهورية أديجي، وترأس ما كان يُعرف بلجنة الأربعين التي تشكلت من مجموعة من المثقفين. وقال إن الحركات الأديجية كانت محاولة مباشرة لاستعادة أسطورة حروب القرن التاسع عشر.

ويقول: "تم اتهامنا بالقومية والانفصالية، لكن هذا لم يكن ههنا. وأردنا فقط التأكد من عدم سيطرة جماعة عرقية معينة على الجماعات الأخرى بالقانون، كما كان الحال دائماً. لقد تم تمييزنا في القرن الأخير وعلينا من تحويل الملكية الخاصة إلى عامة، ومن كل لتجارب الأخرى التي قلّصت أعدائنا، وفرزنا لأن ما حدث كاف، ولنا يجب أن نحصل على بعض الضمانات. من قبل، لم يكن تعليم التاريخ أو اللغة الأديجية مسموحاً، كما هو الحال الآن. ولدنا برلمج لغة أديجية في التلفاز والصحف، وكلية في الجامعة".

هناك مقاعد جلدية كبيرة على أرضية رخامية بيضاء في الممثلة الجديدة لأديجي في موسكو. تكلم المبعوث، الذي يعتبر سفيراً داخلياً نوعاً ما، بكل صراحة: "في القرن التاسع عشر، وأثناء حروب القوقاز والمعارك بين الروس والأتراك، لم يأت السكّان من أصل روسي. محض إرادتهم، وإنما دفعهم القياصرة بالقوة نحو بلادنا، وكانوا يدفعون لهم الأموال ويجبروهم على انتزاع أراضيها. ولن يكون من العدل إلقاء اللوم على سلالتهم والقول "أنتم سرقتم"، ولكن في نفس الوقت نريد أن يتم الاعتراف بحقوقنا، وأنا أمة مجيدة".

في سنة 1990، أنشأت الجماعات العرقية من أصل أديجي والمبعثرة في شمال القوقاز، بما فيها الكابارد والشراكس والشابسوغ، منظمة موحدة تدعى أديجي خيس. كانت تهدف إلى إعادة توحيد الجماعات العرقية الأديجية التي ما تزال في روسيا، والمساعدة على عودة المهجرين من تركيا، والشرق الأوسط والولايات المتحدة، وإنجاز عملية إصلاح ما جرى في القرن التاسع عشر. لم تحقق تلك المنظمة سوى نجاح جزئي في هذا المجال. وقدّمت أديجي خيس أرضية مشتركة للقبائل القوقازية المبعثرة منذ قديم الزمان. ولم يخالف النجاح محاولات إعادة المهجرين على مدار السنين، ويتطلب إقناع الناس بالعودة والعيش في روسيا خلال تسعينيات القرن العشرين، وخصوصاً أنهم لا يتكلمون الروسية، جهوداً أكبر من الحفاظ على

الكيرباء العرقي. ورغم روابط اللغة، التي احتفظ بها الكثير من المهجرين في الخارج، إلا أن شعوب أديجي تعرضت لعمليات روسنة عميقة، وعلى الأرجح أن هناك اختلافات الآن بمقدار الأشياء المشتركة مع أبناء عمومهم في الخارج.

تناولت إحدى القصص التي سمعتها على لسان تاتيانا ماغايكوفلا، وهي المراسلة الشركسية لصحيفة سيفيري قفقاز الإقليمية، شركياً أردنياً عاد للعمل كرجل دين، وأنه حضر جنازة سمع فيها أحد إخوانه الشراكس، الذي بالكاد يعرف العربية، يقرأ قصيدة حب عربية عوضاً عن آيات من القرآن الكريم، واستقر عائد آخر في منزل خاص في كاراشاي - شركيا، وأصبح مسؤولاً عن مزرعة جماعية، وبدأ يعظ عماله عن الجد والعمل الشاق في الإسلام، ولكنه اكتشف أنهم اعتادوا منذ زمن طويل على الطريقة السوفياتية في العمل أقل ما يمكن والعودة إلى منازلهم باكراً. وتقول تاتيانا: "كان هناك ترحيب حار به في البداية، لكنهم كرهوه فيما بعد، ورغم بناء عدد كبير من المنازل الخاصة للعائدين، إلا أن أي عائلة أخرى لم تعد إلى هنا، ولم يرغب أحد من غادر هذا المكان بالعودة لاحقاً إليه".

في سنة 1996، عقدت أديجي خيس مؤتمرها الثالث في شركيسك، وحضر المؤتمر ولي عهد الأردن الذي تستضيف بلاده الكثير من المهجرين، وممثلين عن الجاليات الأديجية من عشرات الدول حول العالم، وازدحمت القاعة التي استضافت المؤتمر بكل أطياف الجالية الأديجية: رجال مسنون يرتدون الأزياء التقليدية؛ وممثلون عن المهجرين من نيوجرسي؛ وفتيات ييضاوات طوال القامة؛ وقرويون بسطاء في ملابس سوداء؛ والكثير من الحراس الشخصيين حليقي الرأس الذين يرتدون ملابس فضفاضة، وقمصان حريرية سوداء.

كانت أديجي خيس تقوم بعملها في الترويج للعلاقات بين المهجرين وأوطانهم. لكنني لم أستطع مقاومة الشعور بأن الحركة، مثل العديد من التنظيمات الوطنية الأخرى في شمال القوقاز، قد فقدت الزخم الذي بدأت به في تلك السنوات الانفعالية التي أعقبت انهيار القوة السوفياتية، وفور انتهاء القتال للحصول على حكم ذاتي واسع في بداية تسعينيات القرن العشرين، أصبح المزيد يعني التطرف والمطالبة بالاستقلال أو إعادة رسم الحدود المتنازع عليها. في معظم المناطق، لم

يكن أحد مستعداً لذلك. كانت الشيشان الاستثناء الوحيد، وقد دفعت الثمن غالباً عندما شنت روسيا عليها هجوماً كاسحاً لاستعادتها سنة 1994.

كان ولي العهد الأردني ضيف الشرف، وقد أحرز المنظمون نجاحاً باهراً باستضافته، ولقي منهم ضيافة فوقازية كاملة. تم استقبال الأمير الشاب، الذي يتكلم الإنكليزية بلهجة أميركية، بترحيب حماسي في القاعة المزدهجة في أديجي. ورغم ترجمة ملاحظاته إلى الروسية، إلا أن كلماته كانت فارغة وتشبه إلى حد بعيد ما يقوله مايكل جاكسون. وقال الأمير بصوت خافت: "يدين العالم بالفضل للأديجي. وهم قدموا أفضل ما عندهم حيثما عاشوا، إن ثقافتكم جميلة، وأنتم شعب جميل". وكان الأديجي يصفقون فقط ليثبتوا لأنفسهم بأنهم ما زالوا موجودين.

بودنوفسك، إقليم ستافروبول

اصطف مكان القوقاز من أصل روسي، وهم يرتدون العباءات للزرقاء والحمراء وقبعات القفرو، في صفيين متقابلين، وكنوا بصرخون "ليوبا"، والتي يمكن ترجمتها 'مرحى!'. ونزل للرئيس بوريس يلتسن، الذي شن حملة دعائية واسعة ضد الشيوعي غينادي زيوغثوف في الانتخابات الرئاسية سنة 1996، من سيارة للليموزين زيسل واتجه مباشرة نحوهم.

سار الاجتماع بشكل جيد. وحصل يلتسن على حصان أصيل، ولقي بالمقابل خطبة فيها الكثير من المديح لهؤلاء الذين استقبلوه. وبدأ الأمر مثل الانصهار الخيالي بين عامة الشعب والسلطان الروسي: المكان المسلحون والرئيس الذي يحب لشراب في موقف شبيه بما كان يحدث أيام القياصرة. لقد تدافعت المناكب هنا في بودنوفسك، في عرق إقليم ستافروبول، على مشارف شمال القوقاز.

قال يلتسن بالتهاج: لقد سببت الرعب للشيشانيين. وأصبحوا يفهمون أن لا أحد يستطيع العبث مع سكان من أصل روسي! وأخبر يلتسن هؤلاء المحتشدين أنهم "حصن الدولة الروسية"، ووعد بمساعدتهم على "استعادة الطريقة التقليدية في الحياة". ثم قال إنه سيرسل لهم ملبات الروبلات للمدارس. وابتهجوا مجدداً. ورجع إلى سيارة للزيسل وغادر.

بالنسبة للسكان من العرق الروسي، سببت سنوات الاضطراب تلك قلقاً كبيراً لهم. كان سقوطهم منوياً لأنهم كانوا في مواقع السيطرة سابقاً. وكان

القوقاز في السابق مكاناً للمتحمات، وقضاء العطلات الجبلية وإجازات الصيف الطويلة. وقد تحولت الإمبراطورية السوفياتية بأكملها الآن إلى أنقاض؛ وحتى هنا على مقربة من قلب الأراضي الروسية، أخذت الأقليات، التي التزمت الصمت فيما مضى، تطالب بحقوقها الانفصالية. وكان هناك فقر في كل مكان سببه انهيار الاقتصاد السوفياتي، ويرافقه شعور بالعجز والخطر. وبدأ الروس يشعرون بألمهم غرباء في منازلهم، وغادر عشرات الآلاف منهم الشيشان لوحدها.

بالنسبة للسكان من أصل روسي، شكّل الاضطراب الاستراتيجي في القوقاز فرصة جديدة للعيش والنشاط. وأصبحت الخرائط عُرضة للتغيير كما حدث أثناء الحملات العسكرية في القرن التاسع عشر، وتحرك الجبليون الوطنيون على طول الجبال، وانتقل السكان من أصل روسي شمالاً إلى أقاليم كراسنودار وستافروبول، وعادت قراهم، أو "ستانتيس"، التي كانت غارقة في الفقر والظلام أثناء الحقبة السوفياتية، إلى واجهة الأحداث فجأة. إنها المواجهة بين الصليب والهلال مرة أخرى.

أخرج السكان من أصل روسي ملابهم الرسمية والصور القديمة، وشحنوا سيوفهم ووضعوا أوسمة أجدادهم على صدورهم، وضغطوا لاستعادة أوضاعهم الاجتماعية القديمة كفلاحين مسلحين لهم إدارتهم وقوانينهم الخاصة، وطالبوا بامتلاك الأراضي وتشكيل وحدات خاصة بهم ضمن الجيش الروسي على أن تكون مهمتها حراسة الحدود.

يمزج من التغطية المتعاطفة في وسائل الإعلام الروسية وأعداد كافية من السراويل المقلّمة بالأحمر ومعاطف القرن التاسع عشر، قطع السكان من أصل روسي - والذين تشير التقديرات إلى أن عددهم يصل إلى خمسة ملايين يسكنون حول روسيا، وحوالي 60.000 في شمال القوقاز وحدها - شوطاً طويلاً، وتلقوا دعماً قوياً من الكنيسة الأرثوذكسية، ويلتسن، وقطاع واسع من الوطنيين الروس في موسكو. وساهم صعود الجناح اليميني في السياسات الروسية منذ سنة 1993 على تشجيعهم. لكن كان هناك عقبات رئيسية لإعادة إطلاق "كوزاشيستفو"، أو "الروس الأصليين".

إلى جانب تراجع أعدادهم تحت الحكم الشيوعي، عانى السكّان من أصل روسي من مشكلتين رئيسيتين لاستعادة توازن مجتمعهن. المشكلة الأولى بسيطة: إن موسكو استغلتهن وساعدتهن في الوقت ذاته. وتبيّن أن معظم الدعم الذي تلقاهن يلمس بهدف الاستفادة من الإمبريالية الجديدة كان مخادعاً. لقد منحت مراسيمه التشريعية السكّان من أصل روسي بعض الامتيازات، مثل تصنيفهم كشعب مضطهد. ورغم دعمه لهم للحصول على بعض المراكز العسكرية الرسمية، إلا أنه لم يتخذ قرارات عملية بهذا الشأن.

كانت المشكلة الثانية أكبر لكنها ليست ملموسة: الصعوبة التي كان يجدها السكّان من أصل روسي في إيجاد أسباب العيش، وعندما كانت الإمبراطورية موجودة، كان دور هؤلاء السكّان استعمارياً. وقد عاشوا في الأمكنة التي غزتها دولتهم الأم، وبالتعريف كانت أوطانهم دائماً ملكاً لأشخاص آخرين أولاً، حتى بعد أن مرّت قرون على ذلك. كانوا دائماً مستعدين للاندفاع نحو الأراضي الجديدة لخدمة الدولة، ومثل أسماك القرش، كان عليهم الاستمرار في الحركة دائماً. في السنوات الأخيرة من النظام الملكي الروسي، ومع بدء انهيار الإمبراطورية، لعبوا دوراً جديداً: قمع اليهود، ورجال الثورة وكل الآخرين الذين يخرجون عن الخط. ولكن بحميء البلاشفة وضع حداً دموياً ومفاجئاً لمغامراتهم، وفشلت حقبة بلتسن في منحهم دوراً جديداً.

يبدو أن السكّان من أصل روسي في شمال القوقاز يشبهون بأجواء الحرب الأهلية الأميركية ومعركة واترلو، حيث يقوم رجال في منتصف العمر بارتداء أفضل ملابسهم، وإطلاق النار في الهواء، والاستلقاء أرضاً بعد أن يتظاهر شخص ما على الجانب الآخر بأنه سيطلق النار عليهم. أصابت هذه المشكلة حرس الشرف، الذين اصطفوا لاستقبال بلتسن في بودنوفسك خلال حملة إعادة انتخابه، والمكوّن من خليط من الشباب النحيل والآباء الممتلئين الذين يرتدون أزياء غير مناسبة، ويضعون أوسمة تعود إلى المتاحف ولا يتقنون التسبيح بينهم أثناء إلقاء تحية "ليوبا".

رغم ذلك، طالب قادة السكّان من أصل روسي بدور محوري ضمن الجيش كسبيل وحيد لتعزيز مكانتهم. لقد عقدت كل تنظيماتهم اتفاقيات في منتصف

تسعينيات القرن العشرين لحراسة الحدود بين سيبيريا ومنغوليا، واتخذت مواقع لها على الحدود مع كازاخستان مما أزعج الحكومة الكازاخية، وشاركت وحدات غير رسمية كمرتزقة أو متطوعين في العديد من الحروب إبان العهد السوفياتي، بما في ذلك الحروب في الشيشان، وأبخازيا ومولدافيا على الحدود مع رومانيا. يذمي قادة السكان من أصل روسي في شمال القوقاز أن بمقدورهم تجنيد جيش من 100.000 رجل، وتتسع قائمتهم من الأسلحة المطلوبة لتشمل إضافة إلى السيوف والبنادق في السنوات الأولى الدبابات، والطائرات والمدفعية فيما بعد.

رغم أن فكرة تسليم فرق كاملة من هؤلاء السكان كانت تروق للكرملين، إلا أنه لم يتخذ أي خطوات عملية بهذا الاتجاه. ورغم ادعاءات يلتسن بأن الشيشانيين يعيشون في رعب، إلا أن الحرب المستعرة هناك بخلاف ما كان الوضع عليه أيام أسلافهم، جعلت السكان الحاليين لا يحبون الذهاب إلى ساحة المعركة. ومنذ حصولهم على تلك الأوسمة في القرن التاسع عشر، لم يعودوا الشعب الذي لا يمكن قهره. تطوّر مائتا رجل للقتال في ظل نظام العقود القصيرة الأجل الاحترافية، لكنهم جميعاً تخلّوا عن ذلك، وحزموا حقائبهم، وعادوا لمنازلهم بعد أسبوعين فقط من الحرب في جنوب الشيشان. وتشير تقارير أخرى إلى أن إصابات وحدة قتالية من سكان القوقاز من أصل روسي وصلت إلى 22 قتيل و150 جريح في ثلاثة أسابيع. ووجد السكان من أصل روسي في الشيشان، والذين كان يعيش معظمهم في غروزني وفي مجموعة من القرى على طول لمر تيرك في الشمال، أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه، وانتقلوا شيئاً فشيئاً للعيش بأمان في جنوب روسيا.

كاد مشروع إحياء قرى العهد الاستعماري يتسبب بتحويل العلاقات المتوترة بين السكان من أصل روسي والجبليين في جمهوريات عديدة إلى صراع مفتوح، وقد شرح أحد الكابارد ذلك بقوله: "إعادة تنظيم القوة العسكرية للسكان من أصل روسي في القوقاز ستكون بمثابة تسليم الأوباد في روسيا للقبائل المغولية". وفي أديجي، تقع القرى التي يقطنها سكان من العرق الأديجي بين القرى الروسية، وهو ما يمنح الشعور للأديجي بأنهم محاصرون. ويقول أستاذ التاريخ حمزة كازانوف: "إنهم يبالغون في ردود الفعل، ومتحمسون للحرب، ويبدو أن حكومة يلتسن

تشجعهم على ذلك. وأنا لا أحب تشوقهم للقتال. وفي البداية، اعتقدت أن الأمر مجرد مزاح، ولكنهم يستعيدون ثقافتهم الآن. إنهم يجعلوننا نشعر بعدم الارتياح هنا".

يمثل الاحتفال بتاريخ 21 أيار أحد أهم مطالب شعوب أديجي التي اعترفت بها موسكو، وهي ذكرى الانتهاء الرسمي لغزو القرن التاسع عشر، ومناسبة لتذكر ضحايا شركسيا، إلا أن السكان من أصل روسي لم يحفلوا كثيراً بهذا التاريخ. وأخبرني أحد المسؤولين في حكومة أديجي: "هم قلقون في موسكو من غضب السكان من أصل روسي. وفي نفس الوقت، طلب رئيسنا (الأديجي) من هؤلاء الناس عدم ارتداء أزيائهم علناً، وقال لهم إن ذلك سيساعد في التهدة، وأن تلك الأزياء قد تسبب في إثارة الأديجي وخروجهم إلى الشوارع في أزيائهم الشركسية والكنزال. وبالطبع كان يمزح قليلاً، ولكن مثل تلك الخطوات ضرورية لمنع انطلاق شرارة النزاعات".

عشية زيارة يلتسن إلى بودنوفسك، جلست مع سكان محليين من أصل روسي في بناء متهالك يعتبرونه مقراً لقيادتهم. كان هناك رجل طاعن في السن يرتدي ملابس سوداء تبدو فاشية، وعدة شباب يرتدون مزيجاً من لباس الجيش الممويه والجنيزر، والباقي، وهم مزيج من الرجال في منتصف العمر والمسنين، يرتدون ملابس عادية. من الغريب أن يكون الكثير من السكان ذوي الأصول الروسية، والذين تجمعوا لرؤيتي، مصابين بحول العيون. وعلى الجدار، هناك علم روسي كبير ثلاثي الألوان مع نسر إمبريالي مزدوج الرأس عند نهاية الصارية.

قال ألكسندر مايفسكي الذي يبلغ 38 عاماً، وهو أتامان، أو زعيم منتخب للسكان من أصل روسي: "ستأخذ عملية استرجاع ما فقدناه وقتاً طويلاً جداً. وبعد أن سلبونا حياتنا، نحتاج لأن نولد من جديد. سنعمل مع أطفالنا حالما يستطيعون المشي". وقال إن روسيا تحتاج لجيش محترف، وهو الشيء الذي لا يجادل فيه أحد، وأن السكان من أصل روسي يجب أن يكونوا في مقدمة التغيير.

سألته فيما إذا كان شمال القوقاز، المحطم نتيجة الحرب في الشيشان، والحرب بين الأنغوش والأوسيت والنزاعات العديدة الأخرى، قادراً على تحمل جماعة عرقية مسلحة أخرى. وأجابني: "كل ما نريده هو العودة إلى عاداتنا".

نعم، ولكن ألا يعني ذلك النزاع؟ "لا، كل ما نريده هو استعادة الكرامة. لقد تعاملنا جيداً مع كل الشعوب. لسنا موجودين في القوقاز منذ 10 سنوات فقط، وإنما نحن هنا منذ مئات السنين. كل ما نريده هو تقديم المساعدة، وأن يسود النظام. وتعود أسباب كل هذه الفوضى، في الشيشان وأماكن أخرى، إلى فقدان النظام".

في مستعمرة نوفوسفوبودنايا في سفوح جبال أديجي، كان السكان من أصل روسي أقل حماساً حول دورهم في الحفاظ على النظام. وتمّ تشييد قريتهم بعد إخراج الأديجين من المنطقة سنة 1864. ولكن تلك الظليعة السابقة للإمبراطورية تحطمت وهجرها أهلها، وأصبحت ضحية لانحياز الاقتصاد السوفييتي رغم أنها لم تستفد من الانتعاش السابق للسكان من أصل روسي. ويقول بيوتر رومانينكو، أحد المعمرين من أصل روسي، والذي ولد سنة 1923: "يستطيع المرء العيش جيداً هنا، ولكن عليه أن يعمل في الأرض ويحبها. ولا يحب اليافعون الأرض الآن، وهم يهربون بعيداً عنها".

عاش ذلك الرجل في كوخ ريفي بالقرب من مقبرة القرية. ورغم أن ساحته كانت ما تزال نظيفة، وملينة بالأوز والأغنام، إلا أن الخوف اعتراضي من فكرة أنه حالما سيعبر الطريق إلى المقبرة، ستختفي مزرعته؛ وسيؤدي ذلك إلى حصول فراغ آخر في قائمة السكان من أصل روسي. وفي مركز القرية، جلست مجموعة من الشباب الذين يرتدون المعاطف والأحذية الجلدية يحتسون الجعة تحت أشعة الشمس.

بيتجورسك

ترتدي بيتجورسك مجدها الإمبريالي الغابر مثل معطف قديم رائخ. فيها شوارع طويلة تحدها الأشجار من الجانبين، ومبانٍ قديمة بزخارف جميلة ولقواس فيها الكثير من الزجاج. لكن في الداخل، تمّ تصميم الكثير من المباني طبقاً للأغلوب السوفييتي بحيث يغطي جدرانها الورق البني، ولها رائحة مولف الحفلات. ولا يمكن فعل الكثير هنا، كما أن مناجعات المساء المعدنية القديمة الشهيرة، التي تنتشر في كل مكان على هضبة مارشوك، مهجورة تماماً، ولا يفتص المطاعم التي تشبه الكهوف، والملينة بالمقاعد والسجاجيد الحمراء، والثريرات والمفارش البيضاء للطاولات، سوى الزبائن. يقال إن

للناس توقفوا عن المجيء إلى بيتاجورسك عندما اندلعت الحرب في قشيشان، رغم أن الفساد انتشر قبل ذلك بكثير. وما زال هناك الكثير من المياه المعدنية في المنطقة. وهناك صنابير خاصة يمكن للمرء أن يملأ زجاجات منها مجاناً. وما زال للناس يشربون ذلك الماء رغم أن رائحته كريهة نظراً لاحتوائه على مواد معدنية.

ما يزال الكوخ الذي عاش فيه ليرمنتوف مع رفيقه في الجيش، وكتب تحت سقفه بطر من زماننا موجوداً لغاية يومنا هذا. تشير مسلة على هضبة مارشوك إلى الموقع الذي مات فيه في مبارزة وهو يعمر 26 سنة، وهو مكان شهير الآن لالتقاط صور للمتزوجين حديثاً.

لنقصت أيام المناظرات الكلامية، ومبارزات الحب والكرامية بين الشعراء المبعدين والأميرات القداميات من موسكو للاستمتاع بهواء الجبال منذ زمن بعيد. أما في الوقت الحاضر، فيبدو الأمر على شكل إعلان في الصحيفة المحلية: ثلاث فتيات يرغبن بالزواج من ضباط. لو كما هو الحال في فندق إنفورتريزيت حيث تعزف الفرقة للموسيقى أغنية لودي إن ريد (السيدة التي تلبس الأحمر) تحت أضواء الملهى الثلاثية الألوان، ويبدو عدد فتيات الليل أكبر من عدد الزبائن أنفسهم. وفي كهف بطل على المدينة بأسرها، حيث من المحتمل أن يكون بيتشورين قد التقى سراً الأميرة ماري في رولية بطل من زماننا، وجدت ستة شباب يسعلون من التدخين، ويسمعون إلى إحدى أغاني الرب من آلة تسجيل: أريد أن أرحلك، أرحك.

لم يطل للتغيير كل شيء. وعندما عاش ليرمنتوف هنا قبل 150 سنة، كانت روسيا تحاول غزو الشيشان وبالي للقوقاز. واليوم، ما تزال بيتاجورسك مليئة بمدافع الضباط الروس، فيما تقوم قوات الشرطة المزودة بأسلحة ثقيلة بحراسة المدينة من تمثال للفوار الشيشان. مع انتهاء عقود من القمع الشيوعي، أصبح مسموحاً الآن للسكان من أصل روسي، والذين ثاروا مخيلة ليرمنتوف، ارتداء بذاتهم للقيمة والتجمع من جديد.

ووفقاً للسكان، هناك الكثير من الأرباح في هذه المدينة. وفيما كنا نقود سيارتنا نحو بيتاجورسك في الضباب أثناء الليل، مررنا فجأة فارس عبر الشارع الرئيسي، وقطع أضواءنا الأمامية للحظة، قبل أن يختفي في الريف المليء بالصخور إلى يسارنا. وضغط السائق على المكابح، لكنني بقيت أقامل فيما إذا كان ما رأيناه حقيقة أم خيالاً.

4. أحلام الوحدة

بدا موسى شايينوف رجلاً عجوزاً يعرف أنه قد فشل عندما التقيته أول مرة في نالشيك سنة 1996. ولكنه قبل ذلك بعدة سنوات، كان يقود محاولة استثنائية لتحقيق حلم موغل في القدم لتوحيد الجبلين تحت سقف سياسي واحد. وهو نفس

طموح قادة شمال القوقاز من الشيخ منصور إلى التحالفات التي كان نصيبها الإخفاق خلال الثورة البلشفية. إذا وُحِّدَت الأمم المبعثرة الصعبة المراس، التي يقل عدد كل منها عن 100.000 نسمة، قواها سيصل عددها إلى عدة ملايين وستغير ميزان القوى في المنطقة بشكل مثير، وستعين على روسيا أن تواجه خصماً ندياً لها.

تَمَّع شايينوف، من قومية كابارد، بدعم معظم الوطنيين المتطرفين في المنطقة عندما أنشأ اتحاد شعوب القوقاز، ومنذ البدايات البسيطة، وضع الاتحاد أهدافاً طموحة للغاية في استبدال الحكم الروسي في شمال القوقاز، وانتخاب أعضاء للبرلمان من 16 قومية صغيرة مختلفة، وتشكيل قوات برلمانية في مرحلة لاحقة. على كل حال، فقد الاتحاد تماسكه بحلول سنة 1994، إلى جانب الكثير من الحركات الوطنية الأخرى، وتحتَّى شايينوف الذي خسر معركة معقّدة مع روسيا على النفوذ، وتحوّلت وحدة شمال القوقاز مجدداً إلى مجرد أسطورة.

عندما التقيته، كان شايينوف يرتدي قبعة تقليدية من الصوف تدعى باباخا ومغطياً طويلاً من الجلد الأسود. وكان سعيداً لرؤية صحافي بعد فترة طويلة من اختفاء اسمه من عناوين الصحف. جلسنا في غرفة أحد المكاتب خلف طاولة طويلة، ولكن دون علامات فارقة أو ورق أو إشارات؛ لا شيء على الإطلاق.

تَمَّ تأسيس المنظمة في آب سنة 1989 في سوخومي عاصمة أبخازيا، وهي منطقة هادئة على البحر الأسود ضمن جورجيا، وتقع إلى الجنوب من سلسلة جبال أديجي. كان الاسم الأصلي لمجلس الشعوب الجبلية للقوقاز. لقد وقع الميثاق ممثلون عن الشيشان، والأنغوش، والأديجي، والكابارد، والشراكس، والأباز، والشابسوغ، والأبخاز والآفار؛ أي كل شعوب جبال القوقاز الأصلية. وتَمَّ تعيين شايينوف رئيساً للمجلس.

جرى التركيز منذ البداية على مصير الأبخاز، وهم شعب يعود في أصوله إلى قبائل أديجي - شركسيا في شمال القوقاز. والأبخاز خليط من المسلمين والمسيحيين والوثنيين، والذين تَمَّ تهجيرهم جميعاً في القرن التاسع عشر، وتحوّلوا إلى أقلية لا تشكّل أكثر من 20% من عدد السكان البالغ 537.000 على أرضهم الأم تاريخياً. ويشكل الجورجيون حوالي 45% من تعداد سكان أبخازيا حالياً، والباقي روس وأرمن.

بصورة مطابقة لما كان يحدث إلى الشمال من الجبال، طالب الأبخاز بحكم ذاتي واسع، وبعد ذلك الانفصال عن جورجيا وتشكيل جمهورية مستقلة. كان القادة الوطنيون الأبخاز، وعلى رأسهم الأستاذ فلاديسلاف أوردزينا، ينظرون إلى الجورجيين على أنهم محتلون، بنفس الطريقة التي ينظر بها الوطنيون في شمال القوقاز إلى الروس. ورأى الجورجيون، أثناء سعيهم للحصول على الاستقلال من الاتحاد السوفياتي، والذي تحقق سنة 1991، في الثورة الأبخازية الثمانية مصدرًا للمتاعب تسببت به موسكو لإبقاء جورجيا ضعيفة داخلياً. إضافة إلى ذلك، يتساءل الجورجيون عن السبب الذي يدعو الأبخازيين للانفصال رغم أنهم لا يشكلون سوى أقلية؟ وتلك هي المشكلة القديمة لمعظم الاضطرابات في شمال ذلك الإقليم.

فيما تصاعد النزاع بين الأبخاز وجورجيا، صعدت منظمة شايينوف من نشاطها أيضاً. ففي تشرين الثاني 1991، عُقدَ مؤتمر آخر، وتوسّع الاتحاد المشكّل حديثاً ليشمل سكان أوسيتا الشمالية وعدّة قوميات أخرى من داغستان. أعلن الاتحاد أنه "الوريث الشرعي لجمهورية شمال القوقاز المستقلة (1918)". بكلمات أخرى، أعلن أنه دولة مستقلة بنفسها تمتد من بحر قزوين إلى البحر الأسود. قال شايينوف: "ليس لدينا أي فرصة حقيقية كأقليات صغيرة جداً، ويجب علينا الاتحاد وهو ما سيمكّننا من الفوز بالقوة السياسية والاقتصادية. لقد أردنا التحول إلى فيدرالية، لكن مع احتفاظ كل جمهورية بدولتها المستقلة، مع عضوية الأمم المتحدة".

بحلول نهاية سنة 1991، وعلى خلفية فشل العصيان المسلح الذي قام به المتشددون الشيوعيون في موسكو في آب، ومع اقتراب اغتيال الاتحاد السوفياتي، وصل الوضع في أبخازيا إلى نقطة الغليان. حاولت جورجيا، التي بلغ عدد سكانها آنذاك حوالي 5.4 مليون، والتي أحكمت السيطرة على أرضها، قمع ثورة الأقلية في أوسيتا الجنوبية، والتي أرادت مغادرة الحكم الجورجي والاتحاد مع أوسيتا الشمالية على الجانب الروسي من الجبال.

في آب 1992، اندفعت القوات الموالية عادةً لقائد جورجيا الجديد، وزير الخارجية السابق للاتحاد السوفياتي إدوارد شيفاردنادزه، في أراضي أبخازيا

وسيطرت على العاصمة سوخومي. رغم أن تلك القوات كانت أقرب إلى الميشيا السيفة التدريب منها إلى الجيش النظامي، إلا أنه كان ينبغي عليها التعامل مع الانفصاليين الأبخاز بسرعة، والذين هربوا شمالاً إلى القرب من الحدود مع روسيا.

رداً على ذلك، قام الأبخاز مدعومين بعناصر من الجيش الروسي ومجلس السوفيات الأعلى (البرلمان) في موسكو بمحوم معاكس مما أشعل حرباً وحشية تقابل فيها الجورجيين والأبخاز والذين كانوا فيما مضى جيراناً، وأصبحوا يقتلون بعضهم بعضاً آنذاك. ألقى كلا الجانبين، وخصوصاً الجورجيين، باللوم على الطرف الآخر لفظاعة العمليات الحربية والتي يعجز اللسان عن وصفها. كان الأبخاز متهمين بتطهير مناطق بأسرها عرقياً وذلك بحرق المدنيين أحياء ونهب القرى. كان الجورجيون متهمين بإشعال فتيل حرب كراهية ومحاولة مسح الهوية والأرشياف الوطني للأبخازيين، وخصوصاً التاريخ المكتوب للأبخازيا.

كان موسى شاينوف الطموح في انتظار مثل هذه الحرب، ولم يكن مسموحاً لأعضاء الاتحاد المسلحين عبور الجبال لدعم أوسيتا الجنوبية، ولكن هذه المرة لم يكن باستطاعة الروس أو النظام السياسي الموحد في شمال القوقاز والمدموم من موسكو الوقوف في طريق شاينوف. واندفعت كتائب أبخازيا من المتطوعين الشيشان، والأديجي، والكابارد والداغستانيين للقتال إلى جانب المتمردين الأبخاز.

تتراوح التقديرات لعدد المقاتلين الذين أتوا من شمال القوقاز بين 500 و1000. وفي كل الحالات، كانت مساعدة هؤلاء بالإضافة إلى مساندة الأسلحة الروسية الثقيلة، مثل قاذفات الأهداف الأرضية سوخوي، والأنظمة الصاروخية المتعددة الأغراض كراد، بالغة الأهمية بالنسبة للأبخاز. بعد ثلاثة عشر شهراً من نشوب الحرب، وفي تشرين الأول 1993، استطاع الأبخاز التفوق على الجورجيين واستعادة سوخومي. هجر معظم السكان من أصل جورجي، والذين يصل عددهم إلى 250.000، منازلهم وهربوا إلى الأراضي الجورجية.

اعتبر الاتحاد والقوميون في شمال القوقاز عموماً أن الحرب وإنشاء أبخازيا المستقلة علامة مضيئة لهم، ونصراً لكل الأمم الصغيرة. في رأي شاينوف، أثبتت الأحداث في أبخازيا ولأول مرة منذ سنة 1918 أن شعوب الجبال تستطيع العمل

سياسياً وعسكرياً كقوة موحدة. إلا أن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً لأن الدور الرئيسي فيما حدث كان للروس.

ويبقى دور موسكو في كل تلك الأحداث ضبابياً. ولم يكن لدى روسيا استراتيجية منسقة للتعامل مع القوقازيين حتى سنة 1993 - 94، وظهر ذلك الفراغ السياسي جلياً في أبخازيا. ورغم حياد روسيا على المستوى الرسمي، إلا أن قيادة القواعد العسكرية الروسية المحلية كان لهم دور كبير في الحرب. ولم يكن القادة الروس يتلقون التعليمات من المركز، وكانوا يتصرفون سواء في الأراضي الجورجية أو الأبخازية باستقلالية تامة عن بعضهم البعض، وأحياناً ضد بعضهم. وهكذا فيما كانت الطائرات الروسية تقصف الأراضي الجورجية نيابةً عن الأبخاز، زوّد الضباط الروس داخل جورجيا القوات الجورجية بالمعدات ليتم استخدامها ضد الأبخاز. وتقول المصادر العسكرية في موسكو أن أطقم الدبابات الروسية شاركت في الحرب إلى جانب الجورجيين، وواجهوا رفاق سلاحهم الذين يساعدون الأبخاز. وبالطبع، قد لا يكون لدى قادة القواعد في سوخومي خيار بديل عن مساعدة الأبخاز لأنهم كانوا موجودين في وسط تبادل إطلاق النار. ونظراً لانتشار الفساد في القوات المسلحة، كان من السهل أيضاً شراء تعاون القادة الروس المحليين.

وفضت الحكومة الروسية باستمرار الاعتراف بتورطها في تلك الحرب، حتى عندما كان الأبخاز يحصلون على أسلحة متطورة بشكل غامض. وعندما تقدمت الحكومة الجورجية بشكوى حول المقاتلات الجوية الروسية، نفى وزير الدفاع الروسي بافل غراتشيف بشدة أي اشتراك من قبل قواته. وادّعى بعدها أن القوات الجورجية تقصف بعضها (سيتم استخدام نفس الأكاذيب لاحقاً في الشيشان)، ثم اعترف بالحقيقة بعد ذلك. وأخيراً، تم إسقاط طائرة روسية.

وللمزيد من الحيرة والارتباك، كان من الصعب أيضاً تحديد طبيعة العلاقة بين موسكو والاتحاد. ولم يلق الأبخاز المساعدة من القوات الروسية النظامية وحسب، وإنما من وحدات مرتزقة الجناح اليميني الروسي، والروس القاطنين في القوقاز، وعملاء الاستخبارات السرية الروسية وفقاً للجورجيين. وشكّل كل هؤلاء، إلى

جانب وطني شمال القوقاز، تحالفاً غريباً قوامه قوات فوضوية حماسية تكسح ما كان إمبراطورية سوفياتية سابقاً.

ويعتقد البعض في روسيا والقوقاز أن الاستخبارات السرية الروسية كانت تسيطر على الاتحاد وتقوم بإدارته، بالاشتراك مع شابينوف، كجزء من خطة لإضعاف جورجيا. وقال شيفاردنازه أن روسيا في حالة حرب مع جورجيا. ووفقاً لبعض المحللين، قامت إدارة المخابرات العامة الروسية بتدريب شامل بأسايف، الشاب الذي كان قائداً لمقاتلي شمال القوقاز، للعمل في أبخازيا. وبكل الأحوال، يبدو من غير المحتمل أن يكون لدى موسكو الرغبة الإيديولوجية أو المادية لإدارة مثل تلك المؤامرات المعقدة في أواخر ثمانينيات القرن العشرين. ومن المحتمل أن يكون الجيش قد حاول ببساطة استغلال الاتحاد، وأن الحرب كانت أفضل فرصة لذلك، والعكس بالعكس. ورغم أن الاتحاد ربما كان مخترقاً من العملاء الروس، إلا أنه كان مليئاً أيضاً بالوطنيين المتشددین المناهضين للروس، والذين يعارضون البرنامج الروسي بالتأكيد. وبعد أبخازيا، كان الاتحاد يتطلع لاستقلال كل شمال القوقاز، وكان التنسيق متزايداً بينه وبين القائد الشيشاني الانفصالي جوهر دوداييف. ولا بد أن الروس ندموا على اليوم الذي سمعوا فيه باسم بأسايف، لأنه أصبح مع كتيبه الأبخازية سوطاً على القوات الروسية في الشيشان بعد ذلك بستين.

وتقول سفيتلانا تشيرفوناي، في كتابها الذي يقدم وجهة النظر الجورجية حول أبخازيا بعنوان *النزاع في القوقاز*، أن "الاتحاد لم يكن سوى صنعة روسية خرجت عن السيطرة مثل "الجنّي الذي تحرّر من الزجاجة". "وأثبتت المنظمة أنه لا يمكن لأحد السيطرة عليها. وأثبتت شعوب الجبال التي تنوق إلى الحرية، والتي تعارض العيش سواء في الإمبراطورية السوفياتية أو الروسية أنها صعبة المراس ولا يمكن توجيهها بسهولة ضد جورجيا الديمقراطية".

وكانت الحرب الأبخازية المحاولة الأخيرة لإعاقة سعي شيفاردنازه لفصل جورجيا عن الفلك الروسي. وانتهت الحرب المبكرة في أوسيتا الجنوبية بمخطة وساطة روسية فشل معها الجورجيون في استعادة السيطرة على تلك الأراضي.

وعندما هزم الأنجاز جيش شيفاردنادزه في أيلول سنة 1993، استفاد الجورجي الثائر والرئيس السابق زياد غامساخورديا من الفوضى السائدة لإعلان عصيانه المسلح. ولم يترك ذلك أمام شيفاردنادزه، المحاصر في تبليسي، سوى خيار واحد للخروج من الأزمة؛ أي المساعدة الروسية. ووعدت موسكو بالاستجابة، ولكن ليس دون مقابل: توقيع شيفاردنادزه على اتفاقية انضمام جورجيا إلى "رابطة الدول المستقلة"، وموافقته على استضافة 20.000 جندي روسي. وفي 8 تشرين الأول، انضم القائد الجورجي إلى "رابطة الدول المستقلة". وكان الوقت قد تأخر كثيراً لقلب الأوضاع في أنجازيا، ولكن تدخل قوات المارينز الروسية سمح لشيفاردنادزه باستخدام قواته لزعمة غامساخورديا في بضعة أيام فقط، وسمح له ذلك بالحفاظ على السلطة.

وكانت روسيا قادرة على تحويل تلك الفوضى العارمة لمصلحتها، وبسط سيطرتها من جديد على جورجيا. وكان ذلك ضرورياً دائماً للسيطرة على القوقاز بشكل عام. ولم تكن جورجيا المسيحية، بساحلها الطويل على البحر الأسود، توفر موطئ قدم هام في ممر القوقاز وحسب، وإنما تحد كل الجمهوريات الصغيرة السبع التي تمتع بالحكم الذاتي في شمال القوقاز. وبدون جورجيا، سيكون الجنوب الروسي عرضة دائماً للحركات الانفصالية الداخلية والتهديد الخارجي من تركيا.

ومثل ذلك الانتصار السياسي الروسي انتقاماً لحلو المذاق للجيش الروسي والقوى الأخرى التي تحرق شوقاً للإمبراطورية السوفياتية، والتي كانت تلوم شيفاردنادزه على تفكيك الوجود السوفياتي في أوروبا الشرقية عندما كان وزيراً لخارجية غورباتشوف. وكان أحد أهداف تلك الحركة اكتشاف نتيجة تكتيكات اليد القوية على المدى الطويل، لأن الروس تركوا الجورجيين يبنون علاقات واسعة مع الغرب ومع أوكرانيا عبر البحر الأسود، متجاوزين جارهم الشمالي.

وكان النصر الأنجازي، كما حدث في أوسيتا الجنوبية، باهظ الثمن. وبعد مرور ثلاث سنوات على انتهاء تلك الحرب، ما زال الفقر الشديد يعصف بأنجازيا التي أصبحت شبه خالية من السكان ولم تحصل على الاعتراف الدبلوماسي لها. وانتشر حوالى 3000 جندي روسي على طول الحدود الجورجية الأنجازية (انخفض

العدد إلى 1600 لاحقاً)، كقوات حفظ سلام في الظاهر، ولكنها تضمن في الواقع عدم حصول أبخازيا على الاستقلال التام. واستمر شيفاردنازه في التأكيد بمرارة على وجود أطراف تلاعبت بالنزاع، ولكنه لم يستطع فعل شيء تجاه ذلك. ورغم تصاعد الدعوات الجورجية لإنهاء عمل "قوات حفظ السلام"، إلا أن الجميع كانوا خائفين من أن يكون ذلك مجرد محاولة جورجية أخرى لاستعادة السيطرة على إقليمها، والمزيد من الموت في بساتين الحمضيات والكروم، دون التأكد من إحراز النصر.

و كنت أظن شاينوف مجرد شخص مخادع قبل أن ألتقي به. و كنت أعتقد أنه يؤمن جدّاً بقدرة شمال القوقاز على تمخّذ السيطرة الروسية، وأن الاتحاد الحالي قد يحقق نجاحاً أكبر مما حققه سلفه الذي لم يستمر فترة طويلة سنة 1918. ولكن الحرب في أبخازيا لم تحرز سوى نجاح وهمي. ولم يكن نصر الجبلين موضع تساؤل وحسب - خصوصاً بعدما ساعدوا روسيا على تقسيم وحكم جورجيا - ولكنهم أثبتوا عجزهم في المحافظة على تعاونهم عند الضرورة، وتراجعهم إلى الجانب الشمالي من الجبال.

وانفجرت التناقضات الداخلية بين 16 شعباً جبلياً ضمن الاتحاد نفسه. وكانت شعوب الأديجي والشيشان منقسمة. ولم ترغب شعوب البالاكار والكاراشاي، المتنازعة مع شعوب الأديجي، في الانضمام إلى الاتحاد. ولم يكن الجميع سعيداً بتزايد نفوذ الرئيس الشيشاني دوداييف. وكان هناك أيضاً انقسامات بين المتشددين الذي أرادوا مواجهة السلطة الروسية والمعتلين، إضافة إلى انقسام بين المتعصبين الإسلاميين وأولئك الذين يحاولون إبقاء الدين خارج المعادلة السياسية.

وأصرّ الاتحاد دائماً على أنه صانع سلام إقليمي وليس منظمة قتالية، وفي نهاية سنة 1992، كان لديه الفرصة لممارسة نفوذه في قضية محبوكة بعناية: نزاع على الأراضي بين الأوسيتيين الذين يدعمهم الروس والأنغوش. ولكن الاتحاد كان عاجزاً، ووقف بلا حراك أمام نزاع حدودي تحوّل إلى حرب، وأثبت الروس مرة أخرى أنهم القوة الإقليمية الوحيدة. وعند بداية الاضطرابات في الشيشان سنة 1994، مات الحلم بجمهورية الجبال كقوة سياسية.

نالشك، كهاردينو - بالاكريا

كان شابينوف يدعى يوري، وهو اسم روسي محض. ولكنه غير اسمه الأول إلى موسى عندما دخل السياسة الوطنية. وما يزال ذلك النوع من الكبرياء، والذي يقترب من الغرور، موجوداً لديه لغاية الآن. وعندما طلبت أخذ صورة فوتوغرافية له خارج مبناه السكني في نالشك، مشى حولي ليجعل أشجار الشارع خلفية للصورة، وليس مدخل منزله المتهالك السوفييتي الطراز، والذي قد يبدو أكثر إثارة. ولم أعترض.

ويلعب شابينوف الآن دور الجاهل الذي لا يعرف شيئاً بعد أن فشل الاتحاد في تحقيق أهدافه. وأخبرني أن السلطات تحقق في نشاطاته وأنه يغير مكتبه باستمرار. وقال: "إنهم يطاردوننا. ويطردوننا خارج المكان"، مشيراً إلى مكتبه الخالي. "وقد طردونا من مكتب آخر قبل ذلك. ويصل الكثير من شعبنا انطلاقاً من منازلهم".

واستقرت في الحقيقة وجود الكثير من "شعبه" فعلاً، أو إذا كان على تواصل مع السلسلة بنفسه. إنه محبط وغاضب للغاية، وكلما تحدثت إليه أكثر، كلما أصبحت رؤاه أكثر غموضاً.

"عندما ينتهون من الشيشان - وهذا مسأخذ وقتاً طويلاً جداً - سيتابعون. وسيوجهون إلى داغستان وأنغوشيا. وسوف يسحقون الأوسيتيين. وسيرغب الكثير من الناس في القوقاز بإقامة مجرد مستعمرة ضمن روسيا. ولكن روسيا لن تتوقف عند ذلك؛ إن هدفهم هو تدمير القوقاز".

ورغم أنهم موجودون الآن في الشيشان، إلا أن يلتسن يقوم بتجهيز جيشه المكون من مليوني جندي للقتال في أي مدينة روسية في حال خسر الانتخابات. وفي تلك الحالة ستشب حرب أهلية في روسيا دون شك. وقريباً، كل تلك البلدان الغربية، التي وقعت دون حراك فيما كان يتم تدمير الشيشان، ستواجه أيضاً الجيش الروسي المتوحش بأسلحته النووية. ولن يشبه الوضع لألمانيا، وإنما سيكون أسوأ؛ هنتر مع أسلحة نووية. وعندها سيرى القادة الغربيون ما سيحل بهم".

ويتابع: لقد تعلمت الشعوب درساً من الآن. ولكن ليس من طيبة شعوب القوقاز أن نصمت لفترة طويلة. وستفزع روسيا الثمن. وسيعانون من عقاب ديمتريفسكي".

5. الدماء الأولى

في القوقاز، الشيء الوحيد الذي لا يمكن للصفح عنه هو الدم.

فاتولي إيزايكو، أستاذ التاريخ في جامعة فلاديفقاز.

أهل أوسينا الشمالية متميزون، لأنهم يعيشون ضمن جيران يتكلمون إما لغات

القوقاز الأهلية أو اللهجات التركية، وهم الوحيدون الذين يتكلمون لهجة فارسية ترتبط بشكل غير مباشر بلغة أجدادهم السارماتيان. ويبدو أن مصر الأوسيتيين مرتبط دائماً بمساعدة الغزو الروسي. وتحد أراضيهم جانبي الممر الاستراتيجي الرئيسي لسلسلة القوقاز، وهو الممر الذي بنى فيه الروس الطريق العسكري الجورجي الرائع. إضافة إلى ذلك، تدين الأغلبية الأوسيتية بالمسيحية، فيما يعتقد جراحهم الإسلام منذ القرن التاسع عشر، وهو ما يجعل الأوسيتيين أقرب بشكل طبيعي إلى روسيا الأرثوذكسية.

وعندما انهار الاتحاد السوفياتي، أخذت أوسيتا الشمالية تفتش عن هويتها العرقية الخاصة بها، وأصبح سكانها مهتمين بوضعهم الخاص في شبكة القوقاز المعقدة. وكانت هناك قضيتان مميزتان بشكل خاص، وتزيد كلتاهما من الخوف القائم أساساً من زيادة التعداد السكاني في الجمهورية الذي يصل إلى 632.000 نسمة. والقضية الأولى هي الحرب في أوسيتا الجنوبية عبر الجبال، والفيضان من اللاجئين الذي نتج عنها؛ أي ما يقارب 100.000 وفقاً لبعض التقديرات. والقضية الثانية هي المشكلة الأكثر تعقيداً المتمثلة في النزاع مع الأنغوش على الأراضي الواقعة على جانب أوسيتا الشمالية من الحدود، وهي منطقة إلى الشرق من فلاديققاز وتدعى بريغورودني. وكانت هذه الأرض تعود للأنغوش قبل التهجير، وأرادوا استعادتها ضمن سلطتهم. ويمثل ذل النزاع حلقة ضمن سلسلة من النزاعات التي تغلي وتهدأ بين الفينة والأخرى عبر شمال القوقاز دون الوصول إلى مواجهة كبيرة. ولكن هناك احتمال حصول الانفجار هذه المرة، وسيجد الجبليون أنفسهم يقاتلون الجبليين، وستعمق الانقسام بين الأوسيتيين وجراحهم المسلمين.

ويعتبر الأوسيتيون أنفسهم أكثر تحضراً من كل شعوب شمال القوقاز الأخرى، ويتحدرون من سلالة أعلى من باقي "الغورتسي" الآخرين. وينظر الكثيرون برعب إلى التأثير العميق للإسلام في أجزاء من هذه المنطقة، ويعتبرون المجتمعات القائمة على العلاقات القبلية من داغستان إلى أنغوشيا بدائية. وينظر الأوسيتيون إلى مزيجهم الخاص من المسيحية، والإسلام والرثية على أنه نعمة.

وهناك أيضاً قانون تراتبية داخلي يعتبر فيه الأوسيتيون الشماليون أنفسهم في درجة أعلى من أقربائهم في أوسيتا الجنوبية.

وتبدو مدينة فلاديقفقاز عالمية الطراز نسبياً. ونساؤها طوال القامة وبارعات الجمال، ويرتدين ملابس مزرکشة، ويتمتعن بحرية أكبر مما تتمتع بها النساء في الجمهوريات الإسلامية الأخرى. ويجلس الرجال والنساء معاً في المطاعم، وهو الشيء الذي لا يمكن رؤيته في أي مكان آخر هنا. ويتمتع مركز المدينة بسحر خاص، وهو مليء بعربات القطار الكهربائي، والشرفات المعلقة والأبراج المصطنعة. وفي الصيف، ينزع الرجال والنساء ملابسهم عند المسابح حول بُرك الماء قرب نهر تيرك. ووجدت منظر النساء اللواتي يرتدين البكيني منعشاً بعد المشاهد الغريبة التي رأيتها في شمال القوقاز. وشعرت كما لو أنني عدت إلى روسيا.

ولا يختلف أهل أوسيتا الشمالية عن جيرانهم في هوسهم بالماضي والعرق الذي ينتمون إليه. وكانت تلك هي المواضيع المفضلة لدى بوجي، سائق سيارة الأجرة التي أقلتني. وقد كان مزاجه جيداً، ليس فقط لأنه سيأخذ أجرة جيدة للذهاب إلى غابات الوثنية خارج فلاديقفقاز، ولكن لحصوله على جمهور بحجم على سماع نظرياته حول تميز الأوسيتيين.

وكان بوجي المصارع الهاوي يصرخ كما لو أننا في سيارة مكشوفة ونسير بسرعة عالية، وليس في سيارة بطيئة من نوع فولغا. "هل تعرفون لماذا لا توجد أعداد كبيرة منا؟ لأننا نقاتل في كل أنحاء العالم. لقد أطلقوا علينا اسم ألان ونقاتل الجميع في كل مكان، مثل المرتزقة. ونحن أقوياء. ولا نتحدث عن نفسي بالطبع، لأنني لا أريد أن أقتل أي شخص، فأنا مسيحي ومسامح؛ نحن جميعاً كذلك. خذوا زوجتي على سبيل المثال، إنها مسلمة، وتقيّة."

وتابع بوجي: "هل تعرفون من هو أعظم أوسيتي على الإطلاق؟ ستالين. لم يكن جورجياً، وإنما أوسيتياً. ولا تصدّقوا من يقول إنه كان سيئاً. لقد كان قائداً عظيماً. وبكى الناس من كل الأعمار عندما مات لأنه لا يتكرر مثل هؤلاء الرجال سوى مرة كل قرن من الزمن."

وذكرت له التهجم والقمع، لكن بوجي لم يكن يستمع، وتابع قائلاً: "كان ستالين ذكياً. ولم يكن يسمح بشكل خاص لسكان البلطيق وهولاء الخونة بكتابة الشعر بلغاتهم الخاصة لأنه كان يعرف إلى أين يقود كل ذلك. وقد كان محقاً: حالما حصلت دول البلطيق على الاستقلال، انهار الاتحاد السوفياتي بأكمله".

وفي إحدى الأمسيات وبينما كنا في مقهى في فلاديفقاز، بدأ أناتولي إيزاينكو، أستاذ التاريخ المتحمس من جامعة المدينة، كلامه من حيث انتهى بوجي. وتكلّمنا مطولاً عن السارماتيان والحملات العسكرية التي قاموا بها عبر أوروبا، والسيثيان الأوائل. وصدحت موسيقى إيقاعية ساحرة من مكبرات الصوت المخفية في مكان ما في دوالي العنب التي تتسلق جدران المقهى. وقال أناتولي بإثارة: "اسمعا إنما موسيقى السيثيان التي نسمعها. إنها تعود إلى آلاف السنين. وحضارة سيثيان موجودة حولك في كل مكان. وأنت تجلس بين شعب سيثيان. وإذا نظرت إلى ما تأكله، (نوع من البيتزا الأوسيتية المليئة بالجبن)، ستجده من حضارة سيثيان أيضاً. إنما رمز للشمس التي كانوا يعبدونها. وإذا نظرت إلى الطريقة التي قطعتها بها، وإلى الاتجاهات الثمانية، ستجد أنها أشعة الشمس؛ إنه رمز شمسي".

وقال أناتولي، وهو رجل ساحر نصفه روسي ونصفه أوسيتي، أن الأوسيتين يؤمنون بأنهم "شعب أعلى مكانة نوعاً ما. ولا يهتمون كثيراً بالأرض، كما يفعل الأنفوش والشيثان. وبالنسبة لهم، لا تشكل الأرض أهمية قصوى، وإنما يتركز اهتمامهم على السروح، والأصدقاء والتقاليد. ولديهم تاريخ لا يضاهيه سوى اليهود". وعندما يسافر المرء للمرة الأولى في شمال القوقاز، تبدو مثل هذه الأشياء مرفقة، لكنه يعتاد عليها أخيراً، وتبدو في النهاية منطقية.

ولا تحتل الأرض حيزاً واسعاً من الوعي عبر الحدود مع أنفوشيا، رغم أنها تعني الكثير بالنسبة للشعوب المكبوتة. وعندما قام ستالين بتهجير الأنفوش، لم يكونوا يفكرون سوى بالعودة إلى وطنهم. وتعرّضت ثقافتهم ومورثاتهم الجينية للتهجوم، ولكن الأرض كانت شيئاً ثابتاً لا يمكن إزالته. ورغم أنهم لم يكونوا موجودين رسمياً، وتمت إزالتهم من الموسوعات وتوزيع أراضيهم إلى أمم غيرهم، إلا أن المبعدين كانوا يعرفون مكان دفن آبائهم، وكان ذلك بالنسبة لهم دليلاً

حاسماً على هويتهم الخاصة. وأصابتهم الصدمة عندما اكتشفوا بأن أراضيهم الزراعية الخصبة في بريغورودي قد أحاطت بها الحدود من كل جانب وسكنها الأوسيتيون.

وفي ظل الحكم السوفييتي اللاحق للنفي، اشترك الأنغوش مع الشيشانيين في جمهورية واحدة. وعندما أعلن الشيشانيون الاستقلال عن روسيا سنة 1991، قرر الأنغوش بشكل ساحق عدم اللحاق بهم، وحصلوا عوضاً عن ذلك من موسكو على جمهوريتهم الخاصة التي تمتع بالحكم الذاتي ضمن الفيدرالية الروسية. ولم يكن لدى جمهورية الأنغوش الجديدة، التي اكتسبت الوجود القانوني في كانون الثاني 1992، أي مدينة أو شيء آخر لتباهي به. وتحولت قرية نازران السريعة النمو إلى عاصمة للجمهورية، فيما تولّى الرئاسة الجنرال السابق في الجيش الروسي رسلان أوشيف، والذي كان على موكبته تفادي المواشي أثناء مروره عبر البلدة. وبالنسبة للأنغوش البالغ عددهم آنذاك 270.000 نسمة، كانت استعادة السيطرة على أراضي بريغورودي عبر حدود أوسيتا الشمالية الشيء الأكثر أهمية على الإطلاق.

وظهر أن السواء لموسكو خطوة أولى جيدة، واستحاب الرئيس يلتسن بإيجابية، ووعد الأنغوش خلال حملته الانتخابية سنة 1991 بحل مشاكلهم في نهاية تلك السنة. وشجّعهم أيضاً إصدار قانون سنة 1991 الخاص بإعادة توطين الشعوب المنفية، وأن رئيس البرلمان الروسي رسلان خزبولاتوف كان شيشانياً. وأثناء ذلك، مع أو بدون موافقة، أعلن الأنغوش استعادة أراضيهم. وبحلول سنة 1992، عاد 30.000 إلى بريغورودي وفقاً لأرقام رسمية، رغم أن الرقم الحقيقي، بما فيه عدد الأشخاص الذين خرقوا نظام الإقامة الأوسيتي، يقترب من 60.000. إضافة إلى ذلك، ولزيادة الضغط لضم الإقليم رسمياً إلى أنغوشيا، زاد الأنغوش من مطالبهم الاستفزازية لضم الجانب الشمالي من مدينة فلاديقفاز، أي كل شيء على الضفة اليمنى لنهر تيرك، بما فيها المنطقة الصناعية. وكان هذا الجزء من فلاديقفاز أراضي أنغوشية منذ سنة 1924 في الأيام الأولى للاتحاد السوفييتي، فيما كان الأوسيتيون يسيطرون على الضفة اليسرى. ولكن الخرائط تغيرت منذ سنة 1934، قبل النفي بقليل، وتم اعتبار فلاديقفاز بعدها جزءاً من أوسيتا الشمالية.

وتصاعد التوتر سنة 1991. وقام الأوسيتيون بإزعاج الأنغوش في بريغورودي، وبدأت هجرات جماعية بطيئة من اللاجئين بعبور الحدود إلى أنغوشيا. ورفض العديد من الأنغوش الخضوع للأمر الواقع. وخلال تشرين الثاني من تلك السنة، تمّ تنظيم مظاهرات صاخبة في نازران بإلهام من العصيان المسلح في الشيشان. وبدأ كلا الجانبين بحمل السلاح. واستطاع الأنغوش الحصول على ما يريدونه من سوق السلاح الشيشاني، وقاموا بتجميع كامل قوتهم في فلاديفقاز. وكانت أوسيتا الشمالية هي الجمهورية الوحيدة في روسيا التي تتمتع بالحكم الذاتي، والتي تستطيع إنشاء حرس وطني رسمي، والذي يعتبر قوات مسلحة نظامية. وإضافة إلى ذلك، أصبحت الجمهورية القاعدة الجديدة لبعض القوات التي انسحبت من الاتحاد السوفييتي السابق وأوروبا الشرقية، بما فيها ألمانيا الشرقية. وجاء مع تلك القوات مزيج من صفقات الأسلحة في السوق الرسمية والسوداء. وكانت الحرب في أوسيتا الجنوبية مصدراً آخر للأسلحة، وانتقل المحاربون السابقون هناك إلى أوسيتا الشمالية.

ولم يكن واضحاً من بدأ بإطلاق النار أولاً. وفي أواخر تشرين الأول عام 1992، مرّت عربة جنود مدرّعة تابعة للقوات الأوسيتية الشمالية فوق طفل أنغوشي في إحدى قرى بريغورودي. ونتج عن ذلك اشتباكات بين الجماعين الأنغوشية والشرطة الأوسيتية، مما أدى لمقتل عدد من الأشخاص من كلا الجانبين. وفي 24 تشرين الأول، أصدر القادة الأنغوش أوامر لقراهم بإقامة المتاريس والاستعداد للدفاع. وفي 30 تشرين الأول، بدأ الأوسيتيون بضرب القرى الأنغوشية بالقنابل. وهكذا أخرج الأنغوش في اليوم التالي الشرطة الأوسيتية من قرية تشيرمن، واستولوا على الأسلحة وهاجموا المناطق الأوسيتية حتى سيطروا على كامل منطقة بريغورودي. ومع استمرار القتال العنيف، أعلن الرئيس بوريس يلتسن حالة الطوارئ في المنطقة في 2 تشرين الثاني، وأمر 3000 جندي تابعين للداخلية الروسية ووحدات مظليين بالتدخل.

وانتهت المعركة بكارثة للأنغوش الذين افتقروا للسلاح الثقيل، وتمّ إخراجهم من منازلهم حتى خلت بريغورودي بالكامل. وأحصى المسؤولون الروس 65.000

لاجئ من أوسيتا الشمالية فرّوا إلى أنغوشيا. وفي الأرقام الرسمية، مات 419 أنغوشياً، و171 أوسيتياً و60 من قوميات أخرى. وتشير أرقام أخرى إلى مقتل 750 شخص وجرح 500. وبالمحصلة، تم إحراق كل المنازل الأنغوشية التي يبلغ عددها 3000.

وقال الأوسيتيون أن اللوم يقع على الأنغوش، وأنهم أثاروا ردود فعل غاضبة بالمحجوم على فلاديفقاز. والقصة التي يمكن سماعها في كل مكان، والتي تتكرر باستمرار مع أن من المستحيل إثباتها، أن المدنيين الأنغوش في أوسيتا الشمالية عرفوا مقدّماً بالمحجوم الأنغوشي الكبير للسيطرة على بريغورودني وفلاديفقاز، وتسلبوا سرّاً من منازلهم قبل بدء الهجوم، وتركوا جيرانهم وأصدقاءهم من الأوسيتيين دون تحذير. وقال لي أحد الأوسيتيين: "فلاديفقاز بالنسبة للأنغوش مثل روما بالنسبة للبرابرة".

ولم يكن الأنغوش بريئين تماماً، فقد كان الوطنيون يطالبون بتقسيم فلاديفقاز. ويمكن إلقاء اللوم على المقاتلين الأنغوش بنفس المقدار على نظراتهم الأوسيتيين اليافعين في إثارة الحوادث القاتلة الأولى. ولكن لم يتم شن هجوم على فلاديفقاز، وجرى القتال في بريغورودني. وتبدو القصة القاتلة بأن السكّان الأنغوش قد خانوا جيرانهم الأوسيتيين عن سابق إصرار وتصميم سخيفة. فقد تمّ إلقاء القبض على الكثير من الأنغوش دون أن يعرفوا بشن الحرب المفاجئ، وكان عليهم الفرار من أوسيتا الشمالية تحت ظروف يائسة، وغالباً ما تكون خطيرة، فقط بعد بدء القتال.

وكان القتال الحقيقي من جانب واحد فقط، وكان الأمر شبيهاً بالبرنامج التدريسي أكثر منه معركة حقيقية. وتعرضت القرى لثيران المدفعية أولاً، فيما كانت المروحيات تقوم إما بإطلاق النار أو تحديد الأهداف. ثم هاجمت القوات المزودة بعربات الجند المدرعة المستعمرات، ولم يكن أي من الأنغوش بمنأى عن الأذى. واشتعلت النار في الكثير من منازل الأنغوش، ولم يكن ذلك نتيجة القتال. ويمكن رؤية ذلك في الأنقاض بعد مرور سنوات على الحرب. واتهم الأنغوش القوات الروسية في المنطقة بدعم الأوسيتيين بشكل مباشر لتنفيذ تطهير عرقي في

بريفرودني، ولم تكن دعواهم دون أساس. ولم يكن باستطاعة سوى القوات المسلحة الروسية تقديم الأسلحة الثقيلة، والمروحيات، والأطقم القتالية على ما يبدو. وهناك حقيقتان واضحتان للعيان. الأولى، لم تتدخل القوات الروسية، كما ينبغي لها، لمنع ذبح المدنيين. والثانية، أن النتيجة النهائية للحرب - والتي قد لا يكون الهدف من ورائها كما يصرّ الأوسيتيون - كانت التطهر العرقي. وهذا ما تحقق عندما قرّ الأنغوش بشكل جماعي حفاظاً على حياتهم.

و كان المشهد كئيباً عندما ذهبت إلى بريفرودني في شباط سنة 1996. ورغم مرور ثلاث سنوات والوعود التي قطعها موسكو وفلاديففاز بالعمل الجاد، لم يتمكن سوى جزء يسير من الأنغوش من العودة إلى منازلهم. ولا يمكن رؤية سوى هياكل الباني المهجورة على جانبي الطرق في قرى بريفرودني، فيما لا يزال الآلاف من الناس يعيشون قرب الحدود مع أنغوشيا في معسكرات لاجئين إلى جانب الطريق.

وعاش العدد القليل من الأنغوش الشجعان بما فيه الكفاية للعودة إلى بريفرودني، والذين استطاعوا الحصول على مستندات أوسيتية ضرورية، في أكواخ مخصصة للبنائين تدعى فاغرنشيكس، أو حاولوا ببطء إعادة بناء منازلهم. وإلى جانب هذه القضايا المثبتة رسمياً، لم يضع أي أنغوشي قدمه على الأرض الأوسيتية والعكس بالعكس. وتمّ إحاطة الحدود بمنطقة أمنية، ونقاط تفتيش لوزارة الداخلية الروسية، ولكن العنف استمر. وخلال السنة الأولى فقط بعد انتهاء الحرب، تمّ رصد غارات عابرة للحدود من كلا الجانبين مسؤولة عن تفجير ما يصل إلى 167 منزلاً أنغوشياً، و107 منازل أوسيتية. وفي تلك الأثناء، كان لاجئو أوسيتا الجنوبية يحتلون منازل الأنغوش الفارغة في بريفرودني. وكان أهل أوسيتا الجنوبية مكروهين من الأنغوش، وينظر إليهم أهل أوسيتا الشمالية بشكل متزايد على أنهم عبء ثقيل، لكن لا مكان آخر يذهبون إليه، بعد أن تدمرت منازلهم في جورجيا.

وفي قرية داشنوي المهجورة في بريفرودني، وهي واحدة من 13 قرية عانت من مصير مشابه، لم تتمّ إعادة بناء سوى 40 من أصل 400 منزل أنغوشي أصلي. وخلف الانقراض كان هناك شارع من المنازل التي لم يصلها العنف وما تزال مسكونة؛ إنما منازل أوسيتية. وكان الأنغوش الذين عادوا قلقين من أن يتمّ ضررهم

أو إطلاق النار عليهم، وتعرضوا لعملية إذلال مستمرة على رقعة الأرض التي ولدوا عليها. وما تزال رادمخا، وهي امرأة تبلغ 32 سنة، والتي عادت لتحاول بناء منزلها في داشنوي من جديد، تذكر الساعات الأولى من الحرب بوضوح. وتقول: "بدأت في ليلة الجمعة - السبت. وسمعتنا يوم الأحد أن القوات الروسية آتية وقلنا: "الحمد لله، سينتهي كل شيء قريباً". ولم يكن لدينا قبر في منزلنا، ولهذا كنا دون حماية من القنابل. ولكن الحرب لم تتوقف، وإنما سارت نحو الأسوأ. وفي الوقت الذي غادرنا فيه، كان الناس يموتون في كل مكان والمنازل تحترق. وكان هناك مروحيات تحلق فوق رؤوسنا دائماً".

وعاشت رادمخا مع قريتين لها - يمثلن ثلاثة أجيال مختلفة - في "فاغونشك" واحد يقع في زقاق موحد قريب من أنقاض منزلهن القديم. واستولى اللاجئون من أوسيتا الجنوبية على مبنى سكني يبعد حوالي كيلومتر واحد. وقالت رادمخا: "كان علينا جلب خبزنا في شاحنات خاصة من أنغوشيا كل يوم لأننا لم نستطع الذهاب إلى السوق. وكان الأطفال يقومون بإلقاء الحجارة علينا". ورغم أنني وجدت صعوبة في تصديق الأمر، إلا أنني مشيت إلى المتجر، ومررت شاحنة الخبز بجاني، وكان هناك أطفال من أوسيتا الجنوبية يركضون في الشارع ويصرخون، رغم أنهم لم يكونوا يرمون الحجارة. ودخل المتجر، كان لدى الأوسيتيين الجنوبيين تقاليد المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية: "لا نريد إقامة أي علاقة مع هؤلاء الأنغوش، لقد قتلوا الأوسيتيين، ويتساعلون: كيف لنا العيش مع العدو؟ هذه أراضٍ أوسيتية، والجميع يعرف ذلك، وهو أمر واضح".

واكتشفت بدهشة أن الرجال الذين يعملون على أنقاض أحد منازل الأنغوش لم يكونوا أنغوشاً على الإطلاق، وإنما كانوا أوسيتيين. هل كان ذلك مثلاً عن إعادة الإصلاح؟ سألت البنالين عن سبب قبولهم بهذا العمل، وقال أحدهم وهو يصحح كلامه: "لم يكن لدينا عمل، ولهذا نبي لهم، لا ليس لهم، ولكن لكسب بعض المال". وسألته كيف يتعاملون مع الأنغوش، وأجابني أحدهم: "كيف لك أن تتعامل مع العدو؟". فيما قال آخر: "هذا صحيح، لقد بدأوا الحرب. وهم سحوا لها وحصلوا عليها. إنهم مسؤولون. لقد فجروا منازلهم بأيديهم".

ولم تكن هناك سيارات على الطريق الموصل عندما حاولت الرجوع إلى فلاديففكاز بعد ظهيرة ذلك اليوم. واستطعت سماع أصوات بعيدة لنيران المدافع. وأخبرني أحد المارة: "لتدرب لأجل الشيشان". وكان هناك عدة رجال شرطة يقفون على ضفة النهر الرمادي. ونزلت لإلقاء نظرة. وكان هناك امرأة غريقة وقد انتفخ جسدُها العاري تقريباً، فيما كان رجال الشرطة يدخنون تحت المطر. وأخيراً، سمعت صوت حافلة، وكانت تحمل بعض العمال الأوسيتيين، وانتقلنا من بريغورودي إلى فلاديففكاز بصمت كامل.

وللإحساس بالألم والكراهية اللتين تسبب بهما ذلك النزاع، ما على المرء سوى زيارة متحف تاريخ الأنفوش في نازران. فلقد تم تخصيص قاعة واحدة للحرب وعمليات التهجير التي قام بها ستالين. وكان الأمر بالنسبة للأنفوش تكراراً لما يحدث باستمرار. وتوجد في المتحف فهارس مليئة بالصور الدموية عن الحرقاة الأنفوشية في بريغورودي، وعن نساء تم قطع رقابهن. ويمتلئ الحائط بصور لرجال مبتسمين، شبان وشيوخ، ماتوا وهم يقاتلون، ولأطفال قضا نعيمهم.

وتظهر في إحدى اللوحات دبابة روسية تحول عبر الحقول، والمنازل المحترقة، وأنفوشي مثبت بعمود يحترق، وأوسيتي يطعن امرأة، وخنزيران يشترطان رضيعاً أنفوشياً مسلماً إلى نصفين. ويظهر ذلك الرعب في لوحة أخرى لهرونيمس بوش: أشلاء أجساد، وقوات في زي عسكري سوفياتي، ومروحيات ونيران تملأ السماء، وبوريس يلتسن صغير يخرج من طاحونة. وتصور اللوحة التالية الرمز الكامل للنفي وهو أجساد متحملة مُلقاة إلى جانب مسارات القطارات الفارغة.

وعانى الأنفوش أكثر من غيرهم في تلك المذبحة التي قتلوا فيها منازلهم. وساهمت الحرب في أوسيتا الشمالية بإيقاظ الشعور القومي أيضاً. ورغم ادعائهم بامتلاك حضارة أعلى، إلا أن كراهية الأوسيتيين للأنفوش انعكست عليهم سلباً. ويطالب الجميع الآن، من مسؤولي الحكومة إلى سائقي سيارات الجرة، بعدم عودة الأنفوش مجدداً، ويقولون إن الشغبين لا يستطيعان ببساطة العيش جنباً إلى جنب. وليس الخوف للتجدد وانعدام الثقة بالمسلمين سوى جزء من تلك الكراهية، كما لو أن دور أوسيتا الشمالية كمعقل للمسيحية في منطقة إسلامية يكمن في نبوة تحقيق الذات.

وتقول زائرا: "في قرأهم، كتبوا أن على كل مسلم أن يقتل على الأقل 20 كافراً؛ وخصوصاً المسيحيين الأرثوذكس"، وهي امرأة رقيقة في الستين من عمرها، وتعمل في إحدى مكبات فلاديفقاز. "زوجي طيب، ولكن هل تعلم ما كان الأطفال الأنفوس الصغار يقولونه في المستشفى عندما كانوا يمرضون؟" يجب أن تحسن صحتنا لأننا لم نقتل أي أوسيتي بعد".

وقررت إلقاء نظرة داخل مسجد فلاديفقاز الجميل. وقد بُني بالقرب من تيرك في القرن التاسع عشر، ونجا بأعجوبة من الحقبة الشيوعية، رغم عدم وجود من يصلي فيه آنذاك. ومع مغادرة أنفوس بريغورودني، لم يبقَ من المصلين سوى قلة من مسلمي أوسيتا الشمالية.

وقال أحدهم ويدعى يوري أنه اكتشف مؤخراً قدره المحتوم، وأنه أصبح يأتي بانتظام إلى المسجد، رغم أن الإعلان عن الهوية الإسلامية في أوسيتا الشمالية قد أضحى صعباً منذ الحرب. وفي سنة 1995، فتحت قذيفة حفرة في الجدار الجنوبي للمبنى، ولهذا تم وضعه تحت الحراسة الدائمة. ولا تزال الروابط العرقية أقوى من الإخوة الإسلامية التي قد يشعر بها يوري نحو الأنفوس. "لا، أشعر بكره شديد تجاههم، وأنا مستعد للقتال إذا كان ذلك ضرورياً. لقد عاشوا جيداً، وكانت لديهم منازل جميلة. ما الذي قد يطلونه أكثر؟".

حدود أنفوسيتا - لوسيتا الشمالية

جلس ماجومد وإلبروس، وكلاهما في بداية العشرينيات، معاً على العشب واشتركا في تناول البيرةا وشرب قدح من الفودكا. وضحكا مثل أطفال المدارس الذين يدخنون في الغابات، ولكن جسرتهما كانت أكثر خطورة.

ماجومد أنفوشي، وإلبروس من لوسيتا الشمالية، وهما صديقان وجران قبل الحرب، عندما كان ماجومد لا يزال يعيش في فلاديفقاز. وتطلب الأمر أربع سنوات تقريباً من السلام ليستطيعا الاتصال ببعضهما البعض، وكان ماجومد شجاعاً بما فيه الكفاية ليعبر الحدود متخفياً في سيارة عتمة للنوافذ. والآن، يعودان إلى نقطة للتفتيش على حدود أنفوسيتا - أوسيتا الشمالية، ويستعدان لتوديع بعضهما مجدداً.

ويقول ماجومد: كان الأمر مخيفاً. كان علي التسلل خفية عن كل عائلتي في أنفوسيا، وعدم إخبارهم عن المكان الذي سأقصده. وسيكون الأمر خطيراً إذا لوقت

الشرطة الأوسيتية الميابة التي كنتي. ولكن حالما وصلت إلى فلاديفكا، سار الأمر جيداً. وذهبت إلى شقتي القديمة، وكان هناك لاجئون من أوسيتا الجنوبية فيه. ولم يكن لدي الكثير لأخبرهم إياه، ما عدا أنه عليهم العودة إلى منازلهم. وبكى جيراني القدامى عندما رأوني من شدة الفرح.

6. للتعلق نزولاً

في سنة 1993، هزّت سلسلة تفجيرات انتحارية العلاقات الروسية بالديموقراطية على الطريقة الغربية، وهزّت معها الحريات الجديدة في شمال القوقاز. وفي موسكو، واجه الرئيس يلتسن تحدياً كبيراً من برلمانه، أو مجلس السوفيات الأعلى، الذي كان يسيطر عليه الوطنيون الشيوعيون المتشددون. وعلى أحد المستويات، كان يلتسن يمثل قوى تفكيك التركة السوفياتية وفتح روسيا للغرب، فيما كان مجلس السوفيات الأعلى يناضل لإيقاف الإصلاح الاقتصادي. وعلى مستوى آخر، كانت الخطوط الأيديولوجية غير واضحة المعالم، وكان الوصول إلى السلطة هو الهدف الرئيسي لكل المتنازعين. وعلى مستوى ثالث، اتخذ الصراع طابعاً شخصياً مريعاً، ووضع يلتسن ضد من كانوا حلفاءه في الماضي، وهم رئيس البرلمان رسلان خاسبلايوف، ونائب الرئيس ألكسندر روتسكوي.

وتحوّلت تلك المواقف أخيراً إلى صراع مادي، مع تمترس البرلمان المنحل في مبنى الأبيض الكبير على ضفاف نهر موسكو. وفي 3 تشرين الأول، حاول مناصرو العصيان المسلح اقتحام مبنى التلفزيون، وكانت النتيجة حصول حمام دم بما في ذلك سقوط ضحايا من المدنيين. واستدعى يلتسن في اليوم التالي الجيش، واستسلم قادة الثورة بعد أن فتحت الدبابات النار على البرلمان من زاوية قرية جداً.

وقاد ذلك الفعل الشنيع إلى حقبة من خيبة الأمل، وتحوّل الروس المهزقون من علاج الصدمات للاقتصاد الجريح إلى الشيوعية الجديدة، أو القومية المتشددة أو الفاشية. وقد تدل المشاهد المميزة لأهل موسكو الذين يمشون بملاء مع كلابهم في "كوتزوفسكي بروسبكت" على طول النهر فيما الدبابات تقصف مبنى البرلمان على تعطشهم للنظام والقانون مهما كلف الثمن. أما بالنسبة للرئيس يلتسن، فقد خرج منتصراً، ولكنه لم يبق الرجل نفسه وبطل الديمقراطية الذي دافع قبل ثلاث

سنوات عن مبنى البرلمان ضد القوات السوفياتية وتسبب باهتزاز اتحاد الجمهوريات السوفياتية.

وكان أول الناس الذي استشعروا المخاطر الجديدة هم القوقازيون. وتضاعفت مشاعر عدم الثقة وكراهية القوقازيين منذ أن أحسنوا استغلال الحريات الاقتصادية أيام غورباتشوف لبيع محاصيلهم الزراعية في موسكو، وتحولوا بعدها إلى واحدة من أنجح المجموعات الاقتصادية البارزة. ونتيجة للإجراءات الأمنية الصارمة التي اتخذها عمدة موسكو يوري لوزخوف، تم طرد آلاف القوقازيين من العاصمة. وهذا ما جعل الشارع الروسي يلتف حوله، خصوصاً أن لوزخوف لم يكن قومياً وحسب وإنما على اتصال مباشر مع ناخبيه.

وجرت الانتخابات البرلمانية الجديدة في كانون الأول من تلك السنة. وكان من المتوقع أن يلي حزب خيار روسيا والموالي ليلتسن حسناً. وعوضاً عن ذلك، لمع نجم الحزب الديمقراطي الليبرالي العنصري الذي يقوده فلاديمير زيرنوفسكي، مع التصويت لواحد من كل خمسة على قائمة الحزب. وقبل مضي وقت طويل، تغفل تأثير زيرنوفسكي في حكومة يلتسن، حتى أن وزير الخارجية المحبوب لدى الغرب أندريه كوزرييف عانى من هذا الأمر. وقد خرجت الإمبريالية الجديدة عن السيطرة. وكانت العقيدة العسكرية الجديدة التي تم تبنيها في تشرين الثاني من تلك السنة هي الأساس القانوني لهذا التحول، والتي ركزت على السيطرة على ما يدعوه الروس الحدود القسرية - وبكلمات أخرى الأراضي السوفياتية سابقاً - والأعداء الداخلين وليس الخارجين. وبالنسبة لأهل القوقاز، مهدت تلك العقيدة الطريق لاستخدام الجيش في النزاعات المحلية، وركزت على أن التهديدات الرئيسية التي تواجهها روسيا هي "النزاعات المسلحة التي تنشأ عن القومية المتطرفة والتعصب الديني". وأصبحت جبهة شمال القوقاز بسرعة واحدة من أكثر المناطق عسكرة في الفيدرالية الروسية، وتجاوزت الحدود المسموح بها في اتفاقية الحد من الأسلحة التقليدية في أوروبا.

ونحمت الضغط، بدأت الحركات القومية المناهضة للروس بالتفكك. وتخلّى الأشخاص العاديون عن العنف والسياسة للتركيز على تحسين ظروف الحياة في

فوضى الإصلاحات الاقتصادية. وكان تغير التاريخ خطيراً. ويقول أوليغ غوزينوف، وهو من قومية كابارد، ونائب رئيس التحرير في صحيفة "سيفيري قفقاز": "أصبح الناس هنا ساخرين. وصلّوا في البداية أن إخراج الشيوعيين بالقوة سيكون نهاية متاعبهم، ولكن الحركات القومية فقدت مصداقيتها أيضاً. وفهم الناس أن كل شيء مرتبط بموسكو، وأن تلك الحركات القومية لا تملك برامج حقيقية، وأنها لا تعتمد سوى على الأحاسيس والمشاعر المناهضة للروس".

ويستطيع حسان دومانوف، رئيس لجنة العلاقات العرقية لدى حكومة كاباردينو - بالاكاريا، أن يتذكر اللحظة التي بلغت فيها القومية في الجمهورية ذروتها، والتي كانت في أيلول 1992 خلال مظاهرة قومية كبيرة في الساحة المركزية في نالشك، خارج مبنى حكومة كاباردينو - بالاكاريا. وكان السبب المباشر لأعمال الشغب قيام الشرطة الروسية باحتجاز موسى شابينوف لوقت قصير، ولكن الناس كانوا يطالبون أيضاً باستقالة السلطات المحلية التي تم تعيينها أيام الحقبة السوفياتية، والمزيد من الحكم الذاتي للكابارد. وكان المزاج الشعبي غاضباً، وعلى حافة الفوضى الشاملة، وتم إعلان حالة الطوارئ. وتم استدعاء نخبة من قوات وزارة الداخلية الروسية لتعزيز القوات الأمنية المحلية داخل المبنى الحكومي. وحدثت أيضاً بعض الشرارات المعتادة؛ مثل طعن جندي ومقتل امرأة (من الواضح أنها أحداث عرضية)، ومحاولة المتظاهرين اقتحام المركز التلفزيوني والاستيلاء على عربة مدرعة. ووفقاً للأسلوب القوقازي، كان العديد من أفراد شرطة مكافحة الشغب من الرجال المحليين الذين يعرفون بأن المظاهرات قد تكون السبب الرئيسي لعدم خروج العنف عن نطاق السيطرة.

ولم تكن الاحتجاجات تصدر عن جماهير حاشدة، وإنما عن أشخاص عاديين ومثقفين أيضاً يؤمنون بإمكانية انبعاث شمال القوقاز، وأن باستطاعتهم تحدي القوانين السائدة. ولكن العنف آنذاك، وتعصب قادة مثل شابينوف، قسماً المحتجين الذين يتمون إلى أصول واحدة إلى أقلية متشددة وأغلبية رأت أن الحركة القومية ستعود إلى اشتباكات مادية مع الشرطة وقوات الجيش. وتراجعت التظاهرات ومعها الكثير من الطاقة المحركة للقومية.

ويقول دومانوف: "الناس الذين شاركوا في تظاهرات الساحة لم يكونوا يفهمون حقيقة ما يطالبون به. وكان الأمر قابلاً للتطور حتى الوصول إلى المطالبة بالاستقلال الكامل. وعندها ستفرض علينا روسيا الحصار بكل بساطة، وسنكون مثل الفئران. وما حدث هنا سنة 1992 كان حركة خطيرة. ويصلي الناس الآن حمداً لأن الأمور انتهت". ويقول أحد زملاء شاينوف في الجامعة أن التظاهرات كانت رائعة، ولكن الناس في كاباردينو - بالاكاريا كانوا قادرين على كبح جماح أنفسهم في الوقت المناسب. "كانت الجماهير تؤمن دائماً بهذه الأساليب مثل شاينوف في الأوقات الصعبة. وكل الناس لديهم لحظة جنون، وأعتقد أن تلك كانت لحظتنا".

واندلع النزاع الأنغوشي - الأوسيتي بعد فترة قصيرة من انتهاء تلك التظاهرات، وشكل إنذاراً لأولئك الذين قد يحتاجون لأي تحذير جديد. وعندما أصبح من الواضح أن القوات الروسية قد سلّحت وربما ساعدت أهل أوسيتا الشمالية، تأكّدت شكوك الكثير من الناس في جمهوريات شمال القوقاز بأن موسكو لن تتردد باستخدام القوة لإحكام سيطرتها على المنطقة. ورأوا أن الحرب تمثّل طريقة موسكو في إثبات أنها الوسيط الحقيقي الوحيد، تماماً كما فعلت في أبخازيا. وقال الرئيس الأنغوشي رسلان أوشيف أن الحرب كانت محاولة لدفع الشيشانيين لمساعدة الأنغوش، مما منح القوات الروسية سبباً لمخاربة جوهر دودايف. ومهما تكن القضية، نجحت الحرب في الحد من خطورة الفكر القومي، وفي تقسيم شمال القوقاز إلى معسكرات تاريخية، دعم الروس الأوسيتيين وعاقبوا المسلمين. فرّق تسد.

وقال لي أوشيف: "لم يكن الأمر يتعلق بالكراهية بين الأنغوش والأوسيتيين، وإنما لعبة سياسية. ويهتّم الناس الذين يثرون هذه المشكلة بالحفاظ على روسيا الاستعمارية كما كانت. وفي القوقاز، كانوا دائماً يقسمون الناس إلى من يحبون ومن يكرهون، وأولئك الجديرين بالثقة من الذين لا يستحقونها. وكانوا دائماً يتطلعون إلى الجمهوريات الموثوقة التي ستحمي مصالح روسيا. ولم يكونوا يعتبرون الشيشان، وأنغوشيا، وكاباردينو - بالاكاريا وبعض الداغستانيين أهلاً للثقة ولهذا

كان يجب تقييدهم وإحكام السيطرة عليهم. وكانوا ينظرون إلى أوسيتا، بأي حال، على أنها معقل لروسيا".

وأعادت روسيا تأكيد هيتها بتقديم الدعم للقوى السياسية الموالية لها. وفي كانون الثاني عام 1993، نظمت روسيا أول اجتماع طاولة مستديرة للتنظيمات التي تدعم العملية الديمقراطية من كل أنحاء المنطقة في بياتيغورسك. ولم يقدم "اتحاد شعوب القوقاز" أو أي حركات قومية قوية أخرى الدعم لذلك الاجتماع، والذي أصبح صلة الوصل بين المركز والجمهوريات، وأشار إلى أن موسكو راغبة في وضع سياستها الإقليمية على مسار أكثر ثباتاً.

وساهم عامل آخر في الاستقرار الجديد وهو سيطرة موسكو على الإنفاق المالي، فقامت بتقديم رساميل تزيد عن نصف ميزانية كل الجمهوريات التي تتمتع بالحكم الذاتي في المنطقة. وعلى سبيل المثال، قدمت مساعدات تبلغ قيمتها 88% من ميزانية داغستان في سنة 1994. وبالتزامن مع ذلك، عملت موسكو بشكل وثيق مع البيروقراطيين الشيوعيين السابقين، وهم الرجال الذين شغلوا مناصب الأمساء العامين أو رؤساء الحزب في المناطق المحلية أو الجمهوريات التي تمتعت بالحكم الذاتي أيام الاتحاد السوفياتي. وكان هؤلاء يتولون الحكم في أديجي، وكاباردينو - بالاكاريا، وأوسيتا الشمالية وداغستان. وفي كاراشاي - شركسيا، عطل صراع دستوري على السلطة العملية السياسية حتى قدمت روسيا الحل: اختيار قائد الجمهورية من قبل الكرملين. وكان هؤلاء جميعاً ممن يأخذون مصالح روسيا بالاعتبار، ويكبحون المعارضة ويحافظون على الوضع القائم.

"كان هؤلاء البيروقراطيون الموجودون دائماً في السلطة قادرين على التمسك بما لأنهم يعرفون كيفية إدارة الحكم. وكانوا يعرفون الأمور المالية وسواها. ولم يكن لدى الحركات القومية القيادات المدربة، والفنانون المحترفون كما لدى الشيوعيين القدامى. ويقول فلاديمير ديجوف، أستاذ التاريخ في جامعة فلاديفقاز: "كان القادة الشيوعيون المحليون القدامى قساة، ولكن عمليين". وشرح أن قوة الشيوعيين السابقين لها جذور اقتصادية عميقة، لم تأت من دعم موسكو لهم فقط، وإنما من دعم المافيا أيضاً، والتي انتعشت خلال حقبة الأسواق السوداء في سنوات

حكم غورباتشيف. "كانوا يحكّون ظهور بعضهم بعضاً. ويحتاج الموظف إلى التعليم، والزواج ومصروف الجيب؛ ولهذا كان يتعامل مع أحد "سماسرة الصفقات" ليكون متأكدًا من أن سلطات الضرائب ستركه وشأنه".

وبمحلول سنة 1994، ومعزل عن القضية الرئيسية في الشيشان، والتي كان يواجه فيها مقاتلو جوهر دودايف وضعاً صعباً للغاية، لم يكن هناك سوى أنغوشيا كي يتم إخضاعها. وكانت تلك مشكلة فريدة بالنسبة للسلطات المركزية. وبخلاف الجمهوريات الأخرى، لم يكن في أنغوشيا قيادة موالية جاهزة منذ أيام السوفيات. وعوضاً عن ذلك، كان هناك أوشفيف المستقل برأيه على رأس شعبه الجاهز للحرب، وكان يطلب لمنأ مرتفعاً للاستقرار؛ يجب أخذ أنغوشيا على محمل الجد. ولم تكن الجمهورية لتأخذ طريق الشيشان الانفصالي، ولكنها أرادت حكماً ذاتياً سياسياً واقتصادياً حقيقياً. ولم تكن ستهاجم أوسيتا الشمالية، ولكنها أرادت عاصمة جديدة لها. ولم تكن تؤيد القومية المتطرفة، ولكنها أرادت إصلاحاً شاملاً لتضع تاريخها الحافل بالحروب والنفي وراءها. ووافقت موسكو على الكثير من تلك المطالب.

وكانت الصفقة بين موسكو والأنغوش فريدة في شمال القوقاز. ووافق البرلمان الروسي على إنشاء عاصمة جديدة تدعى ماغاس - أو مدينة الشمس - إلى الأسفل من سفوح جبال القوقاز، وخلال السنوات 1994 - 1997، سمحت الحكومة لأنغوشيا بفرض ضريبة خاصة كطريقة في تحصيل مبالغ إضافية في سبيل التطوير الاقتصادي. وبدأت الجمهورية النائمة بتحويل نفسها بكل حماس إلى ما كان أوشفيف، وهو محارب قديم في أفغانستان، يدعوه "جمهورية مثيرة للاهتمام وتنعم بالرفاهية؛ مثل هونغ كونغ، وستغافورة ومالطا".

وكانت فكرة ماغاس طموحة للغاية، إلا أنها غريبة في الوقت نفسه؛ بناء بلدة في الحقول الفارغة بالقرب من الموقع الأثري لمستوطنة آلان القديمة والتي تدعى ماغاس أيضاً. وعوضاً عن الالتقاء بالجماهير في قاعة البلدة الريفية في نازران، تصوّر أوشفيف قصرًا رئاسياً جليلاً محاطاً بالمباني الحكومية كمقر له. وأظهرت أعمال أحد الفنانين كلية للشرعية، وساحات عامة، ومناطق مشجرة ومباني سكنية مريحة على

طراز ضواحي المدن الغربية وليس السوفياتية. ولم تكن عملية الإصلاح تلك تتم غير تجديد القدم، وإنما عبر ابتكار جديد بالكامل.

وفي سنة 1996، زرت العلامة المربية الوحيدة لماغلاس، وكانت عبارة عن علامة حجرية منقوش عليها الكلمات الآتية: "هنا سيتمّ بناء عاصمة جمهورية أنغوشيا". وإلى الخلف من تلك العلامة لم يكن هناك سوى الحقول الفارغة وسلسلة الجبال إلى الجنوب. ولكن العمل كان قد بدأ على البنية التحتية، وبدأ أن الأنفوش يصدّقون فعلاً بأن المشروع سيقبل. وقال بوريس خانييف، نائب مدير مشروع البناء: "بمحلّول سنة 2000، سيكون لدينا تسعة أحياء - أي حوالي 10.000 شخص. وبمحلّول سنة 2010، سيكون هناك 30.000 شخص. وسيكون لدينا مستشفيات، ومدينة رياضية، ومتزّه على ضفاف النهر وقاعة موسيقية".

وسجّلت حوالي 5000 شركة في المنطقة الحرّة، والتي منحت ميزات تفضلية فسيما يخص الضرائب، واستطاعت جذب 100 مليون دولار بعد 18 شهراً من التشغيل وفقاً لأحد التقارير. وتدفق المال على حلم أوّشيف، وبدأت الجمهورية تسدّح بمزيج غريب من الأتراك، والسلوفاك، واندفع حتى البناءون الاسكتلنديون للعمل في ماغلاس والعديد من المشاريع الأخرى. وكان هناك فندق آسا في نازران، ومدارس، وشوارع ومنازل على الطراز الغربي، ومحطات وقود، ومعملان، وثلاث محطات لتوليد الطاقة الكهربائية ومطار ضخم. وأخذ الناس يتوافدون من المناطق المجاورة للاستمتاع بالمشهد فقط.

وكانت هذه المشاريع موضع انتقاد في موسكو لأنها تعمل على إفساد أنغوشيا، وتسمح لها بإنشاء أسواق سوداء قانونية وتخفيف منابع الضرائب الروسية، وهو ما يعني بالمقابل عدم القدرة على دفع للمعاشات والرواتب في البلد. وتحت ضغط ترشيد نفقات الموازنة، ألغى الكرملين في النهاية المنطقة الحرّة. وكان هناك بعض الحقائق حول تلك الاتهامات، مع الأخذ بعين الاعتبار حالة الإفلاس في الدولة الروسية القريّة، لكن الانتقادات أخطأت في تقدير أن الأحوال الخاصة للجمهورية تتطلب حلاً غير عادي. وفي الحقيقة، لم تتعامل موسكو بمهارة كافية مع الأنفوش؛ وقد كان ذلك مثلاً عن دمج إحدى الأقليات بشكل جديد في الفيدرالية الروسية.

وقدّم الأنفوش معروفاً كبيراً لموسكو بعدم إعلانهم الاستقلال إلى جانب الشيشان سنة 1991. وفي سنة 1994، وفيما كانت القوات الروسية تتحرك ضد الشيشان، كانت موسكو بحاجة لدعم وولاء الأنفوش أكثر من أي وقت مضى. وأنكر الأنفوش بالطبع أن روسيا قامت بشراقتهم. والصحيح أيضاً أن ماغاس لم تحصل على موافقة البرلمان الروسي سوى في كانون الثاني 1995، بعد سنة من بدء الحرب في الشيشان. ولكن المشروع تلقى أولاً مباركة الرئيس بوريس يلتسن في بداية نيسان 1994، تماماً قبل الحرب عندما كان الوضع يتدهور نحو الأسوأ. وحصلت المنطقة الحرة على الموافقة في حزيران 1994. وحالما اندفعت القوات نحو الشيشان، تطوّر الكثير من الأنفوش للقتال إلى جانب الشيشانيين، واشتبكت إحدى الفصائل المدرعة مع القوات الروسية فيما كانت لا تزال داخل أنغوشيا. ولكن الجمهورية بقيت هادئة ومحايّدة بشكل عام. وعمل أوشيف، المعارض للغزو الذي قامت به موسكو، جاهدًا لإبقاء جمهوريته بعيدة عن النزاع. وكان الدعم الذي يتلقاه الشيشانيون يمر عبر قنوات غير رسمية. واستطاعت أنغوشيا أن تحصل من تلك الصفقة على بعض المزايا التي كانت بحاجة إليها بعد الشيوعية. وبالنسبة لموسكو، كان الأمر يستحق كل الأموال التي تمّ صرفها لأجله.

نازران، أنغوشيتا

كان أوشيف يتمتع بشخصية ساحرة، وكان يعرف ذلك. وكان قادراً على التأثير على أي شخص بنظرة عينيه الزرقاوين، وزّي الجنرال العسكري الذي يرتديه في أنغوشيا والبنّلة الرسمية في موسكو. وكان يسافر عبر الجمهورية دائماً بأسطول من السيارات الأجنبية، ولكنه كان دائم التواصل أيضاً مع الجمهور، وغالباً ما كان يحضر مباريات كرة القدم في استاد نازران الترابي الصغير، ولم يكن يفصله عن الحشود سوى حاجز بسيط. وعندما كان المذيع يعلن أن الرئيس يحضر المباراة، كان الناس يصفقون.

وكان حضور أوشيف قوياً أيضاً في موسكو. ويبلغ تعداد سكان أنغوشيا أكثر من 250.000 بقليل، وهو أصغر من عدد سكان مدن كثيرة، إلا أن أفكار أوشيف كانت كبيرة وحاز على الاحترام لأنه قدّم نموذجاً جديداً للقائد القوقازي الذي يختلف عن الصورة النمطية للقومي الذي يلوّح بالسلاح، لو الموظف القديم الذي يفعل أي شيء ترفلاً وهتافاً من موسكو. ويوجد في مكتبه صورة بالطول الكامل لرجل نائب النظرة، وهو أحد بنّاتي القلاع الأنغوشية الغامضة في أعالي القوقاز. وهي الصورة التي يرى أوشيف نفسه عليها؛ أي

البناء الذي تعمل مع الحقبة السوفياتية، وعاد بعدها إلى القيم القوقازية، وقم شكلاً جديداً
بالكامل من الشراكة مع الفيدرالية الروسية. إنها العودة إلى المستقبل.

وقام أوشيف بنقل حماسه وطموحاته إلى الآخرين، وبشكل لا يُصدق أحياناً. ويقول:
"لا يوجد خطر من استقلالنا. ولا نرى في ذلك حلاً لكل مشاكلنا. ولا يهتم الرجل العادي
في الشارع بالاستقلال أبداً".

"ما نريده بالنسبة لماغاس هو أن تصبح أجمل مدينة في الفيدرالية الروسية في
عضون 20 سنة. وهي ستكون بالتأكيد الأحدث. ولم يفعل أحد شيئاً مماثلاً من قبل، أي
البدء من الصفر؛ فقط بطرس الأكبر عندما بنى سانت بطرسبرغ. ونرغب بأن يكون لدينا
جمهورية بمقاييس عالمية، واقتصاد متطور. وسيأتي السياح إلى جبالنا الجميلة. ورغم أن
جمهوريةنا صغيرة، إلا أنها ستكون معروفة في جميع أنحاء العالم".

وتجاوزت أهداف لوشيف ماغاس، والفنادق والمعامل. وكان يعتبر أنها فرصة
موتية أمام أنغوشيا التي تواجه تحدياً حقيقياً: تريد كسر دائرة المأساة التي أحاطت
بنا وبالشيشان دائماً. ونريد تصحيح تلك الأخطاء التاريخية. وهذا هو أهم شيء
بالنسبة لنا".

الفصل الرابع

الذئب الشيشاني

لم يكن هناك سوى أمة واحدة رفضت فلسفة الإذعان... إنها الأمة الشيشانية. والشيء الغريب أن الجميع يخافها، ولا يستطيع منعها من العيش بالطريقة التي ترغب بها. ولم تستطع السلطات التي حكمت البلد لمدة 30 سنة إجبارها على التقيد بقوانينها... ولم يحاول أي شيشاني العمل مع السلطات أو القيام بما تريده. وكان موقفهم تجاهها مزيجاً من الكبرياء والعدائية".

ألكسندر سولزينتسين يصف الشيشانيين أثناء التهجير.

1. الثورة

غروزني

عند الفسق، تهرب الحياة من العاصمة للشيشانية، ويبدو نظام جوهر نوداييف متداعياً، وتقوم سيارات مدرعة ورجال مزودون ببنادق آلية بحراسة المداخل إلى ساحة القصر الرئاسي. وما يزال الكثير من الناس يخرجون لشراء لفائف التبغ من الأكشاك أو للحصول على ما يأكلونه من السوق الذي تضيئه مصابيح الزيت والشموع. ويتحدث بعض الرجال بصوت خافت في ظلال البوابات، أو يجلسون للفرصاء متخفين عند الجدار. ولا يقضي أي شخص وقتاً أكثر من اللازم في الخارج. وفي الهيكل الخرساني للقصر الرئاسي، لا يزال هناك ضوء في مكتب الرئيس نوداييف في الطابق الثامن. وربما يكون مشتعلاً لأغراض دعائية، أو ربما لأن الرئيس يعمل فعلاً، ويبنى حلمه في دولة مستقلة، ويوقع المراسيم مع وضع رمز "الذئب الوحيد" عليها الخاص بجمهورية الشيشان.

وفي الليل، يظهر شباب شيشانيون لقضاء وقت في قيادة سياراتهم والتسابق بها في الشوارع المقفرة. إنها حياة الليل على طراز غروزني. ويوجد وفرة من اللقطع الأجنبية مع هؤلاء الشباب الذين استطاعوا الحصول عليه نتيجة عقد صفقات مشبوهة، وهم يقودون سياراتهم من طراز بـمـف بشكل سيئ، فقط لإظهار أنهم لا يهتمون. ولأخبرني أحدهم أن هناك مسابقة يقود فيها المسائقون سياراتهم بسرعة على تل، ويحاولون القفز من فوق خندق عرضه 20 متراً في ساحة مينوتكا القريبة من مركز المدينة. وهناك رهانات بالآلاف الدولارات على مثل تلك المسابقات التي تتحطم فيها الأجساد والمركبات.

إنها ليلة للدوران باستخدام فرامل اليد. وما كان مني إلا أن التحقت بالحراس على أحد المتاريس بالقرب من القصر الرئاسي. وإلى أسفل الطريق، كان الفتيان يضبطون على دواسات الوقود ويصرخون عبر النوافذ على بعضهم بلغة شيشانية غير مهذبة. وارتفع هدير للسيارات التي تسابقت عبر الشارع بتجاهنا. وعلى بعد 50 متراً منا، استخدم المسائقون فرامل اليد لتستدير سياراتهم بدرجة 180، ثم عادوا إلى نقطة البداية بسرعة جنونية.

وإلى أسفل الشارع خلفنا، كان هناك نيران بندقية آلية. وأصغيت السمع، ولكن الحراس لم يغيروا الأمر اهتماماً. ثم سمعت صرخات وضحكات والمزيد من الرصاصات. وارتفع شهاب إشارة عسكري أحمر فوق ساحة القصر الرئاسي خلفنا، وبدأت الكلاب تتبحر بشكل جنوني. وسألت الحارس فيما إذا كان كل شيء على ما يرام. وقال لي: "إنها ليلة هائلة تماماً".

وفي خريف سنة 1994، كانت ثورة الشيشانيين التي قادها الجنرال جوهر دودايف على وشك الانقراض. وقد اختفت الدولة السوفياتية بعد ثلاث سنوات من إعلان الاستقلال. وتم انتزاع تمثال لينين من مكانه، ولم يبق سوى قدميه الحديديتين اللتين تبرزان من قمة القاعدة. ويرمز العلم الشيشاني الأخضر - الأحمر - الأبيض مع ذئب أسود يرقد تحت البدر إلى إنشاء دولة جديدة. واعتمدت الجمهورية الجمعة يوم الراحة، وهي عطلة المسلمين. وفي مدينة منية لتسع 400.000 شخص، كان هناك سوق ضخمة مليئة بكل شيء من البنادق الهجومية إلى الملابس الحريرية؛ وكلها من تجارة غير شرعية. ورأيت مكتبة واحدة ومطعمين ومتجرًا واحدًا فارغًا. وكان هناك بضعة هواتف تعمل، فيما طالت البطالة الجميع تقريبًا. وللدخول إلى الشيشان، على المرء المرور عبر القوات الروسية التي تحاصر الحدود. وحالما يصل إلى هناك، ينتابه الشعور بأن روسيا قد أصبحت بعيدة جدًا.

وانتشرت علامات الثورة على كل المنحدرات وفي كل مكان. وتبع الشرطة التي توجه السير للرئيس دودايف، وينتمي أفرادها إلى الشعب الشيشاني وليسوا روساً أو سوفيات. ورغم ذلك، لا يزالون يرتدون ملابس شرطة الطرق السوفياتية، وهي نفسها ملابس شرطة موسكو وفلاديفوستوك. وغيّرت الشيشان في عهد دودايف التوقيت المحلي. وأضحى هناك تأخير بمقدار ساعة واحدة عن موسكو، وهو ما خرق طغيان التوقيت الموحد للعاصمة الروسية، ولكن لم يضبط سوى المناصرين للاستقلال ساعاتهم على "توقيت دودايف"، فيما بقي الآخرون يتبعون توقيت موسكو كما كانوا طوال حياتهم. وفي ساحة سير مينوتكا، كان هناك راية ضخمة سوفياتية الطراز تعلن "الحرية - 1991" فوق صورة لذئب. ولكن ما هي الحرية التي يتكلمون عنها؟ ودمدم سائقي: "الحرية هي أن تمتلك بعض النقود في جيبك، وهذا ما لم نحصل عليه منذ سنوات".

وتبادل الشبان الأحاديث في الساحة الرئيسية خارج القصر الرئاسي المؤلف من 11 طابقاً، وهو مبنى خرساني بناه السوفيات. وجلس كبار السن، الذين يضعون قبعات أستراخان العالية، ويرتدون السراويل الفضفاضة والأحذية الجلدية الطويلة، على مصاطب بين مشاتل الورد، وكانوا يناقشون المستقبل الغامض مع

الشبان الذين يرتدون بذلات أنيقة، والملابس المموهة أو الجينز الأسود ومعاطف الحرس الرئاسي. وكان كلا الجيئين يحملان البنادق. وفي داخل القصر، كان الحراس يرتدون شيئاً بين ملابس الأميرال وخدم الفنادق. وكانوا يقفون إلى جانب الحائط أو يجلسون القرفصاء على الأرضية يتبادلون أطراف الحديث ويأكلون بزر دوّار الشمس. ولا شئ، يوحى بالجديّة والانضباط بينهم سوى ما يحملونه من بنادق آلية. وشاهدت أحد الحراس، الذي تبرز ناصيته من قبعته، يشم وردة حمراء قطفها من إحدى تلك المشاتل الضخمة في الساحة الرئيسية، وأخبرني أنه يريد الذهاب إلى أميركا.

ورغم وجود الكثير من معارضي دودايف خارج غروزي، إلا أنه لا وجود لكلمة واحدة ضد الثورة أو "جوره" في الساحة الرئيسية للمدينة. وتمتم محمد، وهو شاب أقلّني في سيارته الجديدة من طراز فولفو في يومي الأول هناك: "لمدة 70 سنة، لم نرَ النور، أو نعرف معنى الحياة. والآن بعد ثلاث سنوات من الاستقلال لم تحسن حياتنا. ولا يريد الروس سوى نفطنا. ولكننا قرّرنا بأننا نريده أيضاً، وأن نبيعه لمن نريد: الروس، البريطانيون أو مهما كان". وكان الذهب الأسود، الذي اختفى في خزان موسكو في العهد السوفييتي، مهماً للثورة. ورغم تراجع الاحتياطات، إلا أن المناطق الأخرى تستفيد من تكرير النفط الخام.

وعندما سألت وزير الاقتصاد تاماز أبوبكروف عن سبب سوء الخدمات في الشيشان إذا كان باستطاعتهم بيع النفط لمن يرغبون، وقال لي هلهو أنه يستطيع إعداد إجابة من خمس نقاط لي. وزوّدي أبوبكروف، الذي كان يجلس تحت صورة ميخائيل غورباتشيف، الذي سمح بظهور العديد من الثورات، بعشر نقاط. ولكنه لم يجب أبداً عن السؤال. وكان سكّان الشيشان شديدي الحماس في أيلول سنة 1994، ولم يكن للحصار الروسي أي تأثير مادي، رغم أنه تسبّب بأضرار نفسية، وساهم في ظهور عقلية الحصار.

"متحد أن الناس الذين لا يملكون المال هم الذين قدّموا لنا الدعم. فيما وقف من امتلك المال دائماً ضدنا، وهم نفس الناس الذين كانوا يعيشون جيداً قبل 10 سنوات لأنهم كانوا أعضاء في الاستخبارات (كي جي بي) أو القوات الخاصة التي

تعمل مع الروس. والمعارضة على استعداد لتوقيع أي وثيقة يعطيها إياهم الروس عن الحالة في الشيشان، وهذا ما يتلقون الأموال لأجله. ولسنا بحاجة للمال، وإنما بحاجة للاستقلال".

ولا يعتبر الكثير من الشيشانيين أنهم بحاجة للمال. وعلى الرغم من الحصار، هناك دائماً لحم وفاكهة في الأسواق. ويعيش الناس في قرى الشيشان في منازل فسيحة مترفة مقارنة بنظرانهم في الريف الروسي الفقير المحطّم والذي يعاني من مشكلة الكحول. ولكني وجدت لاحقاً أن هذه الثروة خادعة في معظم الحالات. واستطاع أغلبية الناس العاديين كسب أموال إضافية في أواخر ثمانينيات القرن العشرين بالسفر إلى روسيا وآسيا والقيام بأعمال موسمية كبنائين وسائقي شاحنات. وكانوا يكسبون ذلك المال بالعمل الشاق، ثم يقوم الرجال وعائلاتهم ببناء منازل أنيقة بأنفسهم. وكانت العملية بأكملها تستغرق من عدّة سنوات إلى ما يقرب من عقد. وعاش الشيشانيون العاديون جيداً، في منازل خاصة جميلة، ولكنهم لم يكونوا أغنياء؛ كان هناك فرق.

ولهذا عندما تحدّث وزير الاقتصاد عن عدم الحاجة إلى المال، ربما كان يشير فقط إلى الرجال في قصور الأجر التي ترتفع وسط حقول الذرة حول غروزني، وهم الذين يتحولون في الجوار وينقلون مواشيهم في السيارات الألمانية المستوردة وحتى الرولز رويس والفياري. وظهرت طبقة جديدة من الأغنياء، وهم رجال عصابات تزييف الأموال، والمافيا النفطية و"تجار الحقيبة" الناجحون الآخرون، والشيشانيون الذين هاجروا للخارج، وأحضروا معهم الأدوات الكهربائية أو الملابس وباعوها بربح كبير في روسيا. ولم يكن هؤلاء الرجال بحاجة فعلاً للمزيد من المال، ومثلت الثورة والحرية في بيع النفط بالنسبة لهم نجاحاً منقطع النظير.

وفي نفس الوقت، كان هناك خوف من الكوليرا، وكانت المستشفيات في الأراضي الخاضعة لسيطرة دودايف خالية من كل شيء تقريباً من الأسيرين إلى المسكّنات. وغالباً ما كانت إمدادات الماء والكهرباء تتوقف، ويتم إغلاق المستشفيات مؤقتاً. وكانت المدارس الوحيدة التي يتم التدريس فيها هي تلك التي يتسرع لها الآباء، أو التي لا يمانع فيها المدرسون العمل دون مقابل. ولم يكن هناك

تجهيزات في "المستشفى الجمهوري الأول" وسط غروزني، ورفض كبير الأطباء التحدث إلي. وفيما كنت أغادر، شرحت لي ممرضة الوضع همساً، ثم انفجرت بالبكاء وتوسلت إلي عدم نشر اسمها. وإلى الشمال الغربي من الشيشان، هدّني رجال دودايف المسلحون بإطلاق النار عليّ وعلى سائقي وعلى نصير للمقاومة عندما حاولنا زيارة عدّة مستشفيات ومدارس قروية. وقد اعتبرونا "مثيرين للمشاكل".

"الشيشان ليست ملكاً لروسيا، إنها ملك لله".

شعار استقلال الشيشان.

كانت إطاحة الشيشانيين بالشيوعيين المحليين وإعلان الاستقلال عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية في الأول من تشرين الثاني 1991 عملاً استثنائياً في ذلك الوقت، وهو يبدو الآن خطأً جسيماً دفع مئات آلاف الناس حياتهم لمنا له. ولكنه بدا شيئاً محتوماً عندها. وفي سنة 1990، كان الشيشانيون في مهب الريح. وكان رئيس الاتحاد الروسي ضمن الاتحاد السوفياتي بوريس يلتسن يضغط باتجاه التخلص من الحزب الشيوعي الفاسد. وكانت حملته الشهيرة التي بحث فيها الجمهوريات السوفياتية على ذلك: "احصلوا على أكبر قدر من السلطة تستطيعون الحفاظ عليه". وكان ذلك مثار إعجاب الشيشانيين، وأطلقوا بعد ذلك نسختهم الخاصة من تلك الظاهرة التي اجتاحت المنطقة بأكملها؛ البحث عن الدولة المستقلة.

واستفاد جوهر دودايف من اللحظة. وقد كان شخصاً غريباً عن القومية، وقائداً دينياً بالدرجة الأولى. وقبل أن يتولّى قيادة "مجلس الشعب الشيشاني القومي المناهض للشيوعية" في تشرين الثاني 1990، كان جنرالاً في القوة الجوية السوفياتية، وقائداً لقاعدة القاذفات النووية في تارتو، وهي بلدة في أستونيا التي كان الاتحاد السوفياتي يسيطر عليها. ومنصبه لوحده كان يعني أنه رجل الحزب الشيوعي، وأنه يتمتع بثقة الاستخبارات السوفياتية (كي جي بي). خدم دودايف في أفغانستان، وشارك في القصف الوحشي للمدنيين، وكان - كما اعترف هو نفسه - مسلماً مرتدّاً. وتدعى زوجته ألا وهي فنانة روسية ترسم اللوحات وتنظم القصائد، دون نجاح كبير.

وهناك أسباب أخرى للشك بنوايا دودايف وإلى أين يتجه بالشيشان، وهي شكوك حول علاقاته بالكرملين وتهديداته بشن حرب مقدّسة. هل كان رجلاً متهوراً، أم مجنوناً؟ وأخبرني صديق شيشاني: "لا أحبه لأنه جنرال سابق، ولا يتمتع الجنرالات سوى بعقيلة الحرب، ولا يعرفون كيف يحكمون وإنما كيف يقاتلون". وكان الأوان قد فات لذلك. "وأذكّر أنه عندما جاء دودايف إلى الجبال لم يتحدث عن جماله أو الأعمال التي يمكن إقامتها، أو أي شيء من هذا القبيل. وإنما قال إن تلك الأراضي مناسبة لحرب العصابات. وأدركت عندها أنني لا أحبه".

ولكن تقدم دودايف كان سهلاً بالنسبة لمعظم الشيشانيين، فقد كان جنرالاً، وهو أول شيشاني يترقى في الرتب إلى القمة، ومقاتل حقيقي. ورغم أنه خدم الروس طوال حياته، إلا أنه لم يكن خائفاً منهم. وعندما طلب هذا الطيّار الأنيق، بشاربه الرفيع الذي يبدو كما لو أنه مرسوم بقلم رصاص أسود، العون من أبطال الاستقلال الشيشاني والله، ابتهج مناصروه، ومعظمهم من الشيشانيين القرويين الفقراء. وهناك من قدّم تفسيراً حتى التناقضات في خلفيته بالقول إن جوهر خططه للانتقام من روسيا سراً طوال حياته، حتى عندما وصل إلى مرتبة جنرال القاذفات السنوية، وأن فرصته قد حانت الآن. ويشرح آخرون بأنه رفض قمع حركة الاستقلال الأستونية عندما كان في البلطيق مما أظهر توجهاته القومية. وإضافة إلى ذلك، فقد خاض التجربة الشيشانية الأساسية: بعد بضعة أيام من ولادته في الشيشان سنة 1944، وقع التهجير وكان أول شيء عرفه هو البرد والإذلال في السهول الكازاخية.

وعندما اقتربت نهاية اتحاد الجمهوريات السوفياتية سنة 1991، أصبح باستطاعة القوميين الشيشان تنوّق طعم النصر ضد الشيوعيين، وكان جوهر قائدهم. ويقول: "العبد الذي لا يحاول تحرير نفسه هو عبد مرتين". وهي كلمات ستصبح جزءاً من عقيدته الشخصية، ومن شريعة جوهر.

وفي آب سنة 1991، حاول جناح سوفياتي متشدّد في موسكو يائساً إيقاف مد التغير وإبقاء الاتحاد السوفياتي متماسكاً. وقبل بوريس يلتسن التحدي وأعلن أن العصيان المسلح الشيوعي غير قانوني. وأصبح مبنى البرلمان المحاصر في موسكو

رمزاً مقاوماً للتمرد؛ أي رمزاً للحرية، والديمقراطية وتقرير المصير القومي. وطلب يلتسن المساعدة من كل الديمقراطيين واستعد لقتال الدبابات. واستجاب لندائه بإقامة التاريس داخل البرلمان آلاف الأشخاص، وكان بينهم شامل باسايف، أمير الحرب المستقبلية في أبخازيا، والذي لم يكن عندها سوى طالب في موسكو. وفي كل المناطق والجمهوريات النائية، طلب الكرملين من القادة المحليين الاستعداد للمواجهة. وبالنسبة لمعظم الشيوعيين، مثل الأمين العام للحزب الشيوعي الشيشاني دوكو زافغايف، كان الأمر يتعلق بالتحمين الصحيح - من سينتهي إلى القمة، الجناح المسلح أم يلتسن؟ وبقي زافغايف المراوغ على الحياد، ولكن بدلاً من الانتظار صامتاً دون إعلان موقف، خطا على نهج دودايف وأدان عصيان الشيوعيين المسلح، ودعا كل الشيشانيين لدعم حركة يلتسن الديمقراطية. وكان ذلك اختراقاً هاماً احتاجه دودايف في ذلك الوقت.

وحاولت حكومة زافغايف، مثل الجناح العسكري الشيوعي في موسكو، إيقاف التغيير، وضيق الخناق على القوميين، وزجّت ببعض القادة في السجن وأعلنت حالة الطوارئ. ولكن فصيل دودايف كان يمتلك الكادر الموهل والطاقة اللازمة للعمل. وفي كل يوم، كان هناك مظاهرات ضخمة ضد الحكم السوفياتي في قلب غروزني. وفي 22 آب، سيطر المتظاهرون على برج التلفزيون، وظهر دودايف على الهواء ليعلن قيام الثورة. وبعد أسبوعين من ذلك، وفي 6 أيلول، اجتاحت الحرس الوطني لبرلمان دودايف مجلس السوفييات الأعلى، أو البرلمان السوفياتي، ورمى الرئيس الروسي لك "جوركوم" (اللجنة المحلية) في غروزني بنفسه، أو تم رميه من نافذة في الطابق الثالث ومات. وفي 15 أيلول، عقد مجلس السوفييات الأعلى آخر جلساته محاطاً بمقاتلي الحرس الوطني، وصوّت البرلمان على حل نفسه وقبول استقالة دوكو زافغايف. وكانت الثورة قد اكتملت عندها تقريباً.

وكان هناك معارضة قوية لدودايف، وخصوصاً بين المثقفين الذين عارض بعضهم الثورة بسبب طابعها القومي، فيما رأى البعض الآخر في سقوط النظام القديم نهايةً لوضعهم الخاص كنخبة سوفيانية متقاة. ونتج عن ذلك العنف زخم لا

يمكن إيقافه، والذي تصاعد أكثر بسبب رد فعل موسكو على الأحداث التي ستجري لاحقاً.

وتم تنظيم انتخابات مشكوك بصحتها في 27 تشرين الأول عام 1991، والتي فاز فيها دودايف بأغلبية ساحقة، مع نسبة تصويت بلغت 90% ونسبة تأييد له بلغت 72% وفقاً للنتائج الرسمية الثورية. وتشير التقديرات غير الرسمية أن عدد المصوتين لم يتجاوز 10 إلى 12%. ولم تكن الحقيقة حاضرة في الأذهان عندها. وكما هو الحال في جميع الثورات، لا يهتم أحد سوى للنشاط والشخصية القوية اللذين كان يتمتع بهما دودايف. وبعد خمسة أيام، وقع دودايف مرسوماً يؤكد استقلال الشيشان عن الاتحاد السوفياتي.

ورغم أن موسكو، وخصوصاً رئيس البرلمان رسلان خزبلاخوف، قدّمت الدعم لدودايف في معركته ضد زافغايف، إلا أن العلاقات سرعان ما تدهورت. وأعلن نائب الرئيس ألكسندر روتسكوي، وهو جنرال سابق في سلاح الجو أيضاً، أن الشيشانيين خرجوا عن السيطرة، ووجه لهم الأوامر بإلقاء السلاح والتصرف مثل المواطنين الروس الملتزمين بالنظام. وادّعى أن مناصري دودايف ليسوا سوى عصابة لا يتجاوز عدد أفرادها 250 شخصاً. ورد دودايف المحكوم بإعلان حالة الحرب، والتي دفعت روتسكوي لإلقاء خطاب ناري آخر حول "الفوضى الحكومية" في الشيشان. وأمر الرئيس يلتسن "الجماعات المسلحة غير القانونية" بتسليم أسلحتها أو مواجهة العواقب من المركز الاتحادي. وتجاهل دودايف الإنذار النهائي ومضى في انتخاباته، فقط ليحصل على الشرعية القانونية التي كان يشكك بها خزبلاخوف.

وبلغت سياسة شفير الهاوية مرحلة جديدة في 8 تشرين الثاني عندما أعلن يلتسن حالة الطوارئ في الشيشان وأنغوشيا رداً على إعلان استقلال دودايف، وهو ما كان يعني تعليق الحقوق الدستورية. واندفع مئات الجنود إلى غروزني من أجل استعادة النظام والدفاع عن وحدة الأراضي الروسية.

وكان دودايف جاهزاً. وعندما وصلت القوات إلى مطار خانكالا العسكري في شرق غروزني، وجدت نفسها محاطة بالحرس الوطني ولا خيار أمامها سوى الدخول في قتال شرس أو الاستسلام المذل. وبالتزامن مع ذلك، أعطى شامل

باسايف مثلاً عن القسوة البالغة التي ستطبع النزاع الشيشاني - الروسي بطابعها بخطفه طائرة ركاب إيفرفلوت على متنها 178 شخصاً. وتم إجبار الطائرة على تغيير مسارها إلى أنقرة في 9 تشرين الثاني، وبعد خمس ساعات على مدرج المطار، حوكت مسارها وطارت مجدداً إلى غروزني حيث تم إطلاق سراح الرهائن دون أن يتعرضوا للأذى. وقال باسايف أن هدفه الوحيد كان توجيه الأنظار إلى انتشار القوات الروسية في بلاده. وقد اقتنعت السلطات التركية بوجهة نظره، وقالت إن باسايف لم يقم بعمل إرهابي، وإنما بفعل احتجاجي. وكانت تلك خلفية متوترة لانتخابات دودايف الرئاسية التي كانت تجري في نفس اليوم، 9 تشرين الثاني، مع تجمع الآلاف من المتظاهرين في "ساحة الحرية" خارج القصر الرئاسي.

ووقفت موسكو على حافة الحرب. ورفض البرلمان الروسي المصادقة على حالة الطوارئ التي أعلنها يلتسن، مما دفع هذا الأخير إلى إلغاء ذلك المرسوم بعد رؤيته لخطر إراقة الدماء. واستقل جنود وزارة الداخلية في غروزني الحافلات وغادروا الشيشان. وفاز دودايف بأولى المواجهات مع موسكو، وفي الشوارع هلكت حشود القوميين التي أوصلته إلى السلطة ابتهاجاً.

وتفادى الجميع إراقة الدماء، ولكن الأوضاع كانت مليئة بالمخاطر القادمة لاحقاً. ومن جهة، أثبتت موسكو عجزها عن القيام بأعمال حاسمة والتفاوض بشكل جيد. ومن جهة أخرى، اكتشف دودايف أن وضع مواطنيه في مواجهة مع الغيلان الروسية كان مفتاح زيادة شعبيته. وبوقوفه ضد القوات الروسية في المطار، أزاح دودايف القناع عن الضعف المادي للدولة الروسية الجديدة. وفي الحقيقة، لم تستغفر تلك العوامل بعد مرور ثلاث سنوات كاملة مرت خلالها العلاقات الروسية - الشيشانية بمراحل من الركود وسوء الفهم وصولاً إلى الحرب.

2. نهاية البراءة

لم يكن لسمي للسلطة، والغنى أو الوظيفة. ولم يكن لدي دافع سوى فكرة واحدة؛ للقتال في سبيل حق للشعب الشيشاني في الاستقلال. إنه هدف حياتي، ولن أتورى خجلاً منه. ليس بسبب أي ظروف أو تحت أي ضغط.

جوهر دودايف.

وضع دودايف خطته في كتب وكرّاسات رسمية، مثل "الطريق الشائك إلى الحرية"، والتي يظهر فيها على الغلاف الخارجي للكتاب في مقعد الطيار، مبتسماً رافعاً إبهام يده. وقد وعد الرئيس بحقوق متساوية للأغلبية الشيشانية البالغ تعدادها 900.000 نسمة، والأقلية الروسية التي لا تتجاوز 300.000 نسمة، وأن كلتا اللغتين ستكون رسمية في البلاد. ورغم أن الجمهورية ستكون مستقلة ومحايدة عسكرياً، إلا أنها ستبني علاقات اقتصادية متينة مع روسيا. وستمتع كل الأديان بحريات متساوية، وسيتم إطلاق سراح أي شخص تم اعتقاله للدوافع السياسية في ظل النظام القديم.

ولا يوجد أي خطأ في البرنامج، ومع أن الانفصال نفسه كان أمراً صعباً من الناحية التقنية، إلا أن طموحات الشيشان كانت تتمتع دون شك بقوة أخلاقية وتاريخية. ولم يسبق للشعب الشيشاني أن اندمج مع روسيا بإرادته؛ وفي الحقيقة لم يترك فرصة سانحة للثورة إلا واستغلها عبر أجيال متعددة، وكان اقيار الاتحاد السوفياتي خصوصاً فرصة جيدة للانفصال عن موسكو. وعلى المستوى الأخلاقي على الأقل، لم يكن هناك سبب يمنع الشيشان من سلوك نفس الطريق الذي سبقتها إليه أستونيا الأكبر منها قليلاً، أو أي من الجمهوريات السوفياتية السابقة الأخرى.

ولم يتم طبع تلك الكتيبات بعناوينها المثالية ومقدماتها العلمية سوى بعد أن أصبحت مناسبة للمتاحف. وفي غضون أقل من سنة على تغيير دودايف لتوقيت الجمهورية، بدأت الجالية الروسية في مغادرة الشيشان بالآلاف، وبدأ الاقتصاد يشهد تراجعاً واضحاً، وسيطرت طبقة جديدة من فاحشي الثراء على الحكومة، فيما كان قطع الأعناق ينتشر في الشوارع. وكان هناك وزير للاقتصاد، ولكن دون اقتصاد؛ ووزير للخارجية، ولكن دون اعتراف دبلوماسي؛ وجبال من المراسيم الرئاسية حول القانون والنظام، ولكن لا شيء سوى حكم السلاح.

وساهمت كل تلك العوامل في سنة 1994 في منح السياسيين الروس أسباباً لتبرير الحرب بإعلانهم أن الشيشان الدولة الإجرامية الأولى. ولكن الحقيقة الصعبة والتي تم تجاهلها طويلاً هي أن السياسيين ورجال الأعمال الروس كانوا حاضرين بأنفسهم لدى ولادة حقبة دودايف، رغم أنها لم تكن سياسة رسمية للكرملين.

ويمكن إرجاع سبب معظم ما كان يحدث في الشيشان إلى روسيا، ولكن الوضع لم يتغير لثلاث سنوات طوال. وكما يعرف أي رجل أعمال روسي يدفع للمافيا، كان السلام يكلف مالا. وهكذا كان يبدو أن الشيشان متروكة للسرقة والحداع، فيما كانت روسيا مستفيدة من الوضع القائم. ولم تكن الشيشان المستقلة، في جانب منها، سوى شركة قطاع مشترك مشبوهة أخرى.

ولم يعان الشيشانيون الراغبون في هرب البضائع أي صعوبات في تجاوز الحصار المفروض من قبل يلتسن. ومن جهة، كان هناك الحدود البرية الطويلة مع داغستان، والتي لم تكن تسمح بتطبيق تعليمات موسكو؛ ومن جهة أخرى، كانت هناك أنغوشيا، التي لم يتم ترسيم الحدود معها منذ انفصال الشيشان - أنغوشيا. وسرعان ما تحول الحصار العسكري، الذي يتلقى أفراد الروس رواتب هزيلة، إلى مصدر لتدفق الأموال. وتستطيع أي عربة اجتياز نقاط التفتيش مقابل مبلغ معين، وفي حال الضرورة تستطيع الشاحنات السير على المسارات المرحلة التي لا تقصدها دوريات الجنود الروس. وكان الهدف من كل ذلك الحصار جعل التجارة غير قانونية، وإلغاء دور رجال الأعمال الشرعيين وتنشيط دور السوق السوداء.

وكانت القطارات التي تأتي إلى الشيشان عبر خط روستو - باكو الذي يمر القوقاز تتعرض للغارات بأسلوب الغرب الأميركي - 559 قطاراً في سنة 1993 لوحدها، كما زعم الروس. ومع بقاء مطار الشيخ منصور في غروزني مفتوحاً، غدت الرحلات غير المجدولة سوق سلاح من الطراز الأول، وأصبحت غروزني بوابة روسيا للبضائع المستوردة بشكل قانوني وغير قانوني والتي لا تخضع جميعها للضرائب. وكانت ظاهرة "تجارة الحقيقة" مألوفة في كل أنحاء الاتحاد السوفياتي السابق، ولكن البضائع الشيشانية المغاة من الضرائب تفوقت على كل المنافسين. وأصبح سوق غروزني ملاذاً للتسوق بالنسبة لشمال القوقاز، مع وجود أكبر وأرخص تشكيلة ممكنة من البضائع: أجهزة التلفاز والفيديو اليابانية من هونغ كونغ والإمارات العربية، والعطور الفرنسية، والملابس الرياضية الغربية، والأشغال الخشبية والجلد التركياني. وقد يكون سوق السلاح أشهرها على الإطلاق، ويقع عند جدار مقسم الهاتف. وهناك، يستطيع رجال لهم نظرات حادة، ويضعون نظارات عاتمة،

ويرتدون معاطف جلدية يبيع أي شيء من رشاش بورز (الذئب) المصنوع في الشيشان إلى منصات إطلاق الصواريخ المضادة للدروع، أو معدات أثقل. وفي بلاد يتم فيها تجيل الأسلحة، يعتبر هذا المكان مكة (محمّاً).

ويبدو الخط الفاصل بين المسؤولين الروس الذين يفضون الطرف عما يحدث، والذين يعملون مع العصابات طمعاً بالمال، غير واضح على كل جبهة تقريباً. ويقول سرجي شاجري، وزير القوميات الروسي، والمسؤول عن العلاقات مع الأقليات العرقية، أن 150 رحلة عارضة تغادر غروزني شهرياً، مما يخرق قوانين الطيران الروسي. ولكن هناك حلقة مفقودة في الادعاءات الروسية حول كون المطار ثقباً أسود قانونياً، إذ لا يستطيع الطيارون الإقلاع والهبوط في غروزني دون تعاون مسؤولي الحركة الجوية الروس، ولا يستطيعون بالتأكيد الطيران إلى البلطيق، وسلوفاكيا، أو ربما إلى أي من محطاتهم الدولية الأخرى. وفي النهاية، يمكن الضغط دبلوماسياً على الدول الأخرى حتى لا تستقبل الطائرات الشيشانية، أو يستطيع الطيران الحربي الروسي ببساطة فرض منطقة حظر طيران فوق الأجواء الشيشانية.

ورغم أن الشيشان قد تخلّت عن كل القوانين الروسية وأعلنت استقلالها، إلا أن موسكو استمرت في دفع الأموال الاتحادية اللازمة لتسديد المعاشات التقاعدية والحاجات الاجتماعية الأخرى طوال سنة 1992 وبداية سنة 1993. ولكن مقدار الأموال التي كانت تسرق على الطريق، وما كان يصل منها إلى مستحقي الرواتب التقاعدية مسألة أخرى تماماً. وفي إشارة أخرى إلى قرار كل من الشيشان وموسكو العيش مع بعضهما البعض، احتفظ دودايف بمركز شبه رسمي، وكان يوضع اسمه في المنشورات الرسمية على أنه "رئيس" الشيشان. وفي سنة 1993، وجّه رسائل مودة للرئيس يلتسن، متنبئاً له الحظ السعيد في صراعه على السلطة مع البرلمان. ولم تنقطع العلاقات الهاتفية حتى بداية الحرب، عندما قصفت الطائرات مقسم الهاتف.

وربما تكون أفضل هبة للدولة تريد الاستقلال هي الجيش، وهذا ما حصلت عليه الشيشان في سنة 1992. وقد انسحبت القوات السوفياتية التي كانت متواجدة سابقاً في غروزني بسرعة بعد شعورها بالتهديد من السكان المحليين القوميين. ووفقاً لتقرير رئيس الأركان الروسي في حزيران 1992، تركت تلك القوات خلفها 42

دبابة، والكثير من المركبات المدرعة الأخرى، و145 مدفع هاون وقطع مدفعية أخرى، و40.000 سلاح ناري. وكان هناك الكثير من الذخائر المختلفة في قاعدة التدريب في غروزني، وسرت شائعات لم يتسنَ التحقق من صحتها حول وجود مواد نووية في قواعد عسكرية قديمة.

ومرة أخرى، يتم دفن الدليل. وكانت الرواية الروسية للأحداث، والتي تبدو صحيحة، أن الجنود تخلّوا عن الأسلحة نتيجة التهديد. وبين أواخر سنة 1991 وبداية سنة 1992، كان هناك هجمات مستمرة للحشود الشيشانية على المتاريس في غروزني، مع وجود رجال يحملون أسلحة ويختبئون خلف مجموعات من المدنيين. وكانت الغارات تسبب أحياناً بإراقة الدماء؛ ومات 20 شخصاً كما يذكر أحد التقارير في حادثة واحدة. وطبقاً لمصادر روسية، كان الجيش يعتقد أن المقاومة الجديّة ستقود إلى حمام دم. وقال أحد مصادر الجيش أن الشيشانيين كانوا يهددون حياة أسر الضباط في حال عدم مغادرتهم للجمهورية. وفي موسكو، كان هناك إجماع على أن الوقت حان لتقليل الخسائر عبر المفاوضات ومغادرة المكان؛ وهو ما حدث لاحقاً عندما غادرت القوات الروسية دون سلاحها.

وقاد وزير الدفاع الجديد بافل غراتشيف المفاوضات (أو الصفقات، وفقاً لما قد نراه) في ذلك الوقت. ونتج عن استفسار البرلمان الروسي عن الحرب في الشيشان قيام غراتشيف بإصدار أمر في أيار سنة 1992 بفوّض فيه القيادة العسكرية في شمال القوقاز بتسليم 50% من المدرعات والأسلحة الأخرى الموجودة على الأراضي الشيشانية إلى دودايف، وأن يتخلّى الجيش عن الباقي. وتقول تقارير أخرى أن دودايف حصل على 80%. ووفقاً لصحيفة "سيفودنيا"، احتفظ دودايف بالكثير من تلك الأسلحة. وحتى بعد مرور خمس سنوات، يبرز السؤال الآتي: ما مقدار الأسلحة التي تمّ التخلي عنها، وكم بيع منها؛ وإذا تمّ بيعها، لمن؟

وكان هناك أموال كثيرة تأتي من سوق النفط. وكجزء من الاتحاد السوفياتي، كانت حقول الشيشان الصغيرة، والتي تنتج نفطاً عالي الجودة، تقدّم 90% من وقود الطيران للبلاد، رغم أن هذا لا يشكل سوى جزء صغير من الإنتاج النفطي الكلي. وفي تسعينيات القرن العشرين، وصل الإنتاج الشيشاني إلى حوالي 3.5 مليون طن

سنوياً، وهو أقل بكثير من معدل الإنتاج في الحقبة السوفياتية. وكانت الاحتياطات السهلة الاستخراج محدودة للغاية، كما أن جزءاً من الاحتياطات النفطية موجود الآن في الأراضي الأنغوشية.

وكان تكرير نفط المناطق الأخرى من المشروعات التي تدر ربحاً جيداً، والتي تشكل جزءاً هاماً من دخل غروزي، إضافة إلى رسوم عبور خط أنابيب "عبر القوقاز" في الأراضي الشيشانية. وكانت تلك الأموال تشكل أفضل فرص دودايف للتغلب على الفقر المدقع الذي تسبب به شح الرساميل الروسية وفساد حكومته. وربما كان دودايف قادراً على إنقاذ جمهوريته الفتية باستخدام أموال النفط لغايات اقتصادية واجتماعية، ولكن الأموال تبخرت عوضاً عن ذلك.

وكان تواطؤ المسؤولين الروس والشيشانيين في تلك المسألة واضحاً للغاية. وفي ظل الحصار أو عدمه، كان النفط يصل بانتظام من سيبيريا، ثم يخرج من غروزي عبر ميناء نوفوروسيسك الروسي على البحر الأسود. ووفقاً لتقرير البرلمان الروسي في سنة 1992، كان كل من رئيس الوزراء إيغور غايدار وخليفته (وكان عندها نائباً لرئيس الوزراء للطاقة) فيكتور تشيرنوميردن يعملان بهذه التجارة بشكل مباشر. وجاء في التقرير أن مصافي غروزي تعاملت مع 15 مليون طن من النفط في سنة 1991، و9.7 مليون في سنة 1992، و3.5 مليون في السنة التالية. ويقول يوسف سوسلاميكوف الذي احتل مناصب مرموقة عديدة في الشيشان قبل أن ينتحى مع دودايف، أن سنة 1992 شهدت شحن أربعة ملايين طن من الديزل، و1.6 مليون طن من البنزين، و125.500 طن من الكيروسين، و36.600 طن من زيت المحركات إلى خارج غروزي. ويقدر أن تلك المنتجات تساوي بحسب أسعار الأسواق العالمية آنذاك ما مجموعه 130 مليون دولار أمريكي.

ويقول سوسلاميكوف: "بالطبع كانت دوائر معينة عليا من الحكومة الروسية مشتركة في عمليات بيع النفط، وخصوصاً أن النفط الروسي كان يمر حتى سنة 1994 عبر الشيشان. ولا يوجد ذكر لأي من هذه النشاطات في ميزانية الدولة. وأثناء ذلك، كان يتم نقل عشرات ملايين الأطنان من المنتجات النفطية الروسية - الشيشانية إلى أجزاء أخرى من رابطة الدول المستقلة، وأيضاً إلى نوفوروسيسك

وتوأس في طريقها إلى أسواق أخرى". ولم يصدق أحد في الشيشان سوسلاميكوف - خصوصاً أنه كان يعمل على إقناع الآخرين بالعمل ضد دودايف، ولكن لا يمكن نكران ما يقوله: "لم يتم شراء متحats زراعية، أو طعام، أو إدخال تكنولوجيا جديدة لإنعاش الاقتصاد الشيشاني، أو ملابس بأموال ذلك النفط".

وقامت أستونيا المستقلة حديثاً بتغيير عملتها سنة 1992، وحولت احتياطياتها من الروبلات السوفياتية إلى الشيشان وليس إلى المصرف المركزي في موسكو، وهو ما مثل أحد أهم إنجازات دودايف المالية. وتم نقل حمولة طائرات من الروبلات السوفياتية إلى غروزني، والتي استمر العمل بها حتى تحولت روسيا إلى الروبل الروسي في صيف 1993. ورأيت لاحقاً، خلال الحرب في سنة 1995، أطفالاً يلعبون في الشوارع بتلك العملة الورقية التي لا قيمة لها عندها بالقرب من أنقاض المصرف المركزي، والذي سوّته القاذفات الروسية بالأرض مثل المباني الحكومية الأخرى.

وفي قلب تلك الفوضى، استخدم رجال الأعمال الشيشانيون جمهوريتهم كقاعدة للجريمة المنظمة، لأنهم كانوا يعرفون أن الشرطة الروسية لا تستطيع ملاحقتهم. وفي حادثة خاصة، تم اغتيال شقيقين ذهباً إلى لندن للتحضير لصك العملة الشيشانية في شقة صغيرة في ماريلبون، وهو ما أشعل موجة نار انتهت بمقتل امرأة بريطانية بريئة لا ذنب لها سوى أنها قرية الشاين الذين تم اتهامهما بعملية الاغتيال.

ورقاً لكتاب عالم الجريمة في روسيا المنشور سنة 1995، كان الشيشانيون في موسكو متورطين بشكل كبير في حلقات البغاء، وإنشاء شركات سيارات الأجرة، وشركات الحماية وتجارة السيارات. ونظم الشيشانيون في سانت بطرسبرغ تجارة نقل بضائع السوق السوداء من البلطيق؛ وتم إلقاء القبض على عصابة شيشانية لتزيف الأموال في تلك المدينة سنة 1994. وكانت السيارات الفارهة اختصاصاً شيشانياً محضاً. ويصف أحد المحتالين المشهورين البدايات في ألمانيا، حيث كان يتم إجبار مالكي سيارات مرسيدس وب.م.ف على بيع سياراتهم بأسعار منخفضة أو

سرقته. وفي الوقت الذي يتقدّم فيه المالك بشكوى حول السرقة، بعد تأخير متفق عليه لعدة أيام، تكون السيارة في طريقها إلى الشيشان بمساعدة عملاء الجمارك الفاسدين. ويتمّ تقديم مستندات مزوّرة في غروزني، وتصبح السيارة جاهزة لاستخدامها من قبل رجال العصابات، أو لإعادة بيعها وسرقته مرة أخرى. وتمتليّ الشيشان بالسيارات الأجنبية المسروقة، والتي تحمل غالباً لوحاتها السويدية أو الألمانية الأصلية.

ولكن أشهر السارقين كانوا "فوسدوشنكي" أو "رجال الهواء" الذين يستطيعون جني الثروة من لا شيء، إما بتزييف العملة أو بالنصب على البنوك. وكانت إحدى أشهر طرق الاحتيال تتمثل بإنشاء شركة وهمية في المقاطعات لإصدار سندات دفع وهمية، أو ما يعرف بأفيسو بالروسية، لصالح شركة ثانية في موسكو عبر التحويلات المصرفية. ورغم أن الشركة الأولى لا تدفع شيئاً في الحقيقة، إلا أن الشركة الثانية تحصل الأموال المحوّلة نقداً.

وفي حزيران سنة 1992، قالت وزارة الداخلية الروسية أن عصابات المافيا في روسيا، وخصوصاً في الشيشان، سحبت 30 مليار روبل من المصرف المركزي باستخدام أفيسو مزورة. وقالت السلطات إن الوضع تحت السيطرة. وفي شهر تموز من ذلك العام، قالت وزارة الداخلية إن الأموال المفقودة تصل في الحقيقة إلى عدّة مئات من مليارات الروبلات. وفي عملية احتيال واحدة، وهي السرقة الأكبر في تاريخ روسيا، تمّ توجيه الاتهام لعصابة شيشانية بسحب 60 مليار روبل (تساوي عندها 700 مليار دولار أميركي)، وتمّ على إثرها إيقاف التعاملات المصرفية مع الشيشان.

ومرة أخرى، يوجد تواطؤ في فضائح أفيسو - رغم عدم القدرة على إثبات ذلك - من الجانب الروسي. ويبرز تساؤل هنا عن مدى كفاءة موظفي المصرف المركزي الذين ينظمون عمليات التحويل المالي الضخمة تلك، والذين لم يستطيعوا اكتشاف أمر تلك الشيكات! وحول استمرار المصرف المركزي في العمل وقتاً طويلاً قبل أن يقرر إيقاف التعاملات المالية مع النظام المصرفي الشيشاني؟ ويعترف دودايف بسرقة مئات المليارات من الروبلات وأن بعض أفيسو المزورة جاءت من الشيشان؛ لكنه ينكر تورط حكومته في الأمر.

ويجب التأكيد، وعلى نطاق واسع، بأن المجرمين الشيشان يعكسون ببساطة ما كان يجري حولهم. وفي بداية التسعينيات من القرن العشرين، كانت روسيا تحت سيطرة التنظيمات الإجرامية، وكانت السلطات جزءاً من اللعبة في العديد من المواضيع، وكان ذلك نتيجة فساد الحقبة السوفياتية وغياب القانون والنظام في روسيا الديمقراطية. ولم يكن الكثير من رجال الأعمال الروس قادرين على العمل دون دفع أموال حماية في السنوات الأولى. ولم يكن الشيشانيون وحدهم المتورطين في عمليات الاحتيال المصرفية. وأثبت دودايف خصوصاً، عجزه عن مكافحة الفساد. وقد اعترف بوجود المشكلة، ولكنه ألقى باللوم على الخطط الروسية، وتفادى أي مسؤولية من طرفه كما تشرحتها العقائد المنشورة من طرفه في تلك الكتيبات البائسة الملقاة على قارعة الطريق.

وجرت محاولة لقلب نظام دودايف في سنة 1992، ودخل في السنة التالية معركة مع البرلمان لتمديد فترة حكمه، والتي أثرت على خطته في الحصول على المزيد من الصلاحيات الرئاسية. وردّ دودايف بتنظيم استفتاء شعبي مشكوك بنزاهته، والذي أظهر تأييد 97% من الشعب له. لكن عندما استمرت المشكلة، قام دودايف في نيسان سنة 1993 بحل البرلمان، وفرض منع التحول بمرسوم رئاسي. وبمقداد، تعكس الشيشان الوضع في روسيا بشكل غريب، حيث قام الرئيس بلمتن في تشرين الأول من تلك السنة بحل البرلمان بنيران الدبابات، وأعاد كتابة الدستور ليمنح نفسه صلاحيات واسعة جديدة.

وكان الروس، الذين حلموا بالسلام في ظل الجمهورية الشيشانية الجديدة، يغادرون منازلهم بالآلاف إلى مناطق ستافروبول وكراستودار في جنوب روسيا. وواجه الكثير ممن بقوا مضايقات مستمرة، أو تمّ إجبارهم على مغادرة شققهم أو تعرّضوا للسرقة أو للقتل. وكان دودايف يعلم بتلك الأحداث، لكنه ألقى باللame على مثيري المشاكل الروس؛ ولا علاقة له بالموضوع على الإطلاق.

وبخلاف الشيشانيين، لم يكن لدى السكّان من العرق الروسي شبكة من العلاقات العائلية التشعبة، والتي تؤمن لهم الطعام والسكن في حال كانوا فقراء أو تعرّضوا للمشاكل. وفوق ذلك، كانوا خارج نظام الثأر مما جعلهم أهدافاً سهلة

للمجرمين الذين كانوا يعلمون أن شرطة دودايف لن تتدخل أبداً. وقام شباب شيشانيون بزيارة إحدى المتقاعدات الروسيات في غروزني، والتي يعرفها الجميع باسم تيوتيا أو العمّة ناتاشا، في شقتها الصغيرة في غروزني. وعندما لم يجد أولئك الشباب أي شيء يأخذوه، قاموا بسرقة أسناتها الذهبية.

وتقول لودميلا، وهي نصف روسية ونصف أميركية، والتي هربت من غروزني لتعيش في كاباردينو - بالاكاريا: "في بداية تسعينيات القرن العشرين، كانوا يستطيعون أخذ أي شيء منا لأننا روس، ولسنا منهم. لم أكن أحرز على المشي لوحدي. وفي أحد الأيام، وبينما كنت في السوق، أمسك بي رجل وبدأ بسحبي بعيداً، ولكن شقيقتي كانت موجودة هناك وبدأت بالصراخ، واستطعنا الهروب منه. وبعد ذلك، طلب والدي مني ومن شقيقتي الحضور إلى هنا، وبقي مع أمي هناك. ورغم أن جيراننا الشيشانيين طيبون ودافعوا عنا فيما مضى، إلا أنهم كانوا يدعون والدي، الذي عمل في مصفاة النفط، بالخنزير الروسي، رغم أنه ليس روسياً، وإنما أميركياً".

ومرة أخرى، لا تبدو الشيشان قضية معزولة، وإنما نسخة متشددة عن الأحداث التي تجري في العديد من الجمهوريات المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفياتي المنهار، حيث أصبح ما مجموعه 25 مليون روسي أقليات وغرباء بين ليلة وضحاها. وهربوا جماعياً من الحرب الأهلية والفقر في طاجيكستان، وعانوا من التمييز السياسي واللغوي في دول البلطيق. وبالطبع، لم يكن أولئك الروس الهاربون من الشيشان يعرفون بأنهم ليسوا سوى أولى موجات اللاجئين. وحصلت موجة اللجوء الثانية سنة 1994 عندما أرسلت موسكو جيشها، ووجد الروس المحاصرون أنفسهم يتعرضون للقصف من قبل حائقم. وعند نهاية الحرب سنة 1996، اختفى المجتمع الروسي من الشيشان بالكامل تقريباً.

وكما في أي مكان آخر، تمتع الروس بوضع خاص في الشيشان قبل الثورة، وهيمنوا على السلطات واحتفظوا بمعظم الوظائف الهامة، خصوصاً في صناعة النفط حيث كان 90% من الموظفين من الروس. ولم يتم تأهيل سوى بعض الشيشانيين في كليات الصناعات النفطية. وكان يتم إرسال الشيشانيين الذين يتم تأهيلهم في

تلك الكليات عادة إلى مناطق أخرى من الاتحاد السوفياتي. ولم تكن السياسة الرسمية تسمح آنذاك للشيشانيين بالوصول إلى مراكز السلطة أو حتى الهيبة. ونتيجة لذلك، لم يكن العدوان على الجالية الروسية مأساة لأفرادها وحسب، وإنما كان كارثة على الاقتصاد الشيشاني أيضاً.

ولم يكن هذا ما وعد به دودايف في تلك الأيام الأولى المليئة بالعواطف الجياشة. وتحول ذلك الجنرال، الذي كان يلبس بذلات مقلمة عوضاً عن الزي العسكري التقليدي حتى لا يتهمه الناس بأنه ديكتاتور، إلى رئيس لإحدى جمهوريات الموز. ونتيجة لعدم قدرته على إدارة بلده الصغير، حول تركيزه إلى روسيا. واستخدم اتحاد شعوب القوقاز كمرحلة لحلمه الصغير والخطير في توحيد القوى القومية في شمال القوقاز ضد روسيا. وجاء الاعتراف الدبلوماسي الوحيد الذي فاز به من الرئيس الجورجي الأول السيئ السمعة زياد غامساخورديا، الذي عاش في المنفى في غروزني. وأصيب دودايف، مثل غامساخورديا قبله، بجنون العظمة. وعندما اعتقد بأن روسيا ليست كبيرة بما فيه الكفاية لسيطر عليها بشعبه البالغ تعداده مليون نسمة، طار إلى العراق، والأردن والسودان ليعلن دعمه لـ "قتال الإسلام ضد روسيا، والولايات المتحدة والغرب عموماً".

3. الحرب الزائفة

كانت المفاوضات الرامية إلى جعل دودايف يوقع على اتفاقية الاتحاد، والتي تضع الشيشان ضمن الفيدرالية الروسية، تنهار في كل مرة. وكان الرئيس يلتسن يرفض اللقاء بجنرال القوى الجوية المرتد، والذي كان يصر على وجوب معاملته كرئيس دولة. وكان من الواضح أن كل ذلك الصخب عديم الفائدة، رغم استفادة دودايف منه، وتزايد الاحتقان السياسي بحلول سنة 1994. وفي صيف تلك السنة، أطلقت موسكو ما كان يبدو أنه حرباً سرية غموضية، لكنها في الواقع كانت الخطوة الأولى نحو المستتقع.

وشكل التحالف تدعمه روسيا من معارضي دودايف، ويتخذ من منطقة نيدرترشني الشمالية الغربية مقراً له، مجلساً مؤقتاً، وأعلن في آب 1994 أنه يمثل

الحكومة الشرعية في الجمهورية. وبدأ المجلس الوقت مباشرة في استخدام التمويل الروسي السري لبناء جيش، وتشديد الخناق على الوضع الاقتصادي في المناطق التي يسيطر عليها دودايف. وتمّ تجديد المستشفيات والمدارس التي تديرها المعارضة، وأصبحت الطبابة متاحة وبدأ المعلمون في استلام رواتبهم. وقال المتحدث باسم المعارضة في القاعدة الرئيسية في زنامينسكوي: "نحتاج للفوز بقلوب الناس". وأخبرني أن قواته تلقّت للتو مليوني دولار من موسكو. وإلى جانب المال، جاءت البنادق، والدهابات، والمروحيات والرجال. ولكن كما هو الحال في أي عملية سرية، كان إنشاء معارضة لدودايف أكثر تعقيداً مما يعتقد، وسرعان ما ظهر جهل روسيا بهذه الجمهورية الصغيرة التي تحاول إخضاعها لسيطرتها.

وكانت أول مشكلة في قادة المعارضة أنفسهم. وكان أمراء الحرب أولئك - والذين كان يلتسن يدعوهم "القوات الصحية" - مجموعة من الشخصيات المشكوك فيها والتي سمح لها الكرملين بالقتال لاستئصال عصابات دودايف. وتمّ تعيين عمر أفثورخانوف قائداً رسمياً للمعارضة، وهو شخصية من شمال الشيشان المؤيدة تقليدياً للروس، والذي كان يظهر إلى موسكو ويلتقي مسؤولي الكرملين. ولكنه لم يكن يتمتع بتأييد واسع، ولم ينضم الكثير من الناس إلى ما اعتقدوا أنه جيش روسي بالسوكالة. وإلى جانب أفثورخانوف، كان هناك بيسلان غانتيمسروف، وهو رجل ثري في الثلاثين من عمره، وكان مناصراً لدودايف عندما كان عمدة لمدينة غروزني، ولكنه انقلب عليه فيما بعد. وكان هناك أيضاً رسلان لابرانوف السيئ السمعة والجاني الفاسد والمدان، والذي انقلب ضد دودايف.

وواجه فتيل إشعال حرب أهلية مشكلة أخرى تمثلت في رغبة الشيشانيين أنفسهم بعدم حصول حمام دم. ويمتلك المجتمع الشيشاني وسائل عميقة الجنوري في حل النزاعات الداخلية، كما أن اتفاق الآراء هو الطريقة التقليدية لحل المشاكل. ولطالما كرر الشيشانيون من كلا الجانبين على عدم حصول حرب أهلية واسعة النطاق في أمتهن من قبل، إلا أن البغضاء بين مناصري ومعارض دودايف تصاعدت خلال ذلك الصيف الحار. وكانت الولاعات مقسمة بين القبائل

المختلفة، ولم تكن هناك مساحة للجدال المنطقي، وساد حكم القبائل. ولكن رغم وجود بضع مئات من الرجال المسلحين، المزودين بالقبائل البدوية، والذين يرتدون الملابس المموهة ويضعون النظارات الشمسية لدى كل من مناصري دودايف ومعارضيه، إلا أن قتالاً بينهم لم يقع أبداً. إنما حرب زائفة!

ولأغراض الدعاية على الأقل، كان الوضع ملاحماً لكلا الطرفين. وأثبت ما كانت موسكو تدعوه "نزاعاً شيشانياً داخلياً" أسوأ الشكوك الروسية بأن الشيشانيين شعب عنيف لن تقود ثورة استقلالهم سوى إلى الفوضى فقط. وأدى تقدم الروس مساعدة عسكرية للمعارضة إلى وضع حجة قوية في يد دودايف. ولمدة ثلاث سنوات، كان هذا الأخير يتبجح بأنه في انتظار خوض معركة قوقاز كبيرة أخرى، واستطاع عندها القول أخيراً بأن موسكو تستعد للغزو.

وكانت الكميات الكبيرة من المعدات العسكرية، وولع الشيشانيين بالسلاح، والحلقة المستمرة من عمليات الثأر وتدخل موسكو كقيلة بتصعيد الموقف. وفي أواخر أيلول، حصلت واحدة من أشرس المعارك التي شاهدها لغاية الآن، ومات فيها 20 - 30 شيشانياً وهم يقاتلون بعضهم البعض تحت الشمس الحارقة على سفوح الجبال خارج قرية تولستوي يورت. وتم تفجير دبابة وحاملة جنود مدرعة، وتصاعدت أعمدة الدخان الأسود نحو سماء الصيف الصافية. وأحدثت هذه المعركة صدمة حقيقية. وفي اليوم التالي في تولستوي يورت، تجمع مئات المعارضين الذين يرتدون القبعات الشيشانية للقيام بمراسم الجنازة، ووقفوا في جماعات حول المقابر المفتوحة لأولئك القتلى. وحاول أحد الرجال إمساك نفسه عن البكاء فيما كانت المعاول تحيي القبور. وصلى الجميع، وتوجهت أكفهم تضرعاً إلى السماء.

وقال لي أحد القرويين بوجهه الذي ملأته التحايد: "كان هناك خيانة"، وأخبرني عن قريب له تلقى رصاصة في ظهره. "لم يحدث هذا قط في الشيشان من قبل. ونحن لا نطلق النار من الخلف". وطلبت رؤية خزبولاتوف، لكنهم أخبروني أن أحد أبناء عمومته قُتل وأنه في مجلس العزاء ولا يرغب برؤية أحد. ولدى عودتي إلى غسروزي، كان جميع من تكلمت إليهم، حتى رجال دودايف الذين كانت نتائجهم أفضل في تلك المعركة، يشعرون بالصدمة. وقال صاحب أحد المطاعم

ومناصر لدودايف: "كم عدد القتلى؟ 30؟ هذا رهيب". لقد كانت تلك حرب أهلية لم يرغب بها أحد.

وبقي تفصيل واحد في ذهني من ذلك اليوم، ويتعلق بمدى الثقة التي ظهر عليها غانتيمروف عندما رأيته في قاعدته في تولستوي يورت عند نهاية المعركة. وكانت لحيته طويلة وأنيقة، وشعره الأسود مسترسلاً خلف رقبته، ويضع مسدساً في حزام سرواله الجينز الجديد. ورغم أن جيشه الصغير قد تعرّض لضربة موجعة، إلا أن غانتيمروف كان هادئاً بشكل مدهش كما لو أنه يعرف أن هناك مساعدة كبيرة في طريقها إليه.

وقد وصلت المساعدة بالفعل. وفي 26 تشرين الثاني عام 1994، انضم جنود الجيش الروسي النظامي ودباباته سراً إلى قوات المعارضة في محاولة منسّقة للاستيلاء على غروزي. واندفعت خمسون دبابة، بطواقم من المرتقة الروس، إلى مركز المدينة وبدأ كما لو أن الهجوم يجري كما هو مخطط له في البداية. وفي غضون ساعات، أعلنت وكالة الأنباء الروسية "إيتار تاس"، ودون أن تذكر القوات الروسية، عن استيلاء رسلان لابينوف على القصر الرئاسي. ثم ظهرت الحقيقة: كان جيش روسيا السري هو من وصل فعلاً إلى مركز المدينة، ولكن ليدخل فقط في سلسلة من الاشتباكات المخططة سلفاً. وهرب لابينوف ورجاله إلى تلال تولستوي يورت، تاركين خلفهم شوارع مليئة بالمدركات الروسية المحترقة، وعدداً من الجنود الروس الأسرى. ووفقاً لحكومة دودايف، مات 300 جندي روسي ومعارض شيشاني في تلك الموقعة. ورغم أن مناصري دودايف يبالغون دائماً في تقديم خسائر العدو، إلا أن جميع من شاهد مركبات الجنود الروس ملقاة في الشوارع بعد تعرّضها للكمان: كان يعرف أنها معركة من طرف واحد.

وفي البداية، تمّصّت السلطات الروسية بمن فيهم وزير الدفاع بافل غراتشيف، وأنكرت أي علاقة لها بالمعركة. وجاء رد فعل دودايف بعرض 20 جندياً من القوات الخاصة الروسية أمام الصحفيين ومبعوثي البرلمان الروسي. وفي 28 تشرين الثاني، هدّدت الحكومة الثائرة بإعدام أولئك الرجال. وبالرغم من استمرار النفي الروسي، كان هناك اقتناع شعبي بأن "إف. إس. كي"، (الوكالة التي خلفت "كي).

جي. بي" والتي عرفت لاحقاً باسم "إف. إس. ب") قامت بتجنيد أولئك الرجال. والأكثر من ذلك أنه تمّ تجنيد الكثيرين من فرقتي كانيمير وبسكايا وتامانسكايا التابعتين للحيش الروسي النظامي. ويقول أحد أولئك المهنيين غير المحظوظين ويدعى نيكولاى بوتنجن بأن القادة وعدوه يبلغ 600 دولار أميركي مقابل الاشتراك في عملية سريعة لمساعدة الروس المعرضين للخطر في الشيشان. وتفيد تقارير أخرى بأن هؤلاء المرتزقة يجب أن يحصلوا على 1600 - 1900 دولار أميركي؛ وكل ذلك في جيش يعتبر الجنود العاديون فيه نظرياً عمالة كادحة ويعيش ضباطه في ظروف صعبة. وهذا هو لمن الحروب السرية عادةً: عندما تسوء الأمور، تصبح مكشوفة للعامة بشكل مرعب.

وانهارت سياسة موسكو في الشيشان. وأصبحت تلك الإخفاقات المتمثلة في اغتيال المفاوضات أولاً، وفي تنفيذ انقلاب عسكري لاحقاً معروفة لكل الأمة. وتمّ إغلاق الباب أمام أي حساب. ورغم أن دودايف كسب للمواجهة المباشرة الثانية مع الروس، إلا أنه لم يكن قريباً من إحكام سيطرته على الوضع. وظهرت الطائرات الحربية فوق غروزني بعد المعركة وقصفت المطار، وقتلت ستة أشخاص ودمّرت أسطول طائرات التدريب والطائرات الزراعية. وقاطع صوت قنابل القصف مؤمراً صحفياً لدودايف، ويتذكر الصحفيون الذي حضروا في ذلك الوقت أنهم اضطروا للنزول تحت الكراسي عندها لينظروا إلى الجنرال الذي بقي هادئاً يجلس في مقعده. وأصرت موسكو على أن تلك الطائرات تعود للمعارضة، رغم أن ذلك الخيال الجامح كان غريباً في تلك المرحلة.

في 29 تشرين الثاني، وبعد ثلاثة أيام من كارثة غروزني، جلس يلتسن وحلقته الداخلية المولفة من عشرات المستشارين في الكرملين للتفكير في الخطوة التالية. ولم يكن ذلك بالاجتماع الحكومي العادي، وإنما كان اجتماعاً لمجلس الأمن السري. ونتيجة تمتعها بكامل السلطة والنفوذ، اتخذت تلك المجموعة الصغيرة من المسؤولين، والتي وضعت مصير الشيشان بين يديها، قراراً سريعاً: إرسال الجيش إلى هناك؛ والقيام بكل الأعمال؛ والغزو. وكان الغزو خطأ تاريخياً، لكنهم اتخذوا ذلك القرار بناءً على الوضع في ذلك الوقت. وكانت

موسكو قد تجاهلت الشيشان مدة ثلاث سنوات، ولهذا لم يكن أمامها الكثير من الخيارات. إما أن يعترف الكرملين بشرعية دولة الثوار ويفتح محادثات عالية المستوى مع دودايف، أو أن يتابع في سياسة التدخل المباشر في شؤون تلك الجمهورية. وكان يلتسن يشعر بأن المحادثات مع دودايف، والذي أهانه وروسيا مراراً، مستحيلة. وكان القيام بشن حرب سريعة وخادعة، في الجانب الآخر، خياراً مثيراً. وسيقوم الكرملين بمعاينة الشيشانيين، وسيبدو يلتسن قوياً وتستفيد حاشيته بأكملها لأسباب مختلفة.

وكانت الحاجة إلى حل مشكلة خط أنابيب النفط العابر للقوقاز أحد العوامل الرئيسية التي زادت من الضغط على يلتسن للتحرك ضد الشيشان. وتم توقيع عقود الاستثمارات الضخمة في حقول النفط على الشواطئ الآذرية في أيلول من تلك السنة، وكانت صناعة النفط الروسية في سباق مع الزمن لتضمن اختيار خط الأنابيب الذي رسمته. وكان ذلك يعني إحكام السيطرة على الشيشان. وهناك قول سائد بأنه يمكن مد خط أنابيب للنفط حول الشيشان، ولكن تلك الخطة تعاني من مشكلة كبيرة، وهي أنها تحتاج إلى وقت طويل للتنفيذ قد يمتد لسنوات، وهذا يعني تطبيق سياسات تهدئة طويلة المدى.

وبكسل الأحوال، وقفت العوامل السياسية خلف تلك الحرب. وخلال شتاء تلك السنة، كان تركيز يلتسن منصباً على حملة إعادة انتخابه سنة 1996، والتي لا تبعد أكثر من سنة ونصف، لأن شعبيته المتدهورة إلى أبعد حد وصلت إلى 8% فقط. وكان القوميون يكرهونه لأنه تسبب بالهيار الاتحاد السوفياتي، ومناصرو الديمقراطية يلومونه على فوضى السوق الحرة والإصلاحات الديمقراطية. ولهذا كان اتخاذ خطوات صارمة في هذا الجزء الصغير من الاتحاد الروسي هو حجر الزاوية في العودة إلى دولة النظام والقانون، وإنهاء حالة الفوضى أو "بارداك" التي تعصف بالبلاد. وكان يلتسن متفهماً تماماً للأحوال السياسية السائدة، ونجح في إدراك حسنين سكان البلد إلى الإمبراطورية السوفياتية والعظمة الروسية. وسيتمكن بعد إعادة الشيشان إلى الحضيرة الروسية من القول بأن تلك الدولة العظمى بأمان مع يلتسن. وأخيراً، سوف تذكره الجماهير على أنه يلتسن الحامي.

وكان هناك عاملان سمحا للرئيس يلتسن بتنفيذ خطته الصيانية المريضة. الأول هو القوة الذاتية الكبيرة التي تراكمت لديه بموجب الدستور الذي فرضه بالقوة سنة 1993. فلقد أصبحت الرئاسة بموجب ذلك فوق مستوى الشبهات، وتحول البرلمان ليصبح مجرد قاعة مناقشات، مما جعل يلتسن، مثل القيصرية والأمناء العامين للحزب الشيوعي في الكرملين قبله، حاكماً أكثر منه رئيساً. والعامل الثاني هو تأثير يلتسن، مثل أي ملكية، بحاشيته المقرّبة، وخصوصاً بعد ظهور مشاكله الصحية وإفراطه في الشراب. وكان كل من يستمع إليهم يلتسن يتمتعون بنفوذ كبير ويتخذون كل القرارات الرئيسية تقريباً، ولم يكن هناك حاجة لاستشارات خارجة عن نطاق الكرملين؛ إنها سياسة الغرف المليئة بالدخان فعلاً.

وتلاشت حلقة يلتسن التي تشكلت بعد الحقبة السوفياتية من الليبراليين المثاليين، والمناصرين للغرب والسوق الحرة بحلول سنة 1994، وتلاشت معها المعارضة للقيام بأعمال عسكرية في الشيشان. وتمّ إقصاء رئيس الوزراء الإصلاحي إيغور غابدار، ومستشار حقوق الإنسان سيرجي كوفالف، فيما استطاع وزير الخارجية أندريه كوزيروف رؤية التوجّه الجديد وغير من اتجاهه المناصر للغرب، قبل أن يتمّ إقصاؤه أخيراً. وبقيت الشخصيات الأخرى المعتدلة نسبياً في الكرملين، مثل نائب رئيس الوزراء سيرجي شاخراي، وكبير موظفي الرئاسة سيرجي فيلاتوف، والتي كانت تعتقد بأن إعادة النظام إلى الشيشان سيساهم في إعادة انتخاب يلتسن. وكان شاخراي الطموح نشيطاً للغاية، ويأمل في الاستمرار مع يلتسن في حال نجحت تلك السياسة الدموية في إبقائه داخل الكرملين.

وكانت ما تدعى "جماعة الحرب" ضمن حلقة يلتسن الضيقة تفرع الطبول عالياً، وضمت قادة القوى الأمنية، وضباط "كي جي بي" السابقين الذين تحولوا إلى سياسيين متشددين، ولكل منهم مصالحه ومشاريعه الخاصة. وكان هناك رأي مشترك بينهم أيضاً يقول بأن الحرب ستعمل على إفشال البرنامج الإصلاحي مما يؤدي إلى استعادة السيطرة على الداخل وأتباع سياسة خارجية متشددة، خصوصاً في الاتحاد السوفياتي السابق، وسيؤدي ذلك إلى تحقيق إمبراطورية جديدة في وقت قصير.

وكان مجلس الأمن القومي أداة القوة الرئيسية لتنفيذ مآرب الحاشية المتشدة، وهو تجمع للوزراء وجميع قادة الأجهزة الأمنية. وفي ظل أمينه العام أولينغ لوبوف، الرجل القادم من مدينة يلتنس التي تدعى سفيردوفسك في الأورال، وسع المجلس من دوره الاستشاري باتجاه اتخاذ القرارات المصرية. وأصبحت تلك المنظمة، التي كانت تجتمع خلف أبواب مغلقة ولم يكن لها دور في الدستور، واحدة من مؤسسات يلتنس الأساسية في إدارة البلاد.

ولم يكن جميع أعضاء مجلس الأمن القومي ضد عملية الإصلاح أو يفضلون شن الحروب، وكان رئيس الوزراء فيكتور تشيرنومردن أبرز المعارضين لتلك الأفكار. ولكن أشخاصاً آخرين مثل وزيرى الداخلية والاستخبارات السرية فيكتور يرين وسرجي ستياشن، كانا يديران النقاشات. وكان يرين، وإلى درجة أقل ستياشن، صقيرين فيما يخص الشيشان، ويدعمان دوراً حاسماً للدولة الروسية. وبالنسبة لهما، كانت الأزمات الداخلية تعنى المزيد من القوة ومصادر التمويل وغاية للإصلاحين الليبراليين المكروهين. ومن الناحية الأيدلوجية، كانا يتلقيان الدعم من وزير القوميات (الأقليات العرقية) نيكولاى يغورف، والذي كان حاكماً لإقليم كراسنودار الذي يحد شمال القوقاز، ويحمل حقداً دفيناً تجاه القوقازيين.

وكانت وزارة الداخلية، والتي تعد منظمة مميزة بذاتها في بلد ديمقراطي، تبني جيشاً هائلاً لاستخدامه على أراضيها. وكان لدى الوزارة 250.000 جندي مؤهلين بالكامل، وحوالى 300.000 شرطي في روسيا بحلول سنة 1997، ولديها أيضاً أسلحة ثقيلة مثل الدبابات، والكثير من وحدات القوات الخاصة. وكانت تلك القوة تمثل تناقضاً صارخاً مع حالة الجيش النظامي المنهار، وهي ظاهرة أصبحت أكثر وضوحاً عندما اندلعت الحرب الشيشانية. ورغم أن قوات الجيش النظامية تقوم بمعظم العمليات القتالية القاسية، إلا أن جنود وزارة الداخلية كانوا أفضل تجهيزاً باللباس والطعام والرواتب.

وتمّ تقليص وحدة "إف. إس. كي" (التي أخذت مكان كي. جي. بي) بعد الخيار الائتلاف السوفياتي، ولكن بعد مضي فترة من الزمن على رئاسة يلتنس، انعكست

الصورة وتوسّعت مراكز الاحتجاز ووحدات المداومة. وكانت الشيشان ممثلاً مكاناً طبيعياً لتجرب "إف. إس. كي" (والتي أصبحت "إف. إس. ب" لاحقاً) عضلاتها. ولم تحقق حرماً الزائفة في ذلك الصيف النجاح المطلوب. وبكل الأحوال، كان الغزو الكبير الذي ينتهي بالنصر الموزر، وبغض النظر عن أي فوائد أخرى، سبباً في تقاضي الناس عن المحاولة المرحلة لاحتياج غروزني في 26 تشرين الثاني.

وكان العديد من المسؤولين، الذين لم يكونوا أعضاء في مجلس الأمن القومي، في قلب الفريق المناادي بالحرب. وكان لأوليغ سوسكوفيتش، وهو رجل بالغ التأثير في الكرملين واحتل منصب نائب رئيس الوزراء، علاقات واسعة مع المجمع العسكري - الصناعي، وكان يريد استعادة الدولة لسيطرتها على الداخل الروسي وخصوصاً الاقتصاد. وكان مسؤولاً خلال الحرب عن إعادة بناء غروزني وذلك من خلال مشروع فاسد اختفت فيه مبالغ مالية اتحادية كبيرة دون إعادة ترميم ولو مبنى واحد. وكان بوريس بيرزوفسكي شخصاً آخر من عالم المال، وأحد أساطير الصناعة في روسيا. وبعد أن تمكنت شركته لوغوفاز من شراء أورت، وهي أول محطة تلفزيونية قومية، في نهاية سنة 1994، تزايد نفوذ بيرزوفسكي في الدعاية المضادة للشيشان والتي أشعلت شرارة الحرب.

وكان هناك أيضاً رجلاً أمن الكرملين أيام يلتسن، وهما رئيس الحرس الخاص ألكسندر كورزاكوف، وصديقه السابق في "كي. جي. بي" الجنرال ميخائيل بارسوكوف رئيس الحرس الرئاسي في الكرملين. ولم يكن أيٌّ منهما عضواً في مجلس الأمن القومي، لكنهما دعما فريق الحرب بشكل كبير. وكان لكورزاكوف خصوصاً تأثير كبير على يلتسن، وخدمه بإخلاص لعقد من الزمن. وقد استطاع كورزاكوف، المرتبط أيضاً مع بيرزوفسكي، إنشاء وحدة استخبارات جديدة من أعضاء "كي. جي. بي" سابقين، والتي أصبحت وحدة التحليل لدى الكرملين ونافذة يلتسن على العالم. وفيما يخص الأمن القومي الداخلي، كان رجل مثل كورازوف يستطيع فعل الكثير. وكان هناك تقارير بأنه وضع خططاً إضافية لإنشاء جهاز أمني آخر يدعى "حراس الأمة"، ويتألف من نخبة صغيرة من الأعضاء الذين يخدمون الكرملين ولا شيء سوى الكرملين.

وكان وزير الدفاع بافل غراتشيف شخصية محورية أخرى في اجتماعات مجلس الأمن القومي. وكان يلتسن، الذي أراد الغوص في الشيشان، بحاجة لغراتشيف ليخبره بأن الجيش مستعد لتلك العملية. وقام غراتشيف، الراغب بالاحتفاظ بمنصبه، بما أَرادَه الرئيس بالضبط.

ورغم أنه محارب قديم في الحرب السوفياتية - الأفغانية، إلا أن غراتشيف لم يكن ناضجاً بما فيه الكفاية عندما قام بتلك القفزة المهنية الاستثنائية ليكون أول وزير دفاع بعمر 44 عاماً. ولغاية ذلك الوقت، لم يكن قد تولّى قيادة أكثر من فرقة عسكرية، وكان واضحاً أنه لم يكن على مستوى ذلك الدور المعقد الذي يتطلب منه الإشراف على الانسحاب من أوروبا الشرقية وإصلاح القوات المسلحة. وكان غراتشيف يتمتع باحترام متفاوت الدرجة ضمن الجيش، ووجد أذناً صماء من قبل الكرملين فيما يتعلق بزيادة الميزانية. ولم يمضِ وقت طويل حتى هاجمت وسائل الإعلام الروسية غراتشيف على خلفية اتهامات بالفساد في كل مفاصل القوات المسلحة التي فقدت معنوياتها. وبدأ الأمر مع ادعاءات بحصول عملية احتيال كبيرة خلال الانسحاب من "مجموعة القوى الغريبة" في أوروبا الشرقية. وتم اتهام غراتشيف بعدها بالحصول على سيارة مرسيدس من أموال ميزانية إعادة تمركز القوات المنسحبة. واجتاحت موجة من الغضب البرلمان الذي طالب باستجوابه. وأخيراً في تشرين الأول 1994، مات ديمتري خولودوف، المراسل الشاب لصحيفة "موسكوفسكي كومسوموليت"، والذي كشف قصة الفساد، في تفجير استهدفه في موسكو. ولم يتم إيجاد القتلى أبداً.

وبعد معركة 26 تشرين الثاني للسيطرة على غروزني، أنكر غراتشيف دون مبالاة اشتراك القوات النظامية الروسية في الحرب. وقال: "إذا كان الجيش الروسي هو الذي يقاتل، سيتمكن فوج مظليين واحد من إنهاء كل المشاكل في ساعتين". وبالطبع، كان ذلك خداعاً. وكان غراتشيف يعرف حالة جيشه، ويعرف براعة المقاتلين الشيشان في إحراق الدبابات التي استعارها جهاز "إف. إس. كي" من الجيش، وخصوصاً بعد أن عرفوا أن المشاة لا يحمون تلك المركبات. وكان يعرف أن كل ذلك سيحدث مجدداً. وكان غراتشيف ضعيفاً جداً من الناحية السياسية،

ولم يستطع مقاومة سطوة "إف. إس. كي" ووزارة الداخلية وبقية مجموعة الحرب. وكان من الأسهل بالنسبة له أن يقوم بإخبار يلتسن بما يريد سماعه.

واستفاد غراتشيف من تلك المقامرة، مؤقتاً على الأقل. وحالما بدأت الحرب، لم يعد أحد يتحدث عن فساد الجيش، أو عن المرسيدس، أو ديمتري خولودوف؛ وكان هناك شائعات عن ترقية غراتشيف إلى رتبة مارشال. واستطاع الجنرال الضخم البنية الاحتفاظ بمنصبه وتفادي الدعاوى القضائية ضده على حساب حياة الآلاف من جنوده الشباب.

وكان يلتسن قد اتخذ قراره. ولم يمر سوى عضو واحد في مجلس الأمن القومي على معارضة الغزو العسكري، وهو وزير العدل يوري كالميكوف، والذي وصف لاحقاً كيفية طلب يلتسن من جميع الأعضاء أن يصوتوا بالموافقة قبل حتى أن يتناقشوا بالمسألة. وكان ذلك أسلوب التصويت الديمقراطي المعتمد في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، مما يظهر أن بعض العادات لا تتغير أبداً. وصوت جميع أعضاء المجلس البالغ عددهم 13 بالموافقة. ولم تلق احتجاجات كالميكوف في المناقشات أي أذان صاغية. وكما قال أوليغ لوبوف: "كان الكرملين بحاجة لحرب خاطفة ومظفرة".

وبعد يوم من اجتماع مجلس الأمن القومي، وقع يلتسن مرسوماً يأمر "باستعادة الحالة الدستورية، وفرض النظام والقانون على أراضي جمهورية الشيشان"، والذي اقتبس تعابيره من اللغة القانونية الزائفة للسوفييات. ولم يتم إطلاع الأمة على المرسوم، وبدأ غراتشيف - الذي منحه المرسوم مهلة أسبوع واحد لتحضير الغزو - بمحشد القوات على الحدود الشيشانية فوراً.

وتم إقصاء آخر الإصلاحيين في حاشية يلتسن، أو قطع اتصالاتهم الهاتفية عن الكرملين. ووصف أحد البرلمانيين الليبراليين لاحقاً أعضاء مجلس الأمن القومي بأنهم "مجموعة من الجهانين"، فيما وصف مستشار الرئيس إميل بين القرار بأنه "مغامرة تأمرية". وقال غايدار، رئيس الوزراء السابق: "إذا تم الضغط على هذا الزر، سنرى بكسل تأكيد الخيار للمؤسسات الديمقراطية في روسيا". واستقال كالميكوف الذي صدف أنه شركسي من العرق الأديجي.

وفي غرورتي، كان جوهر دودايف، بأوهامه واستخفافه التام بالديموقراطية، يتحمل بشكل خاص مسؤولية ما سيحدث. وقد وقع ضحية للذب الروسي عندما كان هناك فرص للمفاوضات، وهدد بالحرب عندما كانت التسوية السياسية قادرة على حفظ السلام. وبدأ حكمه بإطلاق قديد في تشرين الثاني عام 1992 بتفجير محطات توليد الطاقة النووية الروسية، وهدد عشية الحرب في تشرين الثاني عام 1994 بقتل الأسرى فيما كرّر وزير خارجيته التهديد المتعلق بالمحطات النووية. ولم يكن ذلك التباهي بالنسبة للدوايف سوى تكهن بما سيحدث لاحقاً. ولكن اللوم الحقيقي لا يتحملهُ سوى بوريس يلتسن وحده. ورغم ادعائه بتمثيل دور المصلح العظيم، إلا أن يلتسن فشل في اقتباس المثل الفرنسي النبالة تقتضي الشرف، ورفض السمو عن مستوى الإهانات التي وجهها له دودايف. ولم يقم بدعوة القائد الشيشتاني إلى الكرملين في بداية تسعينيات القرن العشرين، كما أنه لم يسافر إلى القوقاز عشية الحرب ليجلس على نفس الطاولة ويحاول التوصل إلى حل ممكن مع خصومه. وبالتيجة، كان دودايف رجلاً مزهواً بنفسه، وكان سيوافق في حال وجد بعض التكريم الرسمي على تسوية ما لجمهوريةته. ولكن يلتسن، الفاشل هو أيضاً، والشديد العزم على الاحتفاظ بالسلطة، والذي كان يستمع للأكاذيب من حاشيته، رفض الفكرة.

وفي نهاية تشرين الثاني، تم نشر رسالة من قادة شمال القوقاز يطلبون فيها من يلتسن: "للسؤل عن الدستور الروسي، وحقوق الإنسان والمواطنين والحريات بأن يتخذ كل التدابير اللازمة لفرض النظام الدستوري، والدفاع عن حقوق المواطنين والمصالح القانونية، خصوصاً حق الحياة والأمن". ووقع على تلك الرسالة، المكتوبة في موسكو والتي تعتبر دعابة كلاسيكية، قادة مناطق كل من أديجي، وكاراشاي - شركسيا، وكاباردينو - بالاكاريا، وأوسيتا الشمالية، وستافروبول، وكراستودار وروستوف. وغاب عنها توقيعاً كل من القائد الداغستاني ماجومد علي ماجوميوف والأنغوشي رسلان أوشيف. وقال أوشيف لاحقاً: "فهمت أنه بعد هزيمة المعارضة الشيشتانية، كان على قوى الكرملين أن تفعل شيئاً بسرعة. وأظهرت تلك الورقة ما يتوجب القيام به. وقرر بلد عظيم معاقبة الشيشتان الصغيرة".

وفي 9 كانون الأول، وبعد القرار السري بشن الحرب في اجتماع مجلس الأمن القومي، أصدر الرئيس يلتسن مرسوماً عاماً يأمر فيه القوات المسلحة "بِنزع سلاح كل الوحدات غير الشرعية"، كما وصفها البيان. واتجه كل من غراتشيف ويرين إلى الحدود الشيشانية للانضمام إلى يوغوروف وسنياشن. وفي 10 كانون الثاني، احتفى يلتسن في إحدى المستشفيات ليقوم بما وصفها الكرملين عملية في الأنف. وفي اليوم التالي، اجتاحت جيش مؤلف من 30 - 40.000 جندي ما زالوا تحت التدريب في أرتال مسلحة حدود الشيشان الواسعة والمكسوة بالثلوج. ولم يعيش الكثيرون منهم ليحتفلوا بأعياد الميلاد حسب توقيت الطائفة الأرثوذكسية.

غروزني

التقيت في أيلول سنة 1994، أثناء حفل استقبال بفندق "للفقاز" في ساحة غروزني الرئيسية، بثلاث نساء مسنّات صامتات، ورجلين يحمل كل منهما بندقيّة، ومراهق تتدّ عيناها شرراً ويحمل قاذفة صواريخ مضادة للدروع. وكنت أنزّل للوحيد هناك، ومقابل 7 دولارات حصلت على جناح مترف له نوافذ تطل على القصر للرئاسي. وجرّت عملية تجديد كبيرة لفندق "للفقاز"، وكنت واحداً من أوائل النزلاء. وكنت واجهة للمبنى مطلية باللون الوردى، مع شرفات بيضاء مقوّمة على كامل للطابق الأعلى. وفي الدخل، كانت قاعة الانتظار سوفياتية الطراز، وتشبه ردهة دار الجنائز، مع وجود الكثير من الرخام، ومرابيا كبيرة تبدو عديمة الفائدة في الظلام.

وقد يكون الجناح المترف مستوحى من فيلم إثارة، إذ كان هناك غطاء من الستائر الوردية فوق المرير الكبير، وسجاجيد جميلة على الأرض، فيما تبدو الصنابير الذهبية في غرفة النوم كما لو أنها تمصر الشراب وتوفّر حمام الرغوة. وقد فتحت إحداهما، ولكن لا شيء: لا شراب ولا رغوة ولا حتى ماء. وكانت هناك رائحة كريهة تأتي من الزلوية. وفتحت غطاء المرحاض وأدركت أن المياه مقطوعة عن الفندق منذ وقت طويل جداً.

وعندما تقدّمت بشكوى في الطابق السفلي حول الماء، ضحك الرجلان للذنان يحملان السلاح، وصاحت إحدى النساء للمسنّات قتلته: "أنا خجلة مما يحدث. ولو كان الأمر باستطاعتي، لكنك استضعفتك في بيتي". وشعرت بالأسى لأنني جعتها تصرخ، وشكّنت على أن الماء ليس بمشكلة فعلاً. وقال أحد الرجلين للذين يحملان السلاح: "مترف"، وضحك الآخرون فيما أسقط الغلام قاذفة الصواريخ التي يحملها على الأرض بضوضاء كبيرة.

واغتملت في ذلك الماء باستخدام نصف دزينة من قورلير المياه للمعدنية الروسية التي كان الكشك القريب من الغندق يبيعها إلى جانب كل أنواع الشوكولاته ولقائف التبغ الغربية، وذلك رغم الحصار المفروض على البلاد منذ ثلاث سنوات تقريباً.

وكان السنوم مستحيلاً. فقد اختار البعوض الجناح المتطرف مهذاً له، فيما انكشمت تحت القلاء لتصبب عرقاً. ومن الخارج، كنت أستطيع سماع أصوات إطارات السيارات التي يسودها السيلبان في السبلقات. قتلت بعض البعوض، مما ترك بقعاً من الدم على الجدران المطلية باللون البيج، وتجهت بعدها إلى الشرفة. ومررت في الظلام حاملة جنود مدرعة مليئة بالرجال، الذين يضعون رباطاً للرأس وأحزمة خيوة على أجسادهم. وتبدو الأحاديث المنقطعة في الشيشان كما لو أنها ستؤدي إلى حدوث مشاكل، ولكنها تنتهي دائماً بالضحك.

وحاولت منتصف الليل، حاولت النوم مجدداً، ولكن صوت التلفاز في العمر كان عالياً جداً. وخرجت من غرفتي لأجد جنديين مواليين لدوداييف مستقرتين في النوم أمام الجهاز، ويمسك كل منهما برشاش كلاشينكوف. وكانت إحدى الخلعيات تسمح للعمر. وتفاجأت لسرورتها في ذلك الوقت، خصوصاً أنه لم يكن هناك نزلاء غيري. واقتربت مني وسألتني فيما إذا كنت تستطيع التحدث إلي. وأضافت: "ليس هنا"، مع إشارة نحو الرجلين المسلحين للثلاثين.

ودهنا إلى غرفتي. وكانت امرأة شقراء روسية، في الثلاثين من العمر، ووجهها بالغ الجمال رغم ظهور بعض التجاعيد عليه نتيجة للظروف السائدة. وقلت لي: "لا لطيق الوضع عندما يأتي هؤلاء الجنود إلى هنا لأنهم يخيفونني". وسألتها: "ما الذي يفعلونه؟"، وهو الشيء الذي لم أكن قادراً على تحديده طوال اليوم. وقالت ببساطة: "إنهما يعيشان هنا". وأكملت: "هل تعرف نوع الحياة التي يعيشها هنا؟ لم ألتق راتبي منذ شهر، ولكني عاجزة عن فعل أي شيء. وأنا خائفة وأريد مغادرة هذا المكان".

وسألتني إذا كنت أستطيع اصطحابها إلى موسكو. لديّ ابنة صغيرة، لكننا نستطيع القيام بشيء ما. وإذا بقيت معك في البداية، سوف أستطيع الوقوف على قدمي. ولأخذت بسدي، ووضعت نراعي حولها. ولكني كنت حديث العهد بالشيشان لأختبر المأساة. وكان الأمر شبيهاً بمحاولة تهنئة شخص يبكي ولكنه لا يعرف اللغة التي نتحدث بها. ولم أهتم سوى متأخراً سبب حزن فظنق "لقوقاز"، والخلامة الروسية، والمرأة المعجوز في قاعة الاستقبال، والحرّاس للثلاثين، والفرافرة للفرافرة. وانتابني شعور مفزع بأن كل هذا سرعان ما سيذهب، ويفجر ويتلاشى في بحر من الليرلان.

الفصل الخامس

الغضب

... إن للمرء بفضل القول إن: "المعركة هي شيء يحصل بين جيشين،
والتي تؤدي إلى الانهيار الأخلاقي ومن بعد ذلك الجسدي لأحدهما
أو لكلاهما؛ وهذا أقرب ما يكون لتعريف عملي للمعركة
والذي من المحتمل أن يدركه المرء...".
من وجه المعركة، جون كيجن.

1. رأس السنة الجديدة

تذكروا أن مدافعنا المشترك هو أن تساعد الشعب الشيشاني، كي ينجو من البلاء الذي حل به، ومساعدته على استرجاع الحياة الطبيعية والمستقرة والهائلة... إن مهمتكم المحددة هي أن تجردوا قطاع الطرق من السلاح وجعلهم يستسلمون، أو تقوموا بتدمير أسلحتهم الثقيلة. كنتم تتمتعون بحماية الدولة والمستور الروسي، وتتمتعون بحماية الرئيس الشخصية".

الرئيس بوريس يلتسن في خطابه الموجه للقوات المسلحة في 27 كانون الأول، قبل أربعة أيام من قتلهم غروزني.

لقد بدأ الرميض الأول والرئيسي للغارة الجوية على غروزني بعد وصولي بساعتين. فقد قدنا السيارة طيلة الليل من داغستان عبر طرقات يسيطر عليها الشوار، وتفادينا الوحدات المسلحة الروسية، وقمنا بدخول المدينة عند الفجر. كان هناك غارة جوية على المدينة خلال تلك الليلة، وحالما وصلنا شاهدنا حطاماً حديثاً، وزجاجاً محطماً، وتقاطعات مغمورة بالمياه المتدفقة من الأنابيب الرئيسية المكسورة. التف العديد من الناس حول مكان سقوط قنبلة. وكان هناك بقع دماء خارج مطعم أو كين المحطّم، تحولت إلى مناعة لآثار أقدام حراء متحمدة.

في الأحياء الشرقية من المدينة، كانت القنابل قد حطمت صفّاً من الأكواخ عند تقاطع الطرق. تجمع حشد من الناس عند بقايا أحد المنازل التي دُفنت امرأة تحت حطامه. كان الحطام مثيراً للشفقة - كتاب لفن الطبخ، حقيبة ملابس مكسورة، فراش، خبز صيني مكسور، دمية مغطاة بالفار - ومتناثراً على الطريق أو بارزاً من كومة قرميد أو حجارة. قام الصحفيون بالتقاط الصور، بينما حاول المتفرجون إيجاد الجثث.

استمرت الغارات الجوية خلال الليل، وكان المدنيون في غروزني يحتبثون في الليل، ويستأنفون أعمالهم في النهار. وكان ذلك هو الميثاق غير المكتوب. وفي أول صباح من تغطيتي لأجواء الحرب لصالح وكالة الصحافة الفرنسية في 22 كانون الأول، كان هناك العديد من الناس والسيارات في الشوارع. وعلى الرغم من

التفجرات الليلية، كانت تسود حالة طبيعية في الأجواء، أو على الأقل كان هناك أشخاص يحاولون التعافي بصورة طبيعية.

في الساعة العاشرة صباحاً، كان هناك صوت طائرة. رفع الناس أبصارهم إلى السماء الممتلئة بالغيوم، وشاهدوا مقاتلة بعد أخرى حتى أصبح من الصعب تمييز ضجيج المحركات المختلفة. حامت الطائرات عالياً فوق الغيوم إلى أن أصبحت غير مرئية، ولم يعد الناس يسمعون سوى الصوت: الهدير العنيف للطائرات المقاتلة تحوم في الأجواء، والصراخ المثير لدى انقضااض تلك الطائرات. بدأ القصف، وهرب الناس. كانت الانفجارات مثل قصف الرعد، وتحدث في كل اتجاه، ويصدر عنها صدى كبير عبر ساحات وشوارع غروزي. وأخيراً، كانت هذه غارة جوية في وضع النهار.

لم أشهد حرباً من قبل، ولغاية الآن لا أستطيع تصديق ما حصل. حدثت في الأجواء الفارغة مذهولاً من الضجيج. وبعد ذلك، بدأ الدخان يتصاعد من أماكن عديدة في المدينة. وركضت مع زميلي كريس بيرد من الأسوشيتد برس عبر مركز المدينة باتجاه أقرب مركز يتصاعد منه الدخان. وكان يجب عليّ أن أراه لأشعر بأنه حقيقي. منع الركض كل الأصوات عدا صوت التنفس إلى أن حلقت طائرة فوق رؤوسنا بشكل مباشر مما جعلني مذهولاً وألث مرتبكاً. أخيراً، شعرت بالخوف.

كلما اقتربنا أكثر من مصدر الدخان كلما ركض الناس بالاتجاه الآخر. كانت تعابير الجميع متشابهة؛ وجوه مرتبكة متوترة، وعيون تستشيط غضباً. مضينا قُدماً، وكانت هناك سيارة وشاحنة تحترقان بجانب الجسر فوق نهر سونزها بجانب معهد النفط، وكان الدخان الأسود يتصاعد من ألسنة اللهب الحمراء. إلى جانب المعهد، كانت هناك حديقة صغيرة وأشجار ممزقة فيما اتسخ الثلج بالسواد. تعثرت تقريباً بحثة على الرصيف، ثم رأيت حثة ثانية والمزيد من الدماء تجري من الشجيرات. كان رأس كلا الجثتين مقطوعاً، ولم يكن هناك أي أثر للرأسين وإنما مجرد رقاب مبتورة ودماء متخثرة في الثلج. وشعرت باشمزاز، لم أستطع النظر إلى المركبات المحترقة لتفقد الضحايا. وركضنا عائدين فقد كانت الحرب حقيقية.

كان ذلك اليوم الذي قابلت فيه باول لوي، مصور وكالة ماغنوم. كنت في غرفة الفندق لتوثيق أخبار الغارة الجوية عبر تلكس فضائي محمول عندما ركض للدخول، وكانت الأوساخ تغطي وجهه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وكل ما قاله: "مجزرة، مجزرة حقيقية، أشلاء الجثث في كل مكان". كان ذلك قاسياً للغاية فقد قصف الروس من جديد ذلك التقاطع في ميكرورين، حيث كان الناس يبحثون عن جثة امرأة في الليلة الماضية. عمّاماً في نفس المكان. وقتلت الشظايا 15 - 20 شخصاً، من بينهم المصورة الأميركية سينثيا إليوم الجميلة الوجه، والتي تبلغ من العمر 28 عاماً والتي كانت إحدى أول 20 صحفياً يلقون حتفهم في الحرب. وكانت موجودة في مساحة مكشوفة عندما أطلقت الطائرة صواريخها. نجا بعض الشيشانيين، بالإضافة إلى باول، ومصور آخر، وستيف لمان، لأنهم اختبئوا خلف حدار على بعد بضعة أمتار فقط.

وعندما وصلت إلى هناك كانوا يقومون بإزالة الجثث. أصابت الصواريخ خمس سيارات كانت تمر أثناء الغارة. شاهدت ذراعاً تمتد يدها السوداء النحيلة المفتوحة مثل مخلب باتجاه السماء من سيارة لادا محترقة. في الاتجاه الآخر، جلس سائق في منتصف العمر، ميتاً خلف المقود، متراجعاً للخلف، وعشرات الشظايا عملاً وجهه، ودموع حمراء على جلده الرمادي اللون. مشيت امرأة يافعة عبر البرك الصغيرة الممتلئة بزيوت السيارات والدماء وفي الطين والثلج حيث سمعتها تقول: "هذا كابوس، كابوس، كارثة".

وفي ذلك الصباح، قامت كل الفرق الصحفية تقريباً بمغادرة غروزني، بعد أن وضعت المعدات في حافلة إجلاء خاصة. كان ضجيج الطائرات يملأ السماء، فيما الخوف والذعر يملآن الجو. لقد كان مشهداً مزعجاً.

"لا تستهدف للضربات الجوية سوى المواقع العسكرية التي تنطلق منها للثيران".

رئيس الوزراء تيمورنوميردين.

"يقوم الشيشانيون بتدمير الانفجارات في المناطق السكنية".

مجلس الأمن القومي في الكرملين.

كنت أشاهد التلفاز في موسكو، عندما عبرت القوات المسلحة في البداية الحدود الغربية للشيشان ثم الشمالية - الغربية والشرقية في منتصف كانون الأول. وكان طول أرتال عربات الجند المدرعة والدبابات يبلغ عدة أميال، وكانت تحترق السهول المغطاة بالثلج بمرافقة المروحيات التي تحوم على ارتفاع منخفض فوق أعمدة الهاتف. كان هناك شاحنات محملة بالجنود، وكان العلم الروسي الثلاثي الألوان الأحمر والأبيض والأزرق يرفرف على الهوائيات. لقد كان ذلك أكبر انتشار قتالي للقوات المسلحة الروسية منذ الحرب السوفياتية في أفغانستان، وكان منظر تلك الأرتال المدرعة يهر الأنظار.

بالطبع، كنت أعرف - والجميع يعرف - أن جيش القوة العظمى السابقة في مازق. لقد كان ذلك الجيش يخسر آلاف القتلى سنوياً لأسباب غير حربية، وكان بعضها يعود للحوادث ومعظم الحوادث كانت الانتحار أو الموت أثناء التدريب. وعلى سبيل المثال، مات 2.824 جندياً سنة 1992 وفقاً للتقارير الرسمية، و40.000 وفقاً لتقارير غير رسمية. لقد كان الضباط الفقراء الذين انسحبوا من أوروبا الشرقية، يعيشون في عربات السكك الحديدية، والخيم، والقاعات العامة أو في السفن. تحول الجنود المراهقون، الذين يتقاضون خمسة دولارات في اليوم (إذا كانوا محظوظين) إلى عبيد فعلين، يعملون في بناء الطرق المدنية، وقطف الملفوف، وجني محصول البطاطا. لقد كان بعض هؤلاء المراهقين يبيع الأسلحة أو يتسول للحصول على الطعام، كان الجنود قريين من الموت جوعاً، ويتعرضون للصفع الشديد أو ينفلتون من عقابهم، ويقتلون رفاق سلاحهم في قواعدهم المعزولة. كان وزير الدفاع بافل غراتشيف متورطاً في الكثير من الفضائح التي تخص الجيش، وكنت أعرف كل هذا.

لقد كانت هناك علامات تحذير أخرى. وحتى بعد أسبوع من العمليات، كان التقدم الروسي الثلاثي المحاور باتجاه غروزني بطيئاً. لم تكن هناك أي جهود لمحاصرة الطرف الجنوبي للمدينة، وهو الطرف الأكثر صعوبة، والأهم استراتيجياً لارتباطه بالأرياف والقرى في جنوب الشيشان التي يسيطر عليها الثوار. لم تظهر أي علامات تردد على الشيشانيين. في كل مكان من غروزني، كان الشعار يقول:

"الحرية أو الموت". وكان دودايف جريئاً، ولم يكن يعاني من نقص في المقاتلين المتطوعين - البويفكس، أو المحاربين في روسيا.

بشكل لا يصدق، رفض بعض جنرالات الأمة الاشتراك في الحرب. وتمرّد الجنرال إدوارد فوربيوف، نائب قائد القوات البرية الروسية، على إعلان الحرب وقال إن الجيش ليس مستعداً. وشجب الجنرال بوريس غروموف - الذي يتمتع باحترام كبير في الجيش وقاد الانسحاب السوفياتي أفغانستان - الحرب. وهذا ما فعله زميل غراتشيف الجنرال المظلي ألكسندر ليبيد ونائب وزير الدفاع الجنرال فاليري ميرونوف. حتى الجنرال إيفان بايتشيف، والذي قاد أحد الأرتال الثلاثة المتقدمة نحو غروزني، فقد رفض بشكل مؤقت أن يمضي قدماً، لأن طريقه كان مكنتظاً بالمدينين، وقال: "ممنوع استخدام السلاح ضد المدنيين المسالمين. وممنوع إطلاق النار على الشعب".

ولكن الفرق كان مثيراً للضحك، فقد كان عدد سكان الشيشان بأكملها أقل من مليون نسمة، وكانت مساحة الجمهورية قرابة 150.000 كم² أي أصغر من ويلز أو صقلية. ويمكنك أن تنتقل من جهة إلى أخرى في غضون ساعتين فقط. وكان تعداد القوات المسلحة الروسية قرابة 1.7 مليون جندي، ويصل العدد إلى 2.4 مليون جندي إذا ما أضفنا قوات وزارة الداخلية وحرس الحدود. إلى جانب ذلك، كانت دعاية الكرملين - أن الهدف هو إعادة النظام الدستوري، ونزع سلاح العصابات المسلحة الخارجة عن القانون - تتكرر كثيراً لدرجة أنها أصبحت تبدو نصف حقيقية. ولم يعد الكرملين يقول كلمة الحرب، ولم يعلن حالة الطوارئ، بل قام بتعطيل الحقوق الدستورية. ولم تكن تلك الحرب سوى غارات الشرطة على أحياء المسلمين العنيدين.

لم يكن الجيش الروسي قد تعرض لأي اختبار منذ أيام أفغانستان، ولكن بالنسبة للغريب، كانت تلك الأسلحة الخضراء على التلفاز تبدو بأنها لا تقهر. كان العدد الكبير من الرجال والآليات يبدو ساحقاً، وكان هناك شعور مخرج لرؤية تلك المطاردة. ستقوم القوات المسلحة الروسية بإعادة النظام بأسلوبها المميز. كان هناك أحد المصورين الصحفيين، الذي يبدو أنه شهد الكثير من الحروب، يشاهد

التلفاز معي وقال: "إننا في المكان الذي يجب أن لا يتواجد فيه المرء عندما يتحركون حقاً. هل تدرك ما تستطيع تلك المروحيات فعله؟".

لقد تحطمت غرورزي - التي بناها الجنرال الروسي سنة 1818_ بفعل القصف الذي أمر به الرئيس يلتسن. بدأ السكان الذين وصل عددهم إلى 400.000 نسمة بالتلاشي، وخرجت أرتال اللاجئين إلى الجنوب غير المحاصر، بعد أن أخذوا معهم ما استطاعوا أن يحملوه في سياراتهم فقط، حيث جلس الأطفال في الخلف شاحبي الوجوه ومتوترى الأعصاب. فيما جلست الكلاب التي تخلى عنها أصحابها على طول الطريق تنتظر رجوع أصحابها، وتحول بعضها إلى كلاب متوحشة، وشكلت جماعات، وتحولت في الشوارع الخالية. ولم يستطع قرابة 120.000 شخص المغادرة، لأنه لم يكن لديهم المال ولا الأقارب لمساعدتهم على الفرار أو لأنهم لم يمتلكوا العاطفة ليتخلوا عن أوطانهم. وكان معظم الباقين من أصول روسية، الذين لم تكن لديهم علاقات عائلية كبيرة في الأرياف بعكس الشيشانيين. وتعرض الروس، الذين وعد يلتسن بحمايتهم، للقتل من سلاح طيرانهم.

بالانتقال المدهش والسريع من عدم التصديق إلى القبول، تعلم أهل غرورزي العيش مثل البشر البدائيين، لقد كانوا ينامون تحت الأرض، ولا يفكرون سوى بالبقاء. توقفت إمدادات الكهرباء والمياه، لذلك أخذ الناس يستخدمون الثلج، ويتجمعون متجمدين حول الشموع ومصابيح الزيت. لم يخرج الناس من منازلهم ما لم يكونوا مضطرين لذلك. وأصبحت الشوارع الواسعة والمحميات الكثيفة الأشجار خالية تماماً، وكان الظلام يحيم على المدينة في الليل. وأخلت المستشفيات، إلا أن الأطباء استمروا بالعمل في حالات الطوارئ، وكان هناك طاقم خاص للإنقاذ، يتفقد المواقع التي تتعرض للقصف، ويقوم بانتشال الجثث الممزقة. وفي بعض الأحيان، كانت العمليات تجري على ضوء الشموع.

في فترة الميلاد حسب التقويم الغربي، كنت أقيم في غرورزي مع ستة صحفيين آخرين. كان الآخرون ينامون في أنغوشيا أو داغستان، ويقودون سياراتهم ذهاباً وإياباً كل يوم. كنا نعتقد أننا نستطيع تغيير شيء ما. كان الأمر بسيطاً: كان يجب علينا أن نكتب ما يحدث خلال إعادة النظام الدستوري، وسيتحرك العالم بعدها.

عند المساء، كنا نتجمع حول المذبح، لكي نستمع إلى الأخبار من هيئة الإذاعة البريطانية، والتي كانت في بعض الأحيان، تقبس من تقارير التي أرسلها وكالة الصحافة الفرنسية، مما جعلني أتأكد أن هناك فائدة من عملي. في بعض الأحيان، كنا نسمع بأن واشنطن أو لندن قد شجبت التفجيرات أو حثت موسكو على إلغاء ذلك الجنون، وكنا نشعر بارتياح كبير لدرجة أننا احتفلنا في إحدى الليالي. كان ذلك عملاً ساذجاً. لم نكن قد فهمنا بعد مدى ضالة تأثير تقاريرنا، وأن المجتمع الدولي لن يتخذ خطوات عملية لوقف تلك الحرب.

في إحدى الليالي، قصفت الطائرات مجموعة من الأبنية السكنية التي تقع في آخر الشارع الذي يتواجد فيه فندقنا، والمسمى البيت الفرنسي. تسببت الانفجارات بتحطيم زجاج نوافذنا، وأرسلتنا بحظي حثينة إلى القبو. في الصباح، مشيت في الشارع ورأيت أن القصف دمر مبنيين سكنيين. في وسط الانقراض، جلست امرأة مسنة، وبجانها كرسي خشبي عليه بطانية صفراء وعند أسفل قدميها جثتان. وكان اسمها أنا فولكوف وهي روسية. قد احتفى الطابق الرابع بأكمله حيث كانت شقتها. كانت تتأرجح للأمام والخلف على كرسيها الصغير بين أكوام القرميد والأثاث المحطم. وكانت الجثتان، تعودان لابنها المتوسط العمر وزوجته النائمة إلى جواره، كانا يلبوان وكألهما على قيد الحياة، وكانت يداها متلامستين تقريباً، ووجهاهما للأعلى. وكان يوجد إلى جانبها كتاب أسود اللون؛ ربما كان الإنجيل المقدس. لم يكن هناك شيء آخر.

قالت المرأة المسنة: "كنت أجلس على الأريكة عندما سألتني زوجة ابني عن الوقت. حسناً، كانت الساعة في المطبخ، ولم يكن هناك كهرباء، لهذا أعطيتني مصباحاً، لأذهب وأرى. عندما خرجت من الغرفة، انفجرت قبلة. عندما استعدت وعي وجدت نفسي بين الانقراض". إن الحياة والموت مجرد فرصة.

في المستشفيات، بدت الدماء في الشوارع، وعلى الثلج، وفي أعلى السلام، وأسفل الممرات المتحمدة المهجورة. لم يكن لدى الأطباء سوى القليل من الأدوية أو العقاقير، وكانوا يعرفون بأن القنابل ستضرب المستشفى، ولهذا بدأوا بإرسال الجرحى إلى خارج المدينة؛ إلى القرى. غالباً ما كان هؤلاء الأطباء، الذين لا يتلقون

أجوراً، ويتناولون طعاماً سيئاً ويتعاملون مع مجموعات من الجثث الممزقة، يثرثرون بكلام غير مفهوم عندما يجدهم في الصباح. كانت معافطهم البيضاء ملطخة ببقع دم حمراء، لقد أصبحت عيونهم سوداء، وفاحت منهم رائحة الكحول.

صرخ أحد الأطباء وهو يهتز غضباً وإرهاقاً: "كيف يمكنهم فعل هذا، كيف يمكنهم تفجير النساء والأطفال كل يوم"، ورفع البطانية عن جثة ولد صغير موجودة في المر وقد اخترقت مقنوفة صدره، كان الولد لا يزال يرتدي سترته الخارجية وقبعة التزلج عندما مات. قال الطبيب: "إنهم فاشيون". ثم أمسك بيدي وأراني الصبي، ووجه لي أمراً: "لا تنسَ مطلقاً ما رأيته الآن. عدني بذلك".

في المشرحة الموقفة في مستشفى الجمهورية الأول، وضع العاملون هناك الجثث المجهولة الهوية في صف واحد، وقد كانت برودة الطقس تحميها من التحلل. في الغرفة الأولى، كان هناك قرابة 50 جثة تكومت مثل الخشب، مسودة اللون، وكانت معظمها عارية، وتفتقد لقدم أو ذراع مثل تماثيل عرض الأزياء. لم أنظر إلى ما يوجد في الغرفة الثانية. إلا أنه لم يكن هناك من خيار آخر يحول دون بحث الأقارب عن جثث أقاربهم في كل الغرف. كانوا يأتون على شكل جماعات خائفين من أن تقضي عليهم الغارات الجوية وهم خارج أقيمتهم. ورغم أنني كنت أعرف أنما ما يدعوه الصحفيون بالقصة الجيدة، إلا أنني لم أمتلك الشجاعة للتحديث إليهم.

وبطريقة ما، بقينا نعتقد أنه سيكون هناك حدّ وأن الجنون يجب أن ينتهي. كان الأبرياء عالقين هنا لأن الحقيقة غير مقبولة بالنسبة لهم. عندما أخبرني أحد الأطباء مع ريتشارد بيستون في صبيحة أحد الأيام بأن دار الأيتام قد تعرّضت لقصف مركز، نظرنا إلى بعضنا، وفكرنا بنفس الشيء: مستحيل. إن دار الأيتام خلف ذلك الحدّ.

لكن الطبيب كان محقاً. كان أحد جوانب دار الأيتام المؤلف من خمسة طوابق في شمال غروزي مدمراً بالكامل، مما ترك الغرف الداخلية مكشوفة مثل بيت اللمي. أصبحت الحديقة سوداء اللون جراء الحريق، وفقدت تماثيل الحيوانات فيها رؤوسها، وتحولت المراجيح إلى رماد. كان هناك صاروخ لم ينفجر بعد في ما كان

يدعى بالملعب. نزلنا إلى القيو، فوجدنا أن 40 يتيمًا قد نجوا. قال المعلمون إن المحوم كان سيطال كل الأطفال الذين يخرجون إلى الحديقة للعب فيما لو حصل بعد نصف ساعة فقط. لقد تفادى الجميع حصول مجزرة. كان من الواضح أن الرعب قد أصاب الأطفال الذين تتجاوز أعمارهم الثماني سنوات، ولكن الصغار ضحكوا لأنهم اعتقدوا أن هناك لعبة أخرى في الملعب.

بعد أسبوع أو شيء من هذا القبيل، بدأ كل ذلك يبدو طبيعياً، فقد أصبح الموت مألوفاً. عندما ضربت القنابل مبنى البرلمان المقابل لقصر الرئاسة، لم يكن الشيشانيون يعتقدون بأن مجرد رؤية الجثث برهان كاف، "لقد جعلونا نمشي فوق الجثث المنتشرة على الدرج، وتفحص الأدمغة التي تبعثرت على الجدران والأرض. لقد رفضنا، ولكنهم أصرّوا. وكان يجب علينا أن نرى الأدمغة. هذه أدمغة، نستطيعون الآن أن نروا ماذا يفعلون بنا؟".

في المستشفى الجمهوري، استلقت امرأة روسية جريحة في غرفة باردة، تصارع ألمها، وكانت عيناها تلوران وتتفس بشكل غير متظم: "لقد بدأوا القصف، ولم يكن لدينا وقت للهرب، ضربني شيء ما في ظهري، ففقدت وعي. هذا الأمر غير مقبول لأنه يمثل قتل شعب. وسأكتب عن ذلك لإحدى الصحف".

عالياً في تلال كارينسكي بالقرب من مصابي النفط غرب غروزني، تدبر البويفكس الشيشانيون الحصول على بعض قطع المدفعية في السفوح التي تطل على رتل روسي يتقدم باتجاههم. كانت تلك إحدى القواعد الأمامية لخط الدفاع حول المدينة والذي يتصدى لنحو 30.000 من القوات المسلحة. في كل يوم، كانت الطائرات والقذائف المدفعية تسحق كارينسكي. كانت السماء سوداء من الدخان المتصاعد من مصفاة النفط القريبة، والتي تم تدميرها، لقد أحدثت القذائف المنفجرة علامات على تلج القمم. وبغض النظر عن الخنادق، لم يكن هناك أي ملجأ آخر.

قال خضر كاشوكايف، القائد العملاق الملتحي الذي ينظر إلى روسيا على أنها شيطان: "كان هناك صوت انفجارات، وتبادل لإطلاق النار في كل مكان. كانت الليلة الماضية كابوساً. لكن إذا كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون الاستيلاء على المدينة دون قتال، فإنهم يفترون خطأ كبيراً. سأحرك لماذا: ليس المهم هنا أن

تكون موالياً للدوايف أو لا، لأننا نحارب من أجل الحرية، ومن أجل عائلاتنا. أنا شيشاني، وأريد ببساطة أن يكون لدي الحق لأتكلّم بلغتي الأم".

في أواخر كانون الأول، أصبح من الواضح أن العمليات الروسية المباشرة بقيادة غراتشيف، قد ضلّت طريقها. لقد تقدمت القوات المسلحة بثلاثة أرتال: واحد من أنغوشيا، وآخر من داغستان، والثالث من الشمال الذي أصبحت فيه بلدة موزدوك نقطة الانطلاق الرئيسية. كانت الخطة تقضي بفرض حصار على المدينة، ولكن بعد مرور عشرة أيام على الغزو، كانت القوات عالقة في القرى خارج غروزني، وتتردد في محاولة اقتحامها. لم يكن الحصار كاملاً، ومع وجود روابط إلى القرى والجبال الجنوبية، كانت خطوط إمداد البويفكس مفتوحة تماماً.

لقد كان باستطاعة القوات الروسية أن تطلب أسلحة ثقيلة طويلة المدى مثل الدبابات، ومدافع الهاون، ومدافع الميدان، ومنصات إطلاق صواريخ غراد وهوريكان، وبالطبع مقاتلات ومروحيات. لكن كل تلك القوى النارية المؤثرة كانت تفتقد للتحفيز والتدريب، بما في ذلك طياري القوى الجوية الذين كانوا يتدربون، وفقاً لبعض التقارير، 19 ساعة فقط وليس 100 كما ينبغي. إن البيروقراطية والمشاكل التنظيمية تتسببان بتراجع أداء أي جيش كبير، وهو ما ظهر واضحاً في سرعة إرسال وحدات غير جاهزة للقتال إلى الشيشان.

ثبت أن التقدم في المناطق المأهولة - وحتى ضمن القرى - صعب جداً. لم يهرب الشيشانيون جراء نيران المدفعية والتي كانت تمهد لإرسال جنود المشاة؛ وهي الناحية التي يظهر فيها ضعف القوات الروسية. لم تكن الآلة العسكرية الروسية مؤثرة سوى في المساحات المكشوفة أو ضد المواقع الثابتة. لم يكن ممكناً مقاومة الدبابات والعربات المدرعة التي تحميها المروحيات في المناطق المكشوفة خارج غروزني، لقد شدد الحصار على غروزني ببطء. في كل يوم، كان الجانبان يستعدان للمواجهة المحتملة.

حارب الشيشانيون في مجموعات متنقلة ذات اكتفاء ذاتي، وكان شعورهم بالمهمة الملغاة على عاتقهم عالياً جداً، مما جعلهم يفقدون الخوف من الموت. كان الشيشانيون يرتدون ثياباً فضفاضة مصنوعة منزلياً من الملابس البيضاء، ويضعون

أوشحة بيضاء حول أسلحتهم ليخفوها في الثلج، ويعملون في مجموعات يصل عددها إلى 15 - 30 شخصاً، ونادراً ما تكون المجموعة أكبر من ذلك. قد تمتلك المجموعة المسلحة جيداً مدفعاً رشاشاً، وسلاحاً مضاداً للدروع بالإضافة إلى بندقية آلية لكل رجل. قد يكون مع المجموعة عدة رجال غير مسلحين يقومون بحمل الذخيرة أو الجرحى. كانت العديد من المجموعات تتألف من جيران أو حتى أقارب من قرية واحدة، وعادة ما كانت تلك الجماعات تنتخب قائدها. لقد تحول ممرّد دودايف البيط إلى عصيان شعبي واسع النطاق نتيجة للحرب التي شتها الرئيس يلتسن ضد الشيشانيين، وخصوصاً القصف الجوي الذي تعرضوا له.

كان السلاح المضاد للدروع آر بي جي نجم ترسانة الشيشانيين دون شك، وهو عبارة عن قاذف صواريخ محمول، الذي قد يحوّل رجلاً واحداً إلى قاتل للدبابات على المدى القريب. إنه سلاح خفيف يمكن حمله طوال النهار والركض به، ويحقق إصابات دقيقة على مسافة تضع مئات الأمتار، إنه مثالي لقتال الشوارع. يمتلك الشيشانيون عدة نماذج روسية منه، تتراوح من الباروكا الذي يمكن استعماله عدة مرات إلى السلاح الوحيد المطلقة. هناك أيضاً صواريخ مضادة للدبابات أكبر وأقوى، بما فيها تلك التي يمكن توجيهها سلكياً والتي تعتبر عالية الدقة ضمن مدى عدة كيلومترات، إنها أكثر فائدة في المساحات المكشوفة خارج غروزني.

تطلب التكتيك الدفاعي الشيشاني البسيط درجة عالية جداً من الهدوء أثناء التعرّض للنيران. وهو يقوم بشكل كبير على الاختباء وتدمير المركبات على المدى القريب بالسلاح المضاد للدروع، بالإضافة لإطلاق النار على الجنود، إذا نجحوا، ثم تبديل المواقع أو الذهاب إلى الحفر الفردية لتجنب نيران الدعم التي قد يطلبها العدو. إن تغيير الموقع يعتبر مفتاح النجاح. كان المحاربون، الذين يعرفون غروزني بالتفصيل، ينتقلون إما سراً على الأقدام أو بواسطة العربات الروسية القاسية وسيارات اللادا، والتي تحوّل إلى حاملات للجنود وسيارات للإسعاف. إن المجموعات الأكبر تذهب إلى خط المعركة بواسطة الشاحنات أو الحافلات المستهلكة. يمتلك الشيشانيون بالإضافة إلى الأسلحة السالفة الذكر أسلحة ثقيلة كدسها دودايف، وتضمن قطع مدفعية، ومنصات إطلاق صواريخ غراد،

ودبابات. لم تكن هذه الأسلحة منيعة ضد النيران أو ضربات المروحيات، ولهذا عادوا إلى نفس التكتيك: إطلاق النار والتحرك. يمكن نصب صواريخ الغراد على ظهر شاحنة عادية، وإطلاقها من هناك، ثم تحريك الشاحنة نحو المخبأ.

من هم البويفكس؟ لقد ادّعى وزير الدفاع بافل غارتشيف بأن عددهم يصل إلى عشرات الآلاف، بمن فيهم 60.000 من المرتقة الأجانب و10.200 من المجرمين الخطرين، ولكن تلك كانت مجرد دعاية. يبلغ تعداد نواة القوة الشيشانية، وفقاً لعدة مصادر في الشيشان، أكثر بقليل من 3.000 رجل زمن الحرب؛ ونقول بعض التقديرات إن بضع مئات فقط من المقاتلين يشاركون طوال الوقت، ويقدم الآلاف من المقاتلين المرحلين الدعم لتلك القوة الرئيسية، إضافة إلى عدد لا يمكن إحصاؤه من المناصرين والمحولين.

كان بين الشيشانيين جنود يمتلكون الخبرة، ومن بينهم متطوعون من العالم الإسلامي، وأوكرانيا والبلطيق، بالإضافة إلى الشيشانيين الذين تدرّبوا في أفغانستان أو الذين قاتلوا في أبخازيا مع أمير الحرب الشاب شامل باسايف. هناك أيضاً ضباط سابقون في الجيش السوفياتي، بمن فيهم بالطبع جوهر دودايف ورئيس أركانه كولونيل المدفعية السابق أصلان مسخادوف والذي تحوّل إلى جنرال شيشاني آنذاك. لقد افتقد معظم المقاتلين للخبرة العسكرية. بين رجال خضر في تلال كارينسكي، كان هناك مزارعون، وسائقو شاحنات، وأستاذ يرتدي نظارات تحت خوذته. إن الشيء المهم، هو أن كل الشيشانيين، عدا الياfeين منهم، أدّوا الخدمة في الجيش السوفياتي. هذا يعني التآلف الكبير مع الأسلحة الروسية الموجودة لدى دودايف، والمعرفة الكاملة بنقاط ضعف دبابات وعربات العدو المدرّعة.

كان معظم البويفكس متأثرين بالأساطير الوطنية عن المحاربين والدفاع عن الحرية وليس بالسياسيين. ربما كانوا من مناصري دودايف، ولكنهم كانوا يستخفون به ويحتقرون سرقة فريقه للشيشان. لقد كان جواب أي مقاتل عن سبب حملته للسلاح: "حماية وطني!". يذهب الكثير من الشيشانيين إلى ما هو أبعد من ذلك، ويعتبرون أن الانضمام إلى المقاومة مسألة ذات شأن كبير بالنسبة لهم. روى لي ناثر يدعى موسى في أحد الأيام قصيدة كان قد نظمها على شرف الذئب

الشجاع، الذي حاول قتل معذبه حتى بعد أن وقع في الفخ، وتعرض للإصابة من قبل الراعي - ذئب شيشاني حقيقي.

تملكت الكراهية للذئب

وسيطر الألم على جسمه القوي.

ثم رأى الراعي عيني الذئب في الظلام

وشعر لأول مرة بالشفقة

للشفقة على هذا اللص الرمادي الجلد والذي ملت تماماً.

لعب الدين دوراً داعماً وحاسماً للمقاومة، رغم أن هذه الحرب لم تكن حرباً دينية بين المسلمين والمسيحيين بأي طريقة كانت. كانت صيحة تعزيز المعنويات الله أكبر أساسية عند بدء المعركة، ولكن العديد من الشيشان لم يكونوا مسلمين يؤدون شعائرتهم عند بداية الحرب. كما أن كل من دودايف ومسخادوف - مثل أي ضباط سوفيات سابقين - لم يكونا غربيين عن الفودكا، وكان أكثر الشيشانيين ورعاً جاهلين تماماً، بالمفهوم الأكاديمي، لعقيدتهم. مع ذلك، كانت معتقدات وتقاليده الجماعة الصوفية واحدة من أهم عناصر تعزيز المعنويات والشعور بالهوية العرقية. لم يكن مفاجئاً أن يتعمق الالتزام الديني أكثر كلما طالت الحرب، مما ساعد على تحملي المتطوعين بالنظام، والذي يشكلون أحياناً وحدات مسلحة غير نظامية. إضافة إلى ذلك، كان المقاتلون الشيشانيون متحدين بإحساسهم الغريزي للدفاع عن النفس، والذي نشأ لديهم نتيجة للذاكرة الجمعية لعمليات التهجير، وكل الحروب التي خاضها شعبهم. كان شعارهم "ليس مجدداً".

في أواخر كانون الأول، كانت ساحة الحرية التي يجب عبورها للوصول إلى القصر الرئاسي مكاناً مثيراً للأعصاب. فقد كانت تلك المنطقة تتعرض باستمرار للقصف، وكانت الساحة واسعة جداً بحيث تستطيع الطائرة الظهور فوقها فجأة، وتقصفها دون أن يكون هناك وقت للركض نحو المخبأ. لقد اعتدنا الركض عبر تلك الأرض القاتلة، وحتى الرجال الطاعنين في السن، الذين تحمدا الطائرات لتأدية "الذكر"، كانوا يدورون في الثلج كما كانوا يفعلون قبل الحرب، اختفوا تدريجياً.

من المثير للدهشة أن آخر بناء في الساحة تعرّض لضربة مباشرة كان القصر الرئاسي المليء بأكياس الرمل، إلا أنه لم يكن قد تعرض للأذى من قبل. لم تكن نجاة القصر، والقفل الروسي في قطع رأس القيادة الشيشانية سوى مثال واحد عن الطريقة الغريبة التي كان الكرملين يدير بها الحرب القصيرة والمظفّرة. لم يكن سرّاً أن دودايف وقيادته يقضون معظم وقتهم في نفس ذلك البناء. على العكس من ذلك، كان أول المباني الرئيسية التي تمّ تدميرها بالكامل المصرف المركزي الشيشاني، وتقول الإشاعات إن أحد أسباب الحرب هو إخفاء وثائق الإدانة في فضائح الاختلاس المالية آفيموس التي حدثت في أوائل تسعينيات القرن العشرين.

بالنسبة للشيشانيين، كان القصر الرئاسي رمزاً قوياً للتمرد والعصيان. كانت الطوابق العليا مهجورة، ولكن في الأسفل في الأقبية والخنادق العميقة، كان العمل يسير كالعادة. كانت الأقبية مكتظة، ولم يكن يوجد في العديد من الممرات والغرف سوى شمعة واحدة أو مصباح زيتي يضيء أكوام الأسلحة، والذخائر، والقنابل اليدوية، ورايات الثوار الشيشانيين بالألوان الخضراء والحمراء والبيضاء، وقبل كل شيء، كان المكان دافئاً وآمناً، وكان هناك دائماً مجموعة من الشخصيات التي تخدم لإحداث انطباع بالاستمرارية، وأن ثورة الشيشانيين لم تُخفّق.

كان هناك رجلان يقولان إنهما ناطقان باسم الحكومة المتقاعسة، وقد لقبا نفسيهما بالصحفيين الشيشانيين، وكانا يجلسان في غرفة مليئة بالدخان، ومزخرفة بالنقوش العربية، والمصابيح الزيتية. قال شخص أوكرايني إنه أتى ليحارب من أجل حرية الشيشان، ولكنه قضى الكثير من وقته في الملحأ، لقد كان من الشخصيات الثابتة هناك، وكان يتصيد الصحفيين الجدد بهذه القصة الرومانسية، قبل أن يتعلموا البقاء بعيدين عنه. كانت الشخصية المفضلة لديّ ذلك الأميركي - الروسي، الذي قال إنه يمثل حركة وقف العنف الدولية في واشنطن العاصمة، وقال بصدق: "ليس لديّ أي أمل بأن أفعالي الشخصية ستحقق أي اختلاف". ولكن ما يبدو بيروقراطياً في واشنطن العاصمة، يبدو صحبياً في غروزي.

كان آخر رجل يغادر المبنى هو وزير الإعلام موفلا دي يودغوف، والذي كان مكتبه في الطابق الرابع. كان يرتدي لباساً شيشانياً من الجينز ومعطفاً أسود، ويضع قطعة معدنية فوق نافذته المخطمة. كان يوجد على الطاولة معدات فيديو ثمينة ومسدس. وبالرغم من أنه لم يكن متعاوناً أبداً، إلا أنني كنت معجباً به وقتها. كل يوم، كان القتال يقترب من غروزني. وفي أواخر كانون الأول، تقدمت الدبابات الروسية لتقطع الطريق الشرقي الرئيسي من العاصمة إلى أرغون. وعند خروجي لتغطية المعركة، تركت سيارتي مع سائقي الشيشاني عثمان الكبير في السن، واختبأت في خندق إلى جانب الطريق حاملاً رأيت الدخان. كانت أربع مروحيات تحلق على ارتفاع منخفض، فوق تلك السهول التي كان الثلج يغطيها، وكانت تطلق الصواريخ على صف من الأشجار إلى يميننا، حيث كان الشيشانيون يتمركزون. ما لبث الدخان أن تصاعد من مكانين في الحقل، لقد احترقت دبابات أو عربات مدرّعة. وفجأة، اكتشفت المروحيات موقعنا. تركت إحداها السرب، وقصفت الحفرة التي كنا فيها، مما جعل الثلج يتطاير من حولنا. كانت تلك مواجهة مفتوحة، ولم يكن لدى الشيشانيين أي فرصة للمقاومة.

سقط الطريق، وقطع الروس خطوة للأمام لتشديد الحصار على غروزني. في 29 كانون الأول، دخلت القوات الروسية المدعومة بالمروحيات والمدفعية في معركة ضارية مع الشيشانيين الذين يقودهم شامل باسايف في خانكالا، وهي مهبط للطائرات في الأطراف الشرقية للمدينة. لقد استطاع الشيشانيون صدّ الروس، ولكنها كانت المرة الأولى التي يحدث فيها قتال على مشارف غروزني. جلسنا في تلك الليلة نستمع للطائرات وهي تقصف أهدافها دون أن نستطيع رؤيتها، وأخذت الانفجارات تومض عبر السماء، وشعرت بأن الوقت يتوقف. وحتى عندها، كان الشيشانيون بعيدين كل البعد عن الاستسلام. قاموا بوضع شجرة تنوب كبيرة في ساحة الشيخ منصور، وزينوها بالكامل، للاحتفال بالسنة الجديدة.

تقدّر أرسلني للقائد الروسي: سيقى على حياتك إذا استسلمت دون قتال.
وأجاب حمزة على ذلك: لم أت إلى هنا من أجل المال يا كيخريمان. لقد أتيت كي
أحظى بالشهادة في الغزوة. وإذا استسلمت لك، سيضحك عليّ كل شعبي بالزبدراء.

"وسئل نذب متعب وجاتم ومتشوق للوصول إلى الغابة، ومثل حصان جلق منفع
بحماس إلى المرج النظيف الجديد، كذلك رفائي متعطشون للقتال حتى الموت. كما
لني لا أخافك يا كيغفرمان. إنني أسخر من كل قورك، لأن أملنا هو في الله، الجبار".

من لقشودة موت حمزة الشيشانية لقي ظهرت في القرن للتصع عشر.

في صباح الميلاد، أخفقت غارة جوية في إصابة الكوخ الذي كنا نملك فيه
على بعد عدة شوارع، لقد حطمت الغارة زجاج النوافذ، وأشعلت النار بعدة
بيوت وسيارات، وتبيت بحفرة كبيرة على جانب إحدى الشقق السكنية. زحف
الناجون الذين غطاهم الغبار إلى الشارع، وهم يسحبون رجالاً ميتاً. بعد ذلك
ظهرت امرأة مستنة، ورفعت عصاها التي تمشي عليها باتجاه السماء. وخوفاً من
غارة ثانية، قمنا بإخلاء المنطقة، وذهبنا إلى فندق مهجور في مركز المدينة بجانب
ملعب دينامو. كان هناك كهرباء، واستطعنا أن نكتب، ولكن حالاً وصلنا، بدأت
قذائف المدفعية تضرب بالقرب من موقعنا. وهزت الانفجارات الجدران والأرض،
وحطمت النوافذ، وقطعت الأنفاس. كان ذلك أول قصف مدفعي على مركز
المدينة. بدأ الشيشانيون عندها بالرد على إطلاق النار بصواريخ الفراد التي كانت
تتمركز خلف فندقنا. تعرضنا لقصف مدفعي آخر، وشعرت أن الأرض تكاد
تنشق. ثم سمعنا هدير المروحيات الذي تبعته نيران المدافع الرشاشة والبنادق داخل
المدينة. أتى الناس من أطراف المدينة مذعورين: وصلت الدبابات الروسية إلى
الضواحي. لقد بدأ اجتياح غروزني.

تحت الضغط العصبي والنفسي، قمت بطباعة برقية عاجلة على التللكس
القضائي من أجل تقديمها للأخبار، ثم خرجت مع زميلتي في وكالة الصحافة
الفرنسية إيزابيل أستغاراغا، لننضم إلى الزملاء بيل كازيري من سي بي إس، وبول
لوي، وكيري سكوت من ذا ساندي تيمز. كان علينا التفكير بسرعة، وأن ننسى
القوضى القديمة: هذه المرة، كان آلاف الجنود في الدبابات والعربات المدرعة
يهجمون المدينة من ثلاثة اتجاهات مع تغطية من المروحيات والطائرات. لم أعتقد
شخصياً أن الشيشانيين قادرون على الصمود. سيتمكن الروس من الاستيلاء على
المدينة في غضون ساعات نظراً لأعدادهم الكبيرة. قال بول، وهو مراسل خبير

بالحروب، إن ذلك أسوأ بكثير مما حدث في سرايفو، إنه جنون، لقد بدا كلامه مقنعاً. كان هناك إشاعات عن فرق روسية خاصة مهمتها اصطياد الصحفيين. وقال: "يجب علينا الخروج من هنا. سيكون ذلك قتال شوارع، وجحيم حقيقي". لقد حان وقت الانسحاب.

ذهبنا في سيارتين عبر مناطق مكشوفة بعيداً عن ملعب دينامو، والتزمنا أطراف الشوارع، وتنشقنا رائحة البارود في الهواء، وشعرنا بأن المدينة تتحطم. ثم حدث شيء غريب خلف مركز المدينة. نظرت مع إيزابيل إلى الخارج ورأينا الشيشانيين - عادين غير مسلحين - يقفون في الطريق. لم يكونوا يركضون. لم يكن لدى كل هؤلاء الناس سوى فرصة وحيدة للنجاة، ولكنهم مكثوا في منازلهم. ولم يكن محمدهم قد انهار بعد. كان ذلك كافياً؛ قررت وإيزابيل المكوث أيضاً. ولم نستطع مغادرة المدينة. بالإضافة إلى ذلك، وبصفتنا صحفيين، كنا نزود محطات الإذاعة والتلفاز حول العالم بالأخبار، خلال بضع ساعات فقط أصبحنا المصدر المستقل الوحيد للمعلومات. وكان لدينا التزام وعهد، ولو أننا للآخرين وقلنا لهم وداعاً.

لم يهدأ صوت المدافع الرشاشة والقنابل المتفجرة عند المركز. وانبعث الدخان الأسود من مصافي الزيت المحترقة التي تعرّضت للقصف على مشارف المدينة عبر سماء الشتاء الباهتة، وقرابة الساعة الثانية من بعد الظهر، اختفت الشمس. وفي البعيد، كانت نيران المصفاة، تقذف الجبل الهادئ باللهب بين الحين والآخر، وتفصل الأفق بوهج برتقالي اللون. وعند الليل، كان وميض الانفجارات الصفراء والرصاصات الخطاطة الحمراء هي الأضواء الأكثر إشعاعاً، والتي تحني مساراتها مثل النجوم الساقطة فوق أسطح المنازل.

لقد أخطأت موسكو التقدير. هرب قطاع الطرق الشيشانيون حسب الدعاية الروسية، إلا أن الشيشانيين الحقيقيين بقوا. وعندما اندلعت الحرب في المركز، اندفعت حشود الشيشانيين من القرى إلى الجنوب، ومن بينهم رجال غير مسلحين والذين كانوا يمزحون بالقول إنهم "خارجون للعمل". وكانوا ييلون، في قبعات التزلج والمعاطف المصنوعة من الجلد، مثل حشود في طريقها لمتابعة مباراة كرة

القدم. وغالباً ما كانت الفرق المؤلفة من خمسة أشخاص تشترك ببندقية واحدة، ولكن الجميع كانوا يستطيعون الحصول على شيء ما: مسدس، رشاش، قنبلة يدوية، أو قنبلة مولوتوف. ولم يكن لدى الكثيرين منهم قائد أو أي خطة لدعم المقاومة. كان الرجال يمشون باتجاه صوت القتال، ويتحركون بلا مبالاة مدروسة، وبغورور تقريباً.

وقال عيسى، الذي يبلغ من العمر 23 سنة ويعمل موظفاً في محل: "كل شارع يدافع عن نفسه. بهذه الطريقة أصبح الجميع يعرفون بعضهم البعض. وكنا نفعل ما بوسعنا، حتى ولو كان مجرد صنع قتابل نепتية. إلا أننا لم نكن نستطيع الجلوس في المنازل". وكانت جماعته المؤلفة من أربعة أشخاص، تشترك برشاش، وبندقية آلية واحدة. بعدها ظهر صبيان بعمر 12 سنة تقريباً، كانا يرتديان معطفين رجالين تصل ياقتهما إلى فوق أذنيهما، أما أكمامهما فكانت مثنية للأعلى، كانا يسيران على الأقدام ممتلكين بطاقة الرجال، كانا يشيران إلى الكلاشينكوف بحمد ويتهايمان. وقال ليش، الذي يبلغ من العمر 39 سنة، والذي كان بحاراً في البحرية السوفياتية: "انظر إلى هذين الصبيين. إنهما يساعدانا في الحصول على الأسلحة والذخيرة. إنهما لا يخافان من أي شيء، لا من الدبابات، ولا من الصواريخ". فضحكت المجموعة. وفتح رشاش النار في مكان ما أسفل الشارع، فتفرقنا.

كان البيوفكس مرتاحين؛ وأخيراً حصلوا على معركة في منطقة تلاحم الأسلحة القصيرة المدى وتكتيكات حرب العصابات. قال أحد المقاتلين، ويبلغ من العمر 38 سنة، ويحمل بندقية هجومية وقاتل مضادة للدبابات، ومقتنع بأنه سيصير شهيداً: "المعركة أفضل في الظلام وداخل المدينة. إنهم ضيوفنا هنا، ونحن المضيفون. وليس لديهم هدف في قتالهم هذا، نحن نقاتل من أجل وطننا، ولسنا خائفين من الموت. لديهم طائرات ودبابات، بينما كل ما نملكه هو ثقتنا بالله والسلاح المضاد للدروع. ولكننا نعرف ما الذي نقاتل لأجله".

اكتظت الشوارع المظلمة بسيارات اللادا المتسخة، والتي خرج منها رجال وبنادق وذخيرة؛ كشف الضوء الشاحب لقذائف الإشارة الروسية أو الأبنية المحترقة

مقاتلين مثل الأشباح في ثياهم الفضفاضة البيضاء والعمامات الإسلامية الخضراء؛ كانت أغصان الأشجار تحفي ورائها مواقع الرشاشات، كان حزام ذخيرتها يومض في الثلج، وكانت المتاريس موجودة في الطوابق العليا من الأبنية السكنية، كان الثوار ينتظرون مع أسلحتهم المضادة للدروع تقدّم المدرعات الروسية إلى الشوارع العريضة إلى الأسفل منهم.

تسللت مجموعة شيشانية عبر البيوت الصغيرة خلف القصر الرئاسي، حيث أوقع الروس في كمين. التزمت المجموعة بالسر إلى جانب الجدران، وتوقفت للتشاور مع رفاق السلاح الذين يختفون في الظلال. لم يكن لديهم قائد، كانوا يستشعرون ببساطة طريقهم إلى المواقع الأمامية. وسمعتنا صوت قذائف دبابة في الظلام، فاحتمينا بأحد الجدران، ركض أحد رجال المجموعة في الشارع المظلم خلف الدبابة. إلا أنها لم تكن دبابة روسية، إنما من قوة الدبابات الشيشانية الصغيرة. ابتسم الرجل للمجنود فيها وهو يسحب قبلة يدوية من سترته قائلاً: "إنهم محظوظون، ولولا حظهم لتلقوا هذه".

فجأة ظهرت تلك الشخصيات الإعلامية الشيشانية، والتي لم تكن على وفاق مع المراسلين الأجانب، لتصور القتال حول القصر الرئاسي. كان أحدهم على وشك أن يلقي حتفه. في لفظة بارعة، دون ذكر الشجاعة، ترك آلة تصوير ليلية تعمل على أحد نوافذ الطابق العلوي ووصلها بتلفاز محلي حيث نقلت صوراً حية للسخران التي وجهتها المدرعات الروسية على ذلك المبنى. وقال زلمخان يندربايف نائب الرئيس دودايف بصوت محتقن عندما شاهد الصور: "مصير الشيشان سيتقرر هذه الليلة".

لم يكن أي شخص عادي في روسيا يعرف حقيقة ما يجري. تجمعت العائلات على طول البلاد من موسكو إلى فلاديفوستوك في مطابخ الشقق لتشرب شمبانيا سوفياتسكوي والفودكا قبل الخروج لإشعال الألعاب النارية والاحتفال ببداية سنة 1995. لم يكونوا يفكرون في الشيشان سوى من خلال التقارير الرسمية والتي تقول إنها مسألة إعادة النظام. تماماً قبل منتصف الليل، في رأس السنة الجديدة، أعلنت وكالة أنباء إيتير تاس بأنه تم الاستيلاء على قصر دودايف الرئاسي.

ولكن حتى الدعاية لم تستطع إخفاء الحقيقة طويلاً: لقد مزقت القوات الروسية إلى أجزاء. وذلك من خلال استخدام خطة غريبة مشابهة لما قام به شامل عندما دمر جيش الأمير فورونتسوف في غابات دارغو سنة 1845، سمح الشيشانيون للروس بالاندفاع عميقاً وصولاً إلى مركز المدينة، ثم باغتهم بقذائف الهاون، والقذائف المضادة للدروع، والأسلحة الخفيفة من كل الاتجاهات. لقد وصل الجنود الروس فعلاً إلى ساحة الحرية خارج القصر الرئاسي، ولكن ليدركوا فقط أنهم وقعوا في فخ ذبحهم.

في توثيقه الكلاسيكي لتحول القرن في الحروب القوقازية، كتب ج. ف. بادلي عن حملة فورونتسوف، ولكنه قد يكون يصف غروزني سنة 1994:

لقد حلت النتيجة الطبيعية لتلك الأحداث. وأصبح المركز مفصولاً عن المقدمة، والمؤخرة عن المركز، وتجمع العدو بين المنطقتين، وقام بإطلاق النار من كل المواقع الممكنة، ومن وراء كل جذع شجرة - وحتى من الأحصان فوق رؤسنا، وكافحت لشجار الزن للضخمة تمنح مواضع لإطلاق النار لعدد ضخم من القناصلين الشيشانيين، تماماً كما حدث في حملة عرلبي - وعندما يحصل الاضطراب في كل مكان، يندفع الشيشانيون لإكمال ما بدؤوه بالسيوف والكتال.

هذه المرة، كان الشيشانيون في المباني السكنية المكونة من تسعة طوابق وفي الأقبية، وليس في أشجار الزان، كانوا يستخدمون الرشاشات وليس السيوف.

لقد أضاع أطقم الدبابات طريقهم، وبدأ المقاتلون باصطيادهم، ولم يجرؤ جنود المشاة على الخروج من عرباتهم المدرعة والدخول في الاشتباكات النارية، إلا أنهم لقوا حتفهم بالصواريخ المضادة للدروع داخل عرباتهم؛ وفشل القادة في التنسيق بينهم، لقد انطلقت نيران الأسلحة الروسية الثقيلة على رجالهم. وخلال 24 ساعة، كان المحرم قد اندلع، وبقي القصر الرئاسي في أيدي الشيشانيين. كانت واحدة من أسوأ هزائم الجيش الروسي؛ وأسوأ من المعارك في أفغانستان. أخيراً ضابط كان يتابع الأرقام في موسكو بأن ألف جندي لقوا حتفهم، وتعرض قرابة 3000 للإصابة. وتقول إحصائيات غير رسمية إن عدد القتلى وصل إلى 2000 شخص.

كان سيرجي، وهو مجند روسي في فوج المشاة المحمول رقم 81، والذي قال إنه من مدينة سمارا وأنه يبلغ من العمر 20 سنة، ولكنه يبدو أصغر بكثير، واحداً من الجنود الذين وقعوا في الأسر تلك الليلة. مع الأخذ بعين الاعتبار فئات الجنود الذين ماتوا أثناء محاولتهم الهرب من عرباتهم المدرعة التي وقعت في الكمين، لقد كان سيرجي محظوظاً. وعندما التقينا كانت الحرب مستمرة منذ عدة شهور، وكان مستقيماً بعدما تعرّض للإصابة في مستشفى شيشاني بارد، كان يأمل بأن يتم إطلاق سراحه أو مقايضته بأسرى آخرين. وعندما كنا نتحدث، كانت طائرات قواته الجوية، تحلق فوق المستشفى مما جعله يفزع، لم أستطع التفكير بأنه لن يعود إلى منزله.

مثل العديد من المجندين، كان سيرجي بالكاد قد سمع عن الشيشان قبل أن يتم إرساله إليها ليعمل كميكانيكلي لعربات الجند المدرعة خلال الهجوم.

عندما تلقينا الأوامر بمغادرة سمارا، لم نكن نعرف وجهتنا. في البداية، تمركزنا إلى الشمال من غروزني. في السنة الجديدة، طلبوا منا تشكيل رتل عسكري، لم يكن لدينا أي فكرة عن المكان الذي سنقصده. ثم قللوا إلنا منتججه إلى غروزني. وقالوا إنه لا يوجد أي قتال هناك، وإنما مجرد مجرمين مسلحين فقط، ولم يذكروا وجود المدنيين. وعندما وصلنا إلى مفترق الطرق، بدأ للمقتلون بإطلاق النار علينا من شقق في الطابق الخامس لو الساندس. كانوا يطلقون النار من كل مكان. ولم يكن لدي أي فكرة عن سبب إطلاقهم للنار، ولكنهم أصابونا. خرجنا من العربة المدرعة، واختبأنا في منزل صغير. كنّا في العربة المدرعة مع أربعة آخرين، بمن فيهم أحد الضباط. أصبنا جميعاً. وجلسنا هناك لأربع ساعات، وتوقنا بأنهم سيضربون المنزل بالقذائف المضادة للدروع، وكنا بانتظار ذلك. ثم صرخوا علينا لنخرج، ونستسلم، وأخذونا كأمري. كل ما أريده الآن هو الذهاب إلى المنزل، هذا كل ما ليخيه.

حسب بعض التقارير، إن أكثر من نصف فوج سمارا المؤلف من 1000 رجل لقوا حتفهم، أو تعرضوا للإصابة، أو وقعوا أسرى. وكانت أعمارهم تتراوح بين 18 و19 سنة، وهم مجندون ليس لديهم خبرة في القتال. في الواقع، تم إبادة اللواء 131، الذي كان يتمركز في مايكوب عاصمة أديجي، بالكامل تقريباً. وقد حقق ذلك اللواء هدفه بسهولة، فاستولى على محطة السكة الحديدية في مركز غروزني،

ليجد نفسه محاصراً من جميع الاتجاهات لمدة 24 ساعة. قال تقرير روسي إن خسائر لواء مايكوب وصلت إلى 20 دبابة من أصل 26، و102 عربة جند مدرعة من أصل 120. وتحدث الناجون عن مفات الجنود الذين ماتوا.

وقدّم لي فولوديا - وهو جندي قوات خاصة محترف، أصابت الشظايا رأسه بعد 12 ساعة من القتال في رأس السنة - تحليلاً عملياً: "بالطبع كنت أعرف ما سيحدث. وكنت أعتقد بأنه يجب أن يكون هناك المزيد من جنود المشاة. وأنه كان ينبغي عدم الذهاب مباشرة إلى المركز، لأن ذلك لن يخيف البوفيكس. ولكنني كنت أنفذ الأوامر. ولم يكن معظم رجالنا جاهزين، وكنت أعرف ذلك. إلا أن مهمتي لم تكن إدارة الهجوم، كما تعلم يوجد أشخاص يخططون لهذه الأشياء. ولهذا السبب لديهم تلك النجوم الكبيرة على أكفاهم".

وقال نيكولا ي - وهو مجند آخر قابلته بعد شهر عند نقطة تفتيش، وكان يتمنى أن يعود إلى الوطن: "لم يرَ أحد شبيهاً لما حدث، ولن يعرف أحد ذلك. لقد كان ذلك جحيماً، وكانت مدفعتنا تطلق النار على زملائنا الذين لقوا حتفهم في كل مكان. لقد كانت كارثة".

سيُسجل ما حدث في غروزي على أنه هزيمة تاريخية، ليس بنسبة الخسائر المادية والبشرية وحسب، وإنما بسبب الفشل الكبير على مستويي القيادة والتدريب، من الجندين وحتى الجنرالات. يقع معظم اللوم على غراتشيف، المحارب القديم في أفغانستان. ونتيجة لقيادته الشخصية للعمليات، كان في موقع أفضل من أي شخص آخر ليعرف ما سيحدث عندما تتحرك الدبابات والعربات المدرعة دون غطاء من جنود المشاة نحو شوارع مليئة بالقنّاصة الشيشانيين والمقاتلين الذين يحملون الصواريخ المضادة للدروع. وكان قد قال ذلك بنفسه قبل الحرب: "يجب أن يذهب جنود المشاة أولاً، لأن الدبابات لا ترى شيئاً، وهي فعالة في الحقول فقط، ولكنها عمياء في المدن، ومن الضروري وجود جنود المشاة لحراسة الدبابات". وكان غراتشيف يعرف جيداً أن الجيش السوفييتي السابق لا يتضمن ضباط الصف، ولا الضباط الشباب القادرين على قيادة وحدات مشاة صغيرة، وهي جوهر قتال الشوارع الناجح والطريقة الوحيدة لحماية الأرتال المدرعة. ومع

ذلك تقدّم عبر المدينة. وبعد إظهار مثل ذلك التهور وعدم الرأفة بالمدنيين خلال المرحلة الأولى من الحرب، كان يعامل جنوده، الذين كان معظمهم مراقبين، بنفس الطريقة.

عكست الهزيمة أيضاً القوة العددية الوهية للقوات المسلحة. بصورة رسمية، كان هناك قرابة 1.7 مليون شخص يخدمون في الجيش، ولكن لم يكن هناك على أرض الواقع سوى 1.2 مليون وفقاً لبعض التقديرات، ولم يكن هناك وحدات مستعدة للقتال من بين هؤلاء سوى النذر اليسير. حتى قوات النخبة من المظليين وتشكيلات الدبابات، لم تكن في كامل قوتها، فقد كانت تضم العديد من المجندين الإلزاميين بين صفوفها. وبالنتيجة، تمّ تشكيل الوحدات التي ذهبت إلى الشيشان على عجل من الرجال الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي ليعرفوا أسماء بعضهم البعض، دون ذكر التدريب الذي يجب أن يخضعوا له قبل الذهاب إلى أرض المعركة. وكان الاضطراب نفسه منتشرًا بشكل كبير بين المستويات العليا لفروع الجيش النظامي المختلفة وبين وزارة الداخلية وفي تبادل المعلومات الاستخباراتية. وحالما اصطدم المحجوم بمثل تلك المقاومة العنيدة، انهار التنسيق بين تلك الفروع، مما حدّ من تأثير التفوق العددي.

قد يكون اقتحام غروزني قبل وصول التعزيزات أحد الأخطاء الأساسية الأخرى. ووفقاً لأحد المحللين الروس فقد تمّ نشر 24.000 جندي، مع 80 دبابة و 200 عربة مدرّعة في الغزو الأولي؛ ورفعت التعزيزات التي وصلت بعد فترة قصيرة من بدء المحجوم على غروزني العدد إلى 38.000 رجل و 230 دبابة و 450 عربة مدرّعة. ولدى اقتحام غروزني، لم يتمّ استخدام القوات الخاصة العالية التدريب لإدارة المخابرات العامة، وهو شيء غريب.

ماذا كان بوسع غراتشيف أن يفعل؟ في حال تبادل الآراء مع جنرالاته، كان سيمرّض تنفيذ المحجوم، وسيذهب إلى يلتسن ويقول له الحقيقة. ولكن غراتشيف كان مفلساً في الوقت الذي ذهبت فيه القوات إلى الشيشان، بحيث لم يستطع فعل شيء سوى السباحة مع التيار. وكان يعرف بأن مستقبله يعتمد على يلتسن وعُصبة الكرملين وليس غروزني. وكان أبعد ما يكون عن الاهتمام بحياة جنوده،

وحياة المدنيين أو الدستور. ووفقاً لمصدر عسكري مطلع، لم يكن قرار غراتشيف باقتحام غروزني في رأس السنة الجديدة، كما هو حال معظم السياسة الروسية في الشيشان، سوى نزوة. وكانت هذه المرة نزوة ثالثة خلال حفلة في 30 كانون الأول في قاعدة موزدوك على شرف عيد ميلاد وزير الدفاع في الأول من كانون الثاني. وسماها ذلك المصدر: "هدية عيد الميلاد".

لم يكن غراتشيف من النوع الذي يعتذر أبداً. وتمّ صرف أو تحييد كل الشخصيات العسكرية المعارضة للحرب، وقال غراتشيف إن: "المخندين ماتوا والابتسامة على وجوههم". وعندما تحدّث الناشط في مجال حقوق الإنسان سيرجي كوفاليف، والذي تعرّض لهجوم لاذع من يلتسن لعدة أسابيع، أطلق عليه غراتشيف: "عدو روسيا، وخائن". وبالنسبة للناشط الآخر سيرجي يوشكوف، زميل كوفاليف، فقد قال عنه غراتشيف إنه: "شخص وضع وتافه يدافع عن الأوغاد الذين يريدون تدمير روسيا".

بعد أسبوعين من اقتحام غروزني، قال نائب وزير الدفاع الجنرال جورج كوندراتيف بأن كل شخص كان في الشيشان يعرف الحقيقة، ولكن الكرملين، وغراتشيف، والبرلمان الروسي يرفضون قبولها: "ليست العصابات هي التي تقاتل في الشيشان فقط، وإنما الشعب الشيشاني. وقد حمل الرجال السلاح، ويقاتلون دفاعاً عن منازلهم وأراضيهم وعن قبور أسلافهم".

غروزني

في الثاني من كانون الثاني عام 1995، لم يكن هناك أنى شك حول من سيبرح المعركة. كانت ربات للذهب بالألوان الأخضر والأحمر والأبيض ترفرف علانياً فوق القصر الرئاسي والشوارع المحيطة به، والتي تحول لونها إلى الأسود نتيجة الانفجارات وامتلأت بالذبابات المعطوبة والجنود الروس القتلى.

سمعت صوت نيران القنابل الآلية، وانحني عند جذر بالقرب من نهر موزنها والقصر وانتظرت. وعلى بعد مترين فقط كان هناك روسي ميت. كان باقياً جداً، وقد انحنت قماما نحو الاتجاه الخاطئ: كما لو أنه لم يستطع أن يقرر أي طريق يجب أن يملك، وجمّدت عيناه للزرقاوان من محجرهما، مثل كرات في حوض سباحة مخطط. كان جسمه مشوهاً، ويبدو مثل أي مجند صغير يستطيع المرء رؤيته في جميع أنحاء روسيا،

بسيده المملختين بالزيت وجلده المصفر وملابسه التي يعود طرازها للحرب العالمية الثانية. لم يكن الموت قد قضى على وجه المجند الطفولي. وتماطلت كم سيموت المزيد مثله في ذلك اليوم.

كان ينبغي علينا التمايل في ساحة الحرية للوصول إلى القصر الرئاسي. وفي الداخل، كان المقاتلون الشيشانيون المتحبون والمتسخون يأخذون قسماً من الراحة، ويدخنون وينظفون الأسلحة. كان بعضهم يأكل بسرعة، كانوا يتناولون قطعاً من أرغفة الخبز الكبيرة الدائرية الشكل، مع الطماطم المخللة في جرار كبيرة وعميقة. وكان بعضهم الآخر يتكلم بهدوء بلغاته الأصلية، فيما كان آخرون صامتين، ويحرقون دون حراك.

جلس رئيس الأركان الشيشاني، للجنرال أصلان مسخادوف في ملجأ مرهقاً، ومحاطاً بالخرائط وصناديق الذخيرة، ولكوام من الصواريخ المضادة للدبابات. وبالقرب من زراعته، كانت هناك حزمة من جوازات السفر الحمراء للجنود الروس الموتي أو الأسرى. كان مسخادوف المعسول اللسان، والهادئ، بشعر رمادي، الأكثر تكلفاً بين القادة الشيشانيين. إلا أن عينيه كانتا قاسيتان.

حاول العقل المدبر للاحتصار الشيشاني أن يبدو رسمياً، وأجبر نفسه على قول بيان رسمي يعرض حقيقة ما كان يجري. وبدأ بصراصة قاتلاً تعرضت القوات الروسية التي اجتاحت المدينة قبل يومين لهزيمة فطية. ولكن صوته تهذج.

كان مسخادوف يعرف بأن الحرب لم تنته بعد، وأن الطائرات ستعود، وأن الأسلحة الثقيلة ستتمكن يوماً ما من إخراج رجاله من هذه المدينة المليئة بالدخان إلى القرى، وأن تلك ستكون فقط بداية المجزرة في الشيشان.

لكن في تلك الفترة الفاصلة بين حمامات الدم، وفي الدقائق الأولى التي أعقب معركة رأس العنة في غروزني، ومع لفتلار رائحة الحريق في الهواء، لم يكن لديه ما يقوله سوى: "حتى أنا مذهول. أنا مندهش من شجاعة هؤلاء الناس".

سقط القصر الرئاسي في 19 كانون الثاني، بعد ثلاثة أسابيع تقريباً من احتياج غروزني. وأصاب الارتباك المقاومة الشيشانية. قصفت الدبابات، والمدفعية، والطائرات الميكنة الحرساني المكوّن من أحد عشر طابقاً بشكل يومي من مسافة قريبة. وهاجرت المدينة من كل اتجاه. وتحوّل فندق القفقاز إلى أنقاض، واحترق مبنى البرلمان، وتمّ تفجير مساحات كبيرة من المنازل والمباني السكنية المحيطة بالقصر أو التهمتتها النيران. ومع ذلك، بقي القصر الرئاسي صامداً، حتى عندما انفجر القسم الخلفي بكامله - أطنان وأطنان من الخرسانة، مع أقسام ضخمة من الأرضيات الكاملة - وامتلاً القسم الأمامي بالثقوب نتيجة القصف المدفعي. وبشكل يدعو

للدهشة، بقي المدافعون عن البناء والمحميون في خنادق عميقة، يطلقون النيران بكثافة حتى عندما اقتربت منهم القوات الروسية.

أخيراً، استطاعت القوى الجوية الروسية، التي اكتسبت سمعة بعدم الكفاءة، إسقاط قنبلتين خارقتين مصممتين للنفاذ من خلال أحد عشر طابقاً والوصول إلى الخنادق العميقة قبل أن تنفجر. وفي تلك الليلة، زحف الشيشانيون الذين نجوا، وعبروا نهر سونزها المتجمد لتأسيس مواقع جديدة على الضفة البعيدة. في اليوم التالي، اجتاحت القوات الروسية الأنقاض، ورفعت علم الاتحاد الأزرق والأبيض والأحمر بأسلوب الجيش الأحمر، وهو عمل وصفه الجنرال كوندراييف: بتدنيس المحرّمات.

أعلنت الحكومة الروسية أن الاستيلاء على القصر يعني هزيمة جوهر دودايف والبوينفكس. وقال الرئيس يلتسن إن: "المرحلة العسكرية لفرض الدستور الروسي قد انتهت فعلياً"، وأعلن غراتشيف أنه يفوض قيادة العملية لوزارة الداخلية. وحتى قبل أسبوع من إخلاء القصر الرئاسي، قال بافل فليخنور، محرر العمود اليومي في صحيفة سيفودنيا، والذي كان ينقل باستمرار وجهة نظر وزارة الدفاع، إن القوات الروسية على وشك الفوز بالحرب: "يبدو أن آخر مناصري دودايف الذين يحتبئون يباس في ملحاً القصر الرئاسي قد فهموا أخيراً بأن اللعبة قد انتهت".

لكن اللعبة لم تكن قد انتهت عبر نهر سونزها. لقد قام المقاتلون الشيشانيون بتجميع أنفسهم من جديد، كانوا يعيشون في الأقبية، ويقاثلون من نوافذ الشقق، فيما سلم المدنيون المحاصرون أنفسهم للموت. استمرت المعركة لأكثر من ستة أسابيع، كان المقاتلون يحاربون ليس من أجل دودايف، ولكن بدافع ما يمكن وصفه بالوطنية. وبالنسبة للروس - الذين كانت مقاومة الثوار ضد الغزاة النازيين في الحرب العالمية الثانية مصدر فخر لهم - لم يكن خطاهم بتقدير مدى صمود تلك المقاومة سوى سوء تقدير آخر.

بعد معركة رأس السنة الجديدة، تخلى الروس بشكل كبير عن الهجوم باستخدام جنود المشاة والعربات المدرعة، وعادوا إلى استراتيجية الحرب العالمية الثانية في القصف الجوي والمدفعي المنظم لحي تلو الآخر حتى يتأكدوا من تأمين

المدينة. كان يجب تدمير معظم غروزي، مثل القصر الرئاسي الأسير لتحريرها. وقدرت مصادر روسية بأن الجيش استخدم قذائف من عيار 100 - 122 ملميلتر ولغاية 152 ملميلتر لتحقيق تغطية نارية عالية، إضافة إلى منصات إطلاق صواريخ الغراد والمهوريكانس، والقصف الجوي. لقد ساعدت المدفعية في إبقاء حركة الشيشانيين في حدها الأدنى، وتقدمت القوات البرية الروسية فقط بعد انهيار المدينة واحتراقها مع تعزيزات تدفقت على الشيشان طوال الوقت في أرتال مؤلفة من مئات المركبات.

كانت الأسابيع الأخيرة من المعركة على غروزي يائسة، وكانت القذائف تنهمر على المدينة كل بضعة ثوان، وأكثر من ساعة؛ هذا يعني ثلاثة إلى أربعة آلاف قذيفة في الساعة، مقارنة بثلاثة آلاف قذيفة كان الصرب يوجهونها في اليوم على سرايفو. كانت الشظايا تضرب أي حي في أي وقت، مما جعل فترات وقف إطلاق النار أكثر وسائل الراحة ترفاً. في إحدى اللحظات يكون المرء واقفاً، ويحدث أو يدخن، ثم يستلقي على الأرض مثل سوط، ويحذف إلى مدخل الملحأ، أو يتمسك بالأرض ملتصقاً بالإسفلت. وبشكل لا يصدق، بقيت مداخل غروزي الجنوبية في أيدي الشيشانيين، مما قدّم مخرجاً ومساراً جاهزاً للهرب، ولكن المدفعية كانت تعني أن ذلك الطريق أصبح أكثر خطورة مع الأيام.

في ملحأ بالقرب من ساحة بروسبيكت لينين، حيث كان الشباب يقيمون سباقاتهم باستخدام سيارات بي أم دبليو، كان أحد الثوار الشيشانيين ينظف بمحذر سلاح مجموعته الوحيد المضاد للدروع. واستلقى قرابة 20 رجلاً على فرش في الظلام، مع وجود أنبوب غاز مكسور، يخرج منه وهج برتقالي وحرارة يحتاجها الموجودون هناك. كان هناك أرغفة من الخبز الشيشاني وبعض الخضار المخللة. لقد بدأ الرجال متعبين ومتسعين. لم يكن هؤلاء المقاتلون يملكون سوى 10 بنادق، وبالإضافة للسلاح المضاد للدروع، مما يعني أنهم يتناوبون على استخدامها.

كان القائد يبلغ من العمر 28 سنة، والذي يدعو أحد رجاله بالقائد الأسطوري. كان يعمل في الشرطة، ويرتدي قميصاً من جزيرة هاواي، وبدلة فضفاضة خضراء متسخة. كان هناك غيمة حول عنقه، وقال: "إنها تحمي من

الرصاص، والشظايا، والعربات المدرعة والدبابات. لقد أعطتني إياها فتاتي في القرية. وهناك آيات من القرآن بداخلها".

قال رجل آخر يقيم في القبو ويبلغ من العمر 44 سنة: "نحن فقط ندافع عن أرضنا. هم يمتلكون طائرات، ومروحيات، وأنواع متعددة من الصواريخ، ومدافع هاون أما نحن فلا نملك سلاحاً سوى روحنا. لكننا نعلم لماذا نحن موجودون هنا. نحن لا نقاتل من أجل دودايف، ولسنا مهتمين بالسياسة؛ إننا نقاتل من أجل أرضنا. نحن نعرف ما حصل سنة 1944، وفي القرن التاسع عشر. لقد حاربنا مع الروس خلال التاريخ، ولم نعد نريدهم هنا الآن".

حتى في شباط، كانت وحدات مثل هذه منتشرة في كل أنحاء جنوب غروزني، وأدعى القادة السيطرة على ثلث المدينة. لكن ذلك كان مجرد دعاية. في الحقيقة، إن معظم المنطقة الواقعة جنوب غروزني الصغيرة، لم تكن أكثر من أرض مشاع. بقيت دبابة شيشانية واحدة في غروزني، كانت تقوم بإطلاق النار على المناطق المعزولة ثم تغير موقعها. وعند التحرك في الشوارع سيراً على الأقدام، كان المقاتلون يحاولون تفادي التعرض للقتل بقذائف المدفعية عوضاً عن الاشتباك مع العدو. وفي مثل تلك الحالات، ومع انعدام التواصل اللاسلكي، كان التنسيق صعباً. وقال ليش، المتطوع اليافع: "إننا نقاتل، ولكن لا يوجد توجيه حقيقي لنا. وليس لدينا قادة، وإنما يستطيع أي شخص أن يضع يديه على سلاح ما".

مهما ساءت الأحوال، يستطيع المرء أن يشعر بالعنصر الجنوبي في الأجواء؛ الشيشانيون الذين لا يتخاذلون مطلقاً، والذين لا يصدقون أبداً أنهم سيخسرون. كان أحد المقاتلين يقول: "لسنا نفكر بالفوز فقط، وإنما نحن واثقون من ذلك". بقي الشيشانيون في غروزني شهراً آخر بعد أن التقيت بذلك المقاتل، ولم أستطع أن أعرف أبداً فيما إذا كان قد نجح.

وجدت خارج غروزني، رجلاً عجوزاً يرتاح إلى جانب الطريق. وكان قد مشى مع زوجته إلى خارج المدينة وهما يحملان حقيبتين من المقتنيات. وسألتهما عن وجهتهما، وقالت المرأة ببساطة إلى هناك، وأشارت إلى الجنوب، إلى الجبال. وقال الرجل المسن: "هذا ليس قتالاً أو حرباً. وكل ما يفعلونه هو الضرب

والتفجير، وتدمير المدينة بطريقة منهجية، شارعاً بعد آخر. كان هناك 15.000 شخص في حينها، ولم يكن هناك سوى 100 عندما غادرت. وحالما يتم تدمير منطقة ما، ينتقلون إلى التالية. سأغادر لفترة قصيرة، لكنني سأعود إلى وطني فيما بعد. غداً يبدأ شهر رمضان، وأحتاج للاستحمام استعداداً له، وحتى يمكنني الموت على نحو لائق".

تلعثم الرجل العجوز بالكلمات: "هذه تكتيكات المغول. ولا أفهم ماذا يفعلون، أو ما يفعله مقاتلوننا لحل تلك المسألة. ولا يوجد فائز هنا، يجب أن يتوقفوا جميعاً". توقف الرجل العجوز قليلاً، ثم تابع: "لقد ولدت في الجبال، وكنت في التاسعة من عمري عندما تمّ نفينا إلى كازاخستان، لقد عشت في غروزي منذ عودتي. ومن يعلم، ربما كانوا يستعدون لنفينا مجدداً. ويقولون إن الرجال لا يكونون". واستدار يكي.

في بداية شهر شباط، اخترقت الدبابات الروسية المدينة من الجنوب الشرقي، وأغلقت واحداً من آخر المخارج الكبيرة. وصمد البوفكس، ومعظمهم من كتية شامل باسايف، حتى نهاية الشهر، بعد ذلك، هربوا إلى أرياف الشمال بعدما شدد الحناق على المدينة. في 6 آذار سقطت غروزي رسمياً بعد احتلال حي تشيرنوريش الجنوبي.

تشير الأرقام الروسية الرسمية أنه بحلول نهاية شباط لقي قرابة 7000 بوفكس شيشاني حتفهم، إضافة إلى مقتل 1146 جندياً روسياً، وجرح 5000، وفقدان 40 آخرين ربما وقعوا أسرى. دون أدق شك، تمّ تضخيم عدد القتلى الشيشانيين لأنه من غير المقبول أن يكون كل ذلك العدد على خطوط الجبهة. أما بالنسبة للروس، تقول تقارير غير رسمية أن خسائرهم كانت أكبر من ذلك بكثير. حيث قال ضابط استخبارات مسؤول عن الإحصائيات، بقي مجهول الهوية، إن 4000 جندي لقوا حتفهم. من المؤكد أن عائلات الجنود لم تصدق وزير الدفاع. وخاطرت عشرات ربات البيوت الروسيات بحياتهن، وتجوّلن في الجانب الشيشاني من الخطوط للبحث عن أولادهن. فيما قامت أخريات بتفتيش أماكن عرض الجثث (المشارح) وعربات القطارات الممرّدة في المعسكر الروسي الكبير في موزدوك. وتمّ إخبار أمهات

آخريات بأن أبناءهم ماتوا، حيث حصلن على بعض البقايا لدغنها، ليكشفن بعد ذلك أن أولادهن على قيد الحياة، وأن البقايا التي استلمتها تعود لجنود آخرين مجهولي الهوية.

ورغم أن المدنيين تعرضوا لأعنف الغارات، إلا أنه من المستحيل تقريباً تحديد أعدادهم بدقة. هناك تقديرات تشير إلى أن 120.000 شخص بقوا في غروزني خلال المعركة التي استمرت تسعة أسابيع، ومعظمهم من أصل روسي. ووزعت منظمة حقوق الإنسان الروسية ميموريال دراسة شملت 400 لاجئ، وقدّرت أعداد القتلى في غروزني بحوالى 25.000 شخص. ويبدو ذلك الرقم كبيراً جداً، لكن قد لا يعرف أحد الأرقام الحقيقية أبداً.

رغم التوقعات الجديدة بانتهاء الحرب، إلا أن المقاومة انتشرت عبر الشيشان مثل النار في الهشيم، مما استلزم استخدام قرابة 80.000 جندي روسي في نفس الوقت. وحتى في غروزني، لم يستطع الرئيس يلتسن تحقيق أي انتصار. وحوّلت حملته لإعادة النظام الدستوري المدينة إلى أرض قاحلة من الحجارة والألغام الأرضية والكلاب الجائعة التي تبحث عن الجثث البشرية الملقاة في الشوارع، والتي حافظت على شكلها لوقت طويل بسبب البرد.

تحوّلت أنقاض القصر الرئاسي إلى نصب تذكاري، وبقيت رايات الثوار الخضراء تظهر على الجدران بعد وقت طويل من استيلاء الروس على غروزني. وبعد سنة، لم تبدُ نهاية الحرب في الأفق، لقد دمرّ الروس الغاضبون المبني بتفجيرات يمكن التحكم بها. وكل ما تبقى كان أكوماً كبيرة من الأنقاض الإسمتية. ولا يزال الناس يشيرون إليها بوصفها القصر الرئاسي.

موسكو

أعلن للرئيس يلتسن على الملأ في مناسبتين بأنه أمر القوى الجوية بإيقاف القصف على غروزني. ولكن القصف استمر.

في 5 كانون الثاني 1995، عاد سيرجي كوفاليف، المندوب السوفياتي السابق والمدافع عن حقوق الإنسان، إلى موسكو بعد قضاء ثلاثة أسابيع في غروزني. كان ضريحاً، ملوك القوى، ونظاراته السمكة تعلو أنفه، ولم يكن لدى كوفاليف سوى سؤال واحد: "من يكذب؟".

'سوف أضاع هذا السؤال بتصريف الرئيس: ماذا يدور في تفكيره عندما يخطب للناس؟ هل نسمي بإصدار الأمر الذي صرّح به علناً، أم أن القرار لم ينفذ؟... ربما لا يستطيع أحد أن يكتب عليه بصفاة كما يفعلون معنا، لأنه يجب أن يكون المرء أحمقاً للغاية ليصدق كل تلك الأكاذيب. وحاولت للدعاية النازية أن تبدو صحيحة على الأقل'.

2. الإنسان ضد الآلة

'من ترى أنشخصاً يحلزون هنا، وإنما مجرد آلات فقط'.

محارب شيشاني ينسحب من مدينة شالي، وهي آخر بلدة سيطر عليها الثوار في السهول.

كانت غروزني مكاناً يستطيع فيه جيش الثوار القتال، وكان فيها أقبية وجدران، وأماكن للنوم، والأكل، والاختباء، وأماكن لنصب الكمائن بالإضافة إلى نقاط استراتيجية حيث تستطيع وحدة مؤلفة من 20 رجلاً صدّ الدبابات الروسية القوية. لكن في السهول الجنوبية، لم يكن هناك أي من ذلك وهذا ما أدى لتراجع الشيشانيين.

تنتشر السهول على مساحة تعادل اتساع هولندا، ومعظمها خالية من الأشجار. إلى جانب غروزني، كان معظم الشيشانيين يعيشون في هذه المنطقة: بلدات ريفية مثل أوريوس مارتان، وشالي؛ وقرى خصبة مثل جيرمنشك، والمدينتان الوحيدتان إلى جانب غروزني أرغون وغوديرمز. إلى الجنوب من تلك المناطق، هناك إقليم الثوار الطبيعي في جبال القوقاز، حيث ترتفع التلال المغطاة بالأشجار من السهول، مع العشرات من القرى الموجودة في الوديان، وإلى الأعلى توجد المنحدرات الصخرية العارية والشاهقة، الأقل سكاناً، والتي توجد فوقها أخيراً القمم العالية المكسوة بالثلوج بشكل دائم.

عندما انسحب الشيشانيون من غروزني، كان الجنرال مسخادوف شديد الصلابة، ولم يأمر بانسحاب مباشر إلى الجبال، وإنما بالقتال من أجل كل شبر من الأراضي المنبسطة. وبالنسبة لمسخادوف، كانت تلك مسألة شرف، ومفتاحاً لصراع أوسع يحدد من كان على صواب: الكرملين، الذي صنف الانفصاليين الشيشان مع قطاع الطرق، أم الشيشانيين الذين أعلنوا دولتهم الشرعية المستقلة؟

آخرين مسخادوف في شالي: "يسمى الروس للسيطرة على غوديرمز، وبعد ذلك شالي، ودفعنا إلى الجبال. ثم سيعلمون بأنهم ربحوا الحرب، ويقولون إننا مجرد قطاع طرق نخشى في التلال. وكل ما أريده هو أن أظهر مستعداً لخوض حرب حقيقية، جيش ضد جيش، وموقع ضد موقع. كانت تلك رؤياه ونظرته في إيقاف الجيش الروسي المحمول على أرض منبسطة مكشوفة، باستخدام بضعة آلاف من جنود المشاة المتطوعين الذين يفكرون للتدريب العالي.

كانت الأسلحة الثقيلة ملكة الأراضي المنبسطة، وليس أسلحة جنود المشاة القصيرة المدى مثل القذائف المضادة للدروع والبنادق القاتلة في المدينة. كانت السماء تهتز وترتعد خلال المعارك الليلية. كان الشيشانيون لا يزالون يملكون صواريخ غراد التي ينطلق العشرات منها في نفس الوقت بلهب أحمر، نحو الصفوف الروسية، وتنفجر بوميض أصفر الواحدة تلو الأخرى. بعدها يأتي الرّد، بوابل كثيف من النيران التي تغطي الهدف أحياناً: المدفعية، وصواريخ الفراد التي تضيء انفجارها سماء الليل، ونيران المدافع الآلية والرصاص الذي يتخلف خطأ أحمر أو أصفر خلفه. كان هناك جمال في العنف.

كانت رشاشات المروحيات فعالة أكثر من ذي قبل، وكانت تظهر بسرعة على ارتفاع منخفض بحيث يمكن رؤيتها فوق أسطح المنازل أو صفوف الأشجار، فترجو من الله أن لا تلاحظك على الطريق أو في الميدان. كان المقاتلون يحفرون الخنادق، ولكن طائرات المراقبة كانت تصور مواقعهم وتقود نيران المدفعية إليها. إذا لم تكن المدفعية كافية، كانت الطائرات تستطيع قصف المواقع بدقة، وكانت أهدافها مرئية كأنها مرسومة على ورقة.

كانت دفاعات الشيشانيين الوحيدة هي الضباب والغيوم المنخفضة خلال شهور الشتاء، وعدد صغير من المدافع المضادة للطائرات. بشكل عام، كانت نيران الرشاشات تتسبب بانفجارات ضخمة، وكان الدخول في القرى أو الاحتماء فيها التغطية الوحيدة المتوافرة للمقاتلين، والتي قد تحاصرها العربات المدرعة الروسية خلال ساعات، والتي كانت تتحرك بسهولة عبر الحقول بعيداً عن مدى معظم أسلحة المشاة المضادة للدروع، وحالما تتعرض قرية ما للحصار، كان مقاتلو

البويفكس يوجهون القوى النارية الروسية باتجاه السكان المدنيين المحاصرين. الأسوأ من ذلك، أن الحرب الطويلة الأمد أظهرت إحدى نقاط الضعف الاستراتيجية الرئيسية للشيشانيين، والتي تتمثل بعدم وجود المنفذ نحو قوة حليفة عبر الحدود كما كان الحال مع الثوار الفيتناميين، الجزائريين أو الأفغان. الدولة الوحيدة التي تحاذي الشيشان هي جورجيا، ولكن المعابر إليها مغلقة بـجبال القوقاز. في الحقيقة كان هناك الكثير من المناصرين في داغستان إلى الشرق وفي أنغوشيا إلى الغرب، وكان يوجد طريق إمداد غير مباشر من تركيا عبر أذربيجان وبعد ذلك داغستان. لكن تلك المناطق الحدودية كانت بعيدة جداً عن المخاض الآمنة لأنها كانت تحت السيطرة الروسية جزئياً على الأقل، وكان على نشاطات الثوار هناك أن تبقى سرية. لم يكن لدى الروس، من ناحية أخرى، أي من هذه المشاكل. فقد كانت الطائرات المحملة بالقنابل تستطيع الطيران من قواعدها في جنوب روسيا في غضون دقائق، ومركزت المروحيات في مطارات غروزي، فيما كان جنود المشاة يستطيعون الانتقال بسرعة إما براً أو عبر السكك الحديدية.

كنت أعتقد في ذلك الوقت أن قوات مسخادوف - وكما وعد - كانت تحارب من موقع إلى آخر ضد واحد من أكثر جيوش العالم قوة، ولكن التضحية كانت بلا جدوى. في الحقيقة، كانت قواته تتراجع كل أسبوع إلى مناطق أبعد، ولم تكن سوى مسألة وقت قبل أن يفرّوا إلى التلال، ويتركوا خلفهم القرى المدمرة.

بينما كان مسخادوف يتشاور مع القادة في شالي، والذين كانوا يجلسون القرفصاء في الساحة الرئيسية فيما باشر أحدهم برسم خريطة في التراب، ظهرت مروحية فحاة في سماء القرية وفتحت النار عليهم، رد الشيشانيون بفتح نيران رشاشاتهم من نافذة فوقنا. كان من المتوقع حدوث قصف مدفعي في أي لحظة، وبدأنا بالاختباء. كانت حرب مسخادوف النظامية تدور في كل المناطق المحيطة بنا. ولا داع للقول إنه غادر مع حراسه الشخصيين الساحة الرئيسية بسرعة.

رغم ذلك، كان للاستراتيجية منهج قاس. ألحّت حكومة جوهر دودايف بأنها المكافئ القانوني للكرملين منذ البداية. ولا يمكن قبول أي محادثات سلام ما لم

تكن بين دولتين مستقلتين، وليس بين روسيا وبعض الأقاليم المنفصلة. قام مسخادوف بتوسيع تلك المواجهة إلى ميدان القتال. وأدعت روسيا بأنها تحارب قطاع الطرق الشيشانيين، ولكن مسخادوف أجبر الجيش الروسي على الاعتراف بأنه يحارب جيشاً شيشانياً نظامياً، مهما كان الثمن.

تصويتين يورت

كان مسخادوف مطالباً للرأس، يركض على طول الخندق الملتوي والموحل خارج قرية تسوتسين يورت، وبعد ذلك عبر أرض قاسية ثم أعلى مرتفع أرضي طبيعي. وزحف إلى أعلى المرتفع وطلب مني للحاق به. وسلمني المنظر. كانت الدبابات الروسية تتقدم على بعد متري متر في الحقل المنبسطة. كانت مدافع الدبابات الطويلة تتوجه فوق رؤوسنا باتجاه القرية خلفنا.

قال سعيد: "لا أريد أن أقاتل، وأتمنى أن يوضع دوداييف في حلبة ملاكمة مع يلتسن ليستقتلا بنفسيهما. لكنني أدافع عن وطني. لقد فقدنا غروزني وأرغون، وقد نفقد شالي قريباً إذا لم ينصرنا الله، وقد نفقد تسوتسين يورت أيضاً. لا يمكن للمرء أن يتوقع مني التخلي عن سلاحه لأن ذلك سيخيف. لقد تحدثت خلال المفاوضات مع القادة الروس في وسط هذا الميدان تماماً. إنهم بشر، إنهم لا يريدون أن يحاربوا بندقاً، إنهم يريدون الذهاب إلى وطنهم. لا أحد يريد القتال".

لدينا هذا الخندق هنا، لكنه لا شيء في الواقع. إنهم يستطيعون جعل الصوراريخ تسنهال عليه في أي لحظة يريدون. إنهم يملكون جميع المعدات. إنهم لا يحاولون اجتياحنا براً، لقد توقفوا عن فعل ذلك منذ معركة رأس السمعة الجديدة في غروزني. سوف يبدلون ببساطة بإطلاق النار من مسافة بعيدة، لأنهم يعرفون كيف يقومون بذلك. وسنموت إذا كان يتوجب علينا ذلك".

فرزت الحرب في السهول المحاريين المتمرسين من الرجال الذين يقاتلون بشكل جزئي في أثناء ارتفاع حمى الوطنية خلال المعركة في غروزني. كانت الحافلات والشاحنات، التي امتلأت وأجهلتها بالشظايا في شهري شباط وآذار، تنقل الرجال الذين ظهر عليهم التوتر والانفعال. كما ظهر التوتر أيضاً في القرى، التي أعلنت نفسها حيادية خوفاً من التعرض للقصف، ومنعت دخول مقاتلي البويكس إليها.

بقيت أوريوس مارتان، التي كان لقادتها تاريخ في معارضة دوداييف، خارج الحرب منذ البداية، ونتيجة لذلك تمتعت بأمان فريد من نوعه في ذلك الاضطراب

الكبير، وتضخم عدد سكانها حتى أصبح أكثر من 50.000 شخص. خارج قرية غويي، والتي تقع على مسار التقدم الروسي وتمتلك قوات مسلحة قوية معادية لدودايف، تناقش الكبار بحدة مع مجموعة من المقاتلين الشيشانيين ومع بعضهم البعض. لقد كانوا أمة واحدة، ولكنهم انقسموا الآن للأبد، وكان الزعماء يرتدون معاطفهم وقبعاتهم الطويلة، فيما كان المحاربون اليافعون يرتدون ثيابهم الفضفاضة البيضاء وأحذيتهم الملونة بالطين. مثل هذه القرى كانت خائنة بالنسبة للبويكس، لكن سكان قرية غويي وكثيرين آخرين رأوا تدمير غروزني، وكانوا يعرفون أن مجتمعهم القروية أكثر هشاشة من ذلك بكثير. وكانوا يعرفون أيضاً أن الروس لن يتوقفوا عند حد معين، ولهذا عملوا حتى لا تكون قراهم مناطق حرب.

اعتزل الكثير من البويكس العمل في ذلك الوقت، إما لأنهم لم يروا أي أمل في الاستمرار، أو لأنهم كانوا غير قادرين جسدياً. ونشأ البعض الآخر مريضاً من العناصر الإجرامية التي انتشرت في قوى المقاومة، وأمراء الحرب التافهين، والقوائم، وقطع الرقاب بحيث لم يعد هناك شيء أفضل بالنسبة لهم من القتال. وكانت الأسلحة والذخيرة تنفذ من المحاربين في كل مكان.

وقرر غسان، وهو شاب في بداية الثلاثينيات، التوقف عن القتال في آذار والعودة إلى عائلته: "قلت إنني لن أكون جزءاً من تلك اللعبة بعد الآن. إن لديهم الطائرات التي تقصفنا والدبابات التي تطلق علينا النار، ولغاية اليوم لم أرَ طائرة أو دبابة واحدة إلى جانبنا".

وتكلمت إليه طويلاً بعد كل ما حدث، ولكن سرعان ما خيمت المرارة والحزن على صوته: "كنا تقريباً آخر الناس الذين قاتلوا في غروزني. وعندما انسحبنا، قمنا بعبور نهر سونزها. ولم نستطع استخدام، وغضنا إلى أعناقنا في تلك المياه المتجمدة. وتعرضت للإصابة مرتين بسبب الشظايا، ولقي ثلاثة من 18 شخصاً في مجموعتي حتفهم. ولكني فهمت الآن بأن تلك لم تكن سوى مسرحية هزلية. وأستطيع الخروج الآن وقتل جندي روسي، ولكن تلك ليست معركة قتالية".

"أعتقد أن دودايف كان يعتمد على مساعدة جيراننا القوقازيين، ولكن لم يساعدونا أبداً. ولم يساعدنا أحد. وكان رجال الأعمال وأفراد العصابات أول من

غادر. وذهبوا جميعهم إلى بيوت كبيرة بأمان، وتركوا الناس الفقراء خلفهم والذين حملوا السلاح وقتلوا. ويبدو أننا قمنا باختيار خاطئ".

لكن مقابل كل بضعة مترددين، أفرزت الحرب مقاتلاً انتحارياً، وهم جوهر القوة القتالية التي قاومت منذ اليوم الأول والتي ستقاتل حتى النهاية. وفي قرية ستاري أنشخوي الجنوبية، قال رسلان الثائر الطويل الأحمر الشعر والذي شارك في كل جبهات القتال، أنه كان يحاول التمسك بموقعه؛ وكان ذلك الهدف الوحيد.

ومثل غسان، كان يعرف بأنه لا يستطيع تعطيم الجيش الروسي. وقال رسلان: "يمكننا إيقاع رتل عسكري في كمين، وحتى تدمره. ولكن لديهم اتصالات، ويمكنهم استدعاء المروحيات والطائرات خلال ست ثوان فقط. وفي البداية، لم نتخيل ذلك مطلقاً؛ القصف المدفعي والجوي. وكنا نعتقد أننا سنحوض قتالاً قريب المدى؛ رجل لرجل. كيف بوسعنا أن نعرف ما سيحصل؟ واعتقدنا أننا سنحارب في المدينة، ولكن بعد ذلك انتقل القتال إلى القرى".

وبدلاً من الاستسلام، دخل رسلان حرباً شخصية من الندم سوف تستمر للنهائية. وقال: "يجب أن نتابع حياتنا الآن".

وكنا نقابل بعض الشخصيات الضعيلة الحجم التي تحمل البندقية في يدها ضمن مقاتلي البويفكس. وكان هؤلاء أطفالاً فقدوا كل شيء وأصبحوا محاربين عديمي الشفقة. وكان ماجومد، يتيماً يبلغ من العمر 13 سنة، والذي قابلته في آذار. وكان يرتدي عمامة خضراء حول خوذة التمويه، وتندلّى أربع قبائل يلوية من شريط قطني على صدره الصغير. ولم يصبح صوته رجولياً بعد، ولكنه قتل وسوف يقتل من جديد.

وبدا كلامه: "ليس لدي أم، واختفى والدي قبل الحرب. وكان لدي ستة أعمام عندما بدأت الحرب، ولقي اثنان منهم حتفهما، ولم يتبق لي شيء الآن. ولهذا ذهبنا للقتال، ولكن أقاربي منعوني من الذهاب مرتين واستسلموا بعدها. ووجدت مجموعة من المقاتلين وسألوني لماذا لست في المنزل. وشرحت لهم السبب؛ أعطوني بندقية، وسأمضي في هذا الطريق حتى النهاية".

وتعرض ماجومد للإصابة مرتين. واخترقت رصاصة قنّاص ساقه اليمنى، وأصاب شظية ظهره وقدمه اليمنى. وقال: "أنا مندهش لأنني ما زلت على قيد الحياة". وكان من الصعب التحدث إلى ماجومد لأن عمره لم يكن يتجاوز 13 سنة فقط، ولكن نظرته تبدو لرجل يبلغ من العمر 20 سنة، وعندما رأته يلتقط بندقيته الكلاشينكوف بطول جسده تقريباً، كان المنظر مضحكاً، ثم مذهلاً، وبعد ذلك حزيناً بشكل بانس. وقال: "كنت أذهب للمدرسة من قبل، وكنت طبيعياً. أما الآن فإن حلمي الوحيد بأن يغادر الروس من هنا".

ومنذ اليوم الأول للمعركة، تم إجبار الكثير من البويفكس على القتال ثأراً لقيام الروس بقصف أقاربهم وأصدقائهم. وكان العنف الشديد ضد المدنيين، وخاصة من قبل القوى الجوية، حافزاً لتطوع الكثير من الناس للقتال مع الانفصاليين. وكانت القنابل تسقط في كل مكان، دون منطق أو تخطيط، على الطرقات، والبيوت الصغيرة، والمباني السكنية، والغابات، وحتى في وسط الحقول الواسعة الفارغة. وقتلت أو جرحت الغارة الجوية على مدينة شالي في بداية كانون الثاني ما يقارب 100 شخص كانوا يتجمعون في السوق. وعادت الطائرات لتقصف المستشفى في نفس اليوم.

ولأن الشيشان مكان صغير، لا يمكن لأحد أن ينسى الحرب. وربما لم تعرض قرية أحدهم للقصف، ولكن الأجواء كانت مليئة كل يوم بأصوات الطائرات الحربية والانفجارات. وفي مناسبات نادرة، كانت السماء الرمادية تصبح صافية، وكانت الطائرات تحلق على ارتفاع منخفض وتنطلق عبر الغيوم، ويمكن الشيشانيون أخيراً من رؤية معذبيهم. ويسرع الآباء لإبعاد أبنائهم عن الشوارع، وحتى في القرى المعادية للدوايف كان الرجال يرفعون أبصارهم عالياً ويلعنون. وقرأت عن رجل كان يطلق النار يومياً مع ابنه الصغير على صورة قائد القوى الجوية الروسية بيوتر دينكن.

وفي شباط، أسقط مقاتلو البويفكس إحدى تلك الطائرات النفاثة التي كانت تطير على ارتفاع منخفض قرب أول في الشيشان باستخدام سلاح مضاد للطائرات. وضحك مقاتل شيشاني كان يجلس لالتقاط الصور بجانب مؤخرة

الطائرة التي تحمل نجمة السوفيات الحمراء وقال: "لا مزيد من الطيران بالنسبة له".
وتبعثر بقية الحطام عبر الميدان المليء بالثلج.

وسألت عن الطيار فقال لي مقاتل آخر يدعي سلطان: "حاول الخروج من القمرة، لكن مظلته خذلت، وكان لا يزال حياً عندما ضرب الأرض، ولكن قدميه تحطمتا ويديه ممزقتا. وكانت الكلمات الوحيدة التي قالها: "لديّ منزل وابن".

وسألت عما حصل بعد ذلك، ومرر سلطان إصبعه على عنقه وابتسم، ولكن مقاتلاً آخر قاطعه بسرعة: "لا، لا، إنه مزح. لقد أخذناه إلى المستشفى ولكنه كان ميتاً عندها". ثم قال بعد أن شاهد أنني صدقت سلطان؛ كانوا يخيرونني دائماً بأن الثوار يقطعون رؤوس الجواسيس والطيارين: "أظهرت وثائق الرحلة أنه قصف غروزي 17 مرة. هل تستطيع أن تخيل؟".

"بعد سماعه أن الشيستانيين، الذين حاصروا أنفسهم في ثلاثة بيوت ورفضوا الاستسلام، يطلقون النار بكثافة وأنهم قتلوا المقاتم وجرحوا عدة جنود، جلس فولكفسكي (رئيس الأركان) مع العقيد برومر الذي يقوم المدفعية وفسيفولوفسكي ويوغدانوفتش لإيجاد حل للمشكلة.

... وتم إحضار أسلحة خفيفة، واخترق الرصاص البيوت الثلاثة من الطرف إلى الطرف. وبعد الجولة الثانية، مارع الناس ليقولوا بأننا نضرب شعبنا من ناحية أخرى. وإذا قمنا بتأمين جانب واحد بالرماة الماهرين، فإن ذلك سيفتح طريقاً أمام العدو للهروب. ولم يكن ممكناً التفكير بذلك، ولهذا أعطيت الأوامر لإيقاف إطلاق النار وإحراق المنازل.

... وشيئاً فشيئاً، توسعت النيران لتطال المنازل الآخرين؛ ولم يكن أمام العدو سوى الاستسلام أو الموت حرقاً.

... توقف إطلاق النار عندما تقدم تاترشكوف وصرخ بالشيستانية أنه يريد للتفاوض. واستمع المدافعون للعرض وتشاوروا مع بعضهم ليضع دقائق، وبعد ذلك ظهر شيستاني نصف عارٍ، وقد تحول لونه إلى الأسود من الدخان، وألقى خطاباً قصيراً، تبعه وابل من النار من كل الفجوات.

وكان لأقواله التأثير الآتي: "لا نريد الاستسلام، والمعروف الوحيد الذي نطلبه من الروس هو أن يخبروا عائلاتنا بأننا متنا مثلما عشنا بعد أن رفضنا الخروج لأي قمعجنبي".

وانشد الشيشانيون، العازمون على الموت بقوة، أغنية موتهم، وكانت أصواتهم مرتفعة في البداية وتنخفض شيئاً فشيئاً كلما تناقصت أعدادهم بتأثير النيران والنخان... ومن الألقاض التي يخرج منها النخان، زحف ستة جرحى داغستانيون، الذين بقوا على قيد الحياة بما يشبه المعجزة! ورفعهم الجلود وحملوهم إلى الإسعاف. ولم يَمُتَ للقبض على أي شيشاني حياً؛ ونهض لثتان وسبعون رجلاً حيلتهم في السنة للهيب!.

تطويق الشيشانيين سنة 1832 في قرية غير منشوك كما وصفه الجنرال الروسي تورناو.

كانت ساماشكي، الواقعة غرب الشيشان، قرية سهلية مثالية - يعيش حوالي 4.000 شخص في مناهة مزدهرة من المنازل القرميدية المحاطة بالبوابات الخضراء - الزرقاء، والباحات، وحيوانات المزارع، ودوالي العنب والأراضي المزروعة بالخضار. وإذا كانت غرورزي ذاتعة الصيت بسبب ممر مركز المقاتلين فيها، فإن ساماشكي هي المدينة المنسية القرية العادية التي لم يسمع بها أحد، والتي أصبحت فجأة عرضة لدوامة من العنف الوحشي والبدائي لدرجة أن هؤلاء الذين اعتادوا على العنف تعرضوا للصدمة فيها.

بدأ كل شيء في نهاية كانون الثاني مع واحدة من تلك المناوشات القصيرة والتي لا تحمل أي معنى، والتي انطلقت في جميع أنحاء الشيشان بعد أن ترك المقاتلون غرورزي تدريجياً واتخذوا مواقع لهم في قراهم. واندفع رتل مكون من حوالي اثني عشرة دبابة، وحاملات الجند المدرعة وشاحنة اتصالات في الجزء الشمالي من ساماشكي عند غروب الشمس في يوم ضبابي وبارد. ولم يكن هناك تحذير مسبق، ولا قصف مدفعي تمهيدي، ولا دعم جوي. ودخل الرتل، الذي كان يتحرك بتشكيل متقارب، إلى ما كان الجميع يعتبرها قرية عدائية. وربما يكون الروس قد ضلّوا الطريق أو أن أوامره كانت غير واضحة.

وكان ردّ فعل رجال ساماشكي ماثلاً لرد فعل كل القرويين في الشيشان على الغزو المسلح: قفز حوالي 30 مراهقاً ورجلاً إلى شاحنة مع أسلحة مضادة للدروع وبنادق، وهم يصرخون بمتعة ويطلبون منا البقاء بعيداً. وتسابقوا إلى طرف القرية واختبأوا، وعندما أصبح الرتل في مدى أسلحتهم، فتحوا عليه النار.

وفي الصباح التالي، كانت جثث ثلاثة شبان روس لا تزال ملقاة في الوحل تحديق نحو السماء، والأساخ والدماء في أفواههم المفتوحة. وتناثرت حولهم بقايا عرباتهم وئساب رفاق السلاح القتلى. وأصاب قذيفة مضادة للدروع مستودع ذخيرة إحدى الدبابات، واستقر برحها على بعد 10 أمتار عن بقية الآلة. وقد تنحّت شاحنة الاتصالات إلى جانب الطريق.

وكان الاشتباك بدون نظام أو تخطيط. ولم تكن تلك حرباً بالنسبة للقرويين في ساماشكي؛ كانت دفاعاً عن الوطن. وهذا ما كانت تعتمد عليه القيادة الانفصالية عندما اتسع نطاق الحرب إلى خارج غرورزي.

وصرخ رجل غاضب مشيراً إلى الجثث: "هذا ما حصل للروس عندما أتوا إلينا وهم سكارى!". وقال رجل آخر يدعى ماجومد: "ليس لدينا مكان آخر نذهب إليه. هذا وطننا ولن نغادره. ولن أبقى لأنني أكثر شجاعة من الآخرين، وإنما هي روحنا التي تدفعنا للبقاء. لقد ولدنا معها، ورضعناها مع حليب أمي".

وكان الرد بسيطاً: حاصر الجنود الروسين في عرباتهم المدرعة ساماشكي، ثم قصفوا القرية بقذائف الدبابات ومدافع الهاون. ثم جاءت المروحيات لتقصّف الشوارع والمنازل. ولقي حوالي 20 شخصاً حتفهم أو تعرضوا للإصابة، وكان هناك جرحى ماتوا بسبب النزيف لأنه لم يستطع أحد إخراجهم من القرية المحاصرة. وبعد خمس ساعات، ابتعدت العربات الروسية المدرعة عن القرية.

كانت الغارة العقابية روتينية، ولكن الأسوأ كان قادمًا. وأرادت القوات الروسية، التي كانت تشق طريقها عبر شرق الشيشان، أن تُحكم سيطرتها في الغرب ولهذا كانت بحاجة إلى ساماشكي. وخوفاً من الأسوأ، طلب الكبار من جيش البويكس مغادرة القرية، ولم يتبق سوى حوالي 50 رجلاً محلياً يحملون السلاح. ولم يكن ذلك كافياً بالنسبة للروس الذين أرادوا استسلام المدينة بالكامل. وكانت هناك اشتباكات عديدة مع القوات التي حاولت الاقتراب من القرية، وهناك حالات قام بها المزارعون المحليون بقيادة جرارهم فوق مناطق الألغام الأرضية التي تركها الروس. وفي كل أسبوع، كان الكبار والقادة الدينيون يطلقون للتفاوض مع القوات الروسية التي نزلت في الحقول المجاورة، وكانوا يلتزمون

منهم أن لا يبتاحوا القرية، والتي لا تشكّل أي تهديد. ولكن ساماشكي كانت قد حصلت على سمعتها، وكانت شياطين الانتقام والرغبة في سفك الدماء قد انطلقت.

وفي 6 نيسان، سلمت قوات وزارة الداخلية الروسية التي تحاصر القرية إنذاراً يقول: عند الساعة السابعة صباحاً من 7 نيسان، يجب أن تسمح ساماشكي للجنود الروس بالدخول، ويجب تسليم 264 بندقية، ورشاشين وعربة جند مدرعة.

وأجاب الكبار بأنه لا يوجد لديهم ذلك العدد من الأسلحة في القرية، وأنهم يحتاجون إلى المزيد من الوقت لمحاولة نزع فتيل التوتر. ولكن الإنذار استمر. وأخير العقيد الكبار بأن القوات ستدخل القرية في الصباح التالي، وأنه إذا كان هناك إطلاق نار من أحد المنازل، سيتمّ تدميره بالدبابات. وكانت تلك هي القواعد.

وفي تلك الليلة، بدأت المدفعية الروسية بإطلاق النار على ساماشكي. وبدأ القصف الجوي قبل بضع ساعات من انتهاء مهلة الإنذار. وفي الصباح الباكر من 7 نيسان، تعرضت القرية لوابل من نيران المدفعية الآلية المستمرة. وعند الظهر، حاولت مجموعات كبيرة من القرويين المغادرة، ولكن معظمهم عاد بسبب إطلاق النار. والتقّى وفد من الكبار مجدداً مع ضباط وزارة الداخلية الروسية، والذين أخبروهم مجدداً: "سلموا الأسلحة".

وكانت الرواية الرسمية لما حدث أن القوات الروسية تقدمت لتدخل القرية واشتبكت في معركة شرسة مع أكثر من 300 مقاتل مجهزين بالسلاح من جيش الانفصاليين، وقد أظهر المهاجمون بطولة كبيرة. وقالت إيتار - تاس في تقريرها بأن 130 من مناصري دودايف لقوا حتفهم خلال المعركة.

وتقول رواية الناجين، وشهود العيان وجماعات حقوق الإنسان أن قوة وزارة الداخلية المكوّنة من 350 فرداً، بما فيها وحدات من النجبة، لم تلق سوى معارضة محدودة مما يصل إلى 40 مواطناً محلياً وليسوا دخلاء من الجيش المركزي، ثم بدأت تلك القوة بتنفيذ مجرزة وسلب القرية بشكل منظم. ووفقاً لتقرير ميموريال لحقوق الإنسان، كان هناك أكثر من 100 جثة بعد القتال، معظمها لرجال غير مسلحين، ونساء، وأطفال، وشيوخ، وليس لمقاتلين شيشانيين.

ووفقاً للدراسة ميموريال، لقي العديدون حتفهم نتيجة لقصف المدفعية والهاون التمهيدي. ومات المزيد عندما اجتاحت القوات الشوارع في عربات المدرعة، وأطلقت النار من رشاشاتها ومدافعها الثقيلة على المنازل وكل من رآوه يتحرك. وبدأ ما كان الرميون الروس يسمونه "التطهير" في ساماشكي في صباح الثامن من نيسان. وكنت موجوداً أثناء تلك العملية، وشاهدت وحشية الجنود الروس بعد أن توقفت المقاومة المسلحة عن القتال. وقال سكان ساماشكي بأن الجنود الروس أحرقوا النساء وهنّ أحياء، واصطادوا الشيوخ في الشوارع باستخدام بنادقهم، وقذفوا قنابل يدوية في أقبية المنازل حيث كانت العائلات تختفي، وقاموا بإعدام الناس في منازلهم.

وبالطبع، أنكرت وزارة الداخلية والحكومة ذلك، واعتبر البرلمان الذي يسيطر عليه الشيوعيون أن تقرير ميموريال مثير للسخرية. ولكن المدافعين عن القضية واجهوا كما هائلاً من تقارير الشهود الذين كانوا على قيد الحياة، إضافة إلى وجود جثث المدنيين المحترقة والمصابة، والتدمير الذي لحق بالمباني نتيجة إضرام النار فيها عمداً وليس نتيجة القتال.

واحتُرقت الكثير من المنازل من الداخل، ولم تنفجر نتيجة تعرضها لقصف مدفعي. وانتشرت آثار الرصاص وشظايا القنابل على الجدران الداخلية مثل الرذاذ، فبما لم تظهر أي آثار للعنف على تلك كانت المنازل التي لقي فيها المدنيون حتفهم.

وكانت الإصابات البشرية، بحسب ميموريال، مروعة: أكثر من 100 قتيل معروفة أسماءهم وعناوينهم. ومن بين هؤلاء كان عدد الرجال بين 19 - 45 سنة، وهو عمر حمل السلاح بنشاط، 45 رجلاً. وكان البقية 13 امرأة وسبعة أطفال تحت سن 18، و19 رجلاً بين 46 - 60 عاماً، و20 رجلاً فوق 61 سنة. وكانت أصغر ضحية تبلغ من العمر 15 سنة، وأكبر ضحية 96 سنة. وكان هناك أربعة سكان من أصل روسي مصابين في منازلهم. ونجا أحدهم، ودعمت الدلائل الحسية روايته للأحداث: جدار داخلي مليء بثقوب الرصاص وبحيرات من الدماء أسفل.

وكان يوسف سعد الله أحد الذين نجوا من مذبح ساماشكي، وهو رجل

كهل يعيش في شارع فيكونيا. وقام بإبعاد عائلته عن القرية قبل انتهاء مدة الإنذار الأساسية فيما بقي هو فيها على غرار عادة الشيشانيين، وكان ينوي المغادرة في الدقيقة الأخيرة. وانتظر طويلاً وكان مجبراً على المكوث في منزله الفارغ حتى نهاية القتال.

لم يكن هناك قتال في منطقته خلال ليلتي السابع والثامن من نيسان. ولكن في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن، ركض الجنود في شارعهم وهم يصرخون: "أيها الكلاب، اخرجوا"، وأطلقوا النار بعدها من بنادقهم على البيوت. وقال سعد الله أنه ركض واختبأ في قبوه الصغير عندما وصل الجنود إلى بابه.

"جلست متكئاً على للجدار الأيمن. وكنت قد وضعت هناك سريراً صغيراً لأرتاح عليه عندما يكون هناك خطر. وأطلق الجندي النار على ذلك المكان تماماً. وبعدها كان على وشك أن يغادر عندما قل له زميله: "قد يكون هناك شخص ما على قيد الحياة هنا". وعاد ورمى بقنبلة يدوية، ثم سمعت صوتاً خفيفاً تبين فيما بعد أنه لتهدئة البندقية. وقلت في نفسي: "حسناً، إنها النهاية. لقد انتهيت ولريد أن أموت بهدوء". ولم أكن حتى خائفاً. وانفجرت القنبلة وانكسر السرير الخشبي المتين، ولم أسمع شيئاً بعدها. لقد انفجرت القنبلة تحت للسرير، وأصاب شيء ما لكتفي وساقي، وسقطت على ركبتي أصماً تماماً.

... وبدلوا يغادرون، واعتقدت أنهم ذهبوا. وتفتحت سلاقي وحركتهما إلى اليمين والشمال، وكلفنا على ما يرام وليستا مكسورتين. لقد ضربهما شيء ما لا أدري ما هو بالضبط. وكانت اللماء تسيل من ذراعي. وخرجت من المنزل. وكلوا قد أخذوا للخزنة الصغيرة التي أحتفظ فيها ببعض النقود والأوراق. وكان لثان منهم يحاولان فتحها فيما كان الثالث يحرسهما وهو يطلق النار على المنزل. يا إلهي! إذا رأوني، سيحاولون قتلني مجدداً للمرة الثالثة".

وفي نهاية شهر آذار، انفجر العنف واندفعت الدبابات الروسية عبر آخر الدفاعات الشيشانية في السهول. وكانت كل القرى الكبيرة ومدن السهول - أرغون، وستاري أتاغي، ونوفي أتاغي، وساماشكي، وأتشخوي مارتان - تحت الحصار، أو تم الاستيلاء عليها أو هجرها البويفكس. ولم يتبق عندها سوى غوديرمز، غير المهمة استراتيجياً بالنسبة للانفصاليين، وشالي التي جعلها الثوار عاصمة لهم بعد أن فقدوا غروزني. وبدأ الثوار بالتراجع نحو الجبال.

وانجته المقاتلون والمدنيون إلى التلال باتجاه الجنوب مستبقين التقدم الروسي. وحتى في الليل، كان آلاف الأشخاص يشكّلون أرتالاً من الشاحنات، والجرارات، والدرجات النارية، والسيارات في طريقهم إلى الوديان الضيقة، وكانت قوافلهم تشكل سلاسل من الأضواء المتوهجة. وتشير التقديرات إلى أن حوالي 500.000 شخص - أي نصف سكان الجمهورية - هجروا قراهم ومنازلهم، وهربوا إما إلى أنغوشيا وداغستان أو إلى قرى أخرى ضمن الشيشان.

وبفضل الضيافة القوقازية، لم تجد غالبية هذا الطوفان البشري نفسها في معسكرات اللاجئين، وإنما وجدت مأوى لها مع الأقارب والأصدقاء أو حتى الغرباء. واستضافت المنازل في القرى الجبلية، مثل فيدنو ودارغو - والتي كانتا مقر الإمام شامل قبل قرن مضى - ما يصل إلى 20 شخصاً. وامتلأت المعسكرات الصيفية القديمة ومعسكرات رواد الشباب الشيوعي، والتي تم بناؤها للمصطافين السوفيات، باللاجئين وكان لكل عائلة غرفة صغيرة.

وخصصت منظمة "أطباء بلا حدود" الشجاعة جراحين لمشفى فيدنو، واستعدت للقيام بعملية إخلاء كاملة للسهول. وسرعان ما انتقلت المستشفى في توستين يورت، التي أصبحت مركزاً لتجمع الجنود الروس، إلى مبنى مدرسة في القرية المجاورة تدعى باتشي يورت، رغم مقاومة القرويين لذلك بادئ الأمر خوفاً من تعرضهم للقصف.

وقد يصبح الهروب صعباً بقدر البقاء. وتبدّل الوضع العسكري بسرعة كبيرة في نهاية شهر آذار حيث لم يعد باستطاعة المرء الذي يمشي على الطرقات أن يعرف فيما إذا كان سيواجه موقعاً روسياً جديداً أو سيتعرض للهجوم من الجو. وتعرض معلم مدرسة، أثناء هروبه من الروس في مسكر يورت إلى الشمال من أرغون، مع ثمانية أطفال صغار محتشدين في سيارته، لإطلاق النار من مدفع رشاش. وقال شاربودين عبدو أصلانوفيتش: "لقد تعرضت السيارة لإطلاق نار متكرر، وتعرضت للإصابة بذراعي، ولم يتعرض أي من الأطفال للأذى". وكان يبلغ من العمر 57 سنة، ولا يزال يشعر بالصدمة خصوصاً أن ساعديه كانا ملفوفين بالضمادات الملوثة بالدماء. وأضاف: "عملت 33 سنة. وكنت مدير مدرسة 15 سنة، ولا أعرف الآن فيما إذا كان ساعداي سيعملان من جديد".

وكان الهدف النهائي للاختراق الروسي السيطرة على شالي، التي أعلنت نفسها عاصمة جديدة لجمهورية التوار. وعندما اتخذ الروس مواقعهم، لم يبقَ أحد عدا بعض المقاتلين، والمدنيين الذين ليس لديهم أي مكان يذهبون إليه، وحفنة من الناس الذين يلتزمون بالمبادئ مثل شيخ بوجه أحمر وأسنان ذهبية، والذي قال لي عندما التقيته: "إنني أدافع عن وطني".

وفي جسر عصيب، لم يكن أمام الشيشانيين سوى أملين: الله ومسار الهروب إلى الجبال، والذي يبلغ طوله ستة كيلومترات إلى الجنوب. وفي إحدى الليالي في شالي، بدأت الطائرات تحلق أثناء إقامة المؤذن للصلاة عبر مكر الصوت من مثذنة الجامع. وكان الصوتان - إسقاط القنابل وصوت الشيخ الهادئ والحزين - متنافرين للغاية، وشعرت أنه على أحدهما أن يطغى على الآخر. وريح صوت الصلاة، وحتى عندما بدأت القنابل تسقط على أطراف البلدة مضيئة السماء بألوان صفراء باهتة، بقي المؤذن يرفع الأذان. وبعد أن ابتعدت الطائرات، كان ما يزال يرفع الأذان.

وانسحب صديقي موسى، الذي كان يرافقني على خطوط الجبهة بسيارته الأودي، من شالي في اللحظة الأخيرة. وتعرضنا لهجوم بصواريخ غراد، ونجونا بأعجوبة. وتحول العالم إلى بحر أحمر وأسود، وتغير ضغط الهواء، وتساءلت لبرهة فيما إذا كنت على قيد الحياة. وأخطأت شظايا أحد الصواريخ مقدمة سيارتنا بتمر واحد - وتفحصت الجدار الذي أصابه الصاروخ فيما بعد - وضرب الصاروخ الثاني المنزل الذي كان إلى يسارنا تماماً، وضرب صاروخ آخر الجسر على بعد 20 متراً أمامنا، ونزل آخر في مكان ما على الطريق خلفنا. وحصل كل ذلك في غضون ثوانٍ بطيئة الحركة، وشكل الحطام فوق الشارع وسيارتنا قبل أن يتلاشى كل شيء في غيمة سميكة من النيران والدخان، والتصقنا بالرصيف وامتلاأت أذناي بالصوت المرعب لصراخات امرأة.

وكانت النجاة محض صدفة. ولم أستطع فعل شيء سوى الصلاة والتضرع لله شكراً. ولم يكن ممكناً أن نحصل المعجزة مرتين على التوالي، وقرر موسى أن يهجر منزله وبلدته. وحرّر كلب الرعي القوقازي الذي كان لديه، وترك له بعض

الطعام. وعندما خرجنا، بدأ موسى بالبكاء، وبعد إيصالي إلى سيرزين يورت، وهي أوّل قرية على سفوح القوقاز، تابع إلى منطقة هادئة ليكون وحيداً. وكان من الصعب على الرجال الشيشانيين البكاء، وقال: "أرجوك لا تخبر أحداً هنا".

واستخدم المحكوم الروسي الأخير على شالي، والذي بدأ في 29 آذار عام 1995، أسلحة ثقيلة كنت أعتقد أنها لا توجد سوى في الأفلام. وكان المحكوم ذروة الحملة العسكرية في السهول، وهو يجعل المرء يتساءل كيف استطاع الشيشانيون الصمود في تلك الشهور الباردة. وكانت الطائرات تأتي في تشكيلات سداسية، وتخلّق ثم تنقض من اتجاه الشمس الساطعة. وقصفت تلك الطائرات أطراف مدينتي شالي وسيرزن يورت، وكنت جالساً على سفح التل أراقب. وبعد الطائرات، جاءت المروحيات التي تطير على ارتفاع منخفض، وقصفت الضواحي. وكان هناك مقاومة في شالي، وتعرضت المروحيات لنيران بأضواء صفراء من أطراف البلدة. ولكن معظم المحاربين كانوا قد انسحبوا ليتجنبوا الحصار، وهو تكتيكهم المعتاد. وأخيراً، بدأت المدفعية بإطلاق دفعات من القذائف، والتي نتج عن انفجارها تصاعد دخان أسود وبني كثيف بين الأبنية التي كان يوجد فيها المدافعون. وقبل أن تبدأ الدبابات بالاتجاه جنوباً لإكمال حصار البلدة، بدأت المدفعية بقصف خندق محفور عبر الحقل كان لا بد أن تعبّر الدبابات. ورغم أن الخندق لم يكن طويلاً، إلا أنه تعرض للقصف عشرات المرات. وكانت تتصاعد أعمدة السرحل والدخان واحدة بجانب الأخرى في كل مرة يتعرض فيها ذلك الخندق للقصف، وبلقة ممتازة.

في 30 آذار سقطت غوديرمز بيد الروس، وسقطت شالي رسمياً بعد ذلك يوم واحد. ومضى آخر المقاتلين في البلدين جنوباً نحو التلال. قال رستم، والذي يبلغ من العمر 20 سنة، وعضو في كتيبة شامل باسايف الأبخازية، والذي انسحب لثوّه من شالي: "هذه البندقية الآلية عديمة الفائدة. لا يوجد أشخاص يقاتلون هناك، وإنما مجرد آلات. تدوي المدافع لنخسر ثلاثة أو أربعة منا. ويفقدون نصف ملابسهم وأرجلهم. وليس لدينا ما نأكله أو نشربه. انظر إلى نحولي. لقد كنت بطلاً في الكاراتيه يوماً ما".

وأضاف: "لا توجد مشكلة، إنَّ الله معنا، سنذهب إلى الجبال، وهناك سيكون الوضع أفضل بكثير بالنسبة لنا".

شالي

في مستشفى الأمراض العقلية قرب شالي، كان المرضى المهجورون يعيشون مثل الحيوانات، وتحيط بهم فضلاتهم، ويصرخون ويضحكون في البرد القارس. خرج بعضهم وضحك عندما حلت الطائرات الحربية فوقهم.

بحلول شباط 1995، لم يبق سوى 24 مريضاً في المستشفى والتي كانت تحتوي على أكثر من 200 مريض، ومثالاً عن المؤسسة السوفياتية النموذجية. كانت نينا ليفانوفا، الممرضة الروسية التي تبلغ من العمر 75 سنة، لهم الوحيد والأخير في النجاة. وقالت ليفانوفا: "هربت للممرضات الأخريات عندما بدأ القصف حولنا. لم أستطع تركهم. إنهم مثل الأطفال، ولكنهم يبقون بشراً".

كانت الحالات الصعبة تعيش خلف أبواب موصدة. وكانت امرأتان تجلسان على فراش حتى بدلت إحداهما بالصراخ وعضت ساق الأخرى. جلس شخص ثالث - رجل أو امرأة؟ - بلا حراك تحت البطانيات. وقالت ليفانوفا: "ليس بوسعنا فعل شيء من أجلهم".

كان أحد الرجال يجلس في الخارج. كان يرتدي معطفاً كبيراً من الحرب العالمية الثانية، ويلوح للسيارات. وإذا تعرضت المنطقة للقصف سيلقى حتفه بالتأكيد بسبب وقوفه في العراء. وقال: "أخبر لي أن تأتي لرؤيتي".

همست ليفانوفا: "لم يأت والداه مطلقاً، ولم يأت أحد أبداً منذ بداية الحرب، حتى عند موت شخص ما. لقد دفنهم خلف المستشفى".

كان يوجد 100 خط من التجاعيد على وجه ليفانوفا، وعندما حاولت حبس نموعها ظهر 20 مريضاً آخرين. أرقت مجموعة من الأدوية التي تبرع بها أحد الأشخاص. لكنها لم تكن قد تلقت تدريباً جيداً، وكانت التعليمات مكتوبة باللغة الإنكليزية المبهمة بالنسبة لها.

قالت: "لا شيء صحي، ولا بطانيات، ولا ملابس، ولا مخازن، ولا شيء يمكنني فعله. إذا قصفوا هذا المكان سنموت جميعاً".

عدت إلى المستشفى بعد عدة شهور عندما أصبحت شالي وكامل المنطقة حولها تحت سيطرة الروس المطلقة. لم يبق من البناء سوى نصفه، ولم أرَ ليفانوفا العجوز المسكينة.

كان هناك ستة مرضى، وتعرفت على إحداهم؛ امرأة ذات أسنان بارزة ونحيلة للغاية بحيث برزت عظام وركها للخارج مثل مقبض، وكلفت واحدة من الحالات

الخطيرة في ذلك القصر، وكنت تعدو عارية آنذاك عبر الحديقة للكثيفة، وتصرخ بصوت عالٍ.

قال صوت من ورائي: "إنها تصرخ لتقول بلأنها جائعة". واستدركت إلى الخلف لأجد امرأة شيشانية كانت قد تولت زمام الأمور. وقالت للمرأة، ليلى موزيفا: "لا تستطيع الكائنات البشرية للعيش هنا، ولا يجب أن تعيش الخنازير هنا".

تساعت عسا حدث بعد أن نظرت إلى أفاض المبنى. وقالت لي: "أخذ البويكس مواقع لهم هنا خلال الحرب على شالي. وتولد هناك حوالي 15 - 20 منهم ليوم واحد فقط، وجميعهم تقريباً لقوا حتفهم. كانت المروحيات تطلق الصواريخ على المبنى. حاولنا أخذ المرضى إلى القبو، لكنهم لم يفهموا أي شيء".

هل كانت تلوم المحاربين؟ بالمحصلة، لو لم يأخذوا مواقع لهم هنا، لما مات هؤلاء الأشخاص ولبقي المبنى سليماً. إنها معضلة كل المعارك في الشيشان، وخاصة في السهول، حيث يكون الإقليم صغيراً جداً ولا يجد المقاتلون مكاناً يتحصنون فيه عدا الأبلية. إنهم يجلبون الدمار لكل شيء يلمسونه.

قلت موزيفا: "لا، لا ألوم المقاتلين. لقد كانوا ينسحبون بسرعة كبيرة، ويصمدون في الحقول المكشوفة ضد المروحيات والطائرات، ولغاية ذلك الوقت، كانوا الوحيدين الذين أحضروا الطعام لهؤلاء الناس. لا ألومهم".

3. الحصون

"الحرية أو الموت، كنت للصرخة تتردد في الجبال من جديد.
الحرية أو الموت، نعم والله معنا".

من أغنية حرب شيشانية سنة 1995، لإلم علي - سلطونوف.

جلب الربيع الجنون للجبال. وتحيل البويكس أن جرحهم ستكون على الطراز الأفغاني في المناوشات والمعارك النارية القرية المدى. بدلاً من ذلك، بقي الروس في معسكراتهم في السهول، ووجد الشيشانيون أنفسهم محاصرين في معركة غير متكافئة مع مدفعية العدو البعيدة المدى. لم تكن مرحلة الجبال كما توقعها اللاجئون أيضاً، الذين ذهبوا إليها بحثاً عن الأمان، لقد اكتظت القرى البعيدة بالمدنيين وخاصة الأطفال؛ لم يسبق أن شاهدت هذا العدد من الأطفال أبداً. لكن بعد ذلك بدأت الطائرات بالقصف، واكتشف اللاجئون أنهم لم يكونوا أكثر أماناً مما كانوا عليه في السهول، وبحلول الصيف عاد معظم الهاربين إلى قراهم.

بالنسبة للقادة الشيشانيين الانفصاليين في قرى أعالي التلال دارغو، وفيدنو، وشاتوي، كان التراجع إلى الجبال مفتاحاً لاختبار القوة السياسية إضافة إلى العسكرية. بعد أن فقدوا كل بلداتهم وقتذاك، كانوا تحت ضغط هائل، ليثبتوا للعالم أن جمهوريتهم الثورية، التي لم يعرف بها أحد، لا تزال موجودة. في ذلك الوقت، تمركز البويفكس في الصف الأمامي من القرى الجبلية - من باموت في الغرب إلى سيرزن يورت وألروي في الشرق - اشتبك فريق جوهر دودايف مع الروس في حرب دعائية شرسة.

كانت رموز الدولة هامة بشكل خاص. لذلك كانت كل التصاريح الرسمية تشير إلى الشيشان على أنها أشكريا، وأشكريا هو الاسم التقليدي للشيشان، وهو اسم لا تستخدمه الحكومة الروسية أو وسائل الإعلام أبداً، ولكن الانفصاليين أصروا عليه كجزء من معركتهم للحفاظ على هويتهم. لقد انتشرت الرايات الخضراء - الحمراء - البيضاء التي تزينها صورة الذئب نائم وبدر في كل مكان، وتبدلت من البيوت الجبلية، وعلقت على مركبات الثوار، أو خُطت على ملابس المقاتلين. لم يكن القادة الكبار يقابلون الصحفيين دون أن تكون هذه الراية على الجدار خلفهم، وهي صورة مهمة وخاصة على التلفاز.

حافظ الثوار على آثار البنية الحكومية بعد أن تلاشت عملياً. أحب قادة الثوار السجود عن الدستور، والذي سيكون مصدر السلطة للبرلمان الثوري وبمجموعة متكاملة من الإدارات الحكومية في دولتهم التي بنوها في أذهانهم، وطالما كان هناك دستور، سوف يستطيع الشيشانيون الادعاء بأنهم ليسوا قطاع طرق، وإنما حكومة قانونية، أجبرت مؤقتاً على العيش في الجبال. لذلك كان دودايف رئيسهم المنتخب، وتحوّل عدد كبير من أمراء الحرب القساة أو المندنيين المغمورين إلى وزراء شرعيين، وقضاة عسكريين، فيما طمح أصلاً مستحاذف لتولي منصب "رئيس أركان القوات المسلحة للشيشان - أشكريا". كان هناك عدد مذهل من الضباط برتبة عميد ولواء. وعقد البرلمان جلسات سرية في أوقات متفرقة، واستمر دودايف الرئيس والقائد العام بإصدار المراسيم ونشرها في الصحيفة السرية أشكريا. لقد أحيت المرسوم رقم 16 الصادر في 20 آذار عام 1995 حول "تشكيل

كتائب انتحارية خاصة".... وفقاً للمادة 73 من الدستور الشيشاني. كان من الواضح أنه مرسوم فارغ من المعنى لأن أحداً لم يستمع إليه - كانت معظم الوحدات المقاتلة قريبة من الانتحار - ولكن المرسوم تمتع بكل العناصر الضرورية والأهمية الذاتية للأغراض الدعائية.

كانت القوة الحقيقية في يد مجموعة مؤلفة من قرابة اثني عشر قائداً برئاسة دودايف، وضمت المجموعة مسخادوف وكبار القادة الميدانيين ورؤساء أجهزة الاستخبارات. كان القادة الميدانيون أمراء حرب أساساً، ويسيطرون على مناطقهم بجيوش خاصة. كان إشراكهم في عملية اتخاذ القرار حيوياً، لأنهم كانوا يقاتلون، ويتخذون القرارات التكتيكية اليومية.

كان هناك العديد من القادة العسكريين الأقل شأنًا، مع وحدات متعاونة أصغر، ولكن الشخصيات المحورية كانت بعدد أصابع اليد. في الجنوب الغربي، كان القائد الميداني الأعلى سلطان جلسخانوف، يليه أحمد زكييف الممثل السابق الوسيم، والذي تقلد منصب وزير الثقافة في حكومة دودايف. وفي الجنوب الشرقي، تولّى خونكار باشا ازرايلوف - القائد الشاب الرشيق بوجهه الماكر - القيادة من قريبه ألروي. وفي الوسط ومناطق فيدنو - وأي منطقة من الشيشان يختارها - كانت القيادة بيد شامل باسايف القاسي والمتقلب المزاج.

كانوا جميعاً يتمتعون بشخصيات قوية، سواء بسبب حاشيتهم من المقاتلين المعجبين بهم، أو بسبب قدرتهم على التهديد، أو بسبب ثقافتهم العالية. تفاخر جلسخانوف قائلاً بأنه: "عندما أذهب إلى المعركة، لا يكون رجالي خائفون، ويتبعوني إلى أي مكان". كان باسايف أكثرهم دهاءً ومهارة في التكتيك الميداني، وغالباً ما أظهر مواهبه بالتعامل مع الغرباء والمرؤوسين بحس الفكاهة، ولم يكن يتصرف معهم بشكل رسمي.

في مناح عديدة، كان موفلادي أودوغوف، وزير الإعلام في حكومة دودايف، أخطر شخص واجهه الروس. لقد أثبت أنه العقل المدبر في الحرب من خلف الستار. لم يستخدم الدعاية بمثابرة ومهارة كبيرتين وحسب، إنما كان أيضاً مستشاراً أيديولوجياً رئيسياً للقادة الانفصاليين الآخرين، وموئناً حقيقياً بالهدف

السياسي للحرب؛ أي الاستقلال. كان أودوغوف ملتجئاً، ولم يحمل السلاح قط سواء علناً أم خفية، كان يستخدم هاتفاً فضائياً لإبقاء دولة الشيشان - أشكрия حية في أذهان الأجانب والروس الذين قد يعتقدون أن حلم الانفصاليين المجنون قد تبخر في الدخان.

كانت معركة أودوغوف الإعلامية ملحمية مثل الحرب العسكرية. كانت الآلة الدعائية للحكومة الروسية والإعلام الموالي لها تعمل ضده، وخاصة القناة التلفزيونية الحكومية "أو آر تي"، ووكالتي الأنباء إيتار تاس وإنترفاكس، والتي بثت في السنة الأولى من الحرب على الأقل كل ما كانت موسكو تقوله. عندما كان السلفاز الروسي يقدم الأكاذيب - عدم تعرض أي مدني للقتل، وإصابة المحاربين الشيشان بالذعر، وعدم استخدام الطائرات - كان أودوغوف يرد بأرقامه: لقي 500 مدني حتفهم في غارة واحدة، و800 جندي روسي في هجوم واحد. كان على اتصال منتظم بوكالات الأنباء الأجنبية أو الروسية، ومحطات الإذاعة، وقنوات السلفاز والصحف لشرح وجهة نظر الانفصاليين فيما يحدث. بالنسبة للعالم الخارجي، كانت الأنباء تبدو حقيقية عندما كان أودوغوف يصرح بأن: "رئيس جمهورية ورئيس أركان الشيشان - أشكريا اتخذوا قراراً أو آخر". كانت لفته رسمية وبيروقراطية دائماً. وهو لم يجر أحداً أبداً بأن الاجتماع حدث في الغابة. في بعض الأحيان، لم يكن أودوغوف المتصل وإنما رجله في إسطنبول والذي كان يوزع "البيانات الشيشانية" إلى كل أنحاء العالم بفضل سياسة الحكومة التركية التي غضت الطرف عن النشاطات المؤيدة للشيشانيين على أرضها.

شنَّ الشيشانيون أيضاً حرباً دعائية بطريقة مؤثرة ولكنها بسيطة للغاية: كان للصحفيين حرية التحول حيثما يشاؤون، كانوا يقفون مع المحاربين على خطوط الجبهات، ويقابلون القادة ويشاهدون تأثيرات الحرب الروسية، والتي كانت شاهد عيان معهم. كان الانفتاح الشيشاني غير المصاب بداء الارتياب من الجواسيس، متناقضاً بشكل صارخ مع عدم القدرة على الوصول إلى الجانب الروسي من المخطوط. مثل معظم القوات المسلحة الرسمية، حظرت القوات الروسية عمل المراسلين المستقلين والأجانب في القواعد والصفوف الأمامية، وكانت المعلومات الوحيدة عن الجيش تأتي

من الناطقين الرسميين الذين لا يصدقهم أي صحفي يحترم نفسه.

عانى الجانب الروسي من مشاكل كثيرة مع إعلامه نفسه. ولم تكن قناة أو آر تي ووكالات الأنباء تخرج عن الخط الرسمي، وتنقل أكاذيب المسؤولين الرسميين حرفياً. لكنّ صحفاً مثل إيفيستا، وسيفودنيا، وموسكوفسكي كومزومولتس، وقناة إن تي في التلفزيونية الخاصة، وإلى حدّ أقل، قناة آر تي آر هاجمت الحرب بعنف. بدأت إترفاكس، وإلى حدّ أقل إيتار تاس، بنشر تقارير تصدر عن الرسميين الانفصاليين. وأصبحت نشرات الإذاعة على الموجة القصيرة من أندريه بايتسكي، وهو أحد المراسلين باللغة الروسية لراديو "الحرية" الأميركي الحكومي، ركنًا ثابتًا في المنازل الشيشانية. استمرت استقلالية الإعلام الروسي معظم السنة الأولى من الحرب تقريباً، ولم توجه اهتمامها نحو الكرملين - وخصوصاً تلفزيونياً - سوى عند اقتراب حملة إعادة انتخاب الرئيس يلتسن سنة 1996. كانت تلك التقارير، رغم أنّها ليست حاسمة مثل عمل الصحفيين الأجانب، كافية للسخرية من إصرار الحكومة بأنه لا توجد حرب رئيسية، وإنما مجرد حصار لقطاع طرق معيثرين. ورغم أن معظم الروس لم يكونوا يتعاطفون مع معاناة الشيشانيين، إلا أن صور خوفهم وخيبة أمل مجنديهم سببت الغضب الشديد.

واجه الصحفيون الروس خطراً مضاعفاً نتيجة عدم حصولهم على جوازات سفر أجنبية. لقد وجهت لهم اتهامات شبه متكررة بالتحسس في الأراضي الشيشانية، وتعرضوا لمضايقة رجال الاستخبارات الروسية السرية. من بين 20 صحفياً ماتوا في الحرب، كان اثنان منهم غربيين وتسعة روس وتسعة شيشانيين، كما أنهم عانوا أيضاً من اعتقال رجال الاستخبارات أو الجنود الروس لهم. لقي روسيان، أحدهما مراسل قناة أو آر تي حتفهما على يد القوات الروسية في وضع النهار عند إحدى نقاط التفتيش، وتعرضت المرأة الشابة ناديزدا تشيكوفا - التي كتبت قصصاً عن انتهاكات الروس لحقوق الإنسان في أسبوعية أوبشايها غازيتا - للقتل خارج المدينة في آذار عام 1996، كما اختفى ثلاثة صحفيين روس إضافة إلى ثلاثة أوكرانيين، وشاب أميركي وشيشاني. لم يعرف أحد مصيرهم أبداً، لكنهم ربما يكونون قد تعرضوا للقتل من أحد الجانبين لأي سبب.

فيما كان أودوغوف يتعامل مع العالم الخارجي، قامت محطة تلفزيونية سرية تدعى بريزيدنتسكي كانال أو القناة الرئاسية بالث إلى البيوت الشيشانية عن طريق جهاز إرسال سري معلق فوق الجبال، وعملت القناة بشكل متقطع، وبجودة متدنية، وبتغطية محدودة ولكن تأثيرها المعنوي كان هائلاً.

وكانت الجراحة الكبيرة للقناة مصدر سعادة للشيشانيين، الذين كان العدليون منهم يسهرون إلى وقت متأخر من الليل محاولين التقاط بثها، ومثل قرصان الإلكتروني حقيقي، كان إرسال القناة يتداخل مع برامج محلية عادية تضعها السلطات الروسية، وأجرت مقابلات مع القادة الميدانيين، وأذاعت خطابات دودايف، وقدمت صوراً إخبارية التقطها فريق التصوير النسائي في القناة والتي كانت ترأسه امرأة مميزة تدعى خزمان عمروفا والتي تبلغ من العمر 34 سنة. لقد صور ذلك الفريق عدداً من أشرس المعارك في الحرب. وبعكس الرجال، كان باستطاعة النساء الانتقال بحرية عبر الأراضي التي يسيطر عليها الروس، ولم يكن يتعرضن للتفتيش على الحواجز. وغالباً ما كان التلفاز يقدم ببساطة محاررين يفنون مع القيامة أو يتحدثون بثقة عن الحرب؛ ليس كل شيء كيباً على الجبهة.

ولم يكن هناك إعلام في ظل حكم ستالين، أو خلفائه بالطبع. أما الآن، ورغم الأكاذيب التي تقدمها الدولة إلا أن موسكو لم تحاول فرض رقابة حقيقية على المراسلين المحليين أو إبعاد الصحفيين الأجانب وسبب هذا بشكل جزئي هو الثقة، ومثل أودوغوف، يستطيع أي صحفي مزود بتلكس أو هاتف فضائي ومدخرة سيارة (بطارية) أو مولد محمول إرسال تقاريره بحرية، حتى من أبعد أصقاع العالم. لكن الرقابة غير المنظمة على الإعلام أظهرت مشكلة موسكو العامة في الحرب؛ أي الارتباك بين ردود الفعل الإمبراطورية والطموحات الديمقراطية، رغم عدم وجود القدرة الطبيعية أو قوة الإرادة لتحقيق إحداها على نحو تام.

أظهر الروس قسوة كبيرة في حملتهم لإفراغ الجبال من اللاجئين، وبالتالي حرمان البويفكس من الدعم الاجتماعي وإحباط محاولتهم في تشكيل دولتهم الانفصالية. كان أول مركز لاجئين يتعرض للقصف هو معسكر الرواد في قرية سيزرن يورت في 27 آذار، عندما كانت القرى الجبلية بين شالي وفيدنو مليئة

بالمدنيين، ولقي 4 أشخاص حتفهم، وتعرض 10 للإصابة. كان أحد القتلى رجلاً دعائي لتناول الشاي في الليلة التي سبقت القصف، وكان قد سألني عن مانشستر يونايتد، وعندما اعترفت له بأنني لا أعرف شيئاً عن كرة القدم، أخبرني عن كل ما يعرفه. لقد فقد الشياطين الحمر (مانشستر يونايتد) أحد مشجعيهم المتحمسين، وتعرضت زوجته لجروح بليغة، ولكنها نجت. لم تنفجر قبلة أخرى سقطت على المعسكر، وقد اخترقت مباشرة السطح والأرضية واندفعت عميقاً في الأرض. كان أفراد العائلة لا يزالون في الغرفة، ويحاولون تنظيف حفرة الانفجار عندما وصلت، ورغم أنهم نجوا من الإصابة، إلا أنهم كانوا مذعورين جداً، وبدوا أكثر هشاشة من الزجاج. في الخارج، كان هناك تمثال سوفياتي بالحجم الحقيقي لفتى وفاته يرتديان قمصان وسراويل الرواد الأنيقة، نجا ذلك التمثال من الانفجار، واستمر بالنظر ببراءة إلى الغابات. في آخر الطريق، بعثر القصف أشجاراً كبيرة مثل القش، وقتل رجلاً كان يجلس في سيارته.

في مركز اللاجئين في إستانزي، وهي قرية تجمعت في أعالي السفوح، أحصيت 20 حفرة انفجار. وتعرضت ثمانية بيان فيما كان يعرف في السابق بمعسكر الترفيه للقصف، وانشطرت بقرة إلى نصفين، وابتعد النصفان عن بعضهما عدة ياردات. بعد القصف، مشطت الطائرات المنطقة، ومزقت الجدران بنيران رشاشاتها. نتيجة لذلك، لقي خمسة أشخاص حتفهم وتعرض 12 للإصابة. في معسكر آخر على طول طريق شالي - فيدنو، حيث كان اللاجئون يعيشون في حظيرة قديمة، اندفع الجميع خارجاً حالماً حلقت الطائرات فوق المنطقة، ولم يعد أحد يرغب بأن يعيش هناك فقد انهار البناء، وأحاطت به حفر الانفجارات بعرض عدة أمتار وعمق مترين.

لم أستطع رؤية سوى تلك المعسكرات. كان هناك معسكرات مشاة منتشرة في جميع أنحاء منطقة فيدنو، وكانت القصص التي تروى عنها مطابقة تماماً لما رأيته. كان يعيش في تلك المعسكرات أكثر من 1000 لاجئ؛ ولم يكن أي منها يستضيف محاربين.

قد يصل ضغط الغارات الجوية إلى مرحلة لا يستطيع المرء احتمالها. لقد أثار الطقس الجيد المخاوف لأن الطيارين يستطيعون رؤية الأهداف بسهولة أكبر. لم

يكن الناس يقفون أبداً في مجموعات كبيرة. فيما أصبح الاعتماد على حاسة السمع شديداً. كانت المحادثات تتحدث عندما يسمع الموجودون في إحدى الغرف هدير الطائرات القادمة، وكان الناس يقفون فجأة في الشوارع، ويقولون "اسكت"، ويرفعون رؤوسهم، ثم يفتحون أعينهم ليحدوا مثلث الموت الصغير. إذا كان المرء في سيارة، فإن أمله الوحيد هو مراقبة المشاة بعناية، وإذا كانوا يفتشون في السماء، سيعرف السبب، وسوف تسري قشعريرة في جسده.

كان هناك منهجية وبعض الرحمة في القصف. وكان باستطاعة الروس قتل أعداد كبيرة من الناس بالإغارة ليلاً، عندما تكون تلك الأبنية مليئة باللاجئين النائمين. إلا أنهم كانوا يهاجمون في منتصف الظهيرة، عندما يكون الجميع بعيدين أو في الخارج، وحذرين من الخطر. كانت الغارات الجوية تتكرر في اليوم التالي، واليوم الذي يليه، وبين الغارات، كان هناك هدوء ووقت يكفي لتحميل الشاحنات بالأطفال والحيوانات والأثاث والمغادرة. كان الجميع يغادرون فعلاً، وبحلول الصيف أصبحت تلك القرى، التي كانت مكتظة بالسكان هادئة مثل الأشباح.

في سيزرن يورت، المحطة الأولى لللاجئين قبل أن يتحركوا إلى أعالي التلال باتجاه فيدنو، قام يراغي والذي يبلغ من العمر 54 سنة بدفن ابنه وعيناه معلقتان بالسماء. كانت ضواحي القرية قد تعرضت للقصف في ذلك الصباح، وكان يراغي، أو أحد أقاربه، ينظر للأعلى، ويتوقف في صلاته، ويحدق حوله بعصبية. لم يكن أحد يشعر بالراحة سوى اللجنة الملفوفة بملاءة بيضاء. تعرض يراغي وابنه لإطلاق النار فيما كانا يهربان من شالي قبل أن يتم الاستيلاء عليها. أصابت رصاصة الولد، الذي كان يقود السيارة، وقتلته. قال يراغي: "خرجنا من السيارة. ثم قاموا بإطلاق قذيفة، واشتعلت النار بالسيارة. استلقيت في قناة ري هناك مع ولدي الميت لست ساعات. لم يكن هناك أي طريق للخروج حتى حلول الظلام. بعدها هربت، وخلال الليل عدنا وأحضرنا جثته. لقد كانت الرصاصات في كل مكان، واعتقد أنه لم يكن مقدراً لي الموت".

قال يراغي، عندما كان بعض البيوفكس يمشون في رتل خلف بعضهم إلى الغابات فوق سيزرن يورت: "إنه خطأ هؤلاء السفلة. إننا لا نريد هذه الحرب.

وهناك الكثير من الجنازات، ولقي الكثير من الشيوخ حتفهم، أو تم إجبارهم على النزوح". لقد أصبح كره الروس غريزياً، ولكن بعض الناس كانوا غاضبين أيضاً من المحاربين؛ لأنهم يجذبون القصف. كان الجميع يخافون من اليوم الذي يأتي فيه هؤلاء المقاتلون إلى قريتهم، وينصبون فيها مواقع قيادة محلية، ويرفعون رايات الثورة، ويطلقون نيران الرشاشات على الطائرات لإظهار التحدي وليس بهدف إصابتها. كان الجميع يعرفون أن تلك التصرفات ستكون لها عواقب وخيمة.

سيخاف الفرنسي مما قد يتحملة الجندي الروسي لتناء العمليات الحربية في الجبال، والذي يعيش على الخبز الأسود ويلبس في الثلج، ويسحب بنفسه ومعداته فوق أرض قاحلة لا يوجد فيها سوى صخور الفيرنيت. وبإلها من حرب! حرب دون هودة، ودون أسرى، والتي يموت فيها للجريح، ويقوم فيها الأعداء بجمع الجثث البشرية. (لكنهم اعتدلاً يقطع أيدي ضحاياهم).

واجه رجالنا شيئاً من هذا القليل في الجزائر، وبغض النظر عن اختلاف التضاريس الموجودة إلا أن الرجال كانوا يتلقون رواتب جيدة، وطعاماً جيداً وكسوة جيدة، وكان لديهم بعض الأمل في الترقية، ورغم كونه ضئيلاً.

للكسندر دوم، 1858.

حالياً اندلعت الحرب الضارية للسيطرة على سفوح الجبال، اختفت أزياء الجنود الروس المستوحاة من طراز لباس الجيش السوفييتي شيئاً فشيئاً ليحل مكانها اللباس الرياضي المموه وقبعات التزلج. ينسدل الشعر الطويل مسترسلاً، أو يرتفع بطريقة "الماهقان" (قبيلة هندو حر في أميركا) أو يختفي تماماً ليظهر الرأس أصلعاً. وتغمس الطفقس تدريجياً، ولوحت الشمس بشرة الجنود، واستطالت لحاهم، وحصلوا على نظارات شمسية يرتدونها تحت غصبة رأس القراصنة.

كانت القوات المسيطرة على غروزي تسيّر دوريات بالعربات المدرعة على الطرقات مما يؤدي إلى عرقلة حركة السير المدنية بشكل كبير. كانت مراكزهم تحمل رايات حمراء وصور لينين على الهوائيات الخلفية الطويلة في إشارة غير مباشرة إلى أبحاد الجيش الأحمر. عند أنقاض القصر الرئاسي، كان الأطفال الشيثانيون يبيعون المواد المستقطبة للضوء بدولارين، وكان الجنود الروس الشباب يقفون عراة الصدر وحربات البنادق مثبتة في الكلاشينكوف. رأيت مرة جنديين ضخمين

يترنحان مع بندقيتهما، وكان جسدهما مدرعين مثل شيء من فيلم خيال علمي - خوذات كبيرة، وأذونات عموية، ومعدن مضاد للرصاص فوق كتفيهما وجذعيهما - فيما كان أحد أصدقائهما يصورهما بالفيديو.

اعتقدت في بادئ الأمر أنه عرض للأزياء لشباب يشعرون بالقوة والصحة، متصرين. وقال أولين، الشخصية المحورية في رواية تولستوي: "لديّ بندقية وقوة وشباب... والجبال!"، عندما كان في طريقه إلى الشيشان في القرن التاسع عشر. ولكنّ لعب دور المتصر لم يكن سوى خداعاً. لقد كانوا رجالاً محبطين، وليس متصرين، وكان الجنود يحاربون في معركة سياسية، وغير قادرين على الحفاظ على الانضباط ضمن صفوفهم. تضررت القوات المسلحة الروسية بالتغيير الفكر الشيوعي، والتخفيضات الهائلة في الميزانية، والانسحاب المفاجئ للقوات من جميع أنحاء أوروبا والجمهوريات السوفياتية السابقة، وكانت حرب الشيشان القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لتلك المؤسسة العسكرية الفعالة. وساهم فرار الجنود، وعدم قدرة الضباط على إطعام قواهم، وإصدار الجنرالات أوامر للهجوم على المدنيين في ذلك الانهيار. أصاب عدم الانضباط المستوى البيوي، مع اتساع الفارق بين قوات وزارة الداخلية التي تبدو على ما يرام، والجيش النظامي المنهار والساخط.

مع الفشل في تحقيق أي اختراق على خط جبهة التلال، كان على الدعاية الروسية أن تلتقّ ترميزات وهمية لذلك التأخير. قالت تلك الدعاية إن باموت كانت منيعة بسبب وجود قاعدة صواريخ نووية سوفياتية فيها، والتي لا تستطيع المدفعية الروسية والقوى الجوية تدميرها؛ وقالت إنه يوجد بالقرب من أورخوفو مقاتل المرتزقة الأجانب، وقالت إن آلاف المقاتلين مزودون بأسلحة أفضل من الجيش الروسي. كانت تلك الدعاية تصف القرى على خط الجبهة الأمامي على التلفاز بأنها مستعمرات في "الجبال العالية".

كان هناك مستودع قديم للصواريخ في باموت، ولكنه لم يكن عذراً لحل كل مشاكل الروس. لم يستطع الشيشانيون أن يتركزوا في موقع دفاعي واحد لفترة طويلة، ناهيك عن السيطرة على وادي باموت بالكامل، وكان عليهم الانتشار على مسافة كبيرة وفي كل الاتجاهات، وكان المستودع خارج القرية. كانت

حشود المرتزقة الأجانب محض افتراءات، ولم تكن ما يدعى بالجبال العالية سوى تلال يتراوح ارتفاعها بين 500 - 1000 متر فوق سطح البحر. وكان السر البغيض أن عدداً من الرجال لا يتجاوز 200 في كل قرية - كانت أعداد من يقاتلون فعلياً لا تتجاوز 40 شخصاً - يستطيعون صد التقدم الروسي.

كان الادعاء بأن الشيشانيين أفضل تسليحاً مرعباً لعامة الروس، ولكنه مضحك. كانت أفضل ما لديهم الأسلحة المضادة للدروع، والصواريخ المضادة للدبابات، وبعض الأسلحة الثقيلة التي يتولون عليها. كان لدى الكثير من المقاتلين بنادق كلاشينكوف قديمة للغاية بحيث تبدو أنها ستفكك عند الاستعمال التالي. في باموت، كان فخر ترسانة المقاتلين دبابة استولوا عليها من الرو خلال إحدى المحاولات لاقتحام القرية وما يدعونه "صناعة السلاح الشيشاني". كانت تلك الأسلحة المصنوعة في البيوت قوية بالتأكيد، ولكنها لم تكن مثالية. كان أحد الأسلحة صاروخ مروحية يمكن الحصول عليه من السوق السوداء، والذي يتم تحويله إلى سلاح مضاد للدروع. سلاح آخر كان مدفعاً ثقيلًا يمكن الحصول عليه من العربات المدرعة وتحويله ليصبح صالحاً للاستخدام ضد الطائرات.

كان دودايف قد جمع معظم ترسانة الشيشانيين الرئيسية، وجميعها من الأسلحة السوفياتية أو الروسية، ووفقاً لمصدر عسكري روسي عارض الحرب منذ البداية، تم تهريب إمدادات جديدة من الأسلحة والذخيرة مثل صواريخ غراد ومضادات الدروع من أذربيجان وتركيا عبر جبال القوقاز. في بعض الأحيان، كانت الأسلحة تأتي خلسة، وفي أحيان أخرى بتواطؤ حراس الحدود الروس في داغستان. كان هناك أيضاً إنزال جوي واحد على الأقل من أذربيجان. على كل حال، ورغم الاتهامات المتكررة، لم يستطع الروس أن يثبتوا أبداً أن للشيشانيين مصدراً خارجياً يزودهم بالأسلحة.

إن القضية الحقيقية - وربما العلامة المظلمة على انهيار انضباط الجيش - كانت أن الروس أنفسهم يبيعون الأسلحة للشيشانيين. اجتمعت المعنويات المنخفضة، وغياب الاحساس بأهمية المهام، والفقر والجوع الحقيقيين لتجعل من أعمال الفساد تلك ضرورة حتمية. كانت العديد من تشكيلات الجيش النظامي

تشعر باليأس، ولم يكن راتب الرائد يتجاوز 700 دولار شهرياً - أي 22 دولاراً في اليوم - وكانت الرواتب تتأخر عدة شهور أحياناً. وكان راتب المجدد خمسة دولارات في اليوم، وكانت كل حواجز التفتيش على الطرق بمثابة سوق سوداء يبيع فيها الجنود وقود عرباتهم المدرعة للسيارات التي تمر عبرها مقابل القودكا والطعام. في بعض الأحيان، يقوم الجنود باستجداء الناس بعد أن يتفحصوا ونائقهم. ورأيت مرة مجنّداً هزياً يملأ قميصه بالصل من شاحنة يتمّ تفتيشها عند نقطة التفتيش في أرغون. في تلك الظروف، لم يكن الأمر يستلزم أكثر من خطوة قصيرة فقط لبيع أكثر السلع إثارة على الإطلاق؛ الأسلحة والذخيرة.

في حالة واحدة فقط، تمّ توجيه الاتهام للجنود الروس علناً ببيع عربتهم المدرعة. قال الشيشانيون، وهو ما أيدته كل الدلائل، أن صفقة البيع تلك لم تكن حالة معزولة. كان الجنود يهجعون بعض الأسلحة، وخصوصاً الدبابات والعربات المدرعة، والتي يقوم الشيشانيون بالاستيلاء عليها في المعركة. كان هناك أيضاً مصدر آخر حيث كان الروس يتظاهرون بالدخول في معارك وهمية وخسارة بعض الأسلحة، والتي كانوا يبيعونها للشيشانيين فيما بعد. أخبرني ضابط روسي عن دابة بيعت بمبلغ 6000 دولار إضافة إلى صواريخ غراد.

اتسع الفشل العسكري في ساحة القتال إلى ما وراء خطوط الجبهة، ولم يقم الجيش بأي محاولة لكسب تعاطف السكان المحليين. نتيجة لذلك بقي السكان ينتظرون إلى تلك القوات على أنها محتلة بغية وليس سلطة محترمة. فور الاستيلاء على قطعة من الأرض، كان الجنود يجلسون داخل مواقع المحصنة عند تقاطع الطرق والجسور الاستراتيجية، ولا يظهرون سوى لتفتيش السيارات المارة، وتفحص الوثائق. ثم يحتفون مجدداً خلف أكياس الرمل، وفي الخنادق، وتبدأ عريضة القودكا والموسيقى الصاخبة. غالباً ما كانت مناطق التفتيش تلك تتحول إلى بور كراهية بالنسبة للشيشانيين وتعرض للهجوم المتكرر. أصبح الجنود بدورهم أكثر عدوانية مع المدنيين، ويرفضون مرور الناس، ويطلقون النار فوق رؤوس البشر وعلى أقدامهم، أو يفجرون إطارات السيارات التي لا تلتزم الوقوف بالدور. العدوان والإدمان؛ صمّاماً ضغط الجنود الروس.

حتى في غرورزي، لم يخرج الحكم الروسي عن حالة الاحتلال العسكري. كانت التحسينات في أوضاع معيشة السكان العاديين غير ذات شأن. استوفت إمدادات الكهرباء والمياه الجزئية مجدداً، وتمّ تجديد مستشفيات نوعاً ما، ولكن ذلك لم يصنع فرقاً جوهرياً مع تدمير عشرات آلاف المنازل والشقق خلال الشهور القليلة الأخيرة. طال الجزء الأكثر وضوحاً في إعادة الإعمار مقر الحكومة الدمية التي نصّبها الروس، والتي يقودها سلام - بك خادزييف وهو وزير النفط السوفيياتي السابق. كانت رائحة الطلاء الجديد تنبعث من المبنى الذي يعجّ بثرثرة أنساء السر والموظفين الروس وحلفائهم الشيشانيين. كان الإحساس بأن كل شيء طبيعي هناك بمثابة الصدمة، كما لو أن المرء في موسكو. في الخارج كانت الحقيقة الوحيدة هي الغضب والانتقام والارتياب.

أثناء الليل في غرورزي، يقوم القناصة المختبئون بين الأنقاض بقنص الجنود الروس خلف متاريسهم وحواجزهم الإسمنتية، وكان الروس يتراجعون للخلف. وخلال النهار - كما يعرف كل روسي - كان هؤلاء القناصة يمشون في الشوارع في ملابس مدنية، حيث لا يمكن تمييزهم عن الناس العاديين. ونتيجة لعدم قدرتهم على استئصال المقاتلين، تخلّى الروس عن مخابئهم وجرفوا كتلة إثر أخرى من المنازل والشقق السكنية المدمرة حول القصر الرئاسي وصولاً إلى مركز المدينة حتى مهّدوها مماماً. كان عدم التألف مع الناس والمكان يعني أنه لا مفر من العدائية حتى يعود الجنود إلى قواعدهم ونقاط تفتيشهم. كان بمقدور الجندي قضاء ساعات في المدينة ولا يستطيع فهم كلمة مما يقال حوله باللغة الشيشانية. ربما يكون الأشخاص على الزاوية يتحدثون عن أسعار الطعام، أو السيارات أو إصلاح بيوتهم المدمرة، أو ربما يكونون ثواراً يتناقشون حول القتال والحرب. لم يكن الجنود يعرفون أبداً، لأن كل الشيشانيين كانوا يبدون متشابهين. ولم يكن جندي روسي عاقل يدخل السوق الرئيسية في مركز المدينة حيث يمكن شراء أي شيء من الأسلحة السنارية إلى معاطف الفراء والبهارات. كان هناك حوادث لقي فيها جنود مصرعهم هناك في وضح النهار، وكان المهاجمون ينفون ضمن الحشود المتنوعة. كان الجيش يفقد أحياناً بعض الجنود في غرورزي حتى يعثر على رؤوسهم المقطوعة في الشارع.

في مبنى حكومة خادزييف، لم يكن أي شخص قادراً على تحديد ما يفكر به الناس هناك. كان الشيشانيون المناهضون لدوداييف، والذين يعملون كحراس، يرتدون لباساً روسياً موحداً، وسألني أحدهم: "إذاً، ما هو رأيك في البويفكس؟". وظننت أنه على وشك شتم دوداييف والثوار، ولكنه عوضاً عن ذلك قال بهدوء: "إنهم يشرحون لهؤلاء الخنازير الروس كيف يكون القتال، أليس كذلك؟". ثم قال: "إذا ذهبت إلى الجبال ورأيتهم، أرجوك أخبرهم بأنهم يتمتعون بدعماً". كان خادزييف نفسه، ورغم كونه دمية موسكو، يتوسل الروس ليتوقفوا عن الانتهاكات، وكان يدعوهم جيش الاحتلال.

لم يكن الرجال فقط الذين تعلموا كره الروس، فبدورهم الأولاد كان لهم دور في المعركة منذ بدايتها حيث كانوا يساعدون في نقل الجرحى أو الذخيرة، ويستطعون إلى اليوم الذي يستطيعون فيه القتال إلى جانب إخوتهم الأكبر سناً أو آبائهم. لقد كانوا عدواً أيضاً مثلما كانت النساء.

كيف يمكن لجندي أن يعرف بأن المرأة التي تبني الدخان ليست أم أو ابنة مقاتل، أو حتى عضواً فاعلاً في شبكة الثوار؟ كنت مرة في حافلة مليئة بنساء يثرثن واللواتي صمن عندما صعد جندي للتفتيش. قضى ذلك الجندي الشاب ذو الوجه الأحمر أقل من 10 ثوانٍ في التفتيش قبل أن يغادر.

لا أهمية لما قد يفعله الروس أو عملاؤهم الشيشانيون في سد ثغرة الحقد. في بعض الأحيان، كان موظفو الدعاية في غروزني يقودون العربات المدرعة المزودة بمكبرات الصوت في وسط المدينة، وينصحون السكان بالتخلي عن دعم الثوار، وكانت المروحيات تنشر بيانات تحمل نفس الرسالة في المناطق الخاضعة لسيطرة الثوار. لكن ذلك لم يكن يحدد أحداً.

توقفت إحدى العربات المدرعة ذات مرة بجانب السوق، وبدأ ضابط بتوزيع صحف مليئة بالمقالات المناوئة لدوداييف ومعلومات حول فوائد الحكم الروسي. تجمع حشد فضولي حولها، وقبل مضي وقت طويل حاصر الرجال والنساء الغاضبون العربة المدرعة وطاقمها القلق. حاول الضابط، الذي بدا مثقفاً وحسن الأخلاق، التناقش معهم، ولكن لم يكن هناك شيء يستطيع قوله. صرخ رجل

مشيراً حوله إلى أنقاض الدمار قائلاً: "هذا كل جلبتموه لنا". تراجع الضابط إلى داخل العربة التي غادرت المكان وأصوات مكبرات الصوت تقول: "لا تساعدوا قطاع الطرق، إن قطاع الطرق يستغلونكم، إنهم يحتبسون خلف الناس لكي يطلقوا النيران على القوات الاتحادية التي تحافظ على النظام. لا تساعدوا قطاع الطرق...".

بعيداً عن غروزي، وقرية من جبهة القتال، تضاعف الخوف والارتباك. وبدأ الجنود في شالي بتسيير دوريات على الطرقات، ولكنها لم تلقَ النجاح. استمع جندي خرج دون أن يرتدي قميصاً محاضرة من بعض الرجال غير المسلحين، وصرخ شيشاني: "إنكم تخرقون القوانين العسكرية وتهينون عاداتنا". هرب الجندي مسرعاً عندما تزايد عدد الحشد. وخلال إحدى الدوريات، ذهبت مع بعض الجنود في عربة مدرّعة في آذار، وتغيّر الطقس بسرعة بعد أن احتزننا ضواحي غروزي إلى الأراضي الزراعية، فتمّ إغلاق حجرة القيادة، واتخذ جندي الرشاش موقعه، ووضع الجنود الجالسون خارجاً خوفاً من الخاصة السميكة.

لم يكن هناك أشخاص أو مركبات على طول الطريق، وزاد ذلك من الاحساس بالعزلة. عند محطة مياه كان يجب تفتيشها، وجدنا بقايا لامرأة في كوخ تعرض للقص. كانت ميتة منذ وقت طويل، ومن المحتمل أنها لقت حتفها في غارة جوية عند بداية الحرب، وكانت تبدو من شعب الماهقان. كان المكان هادئاً وساكناً. قال قائد العربة المدرّعة، وهو ملازم يدعى نيكولا، ما كان يفكر به كل شخص: "لنتبه جيداً الآن، ستفقد هذا المكان ونغادر بعدها. لقد شارفت خدمتي على الانتهاء هنا، وأريد الذهاب إلى منزلي". كان اضطرابه معدياً، ونظر من خلال النوافذ الصغيرة للعربة المدرّعة، وبدأت أتوقع سماع صوت سلاح مضاد للسروخ يأتي من تلك الغابات الغريبة والعدائية. إلا أنني شعرت بالراحة لدى العودة إلى أنقاض غروزي.

كلما تراجعنا المعنويات، تضاعف احترام القوات لحياة البشر، الشيشانيين وأنفسهم. كانت ثقافة القسوة العامة ضمن القوات المسلحة الروسية معروفة منذ وقت طويل، لكنّ الحرب أوضحت المواقف غير الإنسانية للجيش كمؤسسة. كان هناك فوضى دالمة فيما يخص أرقام الإصابات، ورفض إخبار الأهماء عن مصير

أبنائهم وإشاعات المقابر الجماعية التي تخفي الخسائر الحقيقية. عند نهاية الحرب، قامت محطة التلفاز الوطنية آر تي آر بتصوير جنود يعيشون في خيمة إلى جانب جثث مينة في أكياس كبيرة. السبب الوحيد وراء انجلاء تلك الحقيقة هو اشتعال النيران بالخيمة واحتراقها.

أصبح الموقف أكثر سوءاً عندما تحولت القوات المسلحة في الشيشان من تجنيد الشباب إلى كبار السن بعقود جيدة الأجر - كونتراكتنكس. كان الاستخدام الواسع لهؤلاء المقاتلين يعني إدخال رجال أقسى وأكثر خبرة في مصاف المتطوعين، وليس مرافقين مجبرين على القتال. لكنهم لم يكونوا جنوداً محترفين بالمعايير الغربية، ولم تكن عقودهم تستمر أكثر من بضعة أشهر، وغالباً دون خبرة عسكرية سابقة عدا الخدمة الوطنية. مثل المرتزقة التقليديين، كان يتم توجيه بعض الأسئلة لهؤلاء الكونتراكتنكس، واعترف الجيش أن العديد من هؤلاء المتطوعين كانوا محكومين، وسكاري، وحتى مشردين يبحثون عن النجاة. قال البعض إنهم تطوعوا بدافع الوطنية أو بحثاً عن المغامرة، ولكن ببساطة لم يكن لدى الكثيرين منهم مكان آخر في المجتمع، وقال بعضهم - الأكثر بؤساً ربما - إنهم جاءوا إلى الشيشان لجني بعض النقود، وأخبرني أحدهم قرب شالي: "سأشتري براداً".

ساهمت التناقضات في العمر والأجر إلى حد كبير في إفساد القوات المسلحة. غالباً ما كان هؤلاء القادمون الجدد في الثلاثين من العمر، ويتلقون حوالي 360 دولاراً شهرياً، ويقودون بعضاً من المجندين الذين لا يتلقون رواتب لهايماً ويصغروهم بعشر سنوات. كان هناك توتر أيضاً بين كونتراكتنكس بعقود قصيرة الأجل وبين الضباط المحترفين الذين يعملون تحت إمرتهم ويكونون في أغلب الأحيان بنفس العمر.

كان الشيشانيون يكرهون الكونتراكتنكس بشكل خاص، ويففرون للمجندين لأنهم لا يجارون بمحض إرادتهم، ولكن المتطوعين - الذين يقاتلون من أجل المال - كانوا مكروهين ومستهدفين. كان يقال إن الكونتراكتنكس يجارون بقوة في المعارك لأنهم كانوا يعرفون بأنهم إذا وقعوا أسرى سيتم إعدامهم.

لعب الكونتراكتنكس دوراً قيادياً في البحث عن المقاتلين المحتملين، والانتقام والقيام بكل الأعمال القذرة ضد الثوار. كان الرجال الشيشانيون يخافون من نقاط التفتيش وخصوصاً التي كان الكونتراكتنكس يديرونها، والذين يتفحصون الكدمات على الكف الأيمن أو علامات أخرى على استخدام الأسلحة. كان الكونتراكتنكس يقتلون الرجال لأدنى شك، وكان ذلك يعني الدخول في نظام معسكرات التصفية السري وخارج نطاق القانون خلف الخطوط الروسية. كان الرجال في سن القتال يختفون في معسكرات في مدينة غروزني، وعلى أطراف الشيشان في قواعد عسكرية روسية منذ بداية الحرب. لم يعد أحد منهم أبداً. بحلول صيف 1995، كان هناك أكثر من 1000 رجل شيشاني على قائمة المفقودين. لم تتمكن منظمات حقوق الإنسان والصحفيون من دخول معسكرات التصفية، ولكن الرجال الذين خرجوا منها كانوا خائفين للغاية. قالوا قصصاً عن إبقائهم في حفر، وتعرضهم للضرب، وإحراقهم بلغائف التبغ، وضرهم بالحجارة، وحرقتهم بالمياه الساخنة.

كان العديد من الضباط المحترفين مرتبكين إلى حد ما من الحرب، وظلوا يحاولون استجماع تدريبهم وذكرياتهم في الجيش السوفياتي مع رؤيتهم للإخفاق التام حولهم. قال ضابط خارج ساماشكي في بداية صيف 1995: "يجب إنهاء هذا، والبدء بالمفاوضات". أشار إلى ساماشكي واعترف بأن القرية ليست تحت سيطرته رغم تطهيرها في هجوم الربيع. "إنهم يأتون في كل ليلة من الغابات ويطلقون النار علينا من الرشاشات والبنادق". عندما تكلم عن باموت، لم تكن الدعاية الرسمية في ذهنه. شكّل صدقه صدمة لنا: "هناك حوالي 100 مقاتل، ولكن من الصعب اجتياح ذلك المكان. لقد ضربناه، ولكنهم لم يتعرضوا لإصابات كبيرة في خنادقهم. إننا نضرب باموت كل يوم بالصواريخ، وتقصفها طائراتنا بين الحين والآخر، ولكن ذلك ليس فعالاً جداً. يجب أن نتحدث. وبالنسبة لي، إنني أريد الذهاب إلى المنزل. أنا متعب لأنني هنا منذ ستة شهور".

كانت معظم الإصابات تطال المجندين، وهم نتاج مجتمع لا يدعم الحرب وجيش لا يمكنه القتال. قال ليوند، الذي يبلغ من العمر 20 سنة: "لا أعرف إذا

كنت قتل أحداً، ولكنني أطلق النار كل يوم. أريد الآن الذهاب إلى البيت. ولا أعتقد أن هناك أحداً لا يحتاج إلى ذلك. نريد جميعنا الذهاب إلى المنزل. إن الكثيرين منا يموتون. لقد مات صديقي منذ كنا في رياض الأطفال في غروزي". ووقع المئات مثل ليوند أسرى، وغالباً ما كانوا يسلمون أنفسهم حالما يتعرضون للهجوم. حالما يصبحون أسرى، كان بعض الروس يموتون جراء قصف قواهم، ويتم إطلاق سراح البعض أو مبادلهم، وبقيت أقلية غير محظوظة منسية من حكومتها لفترة طويلة بعد الحرب. لكن لفهم اليأس العميق لجيش المجندين، يجب على المرء أن يقابل الفارين من الجندية؛ أولاد هربوا من أكبر الجيوش في العالم وذهبوا إلى العدو، كان الآخرون يقولون إنه يقوم بإعدام كل الأسرى.

كان هناك فارون من الخدمة العسكرية في جميع أنحاء جنوب الشيشان، وكانوا يطهون لوحداث الثوار، ويرعون الحيوانات، ويقاثلون أحياناً إلى جانب السوفييت. في توسيع غريب لتقليد الضيافة، كان الثوار يخفون المجندين الأسرى والفارين من الخدمة أن بإمكانهم الانضمام إلى المقاتلين إذا تحولوا إلى الإسلام، أو سيقون أسرى حتى مبادلهم. ولم يكن لدى الكثيرين منهم أي خيار آخر. كان البقاء مع الشيشانيين، الغرباء بالطبع، أفضل من العودة لمواجهة المحكمة العسكرية والحكم بالسجن بسبب فرارهم.

في بعض الحالات، كان الثوار يتصلون بذوي المجندين ويساعدونهم على تهريب أبنائهم إلى روسيا، ولكن كان هؤلاء قلة محظوظة. كان الشيشانيون يحتفظون بالعديد - قد يصل العدد إلى المئات - من أسرى الحرب ويبيعونهم من أسيرة إلى أخرى كضمانة لعودة أبنائهم المعتقلين من قبل الروس. بنفس الطريقة، قام الروس ببيع الشيشانيين أبنائهم، أو جثث أبنائهم مقابل مئات، وفي بعض الأحيان آلاف الدولارات. كانت تلك مقايضة بحياة البشر، والتي وصفها ألكسندر دوما قبل أكثر من قرن مضى.

وفي أحد المعسكرات الجبلية، قال روسي يبلغ من العمر 20 عاماً، ويدعى قسطنطين أنه فرّ من فوجه العسكري: "كنا مثل الحيوانات، وضربني ضابط بحجرة على قدمي مما أصابها بضرر بالغ، تطلب الأمر شهرين لتعافيا بعد أن قررت من

الخدمة. كان الكثيرون يفكرون بالفرار. ولم يكن أحد يرغب بالقتال". اعتنق قسطنطين الإسلام، وغير اسمه إلى يزيك، وانضم إلى وحدة ثوار تقاثل أبناء بلده. كان ساشا جندياً فاراً آخر ينضم إلى المقاتلين الشيشانيين، ويبلغ من العمر 20 سنة وهو من جنوب روسيا. وفرّ لأن ضباطه جعلوه يعيش في حفرة في الجبال، وبعد انتهاء فترة خدمته الإلزامية، وعندما كان يتوجب تسريحه من الجيش، قاموا بإبقائه ثلاثة شهور أخرى. كان ساشا متأكداً من أنهم لن يطلقوا سراحه أبداً، وأنه لن ينحو. وهكذا في أوائل الصيف، ترك سلاحه وتسلل إلى الغابة، حيث وجده الشيشانيون وأعطوه لباساً مدنياً، وأخذوه إلى معسكر شامل باسايف. وعندما التقبته صدفه بعد شهرين، كان قد غير اسمه إلى شيرازي، وكان يحمل مسدحاً، وقال: "أنا أعيش هنا مع الإخوة الشيشانيين".

"لقد توقفت قلبك عن الخفقان،

وصرخة "الله" تجملت في فمك،

لن ترى للشمس مجدداً،

لقد أخذك الله بعيداً،

وعندما قلنا وداعاً قبل رحلتك الأخيرة،

لهبنا لك بلقنا منضحي بحيلتنا،

ليكون القوقاز حراً.

كنت تستطيع المكوث في المنزل،

وتنظر إلى القمر على حيد،

ولكنك كتبت إلى هذه الأرض،

من أجل حرية هذا البلد الصغير،

لقد كتبت إلى هذه الأرض،

كتبت لتتخذ للشيشان من أعدائها،

واليوم، تموت لأجل الحرية.

أغنية محارب شيشاني في بلموت، نيسان 1995.

بالنسبة للشيشانيين، تحولت باموت لتصبح إحدى أساطير الحرب، إلى جانب الدفاع عن القصر الرئاسي والمركة ضد القوات الروسية في رأس السنة الجديدة.

بسبب تتابع الأحداث، أطلق عليها دودايف رسمياً اسم حصن باموت. وخلال 18 شهراً، ولغاية الاستيلاء على منازلها البالغ عددها 1300 في حزيران 1996، كانت تلك البلدة منبعة.

مثل قرى أخرى عديدة على خط الجبهة، كانت باموت تقع في وادٍ تحده تلال شاهقة مليئة بالغابات والتي كانت مثالية للدفاع. بنفس الأهمية، كانت نهاية القرية متاخمة للحدود مع أنغوشيا. كان الروس يستطيعون تطويق البلدة إذا تمسّى لهم مهاجمتها من تلك الجهة. لكن بسبب خوف موسكو من تورّط الأنغوش، أو حتى مناطق أخرى من شمال القوقاز، في الحرب كان الجنرالات المحبطون مقيدين فيما يمكنهم فعله في الأراضي الأنغوشية. كان باستطاعة القوات التحرك عبر الحدود، ولكنّ شنّ عمليات عسكرية في (أو حتى من) الأراضي الأنغوشية كان مستحيلاً.

مع تأمين جهتهم الخلفية، كان البويفكس في باموت يستطيعون استخدام قرية آرشي ضمن أنغوشيا للراحة والتزود بما يحتاجونه. كان العديد من لاجئي باموت يعيشون في آرشي، ويستخدمون القرية كقاعدة خلفية طبيعية. كانت المحاولات لقطع الصلة بين باموت وآرشي، سواء بالغارات الجوية وإرسال قوات برية، تنتهي بعد الاحتجاجات الغاضبة لرئيس أنغوشيا رسلان أوشيف.

من الجبهة الأمامية لباموت، والتي تطل على السهول، كان يمكن رؤية المواقع الروسية التي لا تبعد أكثر من 700 متر. كان هناك كتلة مبانٍ، وعربات مدرعة، وجنود مستهترون يتحولون في المنطقة، خلال أربع وعشرين ساعة في اليوم، كان البويفكس يسيرون دوريات في الضواحي، فيما يقوم قناصتهم باصطياد الروس من أماكن مخفية بين الأنقاض. من قمة التل على الخاصرة اليمنى، كانت مدافع الهاون والمدافع الأخرى الشيشانية تطلق النار على المعسكرات الروسية.

ورداً على ذلك، انهمرت قذائف المدفعية الروسية على باموت ليلاً ونهاراً، واشتعلت النيران في المباني المحطّمة، وتسببت بالمزيد من حفر الانفجارات. وتحول المسجد إلى أنقاض، وتعرضت المقبرة لوابل من النيران. انتشرت رائحة الأموات، والحيرانات المتفسخة التي هاجمتها الكلاب الشاردة، في أرجاء القرية. تعرضت

الغابات والسفوح حول باموت للقصف والضرب المدفعي العنيف بحيث تحولت التربة إلى فتات في الأيام الحافة. تحولت الأحراج إلى أجزاء ممزقة. لكن بعد كل قصف، كان الشيشانيون المبعثرون في مجموعات صغيرة، والذين يقولون دائماً قريين من الملاحي، يظهرون ويطلقون النار. في نيسان عام 1995، صدوا أربع محاولات اجتياح روسية بالدبابات والعربات المدرعة.

كان المقاتلون يعرفون أنهم سيمكثون هناك لفترة طويلة، ولهذا تكيفوا مع التضاريس المحيطة، وعاشوا حياتهم الطبيعية بشكل ظاهري. جاء معظم المحاربين من باموت نفسها، وكانوا يشيرون إلى الأماكن التي كانت منازلهم قائمة عليها والتي نشأوا فيها. كانت منازلهم تترأى لهم رغم عدم وجودها فعلياً، وكانت إحدى عباراتهم المفضلة: "هو ما آداتس" - لا مشكلة بالشيشانية.

كان مركز القيادة على ضفة نهر جار في شارع من المنازل المدمرة والأشجار الممزقة. بالقرب منه، كان يوجد حمام بخار ومنزل مؤلف من طابقين تلقى ضربة مباشرة، ولكن الحمام الموجود في الحديقة، والذي يعمل موقفه على الخطب، بقي سالمًا. دخلت مع بوفيكس ذي لحية كثيفة يدعى ماجومد إلى ذلك الحمام البخاري، ورشقنا أنفسنا بعدها بدلو من الماء البارد، ووقفنا بسرناويلنا ضمن الانقراض نرتجف من نسيم المساء، ونظرنا إلى الثلج البعيد؛ قمم القوقاز المكلفة بالثلوج. كان من الصعب التذكر أين كنا إلى أن ارتفعت أصوات قذائف المدفعية الروسية في الجو. استلقيت مباشرة على الأرض، ولكن القذيفة سارت في مسار مقوس فوق رؤوسنا وضربت موقعا في التلال الحرجية. وضحك ماجومد، وطلب مني العودة إلى الحمام البخاري.

لأنني كنت ضعيفاً، كان القائد خانزاد باتايف يدعوني دائماً إلى الغرف السليمة في بيت مركز القيادة المحطم، وكانت ريسا، الطاهية والمرضة، تحضر لي الشاي. عند العشاء، طهت ريسا حساء اللحم والبطاطا، وقدمته في أوعية صينية لي، ولخانزاد، وبعض المقاتلين. كان الأمر يشبه تناول الطعام في أجواء مسرحية. بدت الغرفة حقيقية، ولكن الغرفة المجاورة، المفصولة عنها بستارة على الباب، كانت كومة من الحجارة. لم يكن باستطاعة أحد التخمين كم من الوقت ستبقى

غرفتنا صامدة. بدأ القصف خلال تناول العشاء، واهتزت الجدران وأكواب الشاي. قال خانزاد: "لا تقلق. لن يحدث لك مكروه هنا. أنت محاط بالمؤمنين". اعتقدت أنه يمزح، ولكن الشيشانيين يؤمنون حقيقة بتلك المعتقدات.

كان أفراد وحدة خانزاد يضعون الذخيرة في القبو الإسمنتي، وينامون بكامل ملابسهم، وكانت بنادقهم وقاذفات القنابل اليدوية على رف فوق رؤوسهم. ولمدة ساعة في إحدى الليالي، كان موفلادي الذي يبلغ من العمر 17 سنة، بعينه اللامعتين وسرواله الأصفر، وحذاء لاعبي التنس، وخوذة الجيش الروسي يغني مع قيثارته داخل القبو.

"لماذا هتَمّ الذئاب بغراتشيف؟" ولماذا هتَمّ النور بيمولوف؟". كانت تلك لازمة الأغنية، وقد ابتهج الجميع وصرخوا "الله أكبر"، وانهمرت الدموع من أعينهم من شدة الضحك. لم يكن موفلادي يتمتع بصوت متميز، ولكن الجميع استمتعوا بذلك التلميح لحياقم السابقة. وبدأ بعض المقاتلين ينامون مثل الأطفال.

يتمشي شعب باموت إلى قبيلة ملخي، وهي إحدى أكثر القبائل انفلاقاً وحفاظاً على التقاليد في الشيشان. وبالنسبة لهم، لعبت الصوفية دوراً هاماً. خلال ليلة هادئة في نيسان، تجمع ثمانية أو تسعة مقاتلين في ساحة مركز القيادة، وقاموا بأداء الذكر. في البداية، كان الغناء نشازاً دون لحن، ولكن كما يحدث غالباً، نسج الذكر حياة خاصة به. ترافق الإيقاع بالتصفيق، وطريقة التنفس الخاصة به، والتعرض للهواء الذي ينشط الذهن، وسرعان ما أخذ المقاتلون يهتفون ويتصيبون عرقاً، غافلين عن أصوات نيران الأسلحة على مشارف القرية وأول الشهب النارية الروسية بالوالماء الحمراء والخضراء عند الفسق.

أخذت الأحذية تطحن القرميد والزجاج المكسور، وتحول المقاتلون إلى كينونة متحدة، وكانوا يصفقون، ويدورون، ويغنون الأشعار واللازمة "لا إله إلا الله". كانت وجوههم تبدل. وعندما كانوا يضربون الأرض بأقدامهم، كانت تشابك أمشاط ذخيرتهم، وتعلو أصوات سكاكينهم. عند الذروة، كان يحس المقاتلين التهالك، ويصيحهم الهياج، ويصبحون - كما أعتقد - مستعدين للقتل والموت. لقد أبعدوا أنفسهم عن هذا العالم. في نهاية الذكر، كان أحد الرجال يأمر

بالمصلين، ويستطيع المرء أن يشعر بالمقاتلين يعودون إلى الأرض مجددًا. لقد أصبحوا رجالاً مختلفين، كما لو أنهم رأوا العالم الآخر، وعرفوا أنهم إذا لقوا حتفهم خلال الليل سيذهبون إلى الجنة. لطالما تساءلت فيما إذا كان الروس قد سمعوا مقتطفات من ذلك الذكر وهم في خنادقهم. سيكون ذلك مربعاً.

كانت باموت مكاناً مظلماً، ويدافع عنها رجال أشداء، وقساة، وشريريون في بعض الأحيان. كانوا يقومون بإعدام أي كونتراكتنيكس يقبضون عليه. كانوا يحفظون حياة المخندين، وكان عليهم للنجاة من قصف الجيش أن يعيشوا مثل الضراصر في الأقبية والمخايئ. كانوا يعتبرون أي أجنبي جاسوساً محتملاً لأن نجاحهم كانت تعتمد على عدم معرفة الطائرات والدبابات الروسية لمواقعهم بالضبط، وكان الشيشانيون يخافون بشدة من الطابور الخامس. اختفى فرد كني، وهو خبير مساعدات أميركي، أرسلته مؤسسة سوروس المتمركزة في نيويورك، لدراسة الوضع الإنساني، في ربيع عام 1995. كانت باموت آخر الأماكن التي شوهد فيها، ومن المحتمل أنه لقي حتفه هناك على خط جبهة ستاري أيتشخوي المجاورة، قد يكون ضحية هوس التحسس. لقد قضت عائلة كني شهوراً خطيرة في الشيشان، ولكنها لم تستطع مطلقاً إيجاد جثته؛ وهناك دليل قوي على أن قتلته كانوا مهتمين بالبقاء غير معروفين مهما كلف الثمن.

عندما قمت برحلة في الشتاء، بعد ثمانية شهور من زيارتي الأولى، واجهت صعوبة كبيرة في التعرف على البويفكس. أصبح الشباب رجالاً قساة تحكم الرية أفعالهم. لم يعودوا يزعمون أنفسهم بسوالي عن العالم الخارجي. أصبحت الضيافة شكلية، وأخذ المزيد من الناس يشكون بأنني جاسوس أو خائن ولست ضيفاً. غادرت الطابية والمرضة ريسا المكان، وأصبح المقاتلون يشعرون بالجلوع في أغلب الأوقات، وكانت خنادقهم رطبة وباردة.

كانت الليلة مرعبة، فقد سقطت صواريخ غراد على الشوارع، واحداً تلو الآخر، وبالقرب من بعضها بحيث لم يعد ممكناً تمييز الأرض من السماء، وركضنا إلى القبو. اشتعل سقف المنزل الذي كنا نقيم فيه والحطم أصلاً بالنيران، وخرج بمحمدان روسيان أسيران يحملان دلاء الماء لإخماد النيران. انطلقت أضواء إنارة

صفراء من المواقع الروسية، وغمرت الحجارة بضوءٍ شاحب. دخل بوفيكس يلغ من العمر 17 سنة، وكان يمشي في الخارج عندما ضربت صواريخ غراد الشارع، إلى القبر منفلاً، وكانت عيناه تلمعان خوفاً وقد شحب لون وجهه. بعد دقائق، خرج مع شخص آخر يبلغ من العمر 17 سنة ليوديا مناوبتهما في المواقع الدفاعية في الضواحي. وكان كلٌ منهما يحمل بندقية ويرتدي سترة غير ملائمة وقبعة تزج. ولم أطق صبراً كي أغادر.

بلموت

في اليوبيل الذهبي للانتصار في أوروبا في 9 أيار عام 1995، أمر الرئيس يلتسن بعقد هدنة في الشيشان. كل الشيشانيون يعرفون بأنها مجرد كذبة، وكانت القوات الروسية تعرف ذلك أيضاً. لكن قادة الغرب الذين اجتمعوا في موسكو والتفوا يلتسن للاحتفال بالسلام العالمي تظاهروا بأنها حقيقة. تمّ تحديد الهدنة من نهاية نيسان إلى 11 أيار؛ عندما سيفادر القادة الغربيون إلى ديارهم ستبدأ الحرب رسمياً من جديد.

ظهر واضحاً أن قادة الغربيين ساخطون لأنه لم يشارك أي محارب شيشاني قديم في الاستعراض العسكري في الساحة للحمراء، وشرح للناطقون الصحفيون بأن ذلك يشير إلى موقف الغرب الثابت من الشيشان.

ثم، وللتأكيد على مبادئهم، قام القادة الغربيون - جون ميجر، وهلموت كول، وبيل كلينتون - برفض دعوة ثانية لحضور استعراض عسكري أكبر. أعلنت الأخبار: "إنهم مهتمون بأن لا يظهروا كمن يقدم الدعم للعمليات العسكرية في تلك المنطقة الانفصالية".

في مؤتمر صحفي في 10 أيار مع الرئيس كلينتون، صرح يلتسن بكذبة مكشوفة: "لا توجد عمليات عسكرية الآن في الشيشان. وما يجري هو عمل بناء". ولم يستقر كلينتون، وقال: "إن الإصابات التي تعرض لها المدنيون، وتمديد فترة القتال، سببا متاعب جمة لبقية العالم".

في نفس الوقت تملأً لاذي كان فيه الاثنان يقفان أمام الصحافة العالمية، ومباشرة على التلفاز، كانت المروحيات تنصف ميرزين بورت.

عند بداية هدنة يلتسن الزائفة، قام دبلوماسيون من منظمة الأمن والتعاون في أوروبا بزيارة بلموت للمرة الأولى. كان مبعوثهم متوقفاً منذ عدة أيام، ولهذا كان اللاجنون خارج بلموت والمقاتلون داخلها نافذي الصبر. حالما سيري هؤلاء الأجانب ما حدث بأنفسهم، ستهم حكوماتهم ما يجري وستتقنع الغمامة عن أعينهم.

جاء مفوضو منظمة الأمن والتعاون الأوروبية للخمسة في حافلة صفراء من لغوشيا. أظهر المقاتلون الشيشانيون عنفانهم وقادوهم في جولة في أرجاء باموت. كان يوماً مشمساً، ولم يكن هناك تبادل لإطلاق النار، وكان الجو هادئاً. شعرت بالفرح للشيشانيين.

لكن هناك شيء ما خاطئ. ولم يكن كل شيء على ما يرام مع مفوضي منظمة الأمن والتعاون الأوروبية، الذين بدوا مثل المصباح، بثيابه للضفاضة المخصصة للرحلات، والطريقة التي التقطوا بها صور الشوارع المدمرة، أكثر منهم لجنة تقصي حقائق. كان هناك انطباع بأنهم يتحدثون إلى بعضهم البعض بدلاً من التحدث للشيشانيين. سألت أحدهم، وكان أنطو - فرنسياً، ومهذباً، ودمناً وبدعي لوليفر بيلان لماذا لم يكن هناك أثر لوقف إطلاق النار على العمليات القتالية. تكلم لمدة 10 دقائق دون توقف، ولم يكن لديّ أدنى فكرة عما كان يتكلم عنه. لقد قال شيئاً حول شدة تحديد الموقف، مع 'مستويات ضمن مستويات'، و'شكليات' ومحاضرة عن قرار 'لتأجيل' وليس 'إيقاف' النار. فتحت فمي، ثم أغلقته بسرعة خوفاً من جرعة أخرى من الأشياء التي لا أستطيع فهمها.

بالقرب من طرف القرية عند خط الجبهة، تم اكتشافنا وتعرضنا لنيران مباشرة. لم يتم استخدام أسلحة ثقيلة ضدها، ولكن تم إجبارنا على الجلوس والانتظار تحت جدار محطّم، وعلى بعد عدة ياردات فقط من بقايا متقدمة لدبابه روسية. ضربت رصاصات القناصة الأرض على بعد عدة أمتار خلف الجدار، وسمعت صوت قذائف للهول تمر من فوق رؤوسنا نحو القرية. انسحب فريق منظمة الأمن والتعاون من المنطقة.

قال رئيس الوفد، وهو هنغاري يدعى ساندور ميزاروس: "نأمل بأن نتمكن من إقناع الفرقاء باستخدام هذه الفترة للبدء في محادثات وقف إطلاق النار. بكل الأحوال، لا تزال الآلة العسكرية فتالة كما شاهدنا اليوم". نظر المحاربون للشيشانيون، للمتلفون والمتحمسون، إلى ذلك الرجل بعزيم من الأمل وحسن الدعاية.

كانت أرشنتي المحطة التالية لوفد منظمة الأمن والتعاون الأوروبية، والتي يعيش فيها سكان باموت في المباني المدرسية، وحظائر الماشية، والمنازل المكتظة. حاصر المدنيين للسماء للمبعوثين مباشرة، كما لو أنهم يحاولون لمس أثريهم.

كان رجل يدعى موفلاي يحاول إخبارهم بأنه فقد كل شيء؛ وكان شخص آخر يصرخ بنفس العبارة القديمة: "لماذا لا يفعل الغرب شيئاً؟".

في السبيلة، أضي الدبلوماسيون رؤوسهم بوقار، وبعدها بدأ أحد الأشخاص بكتابة ملاحظات على دفتر صغير. ثم بدأت الأمطار بالهطول، وأستطيع القول إن المسؤولين الرسميين لم يكونوا يصغون عندها، وصعدوا بعد ذلك إلى الحافلة، وتركوا الشيشان

بانتظار "ررار التأجيل". سألت موفلادي فيما إذا كانت أماله قد تحققت. وقال: "إنهم أناس جيون، ولكن هذا بلا جدوى. لقد لقوا، وألقوا نظرة سريعة وغلروا. سوف يذهبون إلى منازلهم، ويشربون بعض الفودكا، ويرتاحون. ثم سيخبرون رؤساءهم بما يرونه الأفضل في ذلك الوقت، إنهم لا يهتمون بنا حقاً. يجب أن يبقوا، ويرون كيف يموت الناس هنا، وكيف لا يستطيعون إيجاد ما لكلونه، وكيف تعيش عائلتي الآن في مزرعة مع الحيوانات لأنه ليس لديها مكان تذهب إليه. عندها سيكون لديهم فكرة عما يجري هنا".

كان ذلك صحيحاً. لقد بقيت في أرشتي، ولقيت تبعد عن بلوت 4 كيلومترات، وعندما بدأ لقصف، اهتزت الأرض تحت قدمي، وتحطمت النوافذ وهزّ اللاجئون حولي رؤوسهم بصمت.

في منتصف أيار عام 1995، بدا أخيراً أن الروس سيخترقون المقاومة، وسوف يصلون إلى الجبال. كانت جدران الحصن الجبار، كما كانوا يصفونها في القرن التاسع عشر، على وشك الانهيار. بالمحصلة، أصبحت قمم التلال والقرى النائية، والتي كانت نقاطاً منيعة قبل قرن مضى، أهدافاً سهلة لقاذفات سوخوي - 25. وقال الجنرال ميخائيل يوغورف، قائد العملية إنه مستعد لإنهاء الهجوم على الجبال باستخدام "كل الوحدات والوسائل الممكنة".

كانت الجائزة الكبرى فيدنو، وهي مكان مثقل بالتاريخ، ومسقط رأس شامل باسايف والعاصمة شبه الرسمية للشيشان - أشكريا. مع بداية الصيف، كانت السماء صافية كل يوم، والطائرات تحوم مثل قطط حول وعاء مليء بالأسماك. لدى قيادة السيارة عبر التلال الخضراء، كانت نظراتنا معلقة خارج النوافذ باتجاه السماء الصافية بحثاً عن الطائرات النفثة التي تطير على ارتفاع عال. كان الشيشانيون يتناوبون في الجلوس على سفوح التلال، ويرقبون المظليين، ويطلقون نيران بنادقهم بشكل غاضب وعاطفي على الطائرات.

بقيت مع أناتول ليفن في حاجي يورت، وهي قرية مواجهة لفيدنو عبر السوادي. تعرضت هي الأخرى لقصف شديد، وهجرها معظم سكانها مثل معظم القرى. عندما غمنا في قبو مع إسلام، وهو أحد ستة رجال بقوا في القرية، كنا نستطيع سماع الطائرات تضرب فيدنو خلال الليل. في الصباح عادت تلك الطائرات، وكنا نراقب فيما كانت تحلق وتنقض بسرعة، وتطلق صواريخها، ثم تعود مرة أخرى لتجتمع وتطلق النار من جديد.

صمدت دولة دودايف في فيدنو نفسها. كان الناس يضبطون سعالهم على توقيت دودايف، والذي يسبق توقيت موسكو بساعة واحدة. اتخذت القيادة المحلية مقرأ لها في المباني الحكومية في وسط القرية، والتي كانت هدفاً واضحاً للغارات الجوية، ولكنها كانت تتمتع بكل ما يلزم للحفاظ على المظاهر. جعلنا إداري بليد نقوم بتسجيل أسمائنا إشباعاً لرغبته في الروتين، ولكن الغارة الجوية الثالثة في ذلك اليوم قطعت تلك العملية مما جعله يشعر بالحرج.

أنكرت القوى الجوية الروسية استخدام أي قنابل مريية، ولكننا رأينا الشظايا على الأرض حيث كان الشيشانيون يجمعون الأجزاء بجد. كان هناك قنابل عنقودية والتي نتج عنها قطع صغيرة مليئة بالشظايا، وقنابل مسمارية. في السهول، عالج الأطباء ضحايا انفجار القنابل المسمارية، والتي نشرت آلاف السهام الشائكة الملتصقة. بالطبع، أنكر الروس ذلك أيضاً، وأنكروا أنهم قصفوا دور الأيتام، وسيارات المدنيين ومنازل الشيوخ. غالباً ما كانوا يُنكرون أن طائراتهم تقوم بطلعات أصلاً.

في معظم الأحيان، كانت الطائرات تلقي ما يسميه الشيشانيون قنابل العمق. كانت هذه القنابل تتسبب بحفر في حجم بركة سباحة، وينتج عنها ليس تدمير المنازل وحسب، وإنما اختفاؤها نهائياً. مؤخراً، ضربت إحدى تلك القنابل الطريق الإسفلتي الرئيسي من فيدنو إلى خط الجبهة في سيرزن يورت، وضربت قبلة أخرى منزل عائلة شامل باسايف، وحوّله إلى أنقاض بمستوى ارتفاع الركبة. لم يكن باسايف هناك، ولكن أحد عشر شخصاً من أقاربه لقوا حتفهم. قال باسايف دون تردد عندما سأله عن القصف: "لم يكن شيئاً مهماً". رجل صلب!

خلال الغارة الجوية التي قطعت تسجيلنا، هاجمت الطائرات وسط القرية بقنابل الأعماق ودمّرت عدة بيوت، وقصفت مزرعة في الضواحي مما أدى لمقتل رجل يبلغ من العمر 57 سنة، كان يرعى الماشية. السبب الوحيد لعدم قتل المزيد من الناس هو أنه لم يبق الكثير منهم. بعد أن حلّقت الطائرات بعيداً، تمّ إحضار جثة الراعي للدفن، كان رأسه وساقه اليمنى مفقودين، ولكن الفروين وضعوه في الغرفة الرئيسية وغسلوا البقايا. في الخارج، وقف 20 شيخاً ملتجئاً، والذين كانوا يرتدون قنصوات ضيقة، ويمشون بمساعدة العصي، في دائرة وصلوا.

خلال التراجع من السهول إلى الجبال في آذار، كان هناك رهَاب الأماكن الضيقة الذي يجب أن تشعر به الماشية عندما تعبر إحدى البوابات. كان الطقس صافياً للغاية في فيدنو في ذلك الوقت، ولم يكن ذلك تراجعاً، ولكنه الوقفة الأخيرة، والإحساس بحقيقة أن الوقت بدأ ينفد مما يجعل الزمن يتوقف. إلى جانب الصحفيين أو الأطباء في منظمة "أطباء بلا حدود"، لم يكن هناك أشخاص من العالم الخارجي. كانت الشوارع الطويلة الفارغة تجعلك تشعر بالأهمية الذاتية وليس الوحدة، وكلما قابلت أشخاصاً غير اعتيادين، كلما بدوا طبيعيين أكثر.

أحاطت الشائعات الغريبة بفرقة من الرجال الذين يرتدون الثناير، والذين بدوا لكل العالم مثل راقصين اسكتلنديين، ورغم أننا لم نر أي ثناير، إلا أننا شاهدنا كل الأشياء الغريبة والأبطال الذين تجمعوا في الوقفة الأخيرة. سمعنا أن إمام علي - سلطانوف، المطرب الوسيم، والذي أصبحت أغانيه حول الحرب أناشيد للمقاتلين، موجود في مكان ما في القرية.

كان هناك شخص قدّم نفسه على أنه زميل صحفي هولندي، ولكنه كان يحمل بندقية كلاشينكوف ولا يتكلم الروسية. كان هناك امرأة مقاتلة، تحمل بندقية ولها تسريحة شعر خاصة، تمشي على طول الشارع الرئيسي. وكان هناك عدد من المحاربين الذين ادعوا بأنهم أسقطوا طائرة بأنفسهم، والتي تنثر حطامها على كل الطريق أسفل فيدنو. كان هناك سيارة الفولغا السوداء التي تعود للحاكم خلال العهد السوفييتي، مع هاتف كان من الواضح أنه لم يعمل منذ سنين، وكان هناك غسان باسايف الطبيب المتعب والشجاع، والذي كان يعمل لوحده في مبنى مدرسي آنذاك لأن مستشفىاه تعرّضت للقصف.

توقف هناك جوهر دودايف، واختفى بعدها عائداً إلى الجبال، ثم جاء مسخادوف ليتحدث بأمور استراتيجية مع باسايف، وباحثاً في كل أنحاء العالم وكأن الحرب تسير وفقاً لإرادته: "اعتقدوا أن هذه ستكون نزهة ضد بعض قطاع الطرق، وأن كل شيء سينتهي في غضون ساعات، إنهم لم يدرسوا الشخصية الشيشانية وتاريخنا، وإذا استطعنا الصمود لشهر، سيكون ذلك انتصاراً ضد مثل هذا الجيش الضخم، وبعد ستة شهور، سيكون الانتصار عظيماً... إن

روسيا لا تستطيع الانتصار هنا، إنها مثل أفغانستان أو فيتنام. الهزيمة تنتظرهم، وأنا أضمن ذلك".

عندما مشيت مع آتاتول إلى الجبهة في سيرزن يورت، لم يستطع المقاتلون إخفاء مدى سوء الوضع، وبدوا نصف سكارى من العنف، والتوتر، والإرهاق. نظر أحدهم، والذي قال إنه يُدعى 0.545، تيمناً بعبارة البندقية الآلية، على مجرى الدمع وقال: "إن كل قادتنا فهران، إنهم يجلسون في فيدنو، ويختبئون من القتال الحقيقي. إننا لا نقاتل من أجلهم، وإنما نقاتل من أجل الله وأقاربنا ورفاق سلاحنا القتلى. نحن لا نريد أحداً، دودايف أو مسخادوف، إننا نريد الله فقط"، وصلى بإيجاز، وسأله لماذا يرتدي عمامة حمراء وليس عمامة المسلمين الخضراء مثل معظم الآخرين. وقال: "إنها ترمز إلى دم أخي. لقد لقي حتفه في غروزني. إنني أحارب الآن من أجل دمه".

في الشارع المركزي لسيرزن يورت، حيث طال الدمار كل منزل فيه، وكانت النيران لا تزال تشتعل من آخر غارة جوية، كان هناك شاب يبلغ من العمر 27 سنة، ويدعى بيسلان يركيف، ويحمل سلاحين مضادين للدروع على ظهره وبندقية في يديه، ورفع عينيه الحمراوين، وقال: "دعهم يدمرون كل شيء. سنستمر في القتال".

عند القاعدة الخلفية لسيرزن يورت، والتي تبعد حوالي الكيلومتر عن القرية، كان لدى المقاتلين ست عربات مدرعة، ومخاضع نجاة بين الأشجار. كانت ملكة الأسلحة الثقيلة في سيرزن يورت عربة مدرعة تحمل منصة إطلاق صواريخ لطائرة روسية، والتي حصل عليها المقاتلون إما من طائرة تم إسقاطها أو اشتروها من السوق السوداء. قال أحد الشيشانيين مبتسماً: "إنها بطلتنا - لقد صددنا هجوماً كاملاً بهذا الشيء". كانت إحدى الآليات الموجودة في للعسكر معطوبة من كثافة إطلاق النار، فيما فرغت إطارات عربة مدرعة من الهواء، وتعطل محرك عربة أخرى وتعذر إصلاحه. قال بوفكس يدعى صديق: "يجب أن نكون حذرين في استعمال ذخيرة بنادقنا الآن".

فيما كنا نتحدث، سمعنا أصوات محركات نفثة عالية في السماء. لم يكن هناك قصف، وإنما مجرد ضجيج الطائرات التي تحوم بشكل متكرر. جلس الجميع

بهدوء تحت الأشجار، يشربون الشاي الأسود المغلي على الحطب، أو دخلوا إلى المخبأ. قال صديق: "إنهم يفتشون عنا. إنهم يبحثون عن هذه القاعدة". لقد كانوا يلاحقونا.

بالعودة إلى فيدنو، كان مستخادوف حليق الذقن، ومغتسلاً ويرتدي بدلة مموهة جديدة. احتشدنا حوله فقد تراجع من غروزني إلى السهول إلى سفوح التلال، وإلى أين لاحقاً؟ وبالنظر إلى الخريطة: لم يكن هناك مكان للذهاب إليه خلف سفوح التلال، وإنما مجرد الرسم الطبوغرافي المشوه للجبال التي يبلغ ارتفاعها 15.000 قدم.

إلا أن مظهره أو كلامه لم يكونا لجنرال يريد الاستسلام. لم تتغير شروطه للدخول في محادثات سلام في كل مرة. كنت أتحدث فيها إليه؛ إنهاء الحرب، وإخراج القوات، ثم التحدث عن الاستقلال. أولاً، إيقاف الحرب. "هل نريد استفتاء؟ هل نريد انتخابات؟ هل نريد محادثات، أو أنواعاً أخرى من العلاقات المتبادلة مع روسيا؟ ما هو شكل تلك العلاقات؟ لندع الشعب يقرر ذلك. نحن مستعدون لكل شيء، ولكن فقط بعد إيقاف الاعتداء وانسحاب القوات.

كان يتحدث بهدوء كما يفعل دائماً، ولكنه بدا خطيراً. "إذا لم تقبل روسيا بهذا، فإن الحرب ستأخذ منحى آخر، وسيفيق الناس النائمون، ثم ستصبح حرباً دينية". لا استسلام.

بعد ستة أيام تماماً، وفي 3 حزيران، اندفعت المدرعات الروسية والجنود المحمولون بالمرحيات عبر الدفاعات الشيشانية إلى الغرب من فيدنو، في جزء من الهجوم المفاجئ عبر الجبهتين الوسطى والشرقية، من شاتوي إلى نوزاي يورت.

عوضاً عن الهجوم الجبهوي المعتاد، كانت العملية مزيجاً معقداً من الانتشار السريع بالمرحيات والاندفاع على فيدنو من الخافرة والخلف. تباغت الشيشانيون، وحولوا وقفتهم الأخيرة إلى انسحاب خاطف، وتخلوا عن سيرزن يورت وفيدنو قبل أن تطوقهم القوات الروسية التي دخلت فيدنو دون قتال تقريباً. يوم الأربعاء الموافق 14 حزيران، وفي ظروف مشاهة، احتل الروس شاتوي، المركز الجبلي الرئيسي.

كان المقاتلون الشيئان عندها إما قتلى أو محتفين داخل الغابات الجبلية العميقة والقرى النائية، وكانت كل من باموت، أورخوفو، وستاري آنشخوي لا تزال صامدة في الجنوب الغربي، ولكنها كانت حرباً صغيرة ذات أهمية استراتيجية محدودة للجمهورية بأكملها. كانت حقيقة الاستيلاء على شاتوي تعني أن القوات الروسية تقف عند مفترق كل الطرق الرئيسية في الجمهورية، وأن العلم ذا الألوان الثلاثة يرفرف على المباني الحكومية من غروزني إلى الجبال. في موسكو، التي كانت التحضرات فيها تجري على قدم وساق لزيارة الأميرة ديانا، اعتبر المسؤولون أن الحرب قد انتهت عملياً.

وفي نفس اليوم، أي في 14 حزيران، تم نشر مقال غريب في جميع وكالات الأنباء الروسية مفاده حصول إطلاق نار في بلدة روسية هادئة تدعى بودنوفسك، وأن مركز قيادة الشرطة تعرض للهجوم، وأن الرجال كانوا يقفون على سطح مستشفى البلدة بالرشاشات. كانت هناك مشاهد غير مؤكدة للراية الخضراء - الحمراء - البيضاء.

انتشر الرعب بين الناس مثل صورة فوتوغرافية يتمّ تظهرها في محلول سائل. بطريقة ما، تسلل شامل باسايف مع 150 من المقاتلين الانتحاريين إلى بلدة روسية تبعد 240 كيلومتراً عن فيدنو. كانوا يركضون مثل المجانين، ومركزوا في مستشفى مع 1500 رهينة وأكوام من المتفجرات. لم يكن لدى باسايف سوى مطلب واحد: إيقاف الحرب.

4. للشار

يقولون إننا جبناء، ولكن دعمهم وشأنهم. لن نجلس هنا في الشيشان فقط لنبحرنا. خذت لنا مستقلاً في روسيا، وسيكون هناك الكثير من الأهداف الأخرى. لدينا مولا مشعة وأسلحة بيولوجية تركتها لنا روسيا. نستطيع وضع أسلحة بيولوجية في يكتورنبرغ، وجعلهم مرضى جميعاً. لن نحتاج الأمر لأكثر من شخص واحد لوضع البورانيوم في موسكو. هكذا يموت أحد رجالنا، وتموت المدينة كلها معه... إذا بصق أحد في وجهك لمدة نصف علم، ألا ترد له ذلك ولو مرة واحدة؟ هذا ما فطناه وسكرره ثانية.

شامل باسايف من مخبأه الجبلي بعد الغارة على بودنوفسك.

هاجم الشيشانيون بودينوفيسك بطريقة النابغ (قاطع الطريق) القلم - وهو هجوم مفاجئ عبر الحدود يهدف إلى أسر الرهائن والتسبب بدمار هائل في أسرع وقت ممكن - وذلك باستخدام رشاشات ومضادات دروع القرن العشرين التي تسبب برعب كبير.

كانت قسوة مقاتلي البويغسك، الذين يبلغ تعدادهم 100 - 150 مقاتلاً، بإمرة شامل كبيرة. اختبأ هؤلاء في شاحنات مغلقة، وتسلكوا على طول الطريق الذي يخترق الجبال المحاصرة، وعبر السهول وصولاً إلى مدينة بودينوفيسك في مقاطعة ستافروبول، وهي مكان هادئ لا يوجد فيه سوى معمل للبلاستيك وقاعدة جوية تستخدمها الطائرات لقصف الشيشان.

يدّعي باسايف بأنه اخترق نقاط التفتيش الروسية، الواحدة بعد الأخرى، بدفع آلاف الدولارات كرشاوي. قد يكون هذا صحيحاً. وفي غالب الأمر، استطاع الشيشانيون التسلل باستعمال الرشاوي وبعض الحيل البسيطة. ليست المنطقة الواقعة بين الشيشان وبودينوفيسك مزدهمة بالسكان، وتحليل متأن يبنو أنّ الشيشانيين قد التفوا في البداية شرقاً عبر داغستان، ثم نحو الشمال لتطبيق القوات ومخاطر الشرطة بسهولة. وبدا لي أحد سائقي الشاحنات التي أقلت المقاتلين، والذي التفتت به فيما بعد، شيشانياً أشقر الشعر وهو يبنو للوهلة الأولى روسياً. بقي ذلك الإنجاز مدهشاً، في وقت كانت فيه الشيشان قد خضعت في معظمها للروس.

خارج بودينوفيسك، دخلت المجموعة أخيراً في مواجهة مع الشرطة التي شكّت بالأمر. بقي المكان الذي كان يقصده الشيشانيون غامضاً، وقال البعض إنه معمل البلاستيك. وفقاً لباسايف، كان ينوي الذهاب إلى أبعد من ذلك، ولكنه قرّر البدء بهجوم مباشر على بودينوفيسك نفسها بعدما افترض سر تحركات قواته. قد يكون الشيشانيون خططوا لاستهداف مركز بودينوفيسك، وحكوا تلك القصة لاحقاً للتغطية على استراتيجيتهم. سارت الشاحنات نحو وسط المدينة، وانتشر منها مقاتلو بويغسك في كل مكان لإرهاب السكان. خلال بضع ساعات، احتاحوا قسم الشرطة والمباني الحكومية، وقتلوا العديد من المدنيين في الشوارع واحتجزوا

مئات الأشخاص، وأجبروهم أحياناً على الخروج من منازلهم، ثم قادوهم إلى المستشفى. كان من بين أسرى تلك المدينة طاقم ومرضى المستشفى. استطاع الشيشانيون الحصول على 1500 أسير، فيما قال البعض إنهم 5000 أسير. كانت تلك واحدة من أكبر عمليات احتجاز الرهائن في التاريخ.

قبل أن تتمكن قوات الأمن الروسية من الرد بقوة، زرع شامل باسايف الألغام على مداخل المستشفى، ووضع مقاتليه المزودين بالرشاشات والأسلحة المضادة للدروع في مواقع دفاعية، وأعدم العديد من الطيارين الموجودين بين الرهائن، وأضافهم إلى حمولة سيارة من الطيارين الذين مزقهم إرباً خلال هجومه على البلدة. كان الاعتداء مثيراً للاشمئزاز. ومهما تكن الأعداء، فقد احتجأ مقاتلو باسايف خلف ظهور النساء والمرضى والحوامل والأطباء والأطفال. ونجح في تحقيق المطلب الوحيد الذي وضعه للسلطات المغلوبة على أمرها وهو: بدء محادثات السلام في الشيشان.

كان الرئيس يلتسن خارج البلاد في هاليفاكس منشغلاً مع قادة الدول السبع الكبرى عندما كانت بودينوفسك تحترق. وتكلم باحتقار عن قطاع طرق يضعون عصبة سوداء على رؤوسهم وتعهّد بمواجهة الموقف دون رحمة. وأشار، إلى جانب بافل غراتشيف، وبطريقتهما المعهودة بأن الهجوم على المستشفى لتحرير الرهائن سيكون أفضل ردّ على تلك العملية.

كان واضحاً بأن الهجوم سيكون بمثابة الكارثة: لم تكن القوات الروسية، التي أظهرت ضعفها خلال الحرب على الشيشان، مزودة بتجهيزات جيدة لتشن هجوماً على المبنى المسمى بالرهائن، والذي يدافع عنه 150 مقاتلاً انتحارياً مدحجين بالسلح. لكن الهجوم استمر بالتقدم. أصابت الدهشة ملايين مشاهدي التلفاز، الذين لم يسبق لهم أن رأوا أو اهتموا كثيراً بحمام الدم في الشيشان، عندما احتاحت قوات كوماندوس ألفا والمدعومة بقذائف الدبابات ونيران المدفعية المستشفى وهي تطلق النار عبر نوافذه. في غضون دقائق اشتعلت النيران بالمبنى، وتساعد دخان كثيف من السطح. وعرف أي شخص شاهد ما حدث بأن الهدف الرئيسي كان قتل الشيشانيين وليس إنقاذ الرهائن. توقف الهجوم عندما أجبر الشيشانيون الرهائن

على الوقوف أمام النواذ والتلويح بالرايات البيضاء والصراخ. بعد وقت قصير من ذلك، تمكّن الشيشانيون من صد هجوم ثانٍ للكوماندوس.

كانت العملية برمتها نسخة مصغرة للحرب في الشيشان خلال الشهور الستة الأخيرة: يحتل البويفسك مواقع مليئة بالمدنيين، ولا يحاول الجيش الروسي تجنب إصابتهم. رغم مستوى العنف الهائل، إلا أن الجيش يفشل في القضاء على عدوه. ما جعل الأحداث في بودنيوفيسك مختلفة جداً عن غيرها ألما تقع في جنوب روسيا، وفي مدينة روسية وأمام شاشات التلفزة الروسية. بالنسبة للروس، كان الهجوم على مستشفى بودنيوفيسك مخزياً لهم، ولكنه فتح عيونهم على أمور أخرى، منها استعراض آلام الحرب، وعدم كفاءة حكومتهم، وإصرار هؤلاء المقاتلين القادمين من الجبال. بعد فشل الهجوم الثاني، قام رئيس الوزراء الروسي فيكتور تشيرنوميردن، وبغياض يلتسن، بما لم يخطر على بال أحد: التفاوض مع المقاتلين شخصياً.

كانت المفاجأة كبيرة لعامة الشعب الروسي بأن يرى تشيرنوميردن، الذي كانت تصوّره عدسات التلفزة الروسية، يرفع سماعة الهاتف ويتصل بباسايف - بقدر ما كانت عملية أسر الرهائن مفاجأة بعد ذلك. كان قائدهم يفاوض لإنقاذ الأرواح، وكان ذلك يعني التخلي عن أيديولوجية الدولة التي تبنت إبادة قطاع الطرق الشيشانيين بأي ثمن. ليس ذلك وحسب، فقد تحدّث أحدهم عن المسؤولية العامة لتلك الأزمة، وهو شيء تفادى الحديث عنه كل الجنرالات والسياسيين خلال الحرب. صرّح تشيرنوميردن فيما بعد ألما كانت: المرة الأولى في تاريخ روسيا التي تتقدّم فيها حياة الناس على مصالح الدولة.

كان مطلب باسايف بإجراء محادثات السلام صارماً، ورفض عروضاً بالمال وطائرة تنقله بأمان إلى أي مكان في العالم. في اليوم السادس بعد بداية الأزمة، رضخ الروس للأمر الواقع: سيكون هناك وقف شامل لإطلاق النار في الشيشان، وسيتمكن رجال باسايف من الفرار. أطلق باسايف سراح جميع الرهائن عدا 150 منهم تطوّعوا كدروع بشرية لمقاتليه، وعاد مع رجاله إلى الشيشان في قافلة من الحافلات وشاحنة ماردة تقلّ جثث 16 مقاتلاً سقطوا في المعركة. كان الجيش

الروسي الغاضب يتعقب القافلة في كل كيلومتر من الرحلة، وتمّ إطلاق سراح آخر أسير عند الزاوية الجنوبية الشرقية للشيشان، وتلاشى المحاربون بين القرويين الذين استقبلوهم استقبال الأبطال، ووفاءً لوعدهم، وقّع الروس اتفاق وقف إطلاق النار في 21 حزيران وأوقفوا الحرب. تنفّس المقاتلون والقادة الانفصاليون في الجبال المقطّاة بالغابات الصعداء، وبدأت التحضّرات في أطلال مدينة غروزني للبدء في محادثات السلام. لقد أنقذ باسايف الشيشان من الهزيمة.

أصيب الروس بالذهول من أحداث بودينوفسك - وأثار هدوء باسايف دهشتهم، فيما كان الخنجل يعتربهم من تعامل يلتسن مع الأزمة وأداء قواقم، وأحسّوا بغضب شديد لاحتجاز المدنيين الروس كرهائن، وصعقهم تدخل تشيرنوميرد. لقد كان هناك استمزاز ومفهوم جديد للحرب.

وفي بودينوفسك، كان هذا الاضطراب أكثر وضوحاً. مات 142 شخصاً من السكان المحليين خلال الهجوم، بعضهم مات عندما اندفع الشيشانيون إلى الشوارع، ولكن معظمهم قُضوا خلال هجمات المدفعية والكوماندوس الروسي على المستشفى؛ وجرح 198 آخرين. رغم اعتياد الناس على أصوات الطائرات وهي تقلع من أجل قصف بعض الأهداف، إلا أن بودينوفسك كانت تبدو بعيدة تماماً عن الشيشان، التي تفصلها عنها سهول واسعة فارغة. أكّدت الغارة للعديد من المقيمين فيما كان يعتبر بلدة روسية جنوبية محافظة بأن الشيشانيين ولدوا كقطاع طرق. هل يمكن لأحد ألا يشعر بالصدمة نتيجة الخطة الشيشانية المنفّذة بدقة لغمر مستشفى كبير بحمام من الدماء؟ لكن بالنسبة لإدراك وفهم غالبية المقيمين في بودينوفسك، خرج معظم الرهائن من السكان المحليين وهم يمتدحون الشيشانيين، وألقوا بنفس مقدار اللوم على السلطات الروسية.

قال هؤلاء الرهائن إن الشيشانيين لم يسيثوا معاملتهم، وأنهم فعلوا ما فعلوه لأنقاذ وطنهم فقط. قال باسايف: كنا نقاتل على أرضنا طوال سبعة شهور، وأصابنا كل رصاصة تمّ إطلاقها علينا شيشانياً أو أرضاً شيشانية. لقد طفق الكيل، وسواصل القتال الآن، ولكن على أرض روسية، وسيصيب الرصاص الروس وليس الشيشانيين. وأقنع العنف الكبير الذي استخدمته القوات الروسية في

محاولة اجتياح المستشفى الكثير من الرهائن المذعورين بأن البويفكس يقومون بحمايتهم، وليس القوات الحكومية.

تقول الطبيبة فالتينا فاسيليفا التي كانت رهينة: لم يكونوا بحاجة لمهاجمتنا. وكانوا يتحدثون عن مصر 5000 شخص، ولم يبدأ عليهم الاهتمام. إذا استطاعوا فعلاً الدخول والاستيلاء على المكان، فلا أعتقد أن أحداً منا كان سيقى حياً. وزرع الشيشانيون الألغام في كل الأرضية وكانت قواتنا تعلم بذلك. أخبرني أحد الشيشانيين بأن لديه أوامر بتفجير المبنى كله. لقد حذروا القوات من ذلك أيضاً.

عندما بدأ المبنى بالاحتراق، كنا بالكاد نستطيع التنفس، ووضعنا مناشف رطبة على وجوهنا. ردّ الشيشانيون على إطلاق النار بصعوبة بواسطة القذائف الصاروخية فقط. لم يكن هناك مشاة في الخارج، وإنما مجرد ناقلات جنود مدرّعة، ولهذا كانت بنادقهم عديمة الفائدة. كانوا مذعورين أيضاً، وأعتقد أنهم لم يتوقعوا ما حصل.

تابعت تقول: في المرة الأولى التي هاجمت فيها القوات الروسية المبنى، جعلنا الشيشانيون نفق أمام النوافذ ونصرخ ليتوقفوا. أما في المرة الثانية، فأخبرونا أنه يمكننا الاختباء عندما بدأت الدبابات بقصفنا.

مات زوج فالتينا جراء رصاصة أثناء تبادل إطلاق النار. لم تعرف الطرف المسؤول عن موت زوجها، ولم تكن تعرف أين تصب حقدتها. "بالطبع نكره الشيشانيين. لقد جاءوا إلى هنا وهاجموا أشخاصاً أمنين، ولكنهم شرحوا لنا أيضاً ما كان يحصل في وطنهم، ولم يسيئوا معاملتنا، ولولا تلك الحرب، لما تمّ احتجاز الرهائن في المستشفى، ولما شاهدنا تلك الأفعال الشيشانية، أو أيّاً من تلك الأحداث".

س: لماذا التقيت بجوهر بودليف؟

ج: عرضت عليه طريقاً سهلاً للخروج: طائرة، ولقود، وضمانات أمنية وعدم ملاحقته من قبل الاتريبول.

س: هل نجحت تلك الصفقة؟

ج: لا، كما ترى. ما زال موجوداً في الشيشان.

من لقاء أجرته صحيفة كومسومولسكايا برافدا في تموز عام 1995 مع أركادي فولسكي، وهو أحد مفوضي السلام في غروزني عام 1995.

على خلفية الأحداث في بودينوفيسك، عزل الرئيس يلتسن وزير الداخلية فيكتور يرين، ورئيس الاستخبارات السرية سرجي ستياشين ووزير القوميات نيكولاي يغوروف. وكان الثلاثة ضمن الفريق الذي شجّع على الحرب في الشيشان، ولكن نظرة متفحصة على الأمور تبين بأن نتائج ثورة الغضب تلك لم تكن جيدة بالنسبة للشيشانيين، فلقد جعلت هذه التغييرات فريق الصقور أقوى من قبل.

أصبح الجنرال أناتولي نوليكوف، القائد المخنك للقوات في الشيشان، وزيراً للداخلية، وتولّى الجنرال السابق في كي. جي. بي وعضو فريق الحرب ميخائيل بارسوكوف قيادة جهاز الاستخبارات إف. إس. ب، فيما ترأس ستياشين لجنة حكومية لإجراء مفاوضات السلام، وجاء فياتشيسلاف ميخائيلوف وهو محافظ على الطراز السوفييتي مكان يغوروف. وبقي وزير الدفاع بافل غراتشيف بشكل ملهش في منصبه. بقي أوليغ سوسكوفيتس، أحد مهندسي الحرب الأساسيين، مسؤولاً عن إعادة إعمار الشيشان، وتم تخصيص ميزانية له بعمليات الدولارات، والتي اختفى معظمها. وأصبح أوليغ لوبوف، أمين سر مجلس الأمن القومي في الكرملين، والذي دعم الحرب منذ بدايتها، الممثل الشخصي للرئيس يلتسن إلى الشيشان، ولم يكن في الواقع سوى قط بين الحمام.

رغم ذلك، كانت محادثات غروزني المحاولة الجادة الأولى لإنهاء إراقة الدماء. جرت تلك المحادثات في مركز قيادة الاستخبارات، وهو منزل صغير معزول عن الطريق بواسطة بوابات معدنية زرقاء تقليدية. في الخارج، أمضى الصحفيون والحراس الشخصيون من كلا الجانبين، إضافة إلى حشود من النساء الثكلى اللواتي يأملن بمعرفة أخبار عن أقربائهن المفقودين، أيام الصيف الحار الطويلة بانتظار بعض النتائج. اجتمعت سيارات المسؤولين الروس مع عربات جيب المتمردين التي تحمل الأعلام الخضراء في نفس المكان، فيما كان الجنود من كلا الجانبين يتفحصون أسلحة الطرف الآخر ويتحاذبون أطراف الحديث. استمرت المناوشات والقصف المتبادل في الأرياف، ولكن الحرب كانت في أضعف حالاتها. كان هناك أمل.

ترأس عثمان إماميف وزير العدل في حكومة دودايف الوفد الشيشاني، الذي جاء من الجبال في قافلة من عربات الجيب التي ترفع أعلام التمرد والمليئة بالحراس الشخصيين، فيما ترأس ميخائيلوف الجانب الروسي. جرت محادثات عسكرية محضة بين القائد الروسي الجديد الجنرال أناتولي رومانوف وأصلان مستخادوف.

في 30 تموز، وبعد ستة أسابيع من الجلسات الماراثونية، وقّع الجانبان اتفاقاً لنزع سلاح الشيشانيين طوعاً والبدء بسحب الجيش الروسي تدريجياً. جردت تلك الاتفاقية الشيشان من السلاح، وأخضعتها لإدارة مدنية بدل العسكرية، وأعلنت انتهاء الحرب، ولكن دون عقد صفقة سياسية أو ذكر أي كلمة عن استقلال الشيشان. لم يكن أي من الطرفين مستعداً لعقد تسوية ضرورية للبدء بمحادثات السلام بعد ستة شهور من الحرب. لم يكن الروس، الذين اقتربوا كثيراً من النصر، على استعداد للتنازل في ذلك الوقت، وشعر الشيشانيون أيضاً، خصوصاً بعدما حدث في بودينوفسك، بأنهم يستطيعون الصمود لوقت أطول. في الحقيقة، لم يكن اندلاع الحرب سوى مسألة وقت.

ولإبقاء مسرحية نزع السلاح حية، بدأ الشيشانيون بتسليم جزء بسيط من أسلحتهم للروس. شهدت عملية نزع السلاح مشاهد طريفة مثل قيام رجال مسنين - تجاوزوا السن التي يمكنهم فيها القتال - بالحضور إلى نقاط تجميع خاصة وتسليم بنادق كلاشينكوف صدئة، ومضادات دروع محطمة، وأسلحة صيد قديمة. دفع الروس، الذين حاولوا تصديق تلك العملية، تعويضات فورية؛ 190 دولاراً لبندقية الكلاشينكوف و220 دولاراً للأسلحة الآلية. يستطيع المرء أن يشاهد ضحكات القرويين الشيشانيين المسنين خلف لحاهم البيضاء ووجوههم الخالية من التعكير. كان التجار يبيعون الأسلحة بشكل علني في أسواق القرى الكبيرة في السهول، والتي لم يكن الجنود الروس يمرؤون على وضع أقدامهم فيها. كان الأمر شبيهاً بلعبة الكراسي الموسيقية، وقال لي أحد المقاتلين الشيشان بابتسامة عريضة: لقد سلمنا أسلحة كلاشينكوف عيار 762 مم القديمة للروس، وأخذنا أموالهم، وقصدنا السوق لشراء البنغية الجديدة من عيار 545 مم.

في فيدينو، استلقى الجنود الروس ومقاتلو البويكس على العشب في يوم صيفي هادئ، فيما كانت إحدى الدبابات تسحق البنادق التي سلمها السكان المحليون. بدت الغنيمة مثيرة للاهتمام - 135 سلاحاً مضاداً للدروع من طرازات مختلفة، و26 بندقية كلاشينكوف - ولكن كل البنادق تقريباً كانت معطمة ومن طرازي إي كي - 47 وإيه كي إم القديمين، إضافة إلى صاروخين كبيرين. لم يكن المرء يستطيع إيجاد بعض المسدسات الـ 31 التي تم تسليمها (مقابل 30 دولاراً لكل منها) إلا في المتحف. في المقابل، كان على الفوج 506 المزود بالآليات والأسلحة الانسحاب من مواقعه فوق التلال حول فيدينو.

قال الكولونيل فياتشيسلاف ميروشنيتشيكو، قائد الفوج 506: يجب أن نصدّق أن الناس يقومون بهذا بالشكل الصحيح. كلما زادت الأسلحة، زادت فرص قيام حرب، كما يقولون.

قال شيرفاني باسايف، شقيق شامل، ومنظم عملية التحوّل للإدارة المدنية في منطقة فيدينو: أمل أن ينتهي كل شيء خلال أسبوع، وستصافح بعضنا البعض عندها، وتتناول الكباب، ونرافقهم إلى الحدود، ونعيش بسلام، وننظم انتخابات وما إلى ذلك.

ربما كان ممكناً إجراء مناقشات سياسية مهمة، ومنع عملية التحوّل إلى الإدارة المدنية فرصة. لم يبدُ المقاتلون من كلا الجانبين، والخائفون من التنازل عن كثير من امتيازاتهم على طاولة للمفاوضات، مستعدين لإجراء أي تسوية، وقاموا بمناورات لتقويض العملية برمتها.

كان دودايف، المختبئ في الجبال، يعرف بأن ليس لديه شيء يخسره إذا تمسك بهدغه غير القابل للتفاوض بالاستقلال وخروج القوات الروسية. إن دوره كفائد للأمة سيسقط إذا توصل إلى تسوية لأنه سيكون قد دفع بأتمه الصغرة إلى مجزرة دموية مقابل لا شيء. عرض الروس الأموال على الجنرال العجوز كي يتنحى ويختفي عن الساحة، ولكنه قدّم لهم عرضاً آخر: التنحي، ولكن عليهم أولاً الاعتراف باستقلال الشيشان. عزل دودايف كبير مفاوضيه إماميف، واستمر بإطلاق تصريحات تضعف الشعور الهش بالتفاوض بين المتفاوضين في غروزني.

في الوقت ذاته، لم يكن لدى باسايف، تماماً مثل دودايف، سوى إيمان ضعيف بمحادثات السلام، وهدد باستخدام أسلحة مختلفة بما فيها الإرهاب البيولوجي والنووي عندما أجريت معه مقابلة صحفية بعد أحداث بودينوفسك مباشرة. لم يصدق أحد أن باسايف يمتلك القدرة التقنية لتنفيذ مثل تلك التهديدات، وخاصة النووية منها، ولكن كلماته أرعبت الروس العاديين، وجعلت محادثات السلام أكثر صعوبة. عرفت أنه كان يستخدمني كوسيلة للضغط على محادثات السلام، ولم تكن تلك مهمتي. راقب مقاتلو البويفكس العاديون المحادثات بارتياح، وكانت بودينوفسك تمثل انتصاراً معنوياً كبيراً لهم، وكانوا قادرين على التفاوضي عن خسائر كل بلدة في الشهور الستة الأخيرة من غروزي إلى فيدينو. كان الناس ينظرون إلى باسايف على أنه بطل قومي، وليس إرهابياً، وسلط الوعد السخيف الذي قطعه المفاوضون الشيشانيون بمساعدة الروس على النيل منه الضوء على خواء اتفاق السلام بأكمله.

كانت موسكو مسؤولة بشكل متساوٍ - إن لم يكن أكثر - عن فشل إجراء مفاوضات جدية. لم يكن لدى الرئيس يلتسن أي فكرة ولو بسيطة حول كيفية إنهاء المغامرة المأساوية التي أقحم نفسه بها بحماس واندفاع منذ نصف سنة مضت. إضافة إلى ذلك، كانت صحته تتدهور، فقد عولج مرتين بسبب مشاكل في القلب، مرة خلال الصيف وأخرى في الخريف، واستفاد فريق الحرب في الكرملين من هذا الفراغ في السلطة. أراد قادة الأجهزة الأمنية، وضباط من الجيش، وربما الرئيس يلتسن نفسه الانتقام من الحزبي الذي لحق بهم نتيجة الأحداث في بودينوفسك. كان الجميع غاضبين من الطريقة التي ينظم بها الشيشانيون عملياتهم، ونفذ صبرهم من منهج تشيرنوميردن القاتل بالحفاظ على الأرواح قبل الدولة.

استهلكت الحرب أعضاء الفريق الذي نادى بها في الكرملين تماماً مثل بعض الشيشانيين، والتي كانت سبباً لاستمرارهم في مناصبهم. لكن هؤلاء لم يحاربوا - بخلاف الشيشانيين - من أجل وطنهم، وأرادوا أن يتجنب التاريخ ذكرهم كحزارين، أو بشكل أسوأ، كفاشلين.

رحب كوليكوف، مباشرة قبل ترقيته إلى وزير، بوقف إطلاق النار، وهذا بإطلاق هجوم جديد إذا لم يستلم باسايف، وطلب من تشيرنوميردن أن ينتقده علناً أمام الجميع. اعتقد غراتشيف أيضاً أن محادثات السلام ليست سوى هدر للوقت، وأنه كان بالإمكان إلقاء القبض على باسايف في بودنوفيسك - وأنه يمكن أن يكون ضمن خمسائر مئات المدنيين - وأوضح بأن الشيشانيين لا يستحقون من يتحدث إليهم. وقال: هناك قوى روسية اتحادية فيدرالية على أحد الجوانب، وعلى الجانب الآخر لا توجد سوى عصابات مبعثرة تنشر الدمار والأعمال الإرهابية.

إضفاء مزيد من التوتر، وقّع يلتسن مرسوماً يقضي بإحداث جيش جديد يدعى الجيش الثامن والخمسين ليعتبر بشكل دائم في شمال القوقاز للدفاع عن الدولة، ووحدة أراضي الفدرالية الروسية. اتخذت تلك القوات قواعد دائمة لها في الشيشان، وكان هناك بعض الشك بأنه حتى في حال إجراء مفاوضات سياسية، لن يكون لاستقلال الشيشان مكان على جدول الأعمال. عند نهاية تموز، قررت المحكمة الدستورية بأنه من حق الرئيس يلتسن إعلان الحرب دون أن يشكّل ذلك مفاجأة لأحد. لم يناقش أحد حقه في الاستمرار بمنصبه.

في تلك الأثناء استخدم الشيشانيون الهدنة لإعادة تنظيم قواتهم المبعثرة، وقهريب الأسلحة والمقاتلين بزي المدنيين إلى قرى السهول التي رسخ فيها الروس سيطرتهم منذ مدة طويلة. استمرت القوات الروسية في القصف المتواصل لمناطق الشوار بالمدفعية دون اللجوء إلى الهجوم المباشر، لأنها كانت هي الأخرى بحاجة للهدنة خلال الصيف: ولا يستطيع الشيشانيون العيش في العراء خلال الشتاء، وستكون الفرصة ملائمة أكثر للهجوم. وحالما بدأت أيام الصيف تقصر، تصاعد التوتر، وكل ما احتاجته الأطراف المتنازعة هو احتراق عملية السلام بالكامل.

في تموز، قام رجال مقنعون بقتل عائلة شيشانية في ضواحي غروزني - ولم يتمّ اكتشاف الجناة - توقفت المحادثات لفترة قصيرة. في آب، قام أحد القادة الشيشانيين الميدانيين ويدعى آلاودي حمزتوف بحرق الهدنة، والهجوم على أرغون واحتلال مركز المدينة، مما أطلق شرارة الهجوم العسكري الروسي. ولكن المحادثات

استمرت. في 20 أيلول، نجح لوبوف بأعجوبة من محاولة اغتيال خلال رحلة إلى غروزني، ولم يصرح أحد بمسؤوليته عن الهجوم، ولكن أصابع الاتهام وجهت إلى الانفصاليين الشيشان. في تشرين الأول، بدأت الحكومة الشيشانية الموالية للسلطات الروسية بمضايقة أعضاء الوفد التفاوضي متهمة الدبلوماسيين بمناصرتهم للدوايف. كل تلك الحوادث ساهمت في تقصير فتيل الأزمة.

اندلعت الشرارة الأخيرة بعد محاولة اغتيال الجنرال رومانوف. وكان الهجوم وقحاً للغاية، إذ انفجرت قنبلة تعمل بالتحكم عن بعد عند مرور موكب القائد الروسي في وضوح النهار عبر نفق مينوتكا في قلب غروزني. أحدث الانفجار الضخم حفرة كبيرة في الحائط الإسمنتي الصلب داخل النفق، ونتج عنه مصرع أربعة أشخاص. دخل رومانوف في غيبوبة عميقة، ولم يشف منها بعد مرور ستين على الحادثة. رغم أن أي جهة لم تعلن مسؤوليتها عن الحادث، ولم يتم حرق وقف إطلاق النار رسمياً، إلا أن المحادثات توقفت، وتلاشى ما تبقى من أمل بإحلال السلام. في موسكو، توقع غراتشيف حدوث عمليات عسكرية نشيطة في المستقبل القريب في القرى الشيشانية، واستعد مقاتلو بويكس للقتال.

لا يمكن إثبات هوية الذين قاموا بتفجير رومانوف، وبدأوا الحرب من جديد. كان هناك بالتأكيد عناصر في معسكر الانفصاليين الشيشان غير مسرورين من التقدم البطيء لمحادثات السلام، وكان رومانوف مسؤولاً بشكل أو بآخر عن مذبحه ساماشكي، وعن حوادث دموية أخرى في الحرب. قد يكون ذلك التفجير عملاً شيشانياً لاصطياد رؤوس الجنرالات الروس. ولكن مسخادوف، الذي أسس علاقة عمل متينة ووطيدة مع رومانوف خلال المحادثات، أنكر مراراً إعطاء الأوامر لرجاله للقيام بالهجوم. لم يكن لدى القيادة الانفصالية أي مكاسب في إنهاء الهدنة - وبالحصيلة، فقد كانوا يستعيدون قوتهم وشرعيتهم السياسية.

كان الجيش الروسي سرحب بالحل السياسي للخروج من المستنقع. رغم أن نشاط الشيشانيين كان مستمراً قبل عملية بودينوفسك، إلا أن أدائهم الجيد خلال الصيف أظهر أن النصر العسكري الكامل التام ما زال بعيد المنال. من جهة أخرى، عارض جنرالات الصف الأول وسياسيو الكرملين الذين ارتبطت مناصبهم

باستمرار الحرب عملية السلام. كانت أي صفقة سياسية مع دودايف تعني فشل الحرب القصيرة المظفرة.

خرجت الحكومة الشيشانية الدمية، التي تمّ تنصيبها لإدارة الأراضي التي يسيطر عليها الروس، بخسارة كبيرة من تلك الصفقات السياسية مع الانفصاليين. وتولّى أمور تلك الحكومة كل من سلام - بيك خادزايف وعمر أفثوركانوف، وهما نفس الشخصيتين الشيشانيتين اللتين استخدمهما الروس سنة 1994 للإطاحة بدودايف من الداخل، وتوجّها في ذلك الوقت إلى المنفى في موسكو، وكانا يملكان القوة وفوق كل شيء المال لأنهما استطاعا الحصول على المبالغ الضخمة التي تمّ إرسالها لإعادة الإعمار. كان رجل مثل يسلان جانتيمروف، عمدة غروزني السابق قبل أن ينقلب على دودايف، نائباً لرئيس الوزراء في الحكومة الدمية، ويدير العاصمة بميزانيته الكبيرة وجيشه الخاص. كان الاتفاق بعودة الانفصاليين يعني النهاية لهؤلاء جميعاً: يعتبر شعب دودايف أن الحكومة الدمية خائنة.

حمل موفلادي أودوغوف فريق الحرب في موسكو مسؤولية انهيار عملية السلام، ولكنه رفض ذكر الأسماء، ووفقاً لما قاله، كان اللقاء بين دودايف وبلتسن، وهو الشيء الذي لطالما سعى إليه الانفصاليون، يعتبر بمثابة الخيانة في الكرملين. اتهم أودوغوف أيضاً المسؤولين الروس المقربين جداً من الرئيس يلتسن بابتزاز الجانب الشيشاني، وقال إنهم طلبوا منهم المال. ولم يفصح أودوغوف عن العروض التي قدّمها أولئك المتزوّن. ربما يكونون قد عرضوا على الشيشانيين صفقة سلام جيدة، أو حواراً مباشراً مع يلتسن مقابل المال الذي طلبوه. ولم يحدّد أودوغوف التهديدات التي أطلقها أولئك الأشخاص إذا رفض الشيشانيون دفع المال. وقد يكون قتل رومانوف على رأس قائمة المطالب.

غروذني

دخل المسلحون المقتنعون منزل عائلة تشابوتوفا الصغير في إحدى ضواحي غروزني فجر يوم 7 تموز. وقتلوا الأب، والجد، والعم، وطفلين إضافة لطفلة تبلغ السنتين من العمر، فيما أصيبت العمة بجراح بالغة. لما الأم فوجت لأنها كانت آنذاك ترضع الأهل.

ولم يسمع أحد صوت إطلاق نار - لابد أنهم استخدموا كاتم الصوت - ويستطيع الشهود القول إن الرجال كانوا مزودين بأسلحة روسية، ويرتدون أزياء روسية، ولكن ليس هناك دليل على ذلك. كما قال الروس، يستطيع أي شخص ارتداء زيهم العسكري، ولكن الدافع للقيام بتلك المجزرة قبل عدة ساعات من بدء يوم جديد لمحاادثات للمسلم في مركز المدينة كان واضحاً.

تم وضع جثث عائلة تشابانوف في أكفان بيضاء على شاحنة مفتوحة، وإحضارها إلى الساحة المركزية في غروزني، بجانب مبنى القصر الرئاسي، وبرزت الأيدي والأرجل المغطاة بالشمع من الأكفان الملطخة بالدماء. عندما توقفت الشاحنة المليئة بالدماء في الساحة، تجمع الآلاف في حشد كبير يصلون ويبكون، ويحتفون بغضب. وصرخت امرأة: إن كان هذا هو السلام، ستكون هناك حرب أيضاً.

لنتشر الجنود الروس حول الساحة، وطوقوا الحشد، وهم يشهرون أسلحتهم، وجلسوا متأهبين في المركبات يحترقون بلهب للشمس وحقد الناس. سار الحشد بخطى ثابتة نحو مبنى مفاوضات السلام، وعرضوا الجثث أمامه. وقفت القوات العسكرية صلبة كالصخر، ولم تسمح لأحد بالتحرك. ارتفعت حرارة الجثث بسبب الشمس، وتجمهر الحشد حول الشاحنة ينشدون: الشيشان، الشيشان! وقامت مجموعة صغيرة كالعادة بأداء الذكر.

عندما سمع القادة الشيشانيون المشاركون في مفاوضات السلام بليقاف الموكب، اندفعوا خارج غرفة المفاوضات. اختفت الأجواء للمدنية، وتحول المفاوضات فجأة إلى مقتلين في المجموعات المسلحة. في غضون لحظات، استقل عثمان إيمانيف، وأسلان مسخادوف ووزير الثقافة أحمد زكليف سيارات الجيب مع الحشرات من الحراس الشخصيين، والبنادق، والأسلحة الرشاشة، ومضادات الدروع. واتجهوا بسرعة نحو الساحة الرئيسية.

حالما وصلوا إلى خلف الخط الروسي، خرج القادة الشيشانيون من سياراتهم وساروا ببساطة عبر الجنود، وعيونهم تنقد شرراً وأسلحتهم مرفوعة في الهواء. نظر الجنود الروس إليهم بغضب صامت، لأن طلقة واحدة تخرج من أي جانب سوف تتسبب بحمام دم.

صرخ الحشد المتجمع بانتصار الله أكبر عندما ثق مسخادوف والآخرين طريقهم إلى الشاحنة وصعدوا إلى جانب الجثث. في تلك اللحظة، كانت ساحة غروزني للرئيسية في قبضة الشيشانيين. رفع إيمانيف جثة الطفلة الصغيرة بارتعاش، وجال بنظره على الساحة. رفع الجميع أيديهم تضرعاً ودعاءً، وجلست الأم على طرف الشاحنة بجانب أفراد عائلتها المقتولين تنتحب. قال إيمانيف أمام الحشد: سيتم تعليق المحادثات حتى يتم إيجاد الجناة. كما نرون، أنه من أفعالهم. سوف يستمر هذا الهجوم الوحشي ما لم يمنعه الناس، وسيطال منازلكم جميعاً.

أمر القادة بإحضار الجثث إلى مقر المفاوضات، وكان الروس يعلمون جيداً وقتها بأنه من الأفضل عدم الوقوف في طريقهم. اختفت كل القوات العسكرية مع أسلحتها، وسار الموكب - دون عوائق - بقيادة مسخادوف مشياً على الأقدام نحو مقر المفاوضات. وبينما كان الجمهور واقفاً مع الجثث أمام مقر المفاوضات ويصدح: الشيشان، الشيشان! حاول أحد أعضاء الحكومة الدمية الدخول إلى المبني. اندفع الحشد هائجاً يضرب ابن بلده بالعصي والقضبان. دخل الدبلوماسي أوليفر بيلان ضمن ذلك الحشد الهائج، وسحب المسؤول الذي يرتدي البذلة للرملدية السوداء إلى الأمان. واتفق الشيشانيون على الاستمرار بالمفاوضات بعد توقف بسيط. ولم يتم التعرف على الجناة، وكان الجميع يعرفون بأنه لن يتم إيجادهم.

بعد ثلاثة أيام، تم إيجاد رأس مقطوع، تحول لونه إلى الأخضر بسبب التلفخ وتجمع الخشب حوله، خارج البيت الذي ذبحت فيه عائلة تشابانوف. لم يعرف أحد لمن يعود ذلك الرأس، ولكن الرسالة كانت واضحة؛ الإرهاب مستمر. يقول شارلاني ياكيف، وهو أحد جيران تلك العائلة: على من يقع اللوم؟ إنه سؤال صعب. وإن كل ما نريده هو السلام.

5. الثوار

تضاعلت أحلام الكرملين في خوض حرب قصيرة مظفّرة إلى هدف وحيد يائس في شتاء عام 1995: إلغاء الصراع قبل انتخابات حزيران عام 1996، وإنقاذ الرئيس يلتسن من الهزيمة التي قد يوقعها به رئيس الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف.

انقسمت الاستراتيجية الروسية في هذه الجولة الجديدة إلى قسمين. عودة الجيش إلى كل تلك القرى التي انسحب منها خلال الصيف، وطرد المتمردين إلى التلال. بعد ذلك، تصحيح خطأ قاتل حدث في السنة الأولى يتمثل في تنصيب حكومة دمية جديدة قادرة على فرض سيطرتها السياسية بحزم. أينما ذهبت القوات الروسية، كان يلحق بها الشيشانيون الموالون لها والذين سيحملون من القرى التي ستحتلها روسيا مجدداً مناطق سلام وتوافق، وهي مناطق لن يطالها القصف الروسي إذا منعت نشاط بويكس على أراضيها. كان من المفروض أن يكون هذا نوعاً من أنواع التهذبة، وليس الحرب، وكانت تلك حملة القلوب والعقول التي طال انتظارها.

وقع الدور الرئيسي على عاتق دوكو زافغايف، وهو آخر رئيس سوفياتي للشيشان، والذي أطاح به دودايف سنة 1991. تمّ تعيين ذلك الرجل، الذي جاء من موسكو، رئيساً للحكومة الدمية في تشرين الأول، وفاز في انتخابات مشكوك بصحتها في كانون الأول بمنصب الرئاسة. بالنسبة للكرملين، لم يكن زافغايف أكثر فعالية من سلفه سلامبيك خادزييف فحسب، بل أكثر منطقية في طروحاته، وهو ما مكّن الأخير من توجيه انتقادات علنية لسلوك القوات المسلّحة.

تمحورت الاستراتيجية الروسية حول فكرة تأسيس جيش من الأنصار الانفصاليين؛ والذي سيكون داعماً للشعب. كلما طال أمد الحرب، كلما ازداد اعتماد بويغكس على الدعم اللوجستي والأخلاقي الذي يقدمه المدنيون. إذا نجحت مناطق السلام والتوافق، ستشكّل عامل ضغط على الجيش المتمرد، ولم يكن زافغايف محبوباً، ولكن وعوده في السلام وإعادة الإعمار كانت تستهوي المدنيين المرهقين من الحرب. كان يتمتع أيضاً ببعض الدعم بين أولئك المتشوقين لعودة الاستقرار الذي كان سائداً إبان الحقبة السوفياتية. بالنسبة للمتشددين في موسكو، كان زافغايف أداة رائعة لمنع استئناف محادثات السلام، وبما أن زافغايف كان متتخباً، فقد كان يمثّل القوة الشرعية في الشيشان، فيما لم يكن الانفصاليون يمثلون سوى مجموعة معارضة له على الهامش، والتي لا تحظى بأي انتباه.

بالنسبة للانفصاليين، كان الرد السريع حيوياً. كان عليهم استعراض قوتهم، وأن يدفعوا الروس إلى موقف محرج، ويجعلوا زافغايف يبدو عاجزاً. اختار مستخادوف غوديرمز، وهي المدينة الثانية في الجمهورية، وسلك الطريق الغربي الشرقي المحاذي لسكة الحديد. في 14 كانون الأول، والذي يصادف يوم التصويت في الانتخابات، والتي لم يكن فيها سوى مرشح وحيد هو زافغايف، هاجم مئات الثوار الحامية الروسية في غوديرمز وأحكموا سيطرتهم على المدينة، وبعد أن صدّ الشيشانيون الهجوم المعاكس للمشاة والدبابات الروسية، حاصر الروس المدينة، واعتمدوا على قصف الهدف بواسطة المدفعية والمروحيات مما أدّى لإخراج الشيشانيين في 25 كانون الأول.

لم تكن طلقة البداية فيما دعاه الناس الحرب الثانية تشرّ بالخبر على الروح المعنوية الضعيفة للجيش الروسي. ورغم استعادة السيطرة على غوديرمز، إلا أن

ادّعاء النصر ذهب إلى الشيشانيين: لم يجعلوا الجيش الروسي يحارب من أجل مدينة كبيرة سبق أن احتلّها في الربيع الماضي وحسب، وإنما استطاعوا الهروب أيضاً، وقبل أن يلتقط الروس وزافغايف أنفاسهم من غوديرمز، ضرب الشيشانيون مجدداً عبر حدود داغستان هذه المرة. كانت التأثيرات الناتجة عن تلك العملية الأكثر إذلالاً للروس منذ بداية الحرب.

وكان سلمان رادوييف، وهو ابن أخت دودايف ويبلغ من العمر 28 عاماً بذقن طويلة وعيون لامعة ووجه نحيف، قائد المعركة في غوديرمز رغم أنه لم يكن معروفاً. وفي 9 كانون الثاني، قاد خونكار باشا إسرائيلوف فرقة فدائيين يصل تعدادها إلى حوالي 200 رجل إلى قاعدة المروحيات الروسية في كزليز شمال داغستان. لكن الهجوم لم يكن ناجحاً، وردت القوات الروسية بسرعة وبقوة، ولم يكن في تلك القاعدة سوى بعض المروحيات التي تمّ تدميرها. بعد محاصرتهم، قام رجال رادوييف باقتحام مستشفى كزليز الذي تواجد فيه أكثر من 2000 شخص بريء، واحتجزوهم كرهائن. وقتل خلال إطلاق النار 9 جنود أو رجال شرطة، والعديد من البويفكس إضافة لأربعة وعشرين مدنياً.

كانت تلك العملية بمثابة بودينوفسك الثانية، ولكن دون خيبة الأمل التي رافقت عملية شامل باسايف. بعد الاتفاق مع السلطات الداغستانية الذي سمح لرجال رادوييف بالهروب في حافلات مع حوالي 150 رهينة كدروع بشرية، تكرّر سيناريو بودينوفسك مرةً أخرى. ولكن موسكو لم تكن لتدع الشيشانيين يهربون هذه المرة.

قبل أن تصل القافلة التي تحمل الإرهابيين والرهائن إلى الحدود الشيشانية، والتي كان من المقرر أن يطلق رادوييف عندها سراح الجميع ويهرب مع رجاله، فتحت مروحية النار على الطريق، مما أدى إلى توقف الحافلات. كان الشيشانيون يحتفظون بالرهائن كدروع بشرية، ولم يكن ممكناً أن يتعرضوا لنيران مباشرة. قاد رجال رادوييف الحافلات بسرعة كبيرة إلى موقع قريب من قرية بيرفوميسكوي الداغستانية المجاورة، وحاصروا مركزاً للشرطة هناك، واتخذوا أفراد كسجناء دون قتال. لاحقاً، أخذ البويفكس رهائنهم إلى بيرفوميسكوي التي هجرها سكانها

بالكامل، وأقاموا مباشرة مواقع دفاعية لهم. استمرت مفاوضات تحرير الرهائن خمسة أيام، وقام خلالها الشيشانيون بكل الاستعدادات من أجل خوض المعركة. ورغم الحصار المفروض عليهم، كان لدى الشيشانيين الكثير من الطعام والماء، والأبنية التي استطاعوا استخدامها كخطوط دفاعية، إضافة للترسانة التي حصلوا عليها من مركز الشرطة: سبعة أسلحة مضادة للدروع، و35 بندقية، وثلاث بنادق قنص، و10000 مخزن للذخيرة، وقاموا بإجبار الرهائن على حفر الخنادق.

لم يكن هناك أمل في الوصول إلى حل من خلال المفاوضات. ولم يكن الكرملين يسمح للشيشانيين تحت أي ظرف بأن يساموا من أجل الهروب. لم تكن الانتخابات الرئاسية تبعد أكثر من خمسة أشهر فقط، وكان يلتسن المريض والضعيف بحاجة لإظهار من الأقوى. إضافة إلى ذلك، كان الشيشانيون محتجزين، ولا يستطيع أي شخص وصفهم سوى بالإرهابيين. لاستغلال ذلك الموقف، قام وزير الداخلية أناتولي كوليكوف، ورئيس الاستخبارات السرية ميخائيل بورسوكوف بتولي زمام الأمور وإدارة العملية مباشرة. من أجل المزيد من التغطية، أعلنت موسكو أن رادوييف بدأ إطلاق النار على الرهائن؛ الأمر الذي أثّضح لاحقاً أنه كذبة.

وبدأ الهجوم في 15 كانون الثاني مع وابل من نيران الدبابات، متبوعاً بتدخل وحدات الكوماندوس. كنت قد ركبت الطائرة للتو من موسكو إلى داغستان في ذلك الصباح، وتوقعت الوصول في الوقت المحدد لإحصاء الضحايا فقط. تمركز حوالي 2000 جندي حول القرية، وشاركت كل وحدات نخبة الجيش في الحصار، والتي تحمل صفة نجم الأفلام الذي لا يموت بالرغم من سجلها في الشيشان، وكان أفرادها يرتدون خوذاتهم المثيرة للإعجاب وأقنعتهم السوداء. تحدث الكرملين عن الخطوط الثلاثة للقوات. وجعل الرئيس يلتسن، بصوته المريض من نفسه أضحوكة عندما قطع وعداً أمام التلفزة القومية بوضع 38 قنصاً يتابعون كل حركة من خلال المناظير.

لكن عندما وصلت إلى تلك المنطقة لاحقاً في ذلك اليوم، كان واضحاً من صوت القصف البعيد أن المعركة لا تزال مستمرة. تحدّث وزير الداخلية عن تطهير

آخر مناطق المقاومة، وأن الشيشانيين أصابهم الرعب وفقدوا الاتصال مع بعضهم البعض. لكن الحقيقة كانت أن قوات الاقتحام دخلت القرية، ولم يعد من أفرادها سوى القليل. لقد استمر الشيشانيون بالمقاومة.

خلال اليومين اللاحقين، وقفت مع زملائي عند نقطة تفتيش تبعد 4 كيلومترات عن بيرفوميسكوي - وهي أبعد نقطة استطعنا الوصول إليها - وحاولنا تتبّع العملية. لم يكن هناك مجال لنرى الكثير من الأحداث، ولكن قصف المدفعية وانفجارات صواريخ المروحيات في القرية لم يتوقف. تصاعد الدخان نحو السماء الرمادية، وأجرنا كلب أسود وجنود باردون سيئ المزاج على البقاء في أماكننا. سمح الحراس لكلبهم أحياناً بأن يعضّ الناس، وكانت ثمر أماننا أحياناً أخرى عشرات سيارات الإسعاف أو قافلة من الشاحنات التي تحمل الذخيرة في طريقها إلى الخطوط الروسية. في تلك الأثناء، كان هناك راعٍ محلي غافل عما يدور حوله من سرك إعلامي يتحول بين كاميرات التلفاز وسيارات الجيب والهواتف العاملة عبر الأقمار الصناعية مع خراف لها صوف أشعث وقرون طويلة. لم يكن هناك الكثير لنكتب حوله، عدا حقيقة حاسمة واحدة: ما يزال الشيشانيون يردون على إطلاق النار. كنا نستطيع سماع صوت تبادل النيران. من كان يقضي على من؟

كلما طالت مقاومة الشيشانيين، كلما ازداد قصف القنابل وأصبح كذب الناطق الرسمي مفضوحاً. قال المتحدث باسم القوات الروسية أن كل شيء يسير على ما يرام: مات ستة جنود روس و60 شيشانياً. ثم تابع قائلاً: إن سبب اندلاع العاصفة هو أن الشيشانيين أعدموا ثمانية من أفراد الشرطة، وهددوا بقتل باقي الرهائن، ولإضفاء المزيد من الإثارة على تلك القصة، خصوصاً للجمهور المحلي، أصدر الناطق الرسمي بياناً بأن ستة من الكبار الداغستانيين، الذين ذهبوا للتفاوض مع الشيشانيين، لقوا حتفهم جراء إطلاق النار عليهم. قد يكون لتلك القصة تأثيرها في التلفاز الحكومي. إنه اليوم الثالث، وما زال الشيشانيون يقاومون. ماذا يمكن للروس أن يقولوا الآن؟ هل يمكن أن يصريحوا أن كل شيء يسير وفق الخطة؟ كان لدى المتحدث الرسمي باسم الاستخبارات الجنرال الكسندر ميخائيلوف شيء جديد:

اليوم سيتم إنهاء العملية.

كيف؟

إن أقول كيف بالضبط ولكنكم ستشاهدون ذلك. سنتخذ أقصى إجراء ممكن.

ماذا عن الرهائن؟ ألم تكن لفكرة منذ البداية إنقاذهم؟ ألم تكن هذه عملية إنقاذ رهائن؟

لم يعد الأمر يتعلق بالرهائن الآن.

نظرنا إليه بشك.

أريد من كل شخص الآن أن يفهم بأن الموقف لم يعد يتعلق بتحرير الرهائن. وإذا تبعت القوتين العسكرية، ستجدون أن المهمة هنا هي الاستيلاء على حصن عسكري تسيطر عليه وحدة بحجم كتيبة في ظروف مدنية. إنها عملية تحرير مدنية.

تحرير مدنية؟ بيرفوميسكوي؟ ولكن ماذا عن حياة الرهائن؟

يقول الجنرال: "معلوماتنا تقول إن بعضهم لا يزال على قيد الحياة".

استمعت إلى الشريط مرةً واثنين وثلاث، قبل أن أعي أي قد سمعته بشكل صحيح. لقد أصيب الروس بصدع. لم يتحقق حلم العلاقات العامة لديهم في رؤية لرهائن مبسمين يختصنون الكوماندوس الواسمين، وأن يجدوا قاطعي الطرق الشيشان ملقون على الأرض. حتى أنهم تخلوا عن فكرة التظاهر بأن هذا قد يحدث. لقد بدأوا باعتماد الخطة الثانية: قرية أصغر من أن تظهر على أي خريطة على وشك التعرّض لإبادة شاملة.

عند الظهيرة، قبض الجنود على بعض الصحفيين الذين اقتربوا من بيرفوميسكوي، وسلموهم إلى نقطة التفتيش حيث الكلب الأسود. وبدأ "أقصى إجراء ممكن" على الأرض. سقطت صواريخ غراد على بعد كيلومترين، مما أدى لتدمير القرية وإشعال النار في أنقاضها. قامت المروحيات المقاتلة، التي بلغ عددها ست في كل مرة، بإطلاق النار بطريقة منظمة لساعات، حتى أصبح المشهد مألوفاً جداً: أعمدة الدخان الأسود التي تخرج من الصواريخ، ولهب النار والدخان بعد انفجارها بين البيوت. حتى في المكان الذي كنت أقف فيه، كانت الأرض ترتجف تحت وطأة الانفجارات. للدهشة الشديدة، كانت بنادق ورشاشات الشيشانيين لاتزال تردّ على إطلاق النار. وقفت في الثلج، ونميت أن يكون هؤلاء محظوظين بما

فيه الكفاية ليموتوا بسرعة. كانت حالة المقاتلين الشيشانيين، الذين استطاعوا الاستيلاء على المستشفى، والاحتفاظ بدروع بشرية، سيئة. لكن على المرء الإعجاب بالطريقة التي سقطوا فيها.

انطلقت الإشاعات عندما استيقظنا في الصباح التالي. قال شيشانيون محليون يعيشون في تلك المنطقة من داغستان أنهم جلسوا طوال الليل يحاولون التقاط إشارات راديو بوفيكس، إن الأخبار كما يأتي: "قام رادوييف وإسرائيلوف بفك الحصار وعادا إلى الشيشان. قالوا إن رادوييف هرب من الجحيم وتمكّن من الاحتفاظ ببعض الرهائن". ضحكنا، ولكن القصة كانت مثل كرة الثلج. بعد ذلك، أكّد الرهائن الذين تمكّنوا من الهرب أثناء القصف الجوي كناجين من سفينة محطة صحة كل شيء. لقد كانت الشائعة حقيقية.

تبين لاحقاً أن ذلك الهروب ما كان ليتمّ لولا المساعدة التي انطلقت من داخل الشيشان خلف الخطوط الخلفية الروسية حول قرية سوفياتسكوي المحاذية ليرفوميسكوي. قال أصلان مسخادوف إن حوالي 400 مقاتل ساهموا في هذا الالتفاف مما منع رادوييف وإسرائيلوف الفرصة للهرب. "كانت موسكو تنوي قتل كل الأحياء، ولهذا قمنا بعملية كبيرة ومخطط لها لاختراق حصار رجال رادوييف، وإنقاذ الرهائن من الصواريخ، وقذائف المدفعية والقنابل. لقد أخذنا على عاتقنا هذه العملية ونجحنا بها" لقد نجحوا من هزيمة محققة.

اتضح الحقيقة لاحقاً بأن الحكومة الروسية، التي أثارت ضجةً عن النصر، كانت تتحضر. في البداية، أقرّ المتحدث باسم وزارة الداخلية بوجود محاولة للهروب تمّ إحباطها، واعترفت الحكومة بالحقيقة، ولكنها قدّمت لوسائل الإعلام بعض الحبراء العسكريين الذين أعلنوا أنه لم تكن هناك قوات كافية، وأنهم كانوا يعانون من نقص في الغذاء، وأن الشيشانيين قد بنوا قاعدة عسكرية ضخمة في بيرفوميسكوي. كشف الكوماندوس لاحقاً بأنهم قد تعرضوا لإطلاق النار من قبل مروحياتهم خلال اليوم الأول للمعركة، مما زاد من إحراج الحكومة، وامتد هذا الإرباك ليطل معدّل الوفيات، إذ قال البعض إن 80 رهينة قتلوا، وقال آخرون 24، فيما صرّح البعض الآخر عن أرقام أقل، رغم أن تعداد الجثث المنتشرة في أرجاء

القرية وطريق الهروب كان سهلاً. تقول إحصائية مستقلة عن الخسائر العسكرية أن عدد القتلى 100 مقاتل شيشاني و70 روسياً أو من قوات داغستانية محلية.

بعد ذلك، لم يكن هناك سوى أمل واحد: أن يكون رادوييف قد مات. يمكن للمرء أن يشعر بالكرملين يصلي للحصول على نتيجة واحدة سعيدة: أن يكون رادوييف ميتاً.

لكن رادوييف لم يمُت. ورافقتي دليل شيشاني مع كارلوتا غال، من صحيفة موسكو تايمز، من إحدى قرى داغستان عبر الحدود إلى الشيشان بعد الهروب الكبير، ومشيئاً عبر الحقول المتجمدة، حول المواقع الروسية، واستغرقت الرحلة بالعربة التي كانت تغوص عجلاتها في الأرض الموحلة حوالى الساعتين حتى وصلنا إلى إنغل يارت، قرب الحدود تماماً. كان الناطق الرسمي والمشاهد التلفزيونية تدعي سيطرة الروس على هذه القرية أيضاً، ولكن في الليل كان كل شيء يعود لسيطرة الثوار، وفي إنغل يارت، كانت شاحنة محملة بالمقاتلين تنتظر في الظلام. كانوا يبحثون عن مقاتلين عاكدين من بيرفوميسكوي، وعوضاً عن ذلك وجدوني أسحب معداتي ملتصقة بمعطف متجمد من البرد. هل هرب الرهائن؟ نعم. هل سلمان رادوييف على قيد الحياة؟ نعم. بعد ساعتين أخذنا المقاتلون إليه.

تم تحرير آخر الرهائن بعد بضعة أيام، وحاول الكرملين جهده لدفن القصة بأكملها. وتم بناء بيرفوميسكوي من جديد لأن كل بيت فيها تضرر أو تدمر بالكامل، وتم منح سكانها نقوداً وسيارات. ولم يلقَ كوليكوف وبارسوكوف أي تويخ. في الحقيقة، أعلنت الحكومة أن العملية ناجحة، وعند السؤال عن سبب استخدام المستنقذين لصورايخ غراد، وهي أحد أسلحة المدفعية الفتاكة، أجاب بارسوكوف بأنهم كانوا يقومون بتكتيك نفسي. عندما صرّح الرهائن بالإجماع أن ذريعة القرار الروسي باستخدام القوة كانت مزيفة، لأن الثوار لم يقوموا بإعدام أي من الرهائن أو الكبار الداغستانيين، إلا أنه تم تجاهلهم ووصفهم بالتعاونين مع العدو.

كشف الرئيس يلتسن عن تحبطه الشديد في هذه المشكلة، وعن الإذلال الذي تعرض له، وقال: "يجب قتل الكلاب المجنونة"، وهدد بأن: "القوات الاتحادية ستبدأ

بتدمير قلاع جوهر دودايف. "إن القواعد التي اكتشفناها قواتنا الخاصة تهدد كل الشيشان بالانفجار". لكن الثوار الشيشانيين كانوا مليئين بالثقة بحلول ذلك الوقت. قال مسخادوف: "أرادوا تدمير كل مقاتلي الجيش الشيشاني والرهائن، ولكن إرادة الله العظيم كانت مختلفة. لقد أظهرت القوات الروسية عجزها الكامل".

وزاد الشعور بالإذلال نتيجة ما حدث في يروفميسكوي نتيجة لحادث عارض، فخلال المعركة على القرية، قام بعض الأتراك المناصرين للشيشان، والذين يسمي بعضهم إلى الشتات الأبخازي، بالاستيلاء على مركب وعلى متنه 200 شخص معظمهم من الروس في ميناء ترايزون التركي على البحر الأسود، وطالبوا بإلغاء الحرب في الشيشان. كان الكثير من المسلمين الأتراك، بتواجدتهم الكبير في شمال القوقاز يشعرون بالموءدة تجاه الثورة الشيشانية، ودعموا في ذلك الوقت عاطفي المركب بوضع الأعلام الشيشانية على طول الساحل، وحرق العلم الروسي.

انتقد يلتسن السلطات التركية لكونها بطيئة جداً، واقترح تقديم مساعدة روسية، وهو عرض أقرب إلى الكوميديا السوداء إذا أخذنا بعين الاعتبار المجزرة الدامية التي جرت في يروفميسكوي، ولكن في اليوم الثالث، سلم الرجال المسلحون أنفسهم دون قتال، وتم تحرير كل الرهائن.

لم يكن الأمر سراً بأن للشيشانيين مناصرين في تركيا. كان المسؤولون الانفصاليون الشيشانيون يجلدون مخابئ لهم هناك، ويستطيعون حتى إنشاء مكاتب في إسطنبول. أقم بعض المحللين الروس الحكومة التركية نفسها بمساعدة الشيشانيين من أجل تعريض خطوط نقل النفط الروسية في بحر قزوين للخطر. لكن هذا الاحتمال كان بعيداً لأن إسطنبول كانت منغمسة في حربها السرية القذرة ضد الأقلية الكردية في جنوب شرق البلاد، ولأنها كانت بحاجة لعلاقات تجارية جيدة مع روسيا أكثر منها مع الشيشان. رغم ذلك، وبعد انتهاء أزمة السفينة، قالت رئيسة الوزراء تانسو شيلر: "ما تزال المسألة الإنسانية مستمرة في القوقاز، وما تزال المجازر بحق الأمهات والأطفال مستمرة. يجب أن يعير العالم انتباهه إلى ما يحدث هناك".

نوفو غروزني

عندما دخل رادوييف المرداب في مدينة نوفو غروزني، وقف للرهائن الممددون على الفرش لتحيتته كصديق قديم. وكنوا يقولون: "مرحباً يا سلمان"، فرد عليهم مبتسماً: كيف حالكم جميعاً؟ من خلف لحيته الشائكة، وصافحهم أو عانقهم واحداً تلو الآخر.

كان بعض الرهائن جرحى، وجميعهم متعبين جداً وغارقين في صمت مطبق يخيم على الناس عادة بعد نجاحهم من الموت.

بالنسبة لهم، لم يكن رادوييف ذلك الإرهابي، أو مختطف الرهائن، أو الرجل الذي اختبأ في المستشفى لينقذ حياته بعدما فشلت مهمته. إنه سلمان المنقذ، والرجل الذي قاد الرهائن إلى بر الأمان.

قال وعينه تومضان: "أريد أن أنكركم فقط لأنكم الآن بأمان"، وكان الرهائن يهيمون بالاستحسان والامتنان.

قال للرهائن إنهم سمعوا على الراديو أنهم ماتوا جميعاً في بيرفوميسكوي، وأن الإعدامات قد بدلت. أنكروا بأن ذلك يعني إعطاء الضوء الأخضر للقيام بهجوم يسمح تلك القرية من الوجود، وأدرك القادة الشيشانيون أيضاً بعد ضربات صولويخ غراد بأن الطائرات ستبدأ بإلقاء القنابل، وأن خنادقهم لن تستطيع حفظ حياتهم.

غادر المقتلون أولاً خلال الهروب الكبير، ولحق بهم الرهائن حاملين معهم الذخيرة والجرحى الممددين على القناعات، ولم يتركوا أحداً وراءهم. عبرت المجموعة حقل الألغام، ووصف الرهائن الانفجارات بأنها كانت في كل الاتجاهات وكانت تقضي على الناس، ويقول الشيشانيون بأنهم لقنوا عشرات الرجال في ذلك المكان. لقد شق البوفكس الطريق عبر حقل الألغام وليس الرهائن.

وتقول الرهينة ديمة: كان للقتال ضارباً، وكان هناك ذعر كبير، وحاول كل شخص السجاة بحياته، ولم يعتقد أحد بأنه سينجو. كان الشيشانيون يطلقون النار من كل الأسلحة التي بحوزتهم - قاذفات الصواريخ، والرشاشات، والبنادق - كنا نتعرض لإطلاق النار من ثلاثة اتجاهات. لقد دمروا الحديد من المواقع الروسية. مشينا في قلب الخنادق وفي أحد الأتهار لأن نيران الحرب جعلت الليل يبدو كالنهار، ولم يكن هناك مكان للاختباء.

بعد توقف القتال، كان على المقاتلين التسابق عبر الأرض المتجمدة وهم يسحبون الجرحى ليصلوا لبر الأمان قبل الفجر، ويقول أوكادي، وهو مدرس رياضيات: كنا نعرف بأن المروحيات ستبدأ بصيدنا عند بزوغ الفجر، ولكننا لم نكن سريعين بما فيه الكفاية. عادت المروحيات حوالى السادسة صباحاً، وأطلقت ثلاث منها النار علينا، ووضعنا وجوهنا في الأرض معظم الأوقات، واستغرق منا الأمر ثلاث ساعات لنقطع مسافة كيلومترين.

قال رهينة يدعى ماغومد: "هل تعرف لماذا يشعر الحمل عندما يكون قريباً من الغضب؟ هذا ما شعرنا به، كان الغضب هذه المرة روسيا بأكملها".

انتقل المحجوم الروسي إلى مستويات جديدة تاركاً وراءه مهزلة بيرفوميسكوي. كانت شهور الشتاء الأفضل للحجوش الروسية في الشيشان لقرون عديدة لأن مستوى مياه الأنهار يكون منخفضاً مما يمكنهم من نقل المعدات الثقيلة والعربات بسهولة عبر الأرض المتجمدة، ومما يحرم الشيشانيين من غطائهم، ويجعل من الصعب عليهم التحصين في الغابات. عبرت الآليات العسكرية الروسية الحقول، من موقع مقاومة لآخر، وتقدمت بشكل تدريجي نحو الجبال، وتحركت القوات من غودرميس في كانون الأول، واستولت على نوفوغروزني، والتي تقع أسفل الطريق الاستراتيجي الشرقي الغربي من غروزني إلى داغستان في شباط. في آذار، بدأ المحجوم الروسي غرب الشيشان ضد مدينة سيرنوفودسك في البداية، ثم ضد سماشكي مع ضغط متواصل على منطقة باموت.

تحدث وزير الدفاع بلقل غراتشوف بقعة عن كيفية مطاردة البوفيكس في التلال، وكتب بالفيلينور، وهو محرر مشهور في موسكو عن التمرد ووصف هجوم الربيع: "القتال في لوجه الآن، وهو يحدث في نفس الأماكن التي وقعت فيها الهزات السنة الماضية، ولكن وضع الشيشانيين الآن أسوأ بكثير. فقد كانوا يملكون الكثير من الدبابت والأسلحة السنة الماضية، وليس لديهم الآن سوى الأسلحة الخفيفة والقبائل اليدوية، وقد تضررت للنظام الطبي الشيشاني مما سيلحق بهم خسائر كبيرة".

على الخريطة، بدأ الشيشانيون مرة أخرى، وكانهم محصورون في الزاوية. كان الجنود الروس يحتلون المراكز الجنوبية من فيدينو إلى شاتوي، وغودرميس إلى أتشخوي مارتان، ولكن ثبت أن ذلك المسار مضلل، لأنه على الرغم من هروب الشيشانيين، لم يتم الإمساك بهم أو القضاء عليهم. لقد كانوا يختارون معاركهم، ويقومون بانسحاب تكتيكي عندما يحمي وطيس المعركة، وكانوا يظهرون في قرية أخرى للقتال مجدداً. لقد كانت تلك حرباً دون جبهات قتال. إنها حرب عصابات.

في الجزء الجنوبي الغربي من باموت، تابع ستاري أتشخوي وأوراخوفو القيام بعمليات حرية محدودة في مواقع معينة من الخنادق. وتخلص البوفيكس من مشكلة

اتصالات الراديو السبّية من خلال الاستعانة بوسائل اتصال حديثة، وأصبح مسؤولو الصف الثاني يحملون لاسلكياً من نوع موتورولا، وبدأ كما لو أن قوة الانفصاليين قد كبرت، وتحولت من مرحلة المقاومة العفوية في الأيام الأولى إلى جيش حرب العصابات المنظم. تطلبت استراتيجية الانفصاليين في الكر والفر تنسيقاً عالي المستوى، وكانت تتسبب بالتأعب لعدد من القرى الواقعة ضمن مناطق القتال، لكنّ الانفصاليين اعتقدوا أنهم قد وجدوا طريقهم أخيراً، وأنهم يستطيعون الصمود أكثر من الروس مهما حدث. قال لي أصلان مسخادوف في كانون الثاني: "كل قرية هي قلعة. يمكن الاحتفاظ بكل قرية وبلدة حتى النهاية. لقد فعل يلتسن وقواته المسلحة كل ما باستطاعتهم، ولم يبق شيء لم يستخدموه سوى الأسلحة النووية. في النهاية، لن يكون لديهم خيار سوى الرحيل".

على سبيل المثال، كان هناك قتال عنيف في ساماشكي، ودخل الثوار في معارك مشاة قاسية بعد تعرّضهم لقصف مدفعي وجوي كثيف. فقد المدافعون الشيشانيون الذين تراوح عددهم ما بين 300 - 400 حوالى 40 رجلاً مع الكثير من المجرّحي، وهي خسارة كبيرة نسبياً في معركة واحدة إذا أخذنا بعين الاعتبار معدلات حرب العصابات، ورغم هذه الورطة الفظيعة، تمكّن المقاتلون من الهروب عبر الخطوط الروسية بعد خمسة أيام من الحصار. قال زميلي بوريس باتشورز من وكالة فرانس برس، والذي كان مع البويفكس، إن الثوار كانوا في إحدى النقاط على بعد 100 متر فقط عن المواقع الروسية التي لا بد أنها سمحت حركتهم. لكن تلك القوات، التي لا تتمتع بروح معنوية عالية، لم تحاول انتهاز الفرص في مقارعة عدو مجهول الحجم في الظلام، وتركت رجال العصابات يتسللون حولها دون قتال. كان السماح للعدو بالتسلل دون قتال إنسانياً، وهو ما يحصل غالباً في الشيشان، حيث يتمّ السماح للبويفكس بالقتال في يوم آخر.

في آذار، أصاب الشيشانيون الروس بأكثر صدمة لغاية اليوم عندما هاجموا كامل النصف الجنوبي من غروزني عند الفجر، ودمّروا نقاط التفيتش، وأطلقوا النار على زافغابيف وعلى الأبنية الروسية الرسمية لمدة ثلاثة أيام، قبل أن يحتفوا. وإلخراج هؤلاء المقاتلين الشيشانيين الذين بلغ عددهم حوالى 1000، استخدمت

القوات الروسية المروحيات المقاتلة وصواريخ غراد. في تلك المعركة قتل 100 جندي روسي وفقاً لإحصائية رسمية، و400 وفقاً لتقارير الضباط. كان هناك نجاح شيشاني آخر مخرج للروس في نيسان، عندما وقعت قافلة مدرّعة في كمين على طريق شاتوي في منتصف سفوح التلال. كان ذلك الكمين، الذي يعتبر نموذجاً للعمليات الحربية الجبلية، والتي منحت فيها التضاريس المهاجمين سيطرة مطلقة على القوات المدرعة، مسجلاً على شريط للتفاخر به. انتظر المقاتلون في حفر صغيرة في أرض مرتفعة تطل على طريق ضيق، وعلى الجانب الآخر هاوية شديدة الانحدار، وعندما مرّت القافلة الطويلة من الشاحنات والمركبات في مجال الرمي، دمرها الشيشانيون بقاذفات الصواريخ ونيران الرشاشات. بالنسبة للروس، لم يكن هناك طريق للهروب، أو مكان للاختباء فيه أو حتى لإنشاء مواقع دفاعية. لقد كان عرضاً لإطلاق النار، وأشارت الأرقام الرسمية إلى مقتل 37 جندياً من أصل 199.

كان قائد هذا الكمين أصولياً إسلامياً متشدداً يدعى خطاب، وعرف عن نفسه بأنه قادم من العالم العربي، وقالت المخابرات السرية الروسية أنه كان أردنياً. قاتل خطاب بامرة شامل باسايف، وقال إنه اكتسب خبرته من الحروب في أفغانستان وطاجيكستان، وادّعى أنه نفذ الكثير من الكمائن الناجحة الأخرى. وكان خطاب عندها أحد القادة الشيشانيين الشباب الذين ذاعت شهرتهم من العمليات الحربية، والذين أضافوا خبرة ممتازة لجيش الانفصاليين الذي لم يكن لديه وخصوصاً في الأيام الأولى سوى القليل من القادة المدربين.

منحت سرعة الأحداث في المدن والقرى المليئة بالسكان، والتي انتقلت إلى ساحات المعارك، الفرصة للمدنيين للفرار بعد أن عانوا الأمرين. ووفقاً لشهود عيان، مات أو جرح مئات الأشخاص في قصف المناطق السكنية بمدافع الهاون، وصواريخ الغراد، وصواريخ المروحيات أثناء القتال في غودرميس، ونقلًا عن الجنرال الروسي أناتولي شكيركو، فقد مات 267 مدنياً، ولكنه صرّح لاحقاً بأن تلك الأرقام غير دقيقة، وفي مدينة سيرنوفودسك، تمّ قصف المناطق المدنية حتى احترقت بالكامل، أما في سماشكي، التي شهدت مأساتها الثانية، فتمّ تدمير مناطق واسعة وقتل أعداد كبيرة من المدنيين.

في كل تلك المعارك، قام الروس بإطلاق النار على اللاجئين الذين حاولوا الفرار، ولم يسمحوا لوكالات الأنباء والصحفيين بالاقتراب من موقع الحدث، وأعاقوا بشكل كبير عمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر والتي قدّمت احتجاجاً رسمياً في جنيف. كانت الأخبار التي تسربت فظيعة، وبثت التلفزة الروسية فيلماً تمّ تصويره بشكل سرّي في مدينة سيرنوفودسك تظهر فيه الشوارع والبيوت المحترقة، والعربات المشتعلة إضافة لبقايا الجثث المتفحمة في أنقاض جامع المدينة. تحدّث الناجون عن القوات التي لحقت بهم، وقامت باغتصاب، وإعدام الكثيرين. في سماشكي، تمّ احتجاز ما يقارب 5000 مواطن في أقبية المنازل أثناء المعارك، وكان هناك اتهامات بإجبار بعض المدنيين على الجلوس في العربات العسكرية واستخدامهم كدروع بشرية لمنع البوفيكس من إطلاق النار.

رغم تعرض المدنيين لرعب القصف الروسي، وعمليات الإبادة الكاملة التي قامت بها وزارة الداخلية، لقي البوفيكس دعماً واسع النطاق. في الواقع، لم يكن بمقدور الثوار النجاح بخوض حرب العصابات دون هذا الدعم. كان المقاتلون مزروعين في كل السهول بما فيها غروزني. كان هناك حاجة شديدة للطعام وأماكن تخزين السلاح والعيش بمئة مدنيين. عاش هؤلاء البوفيكس في منازل عادية، ولم يكونوا يحملون السلاح في الشوارع حتى يدعوهم قادتهم إلى عملية ما. قال شامل باسايف إن رجاله تسلّلوا إلى قوات شرطة زافغايف، ولم يكن ذلك تفخراً مزيفاً. عندما بدأ الانفصاليون هجومهم على غروزني الذي استمر ثلاثة أيام في آذار، كان هناك الكثير من الحالات التي يلتحق فيها أفراد من شرطة زافغايف بالثوار، أو يقومون بتسليم أسلحتهم دون مقاومة. وقال باسايف: "واكبت الشرطة قائد المقاطعة إلى غروزني لحمايته".

تلقي تجارة النفط الضوء على تشابك تنظيم الثوار مع العالم المدني، ووفقاً لمصادر شيشانية وروسية، يتمتع الثوار، إضافة للدعم الخارجي القادم من تركيا، والأردن والمملكة العربية، بمصادر تمويل تأتي من مبيعات النفط. كان هؤلاء الثوار يسرقون النفط الخام من مخازنه في أنحاء الجمهورية، ثم يذهب إلى مصافي منزلية، ويبيعه المناصرون في أوانٍ زجاجية على جوانب الطرق. كان هذا النفط، المصنوع

يدولياً بإبداع، المصدر الوحيد لوقود السيارات أثناء الحرب لعدم وجود محطات رسمية للوقود، وكانت إمدادات النفط القانونية من خارج الشيشان نادرة. لم يستطع الروس إيقاف مبيعات النفط، الأمر الذي ساعد على ملء صناديق البويفكس.

كانت معرفة أعداد القوات الشيشانية صعبة نظراً لطبيعة بنيتها التنظيمية. لم يكن هناك سوى بضعة آلاف رجل يقاتلون فعلياً، ولكن تمتع كل بويفكس بدعم أصدقائه وعائلته وحتى أولاده المادي والمعنوي، كان لكل من هؤلاء المناصرين مجموعة من المتعاطفين الذين يقدمون الدعم الأخلاقي على الأقل، ولم يكن البويفكس سوى الجزء الظاهر من جبل الجليد.

كان جوهر دودايف مختفياً خلال الأشهر الأولى من سنة 1996، وابتعد من بيت آمن لآخر على سفوح الجبال، ولم يكن يقضي ليلتين في نفس المكان، ولكنه كان أكثر حراً من قبل. كان ذلك الرجل الذكي، وقائد القاذفة النووية، يبدو شارد الذهن وخيالياً بعض الشيء. كانت بلاغته ودعايته شديدة وتصل إلى حد الكوميديا.

قال جوهر دودايف لإذاعة صوت أمركا من خلال هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية في غابات سفوح الجبال في كانون الثاني، تماماً بعد معركة بيرفوميسكوي: "الآن سيتوحد قادة وشعب داغستان وكل القوقاز ضد الروسية وضد أيديولوجية وسياسة كراهية الإنسان التي تخرج من المركز الروسي الشيطاني". في شباط، وأثناء مقابلة صحيفة صباح التركية، كان دودايف واثقاً مما سيحري: "ستشمل حرب الشيشان كل القوقاز في البداية... ثم ستتقل إلى تركيا وبعدها إلى أوروبا، وستقود في النهاية إلى نشوب الحرب العالمية الثالثة، وسوف تستمر حربنا لعقود، حتى يقتل آخر شيشاني".

في نفس الوقت، بقي دودايف كما كان دائماً رجلاً عسكرياً وجنرالاً موهوباً. كانت لديه دائماً فكرة واضحة حول ما سيقوم به العدو، ويعود الفضل في ذلك إلى روابطه الوثيقة مع زملائه في الجيش الروسي، وذكائه الشيشاني الشديد. في آذار، تحدّث بنفس اللغة المخملية خلال مؤتمر صحفي، ولكنه قال أيضاً

إن حرب الثلاثة أيام على غروزني في ذلك الشهر كانت التمرين النهائي. تم تجاهل هذه العبارة على نطاق واسع، ولكنها في الواقع كانت عبارة تنبئ بالمستقبل.

منطقة فيدينو

جاء الثوار إلينا في عمق منطقة تسيطر عليها روسيا في إحدى لبالتي أبار. كانوا يقودون جيب للشرطة، استولوا عليها من قبل، مع أضواء زرقاء على السقف والأحرف الأولى من "شرطة الطرقات الروسية الحكومية" مكتوبة بخط كبير على الأبواب. في حوالي الساعة الواحدة ظهرأ ذهبنا جنوباً من غروزني دون أضواء أمامية في الشوارع الخالية تحت ضوء القمر القوي. ولحقنا مقاتلين يتحركون مشياً على الأقدام. وقال لسخاب قلند للثوار: "الليل هو وقت للثأب".

عبر السهول وصولاً إلى ستاري لتاجي على ضفة نهر أرغون، كانت كل الجسور تحت سيطرة الروس، ولهذا قمنا بالسيارة عبر للنهر الرمادي الغزير. كان الماء يتسرب من الأبواب، وعندما شارفنا على عبور النهر، سقطت السيارة في حفرة عميقة، وكان هناك صمت مفاجئ! لقد امتلأ المحرك بالمياه. خرجنا من سيارة الجيب بنفع الأبواب بكل ما نملك من قوة، وخضنا في الماء البارد الذي غمر صدورنا وصولاً إلى الضفة. كان الروس على بعد كيلومتر واحد على الجهة المقابلة من النهر. كانوا يستطيعون رؤيتنا لو شعلوا بعض أضواء الإشارة. لكن الشيشانيين ضحكوا، وأشعلوا لقائف التبغ، وانضموا لإحدى قواعد للثوار الحيوية لدعم عملياتهم. في غضون دقائق، أحضر رجل مع شاحنة من بلدة ستاري لتاجي لسحب للجيب من النهر. في الرابعة صباحاً، وصلنا إلى القرية التالية تشيري يورت، وتوقفنا عند أحد المنازل لإصلاح المحرك وتناول وجبة ساخنة.

بسبب ذلك التأخير، كانت الشمس مرتفعة في السماء عندما غادرنا السهول ودخلنا الجبال. أصبحت الطائرات منذ ذلك الوقت تشكل الخطر الحقيقي وليس القوت الأرضية. بدأ أسخاب بقيادة السيارة في حوض النهر مبتعداً عن الطريق الذي يعبر للغة متجهاً نحو القتال، وهو معبر للثوار. لا أحد يعرف كم ستبقى هذه الكيلومترات التسعة من الأحوال المائية والسفوح شديدة الانحدار مفتوحة قبل أن يكتشفها الروس، ولكن لم يكن أحد قلقاً. قال لسخاب: "سنجد طريقاً آخر"، لأن الانفصاليين يقتلون بمرورهم، ويحفظون دائماً عن خيارات بديلة، ويجدون الأماكن المناسبة لهم مثل المياه المتدفقة.

لقدنا في معسكر يقع على تلال شديدة الانحدار قرب فيدينو. تسكن الوحدة للمؤلفة من عشرة حطابين، كما يدعوها لسخاب، في كراخ صغيرة وتتركز في مواقع دفاعية. تقوم تلك الوحدات بحماية مستودعات الأسلحة المتورلة في القتال، كما تبذل تلك الوحدات جهودها كي لا يتم اكتشافها. عندما تحلق الطائرات فوقهم، كان كل منهم يختبئ

خلف الأشجار. كانت مضادات الطائرات مخبأة تحت أغصان الأشجار، ولم يكن بمقدور أحد ملاحظتها قبل أن يقع في حفرة مقتل أو خندق. تم إخفاء سيارة الجيب تحت الأغصان. في وقت الصلاة نلماز، كان صف من المقاتلين يسجد على بطانيات عسكرية، ويكبّرون بالقول: "الله أكبر"، وهي الجملة التي يمكن سماع صداها تتردد في جنبات التلال المجاورة.

عندما يكون أسخاب بعيداً، يكون المقاتلون الأصغر سنّاً في حالة تأهب تام. قد حوّلهم العيش في الغابات وخارج نطاق القنولون إلى متقّنين. لم يسبق لأحد أن علمهم تلك القاعدة المتعلقة بعدم توجيه السلاح نحو الآخرين، ولهذا يقومون بتوجيه مسورة رشاش الكلاشينكوف نحو بعضهم البعض. كان علي خان، البالغ من العمر 16 سنة، والمغمم بحويّبة وعنفوان المراهقين، على وشك إطلاق النار على شخص آخر بالخطأ قبل وقت قصير. عندما كانت إحدى المروحيات تتقدم بتردد نحو كمة لقل، غضب وسحب رشاشاً تسليلاً من المخبأ مع حزام طويل من الذخيرة الذي يضعه على كتفيه، قبل أن يطلب الآخرون منه الهدوء والاختفاء عن الأنظار.

يقول أحد النشور: نحن حفنة من الأغباء، أليس كذلك؟ إن المشيشانيين أغبياء. بخلاف ذلك ما كنا لنحارب الروس للسنة الثانية على التوالي.

كان شامل باساييف يتجول في منطقة فيدينو، وهو ما تطلّب يومين لتحديد موعد لإجراء مقابلة معه. تقابلنا في بيت ريفي صغير، وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. تعرّض باساييف لإصابات كثيرة رغم أنه لم يكن يتجاوز 31 من عمره، هو يعتبر متحفاً حربياً حياً. كان لديه شظيتان في ساقه ورصاصة في إحدى ذراعيه، وفقد 16 من أقرابه، ولكنه نجا - حتى أنه نجا من بودينوفسك - مما ساعد على تشكيل تلك الهالة حول شخصيته. كل هذا يجعل جنوده يتبعونه لأي مكان. أخبرني أحدهم: "يكن السر في أنهم لا يستطيعون حصار شامل باساييف. إنه يجد دائماً طريقاً للخروج". يبدو لون عينيه شديد السواد، وحتى في ضوء الشمس عندما يكون وجهه مطمئناً، تبقى العينان متفتحتين. لكن في تلك اللحظة، كانت عيناه محاطتين بهالات سوداء، وتختبئان تحت قبة صوفية سوداء ملفوفة بعصية خضراء، مع كتابات إسلامية باللون الأبيض واللغة العربية.

شرح باساييف الحرب الجديدة، وما يدعو الانفصاليون للقتال بنكاء. لم يسيطر الروس سوى على الأراضي التي يقومون بها فقط، ولستطيع للتحرك بسهولة بالغة، وليس عليّ الاحتفاظ بالخدائق، لأنه كان لدينا الكثير من الجنود الذين يجلسون في الخنادق من قبل دون أن يفتوا شيئاً. لدي الآن قاعدتان أو ثلاث في الجبال تحرسها وحدات صغيرة لأن الدبليات لا تستطيع الوصول إلى هناك. هذا ما يجعل لتنتين أو ثلاث من الكتابات التابعة لي حرة، ولستطيع استخدامها في السهول.

بعد عدة أيام، سافرنا عائدتين إلى أسفل النهر. سمعنا أن سيارة جيب مليئة بالمفتلين اصطدمت مع عربة مدرّعة روسية في تلك المنطقة، قتل ثلاثة شيشانيين في تبادل إطلاق النار، وأصيب اثنان إصابات بالغة.

كان لدى أسخاب هذه المرة رجال أشداء، وليس أولئك الباليين من المخيم. كان أربعة منهم يجلسون على مقعدة سيارة جيب مع بنادقهم، فيما جلس اثنان في القسم الخلفي حيث يجب أن يجلس المسجون، كما كان لديه قاذفت آر بي جي مضادة للدبابات. لم يكن أحد يتحدث عن التوتر، وهو شيء من النادر سماعه في الشيشان. غالباً ما يقول الشيشانيون "هوما أدتس"، التي تعني لا مشكلة.

كان أسخاب يمزح ويقول إن اثنين من المساجين سوف يقضيان حياتهما في السجن، وكانوا يضحكون دائماً حول الأمور الغريبة في عريتهم المسروقة: هناك مسمار محني بدلاً من المفاتيح، ولا يعمل بوق السيارة أبداً عندما يريدون التزمير للبنات. يتحدث هؤلاء الرجال عن كيفية مرورهم بجانب الجنود الروس، متظاهرين بأنهم أفراد شرطة. كما يتحدثون عن الباب الأيسر الخلفي الذي لم يكن باستطاعة أحد فتحه، وهذا شيء قتل عند محاولة الخروج من المركبة بسرعة للنجاة بالحياة، لكن تلك ما تزال مزحة.

انطلقنا في الظلام، وبدأ المقاتل بجانيي بثلاوة الصلوات. أنشد اثنان يجلسان في القسم الخلفي المخصص للمسجون الذكر. وفي المكان الذي كنا سنترك فيه حوض للنهر ونملك طريقاً موحلاً في ممر عودتنا إلى السهول - وهي المنطقة للخطرة - خيم الصمت علينا، ما عدا أصوات مخازن الذخيرة التي كان المقاتلون يضعونها في أسلحة الكلاشينكوف. أخضض المقاتل الذي يجلس بجانيي بنادقته باتجاه منتصف زجاج السيارة الأمامي. ولمع أمامنا مباشرة ضوء إشارة روسي في الليل. بالطبع، كنت أنا من يجلس بالقرب من الباب الذي لا يفتح هذه المرة. قال صوت في الظلام: "سَموت أولاً يا سياستيان؟" وبدأ الجميع بالضحك.

حتى قبل بداية ربيع سنة 1996، كان واضحاً أن السياسة التي تتبعها موسكو في طريقها للأفكار، وأما (أي موسكو) غير قادرة على الفوز بالحرب وغير قادرة على التفاوض مع دودايف، وتواجه منافسة من الشيوعيين للفوز بالرئاسة. كان الكرملين معطلاً. قدّم بوريس ييمتسوف، الحاكم الإصلاحي الشاب لمنطقة نيزني نوفغورود عريضة إلى يلتسن في شهر شباط لإنهاء الحرب، والتي وقّع عليها أكثر من مليون مواطن، ولكن تم تجاهلها. كان إيقاف القتال والتفاوض يمثل اعترافاً بالحقيقة التي تقول إنه ليس بالإمكان الفوز بالحرب وأما كانت خطأ فادحاً. كان ذلك يعني إذلالاً شخصياً ليلتسن، المريض بدنياً والضعيف سياسياً، وموتاً سياسياً لكل

الفريق الذي تمّس للحرب. قال قسطنطين بوروفوي، وهو عضو ليبرالي في البرلمان، والذي كان على تواصل مع دودايف عبر هاتف يعمل عبر الأقمار الصناعية: "في حال إنهاء الحرب، كان يلتسن سيفوز بثقة جمهور الناخبين. لكنه سيفقد الجيش لأنه سيبدو كفاشل مرة أخرى. كان ذلك شديد الخطورة مع عصبة من الوزراء مثل غراتشيف.

كان واضحاً أن الجيش غير قادر على القضاء على المقاومة في المستقبل القريب، وأن زافغايف غير قادر على إنشاء سلطة، ولم يعد أمام الكرملين سوى اعتماد خطة تراجع واحدة: الآلة الدعاية نحو مسار آخر، وارتداء ملابس الإمبراطور. كانت الخطة تقضي بالتظاهر بعدم وجود حرب أولاً، ثم إعلان النصر قبل انتخابات حزيران، مهما كانت الحقيقة.

وفقاً لموسكو وموظفيها في وكالة أنباء إيتار تاس والتلفزة الوطنية، لم يكن هناك هجوم عسكري بل عمليات خاصة. كان ذلك يعني عدم وجود قصف للمدنيين، ولهذا عندما كانت القرى تعرض للقصف بالصواريخ أو من الطائرات، كانت الدعاية تقول إن مصدر القصف طائرات مجهولة أو أن دودايف يستخدم سلاحاً جويّاً سريعاً ليقتصف شعبه. لم يتمّ إجبار القرى على الاستسلام بقوة مدافع الدبابات، ولكنها وقعت وثيقة السلام والتوافق. بعد قصف شديد على جنوبي غربي قرية شالازي، صرّح القائد العام للقوات الجوية الجنرال بيوتر دينكن في مؤتمر صحفي أن مزارع القرويين الذين تحدّثوا عن ثلاث طائرات تحوم فوقهم، وتطلق عليهم النيران ليست سوى "مشاعر استفزازية وعواطف جيّاشة"، وقال إن الحقيقة هي: "إن الشيشانيين يطلقون النار على أنفسهم، ويضعون كميات كبيرة من المتفجرات تحت بيوت شعبهم ويفجّرونها عندما تحلق الطائرات لتنفيذ مهمتها في ضرب مواقع قطع الطرق، وعيماقم، ومستودعاهم، وقواعدهم".

كانت إحصائيات الإصابات الرسمية سريالية. كانت إصابات الثوار التي يعلن عنها الجيش الروسي مرتفعة جداً بحيث يستغرب المرء من أين يأتي كل هؤلاء المحاربين. كانت تصدر تقارير عن الخسائر الروسية، ولكنها كانت تشير إلى خسائر طفيفة، وتحدد أماكن المناوشات المستمرة والقتال الضاري. في منتصف

أبهار، قام قائد قوات وزارة الدفاع الجنرال فلاديمير شامانوف بالإعلان بكل ثقة أن 80% من الأراضي الشيشانية تقع تحت السيطرة الاتحادية، وأنه لا يوجد سوى حوالى 500 - 700 مقاتل، ويحاول 20 % منهم الهروب من الجمهورية. نتيجة للدمار الكبير الذي أصاب قافلة للمدرعات خلال اشتباكات نيسان قرب شاتوي، أكدت الحكومة والجيش للعامة بأن تلك الكارثة فريدة من نوعها. تحدث الرئيس يلتسن عن مأساة قومية، ووصف المقاتلين الشيشانيين بأنهم جناء، حتى أن البعض قال إن القافلة كانت تحمل مساعدات إنسانية. تم تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في حجم الخسائر. حاولت الدعاية الرسمية تصوير تلك العملية بأنها أول نكبة عسكرية في الحرب، وأنها ليست دليلاً على قوة الشيشانيين الحقيقية.

كانت الجوهرة في لباس الإمبراطور تتمحور حول خطة سلمية أعلنها يلتسن بنفسه في 31 آذار عام 1996، أي قبل أقل من ثلاثة أشهر من موعد الانتخابات. خلال أسابيع، كانت تدعى الخطة السرية وانتظر الطرفان تحسباً لما سيطراً. عندما كشف يلتسن عن الخطة - والتي تقضي بوقف إطلاق النار، وإطلاق المفاوضات، والانسحاب المرحلي للقوات الروسية من المناطق الهادئة - أصبح موضع إعجاب الغرب. وفي الشيشان، لم يكن للخطة أي تأثير، واستمرت الحرب هناك، إما لأن يلتسن لم يكن يريد لأوامره أن توضع موضع التنفيذ، أو لأن غراتشيف، وكوليكوف والمتشددون الآخرين لم يزعموا أنفسهم إطاعة أوامره. قال القائد العام للقوات في الشيشان الجنرال فياتشسلاف تيكومиров وبكل فظاظة إنه سيحترم الخطة، ولكنه سيستمر في تنفيذ "عمليات خاصة ضد العصابات المسلحة والإرهابيين"؛ وبكلمات أخرى، سيستمر بالقتال.

كان هناك أصوات في الظلام. قال المدافع عن حقوق الإنسان سيرجي كوفاليف عن خطة السلام بأنها "منافقة من البداية وحتى النهاية"، وأضاف أن الهجوم بقناع السلام والتوافق هو "الأكثر وحشية وبغضاً". واستمرت تلك الاستراتيجية البغيضة، وكان الرئيس على علم كامل بها. كان كوفاليف يعرف بأن كلماته الآتية لن يكون لها تأثير يذكر: "كان يتم تدمير القرى دون أن ينظر أحد فيما إذا كان فيها مدنيون أم لا"، وحتى في بداية الحرب، عندما لفتت شجاعته

أثناء التفجيرات في غروزني انتباه العالم، أخبرني خارج القصر الرئاسي بالآتي: "سأعود إلى الكرملين وأخبرهم بكل ما رأيته، ولكن يراودني شعور بأنهم لا يريدون الاستماع لي". ولم يتغير شيء من ذلك.

حاولت منظمة أطباء بلا حدود، والتي كان أطيؤها يعملون في كل المناطق الخطيرة في الشيشان منذ بداية الحرب، أن تنقذ الشيشان أيضاً من الالتباس الحاصل بكونها شؤون داخلية، كما يدعوها المدافعون عن الرأي في الغرب. قال تقرير للمنظمة في نيسان، والذي صادف توقيته مع اجتماع الدول السبع الكبرى في موسكو، ما لم يستطع كل قادة الغرب قوله خوفاً من تقويض محاولة يلتسن للنجاح في الانتخابات مرة أخرى. "يتم قتل المدنيين، واستهداف المستشفيات، والمدارس والمساجد. ويعد هذا انتهاكاً سافراً لمعاهدة جنيف والمعاهدات الدولية التي وقّعت عليها روسيا".

وفقاً لمنظمة أطباء بلا حدود، تم تطبيق وقصف قرى في مناطق السلام والتوافق، وتم إجبارها من قبل الجنود الروس على دفع ما يصل إلى 10.000 دولار لفتح ممرات لمرور المساعدات الإنسانية. عندما حاول المدنيون الهرب، كان أولئك الجنود يطلقون النار عليهم، ويأخذون الأحياء منهم إلى معسكرات التصفية السيئة السمعة وغير القانونية. كان هناك حالات يقوم بها الجنود الروس بتجميع النساء لاستخدامهن كدروع بشرية، إضافة لسلب كل القرى التي تقع تحت سيطرة القوات العسكرية. قال الطبيب إريك غومير رئيس منظمة أطباء بلا حدود بأن على الغرب أن يطالب: "بإلغاء المجزرة"، فيما قال الطبيب ماريو غوتالز رئيس العمليات إن: "حكوماتنا تعرف بما يجري ولا تفعل شيئاً. لقد حان الوقت لفعل شيء ما". وكان رأي الاتحاد هلسنكي الدولي لحقوق الإنسان متطابقاً في آيار، بأن الغرب غير قادر على تجاهل ما يحدث في الشيشان. "مات آلاف المدنيين، ليس كضحايا للعمليات الحربية بمحدّ ذاتها، وإنما كضحايا للذبح القاسي وعدم الرحمة. لا يمكن اعتبار النزاع في الشيشان "شأنًا داخلياً روسياً"، وإنما تهديداً للأمن الأوروبي".

لكن المجتمع الدولي لم يتحرك بسرعة بعد أن اندلع النزاع في الشيشان. أرسلت وكالات الأنباء الخارجية عدداً قليلاً من المراسلين، والذين قاموا بكتابة قصصهم في موسكو، واستمعوا إلى أكاذيب الوزراء، والتلفزة، ومحرري الصحف

التي لعبت دوراً أكبر مما تستحق بالتأكيد. في معظم الأوقات، كان هناك ما يقارب العشر قصص من موسكو لكل رواية يقدمها شاهد عيان واحد من الشيشان.

حتى التقارير الآتية من الشيشان غرقت في عدم الاكتراث العالمي. في أيار، كنا نقود سيارتنا إلى أوروس مارتان مباشرة بعد إحدى تلك الحوادث القاسية التي أطلقت فيها مروحيات مسلحة الصواريخ على تقاطع طرق مزدحم وبعدها على سوق تجاري هو الأكبر في الشيشان. قُتل ثلاثة شبان يافعين وجرح عشرون شخصاً آخرين؛ كانت الخسائر قليلة نسبة للحشود الموجودة.

فيما كانت النساء يقفن في الساحة ينحن مثل جوقة في مأساة إغريقية، أخذني والد صبي في السادسة عشرة من عمره إلى الداخل لرؤية الجثة، والتي كانت ممددة على بساط أبيض في الغرفة الرئيسية من منزلهم استعداداً لدفنها. كان الصبي جالساً في شاحنة نفضت على جانب الطريق عندما أصابها صاروخ. اشتعلت الشاحنة، ولم يتبقَ منها سوى أشلاء إنسانية متفحمة، وانتشرت في الغرفة رائحة كريهة للجسد المحترق، وكانت الجمجمة محروقة بشدة وسوداء، وقمتها مفقودة مثل بيضة مسلوقة مفتوحة من الأعلى، وكان هناك قطع يستحيل تمييزها في دلو عند قلبي الغلام. قال الوالد: "لقد حلت الكارثة بنا. لقد حضرت اليوم لزيارتي، وستأتي غداً لزيارة الجميع. هذه إبادة جماعية".

مرة أخرى، سرى مفعول دواء الدعاية المخدّر، ونسي الجميع ما قالته موسكو عن تلك "المروحيات التي لا تحمل علامة فارقة" والتي قامت بتلك المجزرة، عدا سكان قرية أوروس مارتان. لقد بدأ النزاع في تلك البلدة، التي كانت معقلاً للمعارضة المناهضة للدودايف، ولكنها انضمت إلى المقاومة فيما بعد. كان مستشفى القرية مهماً لمعالجة البوفيكس الجرحي في القطاع الجنوب الغربي. ربما كان القصد من هجوم المروحية هو التحذير أو العقاب، وربما لم يكن يعني شيئاً. الشيء الوحيد الأكيد أن ذلك حدث، وأن قليلاً من الناس خارج الشيشان اهتموا لذلك. لم يكن ذلك الهجوم الأول أو الأخير من الجو على أوروس مارتان أو العديد من الأماكن الأخرى التي لم تتواجد فيها مقاومة نشيطة، وكان الروس قد قدّموا وعوداً بأن يتركوا الناس يعيشون بسلام.

كان هناك كلام كثير عن الاستنزاف في الخارج - وعلق وزير الخارجية الألماني كلاوس كينكل في نيسان بأن هناك "حرباً ممجية"، وأن على الرئيس يلتسن أن "يثبت نفسه" في وجه القوات العسكرية المتمردة - ولكن لم يضغط أحد على الكرملين فعلياً. في الحقيقة، كان الدعم الذي تلقاه يلتسن في معركة إعادة انتخابه ضد زيوغانوف كبيراً جداً في الخارج، وأصبح مأخذاً عليه من قبل المصوتين المعادين للغرب.

في قمة الدول السبع الكبرى في نيسان، لم يكلف الرئيس الأميركي بيل كلينتون نفسه عناء التحدث عن انتهاكات حقوق الإنسان، وقارن بين المرحوم على الأفلية الشيشانية والحرب الأهلية بين الشمال والجنوب الأميركي قبل 130 سنة خلت. عندما عقد كلينتون قمة منفصلة مع يلتسن، لم يذكر الشيشان إطلاقاً، وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الأميركية بعد تلك القمة مستعيناً باللغة الدبلوماسية: "لن أقدم الكثير من الاستنتاجات من حقيقة أنكم لم تحصلوا على كثير من المعلومات عن الحوار المتبادل بشأن حقوق الإنسان بين الرئيسين يلتسن وكلينتون".

كان أكثر الأعمال نفاقاً التصويت من قبل مجلس أوروبا، وهي منظمة أوروبية تعنى باحترام حقوق الإنسان، لقبول عضوية روسيا فيها في كانون الثاني عام 1996. تمّ تجميد القرار منذ بداية الحرب، ولكن بطريقة ما أقتنع الدبلوماسيون أنفسهم بأن الشؤون الداخلية الروسية لم تعد مركز الاهتمام، ولم تكن هناك عقبة في انضمام روسيا إلى ناديهم. تجرّ العضوية الحكومات بمقاضاة متهمي حقوق الإنسان، واحترام الأقليات، وإلغاء حكم الإعدام، وإلغاء التعذيب. لكن هل كانت موسكو ستلتزم بأي من ذلك؟ حتماً ليس في الشيشان، وهذا ما كان يدركه أعضاء المجلس جيداً. لم يكن عليهم حتى مغادرة ستراسبورغ ليكتشفوا ذلك، لأن تقرير منظمة أطباء بلا حدود كان حاضراً دائماً. عندما أخطر الرئيس يلتسن الوفد الروسي إلى المجلس في آذار أن يقوموا "بصد كل المحاولات للضغط على روسيا، أو التدخل في شؤنها الداخلية"، كان لا بد من تصاعد الاحتجاجات ضده. عوضاً عن ذلك، كان هناك تفهم أكثر لانشغال يلتسن بالحملة الانتخابية، ومحاولته

استرضاء القوميين بشتى السبل. لكن يلتصق، جزر الشيشان على مدى 16 شهراً، كان يهزأ من الجميع؛ لقد كان هو نفسه قومياً.

يحتل دوكو زافغايف موقعاً مهماً في عجز موسكو عن مواجهة الحقيقة ووقف الحرب. كان زافغايف، الخبير في الحفاظ على نفسه، على شاكلة الأمانة العامين السابقين للحزب الشيوعي المحلي، والذين كانوا يحكمون الجمهوريات في شمال القوقاز في تسعينيات القرن العشرين. لم يكن لديه أيديولوجية محددة سوى العمل يداً بيد مع المركز، سواء كان ديمقراطياً أم شيوعياً، وأن يحصل على حصته من قالب الحلوى. كان زافغايف، بقامته القصيرة وحاجبيه المقوسين دائماً، يظهر بشكل يومي على التلفزيون الحكومي الروسي ليتحدث عن مناطق السلام والتوافق، وعن الفوضى التي أصابت صفوف المعارضة المسلحة. كان كلامه يبدو مقنعاً للغاية.

كان زافغايف معروفاً جداً من قبل الكرملين. بعد أن طرده دودايف سنة 1991، عمل كرئيس للإدارة الرئاسية المختصة بالمشاكل ضمن جمهوريات الاتحاد الروسي. في بداية الحرب، عارض إرسال الجيش إلى الشيشان، ولكنه لم يتحدث أبداً بعد أن بدأت الأعمال العسكرية. كانت رغبته في الانتقام من دودايف واضحة. استخدم نفوذه الخاص ليخبر سادته في الكرملين بما كانوا يريدون سماعه تماماً؛ بأنه يمكن الفوز بالحرب، وتدمير قوى الثوار. بالمقابل، حصل زافغايف وأصدقاؤه على بيوت، ومناصب، وسيارات كبيرة، وملايين الدولارات من الميزانية الروسية.

كان زافغايف يمضي معظم وقته في موسكو، ويعيش في مطار غروزني الشمالي أو مطار خانكالا عندما يكون في الشيشان، واللذين حوّلتهما الروس إلى قلاع حصينة. ذكر تلفزيون آر تي آر الرسمي في نهاية الحرب أن البيت في خانكالا كان مزوداً بمحوض سباحة. لم يكن بمقدور زافغايف إحصاء عدد طالبي الثأر منه، وكان الشيشانيون يلقبونه بالضيف الجرمي، ويتنكرون بالقول إن طائرته جاهزة دائماً.

كانت إدارة زافغايف، في ظل الحكومة الدمية السابقة بقيادة سلامبيك خادزييف، منشغلة بالتحويل على الميزانية الروسية بدرجة كبيرة. كان يتم إرسال

الأموال للمساعدات الإنسانية، ولكن تلك المساعدات لم تظهر أبداً، وتم إرسال الأموال لإعادة إعمار غروزني، ولكن بعد بناء ستة أبنية حكومية في مركز المدينة، لم تتم إعادة بناء أي شيء آخر.

ما يزال السؤال حول من كان يحتل الأموال بالتحديد، وإلى أي مدى، في موسكو أو غروزني سرّاً. الشيء الأكيد أن الشيشان تحولت إلى ثقب أسود مالي كما كان الحال أيام دودايف. في سنة 1995، اختفى مبلغ 2.5 مليار دولار من الأموال المخصصة لإعادة الإعمار، بما فيها - وفقاً لتقارير روسية - مساعدات عاجلة في تشرين الثاني وكانون الأول لدى ظهور زافغايف على مسرح الأحداث. تقول الأنباء الواردة من روسيا بأن طعماً، وملابس، وأغطية قد غادرت موسكو إلا أنها لم تصل إلى أبعد من القاعدة العسكرية الكبيرة في موزدوك شمالي الشيشان حيث تم بيعها هناك. بطريقة مماثلة، غادرت أدوية ولقاحات تبلغ قيمتها ملايين الدولارات موسكو، ولكنها لم تصل أبداً إلى الشيشان. وجدت غرفة التدقيق الاتحادية في شباط عام 1996 أن 1082 عائلة فقط من بين عشرات الآلاف قد استطاعت الحصول على المساعدات الموعودة بها لإعادة بناء بيوتها، فيما بقي ما يزيد عن أربعة ملايين دولار في بنوك الدولة، وملايين إضافية كثيرة في بنوك أخرى، ولم تصل إلى أيدي ضحايا الشيشان.

في أيار عام 1996، وبعد سنة من انتخاب زافغايف، قالت الحكومة الروسية إنها حولت 40 مليون دولار لمعاشات التقاعد وإعانات اجتماعية أخرى. لكن في غروزني، كان من الصعب جداً إيجاد شخص واحد قد تلقى تعويضاً ضئيلاً لبيته المدمر، أو أي طريق تم إصلاح الحفر فيه. أعلن رئيس الوزراء تشيرنوميردن أنه تم إعادة بناء 1.3 مليون متر مربع من الأبنية السكنية في غروزني، ولكن لم يستطع أحد رؤيتها، ولم يزُر تشيرنوميردن المدينة بنفسه إطلاقاً.

في ذلك الشهر، اعتقلت السلطات الروسية يسلان غانتيمروف، نائب زافغايف، ومحافظ غروزني السابق تحت سلطة دودايف، على خلفية اتهامات له بالفساد. كان واضحاً أنه مجرد كبش فداء، وضحية جشع مقيت، وبقي زافغايف وبقيّة فريقه بعيدين عن الشبهات. لم يستطع الكرملين التخلص من زافغايف،

ومهما كانت الحقيقة، فقد مثل ذلك الرجل الاستقرار، ومثل مبناه الحكومي المطلي حديثاً في غروزني النحاح بالنسبة للحرب الدعائية.

فيدينو

لسي الأعلى فوق فيدينو، وحيث يحتفظ الروس بسيطرة واهية، كانت التلال مليئة بالغابات السوداء والقمم التي يطوها الضباب. عندما يتساقط المطر، تختفي التلال خلف ستارة من المياه. يعتبر هذا المكان موحشاً لوحدة من الجنود الروس اللذين يعتبرون كل قطعة من الغابة وكل منزل بمثابة أرض معادية.

يقول الضابط الروسي، وهو يشير إلى الجبال السوداء: "يوجد البوفيكس هناك في الأعلى. إنهم يطلقون النار علينا، ولكننا لا نراهم. سيكون من الصعب إخراجهم من هناك".

دخل الكوخ، كان ألكسندر، الذي يبلغ من العمر 35 سنة، يرأس الجلسة. وهو شاب طويل، حليق الرأس، ويمكن رؤية عضلاته المقتولة من خلال سترته العسكرية الواسعة المخططة بالأبيض والأزرق.

يقول ألكسندر بأنه سعيد: "للقاتل من أجل نستورنا، من أجل روميا"، إنه سعيد خصوصاً لأنه يجني مئات الدولارات في الشهر، وهو أكثر سعادة لأن لديه الفرصة لاستخدام كل تلك الأسلحة. يبدو الضابط للشباب الأشقر، والقصير القصر صعب المراس، فيما جلس المجندون في صمت مطبق.

يقول ألكسندر: "لسلحتنا هي الأفضل في العالم. خذ الكلاشينكوف على سبيل المثال، الذي يمكن وضعه في الماء دون أن يحدث له شيء". عندما كان يحس بالملل، كان يجرب بنقسية قنص على بعض القرويين الخارجين من فيدينو، ثم يضعها أرضاً، ويلتقط قبلة يدوية، ويرميها خلف أحد قطمان الخراف التي ترعى في الحقل المجاور. كانت تلك الخراف تفر هاربة ومزعورة، ويتردد صدى الانفجارات في أنحاء التلال المليئة بالمياه. سألت الضابط عن القدرة على تحقيق الانتصار في الشيشان. قال: "لا، لا أعتقد ذلك".

قاطع ألكسندر الحديث، وخيم الصمت على الضابط الذي لفت نظري إلى ملازم ثانٍ يجلس عبر الطلولة، ورمقي بنظرة تبريرية خافتة. قال ألكسندر: "يجب أن نقل كل شيشاني ليس معادياً لروسيا، ونرمي قبلة ذرية على الباقين. لقد كان ذلك خطأ ستالين، وهو لم يفعل ذلك بالشكل الصحيح. إنهم أشخاص فظيئون". سألت ألكسندر عن السكان المحليين من أصل روسي اللذين عانوا الأمرين، وقال: "إنهم كلاب. لماذا أتوا للعيش هنا؟ ليس في روسيا متسع لهم؟ سأقتلهم جميعاً".

توقف المطر، وقفنا السيارة عبر هيندو باتجاه شالي في السهول. كان هناك دوريات كل بضعة كيلومترات، بخليط من المجندين والضباط والمليشيا المتعاونة مع روسيا. كانوا جميعاً يرتدون ملابس فخرة ورقية.

في إحدى نقاط التفتيش، طلب أحد المجندين لفافة تبغ، وأعطيته علبة كاملة. لم يستوعب الأمر ونظر إليّ، ولولمت براسي، ورأيت لمعاناً في عينيه للمرة الأولى. قال: تحصل على علبة كل أسبوع. وماذا عن الرسائل؟ تأتي كل 20 - 40 يوماً. ولا تعرف أبداً ما إذا كانت الرسائل التي نرسلها تصل.

في نقطة تفتيش عند سيرزهن يورت، كان الجنود سكارى للغاية، ولم يستطيعوا السير إلى السيارة سوى بصعوبة بالغة. ترنح أحد المجندين للشباب في طريقه إلينا، وقد خلع قميصه ومالت خونته إلى الجانب. كان معه رجل أكبر منه سناً، وهو أحد أفراد المليشيا الموالية للروس، كان منهزماً تملأ.

سألت عن سبب تطوعه للقتال، وتبين أن شظية قد أصابته. نظر إليّ بجذبة مصطنعة، كما لو أنه يحاول اللبوح بسرّ خطير: لديّ مشاكل خاصة في المنزل. ولكني أريد الخروج من هنا الآن.

تجاوزنا الغابات والشلال والسهول، وكانت نقطة تفتيش واحدة قبل شالي، حيث سنقضي الليلة إذا سمحوا لنا. كان الجنود سكارى جداً بحيث إنهم لم يستطيعوا الاقتراب من السيارة. خرجت وذهبت إلى المركبة العسكرية، حيث كان الجنود يجلسون في ظلها عاجزين عن الحركة.

قال نيكولاي: بالطبع، ساندك تدخل. ثم رلودته فكرة أخرى. يجب أن لا أسمح لك بالدخول، لكني سأدعك إذا أخذتني لمكان أستطيع فيه شراء الفودكا لرفاقي.

أخبرناه بأننا سنأخذك إلى شالي، ونشتري الفودكا ونعود به إلى رفاقه. ركب نيكولاي في المقعد الأمامي مع بنقيته، وشرح لنا بكل حماسة أن فرقته قد اخترت نقوداً لشراء مسجل كاسيت وأن بعض الأغبياء قد أشعلوا النار فيه اليوم.

قال: كنا نستطيع سماع الموسيقى في موقعنا، وكنا بحاجة لذلك. لسنا بحاجة للشيشان، وإنما للمسجل، ولدهشتي الشديدة، بدأ بالبكاء بتهد وتثجج.

ممكين نيكولاي المحظوظ. في شالي، أحضر له بعض الشيشانيين زجاجتي فودكا، وعاد إلى نقطة التفتيش ليستمر في الشرب طوال الليل. أخبرنا أنه في 20 من الشهر، وأنه من سيبيريا.

أن يعرف نيكولاي أبداً أن الرجال في شالي كانوا قلايين على سجنه، وأنهم يستطيعون الهروب بما فعلوه. من كان يعرف ما سيحدث؟ قال أحد الشيشانيين: كان يجدر بنا الاحتفاظ به، ووضع في القبر لبعض الوقت، وتحويله إلى عبد. لقد تركناه يذهب.

6. الانبعاث

للخطة الأساسية هي قتل دودايف.

جوهـر دودايف في آخر مؤتمر صحفي عقده في آذار 1996، قبل شهر من خونه في غابات جنوب الشيشان.

كان الجنرال دودايف، الذي يطارده كل من الجيش وسلاح الطيران، في حركة دائمة، ويقود ثورته المجنونة دون كلل أو ملل، ويبدو أنيق المظهر. كان الطيار السابق يمثل بشاربه الجميل وبذلته السوفياتية الأنيقة قوة تحمّل الشيشانيين. لقد دفع هذا الرجل، الذي هيمن على الشيشان لحمس سنوات، بأتمته نحو النار دون أن يتلظى بحريقها، ومثل أي شخص آخر محط إعجاب من حوله، كان أنصار دودايف يعتبرونه لا يُقهر.

سأل الصحفيون والسياسيون الروس عن سبب فشل المخابرات السرية والكثير من وحدات الكوماندوس في قتل دودايف. بالمحصلة، استطاع الالتقاء بانتظام مع الصحفيين، وكان يظهر على شاشة التلفزيون الروسي. أفسح ذلك الفضل المجال لظهور نظرية مؤامرة بأن وزير الدفاع غراتشيف - أو مسؤولين كبار آخرين في موسكو - قد عقد نوعاً من الصفقة مع العدو الأول للشعب.

أثبتت التجربة أنه من الصعب على نخبة القوات البرية أن تقتل دودايف. لقد تحوّلت محاولة نخبة القوات الأميركية اعتقال أمير الحرب الصومالي محمد فرح عبيد في مقديشو إلى مجزرة دموية عندما علق المروحيات المقاتلة العالية التقنية ووحدات الكوماندوس في شبكة عبيد الدفاعية. كان الاقتراب من دودايف يعني دخول الأراضي التي يسيطر عليها الثوار، والتي قد يكون فيها كل رجل، وامرأة وطفل إما جامع معلومات استخباراتية أو مقاتلاً. لم يكن بمقدور الغرباء التوغل كثيراً، وكانت فكرة قيام نخبة من الجنود بالبحث عن رجل واحد في مثل تلك الظروف أشبه ما تكون بالأفلام السينمائية.

يمكن إلقاء القبض على دودايف بنشر شبكة ضخمة من الجنود حول أرجاء الموقع الذي قد يتواجد فيه. ولكن القوات الروسية لم تكن مدربة بشكل كافٍ للمثل تلك العمليات، وهو ما أثبتته هروب المقاتلين الشيشان المتكرر من بين أيديهم. لم

تكن محاولات مأكرة أخرى، مثل استخدام قناصين شيشانيين متخفين، لتنجح في اختراق دائرة أمن الحراس الشخصيين للدوايف. رغم أن الصحفيين كانوا يستطيعون رؤيته، إلا أنه كان عليهم أولاً الانتقال من مكان إلى آخر مثل الإوز لمدة 24 ساعة، ومن قرية إلى قرية ومن منزل لآخر، قبل الوصول أخيراً إلى موقعه المحروس جيداً.

كانت أفضل طريقة لقتل دودايف من الجو، وهو شيء مفهوم كلياً بالنسبة لجنرال سابق في سلاح الجو. كان الروس يعرفون أنه يعيش على خط القرى الممتد من روشني تشو إلى جيخي تشو، وكانوا يستطيعون تتبع تحركاته بمساعدة الجواسيس وطائرات الاستطلاع المتطورة. رغم أن دودايف كان حذراً، إلا أنه لم يجلس في الخنادق أو الملاجئ. كان شخصاً فخوراً بنفسه وتمكياً، ولم يكن يستطيع تشويه صورته بإظهار الخوف. جرت محاولات عديدة لقتل دودايف، بما فيها القيام بفارة جوية على قرية روشني تشو، والتي أودت بحياة 27 شخصاً (أحدهم الحارس الشخصي للدوايف)، ولكنها أخطأت دودايف، لأنه لم يكن موجوداً كما كان متوقعاً.

كان دودايف سيد المواجهات دائماً، وكان يعرف حقيقة أن قدره محتوم، ورغم كونه عضواً في الحزب الشيوعي وبعدها في الجيش الروسي، إلا أنه كان يتكلم آنذاك عن يوم القيامة. في مؤتمره الصحفي الأخير، قال إن لديه معلومات استخباراتية عن قيام الرئيس يلتسن شخصياً بإصدار أمر باغتياله.

بعد شهر، أعلنت القيادة الانفصالية موت دودايف، حيث قتل بصاروخ القسوى الجوية الروسية. فاجأ ذلك الخبز كلا الطرفين. هل استطاعت موسكو أخيراً، بعدما حاولت بشتى السبل إحراز النصر في الحرب، وتخليص نفسها من مشكلة الانتخابات القادمة، أن توجه له الضربة القاضية؟

عقد مجلس دفاع الثوار - الذي يضم صفوة القادة الميدانيين والسياسيين - اجتماعاً سرّياً للغاية وعين نائب الرئيس زليمخان ياندربايف خليفة له. كانت موسكو تأمل بأن لا يستطيع هذا الرجل غير المعروف نسبياً أن يشمل حركة الانفصاليين. وقال دوكو زافغايف: لا يمتلك زليمخان ياندربايف أي سلطة

حقيقية، ولا يستحق الحديث إليه". أعلنت تقارير خاطئة أن زليمخان ياندربايف مات في إطلاق نار مع رجاله.

مرة أخرى، خاب أمل الروس. وجاء أمراء الحرب والقادة مثل شامل باسايف وأصلان مسخادوف واحداً تلو الآخر وأقسموا الولاء للرئيس الجديد. ولم يكن هؤلاء القادة يفعلون ذلك لأسباب شخصية، ولكن لأجل حقيقة بسيطة وهي أن الدستور الشيشاني ينص على أن نائب الرئيس يحل محل الرئيس بشكل تلقائي في حال وفاته. لقد كان ذلك تقيداً حرفياً بالبيروقراطية، وطريقة المتمردين لإخبار العالم أنهم لم يكونوا قطاع طرق كما كانت تصورهم الدعاية الروسية، ولكنهم قوة منظمة شرعية تقاتل لنيل الاستقلال كما كان دودايف يقول دائماً. تحول ما كانت تعتبره روسيا أعقد مشاكل الانفصاليين الشيشانيين إلى عرض للقوة السياسية.

قال خونكار باشا إزرايلوف، وهو قائد القطاع الشرقي: "إنها خسارة فادحة بالطبع، كان جوهر رمز الحرية بالنسبة لنا وسيبقى كذلك. لكن الذين يعتقدون أننا سنستسلم بعد موت رئيسنا هم على خطأ. وإذا كان تعيين رئيسنا الجديد قد تم وفقاً للدستور، سيكون عندها قائدي الأعلى وسأنفذ أوامره حرفياً. لا يهمننا إذا كان الآخرون لا يعترفون بدولتنا. بشكل عام، نحن أيضاً نرفض الاعتراف ببعض الدول بما فيها روسيا".

كانت خلفية ياندربايف متناقضة تماماً مع خلفية دودايف. كان يضع ربطة عنق حمراء، ويرتدي قبعة باباخا رمادية مع بدلة مموهة، وكان كاتباً سابقاً ومنظراً للانفصاليين، وليس بويفكس أو ضابط جيش. خلال الحرب، لم يشارك في القتال وبقي في القصر الرئاسي في غروزني حتى النهاية، ولم يهرب من الجمهورية كما فعل أعضاء آخرون في الحكومة. كان من بين الأوائل الذين ثاروا ضد الحكومة السوفياتية بقيادة زافغايف، والذين تم سجنهم لاحقاً.

كانت سمعة ياندربايف بأنه قومي متشدد. في قصيدته روسيا، كتب عن: "سيف العبيد وعن القوى القذرة، وفوضى الانتماء للكثير من الشعوب التي تنتشر كالطاعون". لكنه فاجأ الناس في أول مؤتمر صحفي له بالرئيس ياندربايف المرن والدبلوماسي مقارنة بسلفه.

قال إن المحادثات بشأن استقلال الشيشان يمكن أن تنحى جانباً "حتى تاريخ لاحق"، وأنه رغم اغتيال دودايف، إلا أنه مستعد لمفاوضات فورية: "أنا على استعداد للتفاوض مع زعمائهم - الرئيس ورئيس الوزراء، وللتفاوض مع وزراءهم العاديين، لدينا وزراؤنا العاديون".

هذا ما حدث بالضبط بعد أربعة أسابيع، مما أثار دهشة الجميع، حيث سافر ياندرباييف رئيس الشيشان إلى موسكو واجتمع بالرئيس يلتسن ورئيس الوزراء تشيرنوميردن في الكرملين. للمرة الأولى منذ بداية أزمة الشيشان سنة 1991، وافق يلتسن على إجراء محادثات مباشرة.

"هو لم يمت في غولنا، وقد ذهب مباشرة إلى اللجنة. نحن فخورون بأنه كان لدينا رئيس مثله لا يتراجع أبداً. إنها خسارة كبيرة، ولكنها ليست أكثر من ذلك. ولكل شخص وقت محدد. وليس المهم متى تموت، ولكن كيف".

شمل بسلايف معلقاً على موت جوهر دودايف.

رفض الكثير من الناس تصديق الأنباء، وسواء كان محبوباً أو مكروهاً، كان دودايف يبدو منيعاً عن الأذى، ولم ترَ العامة جثة ولا قبراً ولا صوراً. في البداية، لم يكن هناك سوى كلمات كبار فقط. أصابت بعض مناصريه حالة من المستعيا، أو حتى نهاية القرن، والمربطة بنظريات المؤامرة السياسية والأساطير الدينية، حيث كانوا يحاولون شرح المستحيل. وقال رسلان، المقاتل الشاب في التلال، بابتسامة عريضة ومكرة على وجهه: "لقد كذبوا عليكم. إنه ليس ميتاً. إنه بأمان".

إذا كان اختفاء دودايف جزءاً من مؤامرة، فقد أهدت القيادة الانفصالية قدرة غير إنسانية على سرد تلك القصة وعدم البوح بالأسرار. لكن رواية حكومة الشوار الرسمية لم تتغير. وخلال ليلة 21 - 22 نيسان، خرج دودايف لإجراء اتصال هاتفى فضائي. وقاد سيارة الجيب نيفاً بمواكبة حراسه الشخصيين إلى غابات جيخي تشو، وتوقف عند أحدود صغير، وفعل هاتفه، واتصل بصديق له في موسكو، عضو البرلمان قسطنطين بوروفي لمناقشة فرص استئناف محادثات السلام. قالت صحيفة إشكيريا السرية: "بعد تحديد مصدر الإشارة، أطلقت طائرة حرية روسية صاروخ جو - أرض أصاب هدفه بدقة. لم يكن المحكوم بالصاروخ نتيجة

لغارة جوية، بل محاولة اغتيال باستخدام "نظام توجيه فضائي، والذي لا يتوافر لدى الروس وإنما لدى بعض الدول الغربية". أصيب دودايف بجروح بليغة، فيما مات ممثله في موسكو خاماد كوربانوف وسمسار السلاح ماجومد جاناييف على الفور.

قال نالر شيشاني شاب في جيخي تشو، والذي رفض ذكر اسمه، إنه ذهب إلى أرض الحدث مباشرة بعد وقوع الغارة الجوية وأنه رأى كل شيء. "كان الرئيس منشغلاً في نقاش طويل. وكان يقف مع كوربانوف والسمسار. كان الآخرون، أي الحراس، يقفون على مسافة بعيدة بشكل دائرة. ولم يصب إلا واحد منهم بجروح طفيفة، وعندما انفجر الصاروخ، طارت السيارة لمسافة 15 متراً. وأصيب الرئيس في رأسه وذراعه اليسرى وساقه اليمنى. بقي على قيد الحياة لبرهة تكفي لقول بعض الكلمات: "استمروا في القتال حتى النهاية". لقد انتشلت الجثث الأخرين بنفسى.

أقسم شامل باسايف على القرآن بأن ذلك صحيح، وهو ما كان كافياً لإقناع زملائه من القادة، ولكنه لم يكن كافياً لإقناع الناس العاديين. لم ير أحد الجثة، كما أن موقع القبر بقي سرّياً للغاية لمنع الروس من تدنيسه. حتى أخ دودايف، المدعو باسخان لم يحضر الجنازة. قال في منزله في غروزني حيث كان الناس يتلون القرآن: "نزل بعض الناس من الجبال إلى غروزني وأخبروني أن جوهر قد مات، وتم دفنه".

ما حدث في غابات جيخي تشو أكيد، لأن آثار الانفجار بادية في الأخلود. يوجد هناك قطع من سيارة نيفا، وإطار محروق، وأجزاء من لوحة القيادة مبعثرة على مسافة عشرات الأمتار. في المستشفى أوروس مارتان القريبة، أشارت التقارير أن أحد حراس دودايف الشخصيين قد أصيب بشظية في يوم الانفجار، ويمكن الاستنتاج بأن آثار الانفجار لم تكن ملفقة وأن انفجاراً قد وقع، وإذا كان الحراس الشخصيون هناك فلا بد أن دودايف كان هناك أيضاً.

لكن من دبر الانفجار، وكيف؟

تبدو قصة اقتضاح أمر دودايف من هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية مذهلة، ولكنها معقولة. تستطيع طائرة إيلوشن - 76 التقاط الإشارات المنبعثة من

الهاتف الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية وتوجيه مقاتلة نفثة من طراز سوخوي - 25 إلى الهدف. كان رد فعل الروس الأولي حول موت عدوهم مزيجاً من الحيرة والصمت، كأنهم لم يتوقعوا ذلك. رفض الجيش التأكيد بأنه استهدف دودايف، وقال إن طيرانه الحربي قصف المنطقة تلك الليلة مستهدفاً "قواعد المقاتلين". وقال الرئيس يلتسن: "إننا نتحقق من المعلومات"، وقال مستشاره لشؤون الشيشان إميل بين: "لم يكن بمقدور القادة الروس إعطاء هذا الأمر".

جاء تأكيد آخر من قبل وزارة الخارجية الأميركية، والتي أصدرت - وبشكل مثير للاستغراب - تصريحاً يؤكد الحادثة. وقال مصدر مجهول في واشنطن أنه "وائق" من موت دودايف. في وقت سابق من تلك السنة، صرّح الرئيس كلينتون بأنه سيقوم بمساعدة الروس للتخلص من مشكلتهم في الشيشان، ولكنه لم يفسر إطلاقاً ما كان يعنيه بذلك. أثار ذلك نظريات عن قيام واشنطن بتزويد موسكو بأقمار تجسس صناعية عالية الدقة.

"ماذا حدث؟ هل اغتال الروس دودايف أم رجاله أنفسهم؟ هل مات في غارة جوية عابرة؟ هل هرب من الشيشان، أم أنه تعرض للإصابة وتم نقله إلى تركيا، فيما يدّعي رجاله أنه ميت لتضليل الجواسيس الروس؟" وازداد اللغز غموضاً عندما غادرت آلاء، زوجة دودايف المولودة في روسيا، الشيشان إلى بلد إسلامي، والذي كان بمثابة المنفى الذي دبرته موسكو لقاء ظهورها المؤثر على شاشات التلفزة الروسية ودعوتها الناضحين لدعم يلتسن في الانتخابات الرئاسية في حزيران. هل من الممكن أن يعود دودايف، الذي تم إعلان موته، كما عاد الإمام شامل بعدما اعتقد الجميع أنه مات في معركة جيمري؟

بعد سنة من الحرب، كان الناس لا يزالون يطرحون الأسئلة. تم وضع نصب تذكاري - مجموعة حجارة بسيطة - في موقع الانفجار، ولكن مكان القبر لا يزال مجهولاً بالنسبة للعامة. كان السبب الذي أعطته كل من الحكومة والأقارب، نفسه: يمكن للأعداء الداخلين أو الخارجيين أن ينتهكوا حرمة القبر. استمر بعض الشيشانيين يقولون بنظرية المؤامرة، وأن دودايف انتقل إلى خارج البلد. أثارت حقيقة عدم دعوة أخيه لحضور مراسم الجنازة استياء الكثير من الشيشانيين. قدم لي

باسايف جواباً قاسياً ومقنعاً في نفس الوقت لهذه المسألة بأن الجنازة حدثت بشكل سري في 23 نيسان، وهكذا "لا يستطيع الروس درس أنوفهم فيها". تمّ تجاهل الأخ، الذي عاش في غروزني ولم يحمل في حياته سلاحاً، بكل بساطة. وقال باسايف بغضب: "نحن أقرب للدودايف من أخيه، ونحن الذين قاتلنا إلى جانبه"، واستمر الخلاف.

يقول معظم الشيشانيين إنه من المستحيل أن يتمّ اغتيال دودايف من قبل أبناء شعبه؛ تلك الجريمة ستكون ضد كل العادات والتقاليد. لكن لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال. كان الجميع يعرفون أنه مع اقتراب الانتخابات في ربيع سنة 1996 سيبحث الروس عن طرق لإنهاء الحرب، دون أن يعني ذلك موافقة الكرملين على إجراء مباحثات مباشرة مع دودايف. في شهر آذار من تلك السنة، هدّد دودايف بشن عمليات في روسيا، وسخر من محاولات يلتسن المتخبطة السيطرة على الصقور والدخول في عملية سلام. كانت الشيشان مستعدة لمواصلة الحرب لأنه لم يكن لديها شيء تخسره. قال دودايف: "نحن مهتمون بمواصلة الحرب أكثر من روسيا، لأنه ماذا بقي لدينا؟ اقتصاد محطّم، وصناعة وإنتاج متوقفان". كانت فرصة الشيشانيين الوحيدة للالتقاء مع يلتسن - والذين لطالما اعتقدوا أنها مجرد خدعة كبيرة - هي في تغيير القيادة. ظهرت هذه الحقيقة من خلال الإعلام بعد فترة قصيرة من استلام ياندربايف، وتبين أن المحادثات مع الكرملين التي طال انتظارها ستتمّ أخيراً.

في النهاية، جاءت الرواية الرسمية - الروس قصفوا دودايف، وتمّ دفنه في مكان سري - مثل سابقتها. كانت الروايات الأخرى تعني أن عدداً كبيراً من الأشخاص مثل شامل باسايف، وبعض الأقارب، إضافة لبعض الضباط ذوي الرتب العليا يتسرون على رفيق سلاحهم، ويخدعون الناس العاديين في جنوب الشيشان الذين شغلوا العزاء الذي امتد لثلاثة أيام.

لكنّ المؤمنين بنظرية المؤامرة لن يقتنعوا أبداً حتى يروا الجثة أمامهم. في الشيشان، أصبحت التوقعات عن ظهور دودايف جزءاً من أسطورة الحرب. في 1 آب سنة 1996، أشارت صحيفة غروزني إلى أن دودايف على وشك الظهور

بجدداً في الشيشان. لكنه لم يظهر، ولم يثن ذلك من عزمة الآخرين. كان الإعلان يتكرر مرة كل بضعة أسابيع، ودائماً مع تحديد مواعيد دقيقة. أصرّ رئيس الاستخبارات الروسية الجديد نيكولاي كوفاليف على أن دودايف ميت، ولكنه كان مؤمناً بنظرية المؤامرة أيضاً. حذر من أن الشيشانيين كانوا يحاولون تحضير بديل له.

لعل أغرب ما جاء بعد اختفاء دودايف هو المؤتمر الصحفي الذي عقدته زوجته بعد بضعة أيام في منزل في جيغي تشو. كانت آلاء، الروسية المتزوجة من قائد التحرير الشيشاني، محاطة لمدة سنة ونصف بالشيشانيين الشباب الذين يقتلون الروس الشباب. لم تكن تقابل أشخاصاً غرباء إلا نادراً، ومعروف عنها بأنها تنظم قصائد وترسم لوحات رديئة. لكن بالنسبة للصحفيين، كانت آلاء مصدراً رئيسياً للمعلومات، والزوجة التي تستطيع أن تحل اللغز، وتخبرنا كيف مات دودايف. جلست آلاء على مقعد بين مقاتلين بالزي الرئاسي المكوّن من المعاطف وسراويل الجينز السوداء، مع علم أسود على الجدار خلفها، وفي الحال، بدأت بإلقاء إحدى قصائدها. ولم يستطع الكثير من الصحفيين - الذين لم يتمّ السماح سوى للأجانب منهم بحضور المؤتمر - فهم تلك القصيدة حتى أعدنا تشغيل الشريط مرّة أخرى:

عندما أموت وقد خلّاني صديق،
مرّة أخرى لا تحكم عليّ؛ فلنا لؤمّن بالحب.
وعندما لُفّلت في روية الخدر والشر
لا تحكم عليّ؛ قلبي نظيف.
عندما تتعلّق عيناى بطليقة من الأرض
عندما سيحكم عليكم الله؛ ويمكنكم أن تحكموا عليّ

وضعت آلاء وجهها بين يديها، وبكت مما جعل متابعة القصيدة أمراً صعباً، ولم تكن قادرة على الكلام بصوتها الناعم والحاد. كانت تلك صورة امرأة في بأسها الشديد.

بعد الانتهاء من القراءة، أعلنت آلاء بأنها أخذت على عاتقها القيام بزيارة سلمية لرئيس الوزراء تشيرنوميردن. قالت إنها ستكون المرأة القوقازية الأسطورية

التي ستوقف القتال برمي وشاح أبيض بين المتقاتلين. نظر الصحفيون إلى بعضهم في الغرفة بمزيج من عدم التصديق ونفاد الصبر. في النهاية، أعلن أحد الحراس بأنه يمكننا طرح الأسئلة. وقال متذمراً: "لا أسئلة سياسية".

"هل كنت موجودة عندما مات جوهر؟".

انتظر الجميع، واستعدت الأقلام لأن هذه ستكون رواية شاهد عيان. غروان. قصيدة أخرى، ما عدا أنها لم تستمر طويلاً. وقرأت "آلاء" سطين، ووضعت يديها على وجهها واندفعت خارج الغرفة، وتركنا في صمت مطبق، ودفاترنا تقريباً خالية.

قبل أن يفوه أحد بكلمة، انفتح باب الغرفة المجاورة بقوة، وخرجت منه آلاء عاطلة بالحراس، واندفعت بسرعة إلى الباحة، واختفت في سيارة فولغا رمادية، والتي انحدرت على طريق القرية التراي.

شعرت كما لو أنني أشاهد مسرحية عبثية، وأزعجني أحد التفاصيل أكثر من أي شيء آخر في ذلك الأسبوع؛ رغم بكائها ونواحها، لم تبك آلاء وقد كنت جالساً على بعد مترين وأستطيع أن أرى بوضوح. ولا حتى دمعة واحدة.

موسكو

اعتدى بعض الشيشانيين على سلمان رادوييف في كمين على الطريق في آذار عام 1995 - ولشارت التقارير إلى مقتله. تقول الرواية إنهم نالوا منه من أجل فشل الهجوم على داغستان. وشعر الروس بالراحة.

في تموز، ظهر رجل ملتج يرتدي نظارات شمسية كبيرة على التلفاز الروسي، وقال إنه سلمان رادوييف. في البداية، قال الروس إن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقياً. في الحقيقة، لم يكن لوجه سليماً تماماً، فقد تعرض للتشويه، وظهرت عليه آثار عملية جراحية. لكن لم يكن هناك خطأ في صوته للرفع. عاد سلمان من الموت حقاً، لو على الأقل عاد بعد إجرته لمجموعة من العمليات الجراحية في الخارج.

كان هناك صدمة كبير: جوهر دوداييف حي يرزق كما قال رادوييف. لقد نجا من الهجوم بالصواريخ، وهو يتلقى العلاج الآن في الخارج، وأقسم رادوييف بهذا على القرآن.

شخصية رادوييف غريبة بلا شك. يقال إن معركة بيرغوميسكوي قد أصابته بلوثة في عقله. لقد أزعجني عندما اجتمعت به في نفس المنزل الآمن بعد هروبه، واستمر في ترديد نكتة واحدة في كل مرة كن يراثي فيها. سيلاستيان باه، سيلاستيان باه. اكتشفت لاحقاً أنه قد يكون الموسيقار سيلاستيان باخ - باه كلمة روسية يستخدمها الأطفال الروس عندما يتظاهرون بإطلاق النار.

جعلته محاولة الاختيل والعمليات الجراحية مخيفاً أكثر. كان وجهه مشوهاً ولكن ليس ثيلبه. قبل ذلك، كان يرتدي بذلة عسكرية عادية، فيما أصبح الآن يرتدي زيّاً عسكرياً خاصاً مع لوسمة، مثل ثيلب من تصميم فهيرزاتشي، إنه يسافر مع حوالي 40 حارساً شخصياً قساة للغاية، وأضحى شكله غريباً لمعظم الناس، ولكن هناك من يصنق دائماً ما يقوله. سيبقي رادوييف دقماً، الرجل الذي عاد من الموت، الرجل الذي قال إنه يعرف ما حصل لجوهر.

في 27 أيار، أي قبل ثلاثة أسابيع من الانتخابات الرئاسية الروسية، غادر كل من زليمخان ياندربايف وموفلادي أودوغوف والممثل الذي تحول إلى قائد أحمد زكيف إلى الكرملين. هذا ما أراده الشيشانيون دائماً. كان هناك شعور ساذج بأن يلتسن لا يعرف الحقيقة، وأنه حالماً يلتقي بهم سيحاول أن يفهم.

أقلبه على الورق، لم يفاوض الشيشانيون من منطلق قوة، وغداة محادثات الكرملين، استطاع الروس أخيراً الاستيلاء على ستاري أنشكوي وأوراخوف وحتى باموت رمز المقاومة العظيم. كان القصف الذي قامت به طائرات توبولوف وسوخوي على مدار أسبوع ثقيلاً جداً، مما أدى إلى تحطّم النوافذ في بلدة تبعد 10 كيلومترات، وتساعد الدخان من السفوح المغطاة بالغابات. كالعادة، تراجع الشيشان إلى الغابات عندما نفدت الذخيرة منهم، وبقي معظم رجالهم أحياء، ولكن الاستيلاء على باموت كان صدمة نفسية كبيرة. تعرّضت ستاري أنشكوي، التي كانت قرية صغيرة، للقصف العنيف بحيث ارتفعت الأنقاض إلى حدّ الخصر في معظم الشوارع. أصبح التعرف على معالم أوراخوف مستحيلاً. قال لي موفلادي شابايف، أحد مقاتلي البويكس الذي نجح من ستاري أنشكوي لاحقاً أن 40 رجلاً فقط كانوا يدافعون عن القرية عند الهجوم الروسي النهائي، وقد مات 18 منهم.

كان الشيشانيون يمتلكون بطاقة قوية واحدة: إن يلتسن، الساعي لإنهاء الحرب قبل يوم الانتخابات الذي يصادف في 16 حزيران، سيكون مستعداً

للتفاوض، وقد وصف بنفسه الحرب بأنها كانت خطأ فادحاً، وأنه لا يمكن أن ينجح بإعادة انتخابه إذا لم تنته.

كان هناك أمل حقيقي في أوساط الناس العاديين. اصطفت الحشود المتهجة على طول الطرقات عند نزول موكب ياندربايف من الجبال إلى مطار أنغوشيا. سار ياندربايف، الشيشاني النموذجي، عبر الجمهورية في سيارة ليموزين زيل سوداء، وهي من الآثار الباقية من أيام دودايف، والتي كان يعلوها القبار رغم أنها كانت سليمة. كان باقي الموكب عبارة عن سيرك من الأبواق الصاذحة، وهتافات "الله أكبر"، والمقاتلين الذين يخرجون من سيارات الجيب ملوحين بعلم الثورة. تمركزت القوات الروسية على طول الطريق، وراقبت بصمت. كان ذلك هو الهدف من وراء كل هجماتهم؛ اللقاء مع يلتسن.

بعد محادثات مختصرة، وقّع ياندربايف ورئيس الوزراء تشيرنوميردن على مذكرة تعلن وقف إطلاق النار لمدة أسبوع. وصّرَح يلتسن: "تمّ حل المشكلة الرئيسية للسلام في الشيشان". لكن كما أظهرت الصور التلفزيونية لاجتماع الكرملين، لم يكن هناك سوى أمل ضعيف بالسلام الحقيقي.

ألقي يلتسن التحية على ياندربايف بازدراء، ووبّخه لحضوره "متأخراً ساعتين ونصف"، وقال: "لم يجرؤ أحد على التأخر عن لقاء الرئيس، حتى لخمس دقائق فقط". ثم جلس الرئيس الروسي إلى طاولة طويلة، وأصرّ على جلوس وفد ياندربايف إلى يساره، ووفد تشيرنوميردن، الذي يتضمن دوكو زافغايف إلى يمينه. كان يلتسن يريد تقلّم نفسه كوسيط في قضية روسية داخلية.

اعترض ياندربايف، وهدد بترك الاجتماع. كرّر يلتسن عدة مرّات بصوت مدير مدرسة غاضب: "اجلس، اجلس". في النهاية، عاد ياندربايف أدراجه وجلس يلتسن قبالة، كما لو أنه شريك كامل. أجبر زافغايف على الجلوس في آخر وفد المسؤولين الروس. هذا ما أَرْضَى كبرياء الانفصاليين الشيشان، ولكن الأجواء كانت متوتّرة.

لدى النظر إلى الشيشانيين، ملابسهم المموهة، وبينهم أحمد زكييف الذي كان يضع عمامة سوداء على رأسه، على أحد جانبي الطاولة، والروس الأتقيين على

الجانب الآخر؛ يعتقد المرء أنهم لن يفترقوا بعد ذلك. لم يكن هناك حوار، وإنما مجرد الصوت السابق للانتخابات لدى يلتسن، وكرم الضيافة لدى الشيشانيين. تحدّث يلتسن وياندربايف إلى بعضهما البعض، وقاطع أودوغوف يلتسن ليسأل بفضفاضة: "هل تعلم ما الذي يجري؟" وعرض تزويده بأشرطة فيديو عن الرعب.

لكن فوق كل شيء، كانت الجلسة حيلة دعائية ماهرة لصالح يلتسن، ورغم أنه كان يتحدث إلى قطاع طرق، إلا أنه كان يتحدث بقوة. كان لديه حيلة أخرى، فبعد يوم من محادثات الكرملين، وبينما كان القادة الشيشان لا يزالون في موسكو كرهائن بشكل غير علني، ذهب يلتسن سرّاً إلى الشيشان في أول زيارة له منذ بداية الحرب.

ذهب يلتسن، الذي استخدم إحدى المروحيات العسكرية، إلى براغويرينايا، وهي قرية في شمال الشيشان لم تشهد قتالاً قط، وكان معظم سكانها تقريباً من أصل روسي أو من الشيشانيين الراضين للاستقلال، ثم حطّ في إحدى القواعد العسكرية في غروزني وأخير الجنود: "انتهت الحرب، لقد رحبتم". في غضون أربع ساعات، كان يلتسن في طريقه عائداً إلى الوطن، ولم يقابل ضحية حرب واحدة أو حتى أحد سكان غروزني، ومن الجائز تماماً أنه لم يرَ المباني المهتمة في طريق عودته بالمروحية. لكن لم يأت التلفاز الوطني بذكر أي من ذلك. رأى جميع المشاهدين صور يلتسن في الشيشان، وكان ذلك يعني كما قال هو: "أن الشيشان جزء من الفدرالية الروسية وليست خارجها". استطاع يلتسن أن يقول آنذاك إنه لم يسمع "طلقاً واحدة" وهو ما يعني أن الحرب انتهت. "لقد حلّ السلام، ليس فقط على الورق وإنما على الأرض".

رغم ذلك، كان لدى الشيشانيين بعض الأمل، وجرّت جولة كاملة من المفاوضات بين الجانبين لمتابعة محادثات الكرملين في نازران في أنغوشيا. في 10 حزيران، قبل ستة أيام من الإعلان عن نتائج الانتخابات بين يلتسن وخصمه المنافس الشيوعي غينادي زيوغانوف، تمّ التوقيع على اتفاقية جديدة لنزع السلاح وانسحاب القوات. كان المجتمع الدولي ينظر إلى تلك الاتفاقية على أنها فرصة أفضل من صفقة سنة 1995.

شهدت الجولة الأولى من الانتخابات منافسة قوية، وتقدّم يلتسن بنسبة ثلاثة بالمئة فقط من الأصوات على زيوغانوف، مما أجبره على خوض جولة ثانية حاسمة في 3 تموز. استمر يلتسن، الذي كان عليه القتال من أجل إعادة انتخابه، في عملية السلام، وحصل أحد أشد المتقدين للحرب، وهو الجنرال المتقاعد ألكسندر ليبيد على المركز الثالث بشكل ملفت للانتباه في الجولة الأولى. قام يلتسن بتعيين ليبيد مستشاراً أعلى للأمن القومي. وعزل العديد من مؤيدي الحرب مثل وزير الدفاع بافل غراتشيف، ورئيس الحرس الخاص في الكرملين ألكسندر كورزاكوف، ورئيس الاستخبارات السرية أولغ سوسكوفس وسكرتير مجلس الأمن القومي أوليغ لوبوف.

بعد وقت قصير، هزم يلتسن خصمه زيوغانوف وربع الجولة الثانية في 3 تموز، وأصبح واضحاً بأن عملية السلام ستشهد تراجعاً. رغم طرد صقور مجموعة الحرب، لم يكن هناك أحد يستطيع التراجع عمّا فعلوه. منذ البداية، كان على الكرملين إما الاستمرار في قتال الشيشانيين أو الاعتراف بأنه ارتكب خطأ فادحاً والتوقف؛ وبكلمات أخرى، الإقرار بالهزيمة. ازدهر منطق الحرب بدرجة أكبر آنذاك، ورفعت إعادة انتخاب يلتسن أي ضغوط عن الدخول في المفاوضات. إضافة لهذا، عانى الرئيس البالغ من العمر 65 عاماً من أزمة قلبية بين الجولتين الانتخابيتين، وبدأ الفترة الرئاسية الثانية بعجز، مما أغرق الكرملين مجدداً بفراغ سياسي. عندها حانت فرصة الصقور الأخيرة.

قال الجنرال فلاديمير شامانوف، قائد قوات الدفاع الروسية في الشيشان في 11 تموز، وبعد أسبوع واحد فقط من فوز يلتسن، وبعد شهر من معاهدة أنغوشيا للسلام: "سندمر جميع معازل مقاومة قطاع الطرق. يجب أن نشن حملة ضارية ضد هؤلاء الأوغاد في كل المجالات: العسكرية والسياسية والاقتصادية وفي وسائل الإعلام". كمثل على انتشار قطاع الطرق في روسيا، استشهد شامانوف بالعديد من التفجيرات التي جرت آنذاك في موسكو، على الرغم من عدم وجود أي دليل على أن الشيشانيين قاموا بذلك العمل.

تحركت الآلة العسكرية للقيام بهجوم عسكري كبير آخر. حلقت موجة بعد أخرى من الطائرات والمروحيات جنوباً لقصف وتفجير القرى الجبلية. تحركت

قوات المشاة مع الدبابات والمدفعية بسرعة في الوديان، واستولت بالتدريج على كل قرية من دارغو حتى فيدينو، وأجبرت الشيشانيين على التراجع عدة مرات. في السهول، هاجمت القوات الروسية قرية جيخي الكبيرة بعد قصف مدفعي شديد دمّر منزلاً من كل عشرة فيها، وقتلت القوات الروسية القائد واحتفظت بجثته للمطالبة بفدية.

ربما كانت الغارات الجوية على الجبال هي الأعنف ضد القرى التي بقي سكانها المدنيين فيها. كانت القيادة الكاملة للنوار، بمن فيهم ياندربايف ومسخادوف على وشك الزوال من الوجود حين خرجوا من ميخيتي بالقرب من فيدينو، والتي حاصرتها القوات البرية، وتعرضت للقصف من الجو، ولسحرة القدر، كان الشيشانيون يلتقون هناك مع ممثل أرسله ليبيد للحديث عن مفاوضات سلام جديدة. قالت التقارير الروسية إنه تمّ التقاط صور لذلك المبعوث وهو يصرخ خلال الغارة الجوية: "ألا يعرف ليبيد عن هذا إنه كابوسا ليمهلنا ثلاثة أيام، وسنوقف هذه الحرب". لم يكن هناك أحد يستمع له.

حتى تشيرنوميردن، الذي دعا سابقاً إلى إيجاد حل عن طريق التفاوض، ألقى اللوم على الشيشانيين لبدئهم جولة جديدة من الحرب، ولدهشة الجميع، فعل الشيء نفسه ليبيد الذي التقى القائد العام للقوات العسكرية في الشيشان، زميله القسّم الجنرال فاتشسلاف تيكوميروف عشية الهجوم الجديد، ووفقاً لليبيد، كان تيكوميروف يتخذ "الإجراء المناسب".

كان الهجوم منهلاً، ورغم الفساد وعدم المبالاة في الماضي إلا أنني بدأت أتساءل فيما إذا كان الروس سيحققون غايتهم في النهاية. أصدر الشيشانيون بياناً قالوا فيه: "للأسف علينا أن نشير إلى أن روسيا التي تدّعي بأنها قوة عالمية وأن شعبها الذي يدّعي بأنه عظيم، لا تحافظ على كلمتها". وصوت الثوار لصالح المقاومة، وقالوا إن "الجانب الشيشاني كان مجبراً على تنظيم المقاومة"، ولكن تحت رحمة الطيران والتقدم المفاجئ لآلاف القوات، لم يكن بمقدورهم فعل الكثير.

قاوم زافغايف حتى النهاية وقف إطلاق النار بشكل حقيقي، وجاء إلى موسكو وأصرّ على أنه لم يكن هناك هجوم على وطنه، وقال لمجموعة من النازحين

الشيشان في العاصمة الروسية: "أستطيع بالسلطة المخولة لي أن أعلن أنه لم تسقط قبلة واحدة، ولم يتم إطلاق أي رصاصة في الأيام الثمانية الماضية في الشيشان".

اعتقدت في ذلك الوقت أن ذلك ليس سوى فصل آخر في عملية التغطية التي استمرت طوال العشرين شهراً الماضية، وهي الدعاية التي ساعدت زافغايف في الحفاظ على منصبه واستمرار الحرب. لكنني أدركت لاحقاً بأنني شهدت لحظة تاريخية؛ الظهور الأخير للإمبراطور دون ملابس.

في غفلة من زافغايف، والقوى التي دعمته للوصول إلى السلطة وكل مفاوضات السلام المصطنعين، كان الشيشانيون في تلك اللحظة ينظفون أسلحتهم ويستلون صلواتهم تحضيراً للحدث الأخير والأكثر إدهاشاً في الحرب؛ استعادة السيطرة على غروزني.

7. العودة إلى الوطن

تم إجبارنا على الانسحاب منذ سنة ونصف. وحان الآن وقت للهجوم للعكس. إننا نحرر مدينتنا من الاحتلال الروسي.

لحمد زوبلرايف مقلد شيشلني في غروزني 1996.

في الموقع الروسي القريب من معمل التعليب القديم، على الحافة الشمالية لغروزني، كان المسؤول في وزارة الداخلية على وشك الانهيار. لقد كانت الفوضى عارمة في القاعدة العسكرية، والخنادق تتلوى عبر العشب الطويل، والخواجز الإسمتية مهملة، مع أكياس رمل، ومبنى صغير. بدا المكان مهجوراً، حتى أدركنا أن الجنود كانوا يجلسون في حفرهم الآمنة، حتى أنهم كادوا يصبحون جزءاً من الأرض. على أحد الجوانب، كان يمكن رؤية الحقول الخالية، وعلى الجانب الآخر توجد المدينة التي يعلو فيها ضحيج المعارك.

خرج الم لازم وهو يحمل جهازاً لاسلكياً بإحدى يديه، وبندقية كلاشينكوف في الأخرى، وقد لوّحت الشمس بشرته، واتسخت ملابسه. كان يرتدي بذلة فضفاضة وقميصاً مموهاً بأكمام قصيرة، وكان مزاجه سيئاً. قال لي ولرفاقي من تلفزيون دبليو تي إن، ووكالة أنباء إي إف إي وإذاعة الحرية، بعد

أن نزلنا من سيارة لاندروفر بيضاء مصفحة: "اذهبوا من هنا. يوجد قتال هنا، ألا ترون؟ اذهبوا، ولا تصوروا شيئاً وإلا حطمت آلة التصوير". حاولنا الدخول في نقاش مع الضابط لنغير موقفه، ولكننا كنا قد وصلنا إلى غروزني للتو، وكان قد عايش أول يومين من الهجوم الشيشاني لاستعادة السيطرة على المدينة. كلما حاولنا معرفة السبب، ازداد تَعَنَّت الضابط حتى أصبح كتلة عضلات خطيرة تحمل بندقية.

لقد مرّ بتجارب جعلته يتصرف على ذلك النحو. لم يكن ما يشعر به مجرد الخوف من المعركة، وإنما كان يمثل ردّ فعل رجل واحد عن حالة الانهيار التي أصابت معظم القوات المسلحة الروسية في الشيشان.

عند فجر 6 آب - قبل ثلاثة أيام فقط من تنصيب الرئيس يلتسن في الكرملين لولاية دستورية ثانية - تسلل حوالي 2000 - 3000 مقاتل بويكس إلى غروزني، وبرزوا من مخايئ معدة سلفاً داخل المدينة، بأسلوب حصان طروادة. في يوم واحد، اشتبكوا مع جميع المواقع الروسية داخل وحول المدينة، وقاموا بإنشاء مركز قيادة لهم، وسيطروا على ثاني وثالث أكبر مدينتين، وهما غوديرمس وآرغون دون إطلاق رصاصة واحدة.

في البداية، قال النائب الأول لوزير الداخلية الروسي بافل غوليبيتس إنه ما من شيء مهم يحدث: "هؤلاء ليسوا سوى بعض قطاع الطرق الذين يحاولون سرقة المدن، وليس لهم أية أهداف. لقد صمدت غروزني وستبقى صامدة، وأي حديث عن احتلال المدينة هراء".

تراجع ذلك الكلام الشجاع بسرعة، وكان الشيشانيون يعرفون أمكنة تواجد الروس، واستطاعوا محاصرتهم، وإبادة وحدات الإغاثة، وحتى السيطرة على أبنية الإدارة المركزية. كانت سرعة الشيشانيين وبطء ردّ الفعل الروسي مفاجئاً للغاية. نتيجة لسوء التنسيق الطويل الأمد بين وزير الدفاع والداخلية، استغرقت القوافل المدرعة للجيش النظامي 36 ساعة للوصول من القواعد الموجودة في المناطق البعيدة لمساعدة وحدات وزارة الداخلية المحاصرة داخل المدينة. اعترف الجيش بأن الموقف "خرج عن السيطرة بالكامل".

وجه موفلادي أودوغوف، رجل الدعاية المعروف، ضربة قوية للرئيس يلتسن عندما اتصل بالتلفزيون الحكومي الروسي من هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية، وأعلن بأن المتمردين "استعادوا النظام الدستوري". كان 6 آب اليوم الذي يخافه الجميع، ولكن الجنرالات قالوا إن ذلك لا يمكن أن يحدث أبداً.

في 8 آب، وهو اليوم الثالث للهجوم، لم تكن الأمور تجري على ما يرام. امتدت الحرب لتشمل أراضي كثيرة، وزحفت القوات فوق كل الطرقات باتجاه المدينة، وبالقرب من معمل التعلب شمال المدينة، كانت المدافع الروسية الكبيرة تطلق النار بكثافة، وضربت المدفعية صفّاً من المنازل التي تصاعد الدخان الأسود الكثيف منها، واحداً بعد الآخر، على بعد مائتي متر من مكان وقوفنا. حامت طائرتان حريتان فوقنا في الأجواء الزرقاء الصافية. لكن الملازم كان يعرف أن ذلك مجرد استعراض، وأن الموقف كارثي وأن قواته تطلق النار على بعضها في هذه الفوضى.

صرخ الملازم: "اخرجوا من هنا، سيرسلون المروحيات، والطائرات الهجومية في أي لحظة وسيدمرون مركبتكم، إنهم لا يحبون السيارات". كان الملازم خائفاً بشكل واضح "تمتطيون ركن سيارتكم قرب قاعدتنا، ولكنهم سيدمرونها أيضاً. لقد تم قصف أربع سيارات بنفس الطريقة على هذا الطريق، وشعرت بالغثيان من رؤية الجثث. أصابت إحدى مروحياتنا أربعة رجال أصيبوا في هجوم شتّه المقاتلون علينا، اخرجوا من هنا".

في الوقت المحدد، حلقت مروحيتان هجومتان على ارتفاع منخفض فوق الأشجار، ممّاماً فوق الموقع الذي كان الملازم يتحدث عنه، واستشاط وجهه غضباً. وممايلت إحدى المروحيات عندما مرّت ممّاماً فوق رؤوسنا، ثم أطلقت رشقتين ناريتين من أسلحتها الرشاشة باتجاه حقل الأعشاب الطويلة إلى يميننا، لقد كان ذلك تحذيراً.

كان علينا إيجاد طريق آخر للدخول إلى غروزني. لكن ذلك كان يعني قطع عدة كيلومترات في الأرض المكشوفة بين غروزني وتلال مورلاند باتجاه الشمال. كان ذلك يعني المرور من موقع روسي آخر والذي فتح النار من رشاشات

الكلاشينكوف على اللاندروفر في وقت مبكر من ذلك اليوم. من مكاننا، كنا نستطيع رؤية الموقع عبر الحقول، الذي يرفرف علم ثلاثي الألوان على حصنه. هل كان الضابط يستطيع إرسال إشارة لهم بأننا أصدقاء؟ قال: "كلا. إنها وحدة مختلفة. لا يوجد اتصال لاسلكي بيننا". فوضى.

حالمًا ركضنا بموازة الموقع الروسي الثاني، وعلى بعد 500 - 800 متر منه، فتح الجنود النار من بنادقهم الرشاشة علينا، وارتطمت بعض الرصاصات بالجانب المصفيح من اللاندروفر دون أن تؤذيها، مما جعلنا نضحك ونصرخ أوغاد بنفس الوقت، ثم حصل انفجار خلفنا على الطريق الموحد مطلقاً سحباً من الدخان الأسود؛ قذيفة صاروخية أو مدفع خفيف. كان الوضع أكثر جدية عندما ضغط فاخو، السائق الجورجي الضخم، على دواسة الوقود، وانطلق مسرعاً حول إحدى الزوايا، لتندفع السيارة بقوة عبر الحفر والأخاديد حتى وصلنا إلى مأوى عند أول تل. لقد فقد الروس السيطرة على أنفسهم؛ والحمد لله أنهم كانوا رماة سيئين.

حاولنا سلوك طريق آخر للوصول إلى غروزي من الشرق. كانت السماء تعجّ بالمروحيات - المزودة جميعها بالصواريخ، والمدافع، والأسلحة الرشاشة - والتي تخلق فوق الغابات، والحقول والأراضي القاحلة الشاسعة. كانت خمس منها تطير على علو منخفض، واحدة تلو الأخرى للبحث عن النيران الأرضية. فجأة غيّرت إحداها مسارها وتركت السرب واتجهت نحو هدف جديد؛ باتجاه الطريق الذي كنا عليه، ورغم أن سيارتنا اللاندروفر كانت الوحيدة على الطريق، إلا أنها كانت تبدو مدنية بما فيه الكفاية، وكنا نسير ببطء خارج منطقة القتال. لكن في كابوس انتزاع غروزي من بين أيديهم، كان الروس يستهدفون أي شيء، وفي أي مكان، وفقدت أرض المعركة أي تعريف لها، كان العدو في كل مكان، وكنا نحن الأعداء.

صرخنا: بسرعة! وكانت منازل نوفي تسميترووي القريمية الريفية، على بعد سبعة كيلومترات من غروزي، هي الشيء الوحيد المرئي في الأفق. اقتربت المروحية منا، وعرفنا بأنها ستطلق النار علينا. إذا استطعنا فقط الوصول إلى القرية سوف نخفي السيارة ونجد مأوى لنا. بالطبع لم يكن هناك ملجأ على هذا الطريق المكشوف المقفر الخالي من الأشجار. لكن عاصفة الرصاص المنطلق من الرشاشات

ضربت الأرض بقوة، وأصاب جانب السيارة المصفتح، ولم تكن تشبه أصوات رصاص البنادق العادي إطلاقاً، وإنما كانت مثل مثقب متطور مع تأثير النقر الذي جعل هذا الصندوق المصفتح على عجلات يبدو مثل الكفن. انطلقت صرخات متناقضة: بسرعة!، توقف!، بسرعة! توقف!، وأتقد وجه فاخو غضباً، ورفع قدمه ثم أعادها للأسفل بعنف، مندفعاً بالكفن نحو بيوت نوفي تسيتيروي. لم يكن هناك جدوى من التوقف، لأن البراعة لن تنقذنا، وإنما الملحاً فقط.

على بعد مئة متر، تعرضنا لوابل ثانٍ من الرصاص الذي صمّ أذاننا، ثم سمعنا صوت المروحية تتعد فقط لتستعد للعودة. كانت القرية بعيدة حوالى 500 متر، ولن نستطيع الوصول قبل عودة المروحية للمرة الثالثة. ظهرت غابة صغيرة إلى جانب الطريق. صرخنا: توقف!، توقف!. حصلنا على فرصة للنزول من السيارة. اندفعنا خارجاً بعد أن فتحنا أبواب اللاندروفر بقوة، وكنا ستة صحفيين وشيشاني شاب، ولم تكن محظوظين بما فيه الكفاية للطلب من أحد ما إيصالنا إلى نوفي تسيتيروي.

تملكتني غريزة واحدة فقط: الابتعاد عن الأنظار. لجأت إلى أول مخبأ تحت شجرة مشوكة كثيفة الأوراق وحيدة إلى جانب الطريق. ركض الآخرون بانجاء الأيكة على بعد 25 متراً. كان اختياري خاطئاً، وعادت المروحية الهجومية مجدداً، وأيقنت أن الطيار رأي أختبئ تحت الشجرة. مزق رصاص الرشاشات فروع الشجرة، وتطاير الغبار خلف قدمي مثل اندفاع مئات الينابيع الصغيرة. حاولت الفوص في الأرض، وأمسكت التراب بأصابعي، ودفعت نفسي تحت الشجرة المشوكة حتى بدأت الدماء تسيل من ذراعي وجهتي. كان جسدي مفعماً بالطاقة، وصليت للنجاة. عند الرشقة الثانية، والتي لا يعلم سوى الله أين ذهبت، ضغطت وجهي بقوة في التراب هذه المرة. دوى صوت الرصاص في أذني، وامتلاً أنفي برائحة النيران الحقيقية الساخنة، فقد أصبحت الشجرة هدفاً. حالما غادرت المروحية، انطلقت نحو الأيكة، دون أن أنظر، مندفعاً نحو ظل الأشجار البارد، ولدهشتي، كان الجميع هناك في خندق قلم، وهو موقع روسي مهجور منذ بداية الحرب. لقد كانت فرصة رائعة للنجاة!

لم يستسلم طاقم المروحية بسهولة، وكانوا يعرفون أننا موجودون في مكان ما بين الشجيرات؛ وبقيت اللاندروفر مفتوحة الأبواب ومهجورة على الطريق، لم يكن هناك أي غيباً آخر. استمرت المروحية بالذهاب والإياب لمدة 25 دقيقة، وفتحت نيران رشاشاتها ومدافعها على الأغصان والأوراق التي تناثرت في الهواء. لقد حاولوا قتلنا جاهدين، ولكن المخبأ كان رائعاً.

حتى بعد أن اختفى صوت المروحية، لزمنا أماكننا، ولم نجرؤ على مغادرة الخندق، وفحاة وصل رجال من القرية، وانتظر اثنان منهم رحيل المروحيات الهجومية، وركضا عبر الأرض المكشوفة نحو الأيكة، وظهرا مثل الملائكة فوق الحفرة التي كنا فيها، وطلبنا منا الخروج واللاحق بهم. لقد جاء الفرع، لأن المروحيات ابتعدت مؤقتاً فقط، وعادت بعد لحظات لتحلق فوق الأيكة. لكن عندما كنا قد دخلنا القرية للتو.

هبت رياح هوجاء - تشبه الرياح الشمالية الغربية الباردة - على الشوارع الحارة، والمهجورة والمليئة بالغبار. قدمت لنا امرأة شابة أسود، وجلسنا على طاولة في فناء المنزل مع رجل مسن يرتدي قبعة صلاة بحافة منقبة فوق شعره الأشيب. قالت إحدى النسوة: "اعتقدنا أنكم متم جميعاً". لا بد أن طاقم المروحية قد أدرك أننا نبحون، وهم يحشون عنا الآن، وسيحلقون قليلاً فوق نوفي تسميتيرو، وسيحومون عالياً ويطيء. أطلقت إحدى المروحيات صاروخاً على منزل خالٍ يقع على مشارف القرية. لكن ذلك كله لم يعد يخيفنا الآن، فقد أسرنا سحر الشيشانيين كما يفعل عادة، ورغم أن مظهر الشيشان خادع، إلا أنها تجعل المرء يحتمل الحرب وتغريه بالعودة دائماً. يبهز المرء بمظهر الوادي المليء بأزهار الكرز، والشلج السرمدي، وكرم الضيافة في أشد لحظات الحاجة، والإيقاع اللطيف لحياة القرية والذي يتحدى جنون الحرب.

هبت الرياح عبر الباحة. كان الرجل المسن يتناول الشاي دون أن يقول شيئاً. جلس الشباب القرفصاء تحت أشعة الشمس مستمتعين بفشل الطيار في قتلنا، وعرض صبي نحيف حليق الرأس مهاراته في الكاراتيه، وضحك والده سلامو وهو أحد الرجال الذين أنقذونا، ونجاهلنا هدير المروحيات الذي لم ينقطع، وأخبرنا

سلامو، الرجل الضخم الملتحي ذو الشعر الأحمر، بأن متطوعين سيذهبون إلى غروزني في اليوم التالي عبر الغابات للانضمام إلى الآخرين في القرية التي يجري فيها القتال آنذاك، وأقم يستطيعون اصطحابنا.

غروزني

القائد الأول الذي رأيته في غروزني، لم يكن سوى خضر كاتشوكليف، العملاق الذي للتقته على خط الدفاعات الخارجية لغروزني عند تل كلربينسكي في المبادرات الأولى للحرب منذ 20 شهراً مضت.

كانت وحدة خضر تتوغل عميقاً داخل غروزني، بين مستشفى المدينة للتسع ومصنع المطرقة الحمراء، قريباً من شارعين استراتيجيين كبيرين. كان خضر، القادم من غرب الشيشان والمتمسك بالدين، يحمل مسيحة خضراء. ويرتدي قميصاً أخضر بدون قبة تحت سترته المموهة، ويغطي رأسه للضخم بخوذة القوت الخاصة للروسية، مع لحية سوداء كثيفة. إنه بالغ القوة.

سألته فيما إذا كان الثوار يهدفون حقاً للسيطرة على غروزني أو للقيام بما فعلوه خلال هجوم الثلاثة أيام في آذار، الضرب والمغادرة. "لقد عدنا إلى الوطن، وكان شهر آذار مناسباً لإظهار مرعتنا في استعادة السيطرة على المدينة. سوف يشاهدون الآن كيف نستطيع الاحتفاظ بالمدينة. وسنقاتل حتى النهاية، حتى إحراز النصر، ولن نغادر."

مشيت مع أندريه بايتسكي، من راديو الحرية، إلى مشارف المدينة، حيث قادنا الشوار إلى المنطقة القتالة في المركز. في البداية، مشينا بعكس مجموعة متعبة وخائفة من الناس الذين يهربون مشياً على الأقدام، وفي الجارات والسيارات والشاحنات، ويحملون معهم حزماً من الثياب، والسجاجيد والأعلام البيضاء التي تم انتزاعها من أغطية الأسرة وربطها إلى عصي المكناس وأغصان صغيرة. كنا الوحيدين اللذين بدخلان المدينة.

ظهر أمامنا موقع روسي مُحيط به أكياس الرمل والكتل الإسمنتية وقد استسلم. كان هناك علم أبيض يرفرف، ولم يُشر الجنود لنا بأي إشارة، ودخلنا بسرعة. ثم مشينا في منطقة لا تخضع لسيطرة أحد، ولم يكن فيها مدنيون، أو مقاتلون ولا حتى روس، وإنما مجرد منازل خالية وشوارع فارغة خطيرة.

ثم وصلنا إلى المركز الرئيسي للحرب؛ المنطقة الداخلية المتنازع عليها. لقد نزلنا على طريق فرعي ضيق عندما تعالت أصوات المعركة. كانت الطرق الجانبية مريحة، وأقل خطورةً إلى حدٍّ ما إلى أن وصلنا إلى طرف شارع عريض. من مخبأنا في الطريق الفرعي، استطعنا رؤية عربة مدرعة محترقة في وسط الطريق المسفلت وخطوط هاتف متدلية، وزجاجاً محطمًا، وبعض الآجر. لقد كانت هذه منطقة الجبهة. هنا يصبح الهدوء مخادعاً لأن كل بناء أو زاوية قد تكون موقعاً لقناص، وأي شارع قد يتعرض للقصف، وأي مساحة خالية قد تكون منطقة موت. كان يجب عليّ وعلى بايتسكي عبور ذلك الشارع العريض. عددنا معاً إلى ثلاثة، وخفّضنا رؤوسنا، وانطلقنا مسرعين نحو الطريق الفرعي التالي حيث توقفنا، فلقد أطلق أحدهم صافرة. نظرت حولي ببطء، ورأيت أشكالا تخرج من الظلال. كان هناك شيشاني لا يستجاوز 14 عاماً جالساً في شرفة الطابق الرابع مع بندقية، وظهر أمامنا بعض المقاتلين الأشداء مع بنادق الكلاشينكوف من المداخل، وأشار أحدهم إلينا بإصبعه للتقدّم نحوه. لقد وصلنا إلى ما يسميه مقاتلو البوفيكس غروزني المحررة.

كان البوفيكس يعتبرون المعركة فاصلة في غروزني. وتمّ حشد كل شيء للمشاركة في هذه العملية من القادة الأشداء الذين يتوغلون قطاعاً بعد قطاع، مع ممرّكز شامل باسايف في المركز الذي كان يضم مكاتب زافغايف والإدارات الروسية المحددة. شاركت نواة الجيش - حوالي 2000 إلى 3000 رجل - والتي قاتلت خلال الحرب، في تلك العملية. انضمت إليهم آنذاك أفواج المتطوعين وهي ظاهرة لم ترها في الشيشان لعدة شهور.

قال رمضان مدزهايف، الذي يبلغ 21 عاماً، والذي قابلته في مايكرورايون السيّ تقع في الضواحي على مقربة من القاعدة الروسية في خانكالا: "الكثير منا محاربون قداماء، ولكن الآخرين يحملون السلاح للمرة الأولى. عندما استولى الروس على المدينة وانتقل القتال إلى الأرياف، دفن العديد من الناس أسلحتهم، والآن يقومون بإخراجها مجدداً.

مضى وقت طويل منذ رأيت مثل ذلك العدد الكبير من مقاتلي البريفكس في مكان واحد بأزيائهم المميزة، وسراويل الجينز، وبنادق الكلاشينكوف، وقاذفات

الصواريخ (آر بي جي). ذكرني ذلك بالحماس الصيباني الشديد في البدايات الأولى للحرب، مع فارق جوهرى واحد: ليس هناك سذاجة هذه المرة. يعرف المتطوعون بدقة تأثير الشظايا والرصاصات على الجسم البشري، ويعرفون عدد الجنود والطائرات والدبابات التي يمتلكها الروس، ويعرفون المخاطر جيداً، ومع ذلك يتوافدون بأعداد كبيرة.

تنقسم استراتيجية الهجوم لدى الشيشانيين إلى قسمين، الذين كانوا يعرفون أنفسهم - بأعدادهم الصغيرة - لن يستطيعوا القيام بهجوم مباشر على كل المواقع الروسية لمدة طويلة باستخدام الأسلحة الخفيفة. لهذا عوضاً عن محاولة سحق أعدائهم داخل المدينة، ركّز مقاتلو البويفكس على تطويقهم والنيل منهم. كان هناك حوالى 12.000 جندي روسي موزعين في أرجاء المدينة. بسبب انتشار الجنود الواسع، سرعان ما تحولت تلك الحامية القوية إلى جيوب للقوات المحاصرة التي تنتظر المساعدة بشكل يائس. لدى تطويق القوات داخل المدينة، نفّذ مقاتلو البويفكس النصف الثاني من الاستراتيجية: المواجهة الخارجية، ومنع التعزيزات القادمة من القواعد الروسية في أطراف المدينة من الوصول.

قلبت هذه الخطة القواعد تماماً، وتحول الشيشانيون من مهاجمين إلى مدافعين. تمّ إجبار الروس، الذين أحكموا سيطرتهم على غروزني لمدة سنة ونصف، على التصرف كغزاة في محاولة لإنقاذ قواتهم المحاصرة. مرّة أخرى كان على الروس القيام بمهمة شرسة وإرسال قواتهم المعززة بالآليات إلى مواقع مدنية مليئة بالفرق المزودة بالقاذفات الصاروخية والقناصة. أرسلت روسيا أرتالاً من العربات المدرعة والدبابات من القواعد الكبيرة في مطار الشيخ منصور - الذي يسميه الروس سيغيزي أو المطار الشمالي - في الشمال، وخانكالا في الشرق، والتي وقعت في كمائن، وتعرّضت لخسائر رهبة. عند دار العرض الموجودة في منطقة ميكرورايون، والتي هي آخر الأبنية السكنية في مواجهة خانكالا، دمر الثوار دبابة وعربة مدرعة. بقيت جثث الطاقم ملقاة على قارعة الطريق. قالت امرأة هناك: "دخل كلب إلى بنائنا وهو يحمل يداً مقطوعة من ساحة المعركة". حتى الأرقام الرسمية أكدت فقدان 27 دبابة أو عربة مدرعة وست مروحيات في أول يومين من القتال. لقد استولى

الشيثانيون أيضاً على عدد من العربات المدرعة ودبابتين، والتي حولوها مباشرة لتقاتل ضد الروس.

كما حدث في المعركة الأولى على غروزني في بداية الحرب، استدعى الروس مدفعيتهم، ومروحياتهم، وطائراتهم البعيدة المدى لقصف المدافعين الشيثان وتجنّب الخسائر. لكنّ القصف الجوي الكثيف، الذي ربح الحرب في 1994 - 1995، كان غير ممكناً هذه المرة، لأن آلاف الجنود الروس، إضافة للمدنيين، كانوا عالقين هناك مع مقاتلي البويفكس. أخيراً، استطاع الشيثانيون الاشتباك مع الروس بأكثر الطرق تكلفة - على الأرض. في 6 آب، كان الروس يشهون رجلاً اكتشف أنه يعاني من السرطان، والذي كان يعتبر نفسه سليماً معافى قبل يوم فقط من الأمر. خلال الأيام القليلة التالية، انتشر السرطان، وأدرك الروس أن إزالة جميع الأورام تعني قتل المريض.

نوفي تسينتيروي - غروزني

كيف استطاع البويفكس للدخول؟ هذا ما أثار غضب الروس فعلاً؛ ماذا عن كل نقاط التفتيش تلك، والاستخبارات السرية، والمروحيات، والحظر الجوي؟ كيف استطاع البويفكس اختراق أقوى المناطق الدفاعية في الشيثان التي يسيطر عليها الروس؟ وبمّين لنا للرجال من مدينة نوفي تسينتيروي بأن الإجابة بسيطة جداً، وأنه يمكن اختراق كل تلك العقبات حتى بعد أيام من اندلاع المعارك ورغم كل الجهود المبذولة لصد الثغرات.

أخبرنا القرويون أن نتوجه إلى طرف للقرية دون سلاح ولباس مدني. كانت المروحيات ما تزال تحوم فوق الحقول والغابات والأسطح، كما كانت تفعل لمدة 48 ساعة، وحتى أثناء الليل. لتجنّب إثارة الانتباه، انقسمنا إلى مجموعات لمدنية وشثائية، وحاولنا السير بشكل طبيعي - مشياً - ولم ننظر إلى الأعلى نحو المروحيات. انطلق خلفنا رجلان على دراجة نارية لها عربة جانبية.

بدت الغابات عند نهاية القرية، وكان هناك ممر صغير دخلنا فيه ولحداً ثلث الآخر. سحب أحدهم القماش المشمع الموجود على العربة الجانبية للدراجة: إنها مليئة بمخازن الذخيرة، ولقدائف للصاروخية (الآر بي جي)، والبنادق. بدأ ستة شيثانيين بالعمل بسرعة، وارتدوا ثياباً مدنية وحملوا الأسلحة؛ نموذج لمقاتل البويفكس الذي يعمل جزئياً. كان لثلاث منهم مرافقين.

عادت الدلجة القنارية، وبدلنا بالدخول عميقاً في الغابة. مشينا سريعاً مع بعض الاستراحات، ولم يكن هناك ممرات دائماً، وكانت النباتات القصيرة في أرض الغابة كثيفة، وحارة، وملينة بالأشواك. سألت مرشدنا عن الطريقة التي يعرفون بها وجهتها، ولخبروني أنهم كانوا يلعبون هنا عندما كانوا أطفالاً، ثم أصبحوا يصطادون الحيوانات، وتحولوا بعدها إلى مقاتلين.

يمكن للمرء أن يلاحظ فوراً أن أطقم المروحيات لا يستطيعون الرؤية من خلال هذا الشجر المتشابك. كنا غير مرتين، حتى عند طيران المروحيات بسرعة كبيرة فوق رؤوسنا مباشرة أحياناً. كانوا يبحثون عن مقاتلين متسللين، ولكنهم لن يجدوا هذه المجموعة. لقد خدع ذلك الغطاء النباتي كل تلك التفاتة، وهو ما يبدو أمراً بالغ السهولة.

وصلنا إلى حقل مكشوف، وحان وقت الجري. ذهبنا لزولجا إلى شجرة معزولة، وكنا نجلس القرفصاء ونراقب المروحيات، ثم نركض في الحقل المكشوف مرة أخرى.

تعتبر الرقعة ضرورية للغابة، لأن المرء لا يرى أثناء الجري سوى الأرض الوعرة تحت قدميه، وكل ما يسمعه هو صوت التنفس. في هذه الحالة لن نسمع لبدأ صوت المروحية. كان الحقل التالي أكثر اتساعاً. استطعنا سماع المروحية، ولكن لم نرها، وركضنا. كان للخوف من أن يصلوا إلينا قبل أن نتمكن من الوصول إلى الجانب الآخر. توقفنا ثانية في منتصف الطريق عند الملجأ الوحيد الموجود - زهرة برية طويلة الساق - وراقبنا السماء. كان يجب علينا قطع حوالي 100 متر إضافية. وفجأة، حلقت مروحية خضراء فوق خط الأشجار تماماً، وكنا مستعدين لهذا الأمر ورمينا بأنفسنا بين الأزهار والأعشاب الطويلة. بشكل لا يصدق، فشلت المروحية في رؤيتنا وحلقت مبتعدة. لم تكن بحاجة لسماع أي أمر: حالما أصبحنا خارج نطاق رؤية الطيار، وقفنا كرجل واحد، وركضنا عبر بقية الحقل إلى داخل الغابة.

تلقينا إنذاراً واحداً أخيراً: كان للروس بصرخون، وقاموا بإطلاق الرصاص من بندقية واحدة على الغابات أمامنا. لم يكن المستكشفون يتوقعون دورية أو موقعاً روسياً جديداً. لولا ذلك الصراخ وإطلاق النار، لكننا دخلنا في حقل الأعشاب القنارية. عوضاً عن ذلك، تلقينا تحذيراً منهم، وسلكنا بعد ذلك طريقاً جانبياً. بعد عدة ساعات، مررنا براع مع قطيع من الماعز، ثم بارضٍ مقفرة، وبعدها بأبلية وسيارات وشوارع حتى قلل لقدمهم أهلاً بكم في غروزني*.

كان من السهل اعتبار الحرب الجديدة على غروزني مجيدة. كنت أشعر بنشوة السحابة من الموت كل يوم، وأرى الشيشانيين يفوزون بعد العديد من الهزائم والمعاناة مما أثلج صدري حقاً. لكن بالنسبة للمدنيين، لم يكن هناك مجد على

الإطلاق، وإنما مجرد فصل آخر من سياسة المقاومة لكل من البويفكس والروس لدفع المدنيين باتجاه خط النار.

كان البويفكس يدخلون طوال السنة بشكل مفاجئ إلى المستوطنات التي سيطر عليها الروس بغض النظر عن الكلفة التي سيتحملها المدنيون المقيمون هناك. اعتمد المقاتلون الشيشانيون تلك الاستراتيجية على نطاق واسع، مع وجود حوالي 250.000 مدني محتجزين داخل غروزني. بخلاف ما حدث في سماشكي، وجيخي وعدد لا يحصى من المعارك التي جرت في قرى أخرى، كانت الظروف السائدة في المدينة تعني أن المعركة سوف تستمر لأسابيع وليس لأيام بغض النظر عن النتيجة. كان البويفكس يقاتلون من أجل مدينتهم، ولكنهم استفادوا دون شك من الدرع الذي وفره لهم كل أولئك المدنيين المحتجزين. ادّعى البويفكس أنهم يحمون المدنيين، ولكن العكس كان صحيحاً في بعض الأحيان.

يقع اللوم بالقدر ذاته على الجيش الروسي الذي جعل جنوده المحبطين يعتقدون أنهم شخصيات رامبو، ودفع بهم إلى أتون حرب لا يولدها أحد. كان هؤلاء الجنود يواجهون تهديد الهزيمة المحققة، ونفس مشاعر الذعر والإحباط التي واجهت الشيشانيين مراراً وتكراراً من قبل. كان ردّ الفعل متوقعاً: تحوّل المدنيون ليصبحوا أعداء مثل البويفكس تماماً، وكان يتم إطلاق النار على تجمّعات اللاجئين، فيما أصابت صواريخ إحدى الطائرات مستشفى المدينة الرابع. كانت الشوارع تتعرض لوابل من الرصاص والقنابل إذا ظهرت أي علامة على وجود البويفكس، وكانت وحدات مختلفة من الجيش تأخذ المدنيين كرهائن.

كلما اقترب المرء من مركز المدينة، كلما أضحت الشوارع مهجورة. في تناقض واضح، كان هناك ناس أكثر من أي مكان آخر، ولكنهم كانوا محتبئين في الملاجئ. كان هناك إشاعات قبل عدة أيام عن حدوث هجوم على السوق الرئيسي، وهو عصب الحياة في غروزني، مما دفع بالناس للخروج منه قبل أن يحين الموعد. لكن القتال انفجر بشراسة، واستولى مقاتلو البويفكس فجأة في 6 آب على مركز المدينة مما قلل من فرص هروب المدنيين. لم يستطع الناس مغادرة المدينة بأمان سوى من أطرافها الخارجية.

في الأسبوع الأول من المعركة، تجتمع المدنيين الموجودون في مناطق القتال في أقبية المنازل، إذا حالقهم الحظ ووجدوها. لم يكن لديهم كهرباء ولا ماء، وتناقصت كميات الطعام، وكان جلب الماء من الصنابير الخارجية عملاً خطيراً. كان الناس يتعرضون للقتل أو الإصابة من قبل القناصة أو قذائف الهاون أثناء ترحالهم. أخبرني رسلان، وهو أحد أفراد طاقم الإسعاف الذي يعيش في المركز، عن كيفية حمايته لسبع أمهات مع أطفال حديثي الولادة خلال القتال. كانت هؤلاء النسوة موجودات في مستشفى التوليد مع مواليدهن الذين لا تتجاوز أعمارهم يوماً أم اثنين عندما اندلعت المعركة. كان أول شيء شاهدوه هو الجنود الروس الذين اقتحموا المستشفى بحثاً عن الطعام. لكن لم يكن هناك طعام ولا ماء ولا شيء على الإطلاق، وحتى حليب الأمهات جف من الذعر. كان على الأمهات الخروج إلى الشوارع، حيث كان الرصاص يتطاير والقنابل تنفجر، ليحشن يأس عن الأمان.

بالقرب من مستشفى المدينة التاسع وجدت مع بابتسكي المدعو خضر، والتحقنا ببقية الزملاء، وتحدثت مع نيكولاي، وهو من أصل روسي يعيش برعب في الطابق الثاني من أحد المباني السكنية، والذي قال لي: "سوف نموت هنا. ليس لدينا طعام، وذلك الكيس من الطحين هو كل ما نملك". كان المئات من سكان مبنى نيكولاي يعيشون على ضوء الشمعة في القبو. كنت أول أجنبي يراه نيكولاي منذ بداية القتال، ولكنه كان عصياً جداً، ولم يلاحظ ذلك. لقد تجاهلني ببساطة عندما قلت له إنني سأمشي في ذلك الصباح، وأنه يستطيع مرافقتي. كان مستسلماً لقدره: الموت.

كان الشيشانيون قد استولوا على إحدى الدبابات ومدفع مورتر في الجوار. خلال الليل، استلقيت في الظلام في إحدى شقق الطابق الثاني، غير قادر على النوم، أفكر فيما يحدث. سمعت أولاً صوت قذيفة، وبعد أربع أو خمس ثوان صوت انفجار على بعد عدة كيلومترات إلى الشرق، والذي قد يكون طال المكان الذي حاول فيه الروس إنشاء رأس جسر بين خانكالا ودائرة مرور مينوتكا الحيوية.

رد الروس بإطلاق النار بعددنا. وكان القصف، المكوّن عادةً من أربع جولات واحدة تلو الأخرى، خافتاً، ولكن أصوات القذائف التي تسقط كانت عالية. كانت قلوبنا تتوقف من وميض الانفجارات حتى وإن سقطت القذائف على مسافة بعيدة. في بعض الأحيان، كانت الشظايا تضرب الجدران عبر الباحة الخلفية. كان الروس يطلقون بانتظام أضواء إشارة لتحديد أماكن الهدف. كان بمقدور المرء سماع صفير القذائف القادمة، وكنا نرى ضوءاً أصفر يدخل عبر نوافذنا عوضاً عن سماع صوت الانفجار. في حال كان الضوء قوياً فعلاً، فهذا يعني أن شعلة متوهجة مرت فوق رؤوسنا، وألما أضاءت الجوار تحضيراً لإطلاق النار، وإذا أتت الشعلة من الجانب، فإن أحداً آخر سيتعرض للقصف، مما يبعث على الراحة ويثير الخجل بعض الشيء.

لم يكن هناك أقيية، ولهذا دَخَنْت، وصَلَيْت في محاولة لمحاربة مرض الخوف، وانتظرت بزوغ الفجر. كان قانون المعدّلات أفضل ما في الأمر: من بين كل الشقق في المدينة، لم يكن محتملاً أن تتعرض شقتنا لضربة مباشرة. وإذا لم تكن الإصابة مباشرة، سيكون لدينا فرصة جيدة للخروج سالمين.

بعد أيام قليلة من المعركة، شعرنا بالملل من سجن الخوف، وتشجّع الناس واستغلّوا فترات الهدوء للخروج واستنشاق الهواء المنعش. فجأة، كان هناك مشاهد طبيعية تماماً: كلاب تلعب، وشابات يتحدثن مع المقاتلين الذين يرتاحون تحت أشعة الشمس، وأشخاص مستنون يتحدثون. سمعت مرةً إيقاعاً ثابتاً، وانحنيت خارج النافذة لأرى أربع نساء شيشانيات يشكّلن حلقة ويصفقن، فيما ترقص واحدة في الوسط، وتلدور وهي ترفع ذراعيها أفقياً وتؤدي رقصة ليزجنكا الرشيقة. كان يفترض بها أن تلوّح بالناديل، ولكنها كانت تمسك بورقتين عوضاً عن ذلك. صرخت الراقصة وهي تحمي رأسها إلى الخلف وتضحك: "إذا كنا سنموت، فلنموت مع الموسيقى". لم يكن هناك كهرباء، ولكن الناس قاموا بوصل أجهزة التلفاز إلى بطاريات السيارات لمشاهدوا بعض الأخبار، وكان بعضهم يستمع إلى الراديو المحمول، ثم ينتجه نحو أصدقائه لينقل لهم المعلومات. كان الهاتف الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية الذي نستخدمه لإرسال تقاريرنا يعمل على بطارية سيارة أيضاً.

عندما فرغت تلك البطارية، ذهبنا إلى مرآب محلي خلال فترة الهدوء وسرقنا بطارية من شاحنة متوقفة هناك. لقد كنا لصوصاً.

سمعنا بعدها، ودون سابق إنذار، انفجارات وأصوات أسلحة نارية، أو هدير مروحية مسلحة تحوم بالقرب منا، وتحولت الحالة الطبيعية للشوارع إلى حالة عدائية مهجورة. حتى الكلاب الضالة، هربت في محاولة منها لإيجاد مأوى وهي تضع أذيالها بين قوائمها.

قالت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن 1500 مدني تعرضوا للإصابة في المدينة، والله وحده يعلم عدد الذين لم يتم إحصاؤهم. خلال فترة الهدوء، كان سائقو سيارات الإسعاف والشيشانيون المحليون يقومون بمهمات انتحارية لإسعاف المصابين. كانوا يقودون شاحنات صغيرة مغلقة دون نوافذ أو أبواب، وكان بعضها يحتاج للدفع كي يعمل. لم يكن هناك سوى إسعافات أولية للحرى في المركز، لأن للمستشفيات كانت تفتقد للأدوية والكهرباء، والتي تحولت فيما بعد إلى هدف للنيران، ثم هُجرت في النهاية.

للوصول إلى المجمّع الطبي خلال فترة الهدوء، كان علينا اجتياز منطقة لا نخضع لسيطرة أحد باستخدام سيارة لادا متهاكة عمر الطرق المقفرة مع تسارع وتيرة العنف عبر التقاطعات، ولم تكن تتوقف سوى عند المنعطفات لتفقد أصوات إطلاق النار. كنا نقود السيارة، وأعيننا دائماً على المروحيات، ونصلي كي لا نصطدم بوحدة أو عربة مدرّعة روسية. بعد وصولنا بوقت قصير إلى المجمّع الطبي، وقع اشتباك ناري خلف أشجار السور، واندفع المدنيون وسائقو سيارات الإسعاف والمرضات إلى الخارج مثل أوراق في مهب الرياح.

في الداخل، أدهشني فيري ألان، مدير المجمّع الطبي عندما قلّم لي القهوة والبسكويت، وهو ما حلمت به طوال أسبوع كان مثل الشهر بالنسبة لي. وقال: "سقطت قذيفتنا مدفعية ضمن المجمّع، مما تسبب بالرعب للناس لكن دون وقوع إصابات، وأصاب القناصة أربعة رجال في الشارع". كان المجمّع خاضعاً لحصار كامل تقريباً، وتسبب الجنود الروس المتواجدين على بعد 15 كيلومتراً خارج المدينة في إعاقة وصول قوافل المساعدات. وقال ألان: "رجاء، افسحوا المجال لنا

لمدة ساعتين لإحضار قافلة مساعدات ضرورية، وعودوا لقتل بعضكم البعض بعدها". لقد وجّه آلان دعوته تلك للجميع دون تمييز، إلا أن الجيش الروسي رفض الردّ على النداءات اللاسلكية، فيما كانت نتيجة اتصاله مع الشيشانيين لا شيء، صفر.

غروزني

هرب اللاجئون من الكلبوس لدخل غروزني إلى أطرافها، وتحرك الآلاف منهم سيراً على الأقدام بنصف الوقت في مسيرة بطيئة ترافقهم للشلخات، والجركات والميلارات وكانوا يلوحون بالأعلام البيضاء، ويحملون معهم الأطفال والمجايد وحزم الملابس.

في المنطقة الواقعة شرق ستاريا سونزا، لم يكن هناك قتال، وكان الروس ما زالوا يسيطرون عليها. لكن عوضاً عن السماح للاجئين بالخروج من البلدة، قاموا بحصار حوالي 40.000 منهم في الشوارع والبيوت المطوية وفي الطليور المترايد والمزحم من السيارات. بالعودة إلى مركز المدينة، كان ضجيج الانفجارات ونيران الأسلحة الرشقنة يشبه الرعد.

في النهاية، تمّ إبعاد العربات المدرّعة التي تقطع الطريق، وأعلن الجنود أنهم سوف يسمحون للنساء والأطفال بترك المدينة؛ ولكن سيراً على الأقدام ودون أن يرافقهم الرجال. كان الجنود الروس يشبهون بأن يكون الذكور الذين تتجاوز أعمارهم 11 سنة من مقاتلي بوفيكس، ويجب عليهم إبقائهم في غروزني. لم تقبل سوى بعض النساء بالعرض. كانت للمسافة إلى القرية التالية تبلغ 7 كيلومترات، وكان الحر شديداً.

طلبت زاريماء سلطوقا استثناءً لزوجها المقعد، وقالت إنه لا ينتمي لمقاتلي البوفيكس ويبلغ من العمر 84 سنة، وأشارت إليه بجلوس بلا حراك في مقعد لادا للعائلة. رفض الجنود الروس الطلب لأن الأمر هو الأمر، وإن سمحوا لمن تجاوز 11 بالمرور.

بدأت زاريماء بالبكاء، وبعيداً عن القوات، بدأت العائلة بالكلام بصوت منخفض مع مجموعة من الشبان، وتوصلوا إلى توافق في الآراء يقضي بحمل الرجل للعجوز على نقالة، والمسير به على الطرق التي يستخدمها الثوار عبر الغابات وحول نقاط التفتيش التي تقومها القوات الروسية.

لا يستطيع المرء التكهّن فيما إذا كان الرجل للعجوز قد فهم القصة. لقد جلس دون حراك حتى في الفراغ من خلال الزجاج الأمني.

انحنيت زاريماء لتوديعه. وبشكل غير متوقع في مكان اعتاد فيه الناس على إخفاء عواطفهم، قامت بترديد يدها فوق وجهه للعجوز للخشن بسبب الذنق القصيرة البيضاء التي لم يحلقها منذ أيام. لم يتحرك رأس الرجل، وبقي جسده ساكناً، وبدأت النموع تنهمر على بشرته. لقد كان يعني ما يحصل.

أصبح مستشفى المدينة التاسع، وهو أحد أكبر مستشفيات غروزني، رمزاً لحكم الإعدام المزدوج المفروض من قبل البويفكس والقوات الروسية على المدنيين. في اليوم الأول من المعركة، احتل رجال خضر مواقع بالقرب من المستشفى وليس داخله. كان من الواضح أنهم يودّون معالجة جرحاهم هناك، وهكذا حاول الطاقم الطبي مباشرة إخلاء الجرحى ذوي الإصابات الخطيرة ومن ثم أنفسهم، فقد سبق وشاهدوا كل ذلك من قبل.

بالنسبة للطبيب سيودين مامايف، كانت هذه المرة الثالثة التي يتوجب عليه فيها الهروب من مكان عمله خلال الحرب، "لقد عملت في المستشفى الجمهوري الرئيسي سنة 1994، والذي تعرّض للقصف آنذاك، وعملت بعد ذلك لعدة شهور في منزلي، والتحقّت بعدها بمستشفى المدينة التاسع. اقتحم مقاتلو البويفكس المستشفى الآن، وقتلوا حولها، وهذا ليس التصرف الصحيح، ولكن ما الذي سفعله القوات الروسية بعدها؟ وما الذي يسعون إليه برأيكم؟ هل للديمقراطية الروسية أي معنى؟".

كان مامايف محظوظاً للنجاة من كل تلك الأحوال. عندما حاول طاقم المستشفى الوصول إلى ملجأ سترايا سونزها في قافلة من الحافلات التي ترفع الأعلام البيضاء، تعرّضوا لإطلاق النار من المروحيات الروسية، واضطروا للتراجع. في المحاولة الثانية، حاول الفريق الطبي الخروج مشياً وهم يلبسون رداءهم الأبيض ويلوحون بأعلام بيضاء، ولكنهم تعرّضوا لقذائف الهاون التي أصابت شظاياها ثلاثة منهم. تخلى الكادر الطبي عن عملية الإخلاء بعد ذلك. لم يكن أحد قادراً على الهروب سوى اللاحقين صحياً، والذين تركوا خلفهم الحالات الصعبة مع بعض الأطباء الذين رفضوا المغادرة.

في 9 آب، دخل الجنود الروس المستشفى، واشتبكوا مع البويفكس حول المبنى ثم غادروا. في اليوم التالي، اقتحم 25 جندياً من سلاح المشاة المستشفى، وباشروا البحث عن الثوار، ووفقاً لتقرير مجموعة ميموريال لحقوق الإنسان، أصاب أحد القناصين ضابطاً إصابة بالغة عندما كان يغادر المستشفى مما أجبر الوحدة بأكملها على التراجع إلى داخل المستشفى. في رواية أخرى، اقتحمت القوات الروسية بعد اشتباك رتل مسلح مع الثوار في مكان قريب.

أحاط مقاتلو خضر بالمبنى حالما أصبح بالإمكان رؤية الروس من خلال نوافذ المستشفى، ووفقاً للفريق الطبي فقد اتصل الروس لاسلكياً بقاعدتهم، وتلقوا أوامر بالبقاء في مواقعهم وأن يحافظوا على المبنى. كان كل من شامل باسايف وسلمان رادوييف بارعين في هذا النوع من التكيك: "عندما تشقون طريقكم في مناطق العدو مع الرفاق الجرحى، استولوا على مستشفى، وفاوضوا بشأن خروجكم". وتحول "المحافظون على النظام" إلى قطاع طرق.

وضعت حالة انقلاب الأدوار المقاتلين الشيشان في دوامة. هل يجب عليهم التنديد بأعمال مختطفى الرهائن الروس، أم التفاخر بأنهم قاموا بذلك بطريقة أفضل؟ كان الرباء مثيراً للضحك في ذلك الموقف، وقال مقاتل شيشاني التحا إلى بيت درج أحد المباني السكنية مع ستة مقاتلين آخرين: "يقوم هؤلاء باحتجاز الرهائن، وهم جميعاً سكارى بعد أن غبوا متحرراً للفودكا. يريد الضابط المسؤول عنهم أن يتحول إلى شامل باسايف آخر، ولكنه لن يستطيع ذلك أبداً". قال خضر: "نحن بانتظار الأوامر، ولم نلقَ أي شيء حول ضرورة اقتحام المستشفى تجنباً لقتل المرضى. لكن إذا تلقينا الأمر، سريهم كيف يتم اقتحام المبنى، ولن يكون ذلك بالطريقة التي اتبعوها ضد شامل في بودينوفسك. وسوف نخلي المكان في غضون 15 دقيقة".

في الحادي عشر من آب، تحول الروس إلى شامل باسايف آخر، وخرجوا من المستشفى سراً على الأقدام مع حوالي 100 من المرضى والكادر الطبي، ومشوا بصحبة الشيشانيين الغاضبين نحو شارع فرعي يقودهم إلى قاعدتهم. وتم إطلاق سراح الناس الذين شكلوا الدرع البشري كما هو متفق عليه، وعاد بعضهم مشياً إلى المستشفى. بعد وصولهم بوقت قصير، قام الروس بقصف المستشفى بقذائف الهاون.

بالطبع كان هناك الكثير من القصف. كان الروس يقصفون المدينة في أوقات فراغهم بعد خروج قواتهم بأمان من المستشفى. كانت لديهم الإحداثيات المحلية، وأرادوا الانتقام. لغاية ذلك الوقت، شكّل وجود هؤلاء الجنود الروس في المستشفى عامل حماية لجميع من كان في الجوار، سواء كانوا رجال خضر أو المدنيين.

واستخدم الجنود الروس الأطباء والمرضى كدروع بشرية، بينما استخدم الشيشانيون بفعالية الجنود كدروع بشرية. عادت اللعبة آنذاك إلى نقطة الصفر.

جاء خضر إلى شقتنا قبل بدء القصف بقليل، وكان هناك صمت كامل، لا يتخلله سوى دويّ قذائف الهاون العادي في فترة الظهيرة الحارة. استلقيت على الأرض ودخنت، وعدّل خضر وضعية خوذة القوات الخاصة، وجلس على الأرض بعد أن أخرج مسبحة. وقال بصوت منخفض: "الأوغاد، كنت أعرف أنهم سيفعلون هذا بعد أن نسمح لهم بالذهاب، ولكن ذلك ليس بالشيء المهم. أهم شيء هو بقاؤنا على قيد الحياة حتى نستطيع الاستمرار بالقتال". في الخارج، قتلت قذيفة هاون ممرضة كانت قد عاشت مأساة الرهائن بكاملها، وعادت إلى المستشفى بعد أن أطلق الجنود الروس سراحها. أصابت الشظايا طبيين وممرضتين وأحد المرضى بمحروج.

تمّ إخلاء آخر 22 مريضاً كانوا في المستشفى التاسع بعد ذلك، وبقي المبني الضخم خالياً حتى نهاية المعركة. كانت حالات جميع هؤلاء المرضى صعبة، وكانوا إما مصابين بجراح بالغة أو لا يمكن نقلهم بعيداً لسوء أوضاعهم، ولهذا تمّ نقلهم إلى قسبوا أحد المتاجر بجانب المستشفى. أضواء مصباح الزيت الجدران الرطبة، وكانت الأرض مغطاة بمزيج من الطين والقمامة. في غرف يصل بينها ممر مركزي، كان الجرحى يفرقون بدمائهم. كان أحد الرجال مصاباً بجرح عميق في رأسه، وفيما فقدت إحدى النساء قدمها. اقترب منا مسنان مريضان للغاية، وكانا مثل الزبيب الذابل، وربما كانا يعتقدان أنني عامل إغاثة. وقالت المرأة العجوز: "أكتب اسمينا على قائمتك. أنظر إليّ، وانظر إلى زوجي"، ولكنني لم أستطع.

لم يكن الشخص الوحيد الذي يعني هؤلاء البشر قد تلقت تدريباً كافياً. كانت ناتاشا بابوفا امرأة تبلغ من العمر 26 عاماً، وتتمتع بقوة وهذوء كبيرين؛ ربما بسبب الصدمة. جاءت بابوفا إلى الشيشان من روسيا لتعمل كمتطوعة منذ عدة شهور، ولم تتصور قط ما سيحدث. قالت: "لقد قصفوا المستشفى البارحة عندما كنا فيها، ولهذا نقلنا الجميع إلى هنا خلال الليل. طوال يوم أمس، لم نستطع الخروج لإحضار الماء، ولهذا لا يوجد ما يأكله أو يشربه هؤلاء الناس عدا

الكاكوا. ليس لدينا سوى القليل من الضمادات، كما لا توجد أدوية مضادة للالتهاب أو مخدر أيضاً".

غروذني

تحركت مع أئدره بابيتسكي بسرعة عبر إحدى الباحات، وتركنا المستشفى ومقاتلي البويفكس خلفنا. بعد أن قطعنا مسافة 150 متراً على الطريق الرئيسي، ظهرت أمامنا فجأة ثلاث أو أربع عربات روسية مدرعة، وتجمدنا في مكاننا، وربضنا على الأرض.

اختفت العربات خلف بعض الأشجار خلال ثوانٍ قليلة بصمت. شعرت بالراحة للحظة لأن تلك العربات ابتعدت عنا. ثم ارتفع مستوى الأرينالين لدينا؛ لقد غيّرت مسارها، وعلت أذراجها على الطريق نحونا. لقد كانوا يهاجمون.

بدلت بالصراخ مع بابيتسكي: عربات مدرعة! عربات مدرعة! ورغم أنها كانت محض صدفة، إلا أننا كنا أول من يكتشف الهجوم؛ كان البويفكس عند المنحطف يراقبون، وكان شعوراً غريباً أن نقوم بتحذير البويفكس، وأن نشارك في الحرب. لكن قد لموت جميعاً إذا فاجأت المدرعة البويفكس.

صرخ أحد الشيشانيين: "لين؟" وأجبنا: "على الطريق الرئيسي، ويتجهون نحونا الآن".

سرعان ما سمعنا أصوات محركات العربات المدرعة، ولقيت أخذت تقترب شيئاً فشيئاً. زحف الشيشانيون إلى مواقعهم.

وصرخ قائد شيشاني لرجاله: "هيا! هيا!". وظهرت القافلة بشكل كامل في نطاق 25 متراً.

دار مقتل شيشاني بسرعة حول زاوية مبناه، وجثا على ركبته اليملى، وأطلق قذيفة مضادة للدروع (آر بي جي) من على كتفه. تحولت أول عربة مدرعة إلى كتلة من اللهب الأصفر.

تعللت أصوات إطلاق النار من البنلق والرشاشات عندما خرج الشيشانيون من مخبأهم، وبانهم الروس لقتال. كان هناك انفجار لقذيفة ثانية مضادة للدروع.

تسبقت مع بابيتسكي عبر المساحة المكشوفة لنتخذ من أحد الأبنية المهجورة مخبأً لنا، وانتقلنا منه إلى شقتنا. بعد دقيقة من دخولنا، عبر أربعة جنود روس نجوا من حطام العربة المدرعة المصابة بأحة البناء الذي كنا فيه، واتخذوا أول شقة سكنية وجدها ملجأ لهم؛ وكانت الشقة المجاورة لنا. لحق بهم الشيشانيون مباشرة، ولكن تأخروا: أصبح الروس في الدخل، ولحتجزوا رهائن في الشقة. إنها للدروع البشرية مرة أخرى. أي شيء للنجاة.

صرخ جندي من البناء: "لا تطلقوا النار، وإلا قتلهم".
رد قائد شيشاني نحيل وأصلم، وكان يتكأ على زلوية الباحة: "إنّا كان المسؤول عنكم، أخرجوا غير مسلحين، وممتلككم".

كانت الأصوات متشججة، وإذا انطلقت رصاصة واحدة، سينفجر المكان برمته.
بشكل غير متوقع ولكن شجاع، وضع القائد الشيشاني بندقيته جانباً، وسار ببساطة عبر الباحة مباشرة نحو البناء السكني.

بعد دقيقة، ظهر للشيشاني مع الجنود الأربعة المذعورين، وهم يسرون خلفه، وكان أحدهم جريحاً. لم يكن لدى الروس أي خيار سوى الاستسلام أو الموت مع رهائنهم وهم يقتلون، ولم يتطلب إقناعهم وقتاً طويلاً. حصل ما كان غير متوقع أبداً في الشيشان! نقادي حصول مجزرة وإنقاذ الأبرياء.

فيما بعد، كان من السهل توجيه أصابع الاتهام. لم يكن يجدر بالجنود الروس احتجاز رهائن في تلك الشقة، ولم يكن علينا نحن الصحفيون توريط أنفسنا في المعركة، ومهما كان الدور الذي لعبناه صغيراً، كان سبباً لتوجيه أصابع الاتهام لنا. كان هناك إدانة وذنوب، ولكن فقط بعد انتهاء كل شيء. خلال المأزق لا يوجد إدانة أو ذنب! نلجأ فقط.

بين 11 - 13 آب، أي بعد أسبوع من انطلاق هجومهم، احتل البويفكس الشيشانيون أو أحرقوا كل مبنى حيوي في مركز المدينة. تحول المبنى الإداري لدوكو زافغاييف إلى ركام أسود اللون، وتبعثرت العربات المدرعة والدبابات المحترقة في شارع بعد الآخر.

نتيجة لحصار القوات الروسية داخل المدينة، وعدم تمكن قوات أخرى من الدخول، كان المقاتلون الشيشانيون قادرين على التحول بحرية في معظم أرجاء المدينة. كانت المواقع الروسية المحاصرة تواجه أوقاتاً صعبة، ومليئة بالجرحى، وتفتقر للذخيرة والطعام. لم تستطع التعزيزات الروسية دخول المدينة بأعداد معقولة، وتعرضت القاعدتان المنيعتان في مطار سيفري وخانكالا للهجوم من قبل المقاتلين الشيشان. اتخذ زافغاييف ملجأً له في خانكالا، بينما انتظر ممثلوه إلى غروزي في سترايا سونزها المجاورة لا حول لهم ولا قوة.

أشارت أرقام رسمية إلى مقتل 400 جندي روسي وجرح 1200 في المعركة، فيما تمّ اعتبار 130 آخرين في عداد المفقودين، وربما يكونون موتى أو أسرى. ادّعى شامل باسايف، الذي أصيب بجرح في قدمه بسبب رصاصة، بأن الخسائر

الروسية كانت 2000 قتيل. كانت الخسائر الشيشانية كبيرة نسبة لمقاييس حرب العصابات، ولكنها لم تصل إلى حجم خسائر الروس.

أخير باسايف الصحفيين أن باستطاعة الروس إعادة احتلال غروزني، ولكن ذلك: "سوف يستغرق نصف سنة، وسيضطرون لتدمير المدينة قبل ذلك. سيستطيعون السيطرة عليها خلال شهر أيضاً، ولكن ذلك سيكلفهم 10.000 - 15.000 رجل. كان باسايف محقاً رغم المبالغة، فقد استطاع الشيشانيون السيطرة على معظم العاصمة، وكانت الوحدات الروسية المحاصرة أسيرة لديهم، ولم يكن باستطاعة الروس قلب الموقف سوى بتكبد خسائر فادحة. كشر ملك.

في ليلة 11 آب، قام ألكسندر ليبيد، سكرتير مجلس الأمن القومي في الكرملين، والذي منحه الرئيس يلتسن صلاحيات كاملة فيما يخص الشيشان، بالدخول إلى الجمهورية سرّاً للقاء أعلان مسخادوف. سافر ليبيد من داغستان بسيارة جيب في الظلام دون مرافقة شخصية أو عربات مدرّعة. حالما أصبح في نوفي أتاجي المزدهرة إلى الجنوب من غروزني، ذهب مباشرة إلى اجتماعه المهم في منزل ملسونير شيشاني حيث كان مسخادوف ينتظره هناك. قرابة الرابعة بعد منتصف الليل، توصلا إلى الخطوط العريضة لاتفاقية وقف إطلاق النار، وعاد ليبيد نشيطاً إلى داغستان.

في الثالث عشر من آب، التقى مسخادوف مع الجنرال قسطنطين بوليكونفسكي، الذي كان يتولّى مهام القائد العام الروسي في غياب تيكومиров خارج نوفي أتاجي. التقيا مجدداً في السابع عشر من ذلك الشهر، وكان اللقاء بسيطاً ومتوتراً. جاء مسخادوف بموكب من سيارات الجيب، بينما جاء بوليكونفسكي بأسطول من المروحيات القتالية. جلس الجنرالان متقابلين على طاولة قابلة للطسي في خيمة بسيطة صفراء اللون، وأحاطت الدبابات الروسية بالمكان، وحلّقت المروحيات المسلحة فوقهم على ارتفاع منخفض لدرجة أنني تساءلت كيف استطاع كل من مسخادوف وبوليكونفسكي سماع بعضهما البعض. لكنهما اتفقا هناك على وقف مبدي لإطلاق النار. رغم أن ذلك كان سيتطلب أسابيع ليصبح حقيقة واقعة، إلا أن الحرب كانت قد انتهت فعلياً.

عارض كل من الفريق الحكومي المناصر للحرب والشيوعيون والعناصر القومية المهيمنة على البرلمان مفاوضات السلام التي أُنجزها ليبيد. كان وزير الداخلية أناتولي كوليكوف العدو الرئيسي لليبيد ولخطة السلام، وهو السياسي الذي استمر منصبه في الحرب، والذي لاقى قواته المهانة في معركة غروزني. كان واضحاً أن بوليكوفيسكي متفق مع المتشددين في موسكو، وأنه قرر قلب العملية برمتها عندما هدّد فحاة في 19 آب بشن حرب خاطفة للسيطرة على غروزني مجدداً. ستكون تلك آخر عملية عسكرية متهورة، وواجه مقاتلو البويكس وعشرات الآلاف من المدنيين والجند الروس المحاصرين داخل المدينة عاصفة نارية، ومنح بوليكوفيسكي المدنيين 48 ساعة لمغادرة المدينة، وهرب الآلاف خائفين ليواجهوا قصف المدفعية والمروحيات - قبل وقت طويل من انتهاء المهلة المحددة - عندما كانوا يتجهون إلى الأرياف. حفر البويكس الغاضبون والعاقلو العزم في الوقت نفسه، المزيد من الخنادق، واستعدوا للمعركة النهائية.

لكن تلك المعركة لم تحصل أبداً. تدخل كل من ليبيد ووزير الدفاع الجديد إيغور روديونوف في اللحظة الأخيرة ليؤكدوا على سلطتهما، وتمكنا من إخضاع الجنرالات لسيطرتهم. أظهر الحدث حقيقة حاسمة ومرة: إذا كانت الحرب ستنتهي، يجب على موسكو إما أن تدعن أو تسيروا على خطى بوليكوفيسكي؛ مجزرة كاملة في المدينة، وتنفيذ إبادة جماعية في النهاية.

كان لدى ليبيد، وهو مظلي سابق ومحارب سابق في أفغانستان، ومثل جميع الضباط الذين حاربوا في الشيشان، حرية الاختيار، وبخلاف المفاوضين السابقين، لم يكن مقيداً بتوقيت معين لبدء أو إنهاء الحرب. لم يكن جزءاً من أي عملية تغطية، كما أنه كسر إحدى المحرمات باعتزافه على الملأ بأن الجيش لم يشتبك مع قطاع طرق أو إرهابيين، وإنما قاتل الشعب. إضافة إلى ذلك، كان لديه رغبة عارمة بأن يصبح رئيساً يوماً ما، ولم يكن لديه سبب لحماية رئيسه بلتسن من المهانة. لهذا اختار ليبيد الاستسلام، وقال: "لن نتكلم بعد الآن بلغة الإنذارات النهائية".

في 22 آب، وافق الروس على الانسحاب من غروزني والجبال والعودة إلى قواعدهم في خانكالا وسيفري. كان باستطاعة الشيشانيين استعادة جمهوريتهم. ثم

في 31 آب، التقى ليبيد ومسحادوف في مدينة كاسافيرورت على الحدود الشيشانية الداغستانية لحلّ عقدة غورديون التي يطالب الشيشانيون بموجيها بالحصول على الاستقلال. كان الاتفاق يسمح بإيقاف جميع النقاشات حتى يكون الطرفان مستعدين للحديث، ومنحوا أنفسهم مهلة خمس سنوات "حتى تنتصر الرؤوس الباردة" كما قال ليبيد. كانت الصيغة بسيطة وواضحة للغاية: لقد انتهت الحرب.

في البرلمان في موسكو، استقبل النواب ليبيد بصيحات بالاعار! وخائرا!. دخل ليبيد في معركة شتائم لاذعة مع كوليكوف، وكال الاثنان الاهتمامات لبعضهما، من إبرام صفقات مع المافيا إلى الخيانة العظمى. لم يكن ليبيد، الجسور جداً في الشيشان، مستعداً للعمل الملعّد في المشاكل الداخلية السياسية، ولم يكسبه قهره وهجمات المضادة المتفطرة إضافة إلى خطة السلام سوى المزيد من الأعداء.

في تلك الفوضى، كان الجميع بانتظار تدخل الرئيس يلتسن. كان الشخص الوحيد القادر على إصدار الأمر بتنفيذ خطة السلام، ووضع نهاية للحرب. لم يتفوه الرئيس بكلمة لضعفه بسبب الأزمة القلبية التي عانى منها ولقلقه من تزايد شعبية ليبيد في الأوساط الشعبية. في 17 تشرين الأول، ظهر الرئيس على التلفاز، وأعلن أنه طرد ليبيد بسبب تمردّه. لكن زخم الحرب تراجع بشكل حاسم، وبدأ الإمبراطور عارياً. بدت موسكو "فاسدة، وعاجزة، وغبية وغير مبالية" كما وصفها ألكسندر سولزيتسين، وأن ليبيد فعل الشيء الصحيح بإعلانه الهزيمة الكاملة. لم يكن هناك مجال للتراجع، وقبل يلتسن الخطّة مرغماً، وكان على وشك عقد سلام مع الشيشانيين أخيراً. في 23 تشرين الثاني، أي بعد حوالي سنتين من هجوم الدبابات على غروزني التي كان يسيطر عليها جوهر دودايف، قام الرئيس بتصرف غير مسؤول حين أمر بانسحاب كامل القوات من الشيشان.

لقد ربح الشيشانيون.

بودينوفيتش

عندما انتهت معركة غروزني، غادر الجنود الروس المدينة والجبال في أرتال من مئات المشاة والعربات المدرّعة التي تحمل الأعلام البيضاء، ورافقتهم سوارت جيب البوفيكس لتأمين سلامتهم. عاد الشيشانيون إلى قراهم بالحافلات، والشاحنات، وميولات الجيب،

والعربات المصفحة التي استولى عليها الرجال المبهجون، والتي تحمل أعلام الثور.

عبر الشيشان، كانت نقاط التفقيش والمواقع للدفاع الروسية، والتي كانت فيما مضى مليئة برجال خطيرين، وشجمان، وخلفين، وسكاري، ورحيمين وغاضبين، خالية تماماً. كان الحديد المصنّف الذي استخدمه المقاتلون كغطاء لمخابئهم منتشراً في كل مكان. أضحى سور الأسلاك الشائكة ضعيفاً، وبدأت الخنادق تتهاير ببطء. كانت الرسوم الموجودة على المعازل الإسمنتية الصغيرة تشير إلى الأمانة التي أتى منها وسيعود إليها الجنود: سامارا، موسكو، لينينغراد.

بالنسبة للوامين 205 و 101، لم يكن خزي تحميل القطارات بالقوات التي مستخرج من الشيشان على وشك الانتهاء. تم تشكيل هذين اللوامين خصيصاً لحماية للوجود الروسي الدائم في الشيشان؛ ولم يكن لديهما قواعد يترجعان إليها. بالنسبة لجنود اللوامين، لن يكون الأكارب القلقون بانتظارهم في محطات القطارات، ولن يجدوا فرقاً لحماية تعزف لهم، أو راحة القاعدة لتخفف من وطأة سقوطهم. حصلوا ببساطة على حقول فارغة في منطقة ستافروبول، وأخبرتهم قيادتهم بأن يقوموا بأفضل ما يستطيعون.

وصل اللواء 205 إلى بردينوفسك: حقل فارغ مليء بالخيم على أحد جوانبه، وأبلية غير منتهية على الجانب الآخر. لدى وصول الجنود في منتصف الشتاء، قام السكان المحليون بتقديم الطعام والملابس الدافئة لهم، ولكن سرعان ما تلاشى ذلك لترحيب الحار. فقد الجنود تضباطهم، وكان الانسحاب دليلاً على الاحتطاط. وفي غضون أسابيع، تحولت تسمية اللواء، بناءً على تورية في اللغة الروسية، من 205 إلى اللواء 200 الكبير.

قال مزارع يدعى فيكتور: "إنهم خفّة من قطاع الطرق. لقد جاء إلينا مرةً جندي سكيّر وبسيدة قبلية يدوية مما جعلنا نهرب جميعاً. استولى ضباطهم على فندق المدينة، وقللت لي فتاة تعمل هناك إتيها وجدت لغماً أرضية وقنابل يدوية على الأرض ولم تكن تعرف ما تفعله بها. لقد كانوا يشربون حتى الشمالة كل ليلة".

في موقع البناء، الذي كان من المفروض أن يصبح مربياً كبيراً قبل أن يستولي عليه الجيش، لم يكن هناك أي حارس عند البوابة الرئيسية وحسب، وإنما لم يكن هناك أحد يخبرني ليس تستطيع إيجاد الضباط. عندما دخلت لول مبنى وصلت إليه، التقيت برائد شاب على السلام. ولدهشتي الشديدة، كان لطيفاً للغاية معي، إلا أنني أدركت بعد ذلك أنه مثل للغاية.

اصطحبني عبر العمر، وتجاوزنا بعض المجندين الذين لم يبلغوا من العمر ما فيه الكفاية لحلاقة نفونهم، والذين كانت أكمال معاطفهم - التي تحمل طابع الحرب العالمية الثانية - إما طويلة أو قصيرة جداً عليهم. قال لي الرائد: "هنا"، وخرجت من الغرفة غيمة من دخان لغائف التبغ حالماً فتح اللهب. كان اثنا عشر ضابطاً يجلسون حول طاولة عليها

أطباق طعام لم ياكلوا سوى نصفه، وزجاجات، وكواب. كان بعضهم يرتدي المسترات الرسمية، وبعضهم في لباس خفيف، وآخرون يرتدون قمصان الجيش الداخلية ذات اللونين الأزرق والأبيض. أثار حضوري لبتاهجهم. وقال الرائد كما لو أنه يقيم تقريراً: "حضرت لكم ضيفاً من فرنسا".

حاول عقيد النهوض لإفصاح المجال لي للجلوس في مكانه، ولكنه ترنح في مشيته، واصطدم بستلفاز عندما كان يحاول الاستناد إليه، وبدأ جميع الضباط بالحديث إليّ معاً، وتنافسوا في سكب الشراب لي.

قال العقيد: "شرب المزيد من الفودكا. هيا! هيا! المزيد. إنه لا يخضع للجمارك". وقال ضابط آخر جلس على الجانب الآخر من الطاولة: "أعطوه بعض الشراب. هل تنوِّق الشراب؟ هل تنوِّق شرابنا؟".

قال شخص آخر: "ربما لا يحب الشراب. إليك، اشرب القليل من جيتا". كان الوحيد الذي يحمل سلاحاً بينهم مقمّم وسيم الهيئة وقوي البنية، ويجلس في الطرف المقابل لي، وممسك في قراب على كتفه. وقال بفخر: "أرى أنك تنظر إلى ممسكي. لقد قتمه لي وزير الدفاع. فنظر". سحب الممسك المعشو وأعطاني ياه. اعترض مقمّم آخر سبيله فجأة، وقام بإفراغ الممسك من الذخيرة.

سرعان ما فقد كل شخص منهم الاهتمام بي. غادر أحدهم الغرفة لينام، ودخل آخر فسي حديث عاطفي مع جاره. فجأة ارتاب العقيد بي وطلب رؤية أوراقي، وأخبرني أنني انتهكت الإجراءات الأمنية، ثم بدا كما لو أنه يعتني من فقدان الذكرة، وقام بإعادة بطاقتي الشخصية بلطف، وملاً قلماً صغيراً آخر من الفودكا.

فسي النهائية، كنت قلداً على التحدث مع أحدهم بمفرده. وسألت: ما الذي يحصل؟ وقال لي المقمّم صاحب الممسك: كان هذا اللواء فعالاً ويتمتع بخبرة كبيرة، إلا أنه أصبح لواءً مهماً الآن. لا يملك أي ضابط شقة، وفنوش في غرف كهذه، ونحن 72 ضابطاً مع عائلاتنا. إنه التناقص الروسي لأن الرجال الذين دفعوا عن مصالح الدولة في الشيشان لم يعودوا مرغوبين الآن. ولن نفهم هذا أبداً.

8. ثمن السلام

غروزي

كان انسحاب القوات يعني حرية الحركة. لم يعد هناك نقاط تفتيش، ولا لرتال عربات مدرّعة ودبابات تهدر على الطرق الممتدة، ولا حاجة للنظر إلى الأجواء بحثاً عن الطائرات. لا مزيد من مخيمات التنصّفة، أو الاختفاء دون سبب، ولا مزيد من القتل الليلي في شوارع غروزي. أصبحنا نستطيع قيادة السيارة أينما نشاء وحينما نشاء.

ومسط مشاعر الغبطة والارتياح، تمت إقامة حفلات الزفاف التي تم تأجيلها بسبب الحرب على عجل، وكانت قوافل الزواج، المكوّنة من سيارات مزينة بالورود والساجيد، تخترق القرى، وكان يتم إطلاق الرصاص لبتهاجاً في الحفلات. في الماضي، كانت البنات والمسدسات كافية، ولكن الضيوف يطلقون النار الآن في الهواء من الأسلحة الرشاشة. قال أحد الأصدقاء بعد حفل زفاف في غوديرمز: "لا بد أن الناس اعتقدوا أن الحرب بدلت مجدداً"، وكلفت القذائف للصاروخية لتطلق لتنفجر علانياً في السماء، حيث وقعت بعض الإصابات، وكان هناك حالات يحتفل بها الناس بالزفاف في أحد الأيام، ويخرجون في جنازة في اليوم التالي. ولكن الشيشانيين يحبون صوت إطلاق النار، ويستطيعون الآن هدر كل ذخيرتهم دون خوف: لقد ربحوا، وهم في غلبة للسعادة.

قال لي صديقي ملخشاريب مونبا: "أنتذكر أنك قلت مرة أن الحرب لا تستحق أن نستمر بها، لأن الثمن مرتفع جداً. نستطيع الآن التنفس بحرية ثانية، هذا ما كنا نقاتل لأجله، وقد كان يستحق ذلك".

في 27 كانون الثاني، أشرفت منظمة الأمن والتعاون الأوروبية على الانتخابات في الشيشان، والتي فاز فيها أصلاً مسخادوف بمنصب الرئاسة بأغلبية ساحقة، وتفوق على كل من شامل باسايف وزليمخان ياندربايف.

بعد خروج آخر جندي روسي، أصبح باستطاعة الشيشانيين تقرير مصيرهم بحرية للمرة الأولى منذ فوزى سنة 1991، وتحولت الانتخابات إلى عرس وطني. ازدهمت المراكز الانتخابية في كل مكان، وامتدت طوابير المصوتين طويلاً في الثلج، وتمّ تمديد وقت الانتخاب لساعتين لاستقبال الأعداد الكبيرة. قال أسودن، وهو رجل يبلغ 40 عاماً، فيما كان يستعد للتصويت لباسايف في ميخكتي وهي إحدى آخر القرى التي قصفها الروس قبل السيطرة على غروزني: "كان الناس يأملون بالحصول على شيء أفضل. لقد تعبوا من كل ما يجري، ويريدون بناء دولتهم". دُهِش خبراء مراقبة الانتخابات في منظمة الأمن والتعاون الأوروبية - التي كان يرأس بعثتها في غسروزني تيم غولدمان، الشجاع الذي لا يتعب - من حماس الشيشانيين والطريقة التي يتحدثون بها التوقعات بتزوير الانتخابات والعنف.

في خطاب قصير بعد انتصاره، صرّح مسخادوف: "الشيشان دولة مستقلة... وإن ذلك شيء ثابت. إن باقي العالم بمن فيهم روسيا، سيعترفون بهذا الاستقلال". بالفعل، فاز هذا الرجل البالغ من العمر 45 عاماً، والذي قاوم الجيش الروسي، في

انتخابات حرة بين أبناء شعبه. كان يجلس آنذاك أمام الصحفيين القادمين من كل أنحاء العالم، ويبدو مثل رئيس جمهورية صغيرة مدمرة، ولكن مستقلة.

رغم ذلك، لم يكن الشيشانيون قد حصلوا على الاستقلال الحقيقي بعد، وإنما مجرد تحذير مرير لوضع حدّ لحربهم. كان لديهم آنذاك استقلال واقعي، يسمح لهم بانتقاء قادتهم، والاحتفاظ بجميحتهم الخاص، ووضع قوانينهم الخاصة. ولكن الاستقلال الشرعي الكامل، مع مقعد في الأمم المتحدة، وسفارات واعتراف عالمي بحق الدفاع عن النفس، بقي بعيد المنال كما كان دائماً.

وفقاً لاتفاقية سلام كاسافورت، كان على مسخادوف التفاوض في غضون خمس سنوات، ولكن التحول من الحرب إلى التفاوض جعله معرضاً للانتقاد بشكل أكبر. رغم أن الشيشان كانت تمتلك أراضي زراعية غنية، ومصافي لتكرير النفط، ويتمتع شعبها بمهارات تجارية شهيرة، إلا أن الدولة المستقلة لن تكون قابلة للحياة إن لم يكن هناك تعاون اقتصادي من قبل روسيا. كانت الشيشان المدمرة تابعة بدرجة كبيرة لروسيا، وتحتاج لتعاونها في التجارة، والمساعدات، والخطوط الحديدية، والنقل الجوي، والطرق. عرضت موسكو تقديم تلك المساعدات، ولكن بشرط انضمام الشيشان إلى الاتحاد الروسي. فشلت موسكو في تخريب حركة الاستقلال الشيشانية، ولكنها حاولت استنزافها حتى الموت.

واجه مسخادوف أيضاً مشكلة حادة في المحافظة على النظام، ومحاربة العصابات الإجرامية المزودة بأسلحة ثقيلة، والتي عانت فساداً خلال خمس سنوات من عدم الاستقرار والحرب. في كانون الأول عام 1996، قُتل ستة موظفين من اللجنة الدولية للصليب الأحمر أثناء نومهم في المستشفى الذي افتتحوه في نوفي أتاجي، وطوال الشتاء اختطف الكثير من الصحفيين الروس، ولم يتم التعرف إلى الجناة أبداً، وادّعى العديد من الشيشانيين بأن اغتيال موظفي الصليب الأحمر إضافة إلى الكثير من الحوادث الأخرى التي تقوض من سلطة مسخادوف ومن سمعة الجمهورية في كل أنحاء العالم، كانت من فعل المخابرات السرية الروسية. كان إلقاء اللوم على الاستخبارات السرية سهلاً للغاية، وحتى في غياب التدخل الروسي، لم يكن مسخادوف قادراً على ضبط المجموعات المسلحة التي كانت مثل

الأبريق غير خاضعة لأي قانون. وأصبح الاختطاف، وخصوصاً الصحفيين، عملاً ضخماً. رغم ذلك، لم تكن المخاوف من محاولات المخابرات الروسية السرية زعزعة استقرار الشيشان بعد الحرب دون أساس. كان منع السلطات الانفصالية من فرض سيطرتها الكاملة على جمهوريتها طريقة واضحة لإضعاف موقفها على طاولة المفاوضات.

تمّ خنق أي إحساس شيشاني بالنصر نتيجة الكلفة المادية الهائلة للحرب. أعاد الشتاء الأول بعد السلام معه ذكريات تأبين الموتى إلى الأذهان، وتساقط الثلج على الأسطح المحطّمة، ومرت الرياح الباردة عبر الجدران الخشنة، وملأ الجليد الحقول التي لم يجرؤ أحد على عبورها خوفاً من الألغام الأرضية.

لا يعلم أحد بالضبط عدد الشيشانيين، الذين لقوا حتفهم أو تعرضوا للإصابة خلال 21 شهراً من القتال علماً أن عدد السكان يقارب للمليون، وفي نيسان 1996، قدّرت منظمة أطباء بلا حدود بأن 40.000 مدني لقوا حتفهم، وأعلن ألكسندر ليبيد بعد الحرب، بطريقته النموذجية التي تعتمد على الصدفة، بأن ما بين 80.000 - 100.000 شخص لقوا حتفهم، وهو رقم استخدمته السلطات الشيشانية أيضاً دون دليل مادي. كل ما على المرء فعله هو النظر إلى صفوف القبور الجديدة، بما فيها قبور المحاربين التي يتمّ تمييزها بلوح خشبي طويل، في كل مقبرة قرية ليذكر حجم المأساة. لا يمكن تحديد عدد البوفيكس الذين ماتوا على وجه الدقة، ولكن بسبب طبيعة القتال كانت خسائرهم أقل مما حلّ بالسكان المدنيين. وقدّر دبلوماسي في "منظمة الأمن والتعاون الأوروبية" الخسائر البشرية والمادية لمثل هذه المنطقة الصغيرة بما يعادل الخسائر السوفياتية المروعة خلال الحرب العالمية الثانية. كان كل شخص يعرف أحد القتلى، وبقي 1300 شخص في عداد المفقودين، الذين يُعتقد أنهم ماتوا جميعاً، أو اختفوا في نظام مخيمات التصفية.

يجب أن تكون خسائر الجيش الروسي ووزارة الداخلية معروفة بدقة، ولكن السلطات الروسية قدّمت معلومات متناقضة وغير كاملة في غالب الأوقات خلال الحرب، وكان هناك شك في صحّة الأرقام المقدمة عندما انتهت الحرب. قال ليبيد أنه في نهاية عام 1996، لقي 3826 جندياً حتفهم، وتعرّض 17.892 آخرين

للإصابة، وتمّ اعتبار 1906 جنود في عداد القتلى أو الأسرى. أعدّ ناشطون في منظمة ميموريال لحقوق الإنسان قائمةً في بداية سنة 1997 تشير إلى أن 4379 جندياً معروفين بالاسم لقوا حتفهم، وأن 1408 آخرين فقدوا خلال المعارك أو وقعوا أسرى، أو فروا من الخدمة. هناك اعتقاد بأن بضع مئات فقط من المفقودين ما زالوا أحياء.

قدّرت جماعة حقوق الإنسان المسماة *أمهات الجنود* عدد القتلى بحوالى 7000 قتيل، بينما أخرجني مصدر في وزارة الدفاع، والذي كان في موقع يمكنه من معرفة الحقيقة، بأن الخسائر كانت أقل من 10.000 جندي. وقال إن 5620 رجلاً من الجيش لقوا حتفهم، فيما تعرّض ثلاثة أضعاف هذا العدد للإصابة؛ وفقدت وزارة الداخلية حوالى 1800 - 2500 رجل، وفقدت الاستخبارات الروسية السرية وحرس الحدود وفروع أخرى من قوى الأمن بضع مئات أخرى.

لن يعرف أحد القصة الكاملة، وبعد وقت طويل من إبرام اتفاق السلام في الشيشان، ما زالت برادات الجيش في روستوف أون - دون جنوب روسيا مليئة بمحسّ جنود مجهولي الهوية، وما زالت ترد إليها جثث جديدة تمّ اكتشافها مؤخراً في مقابر جماعية في الشيشان. حتى بعد مرور عقد على انتهاء الحرب السوفياتية في أفغانستان، والتي استمرت عشر سنوات، ما زال الكثيرون يعتقدون أن الأرقام الحقيقية لعدد الضحايا - رسمياً حوالى 15.000 قتيل - لم يتمّ نشرها بعد.

كان توثيق الدمار المادي أكثر سهولة. تعرّضت مجمّعات تكرير النفط للتدمير بشكل رهيب، ورغم إمكانية إصلاح تجهيزات المرافق العامة، إلا أنها تعرّضت لقصف مكثّف في العديد من الأماكن بحيث لا يمكن تقديم سوى خدمات بسيطة. تمّ تفجير معامل إنتاج الإسمنت الضخمة في الجنوب، ولم يعد معمل المطرقة الحمراء للمعادن في غروزني ينتج سوى بالحّد الأدنى من طاقته، وتعرّضت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية للإهمال، أو هجرها مالكوها بسبب الألغام الأرضية. في غروزني، أتت السنون على المباني السكنية واحداً تلو الآخر، ولم تترك سوى الجدران الخارجية الخالية. تعرّض مركز المدينة للهدم بالجرافات، واختفت أحياء بكاملها مع منازلها وباحاتها الصغيرة مثلما اختفت قرى بأكملها في الجنوب. قدّر

ليبد عدد البيوت المدمرة بما يقارب 46.000، وحتى مع نهاية الحرب، بقي حوالي 300.000 إلى 400.000 شخص لاجئين، بمن فيهم الكثير من الروس الذين غادروا منازلهم أثناء حكم دودايف قبل الحرب.

تم إصلاح السدمار في بعض الأماكن بسرعة مذهلة، وعلى طول ضفة نهر أرغسون، كان هناك مئات البيوت المهتمة في نهاية عام 1995، وتمت إعادة بناء البلدة بالكامل تقريباً عند نهاية الحرب. لم يكن هناك من شواهد على الكارثة سوى بعض الأشجار المقطوعة والأغصان القصيرة البارزة مثل أصابع اليد. كانت مدينة أرغون محظوظة لأن القتال لم يستمر فيها سوى شهور قليلة في بداية الحرب. وسيطر اليأس على الأماكن الأكثر بعداً أو القرى التي استمر فيها القتال حتى النهاية.

في الوقت الذي تم فيه انتخاب مسخادوف، لم تعد سوى 10 عائلات فقط إلى باموت، وتحول باقي القرية، التي كانت موطناً لحوالي 6500 شخص فيما مضى، إلى أنقاض محروقة ومشوهة، ولم يجرؤ أحد على إعادة البناء بسبب الألغام الأرضية، وكان يتعرض أحد الأشخاص للقتل أو التشويه كل بضعة أسابيع. في أسفل إحدى منحدرات شوارع باموت، والتي كان البويفكس يستعملونها كقاعدة لهم، عرض لي أيوب خانزاتوف، الذي يبلغ من العمر 64 سنة، بقايا منزله. لم تبق سوى الأساسات فقط، وبقايا كرمه هشة كانت يوماً تشكل سقفاً فوق الباحة. في إحدى الباحات في نهاية الشارع، جلس المقاتلون يتكلمون مثل جندي أسمر بئس تحلى عنه جيشه، وقال أيوب: "لقد بنينا هذا منذ حوالي 40 سنة. وعمرى الآن 64 سنة، ولا أستطيع البدء من جديد". بدا حاكم باموت خنزاد باتايف أكثر يأساً مما رأيته خلال الحرب. وقال: "أصبح جامعنا - أكثر الأماكن قداسة - والذي بنينا بهتريعات القرويين خطاماً، وتم تفجير مقرتنا. إننا نستطيع أن نغفر لما فعلوه بالأحياء، ولكنهم دسوا القبور، وتحول عشرون بالمائة من القبور إلى خطام، أو تم تفجير جثث الموتى. الناس هنا مرهقون مادياً وبدنياً وذهنياً".

لم يكن هناك سكان في كل من أورخوفو، وستاري أتشخوي وزوئي، إضافة إلى أجزاء من ساماشكي والعديد من القرى التي كانت مزدهرة فيما مضى. في

ستاري أثنشوي، كان ليتش، وهو رجل يبلغ من العمر 40 سنة، يعمل مع أقاربه على أنقاض ما كان منزله. لم يكن هناك أحد آخر في القرية كلها، التي زرتها عدة مرّات خلال الحرب، ولم اعد أستطيع التعرف عليها الآن. قال ليتش: "لم يبق سوى غرفتين فقط، وإذا استطعنا بناء سقف جديد، سوف يستطيع بعضنا العيش هنا. المشكلة في الألغام الأرضية، فنحن لا نعرف مكانها أو كيف نتعامل معها، والشتاء قادم، وسيصبح الطقس بارداً، والناس متفرقون في كل مكان، في المهاجع، والحظائر، والخيام، وشقق الأصدقاء. والأسوأ من كل هذا هو عدد الأشخاص الذين فقدناهم، وشبابنا الذين ماتوا وهم يقاتلون ضد هذه الهمجية. ما السبب؟ ما أهمية هذه القرية الاستراتيجية؟".

أضاف: "يجب أن نكون متفائلين. لدينا أرض جيدة، وبأي حال، كيف لنا ألا نعود إلى بيوتنا؟ لقد عاش هنا والدي، وجدي أيضاً. وأسلافنا مدفونون هنا".

وجد العديد من البوفيكس صعوبة في التكيف مع زمن السلام، ولم يستطيعوا التأقلم معه: لا عمل، وغالباً لا منزل. كان لدى المقاتلين السابقين الأكبر سنّاً عائلات، ولكنّ المحاربين الشباب الذين لم يتزوجوا، والذين أبعدوا أنفسهم بالكامل عن المسؤوليات الدنيوية، كانوا بلا هدف. وتحول بعضهم إلى حراس شخصيين لأسبياد الحرب، أو للوزراء في النخبة الحاكمة الجديدة، وتحول آخرون إلى الجريمة أو سعوا إلى الحرب لملء الفراغ. سعى بعض المقاتلين للذهاب إلى طاجيكستان في آسيا الوسطى للانضمام إلى حركة المعارضة الإسلامية غير الشرعية في معركتها ضد الحكومة الشيوعية الجديدة والقوات الروسية التي تدعمها.

قال ماجومد، الذي يبلغ من العمر 17 سنة والذي قاتل في باموت، أنه يريد: "النهاب ومساعدة إخواننا المسلمين الذين أتوا لمساعدتنا، كالعرب. لقد اعتدت على الحرب لمدة، وهناك أماكن كثيرة للقتال". هرّ صديقه فاخا الذي يبلغ من العمر 18 عاماً، وإسلام الذي يبلغ 16 عاماً رأسيهما بالموافقة. كان الثلاثة ضعيفين جسدياً، ولم يصلوا إلى عمر يسمح لهم بحلاقة ذقونهم بعد. كانوا محبوبين ضمن مجتمعهم، ويجب أن يضع المرء في حسبانته أنهم ليسوا مراهقين عاديين. لم يكن هناك أي إشارة على ما يقولونه سوى في أعينهم، التي تنقد حيوية رغم الابتسامة

على شفاههم. يمكن القول من طريقة حمل لفائف التبغ واستنشاق الدخان بعمق إنهم تعلموا التدخين في الأوقات العصيبة.

وصف فاختا، الذي حارب أيضاً في باموت، احتراق مبنى الحكومة في غروزني أثناء معركة آب بأنه عرض مرح. وقال بسعادة: "كل ما تطلبه الأمر هو سكب النفط عليه، وإطلاق قذيفة صاروخية لإشعاله. قام ماجومد بما هو أبشع من ذلك، وقال ضاحكاً: "لقد أسرنا شخصاً من أصل روسي خارج باموت، وكان مدججاً بالسلاح، وعندما قبضنا عليه، أخبرنا بأنه كان يصطاد وأضاع الطريق، ولم يعتقد مطلقاً أنه في الشيشان يا له من عذر، لقد كان واضحاً أنه من القوات الموالية للروس، ولهذا قررنا قطع رأسه. أراد الجميع القيام بذلك، ولكنهم اختاروني لأنني كنت الأصغر، ولأنني قبضت عليه". ما زال يحتفظ بسكين طويلة أخذها من ذلك الرجل كدليل على النصر.

وصف طبيب في غروزني تأثير الحرب على الأطفال بقوله: "لقد أصبحوا أكثر عدوانية، وعصبية، وقسوة ووقاحة. وهم لا يحترمون الأكبر سناً، كما أن التواجد بالقرب منهم خطير. لقد أصيبوا بأمراض نفسية وأصبحت مشاعرهم مضطربة. كلما كانوا أصغر سناً، كلما كانت قدرتهم على الفهم أقل، وقدرتهم على النسيان أكثر. منذ أن يلفوا العاشرة من العمر، يشاهدون ويعرفون كل شيء، وسيتذكرون ذلك مدى الحياة".

وسألت عن ماجومد قاطع الرأس.

"لم يعد إنساناً. ولا يستطيع حل المشاكل سوى بالسلاح فقط. سيقضي بقية حياته على ذلك الحال، لا يمكن إنقاذه. لاحظت يدي الطبيب الروسي ترتجفان بشكل لا يستطيع التحكم فيه، وقال: "رجاءً، لا تسجل اسمي. أنا خائف".

بالنسبة للسكان من أصل روسي، كان انسحاب القوات الروسية يمثل الضربة الأخيرة لمجتمعهم الذي فقد الأمل بأي حماية من موسكو. لقد وصل عدد السكان من أصل روسي إلى 300.000 نسمة في جمهورية الشيشان - أنغوشيا السوفياتية، وكانوا يستحوذون على الأعمال المهمة وكل مراكز القوة، ويعتبرون غروزني مدينة روسية تاريخية. تحولوا الآن إلى سلالة بائدة لا يتجاوز عددها 30.000 نسمة

في المدينة. في كل القرى التي كان يقطنها سكان من أصل روسي على طول نهر تيريك، أصبح الجميع إما فقراء للغاية أو طاعنين في السن لا يستطيعون مغادرتها. بالتأكيد فإن دوكو زافغايف، الأثر الباقي من النظام السوفياتي، لن يعود أبداً، وقد تم تعيينه، بعد وقت قصير من اندلاع الحرب، كسفير لروسيا في تنزانيا، وهي نهاية مناسبة تماماً لقصته، وأهم ما فيها أنها بعيدة عن كنزال مواطنيه الساعين إلى الثأر.

قريباً من أنقاض الكنيسة الأرثوذكسية المحترقة في حي لانينسكي بروسبيكت في قلب غرورزي، كانت بعض النساء المسنات يعتنن بالكاهن، ويحافظن على مكان إقامتهن نظيفاً. في إحدى المرات التي كنت فيها هناك، ظهر قاطعا طريق شيشانيان في قمصان حريرية سوداء عند المدخل، وأرادا رؤية ساشا. حاولت ماريبا، وهي سيدة مسنة، إبعادهما، ولكنهما أصراً، وضحك أحدهما بوقاحة وقال: "لا تقلقي، لن نؤذيك، وإذا أردت المشاكل، سندخل بكل الأحوال". اغرورقت عينا ماريبا بالدموع فيما كانت تتراجع للدخول لإحضار ساشا، الذي تبين أنه شاب روسي يعيش في مجمع الكنيسة. قام بمنح الشيشانيين رزمة من المال، وانصرفا بعدها. لم أستطع معرفة ما يجري، ولكن ساشا سار مبتعداً وهو يبدو قلقاً. قالت ماريبا وهي تعمر جيئة وذهاباً أمام الموقع الذي سيكون فيه مذبح الكنيسة في حال كانت قائمة: "ليسمعهم الرب، وليحفظنا".

كانت نقطة التحول بالنسبة لي عندما استقالت العمة ناتاشا أخيراً من العمل، وتوجهت إلى روسيا بعد أسابيع فقط من نهاية الحرب. لطالما اعتنت هذه المرأة المسنة الثرثرة بي وبالعديد من الصحفيين الآخرين في كوخها الصغير في شارع غريوفيدوفا خلف السوق التجاري الرئيسي، والذي عاشت فيه كل حياتها. نجت تلك المرأة من الحرب بأعوبة دون أن تصاب بأذى، ولكن عدوانية الشيشانيين والرغبة بالثأر التي أعقبت الحرب كانتا كبيرتين جداً: أرادت تمضية سنواتها الأخيرة في سلام حقيقي، وأتخذت القرار الصائب. بعد عدة أيام من رحيل ناتاشا، سمعت بأن امرأة روسية تبلغ من العمر 72 سنة قد تعرضت لإطلاق نار، ولقيت حفتها في الجوار. لم يعرف أحد السبب، ولكن الجيران قالوا إنها كانت تملك "لساناً سليطاً"،

وأما جرحت كرامة شخص يحمل سلاحاً. كان ذلك ما يتطلبه الأمر؛ حياة الروس لم تكن تعني شيئاً لبعض الشيشانيين.

قال الشيشانيون إنهم لا يريدون إيذاء الروس المحليين، وأصرّوا على أن ذلك العدوان ليس منظماً أو واسع النطاق. وبالإشارة إلى ما حدث، كانت عدوانية بعض الشيشانيين مفهومة، ولكن بغض النظر عما يقوله المدافعون، كان ما يجري أكثر من مجرد عدوانية البعض، فلقد لقي الأبرياء حتفهم وتعرضوا للسرقة، والأسوأ أن أحداً لم يتدخل لإيقاف ذلك.

في مركز اللاجئين الروس قرب ستافروبول، جلست تاتيانا إيفانوفنا في غرفة تتسع فقط لخزانة وسرير، والتي اشتركت بها مع ابنها الذي يبلغ من العمر 8 سنوات. لقد هربت من غروزني في بداية الحرب، وأصبحت تعرف آنذاك أنها لن تعود أبداً بعد انتهاء الحرب. كانت تاتيانا، المتحدرة من أصل روسي مع وظيفة جيدة في جامعة غروزني، نموذجاً للمقيمين الروس: "لقد اكتشفت أن الشيشانيين انتقلوا إلى منزلي. ولا أحرؤ على الظهور أمامهم". بشكل مائل، لم تستطع أن تفهم سبب تمرد الشيشانيين. كان الاتحاد السوفياتي، بالنسبة لها، نموذجاً ناجحاً، وكان لكل شيء معنى في الأيام التي درست فيها الشيشانيين الأدب الروسي. "كان الوضع رائعاً من قبل، وكنت أذهب إلى فيدينو وشاتوي للتفتيش على المدارس. لغاية سنة 1985 أو 1987، كان الشيشانيون لطفاء للغاية معنا بسبب وجود سلطات صارمة، ولأنهم كانوا يخافون منا".

طوال شهر، رفضت موسكو التخفيف من موقفها المتعنت في المفاوضات - والذي ارتكز على إسقاط غروزني لمطلبها بالاستقلال - وتطلّعت الشيشان، التي عانت من الإهمال، إلى الخارج للحصول على المساعدة. حذّر وزير الخارجية الروسي ييفغيني بريماكوف عشية انتخاب مسخادوف بأن موسكو ستقطع العلاقات مع أي دولة تعترف باستقلال الشيشان. مع ذلك، كانت أول رحلة لمسخادوف بعد انتهاء الحرب لأداء فريضة الحج في نيسان 1997 بدعوة من الملك فهد. نتيجة لفصل الغرب يديه من المشكلة الشيشانية، لم يخف مسخادوف سعيه للحصول على المساعدات السياسية والمادية خلال لقاءاته مع الملك فهد والقادة

المسلمين الآخرين. دفعته السعودية لمن بطاقات الطائرات لحوالى 1000 شيشاني آخرين في لفنة كريمة وقفت في تناقض صارخ مع تعنت المفاوضين الروس.

لقد تمّ حصر الشيشان في الزاوية، وكانت عواقب ذلك كما دلّت التجارب وخيمة. حتى التخلّي عن الشيشان واعتبارها جمهورية نصف مستقلة وخارجة عن القانون كان خطراً. ستحول الشيشان المعزولة بالتأكيد إلى منبت خصب للمتشدددين الدينيين والسياسيين المسلحين. كانت حرية كامل شمال القوقاز الموضوع المفضّل بالنسبة لجوهر دودايف، ولم تكن مصادفة أن يكون فيدل كاسترو قدوة لشامل باسايف. بقي خطّاب، صديق باسايف العربي والمتشدد والخبير في حرب العصابات في الشيشان بعد الحرب، وتزوّج واشترى بيتاً وأسس معسكراً للتدريب. في الأحوال المناسبة: استمرار المواجهات والفقر واليأس، استطاع خطّاب أن يلدّق إسفيناً عميقاً ويدفع الشيشانيين الصوفيين المتساعجين إلى شكل آخر من الإسلام المتشدد الذي يكره الكافرين.

كما هي الحال دائماً، كان مصرع اللعبة في موسكو. تعاقب الرئيس يلتسن أخيراً بعد ثمانية شهور قاسية من المرض والعزلة السياسية، وعاد في شباط 1997 ليعيّن اثنين من الإصلاحيين الشباب: أناتولي تشوبايس، المعادي للحرب، حاكماً لمنطقة نيزني نوفغورود، وبوريس نيتمسوف كـنائب أول لرئيس الوزراء. وأحدث ذلك تغييراً هائلاً، فقد كان هذان الرجلان مهتمين بالاقتصاد وليس بالأيديولوجيا، ويسمح لهما عمرهما وخلفيتهما بنشر العقلية السوفياتية الإمبراطورية الجديدة. منح هذا التحوّل الليبرالي الذي طال الحكومة قوة دافعة لسكرتير مجلس الأمن المؤيد للسلام إيفان ريكيين الذي حل محل ليبيد، والذي كان يفضّل السياسة الواقعية الجديدة التي تركز على الاقتصاد، ولسخرية القدر، لم تكن اليد اليمنى لريكيين سوى بوريس برزوفسكي الصناعي البارع الذي ساعدت محطته التلفزيونية أو. آر. بي في إثارة الحرب منذ بدايتها.

كان وزير الداخلية أناتولي كوليكوف، الشبيه بكلب البولدوغ وآخر ممثلي فريق الحرب القديم، أحد آخر العقبات للدخول في مفاوضات حقيقية. زجر كوليكوف بعدائية وفعل كل ما بوسعه للاستخفاف بحكم مستحاذوف المضطرب

ومنع أي محادثات مستقبلية. عندما انفجرت قنابل في محطات قطار أرمافير وياتغورسك في نيسان 1997، أسرع كوليكوف في إلقاء اللوم على الشيشانيين، ولكن كانت هناك شكوك كبيرة بأن تنسيق أعمال العنف يتم من قبل الاستخبارات السرية في موسكو وليس في غروزني.

اقترح بيرزوفسكي على الملأ بأن كوليكوف: "لم يكتف من الحرب"، وأخير ريبكين وزير الداخلية بأن يتعد عن عملية السلام، وقال: "بغض النظر عن عدد النجوم التي يضعونها على أكافهم، يجب ألا يفتنق الناس بطموحاتهم".

ابتلع بوريس يلتسن، الذي يراقب كعاداته وزرائه المتناحرين من الأعلى، كبريائه ووقف إلى جانب الحمايم بطريقة درامية مباشرة، وليس بطريقة تجنب الخسائر القديمة. في 12 أيار، رحب يلتسن المبتسم بمسحادوف في الكرملين، وكان ذلك لقاها الأول على الإطلاق، ووقعاً على اتفاق سلام مكتوب يعد بالتخلي عن استخدام القوة أو التهديد بها. تم إرسال كوليكوف في رحلة عاجلة إلى أقصى شرق روسيا.

قرر يلتسن ومسحادوف أن تقوم علاقتهما، منذ ذلك اليوم، على أساس القانون الدولي. كان ذلك إعلان سلام بين رئيسي دولة متساويين - الأول في تاريخ القوقاز الروسي. وقال يلتسن: "الآن، ومع رئيس جمهورية الشيشان، نوقع اتفاقية سلام، وهي اتفاقية لها أهمية تاريخية لأنها تضع حداً لـ 400 سنة لطالما شهدت شكلاً من أشكال الحروب، والشك، والارتباب لشعب بأكمله". أخيراً، كان الرئيس، الذي أشار إلى جمهورية الشيشان، يكثر عن أخطائه الشيعة.

فتحت اتفاقية السلام - التي تفادت ذكر الوضع السياسي للشيشان - الطريق أمام رجال الأعمال للحديث عن تمويل إعادة إعمار الشيشان، ووقع المصرف المركزي الروسي اتفاقاً مع المصرف الوطني الشيشاني بمنح بموجبه الجمهورية استقلالها الاقتصادي، ويسمح لها بوضع سياستها النقدية والإشراف على نشاطات المصارف التجارية المحلية، وتم وضع خطة جديدة لإعمار الشيشان، والتي تقضي بأن تقوم المناطق الروسية وجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق بالاستثمار فيها مقابل شطب الديون المتوجبة لموسكو على تلك المناطق والجمهوريات، وما يثير

السخرية أن يكون خط أنابيب نقل النفط أزيوي، بمثابة غصن الزيتون لتحقيق اتفاق السلام، وهو الذي كان أحد الأسباب الرئيسية للحرب. فيما كانت الترتيبات الأخيرة تجري لضمان تدفق النفط من قزوين في أواخر عام 1997، كان مفهوماً لدى الاقتصاديين الجدد الأقوياء في الكرملين أن الطريقة المثلى لتأمين الطريق هي إبرام صفقة مع الشيشانيين. كانت المصالح الاقتصادية ضخمة. رغم أن رسوم نقل النفط الخام كانت ضئيلة نسبياً، إلا أن المسار النهائي لنقل النفط الرئيسي في القرن المقبل - عبر جورجيا أو الشيشان وجنوب روسيا - سيعتمد بشكل كبير على المسارات التي تم استخدامها في تلك المراحل الأولى. وفي النهاية، كان لدى الشيشان وجارتها الجنوبية قضية مشتركة.

بالطبع، لم تختف الرغبة في تجميد الشيشانيين كلياً، وأعلنت موسكو عن خطط لبناء خط أنابيب فرعي حول الشيشان، وقال كوليكوف إنه سيبنى حاجزاً عسكرياً على الحدود. لكن رغم اعتبار تلك الإجراءات بوليصة تأمين مطلوبة بشدة، إلا أنها كانت تخطر بخطر بعزل الشيشانيين، ولم يكن لها تأثير كبير على استتصال الإرهاب.

من تبعات اتفاقية الكرملين أن التقى ممثلون عن روسيا، والشيشان وجمهوريات شمال القوقاز الأخرى في منتجع كيسلوفوديسك جنوب روسيا في 31 أيار، لتوقيع بيان سلام إقليمي. عكس اللقاء إدراك موسكو المتأخر بأنه لا يمكن التعامل مع مشاكل شمال القوقاز بمعزل عن بعضها البعض، وأنه يجب وضعها في سياق سياسة إقليمية مشتركة. كان هناك استحسان لفكرة الشيشان بإنشاء منظمة تعاونية للأمن في القوقاز. أجمعت الشيشان روسيا، بعد خسائر مروعة من كلا الطرفين، على معاملة شعوب المنطقة باحترام.

لم تكن شهامة موسكو لتخرج خالية الوفاض. لقد ساهمت العدائية والحرب في إبعاد الشيشان عن روسيا، فيما قربت العلاقات الاقتصادية الجمهورية من موسكو. قال مسخادوف في أيار: "إن روسيا قوة عظيمة. إنها قرية متنا، ونحن اليوم مرتبطون بها اقتصادياً بكل الطرق. لهذا قد التزمت مع روسيا أكثر من الغرب والعالم الإسلامي".

موسكو

تشرين الثاني عام 1996. يرتدي أصلان مسخادوف آنذاك بذلة سوداء وربطة عنق بدلاً من الملابس المموهة، ويقيم مؤتمراً صحفياً في عاصمة عدوه السابق للمرة الأولى. أخذت لتساءل أين قابلت هذا الرجل من قبل: في قاعة للقصر الرئاسي، في الجبال، في الغابات، في منازل آمنة حيث يطلبون منك للتعريف عن المكان بأنه تحريرة في جنوب الشيشان. إنه الآن في فندق أربات في موسكو، تلمأ خلف برج وزارة الخارجية السوفياتي للطراز، ويقف إلى جانب موفلادي أودوغوف وأحمد زكييف. لقد انتهت الحرب بالنسبة لي.

يسأل أحد الصحفيين: أصلان مسخادوف! هل تشعر بأنك ربحت؟

يستوقف مسخادوف للحذر كالعادة، لعدة ثوانٍ قبل أن يتكلم، وبعدها يقول بصوته الهادئ: لم يكن هدفنا هزيمة الجيش الروسي. ونحن نعرف أن الجيش الروسي ضخم ولديه أسلحة نووية.

لقد حاربنا بكل ما أوتينا من قوة كي لا يبقى جندي روسي واحد على أرضينا، وكي لا يتعرض مواطنونا للقتل. واعتقد أننا حققنا ذلك.

البحث عن الفردوس

"جبال القوقاز مقنّمة بالنسبة لي. وفي عمر مبكر جدًّا!
في العاشرة! يا لذلك اللغز، سيبقى الفردوس المفقود محفوراً
في ذهني حتى مماتي".

ليرمونتوف

كل شئ فيفسك

طلب شيوخ الكاراشاي رؤيتي في المسجد. كان هناك حوالي 30 منهم يركعون على السجاجيد حيث أنهوا اللغو الناماز، وأرادوا سماع شيء عن الشيشان. ولم يكونوا يعرفون سوى الرواية الرسمية التي ظهرت في الصحافة. سألتني رجل ممن يرتدي قبعة صلاة: "لماذا ترسل الحكومة للطائرات لقصف شعبها في الشيشان؟".

"من على حق - أخبرنا فقط، من على حق؟".

"هل ما يقولونه على التلفاز حقيقي؟ نعتقد في بعض الأحيان أنهم لا يقولون نصف ما يجري هناك؟".

"هل صحيح أن مع المقاتلين الشيشان مرتقة أجانب؟ هل رأيت لياً منهم؟".

"أخبر كلينتون أن الناس الأبرياء يلغون حقهم هناك!".

أصبح تفهيس الغضب أكثر أهمية لهؤلاء الرجال من سماع أجوبتي، وشعرت أن باستطاعتي الانزلاق من المنصة التي أجلس عليها مع المفتي وأخرج إلى الشارع دون أن يشعر بي أحد.

فجأة، قاطع أحد الشيوخ، الذي كان واضحاً أنه يتمتع بسلطة إسلامية ما، ويعتمر قبعة لستر اخن عالية لجميع ليمألني: "كيف نعرف أنك لست من الاستخبارات الروسية المريبة، ولك لا تتجسس أو شيء من هذا القبيل؟ من أرسلك؟".

اعتقدت أنه يمزح ويضحك. ولكن كان هناك صمت.

قال المفتي الذي كان بجانبني: "دعه يرى لوراكك". طأطأت بظاهتي للصحفية للوردية اللون على الرجال الذين يجلسون للقرصاء حتى اطمأنوا. بدلت الأسئلة ثانية. "لماذا تحاول روسيا دائماً سحق الأقليات الموجودة فيها؟".

كيف يمكن إخضاع شمال القوقاز؟ أنت لا تستطيع أن تتغير العالم والقرون في ساعة واحدة. في يوم واحد، تقابل البطارية وقطاع الطرق، ورجال المافيا والرعاة، وهناك وجوه من الفخار الإغريقي القديم، ومقاطع موسيقية من تركيا. ولا يمكن إخضاع أي منها. إن شمال القوقاز قاعة من آلاف المرايا المشوهة، والتي تعكس كلاً منها صورة مختلفة، وقد نسي الناس منذ زمن بعيد التفريق بين الصحيح والمثوري.

أغلقت عيني وشاهدت الصور بأي ترتيب جاءت، وفكرت في قيادة السيارة عبر جبال داغستان، واستنشاق هواء المساء المنعش بين أشجار الحور وبساتين

المشمش، وحاولت التخمين عند كل قرية حجرية، وفي شوارعها التي تهب فيها الرياح، أي أمة تعيش هناك، ونادراً ما توصلت إلى استنتاج صحيح.

فكرت في أليك، الذي يعيش في شركسك مع أسرة تبدو كما لو أنه تم التقاطها عشوائياً من وعاء من المجموعات العرقية المختلفة. لقد كان شركسياً، وكانت طليقته أبحازية، وزوجته الجديدة من نوعاي المتحدرين من عشائر منغولية، وكان ابنه شركسياً - أبحازياً وعلى وشك الزواج من روسية. كانوا جميعاً يتحدثون عدة لغات ولهجات، ولكنهم يتكلمون الروسية عندما يكونون معاً.

أفكر في كيفية اضطراب القرون، وكيف يربت التاريخ على الكف عندما لا يتوقع أحد ذلك. لناخذ إليك كمثال مجدداً، لقد كان سائق تكسي، ولديه صف غير منتظم من الأسنان الصفراء، والنحبة، والمفقودة. أخبرني أن اسم عائلته بشن، والتي تعني بيت الملك، وقبل مجيء الروس بوقت طويل، كانت عائلته من الشراكس الملكيين. نتيجة لقبضة التاريخ، لطالما تمحورت الحياة في شمال القوقاز حول الحرب، وحروب قديمة وجديدة، وحروب تنتظر أن تبدأ، وحروب ما لبثت أن انتهت، ولكنها تحتاج لخوضها من جديد. بالنسبة لي، سأشعر دائماً بخوف شديد عند سماع صوت الطائرات النفاثة، وصوت الشيشاني المدافع عن شالي بمسدسه، وصيحة "الله أكبر" عندما كانت قذائف المدفعية تسقط حولنا، ورعدة النجاة من الموت، والبراري، وصوت الذكر في ملجأ مدينة ستاري أنشخوي، وصوت الأسرى الروس المحطمين في زنزانات مظلمة تحت الأرض، ومن الطريقة التي تبدو فيها الجثث البشرية كلها متشابهة، والرعب عندما يدرك المرء أن جثته لن تكون مختلفة.

قال البعض إن الحروب انتهت. في نادي فلاديفقاز لكرة القدم - الأفضل في روسيا سنة 1996 - كان هناك لاعبون من 14 جماعة عرقية في الفريق، وكان المدير بتراك بيتاروف يتحدث عن السلام. كان بيتاروف الأوسيتي واحداً من تلك الشخصيات اللطيفة التي تتعايش مع قسوة القوقازيين، وكان يضع كمية كبيرة من الذهب على معصيه، ويرتدي معطفاً طويلاً من الشاموا ووشاحاً حريرياً. قال لي: "أنظر! كابارد، ويونانيون، وجورجيون، ويهود، وأوسيتيون، وروس وجميعهم في نفس الفريق. أربع عشرة جنسية وكلهم سعداء، ولننس هذه الفوارق بين

القوقازيين والروس. لنعامل بعضنا البعض على أساس أننا مواطنون روس، وليس هناك شيء مثل شعب جيد وشعب سيئ - كلنا متشابهون".

لكن بيتاروف كان مخطئاً، لأنه في شمال القوقاز، وخاصة في أوسيتا الشمالية، ليس الجميع متشابهين، وتساهم الحروب في تذكر الناس بهذا جيداً. كانت منطقة بريغورودي على بعد أقل من ساعة بالسيارة من استاد بيتاروف حيث نمت الأعشاب الضارة بكثافة في أنقاض منازل الأنغوش. بعد انتهاء الحرب بأربع سنوات، لم يكن هناك أي أنغوشي في فريقه المتعدد الجنسيات.

لم يكن هناك أحد يشبه الآخر في شمال الشيشان. كان السكّان من أصل روسي هناك، والذين لم يستطيعوا الحرب، فقراء وخائفين. على طول الضفة اليسرى لنهر تيرك، حيث بنى أسلافهم الحصون، لم يتوقع أحد منهم أن الشيشانيين سوف يستولون عليها يوماً ما، ولم يكن الناس متشابهين في أدبيجي. شرح رجل أدبيجي عدم انتظام منازل قرية يقطنها سكّان من أصل روسي بالقرب من ميكوب بقوله: "الروس لا يكثرثون لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم بأن هذه الأراضي ليست لهم، وهم لا يشعرون بأنهم في وطنهم". عاش الروس في تلك القرية لما يزيد عن القرن، ولكن ذكريات أدبيجي تعود لأكثر من ذلك بكثير.

هناك أشياء كثيرة أخرى في شمال القوقاز غير الحرب مثل شرب عصير المشمش المنزلي في الشمس بعد السير في الحرّ، وتقديم الخبز للآلهة الوثنية في أوسيتا الشمالية. الشيشاني الذي أهداني قلماً مخادعاً له ريشة في إحدى طرفيه وقدّاحة في الطرف الآخر، ليمنحني السعادة، والذي لم يكن يعرفني إلا منذ عشر دقائق. ما زال لدى رسلان كريموف، الذي عاش في قلب غروزني طوال فترة الحرب، ما يكفي من حس الدعابة لتعليمي رقصة الليزينغا. امتطى أصلاً - يك، الطفل الذي يبلغ من العمر 10 سنوات والذي التحق إلى غروزني من باموت، حصانه دون سرج وجعله يعدو بسرعة فوق التراب، وقد أجبرته الحرب على النضوج قبل الألوان رغم أنه كان يمتلئ حيوية وطفولة. المظهر الخاطف للشمس وهي تسقط ضخمة وحمراء قانية فوق القوقاز، وأطفال الجبال اليهود الذين ينشدون أغاني عبرية في نالتشيك، ويشترون الكباب المصنوع من لحم الأغنام في

مكان ما في التلال، حيث يضعون قطع اللحم مع قطع البصل النيئة في علب لفائف التبن الفارغة، والتي يصبح طعامها أفضل مما قد يتخيله أي إنسان.

كان شمال القوقاز كالفردوس بالنسبة للروس الإمبراطوريين غنياً، وخصباً وذا موقع استراتيجي، ويحيط به البحر من جانبيه، كان وصول القياصرة إليه محتملاً. لكن ظهرت لعنة القوقاز فيما بعد: كيف يمكن حُكم مثل تلك المنطقة؟ كيف يمكن حُكم بريطانيا إذا كانت كل بلدة تسكنها أمة مختلفة وتتكلم لغة مختلفة؟ كيف يمكن حُكم الغير قابل للحكم؟ ومنذ الهيار الاتحاد السوفياتي، لم يكن معظم الروس يرون في شمال القوقاز سوى مصدر للمتاعب وقطاع الطرق، ولكن لم يعد هناك مهرب من المنطقة. لا يرتبط مصير شمال القوقاز بتصدير النفط عبر بحر قزوين وحسب، وإنما سيعتمد مستقبل الدولة الديمقراطية الروسية مستقبلاً في جزء منه على كيفية تطوير موسكو للعلاقات مع الجبلين.

هناك بعض الأمل، وفي الشيشان، قد يستطيع الإمبراطوريون الجدد تحقيق الانتصار الأخير، ونمحن روسيا الفرصة للخروج من الماضي. لا يبدو أن الناجين الروس، الذين ذهب أولادهم ليموتوا هناك، سيتعرضون للخداع مجدداً بادعاءات السياسيين إعادة النظام الدستوري. الأهم من ذلك، أن الحرب قد وصلت إلى حدّها. وقال موفلاي أوغودوف: "لقد كان ذلك نصراً عظيماً للجزء الديمقراطي الحقيقي من روسيا. لقد رفضت روسيا إبادة شعب، وقد يكون ذلك أعظم نصر لروسيا في القوقاز على مرّ التاريخ".

بالطبع، قد تكون الشيشان مجرد صدمة مؤقتة. دون تغيير في البنية السياسية التي صنعها الرئيس يلتسن، والتي يستطيع من خلالها الرئيس الذي يشبه القيصر اتخاذ قرارات هائلة لا تستند إلى حماسات أو توازنات، سيبقى الباب مفتوحاً للمزيد من المغامرات السياسية مثل الحرب القصيرة المظفّرة. لم يكن يلتسن طاغية بمحدّ ذاته، ولكن تعطّشه للبقاء في السلطة قاده إلى التصرف باستبداد، ولم يكن هناك شيء في النظام لإيقافه.

هناك أيضاً الجنود المجهولون المزرعون مثل الألغام الأرضية في الحقول الشيشانية. في مرحلة ما - سنة 2001 وفقاً لمعاهدة كاسافيرت - كان على

موسكو وغروزي أن تقرّوا الواقع السياسي للجمهورية، وبقي ذلك القرار قابلاً للمتفجر حتى في فترة الهدوء. لن يتنازل الكثير من الشيشانيين الذين قاتلوا وعانوا الأمرين عن الاستقلال الكامل، وإذا أصبحت الشيشان مستقلة، ما هو التأثير اللاحق لمثل تلك الخطوة؟ ورغم أن موجة من إعلان الاستقلال تبدو غير محتملة، ستظهر حتماً حوافز جديدة للمطالبة بحكم ذاتي واسع من قبل مجموعات مثل البالاكار. سيكون الإسلام المسلّح، وحرب أنفوشية - أوسيتية جديدة، وانغيار داغستان، ونشوء وحدات مسلحة للسكان من أصل روسي والتي تعمل كقوات أمن الدولة مجرد ضرور كامنة أخرى. ربما لن نجد تصريحات الكرملين الجريئة عن السلام سنة 1997 أي صدى في السنوات العشر المقبلة، وقد يقاتل الجيش الروسي، الذي يخضع لعملية إصلاح كبيرة، مع السكان من أصل روسي مجدداً.

في القرن التاسع عشر، وصف ليو تولستوي بطل الآفار الحاج مراد مثل شوكة وحيدة في حقن كامل نحت من المحراث، والتي ترفض الاستسلام لرجل دمر كل إخوانها من حولها. تمثل تلك الصلابة، فوق كل شيء، سحر الجبال وشعبها. يحترم كل العالم الناجين، ويساند الجميع ديفيد ضد العملاق. لكن هذا الإعجاب والاحترام يُخفي خلفه هشاشة ومأساة شمال القوقاز. من الممكن أن تكون شعوب الجبال صغيرة وقوية، ولكنها صغيرة بما يكفي أيضاً ليتم اضطهادها جماعياً، وصغيرة بما يكفي لتختفي من الوجود. في تحذير لجميع الجبلين، فإن آخر ممثل يوييخي مات في تركيا سنة 1992، بعد قرن من قيام الروس بإجبار شعبه على الخروج من شمال القوقاز. اقترف اليوييخ، المتحدرون من قبائل أديجي - الشركسية، خطأ بالاندماج الكامل في مكان نفيعهم، وعانوا في النهاية من انقراض لغتهم ببطء. وينفس الطريقة التي تآكلت بها معظم الأرياف الوعرة تحت ضغط السياح، تبدو قوة الجبلين عظيمة ولكنها محدودة.

بروخلانوي، كابلدينو - بالاكريا

خرجت من باموت عبر الغابات. وبعد أربع وعشرين ساعة، غادرت الشيشان كلياً ووصلت إلى بروخلانوي، وهي منطقة يقطنها سكان من أصل روسي في كابلدينو - بالاكريا، حيث يتسلق الثلج بلطف على تمثال لينين الكبير في الساحة الرئيسية. دعاني

نائب مدير محطة القطار إلى تناول شراب، وهو رجل مهم في هذه البلدة المحورية. وجاء ثنان من أصدقائه، واللذان كانا يرتديان ملابس شبيهة بتلك التي يرتديها زعيم الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف النشيط والبسيط، واللطيف والتمسك برأيه. لم أتفاجأ عندما سمعت أنهم سيصوتون للشيوعيين في الانتخابات البرلمانية القادمة.

قال فالنتين: "لقد سلم الجميع من الفوضى، وهم يحتاجون للانضباط". وأضاف بوريس: "لقد باعوا الشعب للروسي. وهم يمنحون الشعوب الاستقلال في كل مكان، بينما نحتاج للاتحاد، ونحن بحاجة للحزم".

يقول نيكولاي نائب مدير المحطة: "هذا صحيح، يجب أن نحارب النار بالنار هنا، ولنا أحب ما قلموا به في أميركا، فقد ثار السود، ومات بضع مئات منهم حرقاً، ثم هذا كل شيء بسرعة فائقة".

كان لكل واحد منا كاسان: ولحد للبراندي المصنوع محلياً في بروكلاندوي، والذي تجرعناه برشقات كبيرة، والآخر للشراب غير الكحولي لامتعيد نشاطنا. كان هناك انتخاب مطوكة، وبدأ رأسي بالدوران ولبتسماً جميعنا لبعضنا البعض. بدت الشيشان بعيدة، ولكني رأيت بين دورلت الشراب أحياناً ظلاماً وناراً مثل صدمات كهربائية صغيرة. ثم يسكب أحد ما نصف كأس آخر من البراندي.

عندما حان دوري لتقديم نخب، قلت: لأجل السلام في الشيشان. لقد أعجبهم ذلك، حتى عندما قالوا إن الشيشانيين مجرد قطاع طرق، وأن الشيوعية هي التي تستطيع الحفاظ على النظام. للمزيد من البراندي، والمزيد من الانتخاب، لأجل السلام بين جميع الشعوب في العالم، ولأجل صلاتنا. كان كل ذلك يبدو مقنعاً.

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com